جامعة الدول العربية
الإدارة الثقافية

دراسات تاريخية

في
النهضة العربية الحديثة

كتبها

الدكتور محمد بديع شريف
المستشار الثقافى فى السفارة العراقية بلندن

الدكتور زكى المحاسنى
عضو لجنة التربية والتعليم بدمشق

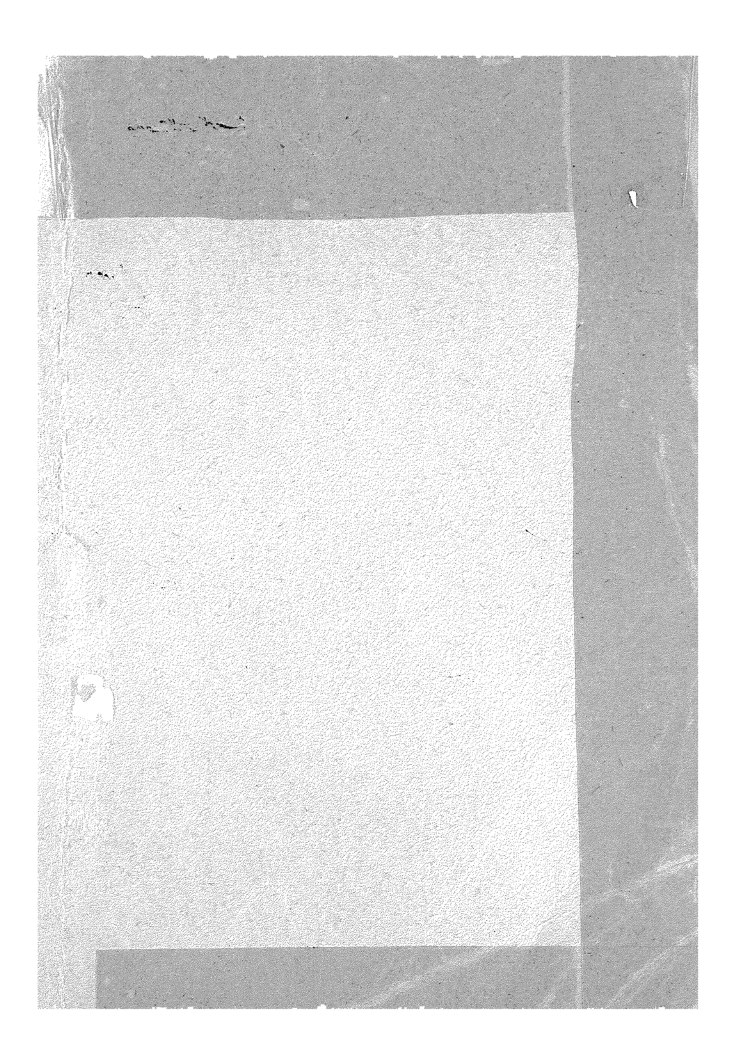
الدكتور أحمد عزت عبد الكريم
أستاذ التاريخ الحديث بجامعة عين شمس

وضع خطتها وقام بمراجعتها وترتيبها

الأستاذ محمد شفيق غربال
(مدير معهد الدراسات العربية العالية)



ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقاً)



جامعة الدول العربية
الإدارة الثقافية

دراسات تاريخية
فى
النهضة العربية الحديثة

كتبها

الدكتور محمد بديع شريف
المستشار الثقافى فى السفارة العراقية بلندن

الدكتور زكى المحاسنى
عضو لجنة التربية والتعليم بدمشق

الدكتور أحمد عزت عبد الكريم
أستاذ التاريخ الحديث بجامعة عين شمس

وضع خطتها وقام بمراجعتها وترتيبها
الأستاذ محمد شفيق غربال
(مدير معهد الدراسات العربية العالية)

موضوعات الكتاب

رقم الصفحة

رقم الصفحة

شرح خطة الكتاب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .

وبعد ، فإن اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية قررت في إحدى دوراتها الماضية أن أشترك والزملاء محمد بديع شريف وزكي المحاسني وأحمد عزت عبد الكريم في إعداد كتاب يبسط فصولا من تاريخ النهضة العربية على أن يفي بحاجة من يريد من الاطلاع من القراء .

وقد تبادل الزملاء الرأي طويلا في رسم خطة الكتاب ، واتفقوا على المبدأين الآتيين :

أولا : ألا يكون الكتاب رواية متصلة الجزئيات لأحداث التاريخ العربي الحديث محيطا بأحوال شعوب الأمة العربية في مختلف مواطنها . فإن هذه الخطة تقتضي من الحذف والاختصار ما ينقص من نفع الكتاب . ولذا فقد اختار المؤلفون أن يتكون الكتاب من عدد من الدراسات المستفيضة نسبياً . ثم رأوا أن تكون هذه الدراسات من نوعين : أحدهما عام ، يتناول فيه المؤلف الموضوع من ناحيته العربية العامة ، والآخر خاص ، يدرس فيه المؤلف النهضة في وطن عربي بالذات .

ثانياً : ألا تصب الحقائق والآراء في قالب واحد ، بل يكون لكل فصل كاتبه . ينظم حقائقه ويبدي فيها رأيه . فإن الكتب التي تتعدد فيها أشخاص المؤلفين لا تنال حظاً يعتد به من التوفيق إلا بقدر ما أفسح لهم من مجال في معالجة موضوعاتهم وفق ما يرون .

وعلى هذين المبدأين جرى العمل في إخراج الكتاب .

واستغرق قضاؤه زمناً أطول مما كان في الحسبان ، فالمؤلفون تشغلهم أعمال أخرى رسمية وغير رسمية ، وهم بعد أن جمعتهم القاهرة زمنا ما تفرقوا ، فنرجو من القراء المعذرة .

والآن وقد تم إنجاز المهمة . ولا نقول على الوجه الأكمل ، فالكمال لله وحده ، ولكن على الوجه الذى يرضى الحق والضمير ، فلم يكن للمؤلفين فى خلال الفصول إلا عدو واحد هو عدو العروبة ، ولم ينتصروا لحزب أو طائفة أو شعب ، بل الكتاب كله للعروبة ومن أجل العروبة . وهم وحدهم المسئولون عما أثبتوا أو لم يثبتوا فيما كتبوا .

محمد شفيق غربال

القسم الأول

الدراسات العامة

الفصل الأول

اليقظة الفكرية والسياسية فى القرن التاسع عشر

للدكتور محمد بديع شريف

موضوعات الفصل

(١) تمهيد — (٢) نواة اليقظة العربية بعد انهيار بغداد ، ابن تيمية — (٣) الممالك العربية والإسلامية بعد سقوط بغداد ، مكانة مصر فى السياسة والثقافة العربية ، نشأة الدولة العثمانية وعلاقتها بالأمة العربية — (٤) محمد بن عبد الوهاب وحركته الإصلاحية — (٥) حملة نابليون على مصر والشام — (٦) عهد محمد على ، أثر إبراهيم باشا فى سورية ، إبراهيم باشا والمدارس ونشر الثقافة وبعث القومية العربية ، محمد على واليقظة الفكرية ، المدارس ، البعوث ، الترجمة ، الطباعة ، النشر ، الصحافة — (٧) العهد الحميدى ، العلاقات بين الترك والعرب فى عهده ، استعانة عبد الحميد بالعرب — (٨) أثر مدحت باشا فى اليقظة الدينية ، مدحت باشا فى بغداد وفى سورية — (٩) عبد القادر الجزائرى ، (١٠) جمال الدين الأفغانى ، محمد عبده ، الكواكبى — (١١) الاستشراق والمستشرقون ، أمراء أوروبا ، راجار ، فردريك الثانى ، ملك قشتاله ، البابا سلفستر الثانى ، الرهبان وإقبالهم على الانتفاع بالتراث العربى ، البير ماجنوس ، روجر بيكون ، الجمعية الآسيوية البنغالية ، الجمعية الآسيوية فى باريس ، فى انجلترة وفى ألمانيا وفى غيرها — (١٢) أشهر المستشرقين ومؤلفاتهم ومؤتمراتهم ، مؤتمر استوكهولم وكتاب بلوغ الأرب فى أحوال العرب للعلامة محمود شكرى الألوسى — (١٣) الارساليات التبشيرية فى سورية ولبنان — (١٤) الجمعيات الأدبية ، الجمعية السورية والجمعية العلمية السورية ، الجمعية الخيرية ، جمعية المعارف ، الجمعية الخيرية الاسلامية فى مصر — (١٥) الصحافة — (١٦) حركات الإصلاح السياسية فى العهد الحميدى ، جمعية الاتحاد والترقى ، جمعية الإخاء العربى العثمانى ، مقاومة الاتحاديين للعرب — (١٧) المعارضة العربية ، الجمعيات العربية ، المنتدى العربى ، الجمعية القحطانية ، جمعية العربية الفتاة ، جمعية العهد ، حزب اللامركزية ، الجمعية الإصلاحية فى بيروت ، المؤتمر العربى الأول ، اتفاق العرب والترك — (١٨) العرب والترك عند وقوع الحرب العالمية الأولى ، الاتحاديون واشتداد فكرة القومية التركية (١٩) العرب والحلفاء ، إعلان الثورة العربية ، مكانة العرب فى الحرب العالمية الأولى ، عهود الحلفاء ، اتفاق سايكس بيكو ، وعد بلفور ، المقاومة العربية لنيل الاستقلال .



اليقظة الفكرية والسياسية
في القرن التاسع عشر

تمهيد

إن النهضة العربية ليست وليدة المفاجأة ، ولم تكن نابتة نبتت فى ذهن رجل أو رجلين عفو الخاطر ، إنها وليدة عمل متواصل لعدد كبير من الساسة والعلماء تفاوتوا فى الزمن والثقافة ، وعملوا فرادى وجماعات فى النوادى والجمعيات والمدارس والمساجد والأديرة والكنائس والكتب والصحف والمجلات ، وفى كل ذلك كانوا يستندون إلى ما يمليه عليهم محيطهم وإلى أمجادنا الأولى وينابيع ثروتنا التى خلفها آباؤنا الأولون ، تلك الثروة الهائلة التى تزخر بالقوة والعزة والتى كانت سخية تجود على كل ذهنية مبدعة تمر بها لتأخذ ما تشاء وتدع ما تشاء .

ويعد القرآن ينبوعاً من أجل الينابيع الذى يغذى هذه اليقظة ، إنه يضم بين دفتيه مجموعة من النظم والشرائع والمواعظ والحكم ، ونصوص الأدب . والحض لبعث الهمم . وإيقاظ النفوس ما يكفى لتكوين مجتمع مؤدب ، وفيه من أصول القوانين والشرائع ما يكفى لتكوين قواعد مملكة عادلة تستطيع أن تنظم هذا المجتمع تنظيماً يكفل لها السعادة والطمأنينة والإبداع وهذه الثروة القرآنية الثمينة منتظمة فى بيان رائع ولغة رشيقة بديعة ذات جرس ورنين ، إذا رتل ترتيلا جميلا أثار فى النفس بهجة وسروراً ، وبعث فيها العزة والقوة وملأها رقة وحناناً ، يرتله الخطيب على المنبر والإمام فى المحراب والقارىء فى المسجد والبيت والناشىء فى المدرسة والدار فتتجاوب أصداء آياته البينات فى سمع مئات الملايين من الناس ، تهذب النفوس وتفتح الآفاق لأذهان السامعين . وتسمو بهم إلى قوة سماوية فيها كل الأمل والرجاء ، وفى هذا الأمل معنى العزة والقوة والتطلع إلى الحرية .

ظل القرآن خالداً معززاً فى قلوب المؤمنين يدرس ويشرح فى المدرسة والمسجد ويتلى فى البيت والفضاء ، يقرع الأسماع بزواجر وعظه ويلطف النفوس بسمو

بيانه ، ويرتفع بالأرواح إلى المثل العليا من الأرض إلى السماء ، فحفظ أصول الثقافة العربية وصان لغـة الضاد من الزوال ، ولولاه لغلبت الرطانة على لهجات العرب فى بلادها المتنائية فى تلك العواصف العاتية التى اجتاحتها فى أزمان متعاقبة ، ولصار عسيراً على العراقى أن يفهم المغربى وعلى المصرى أن يفهم الشامى ، إنهم يتلاقون الآن فيتفاهمون بلغة قرآن عربى مبين يستمدون منه بلاغتهم وبيانهم ومنابع قوتهم وعزتهم .

والينبوع الثانى هو الحديث المأثور عن الرسول وهو فضلا عن أنه مجموعة من الأدب الرفيع فى صحيحه فهو شرح وتفسير وتأييد لما جاء فى القرآن فى أهدافه ومقاصده من حيث تهذيب النفوس ووضع الشرائع والقواعد التى تحفظ المجتمع من الانهيار .

والينبوع الثالث هو الأدب العربى والمأثور منه كثير فى نظمه ونثره ، وهو ما يزال أغنية الناس ومرجع الشعراء والأدباء .

والينبوع الرابع ، هو التاريخ ، فيه أمجاد هذه الأمة فى فتوحاتها وحروبها وسلمها ، فقد ركز الآباء أعلامنا على جبال البرانس وسواحل الصين . ونشروا لغتهم وثقافتهم فى ربوع العـالم ، يضاف إلى ذلك كله ما أبدعه العرب فى الثقافة والحضارة التى اكتسبوها بعد خروجهم من الجزيرة، وتأسيسهم تلك الامبراطورية الهائلة المترامية الأطراف ، فقد هضموا حضارات الأمم التى اتصلوا بها ودخل أهلها فى عقيدتهم فكان من ذلك كله حضارة عربية ذات طابع ثقـافى ممتاز قدمها العرب للعالم، فكان استيقاظ الغرب من نومه على قرع أجراس هذه الثقافة .

لقد ازدهرت ذخيرتنا فى العصر العباسى الذهبى، ثم ما لبثت أن هاجمتها الوثنية فى فرق الباطنية ومبادىء المانوية والمزدكية تعضدها الحركات السياسية التى حاولت قلب الدولة العباسية وإضعافها والانقضاض عليها لبناء دولة أخرى على أنقاضها ، وبذلك وقفت الحضارة العربية المتمثلة فى التوحيد أمام المانوية الوثنية المشككة التى تتدخل فى الأديان لتهدمها من داخلها ، وساعدتها على ذلك السبأية اليهودية المتمثلة فى التجسيم وتأليه البشر ، فنتج عنهما وعن أمثالها العودة إلى عبادة الأصنام ونشوء فرق الحلول والزهد والمبادىء المتحللة من القيود المضعفة للنفوس ، وكان ما كان من تمزيق رقعة الامبراطورية العباسية وانفلات الزمام من يد الخلافة العربية

التي كانت توجه العالم العربي والإسلامي إلى العزة والمنعة، ومن ثم التمهيد لانهيار بغداد، وتدفق جيوش التاتار يهدمون ويخربون ويجتاحون القرى والمدن والصحارى والأرياف، وهكذا صار هذا الجسم القوي المنيع أشلاء مبعثرة كل شلو بيد غاصب وناهب، وتفرقت الأقاليم إلى قوى مختلفة ضعيفة ينطبق عليها شعر المتنبي في قوله .

وإنما الناس بالملوك ، وما تفلح عرب ملوكها عجم

لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهـود لهم ولا ذمم

بكل أرض وطئتها أمم ترعى بعبـد كأنها غنم

هكذا تمزقت رقعة الخلافة إلى أقاليم يحكمها أمراء نابتون من الفرس والمغول والترك والمماليك ، ورغم هذا الضعف الذي استولى على السياسة العربية ، فإن تراثنا في القرآن والحديث والأدب ظل خالداً يحرس هذه الثقافة التي وإن كان قد أصابها الوهن فقد بقيت كامنة تنتظر من يأخذ عنها ويحيها ويجعل منها وسيلة لإقامة حضارة جديدة .

نواة اليقظة العربية

بعد انهيار بغداد

ابن تيمية

فى تلك الغمرة من تراخى النفوس وفتور الهمم والفوضى المنتشرة ، وعرام التاتار ظهر فى الثلثين الأخيرين من القرن الثالث عشر ومطلع القرن الرابع عشر (١٢٦٣ — ١٣٢٨ م) عربى من حران ثم بعد من دمشق ؛ أحمد بن تيمية . فر به أبوه وبأسرته من حران إلى دمشق خوفاً من وحشية التاتار ، فعكف وهو غلام صغير على دراسة الفقه فأتمها وهو فى سن العشرين ، واقتعد مكان أبيه بعد وفاته ، وشرع يفسر القرآن للناس يوم الجمعة من كل أسبوع .

كان هذا المصلح صافى العقيدة واضح الرأى ، وكان يصحب هذا الصفاء منطق سليم وفلسفة بصيرة بعلل الحوادث وأسبابها ، أخذ كل ذلك عن دراسة الفلسفة اليونانية والعربية ومدارسة القرآن وأصول الشريعة الإسلامية وفقه الحنابلة ، فلما نضج واكتمل ، رأى بعينه كيف تنخر فى هذه الأمة علل الماضى السحيق وتعتورها سيوف التاتار ، وما كان لهؤلاء أن يطمعوا فيها لولا ذلك الفتور الذى أصابها من جراء ما دس على مبادئها من مبادىء الباطنية وتعاليم القرامطة مما أثر عن مانى ومزدك وابن سينا .

جزع ابن تيمية مما أصاب قومه فاتجه إلى إيقاظ الرقود وبعث الهمم ، ومن عجيب أمره أن يلتفت إلى ما فى ثروتنا الثقافية فيتخذ القرآن مصدراً أولا للعون على إصلاحه ويجعل منه مادة موجهة ينير بها النفوس ويردها إلى صوابها ، ويعطفها إلى عقيدة التوحيد السامية التى ترتفع بالإنسان من عبادة الأوثان إلى عبادة الديان وتخلص به من رغام الأرض إلى آفاق السماء .

وجه ابن تيمية هجومه إلى خصوم العقيدة الإسلامية ، وإلى فقهاء عصره الذين جمدوا على التقليد ، وإلى الصوفية وأهل الزهد وإلى رجال الحكم الذين استبدوا

بالسلطان فأفسدوا السلطة،وكان مما أخذه على الباطنية مبدأ الإشراق الإلهى الذى كان ركناً ركيناً فى مبادئها ، ومعناه : «أن المعرفة تشرق على أئمتهم فقسموا بهم إلى مرتبة لا ينالها غيرهم ، أى إن الله يفيض عليهم نور المعرفة فتنكشف لهم الحقائق فيعرفون بواطن الأمور وظواهرها . »

ومن هنا صح لهم أن يقولوا إن الشرائع تلزم العامة دون الخاصة ، فإذا صار الرجل من عارفيهم ومحققيهم وموحديهم ، رفعوا عنه الواجبات وأباحوا له المحظورات ، وناهيك فى هذا ما فيه من التلاعب فى النظم والشرائع واستحلال قواعد الدين وأصوله.وقد تم لهم ما أرادوا واستطاعوا بهذه القاعدة أن يهدموا أركان العقيدة ، فهم يؤولون الصلوات الخمس بأنها معرفة أسرارهم ، وصيام رمضان يراد به كتمان أسرارهم ، أما الحج فلا يراد به إلا السفر إلى شيوخهم . والقرآن فى نظرهم له معنى باطن وظاهر . والباطن الحقيق هو الأصل لا يعرفه إلا الإمام الباطنى الذى يفيض الله عليه نور المعرفة فتنكشف له الحقائق .

وغلوا فى ذلك غلواً أدى إلى مبدأ الحلول وتفرقوا بذلك فرقاً ، فرقة تقول : إن الله حال فى كل مكان وفرقة تقول إنه حال بمعين ، كالحاكمية التى تقول إنه حل بالحاكم بأمر الله ، والحلاجية التى تقول إنه حل بالحلاج،ومنهم من يغلو فيجعل من البشر إلهاً ، وفرقة تقول بحلو له فى النسوان والمردان وبعض الملوك ، وما إلى ذلك من المبادىء التى تحطم المجتمع والأسرة وتذل النفوس وتجمع حول الدعاة جماعات الدهماء الذين يعيثون فى الأرض فساداً .

لقد صح لدى ابن تيمية أن هذه المبادىء هى التى أودت بالدولة العباسية وهيأتها للانهيار ، واستدل على ذلك بما فعلته فرقة النصيرية فى أيامه ،حيث أعانت التاتار على محو الإسلام ، فرفع قلمه وجرد سيفه وطلب من السلطان قتالهم وإبادتهم ورأى فيهم رتلا خامساً يدل العدو على عورات المسلمين، وقد أجابه السلطان إلى ما أراد فنكل بهم شر تنكيل .

رأى ابن تيمية بعض نتائج هذه المبادىء المتمثلة فى الشرك والتى استولت على قلوب العامة حيث أخذوا يسجدون للنصب وينحتون من الصخور أقداماً يدعون أنها للنبى أو كفوفاً ينسبونها إليه يطوفون بها على الناس يتبركون فيها أو ينصبون أصناماً يتقربون بها إلى الله زلفى .

هال ابن تيمية أن يرى أبناء مجتمع عصره يتدنون إلى الحضيض بهذه المبادىء الهدامة ، فحمل فأسه يحطم الأصنام كما حطم خالد بن الوليد اللات والعزى ، وكان عبدة الأصنام يفرون من وجه ابن تيمية إشفاقاً عليه وخوفاً أن يناله عقابها. فكان يبتسم ضاحكا منهم ويعجب لأمر هذه الأمة التى رفع التوحيد مكانتها إلى السماء ، كيف انحدرت بالشرك تتمرغ على أقدام الأحجار وتستنزل النصر من القبور .

أراد ابن تيمية أن يهذب النفوس ويبعث فيها العزة والقوة ويربطها بالسماء فكتب رسالة « الاتحادية » يدلل على رده فيها بالمنقول والمعقول .

نزه ابن تيمية الإله عما يريده به الضالون وأكد على عقيدة التوحيد بما جاء فى القرآن والحديث :

«ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة. ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » .

« أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء ، إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا » .

وقد صرح ابن تيمية فى مواضع كثيرة بما معناه : أن الإسلام جاء قوياً شديداً يملأ القلوب نوراً ويحرر النفوس من الذلة ، فحطم الأصنام وبعث فى الناس العزة والكرامة وساواهم وجعلهم إخوة وارتفع بهم من ذلة الأرض إلى عزة السماء ، لكيلا يتمرغوا تحت قدم صنم ولا يسجدون للنصب ولا يخشون عبداً من عباد الله مهما كانت منزلته ، فالخشية لله وحده والرابطة به وحده ، وفى هذه الرابطة المقدسة تعتز النفوس وتسمو الكرامة وتبدو الحرية مجلوة ، وفى ظلال الحرية المجلوة يبدع الإنسان فى عمله ويثق بنفسه وليس أحلى من الثقة بالنفس إذا كانت معتزة بعقيدة سامية، وهذه هى المثل العليا للأمم فى تكوين الفرد والأسرة والمجتمع . إذا كان الفرد عزيزاً عزت الأسرة وإذا عزت الأسرة عز المجتمع وإذا كان المجتمع عزيزاً عزت الدولة وصارت مرهوبة الجانب .

هذا ما كان يريده ابن تيمية لأبناء عصره الذى ذلت به النفوس وصارت هذه

الأمة نهباً مقسما يقتسمها الطامعون بعد أن كانت عزيزة الجانب . إن النفوس الضعيفة تتعلق بخيوط العنكبوت وتتشبث بأضعف الوسائل وتتمسك بالأوهام ، فأراد ابن تيمية أن يرتفع بها من ساحة الأوهام إلى الحقائق ، ويبدد سحباً مظلمة غشيت عيونهم فذكرهم بعقيدة التوحيد وجاءهم بآيات واضحات تحدد مكانة الإنسان بالنسبة لأخيه الإنسان وبالنسبة لخالقه ، لقد أوضح ابن تيمية أن التوحيد ميزة الأمم الراشدة العاقلة التى يصل بها منطقها إلى وجود قوة خارقة فوق الطبيعة وفوق الممكنات ، وفوق مقاييس البشر،هذه القوة هى رب قديم غنى عمن سواه لا شريك له فى الوجود وأن العباد مهما سمت منزلتهم لن يصلوا إلى الربوبية ولن تصح عبادتهم والتوسل إليهم ، إنهم عباد لا يضرون ولا ينفعون وإن الإنسان لن يسمو إلى منزلة الرب .

« وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله . »

فالقوة فى كشف الضر وإرادة الخير لن تكون لبشر ، وإنما تكون لله وحده ، ومن يلجأ إلى بشر فى رأى ابن تيمية فقد أشرك ومن أشرك فقد ضل ومن ضل فقد ذل،ومن يذل يسهل الهوان عليه ، هكذا أصاب الأمة ذلك الضعف حين عبدت الضعفاء واستكانت إلى الأصنام .

ولم ينس ابن تيمية فى إصلاحاته وصيحاته سياسة الملك فكتب رسالته «السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية» ، وجعل الإمارة قوام الأمة وواجباً من واجبات الدين لا يقوم إلا بها لأن المجتمع يقتضى ذلك فى رأيه ، ولأن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا يتم ذلك إلا بالقوة والإمارة ، ويراها ابن تيمية قربة يتقرب بها إلى الله ، فإن التقرب إليه بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات ، وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لابتغاء الرياسة أو المال بها ، وينكر الاستبداد على الإمارة واحتجان السلطان والمال،وينذر بما أنذر الله به عباده فى قوله ،« أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة وآثاراً فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق» ، وقال تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » .

ويعنى ابن تيمية بذلك رؤساء الدول الذين يستبدون بالملك ويفسدون فى الأرض ويقول عنهم إنهم شرار الخلق ، قال تعالى : « إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين » .

ويجب الإطاعة من الرعية والمشورة من الراعى ، قال تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » . وقال تعالى : « فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإن عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » .

وقوله تعالى : « وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون . »

وأولو الأمر الذين مر ذكرهم آنفاً صنفان عنده : الأمراء والعلماء وهم الذين إذا صلحوا صلح الناس ، فعلى كل منهم أن يتحرى ما يقوله ويفعله طاعة لله ولرسوله واتباع كتاب الله ، ومتى أمكن فى الحوادث المشكلة معرفة ما دل عليه الكتاب والحديث كان هو الواجب وإن لم يمكن ذلك لضيق الوقت أو عجز الطالب ، أو تكافؤ الأدلة عنده أو غير ذلك فله أن يقلد من يرتضى علمه ودينه .

فى هذا ترى ابن تيمية يؤاخذ علماء عصره على الجمود والتقليد ويحثهم على الاستنباط والتشريع الذى يوائم الزمن حيث يرجعون فى استنباطهم إلى معرفة ما دل عليه الكتاب والسنة فإن أعيتهم الحيل فلا بأس عنده من الأخذ برأى الغير .

ويفتتح ابن تيمية هذه الرسالة بأداء الأمانات ويقسمها قسمين ، يدير بأحدهما الولاية وبالثانى الأمانات من الأموال ويبدأ الحديث بالقول المأثور : « من ولى من أمر المؤمنين شيئاً وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله .

ويقول : قال عمر بن الخطاب « من ولى من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلا لمودة أو قرابة بينهما . فقد خان الله ورسوله والمسلمين » .

وبذلك يحارب ابن تيمية المحسوبية ولا يريد للولاية إلا الكفء القدير

المستحق للولاية الذى ينوب عن الخليفة أو السلطان فى الأمصار لكيلا يستذلوا الناس ولا يحكموا بالعدل بينهم ، والولاية عنده أمانة بدليل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون . » وينصح ابن تيمية أولى الأمر أن يختاروا الأمثل فالأمثل فى كل منصب ، وإذا فعلوا ذلك بعد التحرى والتدقيق فقد أدوا الإمارة حقها وقاموا بالواجب .

ويستمر ابن تيمية فى هذه الرسالة ، يفصل واجبات الإمارة وواجبات الولاة وواجبات الرعية حتى يستوفى الموضوع كله فيما يحتاج إليه عصره ويفصل بعد ذلك الحقوق والواجبات ويعين الحدود وصلات الناس بإمامهم وخالقهم وبأمثالهم من الناس ، يستمدون ذلك من القرآن والحديث وأقوال السلف الصالح . وموجز القول ما ترك هذا العربى المصلح باباً من أبواب الفساد فى أيامه إلا أوصده ووقف قلبه وسيفه ولسانه للخلاص منه .

لقد صادفت ابن تيمية صعاب فى حياته ، وضعها الدجالون فى طريقه، ولكنه صمد لها وأخرج للناس آراءه الجريئة فى وقت عز على الرأى الصريح أن يخرج ، وهكذا ظلت آراؤه خالدة تنتقل فى مطاوى الزمن تستنهض الهمم وتستحث النفوس لإعادة مجد العروبة الأول، فى أيام السلف الصالح وبعث العقيدة خالصة من شوائب البدع . لقد استعذب ابن تيمية السجن فى سبيل رأيه الصريح وذاق الهوان والجوع والألم والمرض شأن كل مصلح . بقيت آراء ابن تيمية مطوية من بعده حتى أخذها تلميذه ابن القيم وسار على نهجه فكتب وألف وظلت تعاليمهما معاً تنتقل فى أصلاب الزمن من طور إلى طور حتى وجدت من يأخذ بها ويتخذها مصدراً لليقظة والنهضة. لقد حدث المؤرخون أن ابن تيمية صنف خمسمائة مؤلف . ولم يصلنا منها إلا النزر القليل مما لا يتجاوز نيفاً وستين كتاباً ، ولكنها على قلتها تبعث الهمم وترفع جبين الفكر العربى فى مثل ذلك الزمن ، وصارت فيما بعد موئلا للمصلحين ومنهلا لهم ، أمثال محمد بن عبد الوهاب وجمال الدين ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى ، وسنذكر ذلك مفصلا فى موضعه .

الممالك العربية والإسلامية بعد سقوط الدولة العباسية

مكانة مصر فى السياسة والثقافة العربية

نشوء الدولة العثمانية وعلاقتها بالأمة العربية

بلغت بغداد ذروة المجد ما بين أواسط القرن الثانى وأواسط القرن الثالث من الهجرة ، ثم ما لبث أن أخذ الضعف يزحف على أطراف الامبراطورية ويهددها من داخلها ، فطفقت الأطراف تتقلص وتنفصل إلى إمارات ودويلات صغيرة ، وشرعت عاصمة الخلافة تتأرجح بين القوة والوهن ، والصوت العربى يعلو تارة ويخفت أخرى ، والسلطة تنتقل بين حين وآخر من يد الخليفة إلى موالى الفرس ، ومن موالى الفرس إلى الخليفة ، ومنه إلى موالى الترك ، ومنهم إلى غيرهم ، وقد بلغ ضعف الخليفة منتهاه أيام البويهيين (٣٣٤ — ٣٤٧) واسترجع الخليفة شيئاً من مكانته حين انتقل زمام السلطان إلى يد السلجوقيين (٤٤٧ — ٥٩٠) ، ثم ما لبث أن أفلت من يده إلى السلجوقيين أنفسهم ، وعادت تارة أخرى أيام المسترشد والراشد والمقتفى وبلغت الذروة أيام الخليفة الناصر لدين الله (سنة ٥٧٥) الذى قضى على سلطان السلاجقة عام (٥٩٠) قضاء تاماً وأعاد هذا الخليفة الذكى لبغداد بعضاً من مجدها ، وكادت أيام العباسيين الزاهرة تعود إلى زهوها لولا تربص المصائب بهذه الدولة . فقد نشأت فى هذه الفترة من الزمن دولة للتاتار فى أواسط آسيا بزعامة رئيسهم جنكيزخان واشتدت مرتها ، وكانت الدولة العباسية قد أخذت تتأرجح بين القوة والضعف تارة أخرى . وازداد الضعف أيام ولى الأمر المستعصم ، حيث كثرت الفتن والقلاقل وتغلب الموالى والمماليك على سياسة البلاط ، وطلعت رءوس الناقمين منهم وقلت موارد الدولة ، وصرف المستعصم جنده لقلة الموارد واقتصاداً بالنفقات ، فى هذه الحيرة الرابكة الآخذه بزمام الخلافة كان المغول يجمعون جيوشهم ويتأهبون للاستيلاء على البلاد الإسلامية وعلى عاصمة الخلافة . وهكذا زحف هولاكو بجيش لجب لا يبقى ولا يذر ، وقد محى فى طريقه جماعة الباطنيين والإسماعيليين الذين أتعبوا الدولة العباسية وأنهكوا قواها

وتقدمت جيوشه إلى بغداد لتصفية عقيدة التوحيد والإتيان على حضارة العرب . ولما أصبح على أبوابها أرسل إلى الخليفة يطلب منه الطاعة فأبى أكثر الناس ، عند ذلك صمم قائد التاتار على فتحها عنوة فحاصرها وشدد عليها الحصار . وبعد حصار دام سبعة عشر يوماً خرج وزير البلاط العباسي المولى مؤيد الدين بن العلقمي وسلم مفاتيح الأبواب لسيد المغول،فانحدروا إليها من كل مكان،وبدأت عساكرهم تفتك بالناس قتلا ونهباً وحرقاً وقتلوا الخليفة واستأصلوا أهل بيته إلا ولده الصغير وأعملوا السيف فى أبناء بنى العباس لا يستثنون امرأة ولا طفلا ولا شيخاً كبيراً وهكذا أضحت زهرة بغداد الناضرة غشاء أحوى ، وأسدل الستار على قوة الدنيا والدين .

دخلت بغداد فى سيطرة المغول، وصار العراق جزءاً من امبراطوريتهم الممتدة من حدود الهند شرقاً إلى حدود سوريا غرباً . وبذلك وقعت بلاد العرب وأجزاء الامبراطورية العباسية تحت حكم المغول والترك والتركمان والفرس ، وكانت بلاد العراق وفارس والجزيرة إلى حدود سوريا غرباً قد تناوب على حكمها المغول والترك والفرس والتركمان .

وكانت قبيلة تركية جاءت من أواسط آسيا وحطت رحالها فى آسيا الصغرى، وصارت إمارة من الإمارات التابعة للدولة السلجوقية،أخذت مرتبها تشتد وموقعها الجغرافى يساعدها على هذه الشدة والقوة حتى تكونت، فكانت الدولةالعثمانية وزاد من مكانتها متاخمتها للامبراطورية البيزنطية . أما مصر والشام فكانت تحت حكم الأتراك والشراكسة المماليك . وكانت الأندلس قد بدأت تجنح إلى الزوال وأخذتها سيوف الأسبان من كل مكان . فصار ما وراء مصر غرباً من تونس والجزائر ومراكش إلى دويلات صغيرة يحكم بعضها العرب وبعضها الآخر البربر .

وظلت اليمن عربية خالصة بعيدة عن حكم الأعاجم .

وفى اضطراب العراق فى الشرق والأندلس فى الغرب ، أخذت القاهرة زعامة الثقافة العربية وشاركتها دمشق ، فكان الأزهر موطن دراسة القرآن والحديث والأدب .

لقد حفظت مصر تراث العربية الذى خلفه الأولون،وحماه صلاح الدين الأيوبى واستلمه المماليك البحرية والشراكسة الذين أولعوا بالعلوم، فنشأ فى ظلهم عهد زاهر

أجدر به أن يسمى عهد الموسوعات التى أبرزها كتاب صبح الأعشى للقلقشندى، وكتاب لسـان العرب لابن منظور . ونهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى، وكتاب مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، وكتاب حياة الحيوان الكبرى للدميرى، ومؤلفات جلال الدين السيوطى ورسائله فى الحديث والتفسير والفقه والتأريخ وعلوم اللغة . زد على ذلك ظهور فطاحل المؤرخين والكتاب والعلماء فى الطب والرياضة والطبيعة وفنون الحرب والفروسية ؛ وقد كانت القاهرة ميداناً واسعاً لتعاليم ابن تيمية الذى فصلنا فيه القول آنفاً ، والذى تولى مناصب التدريس فى الأزهر، ومناصب الدولة فى ظل السلاطين، وكانت مجالا كبيراً لآراء ابن خلدون صاحب المقدمة التى لم يظهر مثلها لمؤلف عربى من أبناء عصره من حيث العمق فى التفكير وإصابة الأحكام وتحقيق الحوادث . ولقد لعب دوراً مهماً فى السياسة وألقى دروساً قيمة فى الجامع الأزهر وعينه الظاهر برقوق قاضياً للمالكية عام ١٣٨٤ وفى عام ١٤٠١ صحب السلطان الناصر إلى دمشق مع بقية القضاة فى حملة على تيمور لنك، وتوفى بالقاهرة وهو فى منصب القضاء .

وبينما كان نفوذ المغول يتغير مداً وجزراً كان سلطان الدولة العثمانية يزداد قوة يوماً بعد يوم .

الدولة العثمانية والتفكير فى بلاد العرب

كان أول حادث جلل قامت به هذه الدولة الفتية انقضاضها على الدولة البيزنطية الهرمة المتاخمة لها . وأخذت تهزمها فى كل الميادين حتى فتحت القسطنطينية، واكتسحت شبه جزيرة البلقان . ولم يقف العثمانيون إلا على أبواب فينا . وكان العالم الإسلامى المضطرب ينظر إلى هذا النصر الذى تحرزه كل يوم دولة فتية مسلمة نظرة ملؤها الاحترام والإكبار . وكان العثمانيون قد أصبحوا ينظرون إلى أنفسهم نظرة حامى العقيدة الإسلامية . وبين هاتين النظرتين نبطت فكرة التوسع فى مخيلة السلطان سليم، فتقدم إلى سوريا يريد فى طريقه مصر وفى الغرب من حلب عام ٩٢٢هـ، ٢٤ أغسطس سنة ١٥١٦ التقت جيوشه بجيوش الغورى سلطان مصر .

وبعد معركة قاسية عنيفة تغلبت جيوش العثمانيين على جيوش مصر، فكانت معركة فاصلة ضم بها العثمانيون سوريا ومصر والحجاز إلى دولتهم ودخل السلطان

سليم مصر ظافراً، وأرغم الخليفة العباسى على النزول عن الخلافة لآل عثمان. وبذلك أسدل الستار على آخر صوت عربى فى القضية الإسلامية .

وأصبح سلطان العثمانيين حامى العقيدة وحامى الحرمين الشريفين وخاقان البرين والبحرين وغير ذلك من الألقاب التى تلقبوا بها ، وأصبح يخطب لهم بها على المنابر .

وفى معارك قاسية عنيفة بين العثمانيين والصفويين الذين كانوا يحكمون بغداد ضمت الدولة العثمانية العراق إلى أملاكها، وصارت بغداد ولاية من ولاياتها . وفى منازلات متعددة بين أسطولهم وأسطول الأسبان استطاع العثمانيون أن يضموا إليهم تونس وطرابلس الغرب ، ثم التحقت الجزائر بهم طائعة مختارة دون حرب وظلت اليمن بعيدة عن تأثير السلطة العثمانية القوية ، وكان نفوذ الأتراك الضعيف يتغير تبعاً لقوة الحكومة التركية وضعف إمام اليمن . وبذلك كله أصبح سلطان الأتراك يمتد على بلاد العرب من حدود مراكش غرباً يستمر فى سلسلة منتظمة على الشواطىء الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط حتى يصل إلى البحر الأحمر حيث يستقر عند الخليج الفارسى ، ويضم إلى ذلك سوريا والعراق والحجاز ونجد واليمن .

وظل العرب مخلصون للأتراك ويعتبرونهم حماة الدين ويستظلون بظل الخلافة ، واشترك العنصران فى الحرب والسلم ضد الأعداء ، وتولى العرب مناصب الدولة الكبيرة ، وكانوا يؤلفون الجزء الإسلامى الأكبر فى مجموعة الدولة ، وهم راضون مطمئنون حتى حدثت أحداث جليلة أخذت تغير مجرى التاريخ وتفتح له صفحات جديدة .

محمد بن عبد الوهاب

وحركته الإصلاحية

١٦٩٦ - ١٧٩١

تعتبر حركة محمد بن عبد الوهاب أول حادث جليل هز حبل الارتباط بين الدولة العثمانية والبلاد العربية .

لم يعلم ابن تيمية ذلك المصلح العظيم، الذى أيقظ العقول وبعث الفكر العربى الأصيل فى أوائل القرن الرابع عشر، أن الله سيهيىء لتعاليمه رجلا فى قلب الصحراء العربية اسمه محمد بن عبد الوهاب يحى هذه التعاليم ويعمل على تحقيقها .

ولد محمد بن عبد الوهاب على أحد الأقوال عام ١٦٩٦ وعاش خمسة وتسعين عاماً فتكون وفاته عام ١٧٩١ . نشأ فى بلدة تسمى عيينة من أعمال نجد ، ودرج فيها على أيدى فقهاء الحنابلة، ثم رحل إلى مدينة الرسول ليتم دراسته فيها . فلما عض على قارحة الكمال حمل عصا التسيار، وشرع يطوف فى أرجاء العالم الإسلامى فوصل البصرة وأقام بها، ثم تركها إلى بغداد وأقام بها . وكان مجموع الإقامتين بالعراق تسع سنين ، ثم ذهب إلى كردستان وإلى همذان وأصفهان ، فألقى عصا التسيار فدرس فلسفة الأشراق والتصوف . وذهب إلى قم ومنها عاد إلى بلاده وانزوى فى داره مدة من الزمن ، وخرج بعد ذلك إلى الناس يدعوهم يبشرهم وينذرهم ويستهزىء بالأفعال الوثنية المنتشرة فى العالم الإسلامى ، ويدعوهم إلى التوحيد وإلى حكمة « لا إله إلا الله » يستدل بالقرآن والحديث ، ويشرح أدلته شرحاً وافياً يحاول فيه صدق الحجة والإقناع .

لقد أدرك ابن عبد الوهاب سر انهيار الأمة ، ووجد كما يقول مفتاح السر فى تبديل العقيدة : إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

لقد وجد التوحيد الذى هو مزية الإسلام الكبرى قد أصبح تحيط به الأشواك

وتأشب حوله الأدغال بما تركته المانوية والمزدكية والباطنية والقرامطة والسبأية من آثار امتد بها الزمن وطال، حتى تمكنت من النفوس واستقرت فى قراراتها، بحيث أصبحت عقائد لا يمكن تحويل الناس عنها، ورأى الأوثان والأصنام التى حطمتها عقيدة التوحيد قد عادت ثانية فصدع بقوله تعالى: «اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً». «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء».

ولهذه الدعوة سمى هو وأتباعه «بالموحدين»، والوهابية نسبة إليه وليست مذهباً جديداً فى الإسلام. وغاية ما فى دعوته الرجوع إلى أصول الإسلام الصحيحة.

لقد عكف بن عبد الوهاب على كتب ابن تيمية يدرسها ويكتبها حتى خرج على الناس بهذه الروح السامية التى تسمو بهم من الأرض إلى السماء. فقد ذلت نفوس القوم ذلة جعلتهم يتعلقون بالأرواح والأشباح، ويجدون فى الشجر والحجر والنعال والأضرحة وسيلة للرزق والتداوى من العلل، وأمكنة للتوبة من الذنوب وما إلى ذلك مما يجعل لله شركاء فى الأرض، وناهيك ما فى ذلك من ارباك فى المجتمع وتفتيت لنظمه وقواعده الأساسية.

وأضاف ابن عبد الوهاب إلى دعوة التوحيد دعوة أخرى قوامها الإبداع فى التشريع وإطلاق باب الاجتهاد على مصراعيه لكل مقتدر عليه مستوف لشروطه، لأن الله وحده هو الذى يحلل ويحرم، وعلى ذلك فكلام المتكلمين فى العقائد، وكلام الفقهاء فى التحليل والتحريم ليس حجة علينا.

والحجة الوحيدة هى فى القرآن والسنة، منهما تستنبط الأحكام وفيها مظنة العقائد.

سلك ابن عبد الوهاب سبيل أستاذه فى توجيه الناس إلى عقيدة التوحيد التى جاء بها رسول الله إلى النهوض بأنفسهم من حضيض الذلة إلى العزة والقوة إلى الإيمان الصافى، إلى الارتباط بالله وحده، وفى هذه الفكرة وحدها معنى الاعتصام بحبل متين لا ينقطع، والنفس التى ترتبط بالله لا تذل ولا تخضع لأحد، ولا توجد نفس أذل من النفس التى تتمرغ أمام صنم ضخم منحوت من حجارة أو شجرة وارقة ثابتة فى أرض منبسطة، ولا توجد أذل من النفس التى تتخذ أحبارها ورهبانها أرباباً من دون الله، أو تتخذ أنداداً تحبهم كحبها لله. ساء ابن عبد الوهاب هذه الذلة. ورأى الناس قد علقوا آمالهم على غير الله واطمأنوا إلى المخلوقات

يستشفون بها من أمراضهم وعللهم ويجعلونها وسائل لأعمالهم وأرزاقهم . وعلى الناس فى البلاد يأكل بعضهم بعضاً لفساد العقيدة وضعف الإيمان . فلم ير بدأ من أن يهزهم هزاً . ولم يجد شيئاً يبعث فيهم الحياة الصالحة والحياة العزيزة إلا الرجوع إلى عقيدة التوحيد وإلى المبادئ الصحيحة التى جاء بها الإسلام فى أوله. ووجد العودة إلى هذه الفكرة وحدها كفيلة برجوع القوة والعزة التى كانت للاسلام فى سالف عهده، وللمؤمن المخلص الذى كان لا يرهب أحداً إلا الله فى تغيير المنكر والدعوة إلى الحق ، فأوذى بدعوته وحورب ببلدته ثم هجرها إلى الدرعية حيث وجد أن الدعوة لن تنجح إلا إذا عضدتها القوة .

تحالف ابن عبد الوهاب مع أمير الدرعية من آل سعود عام ١٧٤٧ حيث وجد هذا الأمير السعودى صفاء العقيدة فى دعوة ابن عبد الوهاب. وفى هذا التحالف انتشرت الدعوة فى قلب الجزيرة .

وبعد وفاة محمد بن عبد الوهاب ووفاة حليفه الأول قبله بثلاثين عاماً أخذ آل سعود على عاتقهم نشرها وحمايتها ، وخرجوا بها من القلب إلى الأطراف ينازعون الخليفة العثمانى سلطانه، ويحاولون ايجاد دولة عربية ذات قوة ومنعة .

لقد غزوا العراق واستمروا حتى وصلوا إلى أبواب بغداد ، فاضطروا واليها أن يعقد معهم معاهدة ١٧٩٩ ،وأعادوا الكرة على العراق بعد سنتين فدخلوا كربلاء وقاموا بعمل يتنافى مع الفكرة. ثم غزوا الحجاز فاستولوا على المدينة ومكة. وهنا أصيبت دعوتهم بنكسة قوية ، فقد اهتز العالم الإسلامى ، واهتز عرش الخلافة فى الاستانة لأمرين اثنين أولها أن اتباع ابن عبد الوهاب هدموا القباب وأزالوا ما على قبر النبى من الزينة والحلى وأخذوه ، فانتفض المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ، ورموا أصحاب هذه الحركة بالزندقة واتهموهم بالكفر. وثانيهما خوف الخلافة فى الاستانة من هذه الحركة التى تؤذن بقيام دولة عربية تناوئ الخلافة التركية ، وعلى ذلك نيط عداء شديد لها، وأخذت السلطنة التركية تعمل على قبرها فى مكانها قبل أن تتسع آفاقها . فوضعت الخطط وعبأت علماء الدين الذين شرعوا أقلامهم وألسنتهم يؤلفون الكتب ويخطبون الخطب على المنابر ، يرمون أتباعها بالزندقة والخروج على الإسلام وعلى سلطان الخليفة . واستنجد السلطان محمود بعامله على مصر محمد على باشا، وطلب منه أن يسير إلى هذه الفرقة الخارجة على الدين القضاء عليها ، فصدع محمد على بما أمره به سيده وجهز جيشاً لجباً جعل على إمرته

ولده طوسون ، وكتب إلى شريف مكة يعلمه بما أقدم عليه . وعلم رجال ابن سعود ما عزم عليه السلطان فتأهبوا للنزال ، فلما إلتقا الجمعان هزم طوسون وترك الميدان مخلفاً وراءه المؤن والذخائر . وما لبث أن أمده والده بجيش آخر فأعاد الكرة وهزم ابن سعود .

وفى صيف ١٨١٢ أعاد أهل نجد الكرة على جند طوسون فاستولوا على مكة وكادوا يأخذون المدينة . فلما بلغ الأمر محمد على قام بنفسه على رأس جيش قوى العدة والعدد عام ١٨١٣ ونزل جدة . وحدث أن توفى القائد السعودى وهو الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود فى الدرعية عام ١٨١٤ فانهارت على أثر ذلك قوة الحركة . ولم يصمد أهل التوحيد لجنود محمد على الذى وطد الأمر وفتح طريق الحج للحجاج . وكان طوسون قد سار إلى نجد ليتم ما قام به والده فى قمع الحركة . ولكنه اضطر للرجوع لقلة المؤن وعاد ولم يلبث إلا قليلا وتوفى . خشى محمد على أن تعود للسعوديين قوتهم تارة أخرى فكتب إلى قائدها عبد الله آل سعود أن يأتى إليه طائعاً ومعه الأموال التى أخذها جنده من مكة ، فاعتذر عن المجئ وأعلمه أن الأموال قد ذهبت فى أيدى الناس أيام أبيه . ولم يقبل محمد على هذا العذر فجهز عليه حملة بقيادة ولده ابراهيم باشا ، وتوغلت هذه الحملة فى أرض الحجاز ونجد حتى وصلت الدرعية ، وأسر ابراهيم عبد الله وأرسله إلى القاهرة ، ومن ثم أرسل إلى الأستانة ، فطاف الأتراك به ثلاثة أيام فى شوارعها ثم قتلوه ، وبذلك استطاعت السلطنة العثمانية أن تخفت أول صوت عربى شديد بدأ محاولة إعادة السلطان إلى العرب .

وفى نظرنا لو تم لهذه الحركة سيرها لتغير وجه التاريخ فى الشرق الأدنى ومع أن قوتها السياسية قد زالت زمنا ما فقد فتحت أفقا جديدا للمسلمين فى كافة أنحاء العالم الإسلامى ، فنكاد لا نجد حركة من حركات الإصلاح إلا كان مرجعها لما نادى به محمد بن عبد الوهاب فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر .

حملة نابليون

١٧٩٨ — ١٨٠١

قلنا آنفاً وبسطنا القول فى أن للعرب ذخيرة فكرية ممتازة تتمثل فى القرآن والحديث والأدب وما انتجه الفكر العربى فى عصوره الزاهره ، وذكرنا كيف استطاع ابن تيمية أن يبعثها روحاً جديدة ويوجه الغفاة إلى هذه الثروة ، وبينا كيف سار ابن عبد الوهاب على نهجه .

إن مثل هذه الثروة كمثل الجمر غطاه الرماد ، لا يحتاج إلا إلى قبس يزيده اشتعالا ليلتهب ويضىء فينير الأرجاء ، فإذا قيل إن الغرب احتك بالشرق فى هذه الحملة ، فاخذ الشرق عنه ، فقديماً كان الغرب فى ظلام دامس . وكانت فيه كل مقومات الحضارة الكامنة مما أثر عن اليونان والرومان حتى جاء العرب فاندفعوا إلى ابراز مواهبهم الكامنه ، وبعثوها حضارة فيها تراث الغرب وابداع الشرق ، ونقلوا هذا التراث إلى أوربا تارة أخرى ، واحدثوا فيه تلك الهزة العنيفة التى كانت هذه الحضارة من نمائها .

فاذا كان مجىء نابليون إلى الشرق عاملا من عوامل اليقظه الحديثة فان غزوته هذه لا تعدو غير إعادة الغرب تلك اليد التى كانت للعرب عليه.ولم تكن غزوته هذه إلا قبساً أنار شعلة فى جمر كان الرماد قد غطاه ، وإذا كان الشرق العربى فتح عينيه على مدافع نابليون ليفرك جفون النعاس ويعود ينظر إلى ثروته الكامنة ليستثمرها ويستغلها كى يعيد مجده الغابر ، فليعلم أن نابليون ماجاء ليقظ النيام فيه ، وإنما غرضه من هذه الحملة الاستيلاء على مصر لمكانتها فى الشرق العربى ، ولأهميتها الحربية والاقتصادية ، فهى سوق واسعة تلتقى فيها تجارات ثلاث قارات أوربا وأسيا وافريقية ، وهى نقطة ارتكاز مهمة يمكن منها غزو النفوذ البريطانى فى الهند حتى استطاع أن يصل البحرين الأبيض والأحمر بقناة ، زد على ذلك خصب التربة وثروة الأرض فى كنوزها الطبيعية ، إن حملة نابليون على مصر ما هى إلا اجابة رغبة السياسة الفرنسية التى تريد أن تجعل من البحر الأبيض المتوسط بحيرة فرنسية تتحكم فى سواحلها ، وتقضى على الأسطول البريطانى بل على نفوذ

بريطانيا فى الشرق الأدنى . وكان أمل نابليون متركزاً فى اقامة دولة شرقية قويه فى مصر منها يغزو الهند : درة التاج البريطانى .

يضاف إلى هذا ماكان يدور فى ذهن رجال الدين الفرنسيين من رد الصاع بالصاع ، فقد كانت مصر كنانة العقيدة الاسلامية ، ردت الصليبيين وردت التاتار ، وحفظت التوحيد من كيد الكائدين. كل أولئك وغيره هيأ هذه الحملة الجبارة المجهزة بوسائل الغزو والقتال المصحوبة بالعلماء والمختبرات والأدوات ووسائل الطبع والنشر .

ابحر نابليون فى ١٩ مارس ١٧٩٨ متجهاً إلى مصر فارتعدت فرائص الانجليز لهذا الحادث الجلل. ولكن كيد نابليون غلب كيد خصومه،ووصل مصر فنزلت جنوده شواطىء مصر غرب الأسكندرية فى ٢ تموز من عام ١٧٩٨ ثم زحفوا على المدينة فاحتلوها ، واسرع إلى القاهرة فى موقعة فاصلة قرب الأهرام فى ٢١ من الشهر نفسه تقهقرت جيوش المماليك أمامه ، فلما أصبحت القاهره فى متناول يده اعلن للملأ منشوره الذى أعده فى عرض البحر،والذى كان الغرض منه توطيد أقدامه فى مصر . ومما جاء فى هذا المنشور بعد البسملة والحمد لله والديباجة :

يا أيها المصريون ، قد قيل لكم أننى ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد ازالة دينكم ، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين انى ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين ، وإننى أكثر من المماليك اعبد الله سبحانه ، واحترم نبيه والقرآن العظيم ، وقولوا أيضاً لهم أن جميع الناس متساوون عند الله ، وإن الشىء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط . وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب ، فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ، ويختصوا بكل شىء من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة ، فان كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ، ولكن رب العالمين رءوف وعادل وعادل، وحليم،ولكنى بعونه تعالى من الآن فصاعدا لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعلماء والفضلاء والعقـــلاء بينهم سيدبرون الأمور .

أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية وأعيان البلد ، قولوا لأمتكم أن

الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون ، واثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا بها كرسى البابا الذى كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة ، وطردوا منها الكفا ليرية الذين كانوا يزعمون أن الله يطلب منهم مقاتلة المسلمين ، ومع ذلك الفرنساوية فى كل وقت حتى الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى غير ممتثلين لأمره فما اطاعوا أصلا إلا لطمع انفسهم .

طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلى مراتبهم ، طوبى أيضاً للذين يقعدون فى مساكنهم غير موالين لأحد من المتحاربين ، فاذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلبه لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا ، فلا يجدون بعـــد ذلك طريقاً إلى الخلاص ولا يبقى منهم أثر .

بهذا المنشور أخذ نابليون يستميل قلوب الناس. فيه وعد ووعيد وإنذار وتهديد ، وطفقت الإتصالات بينه وبين وجهاء البلد والأئمة والعلماء ، واطمأن الناس إليه بادىء ذى بدء . فلما استقر بنا بليون الحال إنشأ نظام الدواوين ، فانشأ فى القاهرة ديواناً ، ولكل اقليم ديوان . وانشأ ديواناً عاماً يمثل القاهرة والأقاليم معاً . وكان الغرض من تأليف هذه الدواوين كما يزعم تعويد الأعيان المصريين نظم المجالس الشورية وأساليب الحكم .

وأسس مجمعاً علمياً على غرار المجمع العلمى الفرنسى . ويهدف مجمعه إلى تقدم العلوم والمعارف فى مصر والبحث والدراسة فى موضوعات الطبيعة والصناعة وموضوعات التاريخ ونشر نتائج هذه الإبحاث ، وهو مع ذلك لجنة استشارية فنية يلجأ إليها نابليون فى المشورة عند الحاجة. ويتألف هذا المجمع من ثمانية وأربعين عضواً فى اربعة اقسام : قسم للرياضيات وقسم للطبيعات وقسم للآداب والفنون وقسم للإقتصاد السياسى . فالمجمع استشارى ، استغلالى ، غرض الفرنسيين منه معرفة كنوز البلاد واستثمار المواد الأولية الإقتصادية والحربية والتأكد من مقدار هذه الثروة فى الوقود والغذاء والمعادن ، ووضع الخطط المحكمة المبنية على أسس علمية لتحقيق أهدافهم فى مقاومـــة النفوذ البريطانى فى الشرق العربى والهند .

وانشأ مرصداً ومتحفاً ومختبراً ، وأقام مسرحاً لتمثيل الروايات ، وأسس مطبعة تطبع بالعربية والفرنسية ونشر جريدتين (١) باللغة الفرنسية . واتخذ من المطبعة العربية وسيلة لنشر بياناته على الناس ، ووسع الأعمال الصحية، واصلح دار الصناعة الموجودة قبلا ، وانشأ مصانع أخرى للأ لبسة والقبعات والدباغة والنجارة والميكانيك ، وجعل لأهل الحرف فى التجارة والحدادة مكاناً خاصا يعملون فيه .

وصفوة القول إن مصر والشرق العربى وجدوا فى حملة نابليون شيئاً جديداً فى تقدم العلوم والفنون،ووجدوا قوة وحيوية،ووجد المصريون فى جنود الحملة قسوة متناهية ووحشية ما كانو يأملونها بما ارتكبوه فى نهب القرى وهتك الأعراض وسلب الأموان وسفك الدماء عند قيام أدنى حركة فى حقوق أهل البلاد الشرعية.ولقد قاوم المصريون هذه الحملة بكل قواهم.وكان الفرنسيون يقمعون كل مقاومة بقسوة لا نظيرلها . فى الطبيعة الإنسانية .

وقد جـــلا الفرنسيون عن مصر بالقوة وفى قلوب المصريين منهم جروح لا تندمل . لقد اعلن الفرنسيون أنهم جاءوا لنشر المعرفة بمصر،ولكنهم اقفلوا الأزهر ردحاً من الزمن . ولم يفتح إلا بعد جلائهم عام (١٨٠١) حيث ابحرت بهم سفن الحلفاء من شواطىء مصر إلى شوطىء فرنسا .

عهد محمد على

انطمشت سماء الثقافة العربية فى مصر إبان الحكم العثمانى ، وكادت العربية تتوارى من الوجود ، وارتبكت البلاد فى حكم المماليك المرتبطين بالعثمانيين أسمياً إرتباكا جعلها قاقة مضطربة حتى دهمت البلاد حملة نابليون كما ذكرنا آنفاً وتم جلاؤها على أيدى الحلفاء كما ذكرنا أنفاً ، وعاد الحكم إلى العثمانيين تارة أخرى

---

(١) إحداها تسمى le décade Egyptien وهى جريدة اقتصادية تنشر أبحاث المجمع العلمى وما يدور من المناقشات بين أعضائه وتصدر كل عشرة أيام . والثانية تسمى le Courrier de l'Egypte وهى اللسان الرسمى الناطق للحملة الفرنسية ، وتصدر كل أربعة أيام . أما البيانات العربية فقد كان يشرف على تحريرها السيد اسماعيل الخشاب وكانت تسمى سلسلة التاريخ . وقد اختفت هذه النشرات الثلاثة بجلاء الحملة الفرنسية .

واضطربت سلطة الباشوات الذين كان الباب العالى يرسلهم . وفى غمرة هذا الاضطراب تقلد زمام الحكم محمدعلى باشا فى١٣مايس عام١٨٠٥ . وكان توليه الأمر برغبة ملحة من أبناء الشعب وقوة ماكرة يزينها ذكاء نادر كان يتمتع به هذا الرجل ، فاتجه إلى تقوية مركزه وبسط نفوذه . ورأى فى تهيئة البـــلاد ثقافياً وإقتصادياً مايثبت أقدامه ويهبه حكم البلاد . لقد استطاع بدهائه أن يكتسب محبة الجمهور واطمئنان السلطان إليـه . ومرت إيامه تخطو بالتوفيق حتى اتخذ منه السلطان قوة تضرب أعداءه وتخمد الثورات التى تتحرك فى بعض أجزاء الامبراطورية. وقد كان ما كان من ذلك الحادث الجلل حيث أخمد محمد على وولداه طوسون وإبراهيم حركة أهل نجد كما فصلنا القول فى ذلك أيضاً .

وبعد أن عاد إبراهيم من اتمام فعلته هذه استقر فى مخيلته أكثر مما كان استقر فى مخيلة والده ، فقد نيط فى ذهن محمد على بعد هذا الانتصار أن يؤلف من هذه البلاد ومن مصر إمبراطورية عربية ، يكون زمام أمرها بيديه ، وتقوم على انقاض الدولة العثمانية التى بدأت الشيخوخة تدب فيها ، وكانت هذه الفكرة أشد وضوحا فى مخيلة إبراهيم ، فقد نشأ فى بلاد عربية ، وربى تربية عربية،وتكلم بلسان عربى فصيح بخلاف أبيه الذى كان لايفهم كلمة .

درس إبراهيم التاريخ العربى الذى هو جزء من التاريخ الإسلامى وتمكن فى نفسه ميل شديد لهذه الأمة. بل أصبح يعد نفسه عربياً ،وكان لايتوانى عن التصريح بذلك .

فهل كان فى البلاد العربية استعداد لهـذه الامبراطورية ، وإذا كان هذا الاستعداد موجوداً فهل يمكن لمحمد على أن يكون سيد هذه الامبراطورية ؟ أما الاستعداد فموجود لاريب فى ذلك ! فإن طبيعة العربى تميل إلى الحرية ،وإن من أول صفاته الطموح . ولـكن الجرح العميق الذى تركته جيوش محمد على فى القضاء على حركة ابن عبد الوهاب لم يندمل . فإذا أراد العرب الانفصال عن الأتراك وتهيئوا لذلك فإنه لن يفيدهم أن ينتقلوا من يد خليفه تركى إلى يد أخرى مثلها فى العجمة . ولذلك كان الأمل ضعيفاً فى تحقيق هذه الفكرة من قبل العرب أنفسهم وجعل الخلافة تحت سيادة هذه الأسرة .

وبالرغم من هذه الملاحظة فقد ظل طموح محمد على ماثلا أمام عينيه وإن ملك

مصر لابد أن يتسع ولكن كيف يكون ذلك ؟ إن سوريا على حدود مصر ، وأنها كانت ولا تزال ثغرة يتدفق منها زحف الغزاة على مصر ، فقد غزاها قمبيز الفرس واسكندر الأغريق وابن العاص ، وغزاها العثمانيون، وفى ضم سوريا أمان لمصر من الغزو وابتعاد عاصمة مملكته عن حدود الدولة العثمانية ، وفى ضمها سعة رقعة وزيادة قوة وتحقيق فكرة لإنشاء امبراطورية عربية تحكمها اسرته .

وقد انتحل عذراً مباشراً للحملة دون أن يعلن عداءه للسلطان . وكان هذا العذر خلاف بينه وبين الجزار حاكم عكا المنافس القوى له،والذى كان يطمع أن يضم بلاد الشام كلها إليه كما يطمع محمد على بذلك .

وكان زناد الشرارة الأولى بينهما إمتناع الجزار عن إرجاع الفلاحين المصريين الذى هاجروا إلى عكا فراراً من أعمال السخرة ووقع الضرائب وهروباً من خدمة الجيش ، وقوى هذا السبب بما شعر به محمد على من الدس عليه فى بلاط السلطان لاسقاطه ، فبدأ بالزحف قبل أن ينالوا منه ، وفى مواقع عنيفة انتصرت فيها جيوش مصر على جيوش السلطان وتكاد تنحصر فى جولتين إنتهت الأولى باتفاق كوتاهية ، الذى تم فى فبراير عام ١٨٣٣ ،والذى إعترف به السلطان لمحمد على بالولاية على مصر والحجاز وكريت، وجعل إبراهيم باشا والياً على سوريا وعكا ودمشق وطرابلس وحلب ومحصلا لولاية اذنه .

وفى هذه النهاية الممتازة كادت أمنية محمد على تتحقق لولا ما كان يبيته السلطان من الثأر لاعادة سمعته واسترجاع مافقدته امبراطوريته . فكانت الجولة الثانية وفيها انتصرت الجيوش المصرية انتصاراً حاسماً ، ووقفت على أبواب الأستانة عام ١٨٣٩ وسلم الاسطول العثمانى نفسة لمحمد على ، ورست سفنه بالاسكندرية وعددها عشرون سفينة برجالها وعتادها . وكاد السلطان يلبى طلبات محمد على فى جعل سلطانه وراثياً على مافى يده من البلاد العربية مع مصر، لولا وقوف أوربا وعلى رأسها بريطانيا بجانبه ، وارغام محمد على بالتخلى عن مطامعه والاقتصار على إعطائه مصر ولاية وراثية فى ذريته .

لقد وجدت بريطانيا خطراً عظيماً يهدد مواصلات الهند . ووجدت فى هذه الدولة الفتية الجديدة إذا تم لها الظفر منافسا قوياً فى الشرق الأدنى . لذلك عملت جهدها على ايقاف طموح محمد على عند حده . وتم الاتفاق فى نوفبر عام ١٩٣٩

بين السلطان وبين محمد علي . وبذلك اقتصرت ولاية محمد علي الوراثية على مصر فتبددت أحلامه الواسعة

كانت حركة محمد علي في زحفه على سوريا حادثاً جللا، أيقظ في نفوس أبناء البلاد العربية روحاً جديدة . وأخذ البارزون يتطلعون إلى اعادة أمجادهم الأولى . فقد كان إبراهيم باشا لايتوانى عن التصريح في تكوين امبراطورية عربية مستقلة وعزز ذلك بوضع برنامج شامل لتأسيس المدارس الأميرية . وشجع بكل قواه انتشار المدارس الأجنبيه . وكان يريد أن تعم المعرفة وأن يوضـــع التلاميذ القومية مع دروسهم ، وبالرغم من قصر أيامه في سوريا فقد كان تأثيره قوياً في هذه الناحية خاصة بين المسلمين ، فإن المسيحيين من العرب قد كفاهم مؤونة ذلك انتشار مدارس المبشرين من الأرساليات الأجنبية ، كان برنامج إبراهيم يرمى إلى تأسيس المدارس الابتدائية في أنحاء البلاد جميعها وتأسيس المدارس الثانوية في المدن الرئيسية ، وكان يبغي من ذلك سد حاجته في الناحيتين العسكرية والسياسية ، وكان يعنى عناية خاصة في بذر الوعي القومي في نفوس الناشئة . لقد تبلورت الفكرة في رأسه حتى أصبح يعول على سوريا في تنفيذ مقاصده أكثر مما كان أبوه يعول على مصر . أنشأ كليات عالية في دمشق وحلب وانطاكية . وكان جل طلابها من المسلمين . وكانت الحكومة تعنى بطعامهم وشرابهم ولباسهم ومنامهم وتمنحهم الرواتب. وقد كان عددهم في كلية دمشق يزيد على (٦٠٠) وفي كلية حلب يربو على (٤٠٠) ، وكانوا يرتدون الملابس العسكرية .

وصفوة القول إن دخول الجيوش المصرية في بلاد الشام أحدثت يقظة شاملة وبعثت روحاً جديدة، فقد انصرف إبراهيم إلى تنظيم شئون الادارة ، وكون جهازاً حكومياً عادلا ، واتجه في نشر المعرفة والثقافة اتجاهاً قومياً عربياً . ولكن الأيام لم تمهله ، لقد استعجل إبراهيم في فرض الضرائب العالية،وشرع في تنفيذ التجنيد الاجباري ، وأخذ ينزع السلاح من الأهلين فأثار حفيظة أهل البلاد فثاروا ضده وجاءت حركة الحلفاء فخرج من سوريا تاركا وراءه يقظة شاملة وحركة مباركة أخذت ترقب ما يجري بمصر على يد إبراهيم وأبيه . ألقى محمد علي عصا التسيار بمصر ، وشرع في تنظيمها فانشأ جهازاً إدارياً محكما يليق بدولة حديثة ذات كيان يخشى بأسها ويسمع قولها ، وتوارى حلمه اللذيذ في تكوين امبراطوريته

العربية لأن الدولة العثمانية التى كان تابعاً لها لم تفسح له المجال ، ولأن بريطانيا لا يسهل عليها أن تقوم دولة عربية فتية فى طريق الهند . ولأن من مصلحتها أن تبقى تركيا الضعيفة مالكة زمام الأمر ،لأن هذا الضعف يسهل على بريطانيا أن تتدخل فى شئونها وتملى عليها ما هو فى صالح طريق الهند ، وأن ترثها عندما تلفظ نفسها الأخير وهى الآن على فراش الموت ، وفعلا قد تم ذلك . وحذت روسيا حذو بريطانيا فى التدخل خوفاً من زوال تركيا الضعيفه ونشوء دولة فتية تمنعها من الاستيلاء على المضايق التى لم تهدأ مطامعها يوماً عن الاستيلاء عليها .

طوح محمد على هذا الخيال ، وانصرف إلى تدبير شئون مملكته الصغيرة بحزم وقوة . وحول حراب جيشه الذى كان يقاتل به فى سوريا والأنضول إلى محاريث تحرث وتبذر . ولم يهمل أمر الجيش إهمالا تاماً ، فأنشأله المصانع ومعامل الأسلحة والذخائر ،وشيد الثكنات ونظم المستشفيات ، فصار المحراث يخرج رغيف الخبز والحربة تحرس هذا الرغيف من اطماع الطامعين .

محمد على واليقظة الفكرية

إن الموجة الدافقة من اليقظة التى عمت العالم أجمع فى القرن التاسع عشر مرت بالعالم العربى الذى كان جزءاً من إملاك الدولة العلية . والدولة العلية نفسها هدف اطماع الغرب ، وكان الصراع يدور حول أطرافها وأوساطها ، وما حملة نابليون إلا طرف من هذا الصراع ، فلما جلا الفرنسيون عن مصر تفتحت الآفاق عن نشوء مصر الفتية فى نهضة شاملة ، وقد أسهم والى مصر حينذاك بأسهم وافرة فى هذه النهضة التى اتجهت إلى ناحيتين اثنتين : نشر المعرفة وتوفير القوة . فأرسل البعوث إلى أوربا لتحقيقها، واتخذ من الأزهر معيناً لتكوين الرجال ومن استعارة العلماء من أوربا مورداً ليهيئ وسائل العلم والعرفان . وأنشأ المدارس العالية فكانت موطنا للمختصين الوافدين من الغرب والمتعلمين من أبناء مصر ، وكانت هذه المعاهد العالية متمثله فى كلية الطب والصيدلة والهندسية ومدرسة الولادة والتمريض . وأخذ يوالى البعوث فكانت البعثة الأولى أربعين طالباً موزعين على مختلف موضوعات العلوم والفنون . وقد أحصيت هذه البعثات فكانت احدى عشرة بعثة ، لاريب فى أنها كانت نواة النهضة الحديثة فى مصر وعاملا قوياً

فى يقظة الشرق العربى . وأهم مظهر لهذه اليقظة الاتجاه العام من الأهلين وولاة الأمر إلى معرفة علوم الغرب وحضارته ، ولم يجد الجميع بدأ من الانكباب على دراسة اللغات الحية والشروع فى نقل آثار الغرب إلى اللغتين العربية والتركية فى مصر .

ولهذا أسست مدرسة الألسن ، وقد أشرف عليها شاب ذكى نابة هو السيد رفاعة الطهطاوى إمام البعثة التى أوفدها محمد على إلى باريس، وكانت مهمته الأولى أن يتولى الوعظ والارشاد والإمامة لاعضاء البعثة ، بيد أن حرصه الشديد على معرفة أصول الحضارة الغربية أغراه فانكب على دراسة اللغة الفرنسية شأنه شأن اخوانه حتى برع فيها . وأخذ ينقل وهو فى باريس عن أمهات الكتب الأدبية والفنية ما يراه نافعاً لبلاده ، وحين أشرف على مدرسة الألسن كان يتعاون مع تلامذته على نقل مآثر الغرب إلى لغة الضاد . ويكاد رفاعة يكون طليعة المترجمين وأولهم وأكثرهم إنتاجاً .

لقد ترجم كتباً شتى فى موضوعات مختلفة ، فنقل فى الجغرافية أربعة مجلدات من كتاب فيكتور أدولف ملطبرون الجغرافى الفرنسى.وكتيباً صغيراً فى العلم نفسه ، والتعريبات الشافية لمريد الجغرافية ، أنتخب فيها خلاصة الكتب الجغرافية الفرنسية المطولة ، وظهر بمجلد ضخم نقله إلى العربيـة ليدرس فى المدارس المصرية ، وكتاباً آخر اسمه جغرافيـــة عمومى فى كيفية الأرض ومقدمة فى الجغرافية الطبيعية .

وفى التاريخ ترجم كتاب : نبذه فى تاريخ الاسكندرية ، وتقويم سنة ١٢٢٤ وتاريخ قدماء الفلاسفة .

وفى الاجتماع ترجم كتاب دائرة العلوم فى أخلاق الأمم وعوائدها ، وكتاب قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر،وكتاب أصول الحقوق الطبيعية التى يعتبرها الأفرنج أصلا لأحكامهم .

ونقل كتبا أخرى فى المثيولوجيا وعلم سياسة الصحة والمنطق ومبادىء الهندسة ، ونقل إلى العربية مواقع الأفلاك فى وقائع تلماك ، وترجمة مونتسكيو ووضع كتباً أخرى فى الأدب واللغة والتربية ، منها المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين ، وكتاب قواعد النحو ليدرس فى المدارس الابتدائية ، وكتاب

مباهج الألباب المصرية فى مناهج الألباب العصرية ، وهو بحث عن آداب العصر وسياسة وصنائعه وعلومه وفنونه ، وكتاب الفقه على المذاهب الأربعة ، ونقل إلى العربيه القانون المدنى الافرنجى ، ونقل الدستور الفرنسى ، ونقل النشيد الفرنسى القومى إلى العربية وتغنى به .

وكانت حركة الترجمة هذه قوية اشترك فى تقويتها أبناء البلاد والمستشرقون الذين كانوا يفدون إلى البلاد اختياراً ، والذين كانوا ينتدبون للتدريس فى المعاهد العالمية وسنفرد لذلك بحثاً خاصاً .

يضاف إلى هؤلاء عدد كبير جاءوا مع حملة نابليون . وكان المستشرقون يتقنون اللغة العربية فينقلون تراثهم اليها . ومن ابرزهم الدكتور بيرون الذى كان من الأساتذة المنتدبين للتدريس فى مدرسة الطب،فهو الذى ترجم المصطلحات الطبية إلى اللغة العربية فكان عوناً لدراسة العلوم الطبية فى لغة الضاد .

ومهما يكن فإن الترجمة ازدهرت فى أواخر القرن التاسع عشر ازدهاراً عظيما ونقل إلى العربية منها آثاراً قيمة فى الصحة والصيدلة واسعاف المرضى وفى الولادة وأصول العلوم الطبية والتشريح العام ، وكتب التشخيص ومعالجة الأمراض وأمراض الأطفال،وفى الأمراض السارية كالجدرى والتطعيم والجرب والطاعون وأمراض العيون وكتب كثيرة فى الطب البيطرى ، واللوائح والتشريعات الخاصة بالادارة والمالية . والمرافعات وكتب الهندسة والمثلثات وعلم الحركة وموازنة المياه وفى التخطيط (المساحة) والهندسة الوصفية والجبر والميكانيك ، وفى علم الحيوان والنبات ، وكتب كثيرة فى التاريخ والسياسة والتراجم، ومن ذلك تاريخ نابليون والأمير فى علم التأريخ والسياسة والتدبير تأليف مكيافلى ، وكانت حركة الترجمة تتأرجح فى هبوط وصعود ، فقد هبطت أيام عباس وعادت إلى الصعود أيام اسماعيل . وقد ضعفت فى ابتداء الاحتلال الانجليزى . وكان من عوامل هذا الضعف تحول الدراسة فى كلية الطب من العربية إلى الانجليزية . ثم أخذت ترتفع رويداً رويداً حتى بلغت الذروة فى أيامنا هذه .

ظلت هذه المترجمات تزداد يوماً بعد يوم،وظلت هى والأزهر وما استحدث من مدارس المعلمين خميرة قوية تمد الانبعاث العربى بين حين وآخر،وتعين المصلحين والمرشدين والسياسيين والمكافحين الذين يكافحون الاستعمار والاستبداد .

وإذا كانت الترجمة عاملا قويا فى إيقاظ الرقود فإن علينا ألا ننسى فضل المطابع ، فقد سهلت المطبعة مهمة المترجم والمؤلف والدارس ، وقد دعم محمد على نهضته العلمية بالطباعة والنشر ، فاشترى مطبعة الفرنسيين الذين جلوا عن مصر وجعلها نواة لمطبعة بولاق الشهيرة التى تكاد تعتبر أول مطبعة عربية لها أثرها الفعال فى يقظتنا . أسست مطبعة بولاق عام ١٨٢١ . وإن كانت هناك مطابع أخرى سبقتها إلى الوجود فى الغرب والشرق نشرت هذه المطبعة أمهات الكتب من ذخائر العرب. وكان أول ما نشر فيها قاموس طليانى عربى وكتاب الآجرومية فى النحو ، وسيرة الاسكندر . وبلغ ما نشر فيها من كتب الرياضيات والطب والجراحة مما ترجم عن اللغات الأجنبية نحو ثلثمائة كتاب . ولاتزال تعد إلى اليوم من أكبر المطابع العربية. مشت نهضة الترجمة والنشر أيام محمد على خطوات واسعة ثم مالبثت أن اختفت أيام عباس وسعيد وعاودها النشاط أيام اسماعيل. ولو قدر لمصر أن تمشى وحدها فى الوجود لتغير تاريخ الشرق العربى . ولكن أبى مثل هذا الحظ السعيد أن يمنح مصر هذه المتعة فى الحياة فجاءها الانجليز ونزلوا بها عام ١٨٨٢ ، فبدأت مصر حياة جديدة فى الكفاح وانصرفت إلى مقاومة المستعمر وقد قيض الله لمصر فرصاً أخرى استطاعت بها أن تلم شعثها وتعيد ازدهار العلوم فيها تارة أخرى .

العهد الحميدى

العلاقة العربية التركية

فى هذا العهد

اضطربت المملكة العثمانية وساءت الأحوال،وكادت تصطلح عليها المصائب وتجمعت عليها الدول الغربية ، ولولا تصادم مصالحها واختلافها فى تقسيم الغنائم لمحيت هذه الدولة من الوجود فى أيام عبد العزيز ومراد .

تيقظ بعض فتيان الدولة وفطنوا للأمر ، فارادوا أن يضعوا حداً فاصلا لهذه المآسى فعزموا على خلع السلطان عبد العزيز ، واستصدروا فتوى من شيخ الإسلام هذا نصها ، « إذا كان زيد الذى هو أمير المؤمنين مختل الشعور وليس له المام فى الأمور السياسية وما برح ينفق الأموال الأميرية فى مصارفه النفسانية فى درجة لا طاقة للملك والملة على تحملها ، وقد أخل بالأمور الدينية والدنيوية وشوشها وخرب الملك والملة ، وكان بقاؤه مضراً بها فهل يصح خلعه ؟ الجواب يصح .

وفى ظل من القوة والانقلاب المدبر تم خلع السلطان عبد العزيز وتنصيب أخيه مراد الذى كان مريضاً بداء الصرع ، ولم يلبث هذا السلطان فترة قليلة من الزمن حتى اشتد به المرض واضطربت أعصابه لاضطراب الأمن وانتحار أخيه المخلوع .

فاضطر فريق من رجال الدولة لاستصدار فتوى بخلعه أيضاً ، وفاوضوا أخاه عبد الحميد واشترطوا عليه شروطاً منها :

(١) أن يعلن الدستور حالا (٢) ألا يستشير فى أعمال الدولة إلا مشيريه المسئولين (٣) أن يعين رجالا معلومين قدموا إليه ليكونوا مرافقين له ، فأجاب مطالبهم ، ووعدهم بأن يوسع الدستور إلى أكثر مما يطلبون ، وأبدى استعداده للتخلى عن العرش حالما يشفى أخوه مراد من مرضه .

وهكذا تم تنصيب عبد الحميد سلطاناً فى أول سبتمبر من عام ١٨٧٦ . وكان

عبد الحميد ذكياً واسع الحيلة مهد لنفسه من الأمور بتعيين من كان يعتمد عليهم وكان جلهم من الرجعيين الذين لم يرضوا عن فعل الأحرار ، ظهرت أثارهم فى تدهور الدولة تدريجياً أدى إلى مأساتها فى الحرب العالمية الأولى .

بدأ عبد الحميد عمله فى تعديل الدستور ، فادخل على البند (١١٣) تعديلا لا ندرى أفطن إليه مدحت باشا وهو رجل هذه الحركة أم لم يفطن ؟ فقد جاء فى هذا البند « يحق للحكومة أن تعلن الأحكام العرفية » فطلب أن يضاف إليه : للحضرة السلطانية وحدها الحق أن تخرج من الممالك المحروسة وتبعد عنها من يثبت عليه بواسطة تحقيق الضابطة السعى لاختـــلال الأمن فى الدولة . فقبل مدحت هذا التعديل الذى كان أول ضحية له واخرج من المملكة المحروسة. وقد اعلن الدستور فى ٢٤ ديسمبر من عام ١٨٧٦ ، وهو اليوم الذى كان فيه مؤتمر الاستانة معقوداً للمداولة فيما يمكن اتخاذه من التدابير لتسكين الأضطرابات فى الولايات العثمانية بأوربا ، وقد كان هم مدحت فى اعلانه أن يبين للملأ نيات الدولة فى اصلاح شؤنها الادارية واشراك عناصر المملكة فى الحكم وانزال السكنية فى قلوب الخائفين من الدول على رعاياها ، وبالنتيجة خلاص الدولة العثمانية من الوصاية الأوربية التى كادت تتم على هذه الدولة المضطربة .

كان مدحت قد قدر لنفسه أنه يستطيع اصلاح الدولة باعلانه الدستور ولكن المقادير غلبته ، فجرت الأمور على غير ما يريد ، واستبد عبد الحميد بالأمر وطفق يجمع حوله المخلصين له والمنافقين الذين يوسوسون فى صدره .

تولى عبد الحميد الحكم والبلاد العربية فى آسيا تكاد تكون كلها فى ظل سلطانه ، وكانت الادارة فى الدولة تتبع تقسيما خاصاً . تبدأ بالولاية ويديرها وال يرتبط مباشرة بمركز الخلافة . وتقسم الولاية إلى مناطق يختلف عددها باختلاف اتساع الولاية وضيقها وتسمى كل منطقة سنجقا يديره عامل يسمى المتصرف ويقسم السنجق إلى عدد من المناطق كل منطقة تسمى قضاء . ويدير القضاء عامل يسمى القائممقام ، فكانت سورية مقسمة إلى ثلاث ولايات : حلب ودمشق وبيروت وسنجقين وهما القدس وجبل لبنان .

وكان العراق مقسما إلى ثلاث ولايات وهى بغداد والموصل والبصره وإلى

سنجق واحد هو سنجق دير الزور . وكان مدحت باشا أول وال طبق نظام الولاية فى العراق .

أما فى قلب الجزيرة فقد كان نفوذ السلطان ضعيفاً ، ولم تتمكن الدولة من ايجاد تقسيم ادارى منظم . ففى قلب الجزيرة كانت أمارة ابن السعود وعاصمتها الرياض وامارة ابن الرشيد وعاصمتها حائل ،وكانت الإمارتان تتنازعان على امتداد النفوذ ، ولم يكن للسلطان نفوذ فعلى إلا فى الجزء الواقع على الخليج الفارسى ومنطقة الاحساء ، ولم يتمكن الاتراك من بسط نفوذهم التام على اليمن رغم ارسال حملتين قويتين أولاهما عام ١٨٤٩ والثانية ١٨٧٢ . وقد ظل اليمانيون يلقبون أمامهم ، وهو الزيدى المذهب « بلقب أمير المؤمنين ، لأنهم يعتقدون أن الخلافة الإسلامية لقريشى عامة ولزيدى خاصة ، ويثورون على ولاة الأتراك فى الحين بعد الحين ، أى كلما انسوا ضعفاً فى نفوذ السلطان وقوة فى انفسهم. ولذلك بقيت الجزيرة العربية بعيدة عن تنفيذ نظام إدارى على غرار مافى سوريا والعراق .

وفى الحجاز عين لأول مرة وال عام ١٨٤١ . وكان السلطان يستمد نفوذه مزدوجاً من هذا الوالى ومن اسرة الأشراف الذين ينتمون بنسبهم إلى النبى حيث تقضى التقاليد قيامهم بالأمر فى مكة والمدينة ،

وعندما كان مدحت باشا والياً على العراق استطاع أن يعيد للدوله هيبتها فى الخليج ، فقد كانت الكويت التى تبعد عدة اميال من البصرة تحكم من أسرة آل الصباح ، ولا يتدخل فى شئونها أحد ، وكان أهلها يتعاطون التجارة مع شوطىء الهند وفارس وأفريقيه ، وكانوا ينصبون علماً سفنهم علما خاصاً بهم وربما نصبوا علماً هولاندياً أو انكليزياً لغرض من الأغراض. فمازال مدحت يقتل بين الذروة والغارب حتى استطاع أن يستميلهم بالحسنى فقبلوا رفع العلم العثمانى بشرط الاستقلال فى ادارتهم وسائر شئونهم الداخلية . فاصبحت الكويت من ذلك الحين قسما ادارياً تابعاً للعراق وعين مدحت شيخها قائمقاماً ، وقد شرع مدحت يعىء تعبئة خاصة لبسط نفوذ الخلافة على شواطىء الخليج والاحساء ونجد فتم له أن يمد هيبة الدولة على الاحساء ويعين متصرفاً فى نجد ، وباءت محاولته فى ضم البحرين بالفشل ، وكان الاضطراب الداخلى فى نجد ونزوع المختلفين إلى السلطات التركية فى العراق يقوى من نفوذ الدولة .

كادت تتم للدولة العثمانيـة السلطة على شوطىء الخليج لولا ظهور الانجليز وتخاوفهم من مطامع الدول الغربية الأخرى التى كانت تهدد الهند . وكان الانجليز خصما عنيداً للدولة يتحينون الفرص فى ضعفها . ولكى يخلولهم الجو احياناً كانوا يعينونها على اعدائها . وكانت ابرز مطامعهم فى جزر الخليج وشواطىء البحر الأحمر ، فلما احسوا بخطر نابليون فى حملة مصر احتلوا جزيرة بريم الواقعة فى مدخل البحر الأحمر ، وعقدوا اتفاقاً مع أمارة مسقط الواقعة فى مدخل الخليج واحتلوا عـدن وحضر موت عام ١٨٣٩ وجعلوها من ممتلكات التاج البريطانى وطفقت ايديهم تمتد فى الخليج مد الاخطبوط خراطيمة حتى كانت الحرب العالمية الأولى فكان الخليج قاعدة للوثبة على إحتلال العراق .

أما فى إفريقية فقد كانت ممتلكات عبد الحميد التى ورثها عن اسلافه تتكون من تونس وطرابلس الغرب ومصر والسودان . وكانت الجزائر من ضمن المقاطعات التابعة للدولة كما أسلفنا، غير أن فرنسا استولت عليها عام ١٨٣٠ بعد قتال عنيف دام خمسة عشر عاماً ، وفى عام ١٨٨١ اختطفت فرنسا تونس. وفى سنة ١٨٨٢ نزلت بريطانيا مصر والسودان بحجة ضبط الأمن وحفظ نفوذ السلطان . وفى عام ١٩١٢ فقدت الدولة طرابلس الغرب فى حربها مع ايطاليا . وهكذا خرج ساحل افريقية الشمالية باجمعه من سلطان الخلافة .

احتفل الأحرار بتنصيب عبد الحميد سلطاناً وخليفة ، وقلد يوم الجلوس على العرش سيف عثمان فى مسجد أيوب بقرن الذهب ، ثم عاد إلى قصر طوب قبو حيث ألبسوه بردة الرسول وسلموه العلم النبوى ، فكانت هذه ظاهرة قوية على عبد الحميد أدخلت فى فؤاده الروعة والجلال، ورأى نفسه بين عشية وضحاها ظل الله فى أرضه وخليفة المسلمين وأمير المؤمنين وحامى الحرمين وسلطان البرين وخاقان البحرين، ورأى هذه القوميات المختلفة فى أرجاء مملكته، ووجد أن العرب هم الكثرة الغالبة من هذه القوميات المتعلقة بالعرش تعلقاً روحياً ، وطفق يحيط نفسه بالقوة والمنعة ، فأنشأ حرساً من العرب والكرد والألبـان وسماه الحرس الحديدى ، ثم أحاط نفسه بالعلماء والفقهاء وأنشأ مدرسة للوعظ والإرشاد تخرج الوعاظ فى أرجاء العـالم الإسلامى يدعون له ويبشرون الناس بعصره ويذكرون ورعه وتقواه ، وشجع التدريس الدينى فى المدارس والمساجد، ووجه اهتماماً خاصاً بالكعبة والحرم النبوى وبيت المقدس، وطفق يقرب العلماء إليه بالأوسمة والرتب والمرتبات، وقرب

العرب إليه حتى أصبح القصر يكاد يكون فى قبضتهم ، وصار الناس يخطبون ودهم وكان من كبار العرب فى ضيافته فى الأستانة الشريف حسين بن على مع زوجه وأولاده الثلاثة على وعبد الله وفيصل ، وهو شريف مكة الذى ينتمى إلى الذروة من قريش فى بيت النبوة ، وقد بقيت هذه الأسرة أكثر من خمس عشرة سنة .
كسب عبد الحميد الرأى العام العربى والإسلامى بما عرف عنه من التقوى والتعلق بالدين ، فكان يرمى من وراء ذلك إلى تهديد الغرب بقوة الجهاد المقدس من جهة ومن جهة ثانية ليقاوم الأحرار أمثال مدحت باشا وصحبه الذين كانوا يرمون إلى إيجاد دولة حديثة تقوم على الدستور والشورى لتبنى قواعدها الاقتصادية والثقافية والعسكرية والاجتماعية على أسس متينة ، ومن أروع ما قام به عبد الحميد لكسب الرأى العام الإسلامى مده الخط الحديدى بين الحجاز ودمشق،فقد سهل على الحجاج الوصول إلى بيت الله الحرام بأقل كلفة وأيسر مشقة . ويرى خصوم السلطان أن هذا الخط لم يكن الدافع إليه الدين وحده، بل هناك أغراض سياسية أولها الدعاية إلى الخليفة وتقوية مركزه ، وثانيها أنه وسيلة سهلة لنقل جنوده إلى الجزيرة فى يسر وسهولة .

ووجد السلطان عبد الحميد فى السيد جمال الدين الأفغانى عوناً لما يصبوا إليه من مكانة دينية فى العالم الإسلامى ، فإن دعوة جمال الدين إلى وحدة إسلامية مما تتفق مع رغبات السلطان الذى يعتبر نفسه خليفة المسلمين أجمع ، ولكن جمال الدين كان أذكى من أن يستغله عبدالحميد. ويغلب علينا الظن أن نفرة عبدالحميد من جمال الدين ترجع إلى اقتراحه على الخليفة أن يجعل من ولايات امبراطوريته التى تبلغ ثلاثين ولاية حينذاك خديويات على غرار خديوية مصر ، تبقى كلها خاضعة للخلافة ويأتمر الخديوى بأمر السلطان . والعساكر فيها عثمانية تسرع لتلبية الأمر باللحاق بجيوش السلطان ، ورعيته طائعة خاضعة للخلافة ، فزوى عبد الحميد وجهه وأبى وقال لجمال : « ماذا أبقيت أيها السيد لتخت آل عثمان ؟ فقال جمال يبقى جلالة مولاى السلطان ملك أولئك الملوك ، فإذا قويت هذه الخديويات فانه سرعان ما تنتظم إيران وأفغان والهند،ويصبح الإسلام قوة عتيدة يرهب الغرب جانبها وتهدأ ثائرته على الإسلام .

وأما فى السياسة الخارجية فقد اتجه السلطان بكليته إلى ألمانيا،وكانت فاتحة أعماله

معها استقدامه بعثة عسكرية لتنظيم جيشه، فقام خبراء هذه البعثة فى مهمتهم خير قيام وتكونت فى المملكة ثقافة عسكرية ممتازة أخرجت من العرب والترك قواداً من الطراز الأول . ولعب بعض هؤلاء القواد دوراً هاماً فى الانقلاب الدستورى وتسلح الجيش التركى بسلاح من مصانع ألمانيا . وتلت هذه البعثة بعثات أخرى من البيوت المالية والمصارف الكبرى لاستثمار خيرات البلاد والحصول على امتيازات خاصة وفعلا تم لها ذلك باخذ امتيازات الخط الحديدى المتوغل فى الأناضول والذى كان يبدأ بمحطة حيدر باشا على شاطىء البسفور الآسيوى .

وزار قيصر ألمانيا دار الخلافة زيارة رسمية ، ونجح فى الحصول على امتيازات الخط الحديدى الذى يصل إلى الخليج الفارسى، ذلك الخط الذى كان يهدد مصالح بريطانيا فى الهند والشرق الأدنى والذى كان أحد أسباب الحرب العظمى الأولى .

وقام القيصر بعد زيارته الأستانة بزيارة بيت المقدس ودمشق . وزار قبر صلاح الدين، ذلك البطل الذى رد أبطال أوربا على أعقابهم، وحفظ تراث العرب والإسلام ، وكانت هذه الزيارة مثار اضطراب وقلق للدول الغربية ذات الأطماع فى ميراث الخلافة ، وهذا ما كان يرمى إليه عبد الحميد ، إنه كان يريد أن يخيف الطامعين ببلاده بقوتين عظيمتين : قوة الإسلام وقوة السند الخارجى .

قبض السلطان عبد الحميد على الحكم بيد من حديد ، واستبد بأمره . ولكن تصرفاته أيقظت النفوس، وهزت المشاعر ، وتفتحت عيون العرب فشرعوا يتدخلون بشئون الدولة تدخلا فعلياً ، ويرون أنه من مصلحة العنصرين العربى والتركى إصلاح شامل وتبديل يجدد شباب الدولة لتقف فى مصاف الدول ، وسنبسط القول فى فصولنا التالية حول ما نتج عن هذا الاستبداد .

مكانة مدحت باشا من اليقظة العربية

١٨٢٢ — ١٨٨٣

يعتبر ما قام به مدحت فى عاصمة الدولة العثمانية ، وإبان ولايته على العراق وسوريا بمثابة ما أفادته حملة نابليون فى الشرق العربى ، عض مدحت على قارحة الكمال،وفتح عينيه فرأى أمامه مملكة تنوء بالمآسى والمصائب . فقر مدقع، وقفر شامل،وأيدى عاطلة من العمل،وزراعة سيئة،وصناعة ضعيفة،وجهل منتشر واستبداد مطلق لا حدود له.واستهتار الولاة بالأمور ، وديون عظيمة ركبت كتفى الدولة وإدارات ضعيفة تديرها عقول مأفونة والسلاطين سادرون فى غلوائهم يفعلون ما يشاءون ، وأعداء الدولة يتربصون بها الدوائر ويتفننون فى اقتطاع أجزائها جزءاً جزءاً .

هال مدحت وصحبه هذه الحال فوضعوا دستوراً أساسه الشورى فى الحكم تبنى فيه الدولة قواعدها السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والعسكرية على أسس متينة تحفظ كيان الدولة وتجعلها تقف على المستوى الذى تقف عليه الأمم الراقية . أخذ مدحت يتحين الفرص حتى أمكنته خلع عبد العزيز ونصب مراد الذى لم يتمكن من أن يستمر فى الحكم لمرضه العصبى فاستبدله بعبد الحميد ، ووافق عبد الحميد على إقامة الدستور الذى وضعه مدحت،ثم ما لبث أن تنمر وحكم بأمره ومدحت فى كل مواقف عبد الحميد تلعب به أصابع المستبدين من حاشية الخليفة الذين يريدون يمشون فى الظلام ويصطادون بالماء العكر ، ورغم الألاعيب التى قام بها خصومه برز مدحت فى السياسة والإدارة والتنظيم،وخلده التاريخ بما لم يخلد به غيره من أمثاله فى دولة الخلافة وإذا كانت حركة مدحت أيقظت العقول فى الاستانة وهيأت النفوس للخروج على الظلم والاستبداد ، فلا يسعنا أن نهمل ما قام به هذا المصلح الكبير فى بلاد العرب النائية التى أهملتها دار السلطنة وتركتها للأقدار تلعب بها ما تشاء حتى عمها الفقر وملأ أرجاءها القفر، واضطرب فيها حبل الأمن وانتشر فيها الجهل واصطلحت على أهلها الأمراض والعلل حتى جاء مدحت والياً على بغداد ثم والياً على سوريا .

مدحت فى بغداد

دخل مدحت بغداد والياً فى اليوم الثلاثين من شهر أبريل لعام ١٨٦٩ وحبل الأمن فيها مضطرب والقبائل ثائرة تأبى الخضوع للتجنيد وتأبى أداء الضريبة، فعمل مدحت على أن يجعل السلطة المدنية والعسكرية بيده، وطفق يفتل بين الذروة والغارب حتى سلست له القيادة، فجمع الضريبة ونشر الأمن ووضع خطة محكمة لتوزيع الأراضى على القبائل، وعمد إلى استيطان العشائر الرحالة، وتم له ذلك فى بعض أنحاء العراق، وأسس مدينتى الناصرية والرمادى، ونشر المعرفة بتأسيس المدارس فى كل قضاء، وأنشأ مطبعة تطبع فيها الزوراء الجريدة الرسمية، وشكل المجالس البلدية فى أهم المدن وأسس المعامل العسكرية، ومعملا للنسيج كامل الأدوات، وبنى دوراً للحكومة وبنى المستشفيات ودوراً للعجزة وملجأ للأيتام، ومد خط الترامواى بين بغداد والكاظمية وطوله سبع كيلومترات، واستغل بئراً للبترول وسهل الانتفاع به، وأسس مزرعة نموذجية سماها (رملة بعجه ىى) وأرسل المهندسين لتنظيم الرى والفنيين الزراعيين لترقية الزراعة، وبدأ ردم البرك والمستنقعات لتوسيع الأراضى الزراعية حتى أصبح الناس يأملون أن تزدهر بغداد ازدهارها أيام العباسيين، وبسط نفوذ الدولة فى الاحساء وقطر ونجد وشواطئ الخليج الفارسى، وما زال يتصل بحاكم الكويت حتى أقنعه بالانضمام إلى العراق، وعينه قائمقاماً تابعاً للبصرة ورفع العلم العثمانى على هذه الإمارة الصغيرة. وفى هذه الإصلاحات والحزم والنزاهة المطلقة زادت واردات العراق وانطلقت الأيدى العاملة وازدهرت النهضة الفكرية، وكان من نتائج انتشار الأمن أن أخذت السفن تجرى غدواً ورواحاً فى دجلة والفرات، وكانت إدارة السفن بيد شركة انجليزية تجرى بين بغداد والبصرة فكون مدحت شركة عثمانية فاصلح السفن القديمة وخزن لها الفحم فى مسقط أو عدن وبندر عباس وبوشهر، وعبرت هذه السفن لأول مرة قناة السويس.

مدحت فى سوريا

دخل مدحت سوريا والياً عليها عام ١٨٧٨ وقد سبقته شهرته التى طبقت البلاد، فاستقبل استقبالا عظيما وحفل به القوم مما يدل على يقظة العقول فى هذا

الزمن وهذا المكان ، وسار مدحت فى إصلاحاته هنا على غرار ما قام به فى العراق فأنشأ مدرسة للصنائع وأخرى للفنون وملجأ للإيتام ، ونشر الأمن فاطمأن المرء على ماله وعرضه ودمه، وفتح الشوارع وبنى القناطر وسهل المواصلات بين القرى والمدن، وأنشأ شارع دمشق الكبير، وبث روح التآخى بين أهل البلاد على اختلاف نحلهم وطبقاتهم فأحبوه وأجمعوا على احترامه وأطلق حرية الفكر فنشط الكتاب والشعراء . وهنا أخذ المستعبدون يدسون عليه فأوهموا السلطان أن مدحت سوف يستقل بسوريا، وأخبروه أن الناس يهتفون بحياته وينادونه رئيس الجمهورية، وقد استجاب مدحت لرغبات القوم فأخذ يتحدث عن نفسه بما قام به فى خلع السلطان وتنصيب غيره ، فدخل الشك فى الباب العالى فخاف منه وجعل مشير الفيلق رقيباً عليه يحصى انفاسه ، وصار إذا عرض مدحت مشروعاً لا يصدق عليه الباب العالى ، فتضايق الرجال واستقال . ولم تقبل الحكومة استقالته ونقلته إلى ولاية ازمير عام ١٨٨٠ .

لقد احدث مدحت كما قلنا يقظة فكرية نتجت عنها حركة قومية تدعو لاستقلال العرب وانقضاضهم على الخلافة. وكان هذا الصوت الذى ارتفع فى أيام مدحت صوتاً عربيا ثالثاً سبقه الصوت الأول فى حركة الوهابيين والثانى فى دخول ابراهيم باشا سوريا . وفى هذه المرة أعلن الناس عداءهم جهاراً وأخذوا يقصدون القصائد وينشرون المناشير يحضون الناس على التمرد والعصيان ويذكرونهم بامجادهم الأولى ويدفعونهم إلى المطالبة بالحرية .

ومن جملة المناشير التى كانت تعزى إلى جمعية سرية وتستند على ما يقال إلى إغراء مدحت باشا أو إلى يد أجنبية ثلاثة مناشير خرجت من بيروت عام ١٨٨٠ جاء فى مضمونها مطالبة الدولة بما يأتى :

١ — الأعتراف باللغة العربية لغة رسمية .

٢ — استقلال سوريا ولبنان متحدتين .

٣ — التخفيف من شأن الجاسوسية التى يبثها عبدالحميد لمقاومة الأراء الحرة .

٤ — عدم استخدام الجنود العرب خارج حدود بلادهم .

وقد كانت هذه المطاليب نواة قوية لما جاء بعدها على ألسنة الجمعيات ورجال

الأحزاب السياسية والمنتديات . ومن جملة مانشر وكان له رنة في البلاد ودوى في دار الخلافة القصيدة السينية المشهورة التي جاء فيها :

دع مجلس الغيد الأوانس　　وهوى لواحظها النواعس
واسل الكئوس يديرهــا　　رشأ كغصن البان مائس
ودع التنعم بالمطــاعم　　والمشــارب والمــلابس
أى النعيم لمن يبيت　　على بســاط الذل جالس

* * *

ولمن تبــاع حقوقــه　　ودماؤه بيــع الخسائس
ولمن يرى أوطــانه　　خرباً واطــلالا دوارس
كسيت شحوب الثــاكلات　　وكن قبــلا كالعرائس
عج بى فديتــك نادباً　　مابــين ارسمهــا الطوامس
واستنطق الأثار عمــا　　كان فى تلك البســابس
من عــزة كانت تذل　　لهـــا الجبابرة الأشــاوس
وكتــائب كانت تهــاب　　لقــاء سطوتها المتارس

* * *

أين المتاجر والمــكاتب　　والصنــائع والمــدارس
بل أين هاتيــك المروج　　بها المزارع والمغــارس
بل أين هاتيــك الألوف　　بها فسيح الــبر آنس
هلــكو فلست ترى ســوى　　قفر تثور بهــا الهواجس
بيد صوامت ليس يسمع　　فى مــداها صوت نابس
الارياح الجــو تــكسح　　وجهها كسح المــكانس
أمست خــرائب لاترى　　إلا بابصــار نواكــس

* * *

هـذى منازل من مضى　　من قومنا الصيد القناعس
درست كما درسوا وقد　　ذهب النفيس مع المنافس

* * *

فاليكم ياقوم واطرحوا　　الهوالس والمدالس
وتشبهوا بفعال غيركم　　من القوم الأحامس
بعصائب التفوا فجادوا　　بالنفوس وبالنفائس
هبت طلائعهم يليها　　كل صنديد ءارس
تركوا جموع الترك تعصف　　فوقها النكب الشوامس
ملأوا البطاح بهم فداس　　على الجماجم كل دائس
وخذوا لأنفسكم مثال　　أولئك القوم المداعس
فالترك قوم لا يفوز　　لديهم إلا المشاكس
أو لستم العرب الكرام　　ومن هم الشم المعاطس
فاستوقدوا لقتالهم　　ناراً تروع كل قابس

* * *

كم تأملون صلاحهم　　ولهم فساد الطبع مائس
أو ما ترون الحكم فى　　ايدى المصادر والمماكس
حال بها طاب التبسم　　للوغى والموت عابس
وحلا بها سفك الدماء　　فسفكها للجور حابس
برح الخفاء ومن يعش　　ير ماتشيب له القوانس .

أطماع الاستعمار فى المغرب العربى

عبد القادر الجزائرى يقاوم هذه الأطماع فى الجزائر

١٨٠٧ – ١٨٨٨

ومن عناصر الانبعاث القوية الذى لا يمكن إغفاله والذى كان لمواقفة الحربية مع فرنسا فى هذا القرن السيد عبد القادر الجزائرى . ينمى إلى بيت النبوة ويتصل نسبه بالحسين . ولد عام ١٨٠٧ فى قرية من قرى وهران فى الجزائر،ودرج فيها يتقف ويتمرن حتى اشتهر بالعلم والفروسية وشدة البأس ، وتنقل مع والده فى بلاد الشرق العربى ، مر بالاسكندرية والقاهرة وأدى فريضة الحج ثم زار دمشق وبغداد .

وفى عام ١٨٣٠ أقدمت فرنسا على فتح الجزائر ، فأنزلت جنودها فى شواطئ الجزائر منتحلة أعذاراً تافهة ، ونشرت المنشورات المنذره بالاستيلاء على البلاد واخراج العثمانيين منها ، فغضب العرب لهذا الخطب الجلل وانقضوا على فرنسا وأجبروا جيوشها على التقهقر إلى الشواطئ . ولكن ما لبث الأمر قليلا حتى عاد الفرنسيون فاستولوا على وهران ، فانتشر الذعر وسادت الفوضى وأتمر العرب فيما بينهم.وكان من بين المؤتمرين محى الدين الحسينى والد عبد القادر الجزائرى ، وبعد المداولة قر الرأى على مبايعة سلطان مراكش مولاى عبد الرحمن ، فقبل وأخذ الجزائريون يخطبون باسمه على المنابر. فغضب الفرنسيون من أجل ذلك وبعثوا إلى عبد الرحمن يهددونه بالحرب أو بسحب جنوده من الجزائر فخشيهم وانسحب .

وأراد الجزائريون مبايعة محى الدين فأبى ودلهم على ولده عبد القادر فوافقوا وبايعوه،فعقد العزم على طرد الفرنسيين ونازلهم وغلبهم واضطر قائدهم على الصلح وعقد معه معاهدة عام ١٨٣٤ . ومن شدة حزمه كان يعلم أن الفرنسيين لا يرعون إلا ولا ذمة، وأنهم سوف لايقومون بما عاهدوا الله عليه، فأخذ يعد لهم ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل، وشرع يصب فى بلاده المدافع ويصنع الأسلحة استعداداً لمنازلتهم ، وظلت الحرب بينه وبينهم سجالا وكثيراً ما كانت الغلبة له .

ولقد لعبت اليد اليهودية دوراً هاماً فى حرب الجزائر ولكنها ما لبثت أن

ندمت حين استولى الفرنسيون على تلمسان ووضعوا ضريبة على يهودها ، فشرعوا يعملون للخلاص من الفرنسيين ويتمنون عودة عبد القادر إليها،وقد عاد فاسترجعها وعادت فرنسا تفاوضه بأمر الصلح . وبعد مداولات ومشاورة تم الأمر على أن يتعهد عبد القادر بعدم السماح لأى دولة أجنبية بالاستيلاء على شواطئ بلاده إلا بمشورة فرنسا، وأن يكون لكل من الأمير وفرنسا قناصل فى بلاد الآخر .

فلما اطمأن الأمير إلى هذه المعاهدة شرع ينظر فى إصلاح أمور بلاده الداخلية وابتنى مدينة سماها تقدمه ، ونظم جيشه تنظيما غربياً ، وأنشأ المدارس فى كل مكان وعزم على افتتاح جامعة تجمع بين الثقافة الاسلامية والعلوم الحديثة . وبينما كان الأمير منصرفاً إلى إصلاحاته نقضت فرنسا عهدها أيضاً فاستولت على قسطنطينة واعتذرت عن عملها بأن المعاهدة تقضى بذلك مستندة إلى تحريف فى نصوصها وفى عام ١٨٤٠ عززت فرنسا قوتها تحت إمرة قائد جديد ، فضيق الأمر على عبد القادر، وكان الأمير قد صنع مدينة متنقلة سماها الزملة ، فلما سمع الفرنسيون بها أخذوا يعملون ليل نهار حتى أحرقوها وكان لها من الفوائد ما لها .

ظل عبد القادر يحارب الفرنسيين خمسة عشر عاماً حتى أنهكه التعب وأسلمته الخيانة ، فقد نفض سلطان مراكش يده منه بل أعان الفرنسيين عليه . ولما بلغ اليأس منه مبلغه سلم نفسه إلى الجيش الفرنسى، وبهذا التسليم طوى الاستعمار صفحة عربية جليلة وانطلقت يد فرنسا فى الجزائر تعمل ما تشاء وتريد .

فرح الفرنسيون باستسلام عبد القادر ، واكرموا مثواه لفروسيته ورجولته ثم ما لبثوا أن انقلبوا على أعقابهم فاعتقلوه وسجنوه فصبر على هذا المكروه ، ثم تيقظ ضميرهم مرة أخرى فأطلقوا سراحه ، واختار دمشق مقراً له وبقى فيها معززاً مكرماً يؤلف ويكتب ويعظ ويرشد. ولما وقعت الفتنة التى دبرتها دسائس الأجانب بين المسلمين والمسيحيين فى دمشق عام ١٨٦٠ لعب عبد القادر دوراً مهماً فى إخمادها وكان بيته حرماً آمناً لا يستباح لكرامته على القوم، فمن دخله كان آمناً. ولم يكتف بذلك بل أخذ البيوت المجاورة لداره وجعلها مثابة يحتمى بها اللائذون من هذه الفتنة ، وفرق رجاله على الأحياء يدفعون الأذى عن الناس ، فكان مثال العربى الشهم اليقظ الذى يعرف بواعث دسائس الأجانب. وهكذا كان وجود عبد القادر فى دمشق عاملا من عوامل التيقظ العربى. نال مركزاً ممتازاً فى قلوب القوم وأحاطوه

بهالة من الهيبة والإجلال رفعته إلى منزلة مقدسة فى أعين الناس .

انتهت فرنسا من الجزائر فوجهت عنايتها إلى تونس مع أن إيطاليا كانت قد وضعتها نصب عينها طمعاً بالاستيلاء عليها معتقدة أن ذلك من حقها .

وفى عام ١٨٨١ احتلت فرنسا تونس،وفرضت الحماية عليها بمعاهدة أملتها على الناس. وكان سبب ذلك أن لفرنسا ديناً على تونس بمبلغ قدره ١٢٥ مليون فرنك وقد عجزت تونس عن أدائه وتشبثت بأمور تافهة ، أرسلت على أثرها حملة تأديبية ووقع الباى بعد ذلك معاهدة تضطره على الاعتراف بأن لفرنسا حق الرقابة على ماليتها كما لها الحق فى إدارة شئون تونس الخارجية . وفى معاهدة الحماية التى وضعت على تونس وضعت فرنسا للباى جعلا يقيم أوده ويصلح به البلاد،وقدر هذا الجعل ١٢٥ مليون فرنك.وبذلك انسلخت تونس عن البلاد العثمانية بعد أن كانت جزءاً منها بالاسم. وفى عام ١٨٨٢ نزلت جيوش بريطانيا فى شواطئ مصر بحجة المحافظة على حقوق السلطان، وأخذت فرنسا تزحف على مراكش وهو القسم الأخير من البلاد العربية من جهة الغرب ، وكان هذا القسم العربى مستقلا لم يخضع للعثمانيين لمناعته وقوة شكيمته ، ولكن الاستعمار أبى أن يتركه حراً ، وفعلت فرنسا الفعائل فى إقناع الدول المزاحمة حتى تم لها الأمر بتأييد بريطانيا وأمريكا وروسيا . ولم يزاحمها غير ألمانيا وأسبانيا فأطلقت فرنسا يد أسبانيا فى الريف ، وشرعت تنفذ خططها خطة بعد خطة حتى كانت اتفاقية فاس فى ٤ ايلول عام ١٩١١ حيث اعترفت ألمانيا بحق فرنسا . وفى اتفاقية يناير عام ١٩٠٦ انتدبت فرنسا لحماية حقوق جميع الدول فى مراكش، واشترطت لذلك أن تكون الجمارك تحت مراقبة دولية، وأن تكون مراكش مستقلة بشرط أن يدير ماليتها بنك حكومى يكون مقره فى طنجه ، ويكون تحت مراقبة بنوك الدول وأسهمه موزعة بينها ولفرنسا حصة الأسد .

ولما رأت إيطاليا مافعلت بريطانيا وفرنسا أقدمت على احتلال طرابلس الغرب وبرقة، وأنذرت الدولة العثمانية النائمة ، وأنزلت جيوشها فى البر بعد مقاومة عنيفة من الحامية التركية والسكان العرب . وزحفت الجيوش تفتك بالبشر لا تتورع فى الاجهاز على الجريح وقتل الشيخ الطريح والمرأة الحامل والطفل البرئ . أما المقاتلة فليس لهم شفاعة فى ضمير الايطاليين.وهكذا أصبحت البلاد العربية التى

كان يجب أن تكون كلها جزءاً عظيماً وعوناً كبيراً للامبراطورية العثمانية بجزأة يحتل قسماً كبيراً منها ثلاث دول فرنسا وإيطاليا وبريطانيا. وشرعت هذه الدول وغيرها تتنافس على البقية الباقية التي انحصرت في قلب الجزيرة وما حولها. فتح العرب عيونهم على هذه الأحداث فرأوا أنفسهم في خطر محدق وعيون الغرب تتربص بهم الدوائر وتركيا تحتضر على فراشها. ورغم هذا الاحتضار نبطت الفكرة القومية التركية، وبدأ الصراع بين الأمتين يأخذ دوراً مهماً في كيان الامبراطورية العربية.

جمال الدين الأفغانى

١٨٣٩ - ١٨٩٧

ضم القرن التاسع عشر هذه الشخصية المبدعة الباعثة ، فقد ملأ جمال الدين آذان الشرق الأوسط الذى كان ميداناً لتزاحم الغرب على اقتسامه . وكان هذا التزاحم واضح الخطوط فى ذهنية هذه الشخصية ، فاتخذ من الإسلام مبدأ لدعوته ، ومن القرآن والتراث الإسلامى معيناً لمادته. وكان يرمى فى هذه الدعوة إلى إيقاظ الشعوب الإسلامية والسمو بمستواها إلى مستوى الأمم الحرة . وكان يهيب بها أن تعود إلى أصول العقيدة وصفائها والتخلص من شوائب البدع التى آلت بهم إلى هذا الفتور والضعف .

وكانت بلاد الأفغان مسقط رأسه أول ميدان لأعماله ، وقد ظهرت بوادر هذه الأعمال فى براعة موقفه من اختلاف الأسرة الحاكمة،فعظمت ثقة محمد أعظم خان به فأحله محل الوزير الأول ، يلجأ إليه فى عظائم الأمور وحل المشكلات ، وكادت تخلص حكومة الأفغان لمحمد أعظم ، بتدبير جمال الدين لولا انشقاق حدث فى صفوف الأسرة أدى إلى هزيمة أعظم، وبقى جمال لم تمسسه يد سوء لقوة عشيرته وهيبتها . فقد كان ينتمى إلى السيد الترمذى المحدث المشهور ويرتفع بهذا النسب صعداً حتى يصل إلى الحسين بن على. وكانت عشيرته قوية الشكيمة يهابها الأفغانيون ويحترمونها ، ثم بدا له أن يسافر إلى الهند ، فعز على حكومة الهند أن تراه يتجول فيها وحده حراً دون تحديد،فحددت له مكانا ينزل فيه ، بيد أنه استقبل على الحدود استقبالا منقطع النظير. وطفقت الوفود تفد إليه بالعشرات والمئات حتى صار المستفيدون من فضله يسعون إليه بالجماهير المجمهرة ينصتون إلى أقواله ودروسه . فارتجت أقطار الهند وهرع أكابر العلماء والراجات ومن بين هؤلاء من لا تستطيع الحكومة منعه من الاجتماع بجمال الدين. وفطنت الحكومة إلى هذه الآراء المثيرة فقصرت إقامته وطلبت منه أن يغادر الهند حالا ، فهاجت الجموع وماجت من هذا الأمر ووقف جمال الدين بينهم خطيباً وقال :

« يا أهل الهند ، وعزة الحق لو كنتم وأنتم تعدون بمئات الملايين ذباباً لأصم

طنينكم آذان بريطانيا العظمى ولجعل فى أذن كبيرها غلا دستون وقرا ».

ولو انقلبت ملايينكم سلاحف وخضتم البحر واحطتم بجزر بريطانيا لجررتموها إلى القعر وعدتم إلى الهند أحراراً ».

فما أتم جمال الدين كلامه حتى أذرف الحاضرون الدموع فقال لهم :

« اعلموا أن البكاء للنساء، ولم يأت السلطان محمود الغزنوى الهند باكيا بل أتى شاكيا سلاحه. ولا حياة لقوم لا يستقبلون الموت فى سبيل الاستقلال بثغر باسم »

هز نفوس الهنود وأيقظها من رقادها ، وارتعدت فرائص المستعمر فرقاً من هذه الظاهرة العجيبة فى أقوال هذه الشخصية الجبارة. فلم تتركه حكومة الهند بعد هذه الخطبة إلا يوماً واحداً .

سار جمال الدين متجها إلى الاستانة ، إلى مركز الخلافة الإسلامية لعله يجد فيها أرضا خصبة ينمو بها زرعه ، فلما رآه الصدر الأعظم عرف فضله وأنزله منزلة الكرامة ، وأجمعت قلوب الأمراء والوزراء على حبه، وتناقلوا المدح والثناء على علمه وأدبه ، فعين عضواً فى مجلس المعارف ، ورأى آراء لم تعجب رفاقه فى هذا المجلس، ومنهم شيخ الإسلام خاصة، فحفظها حتى وجد فرصة فأوقع به ، وادعى عليه باطلا من القول وزوراً ، وظل يلاحقه حتى صار باطل شيخ الإسلام حقاً على جمال الدين . واضطر إلى ترك الاستانة بعد أن أنب وحذر وأنذر وأوضح « أن الأمة هى مصدر القوة ومصدر الحكم وإرادة الشعب الحر هى القانون المتبع للشعب والقانون الذى يجب على كل حاكم أن يكون خادماً له وأمينا . وكل شعب تلعب به الأهواء ويتفرق شيعاً وأحزاباً وتستحكم فى أفراده محبة الذات والأنانية فيتجرون باسم الأمة تجاه الفرد المسلط ، ويستنزفون ثروة المجموع إرضاء له لينالوا بلغة من العيش. مثل هذا الشعب كمثل الأنعام السائمة أو أضل سبيلا ، ومثل هذا الشعب تصدق عليه قاعدة جور أوجدها المستبدون وهى القول السابق « مشيئة الملك قانون المملكة » .

خرج جمال الدين من الاستانة فجاء مصر تتقدمه كوكبة من المديح والثناء ووصلها فى أول محرم الحرام عام ١٢٨٨ هـ ، ٢٢ آذار ١٨٧١ م فاستقبله رياض باشا فأكرمه ونعمه، وصار بيت جمال الدين مثابة يفد إليه طلاب العلم. وشرع يعلم ويرشد. وفى كل يوم يعظم قدره فى نفوس طلابه حتى ملأت سمعته سمع العالم . وكان

لشخصيته وعبقريته المبدعة أثر كبير فى تكوين الشخصيات وتنشيط العقول وحل عقد الأوهام. حمل طلابه على التفكير والكتابة فنشطوا لما أراد وبرعوا وتقدموا فى مضمار الحياة . فكان تقدم الكتابة من إبداعه والتفكير الحر من خلقه وإيجاده، خلق فى مصر جواً تسبح فيه كلمات الحرية والاستقلال والإنشاء والإدارة والشعب والشورى والحاكم ، فدار فى أذهان الإنجليز أن هذا الرجل سوف يبعث الرقود وينبه الغافلين ، وزينوا للخديوى أن يخرجه من مصر ، فاتخذ من مناقشته فى حكم الشعب وسيلة وحفظها له حتى تهيأت الفرصة فأخرج من البلاد .

رأى جمال الدين أن يعود إلى الهند ، ولما وصل إلى السويس جاءه قنصل إيران وبعض التجار وجماعة من تلامذته يحمل كل منهم مقداراً من النقود ، ولما عرضوا عليه أبى وقال لهم أنتم إلى هذا المال أحوج ، فان الليث لا يعدم فريسته حيثما ذهب، وصل حيدر أباد الدكن ، واتخذها مقراً ، ثم حدد له المقر أثناء ثورة عرابى ، فلما انتهت الثورة سمح له بالذهاب حيث يشاء فقصد أوربا ووصل إلى لندن فأقام فيها مدة ، ثم سافر إلى باريس فاستدعى صديقه وتلميذه الشيخ محمد عبده وأخرجا معا جريدة « العروة الوثقى » لسان حال جمعية العروة الوثقى التى تألفت من خيار القوم وكادت هذه الجريدة تفتح آفاقا جديدة فى العالم الإسلامى فى الهند ومصر والبلاد العربية الأخرى لولا كيد المستعمرين الذين وقفوا لها بالمرصاد ، فمنعت من دخول الهند ومصر . وقد كتبت الجريدة بعد هذا المنع ما جاء فيه :

« نلتمس من أبناء الأمم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع بينهم ، ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضوارى التى فغرت أفواهها لالتهامهم ، ومن رأينا أن الاشتغال بداخل البيت إنما يكون بعد الأمن من طروف الناهب » .

ولما ظهرت حركة المهدى فى السودان كتب جمال الدين يحذر الانجليز عاقبة سوء فعلهم، وثابر على الكتابة يعدد خطيئاتهم ويفند حجج وزرائهم،فاضطروا أن يرسلوا إليه يستدعونه . فلما قدم لندن أثنى عليه اللورد سولسبرى وقال له : « إن بريطانيا تعلم مقدرتك، ونحن نقدر رأيك قدره، ويجب أن نسير مع حكومات الإسلام بمودة وولاء على قدر ما تسمح به ظروفنا . لذلك رأينا أن نرسلك إلى السودان سلطاناً عليه لتستأصل جذور الفتنة وتمهد السبيل لإصلاحات بريطانيا » .

فأجابه جمال الدين : تكليف غريب وسفه فى السياسة ما بعده سفه ، اسمح لى

يا حضرة اللورد أن أسألك ، هل تملكون السودان حتى تريدوا أن تبعثوا إليه بسلطان ؟

ومن أجرأ الآراء التى كان يثيرها طلبه استعراب الأتراك،وجعل اللغة العربية لغة الدولة فكان يقول « لو أنصف الأتراك أنفسهم لاستعربوا وترأسوا ذلك الملك ، وعدلوا فى أهله وجروا على سنن الرشيد والمأمون على الأقل،ولكانوا أعز جانباً وأغنى مملكة فى دول الأرض ، ومما كان يحز فى نفسه أن الأتراك كانوا يجرون وراء تتريك العرب،واستبدال اللسان العربى،لسان الدين والأدب والفضائل باللسان التركى ، وكان ينبه العالم الإسلامى على أهمية مصر وموقعها ويقول : فى صون مصر فى حوزة الملك الإسلامى وكشف الانجليز عنها صون للمالك العثمانية وغلق لكل بلية مهيأة فى المسألة الشرقية ، وقال وعزة إن ما كتبته عن حق مصر وما استنهضت من الهمم وما حذرت به من سوء المصير لو تلى على الأموات،لتحركت أرواحهم،ولرقرقت على أجداثهم،ولأحدثت لأعدائهم أحلاماً مزعجةومراء مريعة، وما قرعت آذان المسلمين والشرقيين عموماً بالحجج القاطعة ، وهتكت أستار الطامعين بالبراهين الساطعة،وأظهرت فظائع حكمهم بمن حكموا محسوساً إلا لأقرب البعيد من زمن الاستعباد، وأقصر طيات المسافة فى الذلة والمهانة لما لم يسقط بعد من المقاطعات الشرقية .

هكذا كان جمال الدين يبشر وينذر ويحض النفوس ويحرك الهمم ، ويشير إلى مواطن الخطر أينما حل حلت معه فكرة العرب والإسلام.إذا وقف فى الهند أشار إلى مواطن الخطر.التى تهدد مصر، وإذا ذهب إلى الأستانة ولى وجهه شطر المسجد الحرام وإذا ذهب إلى لندن دافع عن السودان،وإذا كان فى باريس كتب عن مصر وعن بلاد العرب والمسلمين،واتجه فكره إلى إيجاد أمة قوية تحفظ هذا التراث الذى فيه العزة والمنعة .

محمد عبده

ولما ترك جمال الدين مصر قال : « مصر أحب بلاد الله إلى،وقد تركت لها الشيخ محمد عبده طوداً من العلم الراسخ وعرمرماً من الحكمة والشمم وعلو الهمم » وهو قول حق ، فقد كان محمد عبده فى الذروة من هذا الوصف،شأنه فى علو الهمة

شأن كل مبدع يريد بعث أمه وتكوين أجيال ، أخذ محمد عبده علمه عن الأزهر وعن معاهد الدين فى أول أمره . وقد استعصى عليه التعلم فى البداية ، ثم لان له فى النهاية، ولكن ما كاد هذا العلم يوائم هذه الهمة ويوافق ذلك الذكاء حتى بعث الله لهذه الأمة جمال الدين فنزل مصر فيما نزله من البلاد الشرقية . فكان كالغيث أنبت الخمائل فوق الربى،فازدهرت وأثمرت، وكان الشيخ ثمره من ثمار جمال الدين هيأه فيمن هيأ للنضال والإصلاح فى هذا الشرق العربى الذى تعاقبت عليه المصائب واصطلحت عليه الأهواء والشرور ، فتركته يموج فى سحابة مظلمة لايتبين فيها الرشد من الغى .

لقد كان فى محمد عبده استعداد النبهاء ومواهب الأذكياء ، جمع من علوم الأزهر ماوعى، والتقى بجمال الدين فأخذ عنه الفلسفة والمنطق والحكمة.فكان من امتزاج هاتين الثقافتين ثقافة ذات لون خاص فيها روح الإسلام وعزته وجرأته واقدامه واباؤه ، وإذا مالمحفوظ من القرآن صور واشكال واخيلة تموج بالقوة والسمو ، وإذا الأدب العربى الذى تعلمه الشيخ اداة من ادوات الفصاحة والبيان تنقل هذه الصور والأشكال إلى اذهان الناس واضحة بينة تهز المشاعر ،وتعطف القلوب ،وترشد العقل إلى الحكم الصحيح . رأى محمد عبده جواً من المفاسد الاجتماعية والسياسية وفوضى فى الامور الدينية ، فقد وهنت العقيدة وضعف الإيمان ، وساد الشرك ، وعادت عبادة الأصنام والأوثان فى اشكال وصور أخرى واشتغل الناس بالرقى والنذور والموالد،وتعلقوا بالأرواح والأشباح،وما إلى ذلك مما يضعف النفوس ويبعدها عن التوحيد . ورأى فى الشوائب التى اصابت العقيدة اضاعة للاخلاق فماذا يفعل ؟

لقد رأى أن هـــذا الضعف المنتشر والفساد الشامل يرجعان إلى جهل الناس باصول دينهم بالقرآن والحديث ، ووجد أن التعليم الدينى على أساس متين عصمة للأمة وركن ركين فى إعادة مجدها ، فلجأ إلى القرآن واتخذه عاصماً والحديث فجعله دليلا ، ودعا إلى اتباع آثار السلف الصالح، لأن فى هذا الاتباع رجوعاً إلى العقيدة السليمة من شوائب البدع فى هذه الأصول .

التقى الشيخ محمد عبده بابن تيمية وابن عبد الوهاب ، وأخذ عن جمال الدين ووجد فى كل ذلك مثلا من امثلة الإصلاح . ولكن أفق محمد عبده كان أوسع من أفق ابن تيمية وابن عبدالوهاب، لاطلاعه على الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية معاً .

صدع محمد عبده بالحق، تتآمر عليه الخصوم، يرمونه بالزندقة والكفر لا لشيء سوى أنه موحد ينبذ الشرك ويحطم الأصنام ، وحسبك أن تجده يرد على الوثنيين والمشبهة والمجسمة والمركية والمشركين فى سورة الاخلاص فى تفسيره لجزء عم رداً واضحاً ودامغا . وفى دروسة التى جمعها تلميذه السيد رشيد رضا فى تفسيره الكبير أفق واسع وعقل راجح .

لم يمكن الزمن محمد عبده وجمال الدين أن يتما رسالتهما فى نشر مايريدان لاصلاح النفوس فقد دهمتهما قوة الاستعمار ، فدهشا واخذا تارة يوجهان الأنفس إلى منابت العزة والقوة فى عقيدة التوحيد وتطهير النفوس ، وأخرى فى حثها على مقاومة المستعمر ودحض دسائسة . واتخذا من جريدة العروة الوثقى ميدانا لعملهما يردان على المستعمر مكايده ويردان على مثبطى الهمم ، وقد اخذ القضاء والقدر مكانا كبيراً فى جدلها . إنهما أرادا أن ينتزعا من صدور المخطئين فهمه سوء الفهم وأن القدر ليس كما يعتقد اصحاب الجبر . إن القـــدر الذى يعتقد به المسلمون قد امرنا به فى شطر العمل من حياتنا لا شطر البطاله والكسل . ولم يأمرنا الله أن نهمل فروضنا وننبذ ماأوجب علينا بحجة التوكل عليه، فتلك حجة المارقين عن الدين الحائدين عن الصراط المستقيم ، إن الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر تتبعه صفة الجرأة والاقدام وخلق الشجاعة والبسالة ويبعث على اقتحام المهالك التى ترجف لها قلوب الأسود وتنشق مرائر النمور ، هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الأهوال، ويحليها بحلى الجود والسخاء ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعز عليها بل يحملها على بذل الأرواح والتخلى عن نظرة الحياة . كل هذا فى سبيل الحق الذى قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة .

الذى يعتقد أن الأجل محدود والرزق مكفول والاشياء بيد الله يصرفها كيف يشاء ، كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه واعلاء كلمة امته والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله فى تعزيز الحق وتشييد المجد على حسب الأوامر الإلهية واصول الاجتماعات البشرية .

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته فى قول الحق : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

هكذا أخذا يصححان خطأ القوم فى فهم عقيدتهم ، ويبعثان فى نفوسهم ذكريات امجاد السلف الأولين الذين فتحوا العالم ونشروا الإخاء والعدالة .

كان لهذا الاتفاق العجيب بين هاتين الشخصيتين صيحه داوية فى الشرق العربى بلغة عربية متينة تستند إلى القرآن وإلى التراث العربى،وكانا فى حديثهما وخطبهما وما يكتبان حرباً على البدع ووقفا لهذا الشرق الذى اخذت مطامع الأقوياء تمتد إليه فتنقص من اطرافه ، وأهله نيام فى غفلة عن أعين الدهر اليقظ . وكانت عروة الوثقى ميدانا لأرائهما . التى أجملاها بما يأتى :—

١ — أن تكون خدمة للشرق فى بيان واجباته التى كان التفريط فيها موجبا لضعفه وسقوطه ، وتوضيح الطريق التى يجب سلوكها لتدارك مافات والاحتراس من غوائل ما هوآت .

٢ — تبحث فى أصول الأسباب والعلل التى قصرت بهم إلى جانب ذلك التفريط ، فوقعوا فى هذه الحيرة الرابكة التى ضل بها المرشد ، وعميت عليهم السبل فلا يدرون من أين تفجعهم الطوارق المزعجة .

٣ — تكشف الغطاء عن الشبه التى شغلت أوهام المترفين ، فضلوا مسالك الرشد ، وتزيح الوساوس التى أخذت بعقول المنعمين حتى أورثتهم اليأس من مداواة عللهم وشفاء أدوائهم ،

٤ — تحاول إشراب الأفهام سهولة الأمر والنجاح فى المقاصد . إذا عقدت العزائم .

٥ — وتبين للناس أن هذا النجاح مقصود بالتمسك بالاصول التى كان عليها اسلافنا هى كفيلة فى رد العزة والقوة لنا . وقد تمسك بها بعض الدول الأجنبية فقويت وعزت .

٦ — وتنبه على أن الروابط بين الدول يجب أن تكون على أساس التكافؤ بالقوى . وهذا التكافؤ هو الضامن لدوام العلاقات . وإذا فقد التكافؤ فان الرابطة تكون وسيلة لا بتلاع القوى الضعيف .

٧ — تخبر أهل الشرق عامة والمسلمين خاصة ما يتهمهم به أعداؤهم ، وتدافع عنهم وتبين لهم ما يدور حولهم من الحوادث الجسام فى السياسة .

٨ — تراعى تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية، وتمكين الألفه بين أفرادها وتأييد المنافع المشتركه بينها ، وتصر السياسات القديمة التى لا تميل إلى الحيف والاجحاف بحقوق الشرقيين .

٩ — تتخذ هذه الجريدة مبدأ الصراحة والحق وتسير على صراط مستقيم وترسل إلى من تعرفه ومن يريدها مجاناً ليتداولها الامير والحقير والغنى والفقير .

عبد الرحمن الكواكبي

١٨٤٩ - ١٩٠٢

درج عبد الرحمن الكواكبي فى مدينة حلب فى بيت دين وحسب . أما الحسب فإن اسرته تنحصر فيها نقابة الأشراف لهذه المدينة، وهى مكانة لاينالها إلا من له وشيجة نسب بأهل البيت. وأما الدين فأنه تخرج فى مدرسة الكواكبية نسبة لهذه الأسرة . درس علوم الدين وتفقه وتعلم التفسير وحفظ الحديث وبرع فى اللغة وأضاف إلى اتقان الفصحى إجادة الفارسية والتركية. ونشىء فى بيت أبيه على العزة والكرامة والطبع المهذب حتى إذا شب واكتمل دخل ميدان الحياة يزينه علم وأدب وحسب وعزة تنمى إلى الأبوة والجدود، فكان عف اللسان صريح القول، ثابت الجنان، لايخشى فى الله لومة لائم ، وكان إلى ذلك طيب القلب فى زهو وكبر رحيما من غير ضعف ، يكره الظلم ويحب العدل، هادئاً فى حركاته وسكناته ، متأججاً فى طموحه وأفكاره عذب الحديث لطيف المعشر ، سريع البديهة حاد النكتة يجمع مجلسه جميع الأديان ، يكره التعصب ويمقت الفرقة ويجد الوطن فوق هذه الفوارق ، وأكثر أصدقائه وأقربهم إليه الفقراء ، وقد أنشأ مكتباً للاستشارات القانونية فى حلب. ويقدمها للفقراء من جميع الأديان مجاناً. ولشدة محبة الفقراء سماه أهل حلب أبا الضعفاء . تفتحت له أبواب الرزق فى وظائف الدولة تارة وأخرى فى التجارة والكسب الحلال وطوراً بقلمه وآرائه يبثها فى جريدة ينشرها أو صحيفة يكتبها ، ورجل مثل هذا فى ذلك الزمن لايعدم الحساد ، ترقبه أعين الناس . والسلطة تخشى على نفسها أى نابغة ينبغ فى هذه الغفلة الراقدة يكدر عليها صفوها

أو يهز كتفها وهى تمشى سادرة فى غلوائها . . فأخذت تضيق عليه الخناق وتسد منافذ الحرية وأبواب الرزق، حتى أتهم زوراً وبهتاناً وأدخل السجن وحوكم فلم يجدوا عليهشيئاً غير البراءة. ولما وجدمدينته جحيما تتأجج بالقسوة والبطش والخوف هجرها وضرب فى أرض الله يفتش عن منأى للكريم من الأذى، فذهب إلى زنجبار والحبشة وأكثر شطوط شرق آسيا وغربها ، وأوغل فى أواسط الجزيرة العربية ، وقطع صحراء الدهناء حتى وصل إلى اليمن على ظهور الجمال ، ثم عاد فألقى عصا التسيار بمصر . فكانت هذه الرحلات ميداناً لإحكام التجارب وتقوية الملاحظة . اطلع فيها على حال المسلمين فى هذا الشرق، وابصر ماهم عليه من انهيار فى نواحى الحياة جميعها . فانكب يدرس ويبحث ويعلل ويستنتج ويحكم، فكان صادق الحكم سديد المنطق . بدأ نضاله مثلما بدأها زميلاه جمال الدين ومحمد عبده ، القرآن مصدر أفكاره والعزة وحرية الرأى هدفه والرجوع إلى آثار الأولين والتخلص من البدع دعوته .

لقد كان أوسع أفقاً منهما معاً وإن كان مقلا موجزاً وكانا مكثرين ، وهو على اقلاله لم يقل عنهما شأنا فى التأثير . ورب جملة فيها معنى خطبة وعبارة فيها اثر مقالة .

لقد بث محمد عبده آراءه فى تفسير القرآن وتدريسه وكتاب التوحيد والعروة الوثقى ونشر جمال الدين آراءه فى العروة الوثقى وكتاب الرد على الدهريين والخطب ونصائح الحكام ومحاوراته السياسية مع الساسة التى ورد ذكر بعضها فى خاطراته .

أما الكواكبى فقد نشر آراءه بكتابيه : طبائع الاستبداد وأم القرى ، قارع الاستبداد بكتاب طبائع الاستبداد، وظهر هذا الكتاب دون أن يظهر اسمه عليه ، والخصم يعرفه وهو يعلم قوة الخصم فى هذا القراع،فلبث ثابت الجنان يهز قلمه كما يهز البطل سيفه . لقد خضع الناس إلى العثمانيين الأتراك باسم الخلافة ، وخلدوا إلى السكينة والكسل وتركوا الأمر للطبيعة تطعمهم وتسقيهم حتى أنقلبت جنان بلادهم إلى صحارى مقفرة ، وشاع فيها الجهل والفقر والمرض والذلة ، واستغل الحاكمون هذه الحال فاقتعدوا مقعد الجبابرة ، وتسموا بالخاقان الأعظم وحامى الحرمين وسلطان البرين والبحرين وظل الله فى أرضه إلى غير ذلك من الألقاب

التى تجفل منها نفوس الضعفاء وتعنولها جباه الأذلاء ، وطفقوا يتصرفون فى شئون الرعية كما يشاءون لآراء حكامهم ، ولاوازع لسلطانهم،لايتقيدون بنظام ولا بشرع ، وإذا ركب الراعى رأسه ، وسد على الناس أنفاس الحرية وخنق إرادتهم استعلى سلطانه وعظم بين هؤلاء الضعفاء شأنه فذلت نفوسهم ، وإذا ذلت النفوس ركبها التزلف والملق والعبودية ، وملك التأله عقل الحاكم فيرى نفسه السيد المطاع ويرى فى الرعية المسود الخاضع . وفى هذه الغمرة من الفساد بين الراعى والرعيـــة تطلع رءوس البدع وتحل الإباطيل مكان الحقائق وتجد الخرافات طريقها إلى قلوب الضعفاء لتأوى إليها وتسكنها ، وتجعل عليها غشاوة فلا تعقل القلوب ولا تسمع الآذان ولا تبصر العيون إلا من رحم ربك . وإذا وصلت النفوس إلى هذا الدرك الأسفل انهارت قواعد الأخلاق واختلت الموازين فخاف البرىء وأمن المسيء وتقدم الهازل وتأخر الجد وراجت الشعبذة وصار المرء لايأمن على عرضه وماله ودمه ،لايعرف كيف يهدر دمه ولا يدرى متى يسلب ماله ويهـــتك عرضه ، وإذا خافت النفوس صغرت ، وإذا صغرت أصبحت تمثل الدعة والهدوء ، وتنفر من الطموح والسمو . وفى كل ذلك معنى انهيار الأمة .

بمثل هذه المعانى أخذ الكواكبى يشرح فى مقالاته التى نشرها فى مصر عن الاستبداد والظلم . ثم جمعها وأعاد نشر فى كتاب سماه طبائع الاستبداد،عرف فيه المستبد والمستبد به ونتائج الاستبداد ، وعرض فيه فكراً عميقاً هادئا وفلسفة صافيه مشرقة . وظهر الكتاب بهذه الحلة الجميلة من المعانى والقوة بمصر دون أن يذكر اسمه. وهربت منه نسخ إلى بلاد الشام وزعت على الناس سراً .

أما كتابه الثانى « أم القرى » فهو تحفة مبدعة فى خيال مشرق ، ومعرض بين لآراء الكواكبى الجريئة ، وقد استعرض فيه أحوال المسلمين عامة والخاضعين للدولة العليه خاصة . وقد سماه أم القرى لأنه فرض أن هذه الآراء وضعت على بساط البحث فى مكة ، وتباحث فيها المؤتمرون الذين يمثلون أقطار الأمم الإسلامية فى ارجاء العالم ، وتم استعراضها فى اثنتى عشرة جلسة ، تناولت أحوال المسلمين وأسباب فتورهم وانهيار قواهم ، وجعل شعار المؤتمرين « لانعبد إلا الله » وجعل جدول أعمال المؤتمر البحث فى :

(١) موضع الداء (٢) أعراض الداء (٣) جراثيم الداء (٤) ماهو الداء

(٥) ماهى وسائل استعمال الدواء (٦) ماهى الإسلامية (٧) كيف يكون التدين بالإسلامية (٨) ما هو الشرك الخفى (٩) كيف تقاوم البدع (١٠) قانون تأسيس الجمعيات . وبعد أن أخذ المؤتمرون مكانهم وتجادلوا فى شئون الأمم المنحطة قال أحدهم :

إننى أرى منشأ هذا الفتور هو بعض القواعد الاعتقادية والأخلاقية مثل العقيدة الجبرية التى من بعد كل تعديل فيها جعلت الأمة جبرية باطناً قدرية ظاهراً والحث على الزهد فى الدنيا والقناعة باليسير والكفاف من الرزق وأماتة المطالب النفسية كحب المجد والرياسة ، والتباعد عن الزينة والمفاخر والإقدام على عظائم الأمور، وكالترغيب فى أن يعيش المسلم كميت قبل أن يموت ، وكفى بهذه الأصول مفترات مخدرات مثبطات معطلات لايرتضيها عقل ولم يأت بها شرع .

ثم قام خطيب آخر وقال .

« إن سبب الفتور هو تحول نوع السياسة الإسلامية حيث كانت ديمقراطية تماماً ، فصارت ليد الراشدين ملكية مقيدة بقواعد الشرع الأساسية،ثم صارت أشبه بالمطلقة وتحكمت فيها آراء الدخلاء فرجحوا الأخذ بما يلائم بقايا نزعاتهم الوثنية،فاتخذ العمال السياسيون،ولا سيما المتطرفون منهم،هذا التخالف فى الأحكام وسائل للانقسام والاستقلال السياسى.فنشأ عنذلك أن تفرقت المملكة الإسلامية إلى طوائف متباينة مذهباً متعاديه سياسة متكالحة على الدوام . وهكذا خرج الدين من حضانة أهله وتفرقت كلمة الأمة فطمع اعداؤها .

وقال آخر :

« إن بلاءنا من تاصل الجهل فى غالب أمرائنا المترفين الأخسرين أعمالا ، الذين ضلوا وأضلونا سواء السبيل ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . إنهم يتشدقون بالاصلاح السياسى مع أنهم وأيم الحق يقولون بافواههم ما ليس فى قلوبهم . يظهرون الرغبة فى الإصلاح ويبطنون الأصرار والعناد على ماهم عليه من افساد دينهم ودنياهم وهدم مبانى مجدهم واذلال أنفسهم والمسلمين . وهذا داء عياد لايرجى شفاؤه .

وقام آخر فقال : وكان من أهل القسطنطينية الدين حرم عليهم التلفظ بكلمات

معلومة . مثل كلمة حرية،جمعية ، وطنى ، مراد ، رشاد ، خلافة . خلع ، مبعوث ، معتوه، مختل، ونحو ذلك من الألفاظ التى تمس سياسة الوهم .

قال هذا الخطيب. عندى أن البلية فقدنا الحرية. وما أدرانا ما الحريه،هى ما حرمنا معناه حتى نسيناه ، وحرم علينا لفظه حتى استوحشناه وقد عرف الحرية من عرفها بأن يكون الإنسان مختاراً فى قوله وفعله لايعترضه مانع ظالم ، ومن فروع الحرية تساوى الحقوق ومحاسبة الحكام باعتبار أنهم وكلاء وعدم الرهبة فى المطالبة وبذل النصيحة . ومنها حرية التعليم وحرية الخطابة والمطبوعات وحرية المباحثات العلمية . ومنها العدالة بأسرها حتى لايخشى انسان من ظالم أو غاصب أو غدار أو مغتال . ومنها الأمن على الدين والأرواح ، والأمن على الشرف والأعراض ، والأمن على العلم واستثماره ، فالحرية هى روح الدين وينسب إلى حسان بن ثابت .

وما الدين إلا أن تقام شرائع وتؤمن سبل بيننا وهضاب

وقام خطيب آخر فقال :

« يلوح لى أن إنحطاطنا من انفسنا إذ أننا كنا خير أمة اخرجت للناس،نعبد الله وحده أى نخضع ونتذلل له فقط،ونطيع من اطاعه مادام مطيعا له،نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر . أمرنا شورى بيننا ، نتعاون على البر والتقوى ولا نتعاون على الإثم والعدوان فتركنا ذلك كله ما صعب وما هان .

وقال آخر :

« إننا كنا على عهد السلطان الصالح شريعتنا سمحاء ، واضحة المسالك معروفة الواجبات والمناهى ، فكان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وظيفة لكل مسلم ومسلمة ، ثم دخل بيننا أقوام ذووا بأس ونفاق ، أقاموا الاكتساب مكان الاحتساب، وحصروا اهتمامهم فى الجباية ، وآلتها هى الجندية فقط، فبطل الاحتساب وبطل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر طبعاً ، فهذا يصلح أن يكون سبباً من الأسباب وقد يضاف إليه شركهم الخفى وهم لا يشعرون به .

وقام آخر فقال :

إن فقدان الرابطة الدينية والوحدة الخلقية لا يكفيان سبباً للفتور العام . بل لابد لذلك من سبب أعم وأهم ، ثم قال أما أنا فالذى يجول فى فكرى أن الطامة

من تشويش الدين والدنيا على العامة بسبب العلماء المدلسين وغلاة المتصوفين، الذين استولوا على الدين فضيعوه وضيعوا أهله ، وذلك أن الدين إنما يعرف بالعلم والعلم يعرف بالعلماء العاملين وأعمال العلماء وقيامهم فى الأمة مقام الأنبياء فى الهداية إلى خير الدنيا والآخرة. ولكن بعض ضعيفى العلم وجدوا هذه المنزلة فوق طاقتهم فتحيلوا للمزاحمة والظهور مظهر العلماء العظماء بالاغراب فى الدين وسلوك مسلك الزاهدين ، ومن العادة أن يلجأ ضعيف العلم إلى التصوف ، كما يلجأ فاقد المجد إلى الكبر، وكما يلجأ قليل المال إلى زينة اللباس والأثاث، فصار هؤلاء المتعالون يدلسون على المسلمين بتأويل القرآن بما لا يحتمله محكم النظم الكريم ، فيفسرون مثلا البسملة أو الباء منها بسفر كبير تفسيراً مملوءاً بلفظ لا معنى له أو بحكم لا برهان عليه ، ثم جاءوا الأمة بوراثة أسرار ادعوها وعلوم لدنيات ابتدعوها وتسنم مقامات اخترعوها ووضع أحكام نقضوها وترتيب قربات زخرفوها ، وهكذا يستمر الكواكبى فى نقده المجتمع الإسلامى حتى يتم فى هذا النقد اثنى عشر اجتماعاً يعقدها ويتخيل المتكلمين فيها، الذين يفتشون عن الداء ليضعوا عليه الدواء. ويلخص أقوالهم جميعاً بموجز من القول فى جمل منها ما يجعلها أصولا ومنها فروعا. وإنا لذاكرون طرفا منها ومحيلون القارئ على كتابه أم القرى الذى قال فيه : —

يستفاد من مذكرات جمعيتنا المباركة أن هذا الفتور المبحوث فيه ناشئ عن مجموع أسباب كثيرة مشتركة فيه لا عن سبب واحد أو أسباب قلائل تمكن مقاومتها بسهولة ، وهذه الأسباب منها ما هو أصول ومنها ما هو فروع لها حكم الأصول وكلها ترجع إلى ثلاثة أنواع وهى: أسباب دينية وأسباب سياسية وأسباب أخلاقية وإنى أقرأ عليكم خلاصتها من جدول الفهرست الذى استخرجته من صاحب الجمعية رمزاً للأصول منها بحرف الألف وللفروع منها بحرف الفاء . وهى :

(ا) الأسباب الدينية

من الأصول

١ — تأثير عقيدة الجبر على أفكار الأمة .

٢ — تأثير فتن الجدل فى العقائد الدينية .

٣ — الاسترسال للتخالف والتفرق فى الدين .

٤ — الذهول عن سماحة الدين وسهولة التدين به .

٥ — تشديد الفقهاء المتأخرين فى الدين خلافا للسلف .

٦ — إدخال العلماء المدلسين والمغاربة على العامة كثيراً من الأوهام .

٧ — إدخال العلماء المدلسين على الدين مقتبسات كتابية وخرافات وبدعا مضرة .

٨ — إبهام الدجالين والمداجين أن فى الدين أموراً سرية وأن العلم حجاب .

٩ — اعتقاد منافاة العلوم الحكمية والعقلية للدين .

١٠ — الغفلة عن حكمة الجماعة والجمعة وجمعية الحج .

ومن الفروع فى هذا الباب

١١ — تهوين غلاة الصوفية الدين وجعلهم إياه لهواً ولعبا .

١٢ — إفساد الدين بتفنن المداجين بمزيدات ومتروكات وتأويلات .

١٣ — التعصب للمذاهب ولآراء المتأخرين وهجر النصوص ومسلك السلف .

١٤ — العناد على نبذ الحرية الدينية جهلا بمزيتها .

١٥ — تطرق الشرك الخفى أو الصريح إلى عقائد العامة .

(ب) الأسباب السياسية العامة

من الأصول

١ — السياسة المطلقة من السيطرة والمسئولية .

٢ — حصر الاهتمام السياسى بالجباية والجندية فقط .

٣ — اعتبار العلم عطية يحسن بها الأمراء على الأخصاء وتفويض خدم الدين للجهلاء .

٤ — قلب موضوع أخذ الأموال من الأغنياء وإعطائها الفقراء .

٥ — إبعاد الأمراء والنبلاء والأحرار وتقريبهم المتملقين والأشرار .

ومن فروع هذا الباب

٦ — فقدان قوة الرأى العام بالحجر والتفريق .

٧ — مراغمة الأمراء السراة والهداة والتنكيل بهم .

٨ — فقدان العدل والتساوى فى الحقوق بين طبقات الأمة .

٩ — ميل الأمراء طبعاً للعلماء المدلسين وجهلة المتصوفين .

(ج) الأسباب الأخلاقية

من الأصول

١ — الاستغراق فى الجهل والارتياح إليه .

٢ — انحلال الرابطة الدينية الاحتسابية .

٣ — التباعد فى المكاشفات والمفاوضات فى الشئون العامة .

٤ — فقدان التناصح وترك البغض فى الله .

٥ — غلبة التخلق بالتملق تزلفا وصغاراً .

٦ — فقدان التربية الدينية والأخلاقية .

وأضاف السيد الكواكبى إلى هذه الأسباب أسباباً أخرى منبعثة عن الخور فى سياسة الدولة العثمانية وإدارتها . ومظهر ذلك كما يعتقد فى توحيد قوانين الإدارة والعضوية مع اختلاف طبائع أطراف المملكة وتباين أهلها فى الجنس والعادات ، زد على ذلك تنويع القوانين الحقوقية وتشويش القضاء فى الأحوال المتماثلة .

ويقول الكواكبى *إن من أسباب الخور فى الدولة تمسكها بأصول الإدارة* المركزية مع ارتباك هذه الإدارة بما يصيبها من عدم الالتفات إلى توحيد الأخلاق والمسالك فى الوزراء والولاة والقواد، واضطرار الدولة لاتخاذهم من جميع الأجناس والأقوام الموجودين فى المملكة. زد على ذلك أن الدولة درجت على قاعدة اختلاف الجنسين بين ولاة الأقاليم وأهلها لكى تأمن غائلة الاتفاق عليها ، كذلك درجت

الدولة على التمييز الفاحش بين أجناس الرعية فى الغنم والغرم فى المناصب والارتزاق من بيت المال ، وقد أصاب العرب غرم كبير مع أنهم يؤلفون ثلثى الرعية .

ومما زاد فى ضعف الدولة تساهلها فى انتخاب ولاة الأمور ، والإكثار منهم بغير لزوم، وإنما يقصد فى انتخابهم اعاشة العشيرة والمتملقين والمحاسيب. ولقد كانت تتلافى ضعفها بالضغط على الأفكار المتنبهة لكيلا تسمو وتنمو وتتطلع على مجارى الإدارة فى محاسنها ومعايبها. مع أن مثل هذا الضغط لا يؤثر على النمو الطبيعى وإنما هو عيب محض لا يتأتى منه إلا الإغراء والتحفز والحقد على الإدارة .

أما فى إدارة بيت المال فكانت مطلقة اليد تصرف دون مراقبة وتنشر جزافا بغير موازنة ، وتسرف بلا عتاب وتتلف بغير حساب ، حتى صارت المملكة مدينة للأجانب بديون ثقيلة انهكت كاهل المملكة .

ومن إدارة المصالح المهمة السياسية ما كانت تستشير ولا تقبل المناقشة. ولو كانت هذه الإدارة مشهورة المضرة فى كل حركة وسكون. وكان رأيها فى تغطية هذه المعايب المداراة وإسكات المطلعين على المعايب حذراً من أن ينفثوا ما فى الصدور فتعلم العامة حقائق الأمور، والعامة من إذا قالوا فعلوا ، وهناك الطامة الكبرى. وأما إدارة السياسة الخارجية فكانت تديرها بالتزلف والإرضاء والمحاباة بالحقوق والرشوة والامتيازات وبذل النقود للجيران بمقابلة تعاميهم عن المشاهد المؤلمة التخريبية وصبرهم على الروائح المنتنة الإدارية .

ولقد أوضح الكواكبى اتساع الهوة بين العرب والترك ، وضرب أمثلة من العبارات والأسماء التى كان الأتراك ينبذون العرب بها .

وبعد ذكر الأسباب والعلل فى فتور العالم الإسلامى التى أوردها على لسان جمعيته المتخيلة طلع بهذا الرأى .

« وحيث كانت الجمعية لا يعنيها غير النهضة الدينية رأت من الضرورى أن تربط آمالها بالجزيرة العربية وما يليها وأهلها ومن يجاورهم . وأن تبسط لأنظار الأمة ما هى خصائص الجزيرة وأهلها العرب عموما ، وذلك لأجل رفع الغضب السياسى أو الجنسى ، ولأجل إيضاح أسباب الجمعية للعرب تقول : —

الجزيرة هى مشرق النور الإسلامى فيها الكعبة المعظمة ، وهى أنسب المواقع ز تكون مركزاً للسياسة الدينية لتوسطها بين أقصى آسيا شرقاً وأفريقية غرباً .

وهى أسلم الأقاليم من الأخلاط جنسية ودينا ومذاهب ، وأبعد الأقاليم عن مجاورة الأجانب ، وأفضل الأراضى لأن تكون ديار أحرار لبعدها عن الطامعين والمزاحمين نظراً لفقرها الطبيعى[1] . وعرب الجزيرة هم ومن يتبعهم من العشائر القاطنة بين الفرات ودجلة والنازحين إلى أفريقية مؤسسوا الجامعة الإسلامية لظهور الدين فيهم ، وعرب الجزيرة مستحكم فيهم التخلق بالدين لانه مناسب لطبائعهم الاهلية أكثر من مناسبته لغيرهم ، وهم أعلم المسلمين بقواعد الدين لأنهم أعرقهم فيه ومشهود لهم بأحاديث كثيرة بالمتانة فى الإيمان . وعرب الجزيرة أكثر المسلمين حرصاً على حفظ الدين وتأييده والفخار به، خصوصاً والعصبة النبوية لم تبرك قائمة بين أظهرهم فى الحجاز واليمن وعمان وحضرموت والعراق وأفريقية ولا يزال الدين عندهم حنيفاً سلفياً بعيداً عن التشويش والتشديد ، وهم أقوى المسلمين عصبية وأشدهم أنفة لما فيهم من الخصائص البدوية، وأمراؤهم جامعون بين شرف الآباء والامهات والزوجات فلم تختل عزتهم ، وهم أقدم الأمم مدنية مهذبة بدليل سعة لغتهم وسمو حكمتهم وأدبياتهم، وأقدر المسلمين على تحمل قشف المعيشة فى سبيل مقاصدهم، وأنشطهم على التغرب والسياحات وذلك لبعدهم عن الترف المذل أهله ، وهم أحفظ الأقوام على جنسيتهم وعاداتهم فهم يخالطون ولا يختلطون .

وعرب الجزيرة أحرص الأمم الإسلامية على الاستقلال ، وإباء الضيم ، ومن ذلك عدم انقياد أهل اليمن ومن يليهم إلى العثمانيين ، والعرب عموماً لغتهم ، أغنى لغات المسلمين فى المعارف ومصونة بالقرآن الكريم أن تموت، وهى اللغة العمومية بين المسلمين كافة البالغ عددهم ٣٠٠ مليون مسلم، وهى اللغة الخصوصية لمائة مليون من المسلمين وغير المسلمين .

والعرب أقدم الأمم اتباعا لأصول تساوى الحقوق وتقارب المراتب فى الهيئة الاجتماعية ، وأعرقها فى أصول الشورى فى الشئون العمومية .

وأهدى الأمم لأصول المعيشة الاشتراكية ، وأحرصها على احترام العهود عزة واحترام الذمة انسانية . واحترام الجوار شهامة ، وبذل المعروف مروءة ، والعرب

---

(١) لم يدر الكواكبي أنها ستكون من أغنى بقاع الأرض فى البترول

أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعاً فى الدين وقدوة للسلمين حيث كان بقية الأقوام قد اتبعوا هديهم إبتداء فلا يأنفون من اتباعهم أخيراً . فهذه الأسباب جعلت جمعية أم القرى تعتبر العرب الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية بل الكلمة الشرقية .

هكذا يستنهض الكواكبي بنى قومه ، يذكرهم بأمجادهم ومآثرهم ، ويشرح خصائصهم وصفاتهم الكامنة فيهم ، ويبين لهم أن هذه الصفات إذا عادت للوجود كافية أن تعيد للأمة قوتها وترجع إليها سلطانها ، وأن الأمة العربية فيها من عناصر القوة ما يؤهلها أن تتزعم العالم الإسلامى مرة أخرى ، وفى زعامتها مجد وفخر وعزة .

الاستشراق والمستشرقون

وأثر ذلك فى اليقظة الفكرية والسياسية

فتح الغرب عيونه على هذه الذخيرة العربية التى بسطنا فيها القول والتى كانت تشع بالمعرفة والعلم فوجد فيها مصباحاً يضئ دياجى حياته العلمية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وكانت الأندلس قنطرة راسية القواعد للوصل بين الغرب النائم والشرق العربى الذى كانت تموج جوانبه بالحضارة والمعرفة .

اندفع الغرب إلى الإستفادة مما أبرزته مواهب العرب ، فدخل كثير منهم مدارس الأندلس، فتخرج فيها علماء أجلة وملوك وأمراء . وازداد الإقبال على هذه الثقافة حتى دعت الحاجة إلى إنشاء مدارس للترجمة ومن أهمها مدرسة طليطلة أنشئت عام ١١٣٠ — ١١٥٠ م ، وقام عليها الأسقف ريموند ، وشرعت تنقل إلى اللاتينية نفائس هذه الذخيرة من مؤلفات ابن رشد وابن سينا والفارابى والكندى، وتبع هذا الأسقف رجال العلم والأدب والرهبنة فى إنشاء المدارس لمثل هذا الغرض وتزاحموا جماعات وفرادى للنهل من هذا المورد العذب. وكان من أبرزهم فى النقل جيران الكرمانى الذى نقل ما يقرب من ثمانين كتاباً فى المنطق والفلسفة والرياضيات والنجوم والطبيعيات والكيمياء مما ألفه العرب أو كان منقولا عن اليونانية إلى العربية .

ووجد ملوك أوربا فى هذا الاندفاع فائدة لإقامة حضارة جديدة ، ومادة لبناء ممالكهم على أسس من المعرفة فتسابقوا إلى ذلك ، وقد كان روجرز ملك صقلية بعد نزوح العرب عنها مثقفا ثقافة عربية آثرها على غيرها، فأحب العرب واختصهم بالزلفى دون غيرهم من الشعوب التى كانت تابعة إليه وترك لهم الحرية فى إقامة شعائرهم وضمهم إلى بلاطه . وضرب على الصفحة الثانية من نقوده « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . ويحدثنا ابن جبير فى رحلته عام ١١٨٧ عن غليوم الثانى أنه يقرأ العربية ويكتب بها وشعاره « الحمد لله وحده »

وكان فردريك الثانى ١٢٣٢ — ١٢٥٠ فى طليعة من اتخذ هذه الثقافة أساساً لنهضة أوربا الحديثة ، فقد قاد هذا الملك الحملة الصليبية السادسة فجر بنفسه هذه

الذخيرة ، واتصل بعلماء العرب ودرس ما ترجم عنهم وراسلهم وجادلهم وقرب إليه ابن سبعين فيلسوف الأندلس حينذاك ، وأهدى جامعة بولونية نسخا من كتب الطب العربي والفلسفة .

وممن ساعد على هذه النهضة الفونس صاحب قشتالة ، الذى جمع إليه المترجمين من العرب، وأنشأ مكتباً للترجمة نقل المترجمون فيه نفائس هذه الثقافة من العربية إلى الأسبانية ومن ثم إلى اللاتينية ، وطفق أمراء أوربا الناهلون من هذا المورد يتنافسون فى النقل، وشغلوا أنفسهم معظم القرون الوسطى فيه إلى اللاتينية ، منها تسعون كتاباً فى الفلسفة والطبيعيات وسبعون فى الرياضيات والنجوم وتسعون فى الطب وما بقى فى الكيمياء والعلوم الأخرى .

وزيداً على ما أفاده الغرب فى هذه الناحية ، أنشأ العرب المتخلفون فى فرنسا كلية للطب فى مونبلية عام ١٢٢٠ تخرج فيها كثير من الأطباء ونقل عنها قانون ابن سينا وكتب كثيرة فى الطب .

وكان جربرت الراهب الفرنسى ترك بلاده بعد أن ثقف فيها علوم الدين وقصد الأندلس ليرد مناهل العلم فحط رحله فى أشبيلية حتى ارتوى . ثم تركها إلى قرطبة. فاكتمل له التحصيل ، ومنها رحل إلى رومة حيث علا شأنه فارتقى منصب البابوية باسم سلفستر الثانى عام٩٩٩ . وكان عاملا قوياً لدراسة اللغة العربية وتفهم القرآن وترجمته والتوسل بذلك إلى أهداف التبشير فى العالم الإسلامى والرد على مبادئه .

ومنذ ذلك الوقت أصبحت دراسة اللغة العربية التى نعدها أماً للغات السامية من القواعد الأساسية فى فهم العبرية والآرامية ، اللغتين المهمتين فى دراسة التوراة ودراسة حضارة العرب .

اندفع الرهبان لهذه الدراسات الشرقية رغبة فى الاطلاع على الثقافة الإسلامية ومعرفة أسرار الدين الإسلامى ، فاستدعى ذلك ترجمة القرآن وطبعه ، وطبع الكتب العربية وترجمة الفلسفة وعلوم الطبيعة والنظر فى مآثر هذه الثقافة . وقد اشتهر منهم جربرت الذى ذكرناه آنفاً وبطرس المحترم ١٠٩٢ — ١١٥٦ الذى ترجم القرآن وشرع يرد على مبادئه وألبير الكبير ١١٩٣ — ١٢٨٠ الذى ثقف العربية ودرس مؤلفات ابن سينا والغزالى والفارابى ، وألف فى الفلسفة

كتابه الكبير الذى يعد مفتاحاً لمعرفة الغرب فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر مآثر العرب .

ومنهم الراهب الانجليزى روجر بيكون الذى أوصى قومه بتعلم العربية وأكب على دراسة ابن الهثيم فى دير الفرنسسكان وترجم كتاباً فى الكيمياء ، والراهب لول Lull الذى أتقن العربية فى باريس ودخل الدير ثم تركه مبشراً إلى تونس عام ١٢٩١،ثم أخذ يتجول فى أفريقية، وهو الذى اقترح على البابا إنشاء المدارس لتعليم العربية فى أنحاء أوربا قاطبة.وقد تعاونت إيطاليا وفرنسا على إنشاء المطابع والمدارس العربية .وتبعتهما أوربا جمعاء . ولم ينقض القرن الثامن عشر حتى صارت فرنسا موئلا لجمع الكتب الشرقية ،وأنشأت مدرسة لتعلم اللغات الشرقية الحية سنة ١٧٩٥ ، وصارت فى مفتتح القرن التاسع عشر كعبة طلاب العلم يهرعون إليها من ألمانيا وإيطاليا واسوج ونرويج وهولندة وغيرها .

هكذا كانت أغراض الاطلاع على ثقافة العرب ودراسة اللغة العربية . فى بدئها ثقافية خالصة للأخذ بأسباب حضارة جديدة ، ثم دينية الغرض منها التبشير بالدين المسيحى والرد على مبادىء الدين الإسلامى، ثم اتجهت إلى أهداف أخرى سياسية واقتصادية الغرض منها استغلال ثروة الشرق واستعمار مناطقه وتسهيل المواصلات وربط أجزائه بأوروبا ربطاً محكماً يؤمن تحقيق المقاصد.ومن هنا اتخذ الاستشراق وجهة أخرى وأصبح المستشرقون رسلا لأممهم. وارتبط كثير منهم ارتباطاً وثيقاً برؤساء البعثات السياسية . وتألفت الجمعيات التى تبحث فى هذه المسائل وتعنى بها وصار الإستشراق موضوعاً مهماً قائماً بنفسه يراد به درس اللغات الشرقية وآدابها والتعرف على أحوال الشرق الاجتماعية والاقتصادية بعد أن كان خاصاً برجال الدين يراد بهالتبشير ، فأسست المكتبات وأنشئت المدارس. ومن أقدم الجمعيات الجمعية الآسيوية تأسست فى بتافيا عاصمة جاوة عام ١٧٨١ ، ثم الجمعية الآسيوية البنغالية أسسها السير وليم جونس فى كلكتا عام ١٧٨٤ ونشرت بحوثها فى عشرين مجلداً ظهرت ما بين ١٧٨٨-١٨٣٦، ولها مجلة الجمعية الآسيوية للبنغال صدر عددها الأول سنة ١٨٣٢ ولا تزال تصدر .

وأنشأ الفرنسيون الجمعية الآسيوية فى باريس عام ١٨٢٠ تحت رعاية الدوق دورليان وبرآسة سلفستردى ساسى، وجعلت لها مجلة اسمها الجريدة الآسيوية وقد

نشرت فصولا قيمةفى تاريخ العرب وبحثت فى الشريعة والمذاهب والنحل، وعرفت الغرب بجغرافية البلاد العربية .

وتبعهم الانجليز فأنشأوا جمعية لتشجيع الدراسات الشرقية بزعامة ملك الانجليز. ثم تتابعت الدول تحذو حذوهما فأنشأ الألمان جمعيتهم عام ١٨٤٤، ومثلهم فعلت أمريكا وروسيا وإيطاليا وبلجيكا وهولانده والدانمرك وغيرهم.

ويعد المستشرق سلفستردى ساسى وتلميذه كاترمير طليعة هذه اليقظة ، ولكل منهما تلامذة تخرجوا على أيديهما .

أما دى ساسى فقد ألف كتاباً فى النحو العربى وكتاباً فى القراءة العربية، جمع فيه منتخبات من آثار العرب فى النظم والنثر ، وله كتاب فى تاريخ الجاهلية وديانة الدروز ، وقد ترجم البردة للبوصيرى إلى الفرنسية ، ونشر كتاب كليلة ومقامات الحريرى ورحلة عبد اللطيف البغدادى والفية ابن مالك وغير ذلك من نفائس الكتب ، فلما توفى دى ساسى خلفه تلميذه كاترمير المتوفى سنة ١٨٣٨ .عرف هذا المستشرق ببحوثه القيمة وترجمته ومؤلفاته .

نشر مقدمة ابن خلدون ومنتخبات أمثال الميدانى ونقل مقامات الحريرى ، ونشر مفصل جغرافية مسالك الأبصار لابن شهاب العمرى . وألف فى آثار البابليين والقبط والسوماريين. ومن تلامذةدى ساسى رينو المتوفى ١٨٦٣ ، نشر تقويم البلدان لأبى الفداء مع ترجمة فرنسية ، وألف فى المخطوطات العربية وفى العلاقات التجارية بين الروم والشرق، ونشر كتاباً فى الرحلات العربية والتجارية إلى الشرق الأقصى فى القرن التاسع للميلاد ، ونشر منتخبات عربية فى الصليبيين .

ومن المستشرقين الدكتور بيرون المتوفى عام ١٨٤٨ ، ألف كتاباً فى أصول العربية وترجم المختصر فى فروع المالكية وقد طبع أصلا وترجمة، وأنفقت على طبعه وزارة الحرب الفرنسية لأن أهل الجزائر من أتباع مالك .

وأظهر الألمان براعة فائقة فى بحوثهم ودراساتهم عن الشرق الإسلامى عرفت بالدقة والعمق،وفى طليعتهم فرايتاغ المتوفى سنة ١٨٦١ ، ألف كتاباً عن اللغة العربية فى الجاهلية والإسلام ومعجماً فى العربية واللاتينية فى أربع مجلدات، جمع فيه ما اختاره من الصحاح والقاموس وغيرهما ، ونشر ديوان الحماسة لأبى تمام مع ترجمة لاتينية وعليها شرح التبريزى وزبدة الطلب فى تاريخ حلب وحكم لقمان وأمثال العرب

وأمثال الميدانى مع ترجمتها اللاتينية فى ثلاث مجلدات ورحلة عبد اللطيف البغدادى فى مصر ، ونشر فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء لابن عربشاه ، ونشر معلقه طرفة ابن العبد ومعلقة الحارث بن حلزة .

ومنهم ويشتفيلد المتوفى ١٨٩٩ ، أشد المستشرقين نشاطاً فى نشر أمجاد العرب ، ربوما نشره على مائتى كتاب أهمها طبقات الحفاظ للذهبي وسيرة ابن هشام ، وفيات الأعيان لابن خلكان ، كتاب الاشتقاق لابن دريد ، معجم البلدان لياقوت ، تهذيب الأنساب للسمعانى ، عجائب المخلوقات للقزوينى . كتاب المعارف لابن قتيبة ، تواريخ مكة ، سيرة فخر الدين المعنى ، وألف كتباً قيمة فى مآثر العرب ، منها تراجم أخبار العرب ، الإمام الشافعى ، ما نقله الإفرنج عن العرب من العلوم ، مؤرخوا العرب ومؤلفاتهم .

ومنهم فلوجل : وأهم ما نشره من كتب العرب ، كتاب الفهرست لابن النديم ومؤنس الوحيد للثعالبى ، وطبقات الحنفية ، وكشف الظنون فى سبعة مجلدات مع ترجمتها إلى اللاتينية ، وفهرس للقرءات ، وألف كتاباً فى نحوى البصرة والكوفة وكتاباً فى الكندى فيلسوف العرب .

ومنهم تولدكه : ١٨٣٦ — ١٩٣٠ وأشهر مؤلفاته قواعد اللغة العربية وقواعد اللغة السريانية وتقارب اللهجات وتاريخ القرآن ، وتاريخ عروة بن الورد ودراسات قيمة فى المعلقات الخمس وتاريخ الجاهلية ، ونشر تقويم البلدان للطبرى متناً وترجمة .

ويعد بروكلمن من أحسن المستشرقين معرفة فى اللغة العربية وآدابها ، ويعتبر كتابه تاريخ الآداب العربية من أحسن المصادر وأدقها وأوسعها ، ألحق به فى الأيام الأخيرة ثلاثة أجزاء سماها الملحق ، ووضع كتاباً فى تاريخ الشعوب الاسلامية . وقد فكرت اللجنة الثقافية فى ترجمة كتابه تاريخ آداب اللغة العربية ثم حققت ذلك بانتخاب لجنة كان منها بروكلمن نفسه ولكنها أخفقت خاصة بعد موت بروكلمن .

ومن المستشرقين الذين كتبوا بالألمانية غولد تسيهر المجرى اليهودى ، اشتهر بالدراسات الاسلامية فى الفرق والحركة الفكرية . وكان يتعصب لقومه ، نشر كتاباً فى الدراسات الإسلامية باللغة الألمانية ، وترجم إلى الألمانية كتاب المعمرين للسجستانى ، ونشر كتاب العقائد عن المرجئة والقدرية والمعتزلة .

وله بحوث وكتب أخرى .

ومن اشتهر من الإنجليز « بالمر » المتوفى ١٨٨٢ . اتقن اللغة إتقانا غريبا . ونقل طائفة من الأشعار الإنجليزية إلى العربية وقرض الشعر العربى ، طبع ديوان زهير أصلا وترجمة ، وألف كتاباً فى قواعد اللغة العربية . وكتب حياة هارون الرشيد ورسالة مسهبة عن رحلاته فى شبه جزيرة سيناء .

ومنهم المستشرق مرجليوث ، يمتاز بسعة إطلاعه على اللغة العربية وآدابها، نشر كتاب معجم الأدباء لياقوت ونشر رسائل أبى العلاء مع ترجمتها إلى الإنجليزية وألف كتابا فى مشاهد القدس ودمشق ، وله كتاب فى سيرة الرسول .

ومن المستشرقين الإنجليز كارليل ، كتب بالإنجليزية مصنفاً فى آداب العرب وشعرهم ، وألف كتاب الأبطال ، عقد فيه فصلا ممتعاً فى سيرة محمد ، وصوره تصويراً جميلا فى البطولة .

ومن الإيطاليين اغناطيوس جويدى ١٨٤٤ — ١٩٣٥ ، نشر قصيدة بانت سعاد فى مدح الرسول وكتاب الاستدراك لأبى تمير الزبيدى وكتاب الأفعال لابن القوطية المختص بالأمويين من تاريخ الطبرى ، وفهرست كتاب الأغانى ، وكتاب بلاد العرب قبل الإسلام ، وكتاب مبادىء اللغة العربية القديمة . وألقى أربعين محاضرة فى الجامعة القاهرة فى الجغرافية والتاريخ وأدبيات اللغة .

ومن مستشرقى هولانده دى خويه ١٨٣٦ — ١٩٠٩ ، وكل إليه تنظيم المخطوطات الشرقية والتعرف عليها فى مكتبة ليدن ، وقد وقف على نفائس هذه المخطوطات نسخ وحده جغرافية ابن حوقل وقسماً من جغرافية الأدريسى ، وطبع غرائب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام .

ونشر تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى ، والممالك والمسالك لابن خرداذبه ورحلة ابن جبير ، والمسالك والممالك لابن حوقل ، وجزءاً ضخماً من تجارب الأمم لابن مسكويه وجغرافية الاصطخرى ، ورسالة حى بن يقظان لابن سينا ، وطبع مصححاً طبقات الحفاظ للذهبى ووفيات الأعيان لابن خلكان وغير ذلك من مآثر العرب .

ومنهم دى يونغ المتوفى ١٨٩٠ ، نشر المشتبه فى أسماء الرجال للذهبى ، ولطائف

المعارف للثعالبي ، والخراج ليحيى بن آدم ، وفتوح البلدان للبلاذري وصحيح البخاري وغير ذلك .

أقبل رجال الغرب على هذه الذخيرة اقبالا منقطع النظير ، ينشرون ويترجمون ويؤلفون ويؤسسون الجمعيات والمكتبات ويقيمون المؤتمرات ليطلعوا قومهم على هذه الثروة الثمينة ، فاستفادوا وأفادوا وأيقظوا الهمم وبعثوا العزائم وفتحوا عيون الغربيين وعيون العرب على ما في هذه الثروة من مجد عظيم ، وما نقلوه من الشعر العربي إلى اللغة اللاتينية ديوان الحماسة وأشعار الهذليين وبعض أشعار الأغاني ، وإلى اللغة الفرنسية دواوين امرىء القيس والنابغة وطرفة بن العبد والخنساء والبردة للبوصيري ، وشعر الفرزدق ، وبعضاً من أشعار المتنبي وأبي العلاء .

وإلى الإنجليزية ، المعلقات ولامية العرب ، وأشعار الجاهلية ، وأشعار عنترة وديوان بهاء زهير ، وبعضاً من أشعار أبي العلاء ، وإلى الألمانية المعلقات وديوان عبيد وتائية ابن الفارض ، وشعر قيس بن الرقيات ولامية العرب وبعضا من ديوان ابي فراس .

ومما نقلوه من كتب اللغة والأدب إلى الفرنسية ملحة الأعراب ، وأطواق الذهب للزمخشري وألف ليلة وليلة ، ومقامات الحريري والآجرومية وكليلة ودمنة وكتاب المستطرف ، وإلى الإنجليزية مقامات الحريري ، أدب الكاتب ، ألف ليلة وليلة . ورسالة حي بن يقظان ، تاج العروس ، كليلة ودمنة وإلى الألمانية أطواق الذهب ، وكتاب سيبويه ، وألف ليلة وليلة ، كليله ودمنة .

أما كتب التاريخ فقد نقل إلى الفرنسية منها ، مقدمة بن خلدون ، أبو الفداء مروج الذهب ، طبقات الاطباء ، الفخري ، جغرافية الإدريسي ، ابن خلكان ، وإلى اللاتينية أبو الفداء ، مختصر الدول ، الافادة والاعتبار ، كشف الظنون ، تاريخ الطبري .

وإلى الانجليزية : ابن خلكان ، تاريخ اليمن لعمارة ، تاريخ الخلفاء للسيوطي ، رحلة ابن بطوطة ، ابن حوقل ، نفح الطيب .

وإلى الألمانية : كتاب المغازي ، وسيرة بن هشام ، وكتاب الإكليل .

ونقل القرآن إلى لغات عديدة مراراً ، كما نقلت كتب كثيرة فى الشريعة والتفسير إلى لغات متعددة .

وأقام المستشرقون مؤتمرات كثيرة ، وفى كل مؤتمر كانوا يدعون أقطاب الأدب واللغه يبحثون فى جلائل المسائل فى اللغة والأدب والتشريع والتفسير والحديث والعلوم وما إلى ذلك مما يكشف غوامض حضارتنا . وصفوة القول إن هؤلاء العلماء مهما إختلفت نياتهم وتباينت مقاصدهم قد أفادوا هــــذه الثروة فائدة كبيرة فى إحياء ما أندثر منها . وقد حفظوا لنا نفائسها فى مكتباتهم وفهرسوا لها ووصفوها ولم يكد يطلع القرن التاسع عشر على العالم حتى كانت مكتباتهم تزخر بهــــذه الأعلاق مما قدر بمائتى ألف وخمسين ألف مجلد .

ولم تقف مؤتمراتهم عند حدود البحث بل أخذت تقدم الجوائز لأنفس البحوث وأدقها فى مآثر العرب ، ومن ذلك ما قام به المؤتمر المنعقد فى استوكهلم عام ١٨٨٩ بدعوة اسكار الثانى ملك اسوج ونروج . فقد اقترح هذا المؤتمر على العلماء المختصين بتأريخ العرب فى الشرق والغرب تأليف كتاب يستوفى أحوال العرب قبل الإسلام ويستوعب ما كانوا عليه فى جاهليتهم من العوائد والأحكام واشترطت أن يكون مشتملا على بيان من يطلق عليه لفظ العرب ، وإقامة الدليل على فضلهم على غيرهم ، وبيان نسب من اشتهر من القبائل وذكر مساكنهم وكيف كان حال مكة أذ ذاك ، وعوائدهم فى المأكل والمشرب والزواج ، وتفصيل مجامعهم وأيامهم ومفاخرهم وأعيادهم وأفراحهم ومعتقداتهم وأوابدهم ومتعبداتهم وعلومهم وصنائعهم ومشاهير رجالهم فى الجود والحلم والحكم والشجاعة والشعر والخطابة والطب ، وأن يظهر الفرق بين حالتى الحضر والبادية ، وبأية وسيلة امكنهم فى زمن قصير أن يتقدموا ذلك التقدم العجيب ويتغلبوا على عدة ممالك واسعة وأقطار شاسعة يبلغ عدد سكانها أضعاف أضعافهم مراراً عديدة حالة كون بلادهم حارة مقحطة خالية من بواعث المدنية ، وهل بقى من آثارهم القديمة شىء بين من يسكنون البوادى اليوم ويدعون بالعرب مع إقامة الأدلة الكافيه والاثبات بالمستندات القوية لإثبات كل أمر منها ، وعلى المؤلف أن يستند فى استخراجاته إلى الشعر الجاهلى وما تضمنه من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والسير

والتواريخ الصحيحه. أرسل المؤتمر هذا الاقتراح إلى أجلة العلماء فى الشرق والغرب فكان من بين من لبى الطلب وقبل تلك الشروط التى مرت بنا علامة العراق وكاتبها الكبير السيد محمود شكرى الألوسى.

ولما حان اليوم الموعود عرض كتابه المسمى « بلوغ الأرب فى أحوال العرب » فى ثلاثة مجلدات على اللجنة المؤلفة لنقده وامتحانه، وبعد أن سبرت غوره وجدته خير ما ألف فى هذا الموضوع، وكان كاتبنا العربى قد أظهر فضائل العرب، ودحض أقوال الشعوبيين. فإذا التاريخ العربى صافى الأديم طاهر الذيل. وإذا هذا العنصر من أطيب العناصر مجداً فى وفاء وإباء وكرم وشجاعة وحلم وذكاء ومجتمع طيب، ولما فاز هذا الكتاب ونال به كاتبنا الكبير الوسام الذهبى من ملك الأسوج والنرويج وطبع ونشر فى العالم ذاع صيته وعلا ذكره فانتشر انتشاراً هائلا، وأصبحت بغداد بفضل هذا العالم الذكى موئل المستشرقين يزورونه ويأخذون عنه ويراسلونه. وقد كتب إليه الكونت كرلودى لندبرغ الكتاب التالى:

حضرة العالم الفاضل السيد محمود شكرى أفندى أعزه الله

أيد الله الأستاذ وشرح بالمعارف صدره، ورفع بالكمالات قدره، ولازالت تحييه المعالى وتخدمه بأبيضها وأسودها الأيام والليالى. نكتب إليه وفضله لدينا أظهر من الظهور، وأشهر من كل شهور معتقدين أنه يسر بما نتلوه عليه إذا ألقى بمقاليد سمعه إليه وذلك أن كتاب بلوغ الأرب جليل فى بابه وقد استحق التقدم على اضرابه، فإن جميع الكتب التى وصلتنا فى هذا الصدد مع ما بلغت إليه من كثرة العدد واختلاف مصادرها شرقاً وغرباً وبعداً وقرباً من أوروبا ومصر والشام والعراق وغيرها من الآفاق لم يحصل سواك من أربابها أحد على تلك الجائزة التى سبق بها الوعد، لأن الموضوع وأدبه عميق بعيد الطريق، غير أن كتاب الأستاذ مع ذلك أجمع الكل مادة وأوسعها جادة، فلذلك أنعم عليه صاحب الجلالة مولانا ملك السويد والنرويج بنيشان من الذهب أخضر العلاقة لا أخضر الجلدة من بيت العرب، وهذا النيشان لا يناله إلا عالم فاضل، وقد خص به الأستاذ دون سواه على كثرة الأمل. فليجعل صدره له حلية وليفخر به على نظرائه فإنما يحسن الفخر على العلية، وليعلم أننا قد عزمنا على طبع ذلك الكتاب تخليداً لمآثر صاحبه

فى خزائن الأدب فلينشط لمثله همته وليجرد على أعناق الخمول عزمته والسلام عليه ورحمة الله »

القاهرة فى ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٠٧

الكونت كرلودى لندبرغ
قنصل السويد والنرويج العام ووكيلها السياسى

إننا نرى فى هذا الاقتراح طريقة جديدة لإيقاظ شعور العرب والتنبيه على مآثرهم ، وأنهم أمة ذات ماضى مجيد يحق لها أن تنال السيادة لا أن تكون مسودة ويرى الأجانب من وراء ذلك انشقاق الصفوف بين رعايا المملكة المختلفين فى الجنس واللغة، وكانت الشعوب العربية تؤلف ثلثى رعايا الامبراطورية العثمانية وكان فى استنهاضها لفصلها عن الدولة إضعاف لهذه الامبراطورية .

الارساليات التبشيرية

ذكرنا آنفاً أن من بين طلائع المستشرقين الراهب جربرت الفرنسى الذى ارتقى كرسى البابوية عام٩٩٩ باسم سلفستر الثانى، والذى ثقف علوم العربيـة فى أشبيلية وقرطبة ، والذى كان عاملا قوياً للحث على دراسة اللغة العربية وتفهم القرآن وترجمته .

وذكرنا ما اقترحه الراهب « لول » على البابا فى إنشاء مدارس اللغة العربية فى أنحاء أوربا لتهيئة جماعة تبشر بالدين فى أنحاء الشرق العربى .

ثم ذكرنا كيف اتجهت أوربا بكليتها لمعرفة هذا الشرق عن طريق الاستشراق ثم ما قامت به فى فتح المدارس وتأسيس الجمعيات وإنشاء المكتبات ونشر الصحف والكتب واتساع الترجمة وما إلى ذلك .

وكان طبيعياً أن يكون اتصال هؤلاء المبشرين بالطوائف المسيحية بادىء ذى بدء ، وقد كانت المسيحية تتمثل فى البلاد العربية بمذهبين مهمين الكاثوليكى، والأرثوذكسى ، أضف إليهما المذهب البروتستانتى .

وكانت روسيا تجد فى نفسها حماية المذهب الأرثوذكسى ، وفرنسا وايطاليا تجدان نفسيهما أولى الناس بحماية المذهب الكاثوليكى . وانجلترة وأمريكا يسندان المذهب البروتستانتى ، ولفرنسا وجهة أخرى غير التبشير هى وجهـة سياسية، القصد منها الاستيلاء على سوريا بجميع أجزائها. وقد تكون هذه الأطماع تتردد فى صدور الايطاليين ، أما الانجليز فكانوا ينظرون إلى الشرق العربى أنه قنطرة الهند . وفى غمرة هذا التزاحم جاءت الارساليات التبشيرية دينية سياسية واشتد التزاحم فى فتح المدارس بين الارساليات الكاثوليكية والارساليـات البروتستانتية، وتدعم هذا التزاحم البعثات السياسية خفية وجهراً حسب ماتقتضيه الظروف .

وبينما كانت بعوث محمد على مستمرة إلى بلاد الغرب واستقدام الأساتذة لنشر التعليم الصحيح فى البلاد لا ينقطع وحركة اخوان التوحيد من محمد بن

عبد الوهاب فى الجزيرة قائمة والأزهر مفتح الأبواب بعد والى مصر بالمثقفين لارسالهم إلى بلاد الغرب والجريدة الرسمية فى مصر تنشر على الناس ، تجد هذه الارساليات التبشيرية الآتية من الغرب تنشط فى أعمالها فى فتح المدارس وتثقيف الناشئة لإيجاد جيل جديد يفهم الدين بلغة أهل البلاد .

ولما جاء ابراهيم باشا « نجل محمد على والى مصر » إلى سوريا ساعد على هذا الانتشار ، وفتح المدارس فى حلب ودمشق على غرار ما فعله أبوه فى مصر ، وكان ابراهيم يرمى من وراء ذلك أن يوضع الناشئة مع أقاويق العلم أقاويق الوطنية والقومية .

وتعتبر مدرسة غيتوره أقدم مدارس الارساليات. أنشئت عام ١٧٢٨ وأغلقت ثم أعيد فتحها عام ١٨٣٤ . والكلية السورية أنشئت فى بيروت عام ١٨٦٦ وهى بروتستانتية . وكان التزاحم بين هذه الارساليات على أشده حتى يروى أن الدكتور فاندايك رئيس مبشرى الامريكان كان يقول : « إنى ذاهب لأفتح مدرستين فى تلك القرية ، فإذا قيـــل له إنها لا تتحمل لصغرها ، قال سأكتفى بواحدة ، ولكننى متأكد أن اليسوعيين سيأتون بعد مدة قليلة ليفتحوا مدرسة ثانية .»

وقد حدث حادثان جليلان جعلا لهذه الارساليات فائدة ذات قيمة . وأول الحادثين إجماع الأرثوذكس العرب على انتخاب المطران دومانى البطريرك العربى خلفاً للبطريرك اليونانى المتوفى عام ١٨٩٩ . وبذلك انتهت سيطرة اليونان على الأرثوذكس فى سوريا وتعربت الكنائس الأرثوذكسية فى منطقة انطاكية وتوابعها . وقد وجدت هذه الحركة قبولا لدى روسيا القيصرية حينذاك التى تعتبر نفسها حامية هذه الطائفة لكونها أكبر دولة أورثوذكسية، وطفقت تفتح المدارس خاصة بالأراضى المقدسة وجعلتهاعربية، وأسست مدرسة لتخريج المعلمين والمعلمات بالقاهرة وبيت جالا . واهتم المعهدان بتنشئة المعلمين وتدريس اللغة العربية على أحدث أساليب التربية .

وثانى الحادثين أن من مبادىء المذهب البروتستانتى أن يتلى الإنجيل باللغة التى يفهمها الناس،وأن لكل أمة أن تقرأه بلغتها، وقد آمنت الكنيسة بدراسة اللغة العربية وآدابها تحقيقاً لهذا الغرض ، فلما عزم مبشروهم على بث الدعوة لمذهبهم

استهلوا عملهم بترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية ، واستعانوا على ذلك بأدبائها فى ذلك الوقت ، وبذلوا جهدهم لتعليمها تعليماً متقناً ، وطفقوا ينشئون رجال الدين من أبناء العرب ، وصارت الطقوس الدينية لصلواتها ووعظها وترتيلها تقام باللغة العربية .

أما الكنائس الكاثوليكية فقد رأت فى تيار البروتستانتيه ما يهددها ، فأجمعت رأيها وألفت وفداً للتفاهم مع البابا ولبيان أن الكنائس التي يشرف عليها الأجانب لا تستطيع أن تؤدى واجبها على أتمها طالما يقوم عليها أناس لا يعرفون العربية ولا يفهمون نفسية أهل البلاد ، وطالما لا تؤدى طقوسها بلغتهم ، وبذلك أصدر البابا منشوراً يحمى الكنائس الكاثوليكية العربية من منافسة الكنائس الأجنبية .

استعان البروتستانت بكتاب العرب المسيحيين فوجدوا بالأديب ناصيف اليازجى (١٨٠٠ — ١٨٧١) خير عون لهم ، كتب لهم الكتب المدرسية فى قواعد اللغة والأدب والمنطق والخطابة ، وشرعوا يدرسونها فى مدارسهم ولا يزال بعض هذه الكتب مستعملا فى المدارس المسيحية إلى اليوم .

وترجم لهم الشيخ بطرس البستانى ١٨١٩ — ١٨٨٣ الكتاب المقدس ، وكاد يتمه لولا أن عاجلته المنية فأتمه من بعده فانديك المبشر الأمريكانى . ومهما يكن فإن هذه المدارس التبشيرية أوجدت جيلا جديداً من رجال الدين يؤمنون بالعربيه ، يتكلمون ويخطبون وينطقون بلسان عربى متين ، وأوجدت طبقة ممتازة من الأدباء والشعراء يستمدون معانيهم وألفاظهم من ذخيرة اللغة العربية . يضاف إلى ذلك ما كانت تبذله فرنسا من الجهود المعنوية والمادية لتقوية الشعور بالميل إليها والرغبة عن الدولة العثمانية ، لقد كان يشرف على مدارس الكاثوليك مدرسون فرنسيون وإيطاليون . وكانت فرنسا تطمح فى الاستيلاء على سوريا ولبنان وترى نفسها حامية لهذه المدارس وأتباعها بصورة خاصة وللمسيحية بصورة عامة ، ولقد ولدت هذه الخطة متاعب جمة للنهضة العربية .

أجل ! تولد عن هذه الحركة التبشيرية نهضة أدبية عربية وإيقاظ سياسى بين الطائفة المسيحية بصورة خاصة ضد الدولة العثمانية ، وصار فريق من هؤلاء يرى

أنه لا بد من إصلاح شامل فى جميع أنحاء الدولة العثمانية تنال منه البلاد العربية حقها أو الانفصال عن الدولة وتكوين دولة عربية مستقلة . وفريق آخر وهم الذين رضعوا أفاويق الحب الفرنسى فى أحضان هذه المدارس يرون الانفصال عن الدولة والالتجاء إلى حماية دولة أجنبية أوربية ، وكانت فرنسا فى طليعة من يدعى لها من الدول . وقد رأينا هذه الظاهرة الغريبة عند أقباط مصر حين احتلها نابليون .

الجمعيات الأدبية وأثرها فى اليقظة السياسية

١ — الجمعية السورية :

أنشئت فى بيروت عام ١٨٤٧ بمعونة المبشرين الأمريكان لغرض نشر العلوم وترقية الفنون بين أبناء العربية . وقد انضم إليها نخبة من الأدباء والعلماء . وتكاد تكون مقصورة على المسيحيين، وظلت هذه الجمعية عاملة إلى عام ١٨٥٢ تجتمع مرة فى الشهر . وقد بلغت جلساتها ثلاثاً وخمسين جلسة وقد طبعت مأثورات هذه الجمعية التى تشتمل على الخطب والمقالات ، ومنها خطبة للأستاذ فانדايك فى لذة العلم وفوائده وأخرى لليازجى فى علوم العرب ، وخطبة فى الشرائع الطبيعية لسليم نوفل ، وأخرى فى تعليم النساء لبطرس البستانى . ويروى أن تأسيس هذه الجمعية كان بناء على اقتراح من البستانى واليازجى على المرسلين الأمريكان وقد نفس عليهم اليسوعيون جمعيتهم هذه فأسسوا الجمعية الشرقية على نمط الجمعية السورية وأعضاؤها كلهم من المسيحيين ، وانحلت هاتان الجمعيتان وتلتها جمعيات أخرى .

٢ — الجمعية العلمية السورية :

أنشئت هذه الجمعية عام ١٨٥٧ على غرار الجمعية السورية واقتفت آثارها خطوة خطوة ولكنها اختلفت عنها بأنها كانت تتكون من مسلمين ومسيحيين، وظلت عاملة إلى عام ١٨٦٨ ، واعترفت بها الدولة العثمانية رسمياً ، وعقدت اجتماعاً حضره متصرف لبنان وأذن لها بنشر أعمالها ، وانتظم فيها عدد كبير من جميع المدن السورية ومن رجال السياسة فى الأستانة ، وكانت مظهراً من مظاهر الوعى القومى. التقى فيها الشعور العربى على اختلاف الأديان .

٣ — الجمعية الخيرية :

أسسها محمد عارف باشا سنة ١٨٦٨ بمصر لنشر الكتب النافعة وأنشأ ابراهيم بك المويلحى حينذاك مطبعة سماها باسم الجمعية لطبع تلك الكتب ، وقد طبعت

طائفة من الكتب فى التأريخ والفقه ، منها أسد الغابة ، والفتح الوهبى ، وتاج العروس . وعلى أثر التنازع السياسى بين أفراد الأسرة الخديوية حيث كان محمد عارف يناصر فريقاً على آخر ، فر إلى الآستانة وتوفى بها وحلت الجمعية .

٤ — الجمعية الخيرية الإسلامية

تأسست هذه الجمعية فى الاسكندرية عام ١٨٧٨ ،وكانت علمية أدبية تشوبها روح سياسية اجتماعية ، وكان الباعث على تأسيسها ما كان يراه المصريون من استئثار الأجانب بمرافق البلاد الاقتصادية وتأخر حال المصريين.وكان همها فتح المدارس لتعليم البنين والبنات وتهذيب أخلاقهم على أن تكون تلك المدارس حرة ، وقد فتحت مدرسة وكلت أمرها إلى عبد الله نديم تعاونه لجنة من أعيان الاسكندرية فى إدارتها . وكان أعضاء الجمعية يتبادلون الخطب ليلا فى الموضوعات العلمية والاجتماعية ، وقد وضعت المدرسة رواية تمثيلية اسمها « مصر وطالع التوفيق » ومثلتها بلهجة تنم عن أسف على ما عليه حال مصر ، فأوجس القوم منها خيفة ورأوا فيها مقاومة للتيار الأجنبى ، وتربصوا بها حتى إذا ابتدأت ثورة عرابى أقفلوا أبوابها .

الصحافة

لم يعرف الشرق العربى هذا النوع من بواعث النهوض ومقومات المدنيـــة الحديثة قبل حملة نابليون على مصر ، فلما دخل الفرنسيون مصر أنشأوا جريدتين تصـدران باللغة الفرنسية ونشرة سموها التنبيه ينشر فيها ما يجرى من الأمور فى دوان القضايا .

فلما جلا الفرنسيون عن مصر وصار الأمر إلى محمد على أنشأ أول جريدة عربية سميت الوقائع المصرية ، وكانت تصدر بادىء الأمر باللغة التركية ، ثم بالتركية والعربية ، وأخيراً اقتصرت على العربية،ولا تزال تصدر إلى اليوم تحرر فيها الوقائع الرسمية .

ثم تلتها فى الظهور جريدة الأحوال عام ١٨٥٥ لصاحبها رزق الله حسون الحلبي. ولم يزد عمر هذه الجريدة على عام ، فقد كانت لهجتها ضد الدولة العثمانية فقررت الدولة سدها وإلقاء القبض على صاحبها الذى فر إلى روسيا .

وصدرت جريدة الأخبار عام ١٨٥٨ لمحررها خليل الخورى فى بيروت وانقلبت هذه الجريدة إلى شبه رسمية لأن الحكومة كانت تجرى راتباً لصاحبها .

وفى سنة ١٨٦٠ أصدر أحمد فارس الشدياق جريدة الجوائب فى الأستانة وكانت هذه الجريدة منبراً تتبارى عليه أقلام كتاب العرب وأدبائهم. وبعد صدور الجوائب بسنة صدرت جريدة فى تونس باسم الرائد التونسى. وتوالى صدور الجرائد فى البلاد العربية ، وتكاد تكون كلها شبه رسمية يشرف عليها الولاة. فقد أنشأ مدحت باشا جريدة الزوراء فى بغداد عام ١٨٦٨ . وصدرت جريدة سوريا فى دمشق عام ١٨٦٥ وجريدة لبنان أصدرها حاكم لبنان عام ١٨٦٧ والفرات فى حلب عام ١٨٦٧ .

اتسعت الحركة الفكرية اتساعاً مدهشاً ، واستلزم ذلك الخوض فى شئون الدولة العامة من حيث الإصلاح والوضع الاجتماعى والسياسى للعناصر التى كانت تتشكل منها الامبراطورية العثمانية، وكانت الجمعيات التبشيرية والبعثات الدبلوماسية فى البلاد لا تألو جهداً فى إثارة الخواطر وتنبيه الناس على ما هم عليه من الأوضاع الشاذة فاستتبع ذلك ملاحقة السلطات لذوى الرأى وللخارجين على ما تريده لنفسها، واشتد الضغط على الكتاب وبخاصة المسيحيين فهاجر فريق منهم إلى مصر وكانت موئلا لهم، وشرعوا ينشئون الصحف. وأهم هذه جريدة الأهرام عام ١٨٧٦ فى الاسكندرية فلما حدثت ثورة عرابى واحتل الإنجليز مصر عام ١٨٨٢ تحولت الصحف إلى القاهرة . وأول جريدة يومية صدرت فيها جريدة الزمان عام ١٨٨٢، ثم أقفلتها الحكومة .

وتأسست جريدة المقطم سنة ١٨٨٨ . وفى احتلال الإنجليز لمصر انقسمت الصحف على البلاد وعلى نفسها ، فمنها ما كان يوالى العثمانيين ويعينهم على الإنجليز ومنها ما يوالى فرنسا ويعينها على الإنجليز ، ومنها ما يوالى الإنجليز أنفسهم، وكانت الزمان أسبق الصحف إلى موالاة المحتلين . ثم تبعتها المقطم تنطق بلسان بريطانيا فاغتاظ الوطنيون من ذلك، وأنشأوا جريدة المؤيد، فكان لظهور هذه الجريدة أثر

كبير فى النفوس، وكانت مهداً لظهور الجرائد الوطنية ، فكانت مدرسة للروح السامية ، وكان كبار الوطنيين يناصرونها . أما جريدة الأهرام فكانت ضالعة مع الفرنسيين. وتتابع ظهور الصحف واختفاؤها وصارت لها وجهتان إما « مقطمية » أى انجليزية أو « مؤيدية » أى وطنية ومعنى ذلك : إما مع الاحتلال أو عليه . وكانت الجرائد القبطية كلها احتلالية .

وصفوة القول كانت البلاد العربية تموج بمجموعة من أجلة العلماء والمصلحين والسياسيين الذين أيقظوا فى كتاباتهم وخطبهم وأحاديثهم كوامن العزة فى النفوس ودفعوا الأمة إلى الحرية والاستقلال والطموح . وكان من نتاج الحركة الفكرية تأسيس الجمعيات العلمية والأندية الأدبية وظهور الصحف والمجلات التى أصبحت منابر للأقلام ومبادىء لبث الأفكار. ومن ثم تطورت الحال إلى تأليف الأحزاب وتكوين الجمعيات السياسية والنوادى التى تهدف فى أعمالها إلى الإصلاح وتغيير الأحوال إلى أحسن منها ، فقد كانت الدول العثمانية قد اوفت على الشيخوخة من جراء ما أصابها من النكبات فى البلقان وفى البلاد العربية حيث أخذ الطامعون ينقصونها من أطرافها. وشرعت الأقوام الأوروبية فى البلقان تعضدها أوروبا تثير القلاقل للتخلص من الحكم العثمانى. بل لقد انفصل فريق منها فعلا عن جسم الدولة، والدولة تزداد ضعفاً يوماً بعد يوم والديون تتراكم عاماً بعد عام ، وناء كاهل المملكة بها حتى صارت لا تقوى على رفع أوزارها ، وكانت فرنسا التى غنمت الجزائر وتونس لاتنى تحدث المشاكل وتعلن على رءوس الملأ أطماعها فى بلاد الشام . وبريطانيا رابضة على ضفتى القناة[1] فى مصر وجاثمة على فم الخليج الفارسى وباب المندب يهمها ضعف الدولة على أى حال من الأحوال لتستطيع أن تملى على السياسة الدولية ما يحفظ لها طريق الهند . وإيطاليا ترنو بعين شرهة إلى ليبيا وتعتبرها ملكا من أملاكها وتتربص بمملكة السلطان الدوائر لتثب وثبتها ، وروسيا تثير القلاقل فى البلقان، وتود فى كل لحظة أن تزيل تركيا من الوجود لتقف أقدامها على ضفاف البسفور ، ويعزو السياسيون والمصلحون هذا الضعف إلى الاستبداد

---

(١) تم توقيع الجلاء عن القناة فى ١٩ أكتوبر عام ١٩٥٤

الحميدى الذى ذكرنا طرفاً عنه آنفاً . ويجدون فى إزالة هذا الاستبداد إصلاحا يؤدى إلى قوة الدولة وإقامة حكم عادل يعود بها إلى شبابها الأول ، فكان شبان الامبراطورية على اختلاف أجناسهم من عرب وترك وأكراد وأرمن وألبان يرون ضرورة قيام حركة قوية تزيل هذا العرش المستبد بالأمر ، ولكن الأيدى الخفية التى كانت تلعب من وراء ستار بلبلت الأفكار وفرقت الميول ، فكان من جراء ذلك أن بدأت كل جماعة تفتش لها عن رائد لا يكذب أهله، وتبلورت الأمور على حسب ما نفصله فى البحث التالى .

حركات الإصلاح السياسية

فى العهد الحميدى

تمخض الاستبداد الحميدى عن انبعاث جمعيات سرية أخذت تعمل فى الخفاء لايدرى بعضها ببعض، وتكاد تكون كلها متفقة على إيجاد وسيلة للإصلاح والخلاص من هذه اليد الحديدية والحكم المطلق ، وتبلورت هذه الجمعيات عن جمعية الاتحاد والترقى التى اختلف المؤرخون فى بروزها للوجود. والراجح أن نواتها نبتت فى جنيف عام ١٨٩١ ، وكان قوامها فتيان من تبعة الدولة العثمانية المؤلفة من أقوام متعددة ، وكان العدد السائد فيها على الترتيب التالى : الأتراك ويشكلون ... وبينهم اليهود ثم تأتى بعد ذلك الأجناس الأخرى ، وقد انضم إليها كبار الساسة والمصلحون والضباط الأحرار من الأتراك. ولم تلبث قليلا حتى أخذت تبدأ عملها باستمالة قواد الجيش إليها ، فنجحت فى كسب ولاء الفرق الموجودة فى مكدونيا، وصارت بيدها قوة لا يستهان بها، وشرعوا يعملون على انقاذ كرامة تركيا من الإهانات التى لحقت بها فى حروب البلقان وتدخل الدول فى شئونها فأعلنت هذه الفرق الثورة والعصيان ، وطالبت بإعادة الدستور. ثم انضمت إليها الفرق الموجودة فى جيش الأناضول، وأرسلوا إلى قصر يلدز الرسائل يطالبون بعودة الدستور، واشتدت الحركة حتى انضم إليها النساء والرجال من أبناء الشعب، فلم ير عبد الحميد بدأ من الخضوع لمطالب القوم فى إعادة الدستور . ويروى عنه أنه حين أطل من قصر يلدز ورأى الجموع الغفيرة تطالب بالحرية قال كلمته المشهورة ، هذه هى الأمنية التى عملت لها طول حياتى ، لكن الخونة هم الذين حالوا بينى وبين شعبى .

قد يكون السلطان صادقاً فى قوله ، فان البطانات فى جميع أدوارها تحول بين رغبة الحاكم ورغبة الرعية . ومهما يكن فقد فثأ السلطان بهذه الكلمة سورة الثائرين واطمأنوا إليه. وما أن اجتمع البرلمان حتى انقلب على عقبيه وانتقم منه شر إنتقام، وعزز انتقامه بما بثه من الآراء حول هذه الحركة الاتحادية الخارجة على

الدين وعلى ولى الأمر ، وكان سلوك الاتحاديين من الترك ضد القوميات الأخرى، معيناً له ففتك فتكته البكر باغتيال عدد كبير من الأحرار وتقتيل بالضباط حتى بلغ من قتلوا منهم ثلثمائة رجل،ونهب البرلمان وقتل بعض أعضائه ومن ضمنهم النائب العربى الأمير محمد ارسلان.ولكن لم يتم له ذلك فقد جمع الاتحاديون قوتهم،وأعلنوا الزحف على العاصمة،وألفوا حكومة ثورية أعلنت سقوط حكومة العاصمة وسار محمود شوكت باشا وأحتلها فى ٢٤ نيسان عام ١٩٠٩.والتأم مجلس المبعوثان وقرر خلع عبد الحميد وإجلاس أخيه محمدرشاد على العرش. وبذلك اختفى حكم ملك مستبد من الوجود إلى الأبد ، وأخذ الاتحاديون زمام الحكم بأيديهم فى ظل الدستور .

كانت حالة الدولة سيئة جداً إبان إعلان الدستور ، وكان العرب مشفقين على بقية بلادهم من الضياع،لأن الدولة العثمانية صارت لا تدفع أذى ولا تزيل شراً فأخذوا يفكرون فى الأمر تفكيراً جدياً،ووضعوا خطط الإصلاح التى يرمون من ورائها إلى الإحتفاظ بكيانهم .فلما حدث الانقلاب الدستورى فرحوا به واستقبلوه بالبشر والحماسة وانضموا إلى الترك علماً منهم بأنه لم يبق فى الدولة إختلاف عنصرى .

كان إعلان الدستور إيذاناً بانطلاق الناس من قيود الإستبداد وإعلانا بانبلاج نور الحرية،فهب أقوام الامبراطورية يؤلفون الجمعيات ويفتحون النوادى ويعلنون ماكان من أمرهم سراً ، فقد كان للروم والأرمن جمعيات منظمة سرية جعلوها شرعية علنية.وقام العرب فأسسوا جمعية الإخاء العربى العثمانى،وفتحوا نادياً بهذا الإسم.وكان من مبادىء هذه الجمعية الصداقة التركية العربية.وقد تم افتتاحها رسميا وحضره فريق من أعضاء جمعية الاتحاد والترقى.وكان من أهدافها تحسين أحوال العرب عامة وتشجيع التعليم وبث الألفة بين أقوام الامبراطورية ، وكان باب الإنتساب إليها مفتوحا أمام العرب جميعهم على إختلاف نحلهم ، كما قررت أن تنشىء لها فروعاً فى الأقاليم العربية جميعها ، وأنشأت فعلا جريدة تبث آراءها ومقاصدها .

لقد ظن العرب بالاتحاديين خيراً ، ووضعوا أيديهم بأيديهم . ولكن ما لبث الأمر قليلا حتى تغير.وكان أبرز مظاهر هذا التغير ميدان الانتخابات البرلمانية

فقد وجهتها جمعية الاتحاد والترقى وجهة تكفل لها الأكثرية وأن يرجح العنصر التركى على العناصر الباقية جميعها . وبالرغم من تفوق العرب على الترك بالعدد فقد افتتح البرلمان فى شهر كانون الأول وضم فى أعضائه (١٥٠) نائباً تركياً ، (٦٠) نائباً عربياً وكان عدد الأعيان (٤٠) لم يكن فيهم إلا ثلاثة من العرب

ما كانت هذه النتائج مرضية لأحرار العرب ولا للسلطان المغلوب على أمره فدبر السلطان تلك الإغتيالات التى مر ذكرها وهجم أعوانه على البرلمان ، فسالت الدماء وقتل الأبرياء وطاح عرش الاستبداد .

جمعية الإخاء العربى العثمانى

تأسست هذه الجمعية عام ١٩٠٨ عقب إعلان الدستور وأسمها يدل على مقصدها . فقد كان العرب يرغبون فى معونة الأتراك فألفوا هذه الجمعية رغبة فى توحيد العمل مع جمعية الاتحاد والترقى لصيانة الدستور ورفع مستوى الحياة السياسية والاقتصادية والإجتماعية لهذه الدولة المنهوكة . ومن ثم إعلاء شأن العرب الذين يكونون الجزء الغالب فى الإمبراطورية . وكان من حق كل شخص ينتسب إلى العرب موطناً ومولداً الاشتراك فى هذه الجمعية على شرط أن يكون متصفاً بالصفات الحسنة .

وتتلخص أهدافها فى إعلاء كلمة العرب عن طريق نشر العلم والمعرفة واستثمار موارد الثروة فى بلادهم ولرفع مستواهم المعيشى وتصنيع البلاد واسكان العشائر وتعميم العدل والمساواة بين الرعية ومن ثم التفاهم مع الاتحاديين الذين أخذوا يسيئون إلى العرب جهراً وعلانية . وقد أسهم الطلاب العرب فى الآستانة فى هذه الجمعية ، وحملوا على الاتحاديين حملات موفقة . ولم تلبث إلا قليلا حتى أدركها الوهن لشدة مقاومة الأتراك لها وهم أهل الحكم وبيدهم مقاليد الأمور فأقفلوها .

مثل من مقاومة الاتحاديين

للعرب

قاوم الاتحاديون جمعية الإخاء العربى التى كانت ترغب فى معونتهم معونة صادقة حتى أنهكوها، فانحلت وسدروا فى غلوائهم،فأخذوا يطاردون ضباط العرب و أول ما فعلوه أنهم منعوا أى ضابط عربى من الإلتحاق بالبعثة العلمية إلى ألمانيا ، و استدعوا الضباط العرب جميعهم من أوطانهم وأبقوهم فى الأستانة ، وشرعوا يقصون العرب عن الوظائف الكبيرة فى الدولة خاصة فى وزارة الخارجية . وأهملوا العنصر العربى من الدعوة فى الاجتماعات التى غايتها التآلف بين العناصر العثمانية ، ومنعوا إدخال العرب من أعضاء جمعية الاتحاد فى اللجنة المركزية ، ولم يسمحوا لأى عضو عربى فى حضور المذاكرات السياسية التى كانت جمعية الإتحاد تعقدها فى الأستانة لهذا الغرض،واستبدلوا الولاة والمتصرفين والقضاة من العرب بغيرهم من الترك، وانتزعوا وزارة الأوقاف من العرب وأعطوها إلى تركى ، وكانت تكاد تكون خاصة بالعرب . وزادوا فى غلوائهم فعارضوا كل مشروع علمى وأدبى فى البلاد العربية ، وقاوموا اللغة العربية.ولم يستطع القضاة والقائمقامون التفاهم مع العرب فى العراق وسوريا إلا بترجمان .

وكان عقلاء العرب والترك يحاولون تخفيف هذا التوتر ، وقد دعا ضباط العرب وزعماؤهم ذوى الرأى من الاتحاديين فى أواخر ١٩٠٩ للحد من هذا التباعد وللتفاهم بين العنصرين وكاد الأمر يتم لولا وقوف بعض غلاة الاتحاديين وفعل عقلاء الترك وأحرارهم مثل هذا وزادوا على ذلك بأن أنشأوا جمعية الحرية والائتلاف غرضها تآلف العناصر التى تتكون منها الإمبراطورية العثمانية ومنح ولاياتها إدارة مستقلة على أساس اللامركزية .

وقد وجدت هذه الفكرة ترحيباً من جميع العناصر، وانتظم فيها العرب والأرمن والأكراد وكادت تنجح.فقد قامت بمظاهرة قوية سقطت على أثرها وزارة الاتحاديين وحل البرلمان وتشكلت وزارة ائتلافية لكن الأمر كان أوسع

عما كان ينظر إليه فإن اضطرابات المملكة من جهة البلقان واطماع الدول الأجنبية كانت تحول دون أي اصلاح وفتيان الأتراك الذين أصبح زمام جمعية الاتحاد والترقي بأيديهم غلوا فى الأمر وكشفوا الستار عن نياتهم وعدلوا منهجهم وجعلوه تركيا خالصاً ، وبذلك يكاد موقف العناصر الأخرى قد تحدد وعرف كل ما سيفعله .

١ — معارضة العرب الجمعيات العربية

قد بينا أن نشرات وزعت على الناس فى بيروت عام ١٨٨٠ . وقد تكون هذه النشرات بتحريض يد أجنبية، ويرجح البعض أنها برأى مدحت باشا والى سوريا حينذاك،وأن هناك جمعية سرية كانت تعمل بعلمه.وقد كانت هذه النشرات مثيرة للعرب.ولأول مرة تنبه الناس على أن الخلافة مغتصبة.وأنها من حق العرب ، وأن على العرب أن يعيدوا بجدهم الغابر فيوحدوا صفوفهم ويعملوا يداً واحـــدة للخلاص من المستعمر الذى يكيدهم بالقضاء على حريتهم وعلى لغتهم — وتهيب بالعرب فى جميع الأنحاء أن يساعدوا هذه الجمعية التى أخذت على نفسها تحرير سوريا ولبنان وتوحيدهما وحمل الدولة على الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية وتخفيف الضغط الإرهابى الذى يكتم أنفاس الحرية ، وحمل الدولة على عدم استخدام الجندى العربى خارج حدود بلاده .

وجاء أيضاً أن أول جمعية عربية أنشئت فى باريس عام ١٩٠٤ باسم رابطة الوطن العربى تديرها هيئة عربية عليا . وقد وجهت هذه الهيئة نداء إلى العرب القاطنين فى تركيا تحثهم على الاستقلال.وفى عام ١٩٠٥ وجهت مثل هذا النداء إلى العالم الإنسانى فى أوربا وأمريكا أبانت فيه مطالب العرب ، وقد صار هذا النداء فيما بعد أساساً للمناهج الأخرى فى تأسيس الجمعيات .

٢ — المنتدى العربى

كان لانفصال الاتحاديين جمعية الإخاء العربى أثر سيىء فى نفوس العرب فاندفعوا يتلمسون العمل فى طريق آخر لا يناله شر الاتحاديين.فعمدوا إلى السرية والعلنية المقنعة . وكان أول عمل مقنع ظاهرة أدبى وباطنه سياسى هو المنتدى

الأدبى ، قام بتأسيسه نخبة من الموظفين والنواب والطلاب والعلماء والكتاب على أن يكون مثابة يأوى إليه المحتاجون من طلاب العرب الذين يؤمون العاصمة لطلب العلم ومكاناً يجتمع فيه العرب الموجودون فى دار الخلافة ومن يزورها من البلاد العربية . وقد ورث مالية جمعية الأخاء العربى ، ثم قام أعضاؤه بتمثيل رواية صلاح الدين الأيوبى فدرت عليهم مالا وفيراً . وفتح المنتدى بحفل كبير يليق به . وكان هدفه الظاهر ما ذكرنا وأن يكون أدبياً يعنى بالأدب وإلقاء المحاضرات العلمية ، ولذلك أسست فيه مكتبة وقاعة للمحاضرات ودار للضيافة وقد كثر المنتمون إليه حتى بلغ مجموعهم الآلاف ، وأنشئت له فروع فى أنحاء البلاد، وكان ملتقى الوافدين من العرب من البـــلاد جميعها.وقد أقام هذا المنتدى حفلات كثيرة وطنية حماسية ، ولعب دوراً مهماً إبان عقد الاتفاق بين زعماء العرب والاتحاديين واستمر فى نشاطه إلى عام ١٩١٥ حيث أغلقته الحكومة .

٣ — الجمعية القحطانية

جمعية سرية أسست فى الأستانة عام ١٩٠٩وكان من زعمائها الضابط المعروف عزيز على المصرى ، وقد كانت واضحة المنهج قوية بمن انتسب إليها حيث عرف عن أعضائها الجرأة والاقدام . وكانت ترمى إلى أن تكون الدولة العلية ذات تاج مزدوج أى أن السلطان يضع على رأسه فى عاصمة الخلافة تاج المملكة العربية إضافة إلى تاجه التركى — وتتكون المملكة العربية من جميع المقاطعات العربية ولها مجلس نيابى خاص وإدارة محلية على غرار امبراطورية النمسا والمجر — وهو منهج جرىء أدرك أصحابه أن الدعوة إلى تحقيقه علناً أمر مستحيل ، لأن ذلك مما ترتعد له فرائص غلاة الترك فاتخذوا السرية لهم سبيلا — ووضعوا للأعضاء كلمة سر يتفاهمون بها كما أنهم كانوا يختارون الأعضاء بدقة وحذر ، وقد بذلوا جهداً لاستمالة ضباط العرب فى الجيش التركى إليهم بيد أن زمام هذه الجمعية قد أفلت من يد مؤسسها لأن أحد الأعضاء ممن لا يؤمنون بذلك أفشى سر الجمعية ، فخاف الأعضاء على أنفسهم فأهملوها وتركوها تتلاشى من الوجود ، وظلت فكرة الجمعية تتردد فى ذهن عزيز على حتى صمم على تأليف أخرى على غرارها تحل محلها ، وتم له ذلك بتأليف جمعية العهد.

٤ — جمعية (العربية الفتاة)

أسسها فى باريس فريق من طلاب العرب الذين كانوا يدرسون هناك وكانوا كلهم من المسلمين، وقد أخذ عملهم فى هذه الجمعية سبيل الجد والكتمان والحذر وكانوا لا يضمون إليهم أحداً إلا بعد أن يمر بتجربة طويلة يتبينون فيها صدق عهده، وكان منهاج هذه الجمعية تخليص العرب من الحكم التركى واستقلال البلاد العربية عن أى سلطة أجنبية، ولما أتموا دراستهم وعادوا إلى بلادهم، انتقل مركزها إلى بيروت. وقد لعبت دوراً مهماً فى الحركة العربية ونمت هذه الجمعية نمواً سريعاً وبلغ مجموع أعضائها مائتين. ولقد بلغ من حرصهم على العهد وكتمان السر أن حاول أحدهم الانتحار وفضل الثانى المشنقة لشدة ما عذب جسماهما فى سبيل الاعتراف.

٥ — جمعية العهد ومقاومة الاتحاديين

كونها عزيز على المصرى عام ١٩١٣، واقتصر فى أعضائها على الضباط العرب. ولما كان عدد العراقيين فى الجيش التركى كبيراً صارت كثرة الأعضاء لهم. وكانت هذه الجمعية شديدة فى سريتها شدة جمعية (العربية الفتاة). وقد أسس لها فرعان: فى الموصل وبغداد، وقد بذلت الجمعيتان جهوداً جبارة فى سبيل استقلال البلاد العربية، ولم تدر إحداهما بالأخرى. وقد تلاقتا فى دمشق عام ١٩١٥ ووحدتا جهودهما لإعداد الثورة.

وكانت أهداف جمعية العهد ترمى إلى الاستقلال الداخلى لبلاد العرب على أن تظل متحدة مع حكومة الآستانة اتحاد المجر مع النمسا، وأن تبقى الخلافة بيد آل عثمان، وأن يكون العرب رداً للأتراك فى المحافظة على بقاء الآستانة بيدهم، وأن تسعى الجمعية لبث المثل العليا كى تستطيع الأمة الاحتفاظ بكيانها السياسى.

اهتزت جوانب الآستانة من هذه الجمعية. وارتعدت فرائص الاتحاديين فرقاً منها، فأجمعوا أمرهم عشاء وقرروا إبعاد ضباط العرب من الآستانة وإرسالهم إلى المناطق التركية لكى يخلصوا من شرهم، وكان عددهم يربو على ٤٩٠ ضابطاً منهم.

٣١٥ منتمون لجمعية العهد ، وتولية القيادة إلى الترك فى بلاد العرب والاسراع فى تنفيذ سياسة التتريك وأن يتولى ذلك أحمد جمال باشا . ومقاومة الحركة الإصلاحية فى بيروت وباريس وإلغاء الأحزاب العربية كلها، وإيجاد شعبة سياسية فى وزارتى الداخلية والخارجية للاشراف على الشئون العربية ومقاومة كل حركة تدعو إلى الانفصال واقصاء العرب الذين هم ضد الحكومة واستمالة غيرهم، وتعزيز حركة الاتحاديين فى أنحاء البلاد .

وفى يوم ٩ فبراير فى عام ١٩١٣ ألقى القبض على رئيس هذه الجمعية الضابط عزيز على المصرى حيث وجد الاتحاديون فى هذا الضابط الجرىء قوة هائلة فأرادوا القضاء عليها والتخلص منها،وظنوا أن الجو قد صفا لهم بإبعاد الضباط العرب عن الأستانة ، فدبروا له مكيدة وألقوا القبض عليه ، فلما ذاع الخبر بين الناس قام العرب وقعدوا لهذا الأمر.وتوجه بعض إخوانه إلى الزهراوى وقالوا له أبلغ الحكومة التركية : « إن دماءنا نحن العرب يجب أن تحفظ للدفاع عن الوطن فلا تضطرنا إلى إراقتها فى سبيل الأفراد » .

لم تجد محاولات العرب نفعاً ، وقدم عزيز بتهمة الخيانة لمناقضة أفكاره وآرائه لمصلحة الاتحاديين . ذلك أنه سعى لإنشاء دولة عربية مستقلة عن الدولة فى ليبيا ، وأنه أخذ رشوة من الإيطاليين مقابل تسليم البلاد إليهم ، وأنه عدو لرجال الاتحاد ، وما إلى ذلك من التهم التى كان عزيز بعيداً عنها ، لقد عرف هذا الضابط الجرىء بقوة الشكيمة والرجولة . وكان ذكياً مقداماً ، تخرج هذا الضابط فى مدرسة الأركان بتفوق ، وعين فى هيئة أركان حرب الجيش الثالث فى مقدونيا وانتسب إلى جمعية الاتحاد والترقى،واشترك بالزحف على العاصمة فى ثورة ١٩٠٨ ولما أدرك أن سياسة الاتحاديين ترمى إلى مقاومة الحركة العربية نفض يده منها وأسس هو وزميله الجزائرى الجمعية القحطانية ، ثم جمعية العهد ، ولما نشب الخلاف بين الدولة واليمن أرسل عزيز من قبل الدولة إلى إمام اليمن،ونجح فى إقناعه بتسوية الخلاف بينه وبين الباب العالى.وقد أحرز انتصاراً باهراً فى ليبيا على الإيطاليين بالرغم من قلة ذات اليد وقلة العدد والعدة،وكانت معركة تموز التى انتصر فيها على الطليان من أكبر المعارك من الوجهة الحربية ،ووصفتها بعض صحف الغرب أنها تشبه معركة « كان » التى انتصر فيها هانيبال على الرومان . ولما شاع فى الأوساط أن رئيس هذه الجمعية قد حكم عليه بالاعدام بعد هذه الاتهامات والمحاكمة الخيالية،

ثم تأكد ذلك قامت دنيا العرب وقعدت لهذا الحادث الجلل، وتواردت الاحتجاجات من جميع أنحاء البلاد ، وشكلت لجنة برياسة شيخ الأزهر للدفاع وذهبت وفود عديدة إلى اللورد كتشنر فى القاهرة، وتضافرت الجهود من جميع الجهات حتى خفف حكم الاعدام إلى الحبس الشديد والأعمال الشاقة لمدة خمسة عشر عاماً ، كانت نتيجة هذا العمل أن تحركت مشاعر البلاد العربية وتقاربت آراؤهم فى دفع الأخطار واستقر الرأى على المضى فى الكفاح إلى النهاية ، فقد كانت قضية عزيز قبساً أثار الشعلة فى النفوس ظلت تلتهب حتى اندلع لهيب الثورة .

٦ — حزب اللامركزية

وفى عام ١٩١٢ تأسس حزب اللامركزية الادارية العثمانى فى القاهرة، وبدأت القاهرة تساهم فى الحركة العربية مساهمة فعالة بعد أن كانت مركزاً للقضاء على حركة ابن عبد الوهاب. ومن ثم القضاء على فكرة الخلافة العربية على يد واليها محمد على وولديه ابراهيم وطوسون . وقد تأسست لهذا الحزب فروع فى سوريا والعراق . وكان هذا الحزب يهدف إلى اقناع الدولة العلية بضرورة حكم اللامركزية وتوحيد الرأى العام العربى إلى المطالبة بذلك. وقد ظهر الحزب لأول مرة جريئاً ووقف وجهاً لوجه أمام الاتحاديين ، وقد جاء فى المادة الثالثة من نظامه . « ليس الحزب خفياً وليس فيه ما يعد من الأسرار فهو ينشد مقصده المبنى على المطالبة باللامركزية الواسعة جهراً وعلانية دون الخشية من أحد لاعتقاده أن الدولة لا تبقى فى العالم السياسى إلا إذا بنيت حكومتها على أساس اللامركزية الادارية .

وفى المادة الرابعة منه أن الدخول فيه مباح لكل عثمانى بلغ العشرين من العمر على شرط أن يكون أولا من المتمتعين بجميع الحقوق المدنية ، ثانياً غير محكوم عليه بحكم مخل بالشرف ، ثالثاً غير مشتهر بسوء السيرة ، رابعاً أن يقبل القواعد المبينة فى برنامج الحزب .

٧ — الجمعية الاصلاحية فى بيروت

وفى عام ١٩١٢ تأسست الجمعية الاصلاحية فى بيروت وأقـــرت منهاجها فى جلستها الثالثة المنعقدة فى دار المجلس البلدى بإذن من الحكومة يوم الجمعة

الموافق ٣١ كانون الثانى من عام ١٩١٣ وقد جاء فى مستهل هذا المنهاج :

الحكومة العثمانية حكومة دستورية نيابية ، ويتألف المنهاج فى خمس عشرة مادة جاء فى المادة السابعة منه ، وتعين الحكومة المركزية مستشارين من الأجانب على شرط معرفتهم إحدى اللغات الثلاث العربية أو التركية أو الفرنسية للدوائر الآتية فى مركز الولاية : وهى الجندرمة والمالية (ويلحق بها غرفة التجارة) والبريد والبرق والجرك،وتعين أيضاً مفتشاً أجنبياً عاماً لكل لواء من الولاية يخول حق تفتيش أية دائرة كانت فى اللواء،ويكون مرجعه مستشار مركز الولاية الداخلة تلك المسألة المراجع فيها ضمن دائرة اختصاصه ، ويعين المجلس العمومى مستشارين من الدول التى ترضاها الحكومة المركزية للدوائر الآتية وهى : مجلس الولاية العمومى والعدلية والنافعة وللعارف والبلدية والبوليس ويلبس هؤلاء المستشارون الشعار العثمانى فى أوقات العمل ومدة الاستشارة خمسة عشر عاماً يمكن تجديدها .

وجاء فى المادة الرابعة عشرة من منهاجها . إن اللغة العربية تعتبر اللغة الرسمية فى جميع المعاملات داخل الولاية،وتعتبر أيضاً لغة رسمية كاللغة التركية فى مجلس النواب والأعيان .

وفى المادة الخامسة عشرة : تخفض الخدمة العسكرية إلى سنتين،وتقضى الخدمة أيام السلم فى الولاية ، وتنزل قيمة البدل النقدى للنظامية إلى ثلاثين ليرة عثمانية وللرديف والاحتياط إلى عشرين ليرة عثمانية .

لقد كانت المادة السابعة شديدة الوقع على رجال الدولة وذلك لما فيها من افساح المجال لتدخل الأجانب فى شئون الدولة الداخلية .

وما جاء فى المادة الرابعة عشرة نقطة حساسة طالما ارتجفت من ذكراها فرائص الاتحاديين الذين لا يودون سماع كلمة « اللغة العربية » لأنهم سائرون على سياسة تتريك العناصر غير التركية . ويعلمون حق العلم أنهم محكومون بالثقافة العربية الإسلامية وهى لغة القرآن وهم وإن كانوا يحكمون البلاد بالقوة فلا يستطيعون مقاومة هذه الثقافة بسهولة .

اغضب ما جاء فى هذا المنهاج رءوس الاتحاديين فأسرعت الحكومة إلى غلق الجمعية فاضربت المدن احتجاجاً على هذا الغلق .

٨ — المؤتمر العربي الأول

في ٤ من نيسان لعام ١٩١٣ وجه شباب جمعية (الفتاة العربية) كتاباً إلى اللجنة العليا لحزب اللامركزية في القاهرة وإلى الجمعيات الأخرى العربية يدعونهم إلى حضور مؤتمر غايته البحث في التدابير الواجب اتخاذها لوقاية الوطن من الطوارىء وإصلاح أمور البلاد على أساس اللامركزية،وان تدور أبحاث المؤتمر حول الحياة الوطنية وضرورة الاصلاح على قاعدة اللامركزية والمهاجرة من سوريا وإليها . وفي ١٢ نيسان أجابت اللجنة العليا لحزب اللامركزية بالقبول . فحضر مندبون عنها وعن الجمعيات الأخرى ومندوبون عن سوريا والعراق والجاليات العربية القاطنة في الولايات المتحدة ، وكان عدد الأعضاء الرسميين ٢٤ عضواً،وحضر عدد كبير من المستمعين العرب . وفي اليوم الأخير فتحت أبواب المؤتمر لجميع الزائرين .

وقد أوضح السيد عبد الحميد الزهراوي سبب انعقاد المؤتمر في باريس بقوله : « إن حوادث بيروت الأخيرة في اضطهاد الجمعية الإصلاحية وسجن فريق من أعضائها برهنت لنا على قدر الحرية التي يمكن أن يتمتع بها مؤتمر يعقد في سوريا.وقد رأينا من جهة أخرى أن نسمع مطالبنا ونفهم رأينا أوربا التي تزداد مصالحها أهمية في البلاد العثمانية يوماً بعد يوم،وفضلنا باريس على غيرها من عواصم أوربا لأن الجالية العربية فيها أكثر عدداً منها في سائر العواصم » . وانعقد المؤتمر في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية بشارع سان جرمان في باريس يوم الأربعاء الموافق ١٨ حزيران عام ١٩١٣،ودام إلى اليوم الثالث والعشرين منه،وكانت مناقشاته في غاية الصراحة والجرأة ولم يخرج في مقرراته على مبادىء حزب اللامركزية وهذه أهمها :

١ — من المهم أن يكون مضموناً للعرب التمتع بحقوقهم السياسية وذلك بأن يشتركوا في الإرادة المركزية للملكة اشتراكا فعلياً .

٢ — يجب اعتبار اللغة العربية في مجلس النواب والأعيان .

٣ — أن تكون اللغة العربية رسمية في البلاد العربية .

٤ — تكون الخدمة العسكرية محلية فى الولايات العربية إلا فى الظروف التى تدعو إلى الاستثناء الأقصى .

٥ — يجب أن تنشأ فى كل ولاية عربية إدارة لامركزية تنظر فى حاجاتها وعاداتها .

تكاد تكون هذه المواد الخمس من أقوى ما جاء فى مقررات المؤتمر .

ومن أضعف ما جاء فى مناقشات المؤتمر ما كان حول اللائحة التى قدمتها ولاية بيروت .وكانت تقوم على مبدأين أساسيين : أحدهما : توسيع سلطة المجالس العمومية للولايات وثانيهما تعين مستشارين أجانب .وفى هذا المبدأ الأخير يتضح مبلغ تلاعب فرنسا فى الأمر .

واختتمت القرارات بملحق جاء فيه : ستكون القرارات برنامجاً سياسياً للعرب العثمانيين ولا يمكن مساعدة أى مرشح فى الانتخابات التشريعية إلا إذا تعهد من قبل بتأييد هذا البرنامج وطلب تنفيذه .

ما كان المؤتمر شديداً فى مطالبه وما كان المؤتمرون يريدون الانفصال عن جسم المملكة العثمانية .وجل ما كانوا يريدونه إصلاح شامل يتناول الدولة عامة وفى ضمنها البلاد العربية التى ستظل مخلصة للسلطان، فقد جاء فى خطاب الزهراوى عند الافتتاح : « إن العرب كانوا قد ألفوا الترك وهؤلاء قد ألفوا العرب، وامتزج الفريقان امتزاجاً عظيماً مضى عليه أكثر من عشرة قرون . ولكن كما مزجت بينهم السياسة فرقت بينهم السياسة . ولم يبق من ذلك الامتزاج القديم إلا رابطة بين بعض العرب وبعض الترك . وهذه الرابطة لا تزال تعد ثمينة عند الترك العثمانيين والعرب العثمانيين معاً . ولكنها مع عزتها فى نفوس الفريقين قد أصبحت مهددة بالسياسة أكثر مما كانت من قبل، ومعلوم أن السياسة فى هذه المملكة بيد الترك . ولذلك تعرفها أوربا بأنها حكومة الترك ، فلما رأى العرب ما وصلت إليه هذه المملكة بتلك السياسة التى مضى عليها العمل حتى الآن .وكانوا حريصين على البقية الباقية من تلك الرابطة تنبهوا إلى واجب عظيم كان الترك والعرب جميعاً غير مهتمين به كما ينبغى ، وهو اشراك الفريقين لسياسة البلاد ، فإنه قد تبين واضحاً أنه لا العرب ولا الترك انتفعوا بتحملهم تبعة ذلك العبء الثقيل . وبديهى أن هذا الاشتراك لا ينافى الإخاء بل الذى ينافى هو عدم الاشتراك ،

وجاء في خطاب اسكندر عمون .

توهم بعض أنصار النظام المركزى من اخواننا الأتراك أن الغرض من النهضة العربية الانفصال عن الدولة وهو أمر بعيد عن الصحة ، فإن الأمة العربية لا تريد إلا استبدال شكل الحكم الفاسد (الذى كاد يودى بالدولة) بالحكم الذى يرجى منه وحده الصلاح والنجاح لنا ولهم وهو الحكم على قاعدة اللامركزية ولو كانت الحقيقة الحاكمة اليوم من صميم قريش لكان موقفنا معها نفس موقفنا هذا .

« اتفاق العرب والترك »

افزع المؤتمر جماعة الاتحاديين ورأوا فيه خيانة كبرى وجرأة من العرب فحاولوا بطرق شتى احباطه ، فطلبوا من فرنسا عدم السماح بعقده فى باريس ، وعبئوا الجرائد والمجلات ورجال الدين وبعض الوجهاء من البلاد العربية لاستنكاره واحتساب القائمين بأمره من الخارجين على الخلافة والسلطان ، فباءت محاولاتهم بالفشل ، ولم يروا بدأ من مواجهة الأمر الواقع ، فأرسلوا سكرتير جمعية الاتحاد والترقى إلى باريس للاتفاق مع المؤتمرين الذين كان مؤتمرهم يمثل الأحـــزاب العربية والجمعيات ، فاتفق معهم على أمور لم تنفذ منها الدولة إلا اليسير ، مما دل على أن الايفاد كان لعبة أراد الاتحاديون أن يكسبوا الوقت من ورائها ويماطلوا فى الأمر ثم لا يجيبون رغبة ، لقد صدق العرب كلام موفد الاتحاديين وأرسلوا ثلاثة أعضاء منهم لتنفيذ الاتفاقية ، واستقبل هؤلاء الأعضاء فى الأستانة استقبالا منقطع النظير ، ورحب الفريقان من عقلاء الأتراك والعرب بهذه الظاهرة التى تؤدى إلى الإخاء والوفاق ، ثم تمخض ذلك كله عن التصريح الآتى من قبل الحكومة الاتحادية :

١ ـــ أن يعهد فى إدارة الأوقاف الموقوفة على عمل الخير المحلى بحسب شروط الوقف إلى مجالس الجماعات فى الولايات ، وذلك بموجب قانون جديد ينشر قريباً .

٢ ـــ أن تكون الخدمة العسكرية فى زمن السلم فى دائرة التفتيش التابعين

لها إلا إذا رات الحكومة لسبب ما حشد قسم من الجنود فى جهة من الجهات فترسل العسكر على الطريقة النسبية إلى الولايات البعيدة كاليمن والحجاز وعسير ونجد .

٣ — أن يكون التدريس باللغة العربية فى جميع مدارس الولايات التى تتكلم أكثرية سكانها هذه اللغة . وذلك لتوفير أسباب الرقى والحضارة حالا ومستقبلا على أن يبدأ بذلك منذ الآن فى المدارس الابتدائية والثانوية مع جعل تعليم اللغة التركية إجبارياً ، وينظر من الآن فى الوسائل التى تؤدى إلى جعل التعليم العالى باللغة العربية ، على أنه يجب أن يظل التعليم باللغة التركية فى المدارس الثانوية فى مراكز الولاية لتعم هذه اللغة .

٤ — يجب أن يلاحظ فى تعيين الموظفين للبلاد العربية معرفتهم لغتها عدا اللغة التركية ، وتعين الحكومات المحلية الموظفين من الدرجة الثانية طبقاً لما نص عليه فى القوانين الخاصة بذلك ، والذين يعينون بإرادة سنية يناط تعيينهم بالحكومة المركزية فى الأستانة .

وموجز القول الذى نستخلصه مما مر بنا آنفا ، أن الحركة القومية تمخضت عن آراء متباينة كانت تهدف إلى ما يأتى . —

* * *

لقد ساد رأى فى إيجاد خلافة عربية تقوم مقام الخلافة التركية ، وحملة هذا الرأى المسلمون المثقفون ثقافة إسلامية ويمثلهم السيد عبد الرحمن الكواكى .

ورأى يقول بإبقاء الخلافة فى آل عثمان ، ويرمى إلى وحدة إسلامية شاملة ويمثلهم السيد جمال الدين الأفغانى .

ورأى متطرف صادق فى تطرفه يرمى إلى استقلال البلاد العربية وتخليصها من حكم الأتراك ومن أى سلطة أجنبية .

ورأى يقول بإبقاء البلاد العربية مرتبطة بالدولة العلية بنظام اللامركزية ويمثل هذا الرأى فريق من المسلمين وفريق من المسيحيين على حد سواء وفريق متطرف تطرفاً شاذاً لعبت به الدسائس الأجنبية والمدارس التبشيرية وهو

القائل بوضع البلاد تحت حماية أجنبية، ويمثله فريق من المارونيين وبعض الضالعين معهم من مسيحي لبنان وسوريا . وقد مهدت لهذا الرأى فرنسا وبريطانيا .
وفى غمرة هذه الآراء كان فتيان الأتراك من حملة الفكرة الطورانية يتربصون بالحركات العربية القومية الدوائر ويضعون الخطط لمقاومتها والقضاء عليها وكان العرب يخشون هؤلاء الفتيان القائمين بهذه الحركة ويخافون بأس السلطة التى بأيديهم ، فيزدادون إيماناً بعملهم ويلجئون إلى الكتمان كما مربنا فى تأليف الجمعيات .

العرب والترك

عند وقوع الحرب العالمية عام ١٩١٤

أصبح لحزب اللامركزية القول الفصل فى الشئون العربية فى مفتتح هذه الفترة ، ورضى العاملون به بهذا القليل الذى صدرت به الارادة السنية من الباب العالى إثر الاتفاق الذى نتج عن مؤتمر باريس . وقنع العرب بوعود إخوانهم الاتحاديين ومدوا يد المعونة إليهم فى ظلال الهلال العثمانى وبذلوا جهوداً جبارة قبل المؤتمر وبعده لإيجاد الطمأنينة والسكينة فى قلوب العرب فى كل مكان . فقد استطاع عزيز على المصرى القائد المعروف أن يقنع الامام بتسوية كل خلاف بينه وبين الدولة ، واستطاع السيد طالب النقيب رئيس جمعية الاصلاح فى البصرة أن يوفق بين رغبات الباب العالى وآل سعود فى نجد ، وكان قد طوى كل خلاف بينه وبين الأتراك فى بيانه الذى أذاعه على الملأ والذى جاء فيه :

« اننا قد اتفقنا فى أمر تشريك المساعى وكأننا روح واحدة وجسد واحد لأجل رفع شأن وشوكة حكومتنا السنية التى قدرت صداقتنا رسمياً ، ولم يبق خلاف بيننا بأية صورة كانت . وقد زال ما كان من سوء التفاهم زوالا قطعياً وصرنا كتلة واحدة تعمل على سعادة دولتنا الأبدية وتسعى فى محافظة وحدتنا العثمانية بكل قوانا حتى لا يبقى منا فرد واحد »

كما كان الادريسى فى العسير مستعداً لإجابة أية رغبة يريدها السلطان وفى العراق وسوريا كانت الحركة والسكينة متوطنتين بتوجيه الأحزاب السياسية والجمعيات وجل أعضائها موجودون فى الأستانة على صلة تامة بالدولة وبرجال الاتحاد ، وقد رضوا مبدئياً بما تم عليه الاتفاق من الإصلاحات التى ذكرناها آنفاً . وفى الحجاز كان الهدوء شاملا وسلطان الخليفة مستقراً ، وكاد يكون مطلقاً غير محدود ، لولا وجود الشريف حسين بن على حينذاك والذى كان له الحق الشرعى فى الولاية عليه ، فقد أعاد لهذا المنصب مقامه الرفيع وبسط نفوذه على جميع القبائل المجاورة وتعداه إلى أبعد من ذلك . ولما قويت شوكة الاتحاديين أرادوا أن يسلبوا الحجاز ميزاته ، فأعلنوا أنه يجب خضوع الحجاز لنظام المملكة

المركزى وأرسلوا إليه والياً قوى الشكيمة . فنفر الشريف من هذا التصرف واضطر الاتحاديون أن يأمروا الوالى بمصانعة الشريف .

لقد كان حزب اللامركزية فى سوريا والعراق متمكنا من إدارة الحركة القومية، وكان لا يود أن تضعف شوكة الدولة فى هذه الحرب الطاحنة، فمد يد المعونة والإخاء وبث فى الناس روح الوئام والاعتصام بحبل الوحدة . وفى كتاب المرحوم عبد الكريم الخليل الذى شنقه جمال باشا السفاح أحد أصدقائه دليل واضح على نية حزب اللامركزية ، فقد جاء فى هذا الكتاب المؤرخ فى ١٦ أغسطس عام ١٩١٤ :

أيها العزيز إنا على وشك السفر إلى سوريا لأن التدابير التى اضطرت حكومتنا السنية إلى اتخاذها درءاً لخطر الحرب العظمى تقضى على كل عثمانى مخلص لدولته وأمته أن يبذل جهده فى سبيل تنفيذها على أحسن ما يرام ، وستكون مهمتى فى سوريا جمع الكلمة على شد أزر الحكومة والسعى لمنع كل ما يحتمل وقوعه من أسباب النفور بين العناصر العثمانية . وقد وعدتنى الحكومة بأن تشد أزرى فى هذه المهمة وتجيبنى إلى كل المطالب العادلة التى اطلبها باسم الأمة العربية أو باسم الأفراد من أبنائها ، فلنكن يداً واحدة لإنقاذ الدولة من عواقب الحرب الأوربية وإظهار الوحـــدة العثمانية بأتم مظاهرها لنتمكن من منع اعتداء الدول الغربية علينا والخروج من هذه الأزمة الحرجة ارفع شأناً وأعلى مقاماً .

وجاء فى كتاب المرحوم سليم الجزائرى إلى أصدقائه السياسيين فى ١٥ يناير سنة ١٩١٤ .

عزيزى ! لقد أخلصنا للاتحاديين فلا مجال للشك فى إخلاصهم لنا ، نعم إن الاتفاق الذى أبرموه مع الزهراوى وعبد الكريم لا يسعدنا وليس فيه كل ما نحتاج إليه ... إن الحالة السياسية حرجة جداً أيها العزيز فبقدر ما يسىء الاتحاديون إلينا يجب أن نحسن إليهم حرصاً على كيان هذه الدولة المنكودة الحظ.

وكتب المرحوم عبد الحميد الزهراوى إلى صديقه الأستاذ رشيد رضا صاحب مجلة المنار واحد أركان حزب اللامركزية كتاباً سرياً مطولا فى ١٦ يناير ١٩١٤

ووضع فى أعلاه هذه العبارة « مكتوم كله عن كل أحد » وقد جاء فيه « أوربا والعثمانية :

لقد كشفت أوربا آخر ستار من ستر السياسة فى المسألة العثمانية ، وقررت التدخل فى سائر شؤنها ، وإنما لايزالون مختلفين بعض الاختلاف فى كيفية هذا التدخل وكميته وصورة توزيعه فيما بينهم، وليس فى أوربا اليوم موضوع مقدم على هذا الموضوع ، ولا يمضى ثلاثة أشهر حتى تتمخض الليالى فتلد ذلك الشكل الجديد الذى يتفقون عليه ، والذى أظنه أن الدولة ستبقى بعد ذلك وتعيش أحسن مما كانت عائشة ، لأن بعض التدخل طب ولست مغالياً إذا ذهبت إلى أن الموت أقرب إليها مع عدم التدخل البتة منه مع شيء من ذلك ، فإنا إذا قلنا بعدم التدخل البتة فحينئذ تخلق كل واحدة سبباً لانشاب الحرب عليها ، فتؤخذ بداء السكتة دفعة واحدة . وجاء فى هذا الكتاب .

« فالاتحاديون هم أولياء الأمر مباشرة وهم اليوم يتسلحون بعزائم شديدة ماضية وينادون بنية قاطعة أن يجددوا شباب الدولة بقدر ما تسمح الظروف ، ويشتهون أن يخلص العرب إليهم ويساعدهم فضلاؤهم فى هذه السبيل ويعترفون بخطيئاتهم الماضية ويودون ألا يعودوا إلى مثلها بقدر الإمكان .

أنا مؤمن بنيتهم وأقوالهم هذه كل الإيمان لأدلة كثيرة ظهرت لى ، ولكننى مرتاب من جهة قابليتهم لتطبيق العمل على النية ، وعلى كل حال أرى أن عدم تركهم وحدهم خير من تركهم ، ويرجى به أن تقوى قابليتهم ، فإن شئتم أن تخطئونى بتحسين الظن إلى هذه الدرجة كما أشرتم إلى ذلك فى كتاب ... فإنى لا أخطئكم بالتخطئة لأنى أجل رأيكم أكثر من رأيى ، وإنما أرجو أن يكون فى خطئى شيء من البركة أرجو ذلك من مصداق قوله تعالى : فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا .

* * *

لقد استعرض الزهراوى فى كتابه هذا مواقف بعض العناصر التى تتكون منها الامبراطورية العثمانية . وفى ضمنها العرب ، ثم أخذ يحلل مواقف العاملين فى الحركة وقسمهم إقساماً متعددة كل قسم يجنح إلى ما ينفعه وإلى مايراه فى صالحه إلا فريقاً

خالصا من الشوائب وهو مادة العروبة فى الجزيرة . ويجعل كل الأمل فى هذا الفريق ويرى أن توجه العناية إليه الاستعانة به على ثمار الحركة ، ثم هو بعد ذلك غير يائس فيقول لصاحبه وإليك خلاصة الخلاصة وهى أن اليأس لايجوز بحال من الأحوال .

ولكن الأمة فى كل أطرافها ليست بحال يعتمد عليها فى شىء . وأنه لايجوز مع هذا إهمالها ، وكذلك لايجوز إهمال من بيدهم أمـــر المملكة وتركهم وحدهم .

وكتب المرحوم مختار بيهم إلى أحد أصدقائه السياسيين بمصر فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٩١٤ أخى العزيز :

يخيل إلى أن الحرب واقعة لا محالة بين الدولتين العلية ودول الحلفاء ، والأمل عظيم جداً بأن تكون حرباً ظافرة تعوض الدولة من الخسارة التى منيت بها فى السنوات الأخيرة وترفع شأن العثمانيين فى نظر العالم ، وقد ألغينا أحزابنا السياسية وتناسينا اختلافاتنا الداخلية لأن المصلحة المشتركة تقضى بذلك . وسوف يرى إخواننا الترك ولا سيما الإتحاديون من أعمالنا فى هذه الحرب ما يظهر لهم عظيم إخلاصنا للعرش العثمانى وتفانينا فى خدمة الوطن المشترك . ونحن الآن على أحسن ما يرام مع حزب الحكومة الذى أظهر وطنية عظيمة فى هذه الأزمة الشديدة وسنظل كذلك إن شاء الله إلى الأبد ، فكن على ثقة بأن سورية ستكون إبان الحرب أحسن منها قبلها فلا يقع ما يكدر من جانب الأهلين ما زلنا أحياء .

الإتحاديون والقومية التركية

مر بنا فى تضاعيف القول فى فصولنا السابقة كيف كان العرب والأتراك من المسلمين يستظلون بعلم الخلافة إخوة مجتمعين على العقيدة . يعتبرون أمجاد الخلافة حلقة من سلسلة أمجاد الأمة الإسلامية ، ويتغنون بها ويجدون فيها فخراً وزهواً على العالم . وفى منتصف القرن التاسع عشر حيث أخذت موجات القومية تتدفق من العـــالم أجمع وطغت حتى وصلت إلى الشرق وما جاوره من بلاد الغرب وجرفت فى تيارها الأقوام التى كانت تتألف منها الإمبراطورية العثمانية .

ومن العجيب أن تصل هذه الفكرة ذروتها عنـد غلاة الاتحاديين الأتراك فقد اعتنقوا هذه الفكرة عن إيمان منقطع النظير ، وصولجان الحكم فى أيديهم والدولة دولتهم ، وهم يرون بأعينهم كيف فرت أقوام البلقان بالقوة والشدة من بين أيديهم ، ولم يبق معهم فى القوة والإخوة إلا العرب الذين يجتمعون معهم فى أمجاد التاريخ الإسلامى ووشيجة العقيدة والذين يؤمنون بوجوب الطاعة للخليفة . خليفة المسلمين .

وقد كان يكون من المنطق الواضح أن يتبين الإتحاديون هذه الحقيقة بيد أنهم تركوها ولم يستغلوها ، وأخذوا يعملون على تحطيمها . وقد لعبت دسائس الغرب المنتظر إرث الرجل المريض الراقد على ضفاف البسفور دوراً هائلا فى إذكاء الحقد بين الأمتين . فإن الأتراك كانوا حكام الامبراطورية ويعتقدون أن السلطة حق من حقوقهم ، وأن للعرب فى مشاركتهم ما هو إلا منحة ولذلك يغيظهم كل ما يطلبه العرب من حق ، أما العرب فإنهم يعتقدون أن الدولة دولة العقيـــدة الإسـلامية التى تشترك فيها الأمتان وتدافعان عنها ، وأن أوربا الثائرة على الرجل المريض لم تكد الكيد إلا من أجل تحطيم العقيدة وإضعاف هذه القوة الثابتة فى الشرق والحارسة على طرق المواصلات بين الغرب والشرق المالكة لبقاع خصبة وأسواق عالمية ثرية .

وإن هذه الخصوبة وهـذه الاستراتيجية فى بلاد العرب . فمن حق العرب أن يشتركوا اشتراكاً فعلياً فى الحكم . والدفاع عن بلادهم خاصة من بعد ما ظهر لهم من ضعف الدولة فى تنظيم شئونها . هذه كانت نظرة العرب إلى الدولة وعلى أسس هذه النظرية تقدموا فى مطالبهم .

ملأت القومية رءوس الاتحاديين فكبر عليهم أن يجدوا لهم منافساً فى الدولة فوضعوا خططهم لتريك العرب وأنشأوا جمعية « ترك أوجاغى » وهدفوا من وراء ذلك إلى بث روح القومية فى أبناء الترك وإرجاعهم إلى أصولهم حتى ولو إلى الوثنية الطورانية ، ومن ثم التخلص من العقيـدة الاسلامية وإدماج العناصر التى تتكون منها الامبراطورية فى هذه الطورانية المنتظرة ، وجعلوا لهذه الجمعية وظائف مقسمة على لجانها الأربع . وتنحصر هـذه الوظائف فى العناية بالآداب التركية والرجوع إلى أصولها مع الخلاص من دخيل اللغة العربية وغيرها من اللغات ، وتأليف الكتب القومية بهذه اللغة الجديدة ومقاومة كل كاتب تركى لا يرى هذا الرأى ، والعمل على نشر هذه الفكرة بالتأليف وتدريس الناشئة التاريخ الطورانى وإفهامهم أن الشعب التركى أعظم شعوب العالم ، اختارته القدرة الالهية لسيادة الأمم فيجب أن تسود قوميته وتمحى القوميات الأخرى وتدمج فيه . ولتحقيق ذلك يجب أن تؤلف كتب الغرور القومى وتنشر بين الشعوب التركية فى أنحاء العالم إينما وجدوا وربطهم جميعاً بعجلة الاتحاديين ، وأن تعنى هذه الجمعية بتربية الناشئة وتقوية أحساسهم لايجاد جيل جديد صحيح الجسم والعقل . وأسسوا لهذه الجمعية النوادى وفرعوا لها الفروع وأمدوها بالمال لتعنى بوضع كتب التاريخ والتراجم عن أسلافهم الأول أمثال هولاكو وجنكيز خان وتيمور لنك وأوغوز ، وبدأوا بتنفيذ ذلك بأن غير الغلاة فيهم أسماءهم العربية وتسموا بأسماء طورانية منتزعة من التاريخ القديم . وحرموا على غير الترك دخولها ، وزادوا على ذلك بأن أدخلوا هذا التاريخ فى المدارس العالية. يقول الأستاذ ساطع الحصرى : « إن الفكرة القومية عند الأتراك العثمانيين بدأت أولا كحركة لغوية أدبية ثم صارت تظهر فى الأبحاث التاريخية ، وبعد ذلك انتقلت إلى ميادين الحكم والسياسة ، وإذا سمينا حركة القومية التركية بالاستتراك جاز لنا أن نقول إن تيارات القومية التركية عند الأتراك العثمانيين بدأت باستتراك اللغة ثم انتقلت إلى استتراك التاريخ ، وانتهت فى آخر الأمر إلى استتراك الدولة . ومن الطبيعى أن الاستتراك فى اللغة والتأريخ مهد السبيل إلى الاستتراك فى السياسة والحكم ، ولكن هذا الاستتراك الأخير بدوره ساعد على إتمام الاستتراك فى اللغة والتاريخ مساعدة كبيرة » . وأما إذا أردنا أن

نتتبع سير هذه التيارات القومية بشيء من التفصيل وجب علينا أن نستعرض مظاهرها في ثلاثة أدوار متتالية :

(ا) الدور الذى يمتد من بدء حركة التنظيمات إلى حين حدوث انقلاب الدستور وتأسيس مشروطية الحكم حسب تعبير الأتراك عام ١٩٠٨ .

(ب) الدور الثانى الذى يمتد من انقلاب المشروطية العثمانية الى إعلان الجمهورية التركية .

(ج) الدور الذى بدأ بإعلان الجمهورية التركية .

ويقول الأستاذ إن الفكرة قد أخذت شكل تيارات قوية واضحة فى الدور الثانى ، وصار القائلون بها يبذلون جهوداً متواصلة لتنظيمها من جهة ولنشرها من جهة أخرى ، فألفوا الجمعيات وأسسوا النوادى وأصدروا المجلات وانتهزوا كل الفرص لنشرها بين الشباب وبين سائر الناس بواسطة المقالات والدروس والخطب والمحاضرات والأغانى والأشعار والروايات . وقد لاقوا فى البداية معارضة شديدة من بعض البيئات لأن جماعة من الكتاب والمفكرين كانوا يعارضون فكرة القومية التركية باسم الإسلامية ، لأنهم كانوا يذهبون إلى أن النعرات القومية منافية لمبادىء الإسلام بوجه عام .

وجماعة أخرى من الكتاب والمفكرين يعارضون فكرة القومية التركية باسم العثمانية لأنهم كانوا يعتقدون أن انتشار هذه الفكرة يؤدى إلى تفكك الروابط التى تربط الأقوام العثمانية وتسبب انقراض السلطنة ، ولكن فكرة القومية التركية تغلبت على هذه المعارضات جميعا .

ويضرب لنا الأستاذ فى موضع آخر مثلا من أمثلة ظهور الفكرة القومية فى ميدان اللغة نقلا عما قاله ضياء باشا الذى كان من رجال عهد التنظيمات وزميلا لشاعر الوطنية العثمانية نامق كمال . يقول ضياء باشا : « الذين يبغون اللغة العربية عليهم أن يذهبوا إلى بلاد العرب ، والذين يبغون اللغة الفارسية عليهم أن يرحلوا إلى إيران ، والذين يبغون اللغة الإفرنجية عليهم أن يذهبوا إلى بلاد الفرنجة ، فإن كل من لا يدرك هذه الحقيقة فهو جاهل . نحن أتراك فيجب أن تكون لنا لغة تركية .

كانت هذه الفكرة بمثابة الاستفزاز لبقية الشعوب والعناصر التى يظللها العلم العثمانى وخاصة الأمة العربية التى تكون الأكثرية العظمى فى هذه الدولة، فقد كان الهجوم تحدياً للتأريخ والعقيدة فلم يصبر العرب على هذا التحدى، بل أعلنوا سخطهم وشد بعضهم إزر بعض وترابطت الجمعيات وعقدت العزم على إصلاح الحال بأية وسيلة من الوسائل، فإن بقاء الأمور معلقة مما يؤدى إلى هلاك الدولة التى يتكون منها العنصران الكبيران العربى والتركى. وكانت الحرب العظمى الأولى حداً فاصلا لهذا الاصطراع.

أحمد جمال باشا (السفاح) فى سوريا

ومقاومته لأحرار العرب

دخل أحمد جمال باشا أحد أقطاب الاتحاديين دمشق فى يوم ٥ ديسمبر من عام ١٩١٤، فاستقبل استقبالا رسمياً وشرع يتقرب إلى رجال العرب وزعمائهم فمالوا إليه وعضدوه. وصارت جريدتا الاصلاحيين منهم لساناً له وهما جريدة المقتبس وجريدة المفيد — وفى حفل أدبى أقيم لتكريم الشيخ عبد العزيز جاويش وقف جمال خطيباً يحف به شباب العرب ورجالهم فقال:

« يجب عليكم يا أبناء العرب أن تحيوا مكارم أخلاق العرب ومجدهم منذ شروق أنوار الديانة الأحمدية. أحيوا شهامة العرب وآدابهم حتى التى وجدت قبل الإسلام. عضوا على عربيتكم بالنواجذ، ودافعوا عنها بكل قواكم، اعملوا على ترقية العرب والعروبة جددوا مدنيتكم، قوموا قناتكم، كونوا رجالا كاملين.

ثم قال: « إن البرنامج الذى عقد حزبنا عزيمته على تنفيذه لاصلاح حالة العرب لأوسع كثيراً مما قد يخطر ببالكم. ولست لأوجس شراً من بقاء العرب والترك متحدين وخاضعين لخليفة واحد، بل من انفصال أحدهما عن الآخر كشعبين مستقلين.

وقال: « واليوم أرانى قادراً على أن أؤكد لكم أن الأمانى التركية والأمانى العربية لا تتعارضان مطلقاً، فالترك والعرب ليسوا إلا إخواناً فى غاياتهم الوطنية وربما أكمل بعضهم مجهود بعض. إن غرض رجال تركيا الفتاة هو إيقاظ الشعور الوطنى فى الأمة التركية وتدريب مواطنيهم على العمل وتحريرهم من النير السلافى وتقويتهم..»

وجاء فى هذا الخطاب مما قال: « وإنه لمن أشد بواعث الحزن والأسف أن تنجح المحاولات الشيطانية التى يحاول أعداء الدين والوطن فى بذر بذور الشقاق بيننا فعلى الترك والعرب أن يحبوا بعضهم بعضاً فيجنوا ثمار مجهوداتهم المشتركة وإنى محذركم عواقب التخاذل فإنه مؤد حتما إلى استعبادكم وافنائكم.

كان جمال أحد غلاة الاتحاديين جريئاً قوياً متآمراً وكان مديراً لفرع الجواسيس في جمعية الاتحاد . يقال عنه إنه أفتك عضو فيها، وأنه هو الذى حبك المؤامرة ضد الأرمن ، وقد جاء إلى دمشق بلسان ناعم وحيلة ماكرة فخدع الناس بأقواله ونفذ فيهم فعائله .

اطمأن العرب فى دمشق إليه وفتحوا له صدورهم، وأدنى إليه السيد عبد الكريم الخليل أحد زعماء العرب النابهين . لكنه مالبث أن قلب لهم ظهر المجن ، وطفق ينفذ خططه فكان أول ما فعله فى ليلة الحفلة التى ذكرناها آنفاً أن أصدر أمراً عسكرياً بتفريق كتيبة ضباط العرب الشبان فى دمشق وعددها ٨٠ شاباً .

أخذت الشائعات تملأ آذان جمال فى قيام حركة عربية . وملأ الأرجاء بجواسيسه الذين أخذوا يأتونه بكل مايزيده رعباً وخوفاً ، واستغلت اليد الأجنبية هذه الحال فأخذت تنشر الأراجيف للتفريق بين العرب والترك، وأدرك أحرار العرب ماتواجهه تركيا من المصاعب ، ورأوا وطنهم فى خطر وأنه لاشك فى أنه يكون غنيمة للمنتصرين فى هذه الحرب ، وأن عليهم أن يوضحوا موقفهم، غير أنهم بقوا ينتظرون الفرصة المواتية ولم يريدوا أن يفرطوا فى دولة الخلافة بين عشية وضحاها ويكونوا طعمة لدولة أخرى أى أنهم لا يريدون أن يخرجوا من بين فكى ذئب إلى مخالب أسد . وكان غرضهم الأسمى استقلال بلادهم ، وغرض مثل هذا لايعد خيانة أما الأتراك فكانوا ينظرون إلى العرب نظرة أخرى ، كانوا يرون فيهم الخوارج على الدولة ، وكانت طلباتهم تقابل على أنها غير مشروعة ، إنها انفصالية ، وأنها لاتحقق إلا رغبات أجنبية ، وهى نظرة خاطئة ترد على ذلك أنهم أخذوا يفكرون فى تتريك العرب ، فلا غرو إذا جاءت خططهم مشفوعة بالقسوة والشدة ـ وكانوا يتخذون الدين سبيلا لتبرير أفعالهم، فكانوا يستغلون إسم الخلافة ويرون فى مطالب العرب خروجاً على الخلافة ، وعلى الدين ، وبهذه الوسيلة وحدها أخذ جمال يبرر مواقفه .

رأى جمال فى دمشق قوة هائلة فى المادة والمعنى ، فعمد إلى هدمهما ليخلو له الجو فكان مما فعله أن أرسل الفرقة الخامسة والعشرين العربية التى كانت الدعامة الأولى لحزب العهد فأرسلها إلى جبهة خياف قلعة فى أوائل يونيو سنة ١٩١٥ بناء على طلب

من أنور باشا وشرع يرسل الوحدات العربية واحدة تلو الأخرى من سوريا إلى الأناضول ، ويحل محلها الكتائب التركية ووجد نفسه بعد ذلك قوى الشكيمة شديد البأس لايخشى أحداً ، والتفت إلى تنفيذ خطته الأخرى وهى القضاء على الروح المعنوية فى قتل أحرار العرب ففتح أذنيه للجواسيس والمرجفين .

وفى أواخر شهر يونيو ١٩١٥ فوجىء الناس بخبر مزعج هو القبض على عبد الكريم الخليل وعدد كبير من أحرار العرب وغيرهم دون أى سبب إلا ماينه جمال فى أنه ضبط وثائق تدينه وتدين غيره فى القنصليتين الافرنسيتين . وفى عشية وضحاها قدم عدد كبير منهم للمحاكمة ، فحكم بالاعدام مواجهة وحكم على الآخرين غيابياً . ولم يجد فى الوثائق المزعومة التى وجدها الأتراك فى قنصليتى فرنسا بدمشق وبيروت إلا الأسماء التى ينتمى أصحابها إلى حزب اللامركزية . وقد أوضحنا مرامى الحزب فى فصولنا السابقة وبأنه لايريد الانفصال عن الدولة العلية ، وإنما غرضه تركيز المسئولية فى المقاطعات البعيدة عن المركز واصلاحها إصلاحاً تكون نتيجته تقوية الامبراطورية وتهيئتها لمكانة ممتازة .

وقد يكون ماوجده جمال فى تعلق كثير من مسيحيى لبنان بفرنسا وسعى أفراد منهم لجعل سورية تحت سيطرتها حافزاً قوياً على اجراءاته السريعة . فقد وجد وثيقة موقعة من أعضاء اللجنة التنفيذية بالنيابة عن مسيحيى بيروت من قبل يوسف الهانى وجماعته جاء فيها أنهم يريدون إحتلال فرنسا لسورية واستقلال ولاية بيروت استقلالا تاماً تحت حماية فرنسا ووصايتها ، وإدماج ولاية بيروت فى لبنان الذى يكون تحت سيادة فرنسا الفعلية .

وجد فى هذه الوثيقة انشقاقاً فى جسم الدولة ووجد أثراً قوياً فى قلوب القوم من وعود الفرنسيين ودسائسهم فلم يتمالك ، وخرج عن طوره بل عاد إلى اتحاديته وتركيته وخطط جمعيته الرامية إلى تتريك البلاد فبطش بطشته الكبرى آخذاً البرىء بجرم المذنب والمحق بعمل المبطل ، وبعث بأحرار العرب ووجهائهم إلى المشانق وقد دهش العالم وبهت العرب حين فتحوا عيونهم صباح ٢١ أغسطس من عام ٩١٥ على جثث رجالهم تتأرجح بين أعواد المشانق لا لذنب جنوه ولا لباطل ارتكبوه إنما لشهوة تلذذ بها نفس هذا التركى السفاح التى تلتذ بإخفات كل صوت عربى مهما كان .

سدد جمال فى غلوائه يطارد الأحرار ويسجن ويعتقل وينفى ويبعد فابعد ما يزيد على (٣٠٠) أسرة عربية من مدن سوريا وفرقها على مدن الأناضول نساءاً ورجالا وأطفالا . وشرع الجلادون من أعوانه يصادرون أقوات الناس ومواشيهم ودواجنهم وأموالهم فانتشر الجوع والغلاء وعم الفقر وزاد المرض وأخذت الأرواح تتساقط فى الشوارع موتاً من الجوع أو تهمد فى دورها من الفاقة والمرض .

وفى يوم ٦ مارس من عام ١٩١٦ بعث إلى كراسى المشانق رعيلا آخر من الأحرار يؤلفون واحداً وعشرين شخصاً من أبرز شخصيات العرب وفى أولهم الشيخ الجليل عبد الحميد الزهراوى الذى كان صلة الوصل بين أحرار العرب وطغاة الاتحاديين، والذى كان لا يألو جهداً فى إيجاد حل مرض للطرفين يكفل خير العرب ويحفظ للترك مكانتهم .

وقد بذل الشريف حسين بن على شريف مكة جهوداً عظيمة للحيلولة دون إعدامهم فلم يفلح ، وكان إبنه الأمير فيصل فى دمشق ولم يأل جهداً فى مطالبة جمال بالعفو عنهم ولكنه ريع صباح هذا اليوم بالعدد الخاص من جريدة الشرق يحمل أسماء الشهداء وعناصر التهمة الموجهة اليهم . فحزن هو وحاشيته حزناً عظيما ، ويؤثر عنه أنه انتفض لهذا الحادث الجلل ، ووقف مغضباً ورمى بكوفيته أرضاً وداسها بقدمه وصاح « طاب الموت ياعرب » .

أصدر جمال بياناً أوضح فيه أسباب الاعدام ، ولم يكن فيه إلا أن الذين أعدموا والذين سينالون العقاب ينتمون إلى حزب « اللامركزية » ، وأن غاية هذا الحزب « كما زعم » سلخ سورية وفلسطين والعراق عن راية السلطنة العثمانية وجعلها إمارة مستقلة .

هذا هو السبب الوحيد الذى جعل جمال ينفذ حكم الإعدام فى الأخوين محمد ومحمود المحمصانى والأمير عارف الشهابى وسليم بك الجزائرى وأمين لطفى وعبد القادر الخرسا ونايف تللو وشكرى العسلى وعبد الوهاب الإنجليزى وجلال البخارى وسيف الدين الخطيب وجرجى الحداد وعبد الكريم الخليل والشيخ عبد الحميد الزهراوى والشيخ أحمد طباره وعبد الغنى العريسى وتوفيق البساط وفريق آخر من إخوانهم الأحرار .

وكان عبدالكريم الخليل أول من وقف على كرسي المشنقة وقال بصوته الجهوري « أشهدكم أيها القوم أننا لم نأت أمراً فرياً يوجب وقفتنا هذه ، وإني آسف على ماأظهرته من الإخلاص للدولة منذ نشوب الحرب ، ولكن الاتحاديين أبوا إلاأن يعلنوا عداءهم لهذا العنصر الكريم الذي لا يملك من أمره شيئاً . فإذا كان جمال باشا يتهمنا باضرام الثورة لاستقلال العرب ، فلا بد من ضحايا لهذا الاستقلال ولنكن نحن أول هذه الضحايا . ثم قال :

« إنني أعرف السبب الحقيقي الذي شنقني جمال باشا لأجله وسيعرفه التاريخ »

ولما علم الذي حكم عليهم بالإعدام في يوم ٦ مايو ونقلوا إلى بيروت ليقفوا على أرجوحة الأبطال أخذوا ينشدون :

نحن أبنـــاء الأولى شادوا مجـــداً وعلا

نسل قحطان الأبي جد كل العـــرب

ولما وقف توفيق البساط ورأى بعينه جثث إخوانه تتأرجح في الفضاء قال : مرحباً يا أرجوحة الشرف . مرحباً يا أرجوحة الأبطال ، مرحباً بالعمد التي تستند إليها الأمم في استقلالها ، مرحباً بالموت في سبيل الوطن الحر .

وقال المرحوم عبد الغني العريسي : بلغوا جمال باشا أن الملتقى قريب ، وأن أبناء الرجال الذين يقتلون اليوم سيقطعون في المستقبل بسيوفهم أعناق أبنائك الأتراك . إن الدول لا تبنى على غير الجماجم ، وإن جماجمنا ستكون أساسا لاستقلال بلادنا .

هكذا صعد هؤلاء الأبطال على أعواد المشانق بجنان ثابت وروح سامية وبراءة صارخة في وجه الظلم ، وقد خلفوا وراءهم حزناً عميقاً في قلوب العالم الحر وألقوا درساً بليغاً على الأجيال المقبلة في الإباء والتضحية ، وأثاروا في نفوس البقية الباقية من الزعماء النخوة ليثأروا للحرية ، وزادت الهوة عمقاً وبعداً بين الترك والعرب ، وصار من الصعب العسير الوصول إلى تفاهم بينهما لفقدان الثقة والاطمئنان ، وأخذ أعضاء الجمعيات العربية ممن لم يكتشف أمرهم بعد أو الذين أفلتوا من يد هذا الحكم الجائر يتصلون بالشريف الحسين بن علي شريف مكة . يتداولون معه الأمر ويعدون العدة لثورة مقبلة تحدد موقف العرب من الترك ومن الحلفاء .

فيصل وجمال فى دمشق

كان فيصل يقيم فى قرية القابون وهى قرية بجوار دمشق حين نفذ حكم الإعدام بأحرار العرب يوم ٦ مارس ، فريع مما وقع وأدركه اليأس وفقد الثقة بجمال بعد أن رجاه تخفيف الحكم عليهم إلى غيره ووعــده جمال خيراً . يقول جمال فى مذكراته ، لقد أصدرت محكمة عالية حكمها فى قضية ٦ مايو سنة ١٩١٦ ، ونحن لا نزال نتبادل الرسائل مع الحسين ، فجاهد فيصل لينال عفواً للمحكوم عليهم وكان يزورنى كل يوم ويحول مجرى الكلام إلى قضية العقوبة ، وسمعت أنه كان يعنف أعيان دمشق الذين يذهبون لزيارته لعدم سعيهم لانقاذ مواطنيهم ، ودعانى يوماً للغداء معه فى القابون ، ودار الحديث حول موضوع العفو أيضاً فسألته هل عرفت تفاصيل ما فعله هؤلاء فقال كلا ! فقلت لو عرفت التفاصيل لأسفت أشد الأسف على توسطك للحصول على عفو عنهم .

أدرك فيصل ما يبيته الاتحاديون للعرب ، وأدرك أنه لا يمكن اضرام ثورة فى دمشق ، وظل يتصل بأبيه سراً ويعلمه ما يقع فى دمشق مستمراً ، وأدرك أن الثورة لا تشعل إلا فى الحجاز لبعدها ولضعف سلطان الدولة فيها فأراد أن ينجو من الشرك ، فطلب موعداً لمقابلة جمال وكلمه بشأن معونة العرب وأن المجندين فى الحجاز على استعداد تام للمجىء ، وسأله رأيه فى مجىء أحد إخوانه على رأس هذه القوة ، فطابت نفس جمال بهذا الاقتراح وطلب من فيصل أن يكون على رأس هذه القوة ، وبعد أن أخذ ورد وافق فيصل واستصحب معه وفداً اقترحه من وجهاء دمشق ، فلما وصل المدينة اطمأن على نفسه ونجا من كارثة جمال . كان فيصل طول إقامته بدمشق على اتصال دائم بأحرار العرب من أعضاء جمعية الفتاة وجمعية العهد . وكان يدرس معهم الخطط التى يمكن إعدادها لنجاح الثورة ، وكان فريق منهم يرى أن تقوم الثورة فى سوريا وأن يكون عنصرها القرى العشائر والدروز وأبناء المدن ، ولكن قوة جمال وسلطانه ووجود الحامية

التركية وابعاد الكتائب العربية إلى شناق قلعة وإلى الأناضول حول وجهة فيصل من سوريا إلى الحجاز حيث بدأت أول طلقة فيه . وصل فيصل المدينة مع الوفد ثم ما لبث أن اعتذر وصرفهم بحجة أن حادثاً مهماً يدعوه إلى التأخر ومن ثم إلى التدبر فى أمر نقل المتطوعين وسيرهم ، هل يذهبون رأساً إلى دمشق أم يزحفون على القناة لينضموا مع إخوانهم . واتفق مع أحدهم سراً على رمز إعلان الثورة إذا تمت الخطط وكان هذا الرمز « أرسلوا الفرس الشقراء » ومعناه إعلان الحرب على الدولة وتحديد موقف العرب من هذه الحرب العالمية .

الحسين بن على شريف مكة

والاتحاديون . ووجهة نظر رجالات العرب

أوجس الاتحاديون من الشريف بمكة خيفة وأوجس الشريف منهم خيفة . وبدأ سوء التفاهم بين الجانبين من حين أن أرسل الاتحاديون إلى مكة الوالى التركى وهيب باشا . ليحد من نفوذ شريف مكة ويقصيه عن مركزه الدينى فى الحجاز . وقد اكتشفت هذه المؤامرة الاتحادية إثر فقدان حقيبة الباشا من مرافقه وعثور أحد أتباع الأمير على بن الحسين عليها . فلما فضها واطلع عليها قدمها إلى أبيه ، وبعد قراءتها قرر ارسال نجله فيصل إلى الاستانة ليطلع ولاة الأمور على هذه المؤامرة المبيتة ، وواجه الصدر الأعظم وبين له ما يريده الاتحاديون من التنكيل وبعد مداولة وتشاور قر الرأى على نقل وهيب باشا من الحجاز وتعيين آخر بدله . أما الشريف فقد بقى خائفاً يترقب ودخل فى روعه أن يتخذ للأمر أهبته وازداد اتصالا برجالات العرب الذين أخذوا يدرسون الموقف عن كثب وينظرون إلى الدولة العثمانية وهى تتردى يوماً بعد يوم وإلى الحلفاء كيف بدأت أطماعهم فى استعمار البلاد العربية خاصة بعد ما اشتد التزاحم بين فرنسا وبريطانيا وروسيا فقد كانت فرنسا تشك فى نوايا بريطانيا، وزاد هذا الشك عندما أخذ بعض موظفى دار الاعتماد فى القاهرة إجازته وقرر أن يقضيها على ظهر جواد ماراً بحيفا على سواحلها إلى بيروت ومنها إلى جبل لبنان . وقد فزعت فرنسا لهـــذا الحادث وطلبت من وزارة الخارجية البريطانية توضيح الأمر ، فأبانت لها هذه أن القضية لا ترمى إلى غرض سياسى مطلقاً وأكد السير ادوارد جراى لرئيس وزارة فرنسا المسيو بوانكاريه أن بريطانيا لا تطمع فى نفوذ سياسى على بلاد الشام واطمأن الوزير الفرنسى لهذا التأكيد وعرضه على البرلمان الفرنسى فبرهن على ما تبيته فرنسا لهذه البلاد ، وزاد الأمر وضوحا ما جاء فى زيارة المسيو موريس باريه عام ١٩١٤ إلى الشام وتحديه علناً بأن احتلال فرنسا لسورية أمر لابد منه وأنه وشيك الوقوع .

وكانت أطماع ايطاليا فى اليمن وعسير غير خافية على أحد ، أما بريطانيا فقد جثمت على فم الخليج الفارسى ، وعقدت معاهدات كثيرة مع زعماء العرب كانت

وسيلة لبسط حمايتها على جهات كثيرة من سواحل الجزيرة العربية ، كما أرغمت تركيا على الاعتراف لبريطانيا بحق الحماية على تسع إمارات عربية واقعة فى ما وراء ساحل عدن .

عرف رجالات العرب أطماع الغرب فى بلادهم فوقفوا حائرين بين أمرين . إما الوقوف بجانب الدولة العثمانية لمساعدتها ضد الاستعمار الغربى واما الوثوب عليها . وكان الرأى الأول هو الرأى السائد . خاصة بعد ما استولت ايطاليا على ليبيا وأدركوا ما يفعله الغربيون بهم . وأبرز ما جاء فى هذا الموقف رأى عزيز على المصرى الذى أخذ يناشد جمعية العهد ألا تقف من تركيا موقف العداء طالما البلاد العربية معرضة لغزو الأجانب واستعمارها وما لم يأخذوا الضمانات الكافية لإنقاذها من براثن هذا الزحف الجديد . كان زعماء العرب خائفين من أن يستبدل حكم الاتحاديين الجائر بحكم أشد منه قسوة وأبعد مدى وكان لا يزال يتردد فى نفوسهم اطمئنان إلى تسوية الأمور مع الدولة العثمانية . وما كانوا يدرون بالاتصالات الدائرة بين الحسين وبين كتشنر فى هذا الصدد . فلما جاء فيصل إلى دمشق واطلع أعضاء حزب العهد والفتاة على هذه الاتصالات اتخذ الأمر وجهة ثانية . وأخذ هؤلاء الرجال يقلبون الأمور على وجوهها ، فلما عاد إليهم وجدهم قد اتفقوا على خطة معينة ووضعـــوا بياناً مشتركا وطلبوا من فيصل أن يحمله إلى أبيه ليكون موضع المحادثة بينه وبين الحلفاء وهذا هو نص البيان :

اعتراف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية :

شمالا خط مرسين — اضنة حتى درجة ٣٧ شمالا . ومنها على امتداد خط براجيك — اورفه — ماردين — مديات — جزيرة ابن عمر — عمادية حتى حدود فارس .

شرقاً الحدود الفارسية حتى خليج فارس .

جنوباً المحيط الهندى خلا عدن التى تحافظ على وضعها الحالى .

غرباً البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط حتى مرسين .

إلغاء الامتيازات الأجنبية .

منح بريطانيا الأفضلية فى الشئون الاقتصادية .

لم يقدم الحسين على أمر جازم إلا بعد أن خبر وجهة نظر الاتحاديين وبعد أن فشل فى أمرين اثنين أولهما طلب العفو عن المحكومين سياسياً فلم يلب له طلب وثانيهما الاعتراف بالنظام اللامركزى لسورية . ومن ثم جعل إمارة مكة وراثيه فى ذريته .

فقد أرسل إلى أنور باشا البرقية التالية :

إن خروج الدولة العلية منصورة من الحرب الحاضرة يتوقف على اشتراك جميع العناصر العثمانية فيها ولا سيما العرب والجانب الأهم من ميادين القتال فى بلادهم وتأييدهم لها قلباً وقالباً فى نضالها . ويلوح لى أن ارضاء الشعب العربى يتوقف على مداواة قلبه الذى جرحه اتهام عدد كبير من أبنائه بتهم سياسية مختلفة والقبض عليهم ومحاكمتهم أمام المحاكم العسكرية بالدواء الآتى :

١ — اعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين .

٢ — إعطاء سوريا ما تطلبه من نظام لامركزى .

٣ — جعل إمارة مكة وراثية فى أولادى وإبقائها على حالتها الحاضرة فإذا قبلت هذه المطالب فاتعهد بحشد القبائل العربية بقيادة أبنائى فى ميدان العراق وميدان فلسطين ، وإذا لم تقبل فأرجوكم ألا تنتظروا منى شيئاً سوى الابتهال الحق جل وعلا بأن يهب للدولة النصر والتوفيق .

فرد عليه أنور باشا بالرد الآتى :

وصلت برقيتكم الهاشمية القائلة إن احراز النصر يكون باشتراك جميع أبناء الأمة قلباً وقالباً .

ولما كان طلب العفو عن بعض المتهمين وتطبيق نظام اللامركزية فى سورية واستبقاء إمارة مكة فى شخصكم السامى وفى أولادكم خارجاً عن اختصاص سيادتكم فالاستمرار فى طلبه ليس من مصلحتكم فى شىء .

وإنى أبلغكم أنه لا بد من أن ينال الموقوفون عقابهم كما أن حقوق سيادة ملجأ الخلافة ستظل فى الحجاز على ما كانت عليه وكما هى فى جميع الممالك الشاهانية وأوصيكم ملحا بأن تستدعوا ولدكم علياً الموجود فى المدينة إلى مكة فوراً

وترسلوا المجاهدين الذين وعدتم بارسالهم إلى دمشق ليكونوا بقيادة ولدكم فيصل بك ، وبديهى أنه سيظل ضيفاً على الجيش الرابع حتى نهاية الحرب ،والأمر لمن له الأمر سيدى . فأرسل الشريف الرد الآتى .

« لقد أرسلت نجلى فيصلا إلى دمشق اعتماداً على شرف الدولة ، ولست أرجو أن يعود إلى الآن ، على أن سوق المتطوعة إلى دمشق يتوقف على وصوله إلى المدينة ورؤية هؤلاء له ، وسيدعى نجلى على إلى مكة قريباً .

ويستدل من مذكرات جمال باشا أن الاتحاديين لم يجدوا مبرراً لطلب الشريف هذه المطالب فلم يذعنوا إليها . ولم يهتموا بها ووجدوا فيها نوعاً من الخروج وزيادة فى التطرف . فقد قال جمال إلى فيصل : « لقد نمى إلى خبر برقيتكم إلى أنور باشا فأنتم تطلبون أن تكون الإمارة وراثية فى أسرتكم وأن يمنح أشخاص عديدون العفو الشاهانى بعد أن قامت البراهين على خيانتهم للوطن والأمة . وليستطرد جمال فى مذكراته ويبين لفيصل أن إجابة العفو ضعف تظهر فيه الدولة فلا يمكن تحقيقه ، وأما جعل الإمارة ورثية فليس اليوم موضع بحثه فإننا فى شدة ولا بد من الخروج منها وللخليفة وحده حق المثوبة وحق العقاب .

هكذا كانت الحالة بين الجانبين . ثلاثة مواقف لشريف مكة موقف ولرجال العرب موقف . وللاتحاديين موقف . آل الأمر بعد ذلك إلى إعلان الثورة بعد اتصالات الحسين بالحلفاء وبعد أخذ رأى زعماء العرب بما سنفصله فى بحثنا التالى .

الشريف والحلفاء

كان الشريف عبد الله بن الحسين شريف مكة يمر فى القاهرة فى غدوه ورواحه إلى الأستانة ، وكان اللورد كتشنر أيان اضطراب الحالة الدولية وقبل نشوب الحرب العالمية الأولى معتمداً لبريطانيا فى مصر ، وكان فيها المستر ستورز السكرتير الشرقى لدار الاعتماد . وفى إحدى سفرات الشريف عبد الله زاره اللورد كتشنر فرد عليه الزيارة ، وكانت الحالة فى توتر شديد بين الحسين والاتحاديين .

وكان على اللورد كتشنر أن ينظر إلى الشرق الأدنى نظرة خطيرة . فإن موقعه الحربى ومركزه الممتاز فى سوق الجيوش وكونه جسراً إلى الهند دعاه أن يفكر فى الأمر ملياً ، وأن يحتاط كل الاحتياط لما عساه أن يحدث إذا وقعت الحرب بين المانيا وبريطانيا وانحازت تركيا إلى المانيا .

وكانت زيارته إلى عبد الله من قبيل جس النبض والتقرب من العرب ومعرفة نواياهم فى حالة وقوع الحرب .

لقد بسطت بريطانيا حمايتها على سواحل الجزيرة الجنوبية فى أهم مواقعها وجثمت على الخليج الفارسى وبقيت جهات من الجزيرة واقعة تحت النفوذ التركى فللأتراك أربع فرق عسكرية موزعة بين الحجاز وعسير واليمن فكيف تضمن اطمئنانها إلى هذه الناحية ؟

لقد كان الوضع فى الجزيرة غير واضح ، فإن الادريسى عدو للترك وأن الحامية التركية التى فى بلاده لا تستطيع التوغل وإن موقف ابن السعود من الترك معلوم لأنهم مع ابن الرشيد ، ومع ذلك فإنه لم يعط لرسل تركيا الذين زاروه وعداً قاطعاً واعتذر أنه يخشى هجوم الانكليز على سواحل بلاده . وظل الإمام يحيى حليفاً لهم وانحاز إلى صفوفهم . أدركت بريطانيا موطن الخطر من هذه الناحية إذا دخلت تركيا الحرب ، فأخذت تفتل بين الذروة والغارب ، وكان اتصال كتشنر بالشريف عبد الله فتح أمام بريطانيا أفقاً جديداً علمت منه مبلغ التوتر بين الترك والعرب . ولم يعط كتشنر صكا لعبد الله فى محادثاته ، واعلمه أن تقاليد الصداقة البريطانية التركية لا تسمح فى الخوض بحديث يؤدى إلى قطعها بيد أنه حين تأكدت

الحكومة البريطانية من دخول الأتراك إلى جانب ألمانيا أسرعت وأخذت تحادث رجال العرب فى القاهرة وتتودد إليهم وتعدهم بالمساعدة لاستقلال بلادهم وخلاصها من النير التركى ومن الاستعمار الألمانى المنتظر، وشرعت تبث الدعاية فى كل مكان .

وفى خريف عام ١٩١٤ طلب المستر ستورز من عبد الله أن يوضح موقف والده إذا أعلنت تركيا الجهاد المقدس، فاخبر الجبهة البريطانية أنه سوف يقف على الحياد. ومرت أشهر معدودات دون اتصال بين الجبهة البريطانية والحجاز ثم حدث أن اتصل المستر ستورز بالشريف فتداول معه الأمر بحضور بعض الزعماء من العرب من الذين أفلتوا من يد جمال بالشام، فاتفقوا على صيغة العرض الذى يقدمه الجانب العربى فكتب الشريف حسين فى ١٤ تموز عام ١٩١٥ الكتاب الأول إلى نائب جلالة ملك بريطانيا بمصر ما نصه :

— ١ —

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر سلمه الله ، أقدم لجنابكم العزيز أحسن تحياتى الودية واحتراماتى، وأرجو أن تعملوا ما فى وسعكم لتنفيذ المذكرة المرسلة إليكم طيه المتضمنة الشروط المقترحة المتعلقة بالقضية العربية وأود بهذه المناسبة أن أصرح لحضرتكم ولحكومتكم أنه ليس هناك حاجة لأن تشغلوا أفكاركم بآراء الشعب هنا ، لأنه بأجمعه ميال إلى حكومتكم بحكم المصالح المشتركة ، ثم يجب ألا تتعبوا أنفسكم بإرسال الطيارات أو رجال الحرب لإلقاء المناشير وإذاعة الشائعات كما كنتم تفعلون من قبل لأن القضية قد قررت الآن وإنى لأرجو هنا أن تفسحوا المجال أمام الحكومة المصرية لترسل الهدايا المعروفة من الحنطة للأراضى المقدسة (مكة والمدينة) التى أوقف إرسالها منذ العام الماضى ، وأود أن ألفت نظركم إلى أن ارسال مثل هدايا هذا العام والعام الفائت سيكون له أثر فعال فى توطيد مصالحنا المشتركة ، وأعتقد أن هذا يكفى لاقناع رجل ذكى مثلكم أطال الله بقاءكم . حاشية . أرجو ألا تزعجوا أنفسكم بإرسال أى

رسالة قبل أن تروا نتائج أعمالنا هنا . خلا الجواب على مذكراتنا وما تتضمنه ونرجو أن يكون هذا الجواب بواسطة رسولنا ، كما نرجو أن تعطوه بطاقة منكم ليسهل عليه الوصول اليكم عندما نجد حاجة لذلك ، والرسول موثوق به .

المذكرة الأولى

مكة فى ٢ رمضان سنة ١٣٣٣ هـ (١٤ تموز سنة ١٩١٥)

لما كان العرب بأجمعهم دون استثناء قد قرروا فى الأعوام الأخيرة أن يعيشوا وأن يفوزوا بحريتهم المطلقة وأن يتسلموا مقاليد الحكم نظرياً وعملياً بأيديهم .

ولما كان هؤلاء قد شعروا وتأكدوا أنه من مصلحة حكومة بريطانيا أن تساعدهم وتعاونهم للوصول إلى أمانيهم المشروعة، وهى الأمانى المؤسسة على بقاء شرفهم وكرامتهم وحياتهم ، ولما كان من مصلحة العرب أن يفضلوا مساعدة حكومة بريطانيا على أية حكومة أخرى بالنظر لمركزهم الجغرافى ومصالحهم الاقتصادية وموقفهم من حكومة بريطانيا ، إنه بالنظر لهذه الأسباب كلها يرى الشعب العربى أنه من المناسب أن يسأل الحكومة البريطانية إذا كانت ترى من المناسب أن تصادق بواسطة مندوبها أو ممثلها على الاقتراحات الأساسية الآتية :

أولا — أن تعترف انكلترة باستقلال البلاد العربية من مرسين : — أطنة حتى الخليج الفارسى — شمالا ، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقاً ، ومن المحيط الهندى للجزيرة جنوباً ، يستثنى من ذلك عدن التى تبقى كما هى ، ومن البحر الأحمر والبحر الأبيض غرباً .

على أن توافق انكلترة أيضاً على إعلان خليفة عربى للمسلمين .

ثانيا — تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية انكلترة فى كل مشروع اقتصادى فى البلاد العربية إذا كانت شروط تلك المشاريع متساوية .

ثالثاً — تتعاون الحكومتان الانكليزية والعربية فى مجابهة كل قوة تهاجم أحد الفريقين وذلك حفظاً لاستقلال البلاد العربية وتأميناً لأفضلية انكلترة الاقتصادية فيها على أن يكون هذا التعاون فى كل شىء فى القوة العسكرية والبحرية والجوية .

رابعاً — إذا تعدى أحد الفريقين على بلاد ما ، ونشب بينه وبينها قتال وعراك فعلى الفريق الآخر أن يلزم الحيـــاد ، على أن هذا الفريق المعتدى إذا رغب فى اشتراك الفريق الآخر معه فى وسع الفريقين أن يجتمعا معاً وأن يتفقا على الشروط .

خامساً : مدة الاتفاق فى المادتين الثالثة والرابعة فى هذه المعاهدة خمس عشرة سنة ، وإذا شاء أحد الفريقين تجديدها عليه أن يطلع الفريق الآخر على رغبته قبل انتهاء مدة الاتفاق بعام .

هذا ولما كان الشعب العربى بأجمعه قد اتفق والحمد لله على بلوغ الغاية وتحقيق الفكرة مهما كلفه الأمر ، فهو يرجو الحكومة البريطانية أن تجيبه سلباً أو إيجاباً فى خلال ثلاثين يوماً من وصول هذا الاقتراح .

وإذا انقضت هذه المدة ولم يتلق جواباً فإنه يحفظ لنفسه حرية العمل كما يشاء وفوق هذا فإننا نحن عائلة الشريف نعتبر أنفسنا إذا لم يصل الجواب أحراراً فى القول والعمل فى كل التصريحات والوعود السابقة التى قدمناها .

— ٢ —

من السير هنرى مكماهون إلى الشريف حسين .

مصر فى ١٩ شوال ١٣٣٣ ﻫ (٣٠ أغسطس سنة ١٩١٥ م)

إلى الحسيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار فرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية ، صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية السيد بن السيد والشريف بن الشريف السيد الجليل المبجل دولة الشريف حسين باشا سيد الجميع

مير مكة المكرمة قبلة العالمين ومحط رحال المؤمنين الطائعين عمت بركته الناس أجمعين .

بعد رفع رسوم وافر التحيات العطرة والتسليمات القلبية الخالصة من كل شائبة أعرض أن لنا الشرف بتقديم وافر الشكر لإظهـــاركم عاطفة الإخلاص والإحساسات نحو انكلترة ، وقد يسرنا علاوة على ذلك أن تعلم سيادتكم ورجالكم برأى واحد وعقيدة واحدة وهى أن مصالح العرب هى مصالح انكلترة ومصالح انكلترة هى مصالح العرب . وأود بهذه المناسبة أن أؤكد لكم ما قاله اللورد كتشنر فى الرسالة التى وصلتكم بواسطة على افندى ، وهى الرسالة التى أوضح لكم فيها بصراحة رغبتنا فى استقلال البلاد العربية وسكانها وموافقتنا على أن يكون الخليفة عربياً عريق العروبة .

أما ما يتعلق بالحدود فقد يكون بحثنا فى مثل هذا التفاصيل — والوقت قصير والحرب قائمة — سابق لأوانه — وخاصة أن تركيا لا تزال تحتل قسماً كبيراً من الأراضى التى أشرتم إليها فى اقتراحكم احتلالا تاماً ، ثم يجب أن أضيف إلى ذلك أننى علمت بدهشة وألم أن بعض العرب فى هذه الأقسام لا يرغبون فى مساعدتنا ، بل يقدمون مساعدتهم الفعلية بالسلاح للألمان والأتراك ، ومن ناحية أخرى فإننا على استعداد لأن نرسل لفخامتكم المنح المطلوبة للأراضى المقدسة حالما تعلمونا كيف وأين ترغبون تسلمها ، ونحن نهىء الأسباب اللازمة ليتمكن رسولكم من الوصول إلينا بكل أمان وسلام .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام   التوقيع : ا ، ه مكماهون

— ٣ —

من الشريف حسين إلى السير هنرى مكماهون :

بسم الله الرحمن الرحيم .

مكة فى ٢٩ شوال ١٣٣٣ ، (٩ أيلول سنة ١٩١٥) .

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر سلمه الله .

بمزيد السرور والغبطة تلقيت كتابكم المؤرخ فى ١٩ شوال وطالعته بكل

احترام واعتبار ، رغم شعورى بغموضه وبرودته فيما يتعلق بنقطتنا الأساسية أعنى نقطة الحدود .

وأرى من الضرورى أن أؤكد لسعادتكم إخلاصنا نحو بريطانيا العظمى واعتقادنا بضرورة تفضيلها على الجميع فى كل الشئون وفى أى شكل وفى أية ظروف ويجب أن أؤكد لكم أيضاً أن مصالح اتباع دياناتنا كلها تتطلب الحدود التى ذكرتها لكم ، ويعذرنى فخامة المندوب إذا قلت بصراحة أن البرودة والتردد اللذين ضمنهما كتابه فيما يتعلق بالحدود وقوله أن البحث فى هذه الشئون إنما هو إضاعة للوقت ، وأن تلك الأراضى لا تزال بيد الحكومة التى تحكمها ، ويعذرنى فخامته إذا قلت أن هذا كله يدل على عدم الرضا أو على شىء من هذا القبيل ، فإن هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل تتمكن من إرضائه ومفاوضته بعد الحرب بل هى مطالب شعب يعتقد أن حياته فى هذه الحدود ، وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد ، وهذا ما جعل الشعب يعتقد أنه من الضرورى البحث فى هذه النقطة قبل كل شىء مع الدولة التى يثقون بها كل الثقة ويعلقون عليها كل الآمال وهى بريطانيا العظمى ، وإذا أجمع هؤلاء على ذلك ، فإنما يجمعون على سبيل الصالح المشترك ، وهم يرون أنه من الضرورى جداً أن تنضم الأراضى المجزأة ليعرفوا على أى أساس يؤسسون حياتهم كيلا تعارضهم إنكلترة أو إحدى حليفاتها فى هذا الموضوع مما يؤدى إلى نتيجة معاكسة . الأمر الذى حرمه الله ، وفوق هذا فإن العرب لم يطلبوا — فى تلك الحدود — مناطق يقطنها شعب أجنبى ، بل هى عبارة عن كلمات وألقاب يطلقونها عليها .

أما الخلافة فإن الله يرضى عنها ويسر الناس بها . وأنا على ثقة ياصاحب الفخامة أنكم لا تشكون قط بأنى لست أنا شخيصاً الذى يطلب تلك الحدود التى يقطنها عرب مثلنا ، بل هى مقترحات شعب بأسره يعتقد أنها ضرورة لتأمين حياته الاقتصادية .

أو ليس هذا صحيحاً يا فخامة الوزير ؟ وبالاختصار فإننا ثابتون فى إخلاصنا نصرح بكل تأكيد بتفضيلنا لكم على الجميع ، أكنتم راضين عنا أم غاضبين . أما ما يتعلق بقولكم بأن قسما من شعبنا لا يزال يبذل جهده فى سبيل تأمين

مصالح الأتراك فلا أظن أن هــذا يبرر البرودة والتردد اللذين شعرت بهما فى كتابكم فيما يتعلق بموضوع الحدود ، الموضوع الذى لا أعتقد أن رجلا مثلكم ثاقب الرأى ينكر أنه ضرورى لحياتنا الأدبية والمادية ، وأنا حتى الساعة لا أزال أنفذ ما تأمر به الديانة الإسلامية فى كل عمل أقوم به ، وأراه مفيداً وصالحاً لبقية المملكة ، وإنى سأستمر فى هــذا الرأى إلى أن يأمر الله بغير ذلك ، وأود هنا يا صاحب الفخامة أن أؤكد لكم بصراحة أن الشعب ومن جملته هؤلاء الذين تقولون أنهم يعملون لصالح تركيا وألمانيا ينتظر بفارغ الصبر نتائج هذه المفاوضات على موافقتكم أو رفضكم قضية الحدود وقضية المحافظة على دياناتهم وحمايتهم من كل أذى وخطر . وكل ما تجده الحكومة البريطانية موافقاً لسياستها فى هذا الموضوع فما علينا إلا أن تعلمنا به وأن تدلنا على الطريق التى يجب أن نسلكها ولذا نرى من واجبنا أن نؤكد لكم أننا سنطلب إليكم أول فرصة بعد انتهاء الحرب ما ندعه الآن لفرنسا فى بيروت وسواحلها ، ولست أرى حاجة هنا لأن ألفت نظركم إلى أن خطتنا هى أمن على مصالح إنكلترة من خطة إنكلترة على مصالحنا . ونعتقد أن وجود هؤلاء الجيران فى المستقبل سيقلق أفكارنا كما يقلق أفكارها .

وفوق هذا فإن الشعب البيروتى لا يرضى قط بهذا الابتعاد والانزواء . وقد يضطرنا لاتخاذ تدابير جديدة يكون من شأنها خلق متاعب جديدة تفوق فى صعوبتها المتاعب الحاضرة . وعلى هذا لا يمكن السماح لفرنسا بالإستيلاء على قطعة صغيرة من تلك المنطقة ، وأنا أصرح بهذا رغم أنى أعتقد وأومن بالتعهدات التى قطعتموها فى كتابكم .

ويستطيع معالى الوزير وحكومته أن يثق كل الثقة بأننا لا نزال عند قولنا وعزيمتنا وتعهداتنا التى عرفها مستر ستورز منذ عامين ، ونحن ننتظر اليوم الفرصة السانحة التى تناسب موقفنا وخاصة فيما يتعلق بالحركة التى أضحت قريبة والتى يدفعها إلينا القدر بسرعة ووضوح لتكون حجة — نحن والذين يرون رأينا — فى العمل ضد تركيا دون أن نتعرض للوم والنقد .

واعتقد أن قولكم « بأن بريطانيا لا تمسكم ولا تدفعكم للإسراع فى حركتكم

مخافة أن يؤدى هذا التسرع إلى تصديع نجاحكم لا يحتاج إلى إيضاح إلا فيما يتعلق بالأسلحة والذخائر عند الحاجة ، اعتقد أن فى هذا كفاية ، .

— ٤ —

من السير هنرى مكماهون إلى الشريف حسين :

القاهرة فى ٢٤ تشرى الأول ١٩١٥ (١٥ ذى الحجة ١٣٣٣) .

إلى شريف مكة مع الألقاب :

تلقيت كتابكم المؤرخ فى ٢٩ شوال بكثير من الغبطة والسرور ، وكان للعبارات الودية المخلصة التى وردت فيه أكبر تأثير فى نفسى ، وإنه يؤسفنى أنكم لاحظتم فى كتابى الأخير ، وحديثى عن قضية الحدود شيئاً من البرودة والتردد ، مع أننى لم أكن أقصد ذلك بل كنت أود أن أقول بأن الوقت لم يحن بعد للبحث فيها بحثاً منتجاً ، هذا كل ما أردت قوله . وقد أدركت فى كتابكم الأخير أنكم تعلقون أهمية كبرى على قضية الحدود وأنكم تعتبرونها من المسائل الحيوية فأرسلت مضمون كتابكم إلى الحكومة البريطانية ، وإنه ليسرنى أن أرسل إليكم البيانات التالية التى أثق كل الثقة أنها تفوز برضائكم .

إن مرسين واسكندرونة وبعض الأقسام السورية الواقعة فى غربى دمشق وحمص وحماه وحلب ولا يمكن أن يقال عنها أنها عربية محضة فيجب أن تستثنى من الحدود التى ذكرتموها ، ونحن على استعداد للموافقة على تلك الحدود على أساس هذه التعديلات على ألا تنقص شيئا من اتفاقاتنا مع زعماء العرب. أما الأراضى التى تستطيع إنكلترة العمل فيها بملء الحرية ودون أن توقع ضرراً بحليفتها فرنسا فإن لى السلطة التامة باسم حكومة صاحب الجلالة أن أعطيكم التأمينات التالية جواباً على كتابكم :

١ — إن إنكلترة مستعدة على أساس تلك التعديلات أن تعترف باستقلال العرب وتقديم المساعدة لهم فى الحدود التى اقترحها شريف مكة .

٢ — تحمى بريطانيا الأراضى المقدسة من كل اعتداء خارجى وتعترف بوحدتها .

٣ — تقدم بريطانيا للعرب عند الحاجة كل مساعدة أو نصيحة تلزم وتعاونهم في تشكيل أفضل شكل من أشكال الحكومة فى مختلف البلاد العربية .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن العرب يوافقون على استشارة ومعونة وإدارة بريطانيا العظمى وحــدها ويرضون بأن يكون جميع الموظفين الذين يحتاجون إليهم بتنظيم دوائر مملكتهم من البعثة الإنجليزية .

أما ما يتعلق بولايتى البصرة وبغداد فإن العرب يعرفون أن مركز إنكلترة ومصالحها فيها يتطلب شكلا إدارياً خاصاً ومراقبة خاصة للمحافظة على تلك الأنحاء من الاعتداءات الخارجية وتأمين راحة واطمئنان السكان وتوطيد مصالحنا المشتركة فيها :

وإنى لعلى ثقة بأن هـذا التصريح يجعلكم أبعد ما تكونون عن الشك فى عطف بريطانيا على أمانى أصـدقائها « التقليديين » العرب ويؤدى حتما إلى التحالف والعمل على طرد الأتراك من البلاد العربية وإنقاذ العرب من النير التركى الذى كان وما يزال يضغط على أعناقهم منـذ أعوام . لقد قصرت كتابى هذا على الشئون العظيمة الأهمية ، فإذا كان لديكم شئون أخرى ترغبـون فى المذاكرة بشأنها ولم أشر إليها فى كتابى هذا فإن فى وسعنا البحث فيها فى فرصة مناسبة فى المستقبل .

وقد تلقيت بالسرور والرضا نبأ وصول المحمل الشريف والهدايا المرسلة بكل دقة ونظام بفضل التعليمات والإرشادات القيمة التى قدمتموها وذلك بالرغم من الأخطار والمصاعب التى خلقتها الحرب الحاضرة ، وأرجو الله أن يعيد السلام والأمان والحرية سريعاً إلى جميع الشعوب . لقد أرسلت إليكم هـذا الكتاب بواسطة رسولكم النشيط الأمين الشيخ محمد بن عارف عريفان وهو سيطلعكم على بعض الشئون التى لم أذكرها فى كتابى .

— ٥ —

من الشريف حسين إلى السير هنرى مكماهون .

بسم الله الرحمن الرحيم .

مكة فى ٢٤ ذى الحجة ١٣٣٣ (٥ تشرين الثانى ١٩١٥) .

لقد تلقيت بسرور كتابكم الكريم المؤرخ فى ١٥ ذى الحجة وها أنا أجيبكم عليه ، بما يلى :

١ — رغبة فى تسهيل الإتفاق وخدمة الإسلام واجتناب كل ما من شأنه تعكير صفو المسلمين ، واعتماداً على صفات بريطانيا العظمى ومواقفها الحميدة فإننا نتنازل عن إصرارنا فى ضم مرسين وأدنة إلى المملكة العربية .

أما قضية حلب وبيروت وسواحلها فهى عربية صرفاً ، وليس هناك فرق بين المسلم العربى والمسيحى العربى فكلاهما من نسل واحد وسنسير نحن المسلمين على خطة سيدنا عمر بن الخطاب وسواه من الخلفاء الراشدين الذين فرضوا على المسلمين — بموجب الديانة الإسلامية — أن يعاملوا المسيحيين كما يعاملون أنفسهم . وقد قال سيدنا عمر فى حديث له عن المسيحيين بأن لهؤلاء ما لنا من حقوق وواجبات وعلى هذا فإن المسيحيين سيتمتعون بما نتمتع به من حقوق بما يتفق ومصلحة الشعب أجمع .

٢ — لما كان العراق قسماً من المملكة العربية ، وكان مركز حكومتها فى عهد على بن أبى طالب والخلفاء الذين تبعوه ، ولما كان هذا القطر مهداً لحضارة العرب ومدنيتهم وفيه أنشئت أبنيتهم الأولى ، وفيه عظمت قوتهم فإن العرب القريبين والبعيدين ينظرون إلى هذا القطر نظرة اعتبار خاصة ، ولا يستطيعون أن أن ينسوا بسهولة تقاليدهم وذكرياتهم ، ولذلك اعتقد أنه ليس فى المستطاع اقناع الشعب العربى بالتنازل عن هذا القطر ، إنما رغبة منا فى تسهيل الاتفاق واعتماداً على عهودكم فى المادة الخامسة من كتابكم وحفظاً لمصالحنا المشتركة فى هذا القطر فقد نوافق أن نترك الآن لمدة قصيرة الأراضى التى تحتلها الجيوش

الإنكليزية تحت إدارة انكلترة لقاء مبلغ من المال يدفع كتعويض عن مدة احتلال تلك المنطقة واحترام اتفاقكم مع شيوخها .

٣ — إذا كنتم ترغبون فى الاسراع بالثورة فإننا نرى كثيراً من المخاوف وأول ما نخشاه أن يقوم مسلمو الطرف الآخر ويلوموننا على حركتنا وثورتنا على حكومة إسلامية. ثم هناك أمر نخشاه وهو أننا إذا وقفنا فى وجه الأتراك ووراءهم جميع القوى الألمانية، فإننا لا نستطيع أن نعرف إذا كان من الممكن أن تضعف إحدى الدول المحالفة وتطلب الصلح فهل تتركنا انكلترة وحدنا أمام الأتراك أم لا ، فإذا تم هذا وبقى العرب وحيدين أمام الأتراك فماذا نصنع ؟

٤ — إن الأتراك لا يكادون يروننا وحيدين حتى يعمدوا إلى الانتقام منا، فيعبثوا بحقوقنا المادية والمعنوية ،ويعتدوا على كرامتنا وشرفنا بمساعدة حليفتهم ألمانيا . هذه أمور يجب النظر إليها منذ الآن بعين الاعتبار لأن لها علاقة خاصة بقضيتنا .

٥ — عندما يعرف العرب أن حكومة بريطانيا العظمى هى حليفتهم لا تدعهم وحدهم عند انتهاء الحرب وعقد معاهدة الصلح وتحديدها دواماً لمساعدتهم والدفاع عنهم عندئذ يخوضون غمار الحرب بنفس مطمئنة لا يشوبها شىء من الخوف والحذر .

٦ — إن كتابنا المؤرخ ٢٩ شوال سنه ١٣٣٣ يغنينا على ما اعتقد عن إعادة رأينا فيما يتعلق بالمادتين الثالثة والرابعة من كتابكم الأخير بشأن الإدارة والاستشارة الحكومية والموظفين على ألا يكون كما صرحتم تدخل فى الشئون الداخلية .

٧ — اننا ننتظر وصول جوابكم النهائى الصريح على هذه الاقتراحات بأسرع ما يمكن ، فقد أبدينا كل تساهل فى الموضوع فى سبيل الوصول إلى إتفاق يرضى الفريقين . ونحن نعرف أن نصيبنا من هذه الحرب إما نجاح يؤمن للعرب حياة تنفق وتاريخهم القديم ، أو انقراض فى سبيل الوصول إلى أمانيهم ومطالبهم ولو لم أكن أعرف أن العرب مستعدون للتضحية بأرواحهم فى سبيل الوصول إلى أمانيهم لكنت أفضل أن أصعد إلى رأس جبل وأنزوى فيه . ولكن العرب بأسرهم يصرون على بأن أقود حركتهم حتى النهاية .

— ٦ —

من السير مكماهون إلى الشريف حسين

القاهرة فى ١٣ كانون الأول ١٩١٥ (٩ صفر ١٣٣٤)

وبعد . فقد وصلنى كتابكم الكريم بتاريخ ٢٧ ذى الحجة سنة ١٣٣٣ وسرنى ما رأيت فيه من قبولكم إخراج ولايتى مرسين وأدنة من حدود البلاد العربية ، وقد تلقيت أيضاً بمزيد السرور والرضا تأكيداتكم أن العرب عازمون على السير بموجب تعاليم الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وغيره من الخلفاء الأولين : التعاليم التى تضمن حقوق الأديان وامتيازاتها على السواء ، هذا وفى قولكم أن تحترموا وتعترفوا بجميع معاهداتنا مع رؤساء العرب الآخرين يعلم منه طبعاً أن هذا يشمل البلاد الداخلة فى حدود المملكة العربية لأن حكومة بريطانيا العظمى لا تستطيع أن تنتقض اتفاقات قد ابرمت بينها وبين أولئك الرؤساء ، أما بشأن ولايتى حلب وبيروت فحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنها ودونت ذلك عندها بعناية تامة ، ولكن لما كانت مصالح حليفتها فرنسا داخلة فيها فالمسألة تحتاج إلى نظر دقيق. وسنخابركم بهذا الشأن مرة أخرى فى الوقت المناسب، إن حكومة بريطانيا مستعدة أن تعطى كل الضمانات والمساعدات التى فى وسعها إلى المملكة العربية ، ولكن مصالحها فى ولاية بغداد تتطلب إداره ودية ثابتة، وإننا فستصوب تماماً رغبتكم فى اتخاذ الحذر ، ولسنا نريد أن ندفعكم إلى عمل سريع ربما يعرقل نجاح أغراضكم ، ولكنا فى الوقت نفسه نرى من الضرورى جداً أن تبذلوا كل مجهوداتكم فى جمع كلمة الشعوب العربية إلى غايتنا المشتركة وأن تحثوهم على ألا يمدوا يد المساعدة لأعدائنا بأى وجه كان ، فانه على نجاح هذه المجهودات وعلى التدابير الفعلية التى يمكن للعرب أن يتخذوها لاسعاف غرضنا عند ما يجىء وقت العمل تتوقف قوة الاتفاق بيننا وثباته ، وفى هذه الأحوال فان حكومة بريطانيا العظمى لا تنوى ابرام أى صلح كان إلا إذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية وخلاصها من سلطة الألمان والأتراك ، هذا وعربوناً على صدق نيتنا ولأجل مساعدتكم فى مجهوداتكم فى غايتنا المشتركة فإنى مرسل مع رسولكم الأمين مبلغ عشرين ألف جنيه ، وأقدم فى الختام عاطر التحيات القلبية .

— ٧ —

من الشريف حسين إلى السير هنرى مكماهون

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة فى ٢٥ صفر ١٣٣٤ أول كانون الثانى ١٩١٦

تلقينا كتابيكم المؤرخين فى ٩ صفر فسرنى ما جاء فيهما . وذهب ماكان يقلقنى وأظن أن فخامتكم قد أدركتم بعد وصول الشريف محمد فاروق واجتماعه إليكم بأن أعمالنا حتى الآن لم تكن لغايات وميول شخصية ، بل إن كل شىء كان نتيجة مطالب ورغائب شعبنا، وإننا لسنا سوى ناقلين ومنفذين لرغائب الشعب وإلحاحه .

وهذه الحقائق هى دوماً فى فكرى أهتم لها كل الاهتمام ، وأرجو أن تجد فى نفسكم مكانها من الانتباه والاعتبار .

إن ما يتعلق بقضية العراق وقضية التعويض الذى اقترحناه لقاء احتلاله فإننى فى رغبة فى تقوية ثقة بريطانيا بنوايانا فى القول والعمل أدع أمر تقدير المبلغ إلى حكمتها وعدالتها .

أما مايتعلق بالأقسام الشمالية ومرافقها فقد أبدينا لكم فى كتابنا السابق أقصى ما يمكن أن نوافق عليه من تعديلات، ونحن لم نتساهل هذا التساهل إلا لتحقيق الرغائب التى يريدها الله العلى الأعلى أن تتحقق ، وهذا الشعور هو الذى حدانا لأن نتجنب كل ما من شأنه أن يسىء إلى تحالف انكلترة وفرنسا والاتفاق المعقود بينهما خلال هذه الحرب ومصائبها .

— ٨ —

من السير هنرى ماك ماهون إلى الشريف حسين .

القاهرة فى ٢٤ ربيع الأول سنة ١٣٣٤ (٣٠ كانون الثانى سنة ١٩١٦)

تلقينا بسرور كتابكم المؤرخ فى ٢٥ صفر بواسطة رسولكم الموثوق به، واطلعنا منه على رسالتكم الشفوية ، وإننا لنقدر حق التقدير الدوافع التى تقودكم فى هذه القضية الهامة ، ونعرف جيداً أنكم تعملون فى صالح العرب وإنكم لا ترمون إلى شىء فى عملكم غير صالحهم وحريتهم .

وقد عنيت عناية خاصة بملاحظتكم بشأن ولاية بغداد ، وسنبحث هذا الموضوع باهتمام وعناية زائدين عندما تتم هزيمة الأعداء ونصل إلى التسويات السلمية . أما ما يتعلق بالجهات الشمالية فقد كتبت ملاحظة عن رغبتكم فى تجنب كل ما من شأنه الإساءة إلى تحالف انكلترة وفرنسا ، وسررت جداً بإبداء مثل هذه الرغبة . وأظنكم تعرفون جيداً أننا مقررون قراراً نهائياً بألا نسمح بأى تدخل (مهما قل شأنه) فى اتفاقنا المشترك فى إيصال هذه الحرب إلى الفوز ، ثم متى انتهت الحرب ، فإن صداقة فرنسا وانكلترة ستقوى وتشتد ، وهى اللتان بذلتا الدماء الانكليزية والفرنسية جنباً إلى جنب فى سبيل الدفاع عن الحقوق والحريات ، والآن وقد قررت البلاد العربية أن تشترك معنا فى الدفاع عن الحقوق والحريات وتعمل معنا فى سبيل هذه القضية الهامة ، فإننا لنرجو الله أن تكون نتيجة هذه الجهود المشتركة وهذا التعاون الوطيد صداقة دائمة تعود على الجميع بالسرور والغبطة ، وقد سررنا جداً للحركة التى تقومون بها لاقناع الشعب بضرورة الانضمام إلى حركتنا والكف عن مساعدة أعدائنا ، ونترك لفطنتكم وتقديراتكم تقرير الوقت المناسب لاتخاذ تدابير أوسع من هذه .

هكذا استمرت هذه المراسلات السرية بين الشريف حسين وبين مكماهون ودامت الاتصالات بين الحلفاء وبين رجالات العرب حتى أدت الحالة إلى اعتراف العرب بالأمر الواقع ، ولم يروا بداً من إعلان الثورة وإن كانوا يرون فى ذلك غضاضة لقيامهم بثورة مسلحة ضد اخوان لهم تربطهم بهم عقيدة السماء ، ولكن مواقف فتيان الأتراك وسياسييهم اضطر العرب أن يقفوا هذا الموقف ، بل إن الحالة الدولية وما تتعرض له بلادهم من خطر مؤكد وتركها فى مهب الرياح وبين أصبعى القدر . كل ذلك أملى عليهم أن لا يقفوا مكتوفى الأيدى يتفرجون على مواقع حرب طاحنة ، تدور رحاها فى بلادهم ، فاندفعوا يطلبون الحرية والاستقلال ووثقوا بتلك العهود التى مرت بنا فى هذه المكاتبات السرية التى سوف نرى نتائجها فى فصولنا القادمة .

إعلان الثورة

وأثر العرب فى انتصار الحلفاء

قرأنا فى فصولنا السابقة مقدمات مؤلمة فى الاصطراع بين الشعب العربى وبين رجال الاتحاديين، ووجدنا فى مواقف هؤلاء مايؤدى حتما إلى موقف حاسم يقفه العرب . لقد جاءت فكرة الاستتراك التى كان يريدها الاتحاديون لشعوب تركيا جميعها متأخرة ، وجاءت فى وقت تيقظ فيه العالم وسرت موجات هذه اليقظة فى أرجائه جميعها، فقد فتح العرب عيونهم على هذه اليقظة ورأوا هذه الفئة التى أصبح بيدها زمام الحكم تنوى شراً لهذه الخلافة التى تحكم أقواماً وشعوباً متنوعة ورأوا ماتفعله هذه الأقوام ، وفى العرب رجال لهم فى جيش الدولة مكانة وفى إدارتها شأن . وعنصرهم هو العنصر الغالب ، والثقافة السائدة هى الثقافة العربية الإسلامية ، والقرآن الذى تستظل بظلاله الخلافة الإسلامية ينطق بلسان عربى مبين ، فلم يرضون بهذه المكانة ؟ ولماذا يصبرون حتى تستتركهم جمعية الاتحاد والترقى ، لقد أظهروا مقدرة فائقة فى جميع الميادين الحربية والإدارية ،وساهم رجالهم فى قمع الظلم والاستبداد وإعادة الدستور، فقد اشتركوا بالزحف على العاصمة وأرغموا الخليفة على إعادة الدستور ومن ثم على النزول عن عرشه . أفلا يمكن لهم إذن أن يحددوا مركزهم فى هذه الدولة ؟ كل أولئك أهابت بالعرب ،وكانت فرصة سانحة فى هذه الحرب العالمية فتقدموا للدولة يستوضحونها ويطالبون تحديد مركزهم ،فاغضب ذلك الاتحاديين وفعل جمال باشا فى أحرارهم مافعـــل ، ما كان للعرب بد من خوض المعركة .

ولكن كيف ذلك وهناك معسكران متناطحان : تركيا والألمان من جهة وإنجكلترة والحلفاء من جهة أخرى ، ولم ير العرب بدأ من الانحياز إلى جانب الحلفاء بعد أن ألقى الشريف الحجة على الأتراك بمطالبة العفو عن الأحرار قبل أن يشنقهم جمال باشا، ثم بمطالبة تحديد مكانة الأمة العربية ضمن سلطة الخلافة من حيث انشاء إدارة لامركزية وإعطاء أسرته مكانة ممتازة فى الحجاز ، فرفض الأتراك ذلك كله .

وضع الشريف مع جمعيتي الفتاة والعهد العربيتين مشروعاً على أساسه بدأ الاتصال بالغرب ، ودخلت المفاوضة بطريق المراسلة بعد أن كانت المواجهة قد مهدت لها من قبل ،وتحددت صلات العرب بالحلفاء بالوثائق المتقدمة التي جرت على أساس رسائل بين الشريف ومكماهون . وكانت الساعة الثالثة من صباح يوم السبت في يوم ٩ شعبان الموافق ١٠ حزيران لعام ١٩١٦ حداً فاصلا بين العرب والترك في خلافة آل عثمان حيث انطلقت نيران العرب على ثكنات الجيش العثماني مؤذنة بإعلان الاستقلال والثورة ، وعزز الشريف هذه الوثبة بمنشور على العالم العربي جاء فيه : إن الاتحاديين خرجوا على العهد الأخوى بين الشعبين ، رغم المعونة الصادقة التي بذلها العرب في ظل الخلافة ، وخرجوا على الشريعة فبدلوا الأحكام وشنقوا أحرار العرب جماعات وفرادى وشردوا أسرهم ونفوها من أرضها وصادروا الأموال ، ولقد نصحنا فلم ينفع النصح ،وقد وفقنا الله لأخذ الاستقلال فضربنا على أيدى الاتحاديين وانفصلت بلادنا عن المملكة العثمانية إنفصالا تاماً ،وأعلنا إستقلالا لاتشوبه شائبة مداخلة أجنبية ولا تحكم خارجي جاعلين الغاية نصر دين الإسلام وإعلاء شأن المسلمين ، مستندين في كل أعمالنا على أساس أحكام الشرع الشريف . ولن يكون لنا مرجع سواه في جميع الأحكام وأصول القضاء .

لقد استطاع جيش الثورة أن يستولى على مدن الحجاز الكبرى في أقل من ثلاثة أشهر عدا المدينة المنورة ، فإن الحامية التركية بقيت محاصرة فيه إلى مابعد انتهاء الحرب ، وصل إلى الحجاز ضباط العرب الذى أفلتوا من الجيش العثماني ونظموا جيوش الثورة على أسس الجيوش النظامية ووصلتهم بعض العدة من الحلفاء ، وقد ارتاب الحلفاء في أمر الثورة إما خوفاً منها أن تتغلب عليهم أو أنهم كانوا لايريدون الاعتراف بها ، ولكنهم أذعنوا بعد أن أدركوا أهميتها وأنها هى التي قيدت هجوم الأتراك على القناة ، وقد اعترف بذلك جمال باشا نفسه ، زد على ذلك فإنها هى التي حالت دون نجاح الحملة التركية الألمانية إلى جنوب الجزيرة ولو نجحت هذه الحملة لانفلت البحر الأحمر ، ولأفسحت المجال لنشاط الألمان أما من الوجهة الاستراتيجية فقد أصبحت هذه المنطقة الموالية للحلفاء بعد انضمام ابن السعود إليهم والتي تمتد من البحر الأحمر إلى الخليج الفارسي خير ضمان

سلامة ملاحتهم ، وكتب جمال باشا فى مذكراته يقول : لولا ثورة العرب ماجرأت كتيبة إنكليزية فى عام كامل أن تطأ ضفة القناة الشرقية .

تقدمت الجيوش العربية تفتح فى أرض الحجاز حتى وصلت العقبة فى شهر تموز عام ١٩١٧ فاتخذتها نقطة ارتكاز ، وأخذت بعد ذلك تتقدم وتزيل حاميات الأتراك وتصطدم بقواتهم حتى وصلت إلى دمشق فدخلتها ظافرة فى اليوم الأول من شهر تشرين الأول لعام ١٩١٨ ودخلت معها الجيوش البريطانية ، ثم والت الكتائب العربية زحفها فدخلت حمص وحماة وحلب . ولم يمض شهر حتى تم تحرير سوريا جميعها ، وقد قام ضباط الجيش العربى من العراقيين بدورهم فى هذه الحركة ، وكان أول مافعله الأمير فيصل أن شكل حكومة عربية فى دمشق وطفقت الأعلام العربية ترفرف على المدن السورية جميعها .

عهود الحلفاء

اتفاق سايكس — بيكو — وعد بلفور

بدأ الشريف حسين مراسلاته الرسمية قبل الثورة مع السير هنرى مكماهون فى يوم ١٤ تموز لعام ١٩١٥ ، وانتهت بآخر كتاب حرره مكماهون مؤرخ ٢٠ كانون الثانى عام ١٩١٦ ، وأعلن الثورة العربية فى ١٠ حزيران لعام ١٩١٦ فى مكة ودخلت جيوش العرب دمشق بقيادة الأمير فيصل فى اليوم الأول من شهر تشرين الأول لعام ١٩١٨ ، وظن العرب أنهم سيجنون ثمار عملهم وحلفهم باعلان استقلال بلادهم الذى تعهد به الحلفاء، ولكنهم فوجئوا بأمر لم يكن فى الحسبان .

فاجأهم اتفاق سايكس — بيكوا الذى عقد فى مارس عام ١٩١٦ ، وهو اتفاق متمم للاتفاق الرئيسى مع روسيا والقاضى بتقسيم الدولة العثمانية بعد نجاح الحرب بين هذه الدول الثلاثة ، وكانت حصة روسيا من هذه القيمة القسطنطينية وجزءاً من الأرض على ضفتى البسفور وقسماً كبيراً من أراضى شرق الأناضول يكون الولايات الأربع لاحدود الروسية التركية ، ولا يهمنا هذا الجزء فهو خارج عن البلاد العربية .

أما البلاد العربية التى ستنسلخ عن الامبراطورية فقد توزعتها الاتفاقية بين فرنسا وبريطانيا بمناطق نفوذ ومناطق استعمار ، وقد مزقت بذلك (سوريا ، ولبنان وفلسطين) والعراق شر ممزق ، جعلت فلسطين منطقة دولية يشترك بالمشورة فى تسكه بها شريف مكة ، وقسمت البقية الباقية من سوريا ولبنان والعراق مناطق أطلقت على إحداها المنطقة الزرقاء كما نراها على الخريطة ، وجعلتها لفرنسا والمنطقة الحمراء وجعلتها لبريطانيا ، وبينهما منطقة بيضاء مقسمة قسمين ا ، ب على أن تكون من هاتين المنطقتين الأخريين دولة عربية أو حلف من دول عربية لفرنسا نفوذ كامل فى (ا) ولبريطانيا نفوذ كامل فى (ب) ، ولم يراع فى هذا التقسيم تلك الوعود التى رأيناها فى مراسلات الحسين مع مكماهون ، ولم ينظر إلى وضع طبيعى أو اجتماعى أو سياسى فى صالح هذه البلاد ، بل روعى فى ذلك استعمار

واستثمار هذه البلاد الحيلولة دون وحدتها فى يوم من الأيام . وإذا أعدنا النظر إلى هذه الاتفاقية وجدنا أن بريطانيا احتفظت لنفسها بما يؤهلهـا أن تضمن مصالحها فى طريق الهند ويكفل لهـا السيطرة التامة على الأوضاع السياسية والاقتصادية خاصة سياسة البترول الاقتصادية ووضعية قناة السويس السياسية،فإن بريطانيا لا ترغب فى أن تكون بجوار القناة دولة معظمة . لذلك كانت الاتفاقية تشير بأن للدولتين الخيار أن تستلحقا ما تريدان من الأقسام الحمراء والزرقاء كلا أو جزءاً . وكانت نتيجة ذلك أن أخرجت الموصل من المنطقة الزرقاء وأعادت إلى العراق قسدها الطبيعى وكانت تكون لفرنسا . كذلك جعلت فلسطين منطقة دولية انتهت فيما بعد إلى أن تكون تحت الانتداب الانكليزى لكيلا تكون دولة معظمة بجوار قناة السويس تعكر على بريطانيا نفوذها .

وعد بلفور

فى ٢ شباط من عام ١٩١٧ كتب وزير خارجية بريطانيا إلى اللورد روتشلد تصريحاً عرف باسم (وعد بلفور) هذا نصه : لى الشرف أن أخبركم باسم جلالته عن شعور الوزارة البريطانية فيما وضعه وأقرته بالنسبة إلى مساعى الصهيونية : أن حكومة جلالته ستنظر بعين الرضا إلى إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين وستبذل قصارى جهدها لتسهيل الوصول إلى هذا الهدف ، على أن يكون واضحاً أنه لن يحدث من جراء هذا ما يضر بالحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية فى فلسطين أو بالحقوق المدنية والسياسية التى حصل عليهـا اليهود فى بلد آخر .

لم يدر الحسين باتفاق سايكس — بيكو حتى نشره البلاشفة بعد سقوط القيصرية الروسية ، فاغتنم الأتراك الفرصة ومدوا أيديهم إلى العرب بصلح منفرد متخذين من هذا الاتفاق وسيلة لبيان نوايا الحلفاء المقبلة فى البلاد العربية، وأظهروا للناس ان بريطانيا خدعت العرب . فالتفت الحسين إلى الإنجليز يستوضحهم الأمر فجاءه الرد بهذه المذكرة :

من المعتمد البريطانى فى جدة إلى الشريف حسين :

جدة فى ١٧ شباط ١٩١٨ .

جلالة صاحب السيادة العظمى ملك الحجاز وشريف مكة وأميرها المعظم ، بعد بيان ما يجب بيانه من الاحترام والتوقير قد أمرنى جناب فخامة نائب جلالة الملك أن أبلغ جلالتكم البرقية التى وصلت إلى فخامته من نظارة الخارجية البريطانية بلندن وقد عنونتها حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى باسم جلالتكم ، وهذا نصها بالحرف الواحد :

« إن لرغبة والصراحة التامة التى اتخذتموها جلالتكم فى إرسال التحريرات التى أرسلها القائد التركى فى سوريا إلى سمو الأمير فيصل وجعفر باشا إلى جناب نائب جلالة الملك كان لها أعظم التأثير الحسن لدى حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وإن الإجراءات التى اتخذتموها جلالتكم فى هذا الصدد لم تكن إلا رمزاً يعبر عن تلك الصداقة والصراحة التى كانت دائماً شاهد العلاقة بين كل من الحكومة الحجازية وحكومة جلالة ملك بريطانيا . ومما لا يحتاج إلى دليل أن السياسة التى تنسج عليها تركيا هى إيجاد الارتياب والشك بين دول الحلفاء والعرب الذين هم تحت قيادة وعظيم ارشادات جلالتكم قد بذلوا الهمة الشماء ليظفروا بإعادة حريتهم القومية . إن السياسة التركية لا تفتأ تغرس ذلك الارتياب بأن توسوس للعرب أن دول الحلفاء يرغبون فى الأراضى العربية ، وتلقى باذهان الحلفاء أنه يمكن إرجاع العرب عن مقصدهم . ولكن أقوال الدساسين لن تقوى على إيجاد اختلاف بين الذين اتجهت عقولهم إلى فكر واحد وغرض واحد ، إن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وحلفاءها ما زالت واقفة موقف الثابت لكل نهضة تؤدى إلى تحرير الأمم المظلومة ، وهى مصممة أن تقف بجانب الأمم العربية فى جهادها لأن تبنى عالماً عربياً يسود فيه القانون والشرع بدل الظلم العثمانى . ويتغلب فيه الاتحاد على التنافس المصطنع الذى أحدثه الموظفون الترك، إن حكومة جلالة ملك بريطانيا تكرر وعدها السالف بخصوص تحرير الأمم العربية ، وإن حكومة جلالة ملك بريطانيا قد سلكت مسلك التحرر ، وتقصد أن تستمر علية بكل استقامة وتصميم بأن تحفظ العرب الذين تحرروا من السقوط فى وهدة الدمار ، وتساعد الذين لا يزالون تحت نير الظالمين لينالوا حريتهم . وفى الختام أتمنى قبول خالص التحيات وعظيم الاحتشامات والتمنيات .

وفزع العرب من وعد بلفور، فاستوضح الحسين الحكومة البريطانية فارسلت إليه رسولا أكد له شفوياً أن هذا الوعد لا يمس حقوق العرب السياسية والاقتصادية والحقيقة التي لا غبار عليها أن اتفاقية سايكس — بيكو ووعد بلفور خطتان مدبرتان من وضع السياسة البريطانية فى الشرق الأدنى، فقد كان الهجوم الألمانى التركى على قناة السويس مدعاة تفكير البريطانيين حيث انتهوا إلى أن شواطىء البحر الأحمر غير كافية لحفظ القناة، وأن فلسطين نقطة ارتكاز حربية (استراتيجية) مهمة للقناة. فلا بد من اتخاذ وسيلة لجعلها تحت الحماية البريطانية، فكانت هذه الوسيلة هى « إدعاء الصهيونية لها ». وقد جاء بمذكرات سفير بريطانيا السابق فى فرنسا اللورد « برتيس ». أن الخطط المؤدية إلى تكوين دولة يهودية فى فلسطين قد تم الاتفاق عليها مع اليهود من جهة ومع لويد جورج ولورد جراى من جهة أخرى فى كانون الثانى عام ١٩١٥، ولكن هذا الاتفاق لم ينشر. وقد كان ادعاء الصهيونيين للوطن القومى وسيلة لإبعاد فرنسا التى تدعى أن لها حقاً فى فلسطين. وبذل اليهود جهوداً جبارة اتخذوا لها شتى الوسائل لتحقيق هذا الوعد فاقتنعت به فرنسا فى ٩ شباط عام ١٩١٨، واقتنعت إيطاليا فى ٨ مارس ١٩١٨، واقتنعت أمريكا فى ٣١ أغسطس ١٩١٨. ومهما فعل العرب وغيرهم واحتجوا وثاروا ودافعوا ودخلوا الحرب ونشروا من الكتب والاقتراحات فى الكتاب الأبيض وغيره فليعلموا أن الخطة موضوعة منذ عام ١٩١٥ إلى أن خرج الإنجليز من الانتداب فسلمت فلسطين إلى اليهود وشرد العرب فى العراء وأغمطت حقوقهم. وقد عضدت بريطانيا وصديقتها أمريكا اليهود فى تكوين دولتهم، ونسيتا ما جاء فى تصريح ولسن وعهود بريطانيا وإعلان حقوق الإنسان. وليعلم العرب أن اليهود لن يخرجوا من فلسطين إلا بالقوة ووضع الخطط المحكمة فى الاقتصاد والسياسة والتعبئة المدججة.

على أثر اتفاقية سايكس — بيكو وتصريح بلفور تألفت لجنة مكونة من سبعة أعضاء من أحرار العرب، فتقدموا بمذكرة إلى الحكومة البريطانية يستوضحونها ويطلبون تحديد ما جرى بين الشريف حسين ومكماهون فجاءهم الرد بما يأتى : —

نص العهد البريطانى للسوريين السبعة.

١ — إن حكومة جلالة الملك ترغب فى أن تكون عامة الشعوب التى تتكلم

اللغة العربية منقذة من السلطة التركية ، وأن تعيش فيما بعد وعليها الحكومة التى ترغب فيها .

٢ — إن بعض البلاد العربية إما كانت تتمتع باستقلالها التـــام منذ مدة أوحصلت عليه الآن وهو استقلال اعترفت به انكلترة اعترافاً تاماً ، وهذا يكون شأنها أيضاً مع البلاد التى تحصل على استقلالها من الآن حتى نهاية الحرب .

٣ — إن سائر البلاد العربية هى الآن خاضعة للترك أو تحتلها جيوش الحلفاء فحكومة جلالته تعتقد أن العوائق والصعوبات المقدرة التى تقف فى سبيل إحياء هذه الشعوب سيتغلب عليها تغلباً ناجحاً ، وهى تعد بكل مساعدة لمن يسعى فى إزالتها ومستعدة لأن تنظر فى أى خطة لعمل مشترك يلتئم مع الحركات العسكرية الحاضرة ويتفق مع المبادىء السياسية لبريطانيا وحلفائها .

وفى ٧ نوفمبر عام ١٩١٨ صدر تصريح مشترك يبين الهدف الذى من أجله حاربت فرنسا وبريطانيا فى الشرق وهذا نصه :

إن السبب الذى من أجله حاربت فرنسا وانكلترة فى الشرق ، تلك الحرب التى أهاجتها مطامع الألمان إنما هو لتحرير الشعوب التى رزحت أجيالا طوالا تحت مظالم الترك تحريراً تاماً نهائياً ، وإقامة حكومات وإدارات تستمد سلطتها من اختيار الأهالى الوطنيين لها اختياراً حراً . ولقد اجمعت فرنسا وانكلترة على أن تؤيد ذلك بأن تشجعا وتعينا على إقامة هذه الحكومات والإدارات الوطنية فى سوريا والعراق المنطقتين اللتين : أتم الحلفاء تحريرهما وفى الأراضى التى مازالوا يجاهدون فى تحريرها ،وأن تساعدا هذه الهيئات وتعترفا بها عندما تؤسس فعلا وليس من غرض لفرنسا وانكلترة أن تنزلا أهالى هذه المناطق إلى الحكم الذى تريدانه ، ولكن همهما الوحيد أن يتحقق بمعونتهما ومساعدتهما المفيدة عمل هذه الحكومات والإدارات التى يختارها الأهلون من ذات أنفسهم ، وأن تضمنا عدلا منزهاً يساوى بين الجميع ويسهل عليهم ترقية الأمور الاقتصادية فى البلاد بإحياء مواهب الأهالى الوطنيين وتشجيعهم على نشر العلم ووضع حد للخلاف القديم الذى قضت به السياسة التركية تلك الأغراض التى ترمى إليها الحكومتان المتحالفتان فى هذه الأقطار المحررة .

إصطدام العرب بالحلفاء

مؤتمر باريس

وبالرغم من هذه الوعود المنفردة والمشتركة فإن الحلفاء أخذوا يسيرون على الأسس التى جاء بها إتفاق سايكس — بيكو والصهيونية تكيد من وراء ذلك وتحت الحلفاء على تحقيقها بغية تحقيق وعد بلفور. أما العرب فقد اطمأنوا إلى هذه الوعود وانصرف الأمير فيصل يرتب أموره فى دمشق والبلاد السورية، وكانت الجيوس البريطانية تحتل البلاد العربية وحدها مع الجيوش العربية. وبينما كان المسئولون ينتظرون مايأتى بهمؤتمر الصلح فوجىء العرب فى دمشق بنزول الجيوش الفرنسية فى السواحل السورية، فلما احتجت حكومة دمشق العربية على ذلك أجابها البريطانيون أن هذا أمر مؤقت اقتضته الحـــركات العسكرية ولا يعنى إتفاق سايكس — بيكو .

وذهب الأمير فيصل إلى باريس ليحضر مؤتمر الصلح بتكليف من والده الحسين ملك الحجاز باعتباره أحد الحلفاء، ولكن خاب ظنه إذا وجد تعبئة منظمه من فرنسا وانكلترة والصهيونين لإحباط مساعيه وعدم الاعتراف به، ولكن ما لبث الأمر قليلا حتى اعترف به ممثلا لحكومة الحجاز، فبسط الأمير مطالب العرب . وكان يسود المؤتمر مثالية الرئيس ولسن فى حق تقرير الشعوب مصيرها وفى عباراته التى يكررها دائماً : إن تسوية أية قضية من القضايا سواء أكانت دولية أم سياسية أم اقتصادية يجب ألا تستند إلى المنافع المادية التى تودى إلى استغلال الغير . غير أن هذا المؤتمر مالبث أن وضع حق تقرير مصير الشعوب العربية التى انفصلت عن تركيا فى المادة (١٩) من مقرراته، والتى كان مايخص البلاد العربية منها قد تبلور فى المادة (٢٢) من ميثاق عصبة الأمم وهى . « وهناك شعوب معينة كانت تابعة للدولة التركية قد وصلت من التطور درجة تضعها فى مصاف الأمم التى يمكن اعتبارها مستقلة مبدئياً على شرط أن تقبل مشورة ومساعدة دولة منتدبة فى تدوير شئونها وتستمر حتى تصل إلى مكانة تستطيع بها الاستغناء عن هذه المشورة والمساعدة، وأن تراعى رغبة هذه الشعوب فى اختيار الدولة المنتدبة».

لقد كان الصراع عنيفاً فى مؤتمر باريس بين فرنسا وانكلترة صاحبتى إتفاقية سايكس — بيكو من جهة وبين منافستهما إيطاليا وصاحب الحق الشرعى ملك الحجاز من جهة أخرى .إيطاليا تطمع كما تطمع صاحبتاها وملك الحجاز يريد استخلاص حقوق العرب من يد الظلم الجديد . وكانت كل من فرنسا وانكلترة تحاولان التفاهم على تعيين الحدود وتوضيحها لتحقيق رغبة كل واحدة منها .ورأت انكلترة أن هذا الاتفاق فى وضعه مضر بمصالحها ، فكان ما كان من إرجاع أحواض النفط فى لواء الموصل إليها ،ومن ثم السكوت عن تدويل فلسطين حيث انتهى الأمر فيها بعـــد وضعها تحت الانتداب بشرط مراعاة تنفيذ وعد بلفور .

ومن نتائج هذا المؤتمر تأليف لجنة تحقيق واستفتاء لمعرفة رغبة أهل البلاد العربية . وقد رجعت هذه اللجنة بتقرير مفصل خلاصته : عدم التوصية بالانتداب الفرنسى على سوريا والمحافظة على وحدة سوريا وفى ضمنها فلسطين، مع إعطاء لبنان حكماً ذاتياً فى نطاق الوحدة السورية. وأن يبقى العراق قطراً واحداً، وأن يقوم حكم ملكى دستورى فى كل من العراق وسوريا . ولكن معالم هذه اللجنة طمست ولا شك فى أن ذلك من فعائل اليهود وفرنسا وتدبيرهم .

رأى الأمير فيصل هذا الاصطراع وأنه أصبح لامناص له من التفاهم مع فرنسا فتم إتفاق بينه وبين كلمنصو اشتركت بالمشورة فيه بريطانيا ، فلما عرضه الأمير على المسئولين فى سوريا رفضوه .

إعلان الاستقلال ومبايعة الملك فيصل

وما ترتب على ذلك

أدرك العرب نوايا الغرب وتأكد لهم أن اتفاقية سايكس — بيكو سوف تدعمها الصهيونية فى انحاء العالم، وسوف تعبىء لها الصحافة والمحافل السياسية حتى تحققها، فاجتمع المؤتمر السورى العام فى ٧ مارس عام ١٩٢٠ وأعلن استقلال سوريا بأجمعها بما فيها فلسطين ولبنان، وأن يكون شكل الحكم فيها ملكياً دستورياً واحتفظ القرار للبنان بحكم ذاتى ضمن الدولة السورية، ثم المناداة بالأمير فيصل ملكاً على سورية، واجتمع زعماء العراق وأعلنوا استقلال العراق والمناداة بالأمير عبد الله ملكاً عليه. وفى اليوم الثامن من هذا الشهر توج فيصل بتاج الملك السورى. قرر العرب هذه المقررات الخطيرة وجيوش بريطانيا تحتل العراق وفلسطين وجيوش فرنسا تحتل السواحل السورية وتتقدم فى كل لحظة إلى الداخل، فأغضب هذا القرار الحلفاء، فاجتمع مجلسهم الأعلى فى سان ريمو من أعمال إيطاليا فى ٢٥ نيسان عام ١٩٢٠ وأعلن :

١ — وضع العراق تحت الانتداب البريطانى .

٢ — وضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى مع تنفيذ وعد بلفور .

٣ — وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسى كدولتين منفصلتين .

كانت هذه المقررات مفاجأة مفجعة للعرب وخيبة أمل فى مبادىء حقوق الإنسان وعملا ظالماً أملاه جبروت الاستعمار على أمة وديعة تطلب حقها وتستنجز وعوداً طالما أعطيت لها . وتريد نتيجة للحـــرية التى بذلت فى سبيلها الأنفس والأموال وثارت من أجلها على أخوة فى العقيدة .

ومنذ ذلك الحين بدأ صراع عنيف متجدد بين الحلفاء والعرب فى كل قطر من أقطار الأمة العربية المنسلخة عن الدولة العثمانية بعد الحرب الأولى العالمية، ونشبت الثورات، وبدأت الاحتجاجات، وأخذ الحلفاء ينفذون خططهم ومشروعاتهم فيما سنفصله فى بحوثنا الآتية :

الفصل الثاني

بواعث الحياة الأدبية والفكرية
في النهضة العربية المعاصرة

اللغة والأدب — العلوم العقلية — العلوم الفقهية والتفسير — التاريخ والجغرافيا

للدكتور زكي المحاسني

موضوعات الفصل :

تمهيد — معالم الثقافة العربية في عهد المغول والعباسيين — علوم اللغة العربية في عصور الانحطاط — أثر العلوم العقلية قبل النهضة المعاصرة — حياة العلوم الفقهية والتفسير في عصور الانحطاط — المؤرخون والجغرافيون الذين مهدوا للنهضة — التأليف في عصور الانحطاط .

تمهيد

خضعت النهضة العربية المعاصرة لأسباب عملت على وجودها والتمهيد لها . من هذه الأسباب العوامل الثقافية التي حفظت التراث العربي الكبير في اللغة والأدب والفن خلال العصور وربطت بين الشعوب التي تداولتها ، وإذا كان لكل أمة عريقة مظاهر تقليد أو تطور وبقاء أو تحول فقد مضى العرب في حياتهم على هذا الغرار فانطبق عليهم حكم الطبيعة والزمن وكتب لهم البقاء بفضل تراثهم اللغوي والفكري وما أوتوا من أصالة وطموح وهما من أشد ما يضمن الخلود للامم .

ولقد كانت العربية منذ فجر تاريخنا عزيزة الجانب ، قوية البناء ، محببة إلى النفوس حتى عند غير أهلها ، وكان القرآن الكريم حفيظاً عليها كفيلا على مر الأجيال والزمان باتباع تعاليمه التي صانتها وسمت بها . فاذا تلفتنا لنرى هؤلاء الذين رفدوا البيان العربي في أعقاب الحقب التي انحطت فيها اللغة وأساليبها وجدنا عديداً من الأدباء والشعراء وذوى المعرفة والرواية كانوا هم الحافظين التراث الفكرى بما جمعوا وصنفوا من المؤلفات على الرغم من عوامل الضعف الإجتماعي والتفكك السياسي وأشتات الحروب والفتن التي كانت تموج بها الديار العربية إبان العصر المغولي والتركي حتى أوائل القرن التاسع عشر ، وقد دامت حياة اللغة بما قيض لها من عوامل الحفاظ والبقاء على نحو ما سنذكره .

سار القرآن في موكب من العلوم اللغوية والفقهية ابتكرها العرب والمسلمون على نوره فوضعوا التفسير لمعرفة آياته الحكيمة والفقه لتفهم أحكام السنة والبلاغة لإدراك بدائع البيان فيه ، وما إلى ذلك من مختلف العلوم والفنون التي عاشت من أجله وكان هو سبب وجودها وتنوعها وإن التفتت بعده إلى غايات أخر . وتابع العلماء وأهل الأدب يبنون على آثاره الأوائل ممسكين بهذه السلسلة الذهبية التي حفظها الدهر من الانقطاع .

أما ميراث العربية فظل ينتقل خلال العصر المغولي مثل كنز يخشى عليه أصحابه من الضياع ، ولما آل إلى الحكم التركي أيام العثمانيين ، جعل البيان العربي يودع عهوده الأخيرة ويحن إلى تألقه في النثر والشعر وما كان الأواخر إلا أصداء

يسودها التكلف حتى بلغت اللغة آخر أمرها حياة مريرة فشاعت فيها الصناعة اللفظية والزخرف فى التعبير وطغت السطحية على الكتب والمصنفات وقل فيها النافع والممتع ، وكانت هذه الحياة فى الأدب والتأليف صورة عصرها المنهار ، وتكفى الباحث المتتبع نظرة إلى أبيات من الشعر كانت تقال فى ذلك العهد ليحكم على مبلغ الركاكة التى انحدرت إليها العربية قبيل النهضة الحديثة التى وجد فى أوائلها كتاب وشعراء أخذوا يعيدون للعربية رونقها الأول وبلاغتها المستحبة .

ولم يكن ثمة من خوف على التراث اللغوى والأدبى أن يندثر لأن آثارا منهما كثيرة عرفت فى العصور العباسية والأندلسية وسلمت من الكوارث والخطوب فحفظت فى مصر والشام والعراق. وكان لمصر الزعامة العربية والإسلامية فى الثقافه واللغة والفقه ، فعاشت حمى للقرآن وملجأ للعلماء والمؤلفين ، وشهدت فى تاريخها ما شهدته بعض البلاد الأوربية التى كان يلجأ اليها العلماء أيام الكوارث والمحن التى تنزل ببلادهم فيكونون من أسباب الانبعاث والتألق فى تلك البلاد التى نزلوها وإن لم يكونوا هم السبب الأول ، وفى تاريخ النهضه الإيطالية والأسبانية وغيرهما شواهد فى هذا السبيل فكانت تلك المؤلفات العربية والإسلامية التى سلمت وبلغت أيامنا من أسباب البعث الفكرى فى العالم العربى ، إذ كانت مشحونة بآثار لغوية ومؤلفات فى النحو وشروح فى البلاغة ودواوين للشعر ومجموعات كثيرة فى شتى المعارف الفكرية والتاريخية ومختارات وتعليقات . كل ذلك كون خزانة زاخرة أضاءت سبيل النهضة العربية المعاصرة منذ أوائلها ، وقد وجدت المعين الذى تنشده فى يقظتها وانبعاثها . ومثال واحد فى دنيا الشعر كاف للدليل والبرهان ، فان الشاعر محمود سامى البارودى(١) الذى توفى فى مستهل هذا القرن العشرين يعد جسرا بين الشعر القديم والحديث.فقد وردموارد الشعر القديم ونسج ديباجة شعره من طراز ما كان ينسجه أبو تمام والبحترى ، وقد كان قيام شعره فى مستهل النهضة المعاصرة حدثا تجديديا فى البيان العربى المندثر قبله.ولكن نظرته بقيت مشدودة إلى الوراء على الرغم من حياته الحديثة، فقد عمد إلى الشعر العربى فى مجموعه كله فاختار منه مختارات تذوق هو قبل قرائه جمالها الفنى وحفظها وكانت وسيلة منطقه بالشعر الرصين والجزالة الأصيلة . وقد عرفت تلك المختارات باسمه إذ انتقى فيها غرر الشعر

(١) توفى سنة ١٩١٤ وكان مولده سنة ١٨٦٨

منذ الجاهلية حتى أيامه ، فأعاد بعمله هذا إلى الخاطر حالة نفسية مماثلة أغرت شاعرا عظيما قبله هو أبو تمام الذى تقدمه بأكثر من ألف عام فترك لنا ديوان الحماسة الذى اختار شعره مما راقه وأعجب به ، وكان عمل الشاعرين واحدا فى حياة الأدب العربى ،فكلاهما أحب أن يبعث غرر البيان فى الشعر ليتركه للاجيال الآتية مثالا لما ينبغى أن يكتب له الخلود ويحتذى فيضمن بقاء اللغة والشعر .

هذا مثال واحد من أمثلة لاتكاد تحصى لما صنع ادباؤنا القدامى والذين أسسوا النهضة الأدبية والفكرية منذ استهلالتها حتى العصر الحديث .

ولا يستطيع علماء الإجتماع على الدوام أن يتلمسوا القانون الذى تخضع له الشعوب فى تطورها اللغوى والأدبى، لكنهم يصفون مراحل هذا التطور ويعللون أسبابه ويظهرون نتائجه ويؤمنون بينهم وبين أنفسهم بأن ثمة قانونا تجرى عليه الأمور وأن صناع التجديد وبناة التطور فى هذا الوضع يشبهون سدنة الهياكل، يعيشون وراء فكرة يخلد فيها على الدوام سر الهيكل .

فلو اتبعنا — وفاقاً لنظرات أولئك العلماء الذين قيدوا حوادث التطور وتتبعوها — كيف جاء شوقى إلى الدنيا فملأ بشعره الخواطر وشغل الناس[١] لوجدنا أن القدر أتاح لحياة العربية الراهنة وجود الشاعر العظيم شوقى الذى بعث الشعر العربى من مرقده وجدد ما اندثر منه . لقد حدثنا عن نفسه أنه كان يحب شاعرين قديمين عملا فى شعره ، هما أبو نواس والمتنبى، فاذا سافر اصطحب معه ديوانيهما [٢] ، ولهذا نجد فى شعره أثرا من ملامح الفن النواسى كما نجد حكمة أبى الطيب وجودة شعره ميسما خالداً من مياسم شعر شوقى حتى بعث الشعر العربى بين سمع الأرض وبصرها فرد له زهوته العباسية والأندلسية خالعاً عليه رداء العصر الذى عاش فيه،ولم يكن فيه مشدود النظرة إلى الوراء كسابقه البارودى الذى مهد لظهوره،وإنما كان واقفا فيه عند حاجة عصره وأيامه عاكساً فى مراياه صور

---

(١) توفى سنة ١٩٣٢ .

(٢) حين جاء شوقى دمشق سنة ١٩٢٥ وألقى فيها قصيدته الكبرى « قم ناج جلق وأنشد رسم من بانوا » كان رفيقاه فى رحلته أبو نواس وأبو الطيب ، فلم تمدح دمشق حتى الساعة بأفضل من ذلك الشعر الخالد ، لقد بعث شوقى أمية من مراقدها فكأن مروان بالمحراب ومعاوية فى إبان عهده الذهبى كما وصف جنات الشام ومفاتنها بما لم توصف به وستظل قصيدته فيها غرة على جبينها أبد الدهر .

الأحداث السياسية والخلجات النفسية وان يكن قد تطلع إلى آفاق الغرب وجدد فى الشعر حين وقف أواخر عمره على شعره المسرحى .

كل ذلك وعلم الاجتماع مايزال يحاول أن يخطط مسيرة ويمثل تعاقب حوادثه فى تطور الحياة الأدبية والعقلية للامم على أن لنا فى مآثر علومنا ومعارفنا قولة إسلامية هى « أن الله يرسل إلى كل أمة على رأس كل عصر من يجدد لها دينها » ومثل هذه القولة ترى فى اللغة والفكر أن الله يبعث لكل أمة كتب لها البقاء من يجدد لها أدبها وتفكيرها فى كل عصر من عصورها فتعود جديدة بعد البلى ، قوية بعد الضعف . وهذا مظهر من مظاهر التطور الإنسانى المفروض فى بقاء الإنسان وآثاره .

ولاريب فى أن ارتباط الحركة التقافية بالحركة السياسية فى كل أمة أمر يكاد يكون نظاماحتميا أو اجتماعيا . فلولا يقظة العرب الراهنة التى بنيت على انبعاث القومية ولولا هبة النهضة الوطنية تحت الحكم الغاشم للتحــرر واستعادة المجد الغابر لما اهتزت تلك الآثار التى تضم اللغة والفكر والثقافة بسائر انواعها فرفدت نهضتهم القومية والسياسية لتعطيها طابعها التجديدى من منابع اللغة والأدب والمعارف العقلية والدينية الإسلامية على اختلاف ألوانها ، ولم تكن نهضات الشعوب التى قامت بين العصور السابقة واللاحقة انتقالا ماديا أو انبعاثا منوطا بالمعيشة الجسمية فحسب وإنما هى مثل عليا يسعى إليها الحافظون للقيم المعنوية والروحية ويصونونها فتنتقل من جيل إلى جيل متبلورة فى الأثر اللغوى والفكرى وفى الفنون وتكاد تكون الكتب والمؤلفات والآثار والصور هى السبيل الأعم لبقاء ثقافة الأمة ، ولهذا عددنا المؤلفات العربية — التى عاشت فكتب لها أن تطبع منذ عرفت الأمم العربية فن الطباعة والمخطوطات التى ما تزال تراثنا الدفين — ثروة تليدة هى من أسباب انبعاثنا الحاضر ومن نحوها صدرت نهضتنا الحديثة . فهى مواريث كفلت حياة الأدب والفكر الفن بما تضمنته من قوة وصلاح مافيها للغة والعقل فى التجدد والتحرر ، وقد وجدنا كل هذا يتجلى فى مظاهر المؤلفات الموروثة فى اللغة وفنونها وفى العلم وفى الفلسفة والتصوف وفى التشريع والفقه والثقافات العامة ، وكان العهد المغولى قد ضم الجزء الأكبر منها ثم جاء العهد العثمانى فلم تعدم من يعنى بها ويتعهدها .

معالم الثقافة العربية

فى عهد المغـــول والعثمانيين

---

١ — تراث الكتب

يكاد يكون العهد المغولى من أشد العصور التى لم تنظم فيها مصادر البحث فى ثقافته تنظيما علميا واضحا . فهى التى احتوت على ماسميناه معالم الانحطاط فى التاريخ العربى منذ سقوط بغداد سنة ٦٥٦ للهجرة إلى زمن السلطان سليمان الفاتح الذى استولى على مصر سنة ٩٢٣ للهجرة .

فى هذه السنين المتطاولة من عهود العرب والمسلمين فى الشرق العربى وآسيا الوسطى انتشر سلطان المغول وسيطر على دويلات عربية وإسلامية لم يكن لها يومئذ صولة ولا مقاومة .

وإن المامة صغيرة بما يسرده ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة — وقد استطاع هذا المؤلف الواعى أن يتفرد ويتميز فى تاريخ زمنه — تطلعنا على مدى الحكم المغولى فى الديار العربية والإسلامية من مصر والشام إلى حدود الهند ، غير أن البلاد العربية التى كانت تحمل فى كيانها ضروبا من القوى الأصيلة فى الفكر والثقافة بقيت روحها مستمرة فى الصمود بعد سقوط بغداد ، متماسكة جيلا بعد جيل، يحمل المتأخر الشعلة التى توشك أن تنطفىء فى يد المتقدم فينعشها ليؤدى بها قبل خمودها إلى يد غيره . حتى دمرت على البلاد العربية الحروب الصليبية فأتت على الروح المتعبة . ونستطيع أن نعد عصر الأنحطاط العربى بما فيه من معانى الحكم التاريخى قد بدأ منذ الحروب الصليبية .

لقد قاومت الأمصار العربية فى مجرى تلك التيارات، وكانت تستخلص من أيدى التتر مايتبقى من حطام التراث بعد كل فتح من فتوحهم السالبة المدمرة . لقد كانوا يتلفون المكتبات فى كل بلد عربى دخلوه علما منهم بأن العلم والمعرفة هما قوام حياة الأمم . وكان فى أنفسهم مقت للعلم ذاته لسيادة الجهل فيهم وشيوع

التعصب، وكذلك كانت سنة الموجات الطاغية التى أتت على المدنيات القديمة والحديثة أن تحارب العلم والعلماء وأن تضيق بأسبابه ورسالتهم .

فكان مما استخلص فى ذلك الطوفان الحربى الذى أتى على الشرق بفعل التتر والصليبيين كتب عربية قديمة حفظت التراث . وكان الصليبيون بديل احتراقها كلها ينتقون منها على تطاول وجودهم فى الشرق أثمن المخطوطات وأعظمها قيمة وفحوى ، ولما جاء عصرنا هذا رحنا نلوب فى ديارهم عليها ونسخها ببعوثنا العلمية لنعيد ظهورها فى نهضتنا الحديثة بعد أن استقرت أصولها عصورا فى مكتبات الغرب، وما زال أكثرها لديها فى كثير من تلك المخطوطات التى وجدوا فيها مصدرا كبيرا لاشتات المعرفة وخاصة ما كان يستعصى عليهم من فلسفة اليونان فقربه العرب اليهم بالشرح والتفصيل، وأخذت تلك الثقافة العربية الإسلامية تفتح فى دور العلم بأوربة حتى كان مستقرها الجامعات والأديار . وقد أفاد الغربيون من ثقافتنا العلميه والفلسفية فى نهضتهم منذ القرون الوسطى أكثر مما أفادوا من ثقافتنا الأدبية .

٢ — تراث العلوم التى عملت فى أسباب النهضة العربية

إن مراجعة عابرة لبعض الكتب التى ألفها الغربيون عن « العلم عند العرب » تعطينا صورة واضحة عن مدى التفوق الفكرى للعرب القدامى الذين عاشوا فى العصرين العباسى والاندلسى فابن أبى أصيبعة والقفطى وهما من، مؤلفى تاريخ الحياة العلمية والفكرية عند العرب يعطيان ثبوتا بأعمال نفر من الحكماء والأطباء وثقافتهم العلمية مما يضيف إلى تاريخنا الثقافى أجل القيم . وكذلك فى سائر العلوم كالفلك والهندسة والكيمياء والطب .

فاذا صعدنا فى تاريخ العلوم عند العرب إلى القمة وجدنا فى تلك القمة خالد بن يزيد بن معاوية الذى كان مشغولا بالكيمياء . ويجرى تجاربه فيها بمعرفة راهب سريانى يسمى ماريانوس(١) فى القرن الأول للهجرة، وقد ألف يزيد ثلاثة أبحاث خص بالأول أستاذه الراهب .

(1) Histoire des Arabes Par Cl.Huart. tome II p. 363 Paris1913

وإذا انحدرنا إلى العصر العباسي وجدنا في أواسط القرن الثاني للهجرة جابر بن حيان الذي عاش بالكوفة قد ألف ستة وعشرين كتابا في الكيمياء وترجم بعضها إلى اللاتينية والألمانية في نورنبرغ، وذاعت في فرانكفورت وستراسبورغ من أواسط القرن الخامس عشر حتى أوائل القرن الثامن عشر للميلاد، وكانت موردا للاطباء والعلماء في جامعات الغرب في تلك العصور(١) وقد كتب لكثير من كتب العرب في العلوم ترجمات غربية.

وفي عصر المأمون أخذت الدراسات العلمية شكلا دقيقا واسعاً حين أنشأ المأمون في بغداد (دار الحكمة) كانت أشبه بجامعة فيها دار كتب كبرى ومرصد للنجوم، ويعد هذا فاتحة العصر العلمي للعرب وبخاصة حين أخذ الخليفة المأمون في إدارة ترجمات عديدة للآثار الرومية عن السريانية. ثم أصبح النقل عن النصوص اليونانية الأصلية. ثم أضاف العرب إلى ما عرفوه من تلك الترجمات عقولهم وتجاربهم فكان لهم في العلوم على اختلاف أنواعها المعروفة لدى الأمم المتحضرة في تلك العصور جولات، وقد أخذت ترسخ في حياتهم العقلية حتى تبدلوا من تلاميذ إلى أساتيذ.

وكان للاندلس مشاركة كبرى في هذا البحث العلمي، وكان من علمائنا الغابرين من جمع أكثر من ذلك في وعي واحد شامل كابن سينا(٢) تلميذ الفارابي وقد كان الطب شاغل ابن سينا فوضع فيه كتبا مختلفة في التشريح والمداواة حتى أن الدراسات النفسية لم تفته فوضع فيها باكورة علم النفس التجريبي الحديث، وكانت كتبه في الطب هي المورد الأصلي للطب في أوربا منذ القرون الوسطى حتى أوائل العصر الحديث (٣).

(١) صفحة ٣٧٧ من المصدر السابق.

(٢) هو أبو علي الحسين بن سينا توفي في الربع الأول من القرن الثامن للهجرة وقد احتفل العالمان العربي والفارسي بمرور ألف عام على مولده وتنازع شرف عمله ومنبته العرب والفرس، وقد دعت الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية إلى إقامة ذكرى لهذا العالم الإسلامي الخالد، فكان أن دعت الحكومة العراقية والهيئات العلمية فيها مفكري العرب وفلاسفة الإسلام المعاصرين إلى المشاركة في مهرجان الذكرى ببغداد سنة ١٩٥٢، كما أصدرت الإدارة الثقافية سفرا عن هذه الذكرى ضمت فيه ما ألقى من دراسات فلسفية عن ابن سينا، ودعت الحكومة الإيرانية لمهرجان آخر في بلادها شارك فيه جماعة من مفكري العرب المعاصرين مع إخوانهم علماء إيران، وكانت إقامة هذا المهرجان بطهران عام ١٩٥٤.

(٣) احتفلت كذلك جامعة باريس بموسم وقفته على ذكرى مرور ألف عام على ولادة ابن سينا، ودعت إليه أشهر المتصلين بفلسفة ابن سيناء في مصر والبلاد العربية.

لقد بعثنا هذه الخواطر عن حياة العلم عند العرب لنبحث عن أطباء وفلكيين وعلماء فى العصر المغولى والتركى. وقد وجدنا أبا الفرج بن القف المسيحى تلميذ ابن أبى أصيبعة (١) وضع كتابا فى التشريح سماه (العمدة فى صناعة الجراح).

ثم وجدنا علاء الدين بن النفيس (٢) وكان معنيا بدراسة الأغذية فوضع فيها كتابا سماه (المختار فى الأغذية). وجاء بعده ابن الهائم شهاب الدين (٣) الذى كان بارعا فى الحساب وخاصة فى علم الفرائض والمواريث وله كتاب سماه (المقنع فى الجبر).

ثم جاء شهاب الدين بن طيبوغا القاهرى (٤)، وله كتاب فى المراصد سماه (خلاصة الأقوال فى معرفة الوقت ورؤية الهلال). ثم بدر الدين محمد المارديني وكان رياضيا مشهوراً وضع كتابا سماه (تحفة الألباب فى علم الحساب).

وأكثر هذه الكتب مايزال مخطوطاً فى مكتبات أوربا ودار الكتب المصرية.

---

(١) توفى بدمشق سنة ٦٨٥ للهجرة.

(٢) توفى سنة ٦٩٦ للهجرة وبدمشق مستشفى للحكومة سمى باسمه.

(٣) توفى سنة ٨١٥ للهجرة.

(٤) المتوفى سنة ٨٥٠ للهجرة.

علوم اللغة العربية فى عصور الانحطاط

١ — النحو وعلماؤه

لاتزال حلقات الأزهر إلى اليوم وفناء جامع الزيتونة فى تونس ومجالس المحاضرة والتدارس فى مساجد النجف بالعراق تتداول ألفية ابن مالك ، تلك المنظومة الرجزية التى اتت على ألف بيت فى قواعد النحو العربى كله . ولقد أخرج ابن مالك نصوص القواعد العربية من النثر إلى النظم ذهابا منه إلى أن النظم يسهل حفظها لطلاب العلم ، فكان عمله هذا تقييدا للمطلق وتعقيدا للسهل ، وجعل علماء النحو فى زمنه يشرحونها وينصبون على أطرافها الهوامش والحواشى والتفسير المتطاول مازاد فى صعوبتها . وكيف كان أمرها فانها تعد محفظة لقواعد العربية فى طرافة مبتكر أخرج الشعر العربى الوجدانى والفلسفى والتصويرى إلى النظم البحت. وهذه بدعة تعد ظاهرة من ظواهر التدنى فى الشعر العربى إذا أصبح على يدى ابن مالك أنماطا قياسية يستعمل فيها النظم وحده مثل موسيقى جوفاء ، وإنها لتعد سابقة فى النحو وفن التدريس العربى القديم وإن يكن فى العصر العباسى والأندلسى قد حاول أدباء وضع منظومات قصصية أو حماسية ليست من هذا القبيل .

إن ابن مالك وهو محمد بن عبد الله الجيانى(١) صاحب هذه الألفية عاش فى القرن السابع للهجرة وكتبت له شهرة عمت بلاد العرب. كان مولده بدمشق فكان من تلاميذه ابن خلكان صاحب المعجمة التاريخية والأدبية المشهورة. وقد تمتع هذا العالم النحوى فى عصره وبعده حتى اليوم بصيت، وبقيت آثاره متداولة وكان مشغولا عمره بالمنظومات التعليمية فوضع أراجيز شتى ، منها أرجوزة للألفاظ التى تحمل كل واحدة منها معانى ثلاثة حسب اختلاف حركاتها، وقد جعلها على مثال معجم أبجدى ولا تزال بعض آثاره من المخطوطات .

وجاء بعده جمال الدين بن هشام المصرى ، تلقف منذ نشأته الثقافة النحوية

---

(١) توفى سنة ٦٧٣ للهجرة .

واللغوية حتى نبغ فيها وتصدر للتدريس بعصر(1) فعدل فى تآليفه النحـــوية إلى الخطط القديمة ماضياً على غرار الخليل بن أحمد وابن فارس وابن على الفارسى والزمخشرى ناظرا إلى النحو نظرة عالم ، مجملا حينا ومفصلا أحيانا فى دراساته . فترك للعربية من كتبه مؤلفين جليلين أحدهما « قطر الندى وبل الصدى » والثانى « مغنى اللبيب » ، عرض فيهما إلى أمهات الأبحاث فى النحو ، وكان سهل الأسلوب متسق التعبير يقصد إلى الافهام من أقرب الطرق . والكتابان حفظا النحو العربى فى حلة قشيبة مختصرة ، وكانت خطة التأليف فى البلاد العربية ذلك العصر سائرة بين الأستاذ وتلاميذه على الشكل الآتى :

يؤلف الأستاذ كتاباً من كتبه فيهب تلاميذه من معاصريه أو تابعيه يشرحون كتابه فيأخذون كل جملة من جمل كلامه بنظام شرح . ثم يأخذهم الاستطراد فيذكرون أموراً قريبة أو بعيدة تتعلق بالنوادر واللغة والفقه ، ثم يفعلون مثل ذلك بالكلمة التالية فما بعدها حتى انتهاء الجملة . وقد يتبسطون فى التفسير حتى يجىء تفسير الجملة صفحة ، ثم يجىء بعدهم نفر يشرحون أقوالهم هذه بحواش ثانية . وقد يأتى بعد هؤلاء طبقة رابعة تشرح أقوال من قبلها حتى يبتعد الناظر فى تلك الكتب عن النص الأصلى ، ويجد الطالب الذى لم يتمرس بهذا الشكل من التأليف تبرما وصعوبة يحس معهما أنه يسلك التيه الذى لا يخرج منه ، ولكم أفنى طلاب هذا العلم أعمارهم فيه لهذا السبب .

ولقد قيض لكتاب ابن هشام المسمى « مغنى اللبيب » من كتب الأعاريب مثل هذا الحظ فشرحه أحد المعنيين به ، ثم جاء من وضع هوامشه ، ثم تصدى لمن بنى على الشرح والهامش الكتاب الجديد .

ويكاد كتاب « شذور الذهب » فى النحو أيضاً ثالث أثافى هذا المؤلف الذى كتبت له شهرة باقية .

وتستطيع أن تعد هذا العالم النحوى أحد نقلة النحو وحفظته منذ عصر سيبويه وأبى عثمان المازنى ، فقد وصلت إلينا آثاره سليمة وأفادت نهضتنا المعاصرة أيما فائدة لكن ابن هشام على فضله هذا لم يستطع أن يتخلص من مياسم الدراسات النحوية التى سيطرت على النحو أيام العباسيين وخاصة بعد العصر الثالث العباسى حين امتزج

---

(1) توفى سنة ٧٦١ للهجرة .

النحو بعلم الكلام والاصطلاحات الفلسفية والمنطقية فكانت سببا فى تعقيده ووعورة مسلكه .

وكان من تلاميذه بدر الدين الدمامينى[1]، ولد بالإسكندرية ونشىء على معرفة النحو والعربية مثل أستاذه .

أما « الآجرومية » المشهورة التى أبلى فى حفظها طلاب النحو القدامى فى الأزهر وغيره لياليهم وأنهارهم فكان صاحبها أبا عبد الله الضهاجى[2] ، وجده كان يعرف بابن أجروم فسمى كتابه بها وهى مجمل فى النحو شرحه الشراح أيضاً .

وثمة أعقاب لهؤلاء العلماء النحويين داروا فى فلكهم وألفوا أشباه تآليفهم بمقاييس صغيرة محدودة كالشاطبى صاحب اللامية المعروفة باسمها[3]، وكانوا يعانون مع صناعة التعليم نظم الشعر ويشدون من الأدب أخبارا وسيرا ، وسمت ثقافتهم النحوية بطابع أعم دل على منازع ذلك العصر .

وفى الشام ظهر ابن منجك الدمشقى[4] فنظم ديوان شعر فى المدح والغزل كما ظهر فى أيامه جماعة من المشيخة عانوا نظم الشعر كما كان شائعاً فى عهدهم .

٢ — اللسان وأصحاب المعاجم :

أعطى الله اللسان العربى خلوداً لم يكتب مثله للغة من لغات الأمم ، فلقد أتت الكوارث الطبيعية والزمنية على أمم ذهب ريحها وفقدت لغاتها،وما فقدت لغة أمة إلا ضاعت حياتها وذهبت آثارها . فاللغة الهلينية بادت وقامت اليونانية الحديثة بعدها بزوال اسبرطة وأثينا القديمتين، وتداعى الأكروبول فدفنت تحت أعمدته العارية المحطمة تلك اللغة العتيقة . واللغة اللاتينية صارت اليوم حبيسة الكنائس الرومية والمخطوطات القديمة ، إلا العربية فإنها ظلت بحراسة القرآن باقية بروحها الحية المتأبنة خلال العصور وعلى ترادف الزمان .

ونعترف بالفضل بعد القرآن فى الحفاظ على العربية لأحاديث الرسول وآثار

---

(١) توفى سنة ٨٢٧ للهجرة .

(٢) توفى سنة ٧٢٣ للهجرة .

(٣) عاش فى النصف الثانى من القرن الثالث للهجرة .

(٤) توفى سنة ١٠٨٠ للهجرة .

العرب فى المنظوم والمنثور وبخاصة المعاجم اللغوية التى كانت هيا كل لغتنا المكينة فأئمة العربية الذين حفظوا المواريث ورفدوا القرآن والسنة كأبى عمرو بن العلاء وأبى عبيدة معمر بن المثنى وأبى زيد الأنصارى وابن قريب الأصمعى ،كانوا يجمعون ألفاظها وتعابيرها من أفواه العرب فى البادية فعدوا أوائل المصنفين فيها حتى جاء الخليل بن أحمد فأدركهم ووضع فصيحها فى معجمه المسمى « كتاب العين »،وكانت للعربية معجمات منذ ذلك اليوم ومصنفات .

إن اهتداء الخليل بن احمد إلى ترتيب المعاجم أمر يعد فى تاريخ اللغات الإنسانية سبقاً يعترف به الغربيون للعرب ، فالخليل بن احمد والجوهرى صاحب معجم الصحاح كانوا من أساتيذ المعاجم فى اللغات الأممية[١] ، حتى إذا كانت عصور الانحطاط السياسى للعرب غير مواتية فى الحكم والظهور قام التأليف والتصنيف فى هدىء العلم وأناة المعرفة بنسخ ما تتطلب الحياة العقلية على الرغم من التدهور السياسى فأعطيانا منحة غالية فى آثار معجمية جامعة ، تعد بحق مفخرة العصور وقد وهبت للعربية مجداً لا يبلى ، من هذه التآليف الكبيرة معجم (لسان العرب) وضعه جمال الدين بن منظور المصرى[٢] فوقف عمره على ترتيبه مستوعباً فيه التراث اللغوى كله ، وقد وصل إليه من الخليل والجوهرى وابن دريد فجاء كتابه فى عشرين مجلدة رتبه حسب نظام محتوم وضعه قبله الجوهرى ، وهو وضع الكلمات فى ثلاثيها أو رباعيها المجرد بترتيب أواخرها ، إنه ليشرح اللفظ من أوجه معانيه الكثيرة داعماً بعض هذه الشروح بشواهد من شعر العرب أو أمثالهم[٣]،وهو يعد فى تاريخ العربية أوثق المصادر والمظان للفظ العربى .

أما مجد الدين المعروف بالفيروزبادى صاحب « القاموس المحيط » فأصله من شيراز وله نسب عربى[٤] .وقدعاصر السلطان العثمانى بيازيد وزاره فى القسطنطينية وحصل عنده على مغانم ، كما تقرب من تيمورلنك وحاز جوائزه المالية ، وقد

---

(١) أنظر المطلة الفرنسية الكبرى فى مادة المعاجم .

(٢) توفى سنة ٧١١ للهجرة .

(٣) كانت الطبعة الأولى من هذا المعجم فى مصر سنة ١٣٠٠ للهجرة ولا تزال مخطوطته فى دار الكتب المصرية .

(٤) توفى سنة ٨١٧ للهجرة .

وضع هذا المعجم فى أربعة أجزاء مضى فيه على السنة التى اتبعها صاحب لسان العرب .

فإذا تابعنا مراحل التطور فى حياة اللغة العربية ومعاجمها بعد العصر المغولى اندفعنا إلى العصر العثمانى فقابلنا جماعة من علماء اللغة كان أقدمهم فى هذا العصر « شهاب الدين الخفاجى »[١] وقد ولد قرب القاهرة وتقلب فى البلاد فزار الأستانة ومكة والمدينة، واستعان به السلطان مراد فى القضاء، وقد خلف من آثاره نحواً من عشرة كتب أفادت العربية، وكان أفضلها كتابه « شفاء الغليل بما فى كلام العرب من الدخيل » صنفه على أبواب وبترتيب حرفى منسجم .

ومن اللغويين الذين عنوا فى العصر العثمانى بالمفردات العربية وجمعوها ووقفوا حياتهم على تصنيفها السيد مرتضى الزبيدى[٢]، ولد ونشأ باليمن ثم تقلب فى البلاد بسبيل التحصيل والمعرفة حتى جاء مصر وتقرب من علمائها وولاتها ، وقد جمع ثروة استعان بها على إتمام أسفاره، وغالبه ميله اللغوى وإيثاره للتأليف فعكف زمنا على شرح القاموس للفيروزبادى حتى وضع له حواشى زادت على أصله اضعافا وسمى كتابه بذلك « تاج العروس فى شرح القاموس » فجاء بأربعة عشر مجلدا . ولما أسس محمد أبو الذهب مكتبته فى مسجده المسمى باسمه قرب الأزهر اشترى نسخة من هذا المعجم بمائة ألف درهم، وكان لذلك يوم مشهود فى القاهرة ظهرت فيه الحفاوة باللغة العربية وأهلها ، وعد هذا الأثر من روائع التصنيف اللغوى . وكتب الزبيدى مقدمة ضافية لمعجمه « تاج العروس » نقلها بعض المستشرقين وعلقوا عليها .

ونستطيع أن نقرر أن شروح الزبيدى على القاموس قد امتازت بروح تاريخية يعرف معها الباحث والدارس وجوها لمعانى الكلمات تتعلق بحياتها واصطناعها وهو ما ينقص معاجمنا العربية حتى اليوم . فليس لدينا معجم يذكر حياة الكلمات وموتها ، لكن الزبيدى فى أثناء شروحه قد يبين استعمال الكلمة وحياتها المعاصرة أو الغابرة .

---

(١) توفى سنة ١٠٦٩ للهجرة .

(٢) توفى سنة ١٢٠٥ للهجرة .

وجاء بعد الزبيدى محمد بن على الصبان[1] صاحب الحاشية المعروفة باسمه على ألفية ابن مالك وعاش عمره يضع الحواشى المفيدة والمنظومات فى النحو واللغة والعروض والبلاغة .

٣ — الشعر والأدب

من الطبيعى أن تكون الآداب العربية فى عصر المغول وعهود العثمانيين حتى أوائل القرن التاسع عشر للميلاد قد عاشت ضعيفة يغلب عليها التكلف والابتذال ، فإن أقلام العلماء الذين عاشوا فى ذلك الوقت كانت مصبوبة على التأليف فى نواح شتى منها النحو واللغة والبيان وهى أمور ساعفت عليها الثقافة الرائجة ، أما الأدب فإن بواعث نشاطه وأسباب رواجه قد فقدت ، فأين الملوك الذين يجيزون الشعراء على القصائد وأين الشعراء الذين توافرت فيهم المواهب واحتد بينهم الطموح والتنافس ؟ كل هذا قد فات فى العصور العباسية والأندلسية التى فتحت أبوابها الخلفاء والأمراء لذوى الفكر والشعر . لكن هذه السنين من عمر العهدين المغولى والعثمانى شهدت شعراء ونظامين ، وإن كانوا لم يبلغوا شأو السابقين لكنهم وصلوا الحديث بالقديم . من هؤلاء فى العصر المغولى « عفيف الدين التلسانى » وأصله من العراق سكن دمشق وتقرب من حكامها وغلب عليه التصوف[2] وكان سفره ضرباً من الغزل والأماديح .

ومنهم محمد البوصيرى من بوصير بمصر ، وقد نظم ميمية سميت بالبردة ما تزال باقية إلى اليوم فى مدح الرسول والاستغاثات الصوفية . وقد عارض هذه الميمية المشهورة الشاعر شوقى بقصيدة تناصيها فى الروعة والمناجاة ، وكان مطلع البردة . —

أمن تذكر جيران بذى سلم   مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

أما شوقى فقال فى مطلع قصيدته . —

ريم على القاع بين البان والعلم   أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

وراحت مطربة عصرنا « أم كلثوم » تردد بصوتها الحنون الأخاذ « نهج البردة » فتجاوب بلاد الإسلام والعروبة بذكرى الرسول العظيم .

---

(١) توفى سنة ١٢٠٥ للهجرة .

(٢) توفى بدمشق سنة ٦٩٠ للهجرة .

ولما نبغ ابن نباتة المصرى[1] شاع شعره فى مصر والشام والعراق وهو ضروب من الغزل والمديح والرثاء وله روائع فى الوصف ، وقد تغلب على هذا الشاعر حب التأليف فترك فى تراث العربية آثارا فى اللغة والتاريخ الأدبى والتراجم ، وأجل كتبه « سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون » فقد أعد لكل من أورد ذكرهم ابن زيدون فى رسالته الهزلية لولادة بنت المستكفى ترجمة شائقة وافية .

ومن شعراء هذا العصر ابن حجة الحموى[2] الذى رحل إلى الموصل وعاد إلى دمشق فالقاهرة ثم استقر فى منبته حماه[3] وهو كذلك قد نسج على غرار بردة البوصيرى بقصيدة مطلعها :

لى فى امتداحكم ياعرب ذى سلم   براعة تستهل الدمع فى العلم

وشعره كنظم تلك الطبقة التى عاصرته ينزع إلى تحاسين الألفاظ واستغلال الاستعارات ، وظهر من هؤلاء الشعراء نور الدين المعروف بابن سودون[4] ، ولد بمصر وارتحل إلى الشام ، وكانت تغلب عليه خفة الروح فصنع منظومات فى الهزل والجد استمد موضوعها من حوادث عصره ، وكان العراق فى هذا العصر حافلا بقصيد شاعره صفى الدين الحلى[5] ، وبلغت شهرته مصر والشام وتناقلت الركبان شعره ، وكان يمدح أمراء العراق ، وجاء القاهرة فأكرمه ملكها الناصر ثم عاد إلى العراق ليرقد فى تراب بغداد ، وشعره نسيج وحده فى العذوبة والرقة ، تناول فيه أغراضاً شتى ، وكان فى قصيده معارضات لبعض قصائد المتنبى ، ويعد بحق أشعر شعراء عصر الانحطاط .

أما فى العهد العثمانى فقد كانت العربية ودعت ما بقى من جمالها وجزالتها أيام المغول لتتلقى عصراً قاتماً تضعضعت فيه ملكات اللسان العربى وعز المشجع على الفصاحة والبيان ، وقد سادت الركاكة فى هذا العصر كلام العربية حتى انحط الانشاء وامتزج الفصيح بالعامى ، ولولا فئة جاهدة كان للأدب أصالة فى نفوسها لكتب

(١) توفى سنة ٧٦٨ للهجرة .
(٢) توفى سنة ٨٣٧ للهجرة .
(٣) من سوريه
(٤) توفى سنة ٨٧٨ للهجرة .
(٥) توفى سنة ٧٥٠ للهجرة

الفناء لشعرنا وأدبنا فى عهد العثمانيين ، وشعراء هذه الفئة القليلة وأدباؤها كانوا كصغار النجوم، ليس بينهم كوكب واحد، فكانت طبقة الشعر فى هذا العهد مزاجا من ألغاز أو أحاج ،وكانت تسوده مجانات وتكلف فى المديح الذى بلغ حد الاستخذاء والاستجداء ، وفيه أيضاً منظومات تقديسية وأوراد .

أما الأدب فكان طرائف وحكايات تمثل روح العصر بانحطاطها وتعكس صوراً من شيوع النظم الماجن والاسفاف فى الميول .

كانت بلاد العرب من شمال العراق حتى اليمن زاخرة بهؤلاء النظامين والأدباء الذين أولعوا بالنوادر والغرائب ، وقد أعرض أكثرهم عن النفائس القديمة وعكفوا على تآليف محلية وهى إن لم تدل على إبداع وإجادة فقد أعطتنا صوراً عن عصرهم وما كان فيه من أنماط التفكير والتعبير . فالشاعر عثمان العمرى وأصله من الموصل[1] عكف على مديح ولاة الترك وكان متقلباً فى مناصبهم لكنه استخلص من عمره كتاباً فى تراجم عصره سماه « الروض النضر فى تراجم العصر » وفى الحجاز ظهر أدباء زمن الترك منهم جعفر السقاف المدنى، كان شاعراً ناثراً وله كتاب « مواسم الأدب وآثار العجم والعرب » .

وظهر فى اليمن أدباء وشعراء فى تلك السنين منهم شرف الدين المتوكل على الله الزبيدى[2] ألف كتاباً « الروض المرحوم والدر المنظوم » وآخرون من شعراء زمنه أو ممن تقدموه بقليل نظموا مدائح نبوية كما فعل سراج الدين القصيعى فى كتابه ، « السائق إلى الشراب الرائق » وألف عبد الله الترعى ديواناً سماه « الدر المنظوم لذوى الفهوم »

أما فى مصر فكان ثمة شاعرة نبغت فى الشعر ووازت رجال عصرها فيه هى عائشة الباعونية ، عاشت فى القرن العاشر للهجرة وكانت تجرى فى مصيرها مجرى الصالحين المتقدمين ، ولها مدائح نبوية ومنظومة مولدية وديوان شعر كتبته بخطها وهو محفوظ فى الخزانة التيمورية المهداة إلى دار الكتب الوطنية بمصر . كما ظهر جماعة من المشيخة عانوا نظم الشعر وهم كثير ، منهم الشيخ عبد الله الشبراوى[3]

---

(١) توفى سنة ١١٨٤ للهجرة .

(٢) توفى سنة ١٠١ للهجرة .

(٣) توفى سنة ١١٧٢ للهجرة .

وضع ديواناً سماه « ملائح الألطاف فى مدائح الأشراف » . وفى الشام ظهر ابن منجك الدمشقى[١] فنظم ديوان شعر فى المديح والنسيب . وسادت أسماء الآثار والدواوين فى تلك الردحة من الزمن عناوين مسجعة مثل « بغية الأريب وغنية الأديب » ، ومثل « مبهج النفوس ومبلج العبوس » جرياً على المسميات التقليدية الكتبية فى العصر المغولى لكى تدل على الموضوع دلالة واضحة فانها تعلق فى الذكر والظهور ، ولم يكتف بعض المؤلفين والمصنفين بسجعتين فى العنوان أو أكثر مثل كتاب أحدهم المسمى « بغية الجليس المسامر ونزهة الأرواح والخواطر فى الاشعار والنوادر » بل كانوا يتفننون فى الألفاظ المسجعة والمطابقات اللفظية والجناس التام والناقص .

---

(١) توفى سنة ١٠٨٠ الهجرة .

أثر العلوم العقلية قبل النهضة المعاصرة

منذ نبغ « أبو حامد الغزالى » حجة الإسلام طبع الفلسفة الإسلامية بطوابع الصوفية وجعل للصوفيين قيمة علمية وخاصة فى كتابه « احياء علوم الدين » فلقد اتخذ أبو حامد من النزعة الصوفية والاتصال الإلهى قالبا لفلسفته وهو بمزجه الفلسفة الاسلامية بالتصوف كان يرى استمرار هذه الفلسفة فى خلال العصور التى تعاقبت بعده ، ولقد مارس بنفسه سياحات صوفية تأملية ألقى عصى التسيار بعدها ، وقد حصلت له فكرة عامة عن الفلسفة الخالصة من الشوائب التى كان يتهم رجال زمنه بعض أصحابها بالانحراف فنافح بها عن الدين وجلس للمناظرة والتأليف . واستمرت الفلسفة الاسلامية بعده نزاعة للصوفية حتى جاء إمام الحنابلة تقى الدين تيمية[1] الذى تتلمذ على مائتى شيخ من أساتيذ زمانه ، ولما اختمر عله أخذ فى التدريس فنشأ له مريدون وعرف بحرية الفكر والتجرد وقوة الحجة وبراعة المناظرة ، وانقسم الناس عليه بعصره قسمين واحد يكفره ويدعو إلى قتله وحبسه وآخر يؤمن بعلمه وعقله ، وكان من أشجع من عرف من علماء الدنيا لا يهاب الموت ويصرخ بوجه الظالم ، ولم يكن جائراً فى فلسفته وتلخص فى أنه كان يؤثر الموافقة بين المنقول والمعقول ، ولم يكن بمعزل عن الحركات السياسية بعهده ، فقد عرف عنه أنه كان يخطب داعيا إلى حرب المغول . وكان لابد لمثله من أصحاب الرأى الحر والجرأة من أن يكونوا عرضة للظلم والاضطهاد لدى الحكام والطغاة ، وقد لقى العنف فى حياته فحوكم بمصر لآراء قالها ولم يرجع عنها ، وقضى حاكموه بحبسه فيها بقلعة الجبل سنة ونصف سنة . ولما أطلق من السجن عفا عن خصومه . ووقف فلسفته على محاربة البـــدع فى الاعتقاد كالقدرية والجبرية والحلولية وأهل الرجعة ، وله فتاوى مشهورة بالتعقل والتبصر ، ولم يكن يتنسم طويلا نسيم الحرية حتى ينال التنغيص بعدئذ ، وبلغ من حابسيه أن حرموه الحبر والورق والكتابة فمات صبرا ، ولقد بلغت آثاره التى خطها بيده ثلاثمائة مجلد فى الفقه والتفسير والأصول[2]

(١) توفى سنة ٧٢٨ للهجرة .

(٢) انظر فوات الوفيات لابن شاكر فى ترجمة تقى الدين ابن تيمية .

وكان تلميذه شمس الدين ابن قيم الجوزية الذى نشر علمه فى الخافقين وحمل رسالته من بعده [١] بارعا فى علوم عدة مابين تفسير وفقه ولسان ونحو وحديث وأصول وتصدر للافتاء والأقراء فى مصر والشام، وقد ذكر جمال الدين الاتابكى صاحب النجوم الزاهرة[٢] أن ابن الجوزية كان من العلماء الذين عنى بهم واستوعب أحوالهم ومصنفاتهم وأنه ترجم له فى كتابه « المنهل الصافى » .

وقد كنى ابن تيمية تنفيذا لرسالته العقلية أن كان باعثا لحركة محمد بن عبد الوهاب ، وقد عنى من المؤلفين المعاصرين بالكلام على الوهابية ومحمد بن عبد الوهاب [٣] جماعة ثقات منهم المستشرق كليمان هوار [٤] فقد أرخ هذه الحركة ممحصا كما تكلم على المذهب الوهابى لدى محمد بن عبد الوهاب . والدارس لهذا المذهب يجد المشابهة واضحه بينه وبين تعاليم الشيخ ابن تيمية وتلاميذه وهم الحنابلة — من فكرة العودة إلى النقاء الدينى فى نبعته الأولى وإبعاده عن البدع .

أما تلك الحركة الفلسفية الصوفية فكانت دائبة خلال السنين متنقلة من ابن الفارض[٥] وابن عربى [٦] اللذين أشاعا فيها الشعر ومزجاه بالغزل الإلهى فلا بذكرهما مصر والشام حتى تسلم هذا الميراث العبادى الشيخ عبد الوهاب الشعرانى [٧] الذى عاش أيام العثمانيين وتعد بعض كتبه « كلواقح الأنوار فى طبقات الأخيار »[٨] نقطة تحول فى العقلية الصوفية التى كانت تنظر قبله إلى السماء . فتحولت مع عبادتها وزهدها إلى الأرض والشعب . وقد بلغ من اهتمام الشعرانى الذى ظهر فى القاهرة بأمور الاصلاح الاجتماعى أن كتب عن الفلاح المصرى وأظهر ظلامته وبؤسه ونقد نظام الضرائب الذى كان بمصر فى زمنه .

---

(١) توفى سنة ٧٥١ للهجرة .

(٢) الجزء العاشر ص ٢٤٩ .

(٣) توفى سنة ١٢٠٦ للهجرة .

(٤) انظر كتابه الجزء الثانى ص ٢٨٣ و ٣٠٠ طبع باريس سنة ١٩١٣ (تاريخ العرب) بالفرنسية وقد تقدم ذكره .

(٥) توفى سنة ٦٣٨ للهجرة ودفن بمصر .

(٦) توفى سنة ٦٣٨ للهجرة ودفن بدمشق .

(٧) توفى سنة ٩٧٣ للهجرة .

(٨) طبع فى مصر سنة ١٢٩٩ للهجرة .

وإذا وصفنا بعض الكتب الصوفية الكبرى التى ظهرت فى عصر الانحطاط فى أواخر عهد المماليك بمصر وأوائل حكم العثمانيين لها وجدنا المثال فيما ألفه الشعرانى إذ كانت كتبه صدى الالتياع النفسى الذى ساد طائفة الصوفية التى كان أحد أعيانها بزمنه ولقى من أجل ذلك كثيراً من الحسد والاضطهاد حتى ساد مذهبه ، ويكاد يكون كتابه (الطبقات الكبرى) مرآة صافية للزمن الصوفى ترتسم عليها صور الوالهين والقديسين منـــذ أيام الرسول حتى عصر المؤلف .

لقد أتم هذا المؤلف الصوفى العظيم تأليف كتابه هذا سنة ٩٥٢ للهجرة بمصر وجعل استهلاله مقسماً على الأئمة الراشدين والصحابة التابعين ، ثم وقفه على المشيخة وأهل الحديث وسائر العلماء والحفاظ ، ولما حان ختامه أضفى به على طائفة كبرى عرفها من مشايخ الدين والمتصوفة والعارفين بالله حتى لم يترك عالما من هؤلاء إلا ألم بذكره ، وكان آخر كلامه فى كتابه على الصوفى المعتزل الشيخ على العياش ، وهو فى كلامه على معاصريه بمصر يدعم سيره بقوله رأيته وسمعته ورحلت إليه مثل قوله عن العياشى :

« وكنا ونحن شباب نقوم الليل فنجده قائماً يصلى هكذا على الدوام وقد افتتح مرة القرآن من صلاة العشاء إلى طلوع الفجر » .

لقد جعل الشعرانى كتابه سجلا للأولياء الذين يقتدى بهم فأعطانا صورة إنعكاسية عن السابقين من أهل التصوف مطبوعة أبدا فى نفسه . والذين عاصروه أحياهم لنا وحفظ ذكرهم وفيهم أعلام انقطعوا للدرس والتحصيل فى مصر .

ثم خطت الفلسفة وهى لابسة جبة التصوف سبيلها إلى أرض الشام فظهرت أخيراً لدى متصوفها المرح الشيخ عبد الغنى النابلسى[1] الذى كان من الشيوخ النقشبندية الأعلام وصاحب رحلات فتحت عينيه على حقيقة الأمم الشرقية المعاصرة له ، وكان يلقب بأستاذ الأساتذة ، وقد مات عن تسعين كتاباً فى التصوف والرحلات والأدب والفلسفة. ومن طرائف فنونه أنه كان يعنى بفن الموسيقى فألف فيها كتاباً سماه « إيضاح الدلالات فى سماع الآلات » منه نسخة مخطوطة بمكتبة

---

(١) توفى سنة ١١٤٣ للهجرة ودفن بدمشق بسفوح الصالحية .

(٢) توفى سنة ١٠٢٤ للهجرة ودفن بدمشق .

برلين ، كما كان يبيح لنفسه وللناس تعاطى الدخان ، وله فيه رسالة سماها «الصلح بين الاخوان فى حكم إباحة الدخان» مخطوطة بمكتبة برلين أيضاً وذلك من أطرف ما أثر عن هذا الشيخ اللطيف الصوفى .

ولقد تأثر هذا الصوفى المشهور بأستاذه الشيخ حسن البورينى[1] الذى كان من أقدر الشراح لديوان ابن الفارض ومن أساتيذ عصره ، وقد كان معلما لطائفة كبيرة من علماء مصر والشام بعده أبرزهم النابلسى الذى أتاح للتصوف استقراراً على قواعد دينية ثابتة، ووضع له ألفاظاً معجمية اصطلاحية خاصة به، وكان فى شعره رجع الصدى الفارضى فزاد صوفيته وقاراً ما كان يعرف فيه بأنه كان من ثقات علم الحديث، وهو فى تصوفه يعد آخرة المحور العقلى الصوفى الذى بدأ عند ابن الفارض وكان انتهاؤه إليه . وكان من شدة ولوعه بشعر ابن الفارض أن شرح ديوانه بعد شرح أستاذه البورينى .

---

(١) توفى سنة ١٠٢٤ للهجرة ودفن بدمشق .

حياة العلوم الفقهية والتفسير فى عصر الانحطاط

فى تلك الفترة من عمر العرب التى تدهور فيها ملكهم وخبا نورهم عاش علماء وفقهاء لم تكن أحداث السياسة وظروف الانقلاب لتحول بينهم وبين ماتعودوا من الدأب والبحث فى علوم الدين .

لقد كانت فى أزمانهم جيوش المغول تشن حروبها على بلاد العراق وديار الشام وتهدد مصر ، ومصر يومئذ قد ورثت الحضارة الإسلامية ولجأت إليها أفواج العلماء والفقهاء أمام السيل المغولى ، وفدوا من كل صقع عربى فانضموا إلى علماء مصر ، ولقد كان العلم يحارب فى كل مكان تحت طغيان المغول والتتر ثم العثمانيين ولكن القرآن والعربية كتب لهما البقاء فكان ذلك وسيلة إلى بقاء الأمة العربية ولواء الإسلام على الأرض .

لقد ظهر علماء فى عهد الأيوبيين حفظوا التراث الإسلامى والعربى فى الدين وعلومه ، وعاش منهم فى ظل الدولة المحلية مؤلفون وجدوا من عطف بعض السلاطين والولاة عليهم من ذوى العقيدة الإسلامية والنزعة الدينية ما شجعهم على المضى ببحوثهم وتواليفهم وفى تفهم أحكام الفقه الإسلامى وتفسير القرآن على شرعة السلف الصالح ، حتى أن الفقه الإسلامى قد أتيح له أذهان تتفهم مقاصده الزمنية وتسعى لطبعه بطوابعها ، وبذلك تأثر الفقه الإسلامى بالتطور بل تطور هو نفسه لأن فيه روح الصلاح لكل زمان ومكان .

ولقد خضع الفقه الإسلامى للتطور فلم يبق النظر إلى الأحكام — على تطاول الزمن الإسلامى — هو نفسه أيام الخلفاء الراشدين أو فى صدر الإسلام أيام الأئمة والتابعين ، وقد ظهر ذلك جليا منذ برز علماء دينيون سوغوا لأنفسهم وفاقا للأحكام الشرعية والترخيص الفكرى أن يلائموا بين زمانهم وما أثر من القياس فى القرآن والحديث، فكان أبو محمد بن حزم الأندلسى من أقدم هؤلاء[1] يستنبط الأحكام من الكتاب والسنة ، وكان موسوعى العلم فساعده ذلك على كثير من

---

(١) توفى سنة ٤٥٦ للهجرة .

الحرية فى تطبيق الحكم الشرعى كما يقتضى الزمن والتطور . وقد كان فى كتابه (الفصل بين الملل والأهواء والنحل) مثالا للعالم المتبحر الذى بنى لقواعد الدين بناء المسوغات التى تقتضيها الحاجة .

وقد اشتمل التطور الفقهى على النواحى الكثيرة من مطالب الحياة الحديثة (فمن منتصف القرن الرابع الهجرى حتى سقوط بغداد فى أيدى التتار فى منتصف القرن السابع ، كانت حركة الفقه الإسلامى قد بلغت كمالها فى التحرر والتخريج والترجيح فى المذاهب ، أما دور الانحطاط فى الفقه الإسلامى فكان من منتصف القرن السابع حتى أوائل هذا العصر الحديث)[١].

وقد مر حين من الدهر على علماء الفقه الإسلامى وهم بين جدال ومدارسة فلم يخلصوا إلى جهة عامة تشتمل على إجماع واحد فكان باب الاجتهاد يفتح على مصراعيه ثم يقفل ، وكان العلماء يتخففون قليلا ثم يعودون إلى التحرج [٢] .

ويظهر التطور الفقهى جليا لدى الشيخ محى الدين بن عربى[٣] وأصله أندلسى ولعل تلك ظاهرة فى علماء الفقه من الأندلسيين — وقد خلق لنفسه مشكلات من جراء أقواله الحرة التى كان يقصد أعداؤه إلى تفسيرها تفسيرا مخالفا لمعتقده هو .

وحين جاء العصر المغولى كانت العلوم الفقهية قد تكاثر علماؤها كثرة نامية على السنين وألفت كتب فى الأصول فكانت لا تحصى ، ومزج علم الأصول بأساليب الكلام المنطق حتى ذهب غموض العبارة بفائدة المعنى وحتى صارت تلك الكتب غريبة على غير أهلها ، ولو كانوا من الأدباء وأهل النظر لكثرة ما فيها من مصطلح التعابير الخاصة . وانقسم علماء الفقه إلى الأقسام الأربعة المعروفة وهى الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، ولكل من هذه المذاهب موافقات ومخالفات تعج بها كتب مؤلفيها . ولا شك فى أن هذه المذاهب إنما كانت لضرورة الزمن وتطور الحياة الإسلامية وحاجتها إلى تغير شكلى فى الأحكام

---

(١) المدخل الفقهى العام إلى الحقوق المدنية فى البلاد العربية ، للاستاذ مصطفى أحمد الزرقاء مطبعة الجامعة السورية بدمشق سنة ١٩٥٢ ، ص ٦٣ .

(٢) الملكية ونظرية العقد فى الشريعة الإسلامية للاستاذ محمد ابو زهرة ص ٣٨ طبع مصر .

(٣) توفى سنة ٦٣٨ للهجرة كما ذكر .

يوافق العهود فتشدد بعض الأئمة وتسامح البعض الآخر ونشأ لكل منهم تلاميذ وأتباع وتفرعوا فكانت الشقة تبعد حينا وتقرب بين تلك المذاهب .

فبرز فى الفقه الحنفى آثار كان من أظهرها ما ألفه حافظ الدين النسفى[١] وكان كتابه المسمى (منار الأنوار فى أصول الفقه) أثرا دينيا بينا لفقه هذا المذهب . وقد تولى شرحه الكثيرون[٢].

اما المالكية فكان من أجل كتبها ما ألفه شهاب الدين القرافى [٣] كتابه (الفروق فى الفقه المالكى)[٤] وكذلك ما ألفه خليل بن اسحاق الجندى المالكى المصرى . وقد كتب لهذا الكتاب حظ لدى بعض المستشرقين فعنوا به إذ ترجم إلى الفرنسية والإيطالية وسبب ذلك شيوعه فى شمال افريقيا وطرابلس[٥].

وأما الفقه الشافعى فكان أبو زكريا النووى[٦] أبرز أعلامه فى العصر المغولى ، وكان له ميزان خاص فى الفتيا الفقهية والتخريج ، وقد شرح صحيح مسلم شرحا موفقا فى خمس مجلدات (٧) .

وكنى الفقه الحنبلى حفاوة وبروزاً أن كان تقى الدين بن تيمية [٨] كبير أعلامه والعارفين باصول الفقه وأحكام الدين فيه ، وكان بما — أوتى من توقد فى الفكر ووعى شامل وحرية — وسيلة كبرى للتطور فى الفقه الإسلامى . وقد أتيح لفتاويه أن تطبع بمصر سنة ١٣٢٦ فى خمس مجلدات وهى بحر زاخر بالمعرفة الصحيحة فى فقه المسلمين وتخريج الأحكام المطابقة للزمن الذى كان فيه المؤلف . فكان ابن تيمية يفهم الدين فهما عمليا ، فألف كثيرا من الكتب فى تيسير الأحكام حتى أن كتابه المسمى (الوساطة بين الحق والخلق)[٩] نموذج

---

(١) توفى سنة ٧١٠ للهجرة .
(٢) طبع لاول مرة فى الهند سنة ١٨٧٠ .
(٣) توفى سنة ٦٨٤ للهجرة .
(٤) طبع بتونس سنة ١٣٠٢ .
(٥) طبع اصله العربى بفاس سنة ١٣٠٠ .
(٦) توفى سنة ٦٧٦ للهجرة .
(٧) طبعت لاول مرة فى الهند سنة ١٨٧٠ و كانت اول طبعة منه بمصر سنة ١٣٠٩ هـ .
(٨) توفى سنة ٧٢٨ للهجرة كما ذكر قبلا .
(٩) طبع بمصر سنة ١٣١٨ .

للموافقة بين ما جاء فى الكتاب والسنة وما يحتاج إليه المسلم المعاصر الذى أصبح يحيا فى عهود تختلف كل الاختلاف فى حضارتها وفكرها عن العصور المتقدمة .

وقد أتم رسالته الفقهية تلميذه ابن قيم الجوزية(١) . وإذا برزت فى الفقه الحنبلى آثار التشدد فى بعض الأحكام كان إلى جانب ذلك كثير من التيسير الذى يعين عليه العقل ويدعو إليه التطور . وقد صدر علماء هذا المذهب عن أستاذهم الأعظم أحمد بن حنبل الذى كان من أبرز صفاته إيثار الحرية وعدم الانسياق مع التيار ، وإن غلب فى مصطلح العامة وصف المتشدد المتزمت بالحنبلية . وكان إيثاره لتلك الحرية وإقامته على فكرته فى مسألة خلق القرآن سبباً فى اضطهاده فلم يطع الخليفة المأمون وزمرته القائلة بخلق القرآن فجر عليه ذلك محنته التى أودت به .

أما حياة أولئك الأعلام فى ظلال العصور التى نؤرخها فقد كانت تقشفية زاهدة ، كانت بمصر والشام مدارس وربط وتكايا تعج بالعلماء والمدرسين وفيها حلقات للدرس والمناظرة، وكان لشيوخ المدرسين ولتلاميذهم أوقاف تجرى عليهم لتضمن دوام تحصيلهم ، ولقد رقد الملك الظاهر بيبرس فى ضريحه بدمشق فأقيمت على الضريح بعد سنين مكتبة كبرى، كما رقد فى تلك المدينة السلطان نور الدين بن زنكى وكان جهاد هذين القائدين الإسلاميين مشهوراً فى ديار العرب والإسلام وخاصة بمصر والشام . وان أكثر المآثر الباقية من آثار علماء المسلمين كانت فى عهدها على الرغم من مشاغل الحرب فى تلك الآونة مع الصليبيين .

ولما جاء عهد المماليك والعثمانيين بقيت النهضة العلمية فى علوم الدين على ازدهارها لدوام دين الدولة ولأن السلاطين والقواد والأمراء كانوا من المتدينين .

فإذا أرخنا أعمال علماء الدين الذين نقلوا من العصور المتقدمة حتى عصرنا تراث العلم الإسلامى فى الدين وجدنا جنوداً مجندة لا يأتى الحصر عليهم، وقد أسهم فى أعمالهم هذه الباقية جماعات من الأدباء والشعراء أيضاً إذ كان الأدب والشعر رتبة إضافية لكل عالم أو باحث أو مؤرخ .

---

(١) توفى سنة ٧٥١ للهجرة .

المؤرخون والجغرافيون الذين مهدوا للنهضة

عنى المؤرخون المسلمون فى عصور الانحطاط بالتاريخ العربى والإسلامى فأخذوا يدونون حوادث أيامهم وعهودهم جريا على غرار المؤرخين الذين سبقوهم . ولولاهم لانقطعت الصلة بين تاريخنا السياسى الحديث وتاريخنا القديم. ولقد كان منهجهم فى التأليف سرداً للحوادث وقد يمزجون ذلك بأحكامهم ولكنهم كانوا يؤثرون وضع صورة تفصيلية أو وجيزة بين أيدى قرائهم ، وقد اتبعوا طريقتين فى التأليف كانتا قديمتين فى تاريخنا .

أولاهما — التاريخ بحسب السنين فهم يثبتون الحوادث فى مجراها السنوى كما صنع ابن الأثير صاحب التاريخ الكامل .

والثانية — التاريخ حسب الموضوع كما نهج المسعودى صاحب مروج الذهب ولئن خلا معظم كتبهم التاريخية من دقة الحكم والنقد لاكتفائها بنظام السرد والرواية فإن بعضها كان حافلا بكبريات الأحداث التاريخية فى الحرب والسلم وكتب بكثير من التجرد والبعد عن الهوى وإن تكن قد أفاضت فى تبيان مآثر الملوك والفاتحين ، كما ظهر فى بعضها الآخر التحيز والمسايرة لفريق دون فريق .

كان من أعلام تلك الفترة ابن خلكان[1] ، نشأ فى العراق وينتهى نسبه إلى البرامكة . طاف البلاد وتولى القضاء وجاء الاسكندرية ومصر .

أشهر آثاره تاريخه الكبير المسمى « وفيات الأعيان » وهو معجم حرفى على الأسماء أرخ فيه عظماء الدنيا العربية والإسلامية حتى عصره بين ملوك وساسة وأدباء وشعراء . وقد عنى به الغربيون فأشرف على طبع جزئه الأول البارون أوسلان أحد المستشرقين الغابرين ، وطبع بمصر بكامله قديماً وحديثاً ، ويعد ذخراً كبيراً للتاريخ السياسى والأدبى فى دقة حوادثه وصحة تراجمه .

وجاء بعد هذا المؤرخ ، صلاح الدين الصفدى[2] . كان من قوله (كتبت

---

(١) شمس الدين بن أبى بكر توفى سنة ٦٨١ للهجرة .

(٢) توفى بدمشق سنة ٧٦٤ للهجرة .

بيدى ما يقارب خمسمائة مجلد) . وأجل كتبه الوافى بالوفيات وهو يعد من أغزر الكتب التاريخية المؤلفة فى الإسلام بموضوع التراجم، ذكر فيه القدماء والمعاصرين من الحكام والعلماء والأدباء . وقد بلغ ثلاثين مجلداً طبع منه إلى الآن[١] الجزآن الأول والثانى باعتناء المستشرقين الألمانيين « ريتر وديدرينغ » . وما تزال بقية المجلدات مخطوطة[٢] .

وقد كان هذا المؤرخ الأديب غزير المؤلفات وحجة زمنه وما بعده ، وبلغت مؤلفاته قبيل موته خمسة وعشرين كتاباً .

وبلغت مثل ذلك همة الحافظ شهاب الدين بن حجر العسقلانى[٣] فى كتابه « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » جاء فى أربع مجلدات[٤] بناها على الحروف من أوائل الأسماء . وهى تراجم بعضها مختصر وبعض مطول لأهل عصره ، وهذا الضرب من التأليف يدخل فى باب الموسوعات Encyclopedie ، ومن العجيب أن ينهض بذلك رجل واحد .

نشأ هذا المؤرخ بمصر وكانت له رحلات حتى بلغ الحجاز واليمن ، وعاد إلى مصر فتولى القضاء فيها أيام الملك الأشرف برسباى ، وقد بلغت مؤلفاته نحوا من عشرين رسالة ومجلد .

وكان من أعلام التاريخ فى تلك الفترة أيضاً الشيخ أحمد شهاب الدين المعروف بابن عربشاه[٥] ، كان ذا سياحات بعيدة من دمشق إلى سمرقند . جاء القاهرة زمن الملك الظاهر جقمق . وقد ألف كتباً تاريخية عن تيمورلنك وصف فيها عهد الطاغية وحروبه فى الشرق ، كما أرخ عهد الملك الظاهر .

وكان من نوابغ التاريخ فى هذا العصر « تقى الدين المقريزى »[٦] ، جاء جده

---

(١) طبعتهما وزارة المعارف التركية باستنبول سنة ١٩٣٠ و ١٩٤٩ .

(٢) منها نسخة مصورة بالفوتوغرافيا فى دار الكتب المصرية وكل مجلدة منها فى نحو ٤٠٠ صفحه من القطع المتوسط .

(٣) توفى سنة ٨٥٢ للهجرة .

(٤) كل مجلدة فى نحو خمسمائة صفحة من القطع المتوسط طبع أول مرة بحيدر آباد الدكن باعتناء المستشرق الألمانى « كرتكوى » .

(٥) توفى سنة ٨٥٤ للهجرة .

(٦) توفى سنة ٨٤٥ للهجرة.

مصر من صوب لبنان وولد هو بالقاهرة ، نشأ نشأة دينية آخذة ببعض المذاهب حتى صارت إلى الظاهرية التي قال فيها ابن حزم الأندلسى .

كان من أجل آثاره كتابه التاريخى القيم المسمى « خطط المقريزى »[١] ، وقد أصبح هذا الكتاب فى عصرنا الحديث وخاصة فى التاريخ المصرى من أجل المصادر المعول عليها والتى لا تقل فى قيمتها العلمية عن أجل الكتب الجامعية الثبتة .

وقد اتبع المقريزى فى تاريخه منهج المسعودى فى كتابته مواضيع على أبواب حسب ما عن له فى منهجه . ولولا استطراده فى الحوادث لكان كتابه مثالى المنهج العلمى فى التاريخ ، وقد جاء مجموعة تاريخ ممزوج بالفلسفة والأدب والجغرافيا أيضاً .

طبع هذا الكتاب طبعات كثيرة فى الغرب وبمصر . ولم يمت هذا المؤلف العظيم حتى كان عدد كتبه بين كبير وصغير قد بلغ الثلاثين كتابا .

أما أبو المحاسن بن تغرى بردى[٢] فكان منبته ديار الشام ، ثم جاء مصر . ويعد من أبرز تلاميذ المقريزى وحفظة علمه . وهو عندنا شبيه بابن قيم الجوزية بتلمذته على ابن تيمية ونقله علمه ، بل يكاد يكون كل واحد من الأستاذين قد أكمله تلميذه . وهذا من أجمل ما اتفق فى تاريخ علومنا العربية والإسلامية .

ألف أبو المحاسن كتاباً تاريخياً قيما فى حوادث مصر بخاصة والدول الإسلامية بعامة سماه « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ، وقد سلسله مرتباً على السنين منذ الفتوح الإسلامية حتى أيامه . وقد ترجم هذا الأثر النفيس إلى التركية فى عهد السلطان سليم العثمانى حين صارت مصر فى حوزته . ونشرت دار الكتب المصرية هذا الكتاب ، وهو يعد من أصح المصادر للتاريخ المصرى وللحوادث السياسية فى ديار الشام .

---

(١) واسمه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » .

(٢) توفى سنة ٨٧٤ للهجرة .

وإذا كان لكل طائفة من العلماء وهم كنجوم الدراري عالم يكون بينهم كالكوكب، فإن ابن خلدون[١] هو كوكب المؤرخين العرب. أصله أندلسي من أشبيلية. هاجر أجداده إلى تونس أواسط القرن السابع الهجري. وهو يمني العرق تقلب في البلاد وتولى القضاء. ووجد مصر ملجأ العلم فعرفت قدره، وقد تصدر في الأزهر للتدريس وظل بمصر حتى وافته المنية.

ونبوغ ابن خلدون في التاريخ يعد حدثاً جليلا في المنهج العلمي التاريخي الذي أصبح كل تاريخ خاضعاً لأحكامه في التأليف المعاصر. والتقدير لمنهج ابن خلدون في التاريخ هو بسبب اتيانه بقواعد للبحث والتحقيق في سير الأمم والحكم على الحوادث بمقارنة وتمحيص، ويعد منه هذا انقلابا علميا في تاريخنا العربي والإسلامي. فقد أخرج ابن خلدون التاريخ من طريقة السرد والتتابع إلى الحكم والتنقير والبحث الذاتي. وتجمع كل هذا المنهج في الخطط المحكمة التي رسمها في مقدمة تاريخه الكبير التي جعلها مدخلا، وقد سمي تاريخه «العبر»[٢]

ومن أجل ما اتفق لابن خلدون تخطيطه القواعد العامة في علم الاجتماع الشعوب وهو ما يدهش لدارس علم الإجتماع الحديث في عصرنا هذا. ولقد أدار ابن خلدون في مقدمته دراساته على البلدان والسكان والعادات والمعايش حتى أن الأدب واللغة قد أفادا من دراسته العلمية، وكانت وسائله المنهجية صحيحة وخاصة في دراسته للتطور اللغوي لألسنة الأمم وخصائص الشعوب.

أما الجغرافيون وأصحاب الرحلات فكانوا في العصر الذي نؤرخه نفراً من العلماء السائحين الذين يقيدون في دفاترهم مشاهداتهم تقييدا على بعضه سمات الحكاية والنوادر، لكن أغلبهم كان ذا وعي علمي يعمد إلى تخطيط الخرائط ودراسة البلدان والخليقة والحكم على أنساب الأمم واختلاف العناصر البشرية وتمازجها كما كان يصنع «شيخ الربوة» الدمشقي[٣] صاحب كتاب «نخبة الدهر في عجائب

---

(١) توفي سنة ٨٠٨ للهجرة واسمه «عبد الرحمن ولي الدين التونسي الحضرمي».

(٢) الاسم بكامله «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاشرهم من ذوي السلطان الأكبر» وهو في سبعة مجلدات.

(٣) واسمه شمس الدين الأنصاري توفي سنة ٧٢٧ للهجرة.

البر والبحر» والخاصكى وزير السلطان قنصوه الغورى بمصر(١)، وله كتاب «التحفة الفاخرة فى ذكر رسوم القاهرة» .

ولعل أشهر جغرافى فى العصر المغولى هو ابن بطوطة(٢)، أصله مغربى من طنجه عاش جوالا سائحا ذا بصيرة واعية وتقلب فى البلاد وركب البحار . وقد سجل ملاحظاته فى أسفاره بكتاب سماه «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» ويعرف «برحلة ابن بطوطة»، وقد كان هذا الكتاب من أجدى الوسائل التى انتفع بها المستشرقون وعدوها سبيلا إلى معرفة الشرق .

---

(١) توفى سنة ٩١٥ للهجرة .

(٢) توفى سنة ٧٧٩ للهجرة .

التاليف فى عصور الانحطاط

لقد أتيح للتأليف فى عصر الانحطاط أناس ذوو صبر وجلد، كانوا ينسخون بأيديهم آثارهم وكانت حين تنقل عنهم تقرأ عليهم فيعارضونها على أصولها وكذلك همة الحافظ شهاب الدين بن حجر العسقلانى[١] فى كتابه «الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة» جاء فى أربع مجلدات[٢]، بناها على الحروف الأبجدية من أوائل الأسماء، وهى تراجم بعضها مختصر وبعضها مطول عن أهل عصره. وهذا الضرب من التاليف يدخل فى باب الموسوعات وقد نهض به رجل واحد.

لقد استطاعت هذه الموسوعات فى التراجم أن تعطينا صورة واضحة عن أولئك الذين عاشوا فى عصر المؤلف ممن عرفهم أو سمع بهم أو قرأ آثارهم، ولولا هذه الكتب الجليلة لفقدنا الكثير من أخبار المصنفين وأهل المعرفة فى هذه العصور التى نؤرخها.

ومن الذين عنوا فى عصر الانحطاط بجمع الجامع فى المعارف الغزيرة «شهاب الدين القلقشندى» [٣] الذى نزل القاهرة وكان منشئاً للرسائل فى دولة المماليك بمصر وأجل كتبه «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا». وقد حشد إليه[٤] كل ماوسعه وعيه مما يتصل بصناعة الكتابة والرسائل الإنشائية والدواوين والأقلام والقراطيس والنوادر المتقاطرة فى ذلك على الطريقة الجاحظية، وكان كتابه سجلا لتاريخ أهل الأقلام منذ الصدر الأول فى الإسلام إلى زمنه، وكان يؤلف كتبه بخطه.

ومثله أبو العباس النويرى[٥] الذى ألف «نهاية الأرب فى فنون الأدب»

---

(١) توفى سنة ٨٥٢ للهجرة.

(٢) كل مجلدة فى نحو خمسمائة صفحة من القطع المتوسط وقد طبع أول مرة فى حيدر آباد والدكن بإعتناء المستشرق الألمانى «كونكرى».

(٣) توفى سنة ٨٢١ للهجرة.

(٤) مجلداته سبع كبيرة.

(٥) توفى سنة ٧٣٢ للهجرة.

فى نيف وثلاثين مجلدة قسمها إلى خمسة فنون ، وأفرد لكل فن خمسة أبواب من السماء إلى الأرض واستوعب فيه كل علم وصل إليه فى الكائنات والإنسان ودراسة الشعوب وأجناس البشر حتى ليعد كتابه إحدى عجائب التأليف التى تحتوى على أعرق الدراسات الإنسانية ، ولو أتيح لهذا الكتاب من يدرسه ليستخرج منه ما عرف العرب وشعوب المسلمين من العلوم الكونية والدراسات التطورية التى تتعلق بأجناس البشر لجاء بالعجاب ولأثبت لمؤلفى العرب والإسلام السبق الزمنى فى تصنيف الموسوعات قبل أن يفكر فى صنعها الغربيون ، وفى هذا الكتاب من دراسات التطور الإنسانى ما يعد — إذا قيس إلى مثيله من علوم الاجتماع الحديثة وفلسفة الطبائع — حدثاً سابقاً لدى العرب ، ولم يخل هذا الكتاب أيضاً من بحوث فى النبات والطب والتاريخ والسير .

وكان من هذا القبيل ابن فضل الله العمرى(١) تقلب فى حياته بين مصر والحجاز والشام ، وشارك فى العلوم المعروفة فى وقته ، وامتاز من أقرانه بمعرفة واسعة فى تاريخ المغول والأتراك والهند ، وكانت تغلب عليه نزعة جغرافية بشرية فتكلم على الأقاليم وسكانها وعجائب البر والبحر وحشد الغرائب والنوادر والأخبار ، وكان إلى ذلك ذا نزعة علمية فتكلم على الحيوان والنبات والجماد وعلم الطبيعة والمعادن . وكثرت كتب الطبقات فى عصر الانحطاط أيضاً ، وكانوا يقصدون بهذا النوع من التأليف أن يضعوا أهل العلم والمعرفة فى مدرج بعض مقاعده فوق بعض ، وكانت أول نبعة هذه الكتب عند أهل السنة فى الحديث وطبقات المحدثين ثم انحدرت إلى سائر العلوم وأخصها النحو ، فكتاب « بغية الوعاة » لجلال الدين السيوطى(٢) وكان يشبه فى علمه وإلمامه أولئك الموسوعيين الذين عاشوا فى القرن الثامن عشر أمثال ديدرو ممن صارت إليهم علوم السلف وتجمعت عندهم ذخائر المعرفة السابقة فوضع السيوطى فى هذا الكتاب أسماء أهل النحو واللغة فى معجم على الحروف بين تراجم مطولة ومقتضبة وشاقه فى آخر كتابه أن يخرج من طبقات النحاة وأهل اللغة إلى الكلام على طبقات المحدثين ، وكان مقرراً لأساليب السماع

---

(١) توفى سنة ٧٤٨ ، موسوعته فى خمس وعشرين مجلدة كبيرة ، نشر الجزء الأول منها المرحوم أحمد زكى باشا الذى كان يسمى شيخ العروبة ويقيم فى جيزة الفسطاط بمصر ، وقف مكتبته على أهل العلم وأقام مسجداً دفن فيه .

(٢) توفى بمصر سنة ٩١١ للهجرة

فى الحديث ففى كتابه المزهر فصل فى شروط تحمل الحديث وروايته وطبق ذلك على نفسه فظهر أثر هذا التطبيق فى آخر كتابه « بغية الوعاة فى طبقات النحاة » كيف قرأ على شيخه الإمام الشمنى — وكيف شافهه بالحجاز قاضى القضاة محى الدين بن أبى القاسم الأنصارى وكيف أنبأه الشيخ بدر الدين العينى ، كما تلمذ على نساء مصريات منهن هاجر بنت محمد المصرى فحدث عنها وروى .

* * *

كل ذلك كان جهوداً علمية وأدبية نهض بأعبائها الجسام خلف من العلماء والأدباء لا يحصى عددهم ، كانوا : الجسر الكبير بين ماضى الأمة العربية وحاضرها ومن مصادرهم وردت النهضة العربية الحديثة التى وجدت أساسها مكيناً فى التراث الفكرى . فلم تكن نهضة مرتجلة وإنما كانت نتيجة طبيعية لحياة الفكر والأدب واللغة فى بلاد العرب ، فللعلم روح يحيا بها ويحمل الإنسانية على بقائه فيها ، وما كان الناهضون المتأخرون إلا مسخرين لتلك الروح القومية الموروثة من عبقرية العرب وعزة الإسلام .

الفصل الثالث

العلاقات بين الشرق العربي وأوربا
بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر

للدكتور أحمد عزت عبد الكريم

موضوعات الفصل

الموقع الجغرافى للشرق العربى وأثره — علاقات العرب بالروم وشعوب أوربا الغربية فى العصور الوسطى — الحروب الصليبية غزوات المغول — النهضة الأوروبية — تفوق الغرب — غزوات البرتغال والأسبان — تحول طرق التجارة — الفتوح العثمانية — تحديد العلاقات بين العرب وأوربا فى نطاق السيادة العثمانية — العلاقات التجارية — العلاقات السياسية — الموارنة وفرنسا — الطباعة العربية فى أوروبا وفى الشرق — جمود العلاقات الأوروبية العربية وآثار ذلك الجمود .

العلاقات بين الشرق العربى وأوربا

بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر

يشغل الشرق العربى موقعاً جغرافياً فريداً فى ذلك الجزء المتوسط من العالم القديم . حيث تتلاقى طرق المواصلات العالمية بين الشرق والغرب حاملة ثمرات الجهد الإنسانى فى الإنتاج الفكرى والمادى . وقد قدر العرب قيمة ذلك الموقع منذ خرجوا من جزيرتهم فاتحين مبشرين برسالة الإسلام والعروبة ، فاستقروا فى ذلك الموقع . وصنعوا منه عالمهم ، وتشبثوا به على مدى الأيام وتابعوا منه حمل رسالة الحضارة الإنسانية ، فأخذوا من الشرق ومن الغرب ، وأعطوا للشرق وللغرب ، فكانوا بذلك من أهم رسل الحضارة فى العالمين .

وهكذا قدر العرب أن الاتصال بالعالم الخارجى مقوم أساسى من مقومات الكيان العربى ، فى الفكر والأدب والثقافة والتجارة والاقتصاد . وكان على العرب أن يكونوا دوماً يقظين لتلبية مقتضيات الموقع الجغرافى لبلادهم ، حتى يكون هذا الاتصال بالعالم الخارجى نعمة عليهم وبركة ، ولا يكون نقمة وبغياً وعدواناً . وفى الوقت الذى غفا فيه العرب عن تلبية ذلك النـــداء ، فضعف اتصالهم بالعالم الخارجى ، وانكمش التبادل بينهم وبين الشعوب الأجنبية انعكس أثر هذا على كيان العرب ، فران عليه الجمود وتحجرت المعرفة وانصبت الحياة فى قوالب موضوعة ليس من اليسير تعديلها ، على نحو ما سنراه فى هذا الفصل الذى نعقده لوصف العلاقات بين العرب والغرب فى الفترة ما بين القرن السادس عشر والتاسع عشر . وهى الفترة الفاصلة بين عصر الكشوف الجغرافية والفتوح العثمانية فى العالم العربى وبين عصر التحرك واليقظة ونمو العلاقات الخارجية للعرب فى القرن التاسع عشر .

* * *

يرجع اتصال عرب الجزيرة بالروم إلى ما قبل ظهور الإسلام . وبعد ظهور

الإسلام دخل العرب فاتحين بلاد الشام ومصر وشمالى أفريقية فانتزعوها من الروم وحولوها إلى بلاد عربية إســلامية . واستمر الصراع دهرا طويلا بين الروم والعرب فى أيام الخلافة الأموية والعباسية والدول الإسلامية فى كنف الخلافة ، ولكن الأمر لم يخل من علاقات هادئة مثمرة ـــ أحيانا ـــ فى مجال التبادل المادى والنشاط الفكرى والأدبى .

وعرف العرب الشعوب الأوروبية الغربية التى تكونت فى ولايات الدولة الرومانية الغربية حينما انتقلوا من شمالى أفريقية لغزو أسبانيا وصقلية وجنوبى إيطاليا وفرنسا ، وأقام العرب فى الأندلس وصقلية حاكمين لشعوب أوربية مسيحية عدة قرون وحولوا البحر الأبيض المتوسط إلى بحر (إسلامى) ، وأنشأوا المدارس والجامعات ، وتردد عليها شباب من الأوربيين دارسين باحثين وعن طريق العرب تكشف للغرب تراث اليونان ، فأقبلوا عليه ، وتزودوا منه ما أعانهم على بعث النهضة الفكرية والعلمية فى إيطاليا أولا ثم فى أنحاء مختلفة من أوربا .

على أن (معرفة) العرب بالأوربيين ومعرفة الأوربيين بالعرب ظلت محدودة : فإن العلاقات بين العرب وأوربا كانت متأثرة بعوامل عدة تجعل أثرها محدوداً : فقد كانت ـــ منذ قامت ـــ علاقات غير ودية ، إن لم نقل عدائية ، فقد نظرت أوربا إلى العرب على أنهم قوم خرجوا من جزيرتهم يبشرون بدين جديد ويحملون حضارة جديدة ولن يهدأ لهم بال حتى يبسطوهما فى العالمين . وهكذا وقفت أوربا من العرب ـــ أول ما وقفت ـــ موقف الدفاع عن دينها وحضارتها وكيانها جميعاً .

وعقد النصر للعرب فى الجولة الأولى . فتراجعت أوربا الشرقية عن غربى آسيا وشمالى أفريقية ، وارتدت أوربا الغربية عن مياه البحر المتوسط وبعض جزائره ، وراحت تحتمى وراء الجبال من أرض البرانس . وقدر الأوربيون للعرب قوتهم ، قوتهم المادية والعسكرية والحضارية ، فهدأت ـــ بل تراخت ـــ العلاقات بين الجانبين ، ولانت نظرة كل فريق للآخر ، وانحصرت الصلات

بينهما فى الأقطار المتجاورة على الحدود ، أما الكتلة العربية فى شبه الجزيرة ومصر والشام والعراق فقد ظلت — بصفة عامة — عاكفة على حياتها الخاصة ، لا تكاد تقوم بينها وبين دول أوربا الغربية وشعوبها علاقات ذات خطر .

وهناك عامل آخر يتصل بأوربا وحياة الشعوب الأوربية نفسها فى تلك الفترة من العصور الوسطى المتقدمة (بين القرنين السابع والحادى عشر الميلاديين، أى منذ الفتوح الإسلامية إلى بداية الحروب الصليبية) ؛ وهو أن أوربا — فى تلك الفترة — لم تكن أوضاعها السياسية قد استقرت بعد ولم تكن حياة شعوبها قد تعقدت بعد . بل كانت تغلب عليها الخشـــونة والبداوة ، ويسودها طابع الاستكفاء الذاتى ، مما كان يحد من حاجتها إلى المبادلات الخارجية والاتصال بالشعوب الأجنبية فى نطاق واسع . وهكذا لم تجد أوربا — فى تلك الفترة — حافزاً يدفعها إلى توثيق صلتها بتلك الكتلة العربية بعد أن بلت — منذ عهد قصير — قوتها ، هذا على الرغم مما كان يترامى إلى مسامع الأوربيين عن ثروات بلاد العرب والمسلمين وازدهار الحضارة فيها . على أن وجود المزارات المسيحية المقدسة فى حوزة العرب كان لا شك دافعاً لأصحاب النفوس التقية إلى (المغامرة) بالرحلة إلى هذه الديار لزيارة قبر المسيح والسعادة برؤية الأماكن المقدسة .

حتى إذا كان القرن الحادى عشر تكشفت للأوربيين أشياء كثيرة عن العرب والمسلمين . وقفوا على معـــلومات كثيرة عن بلادهم ومواردها ، وعن حكوماتهم وشعوبهم ، وعن مواطن القوة والضعف منها .

وكانت جولاتهم الأولى فى مدافعة العرب والاسلام فى أسبانيا وصقلية قد بدأت وأصابت من التوفيق حداً جعلهم يوالون جهودهم ، فيحملون الحرب (الصليبية) إلى ميادين جديدة ، بل إلى قلب الديار العربية ، فى الشام ومصر ، حيث تكمن القوة الحقيقية للمسلمين ، وحيث تقوم المزارات المقدسة ، وإلى تخليصها من قبضة المسلمين كانت تهفو نفوس أبناء المسيح جميعاً .

وهكذا بدأت تلك « الأزمة » الخطيرة فى العلاقات العربية الأوربية التى دامت نحو قرنين ، وعرفت باسم (الحـــروب الصليبية) ، متخذة الصليب لها

شعاراً وخلاص الأرض المقدسة هدفا . وحول هذا الشعار وحول هذا الهدف التفت قوى وعناصر كثيرة من رجال الدين والأشراف والفرسان والتجار والمغامرين والباحثين عن المجد ، ولم تتحرج الدعاية « الصليبية » عن أن تمتد فتشمل الأطفال ايضاً !

وانتصرت أوروبا فى الجولة الأولى : فاستردت قبر المسيح . وأنشأت فى قلب بلاد العرب والإسلام دولا لاتينية مسيحية ، وأقامت جاليات من الفرنج فى مدن الساحل ، وخيل للأوربيين أنهم — بذلك — قد حملوا قطعة من بلادهم وغرسوها فى قلب البلاد العربية الإسلامية ، ليتخذوا منها قواعد لضرب ما بقى من ديار العرب والإسلام .

ولكن العرب مالبثوا أن استردوا قواهم ، فكتلوا جهودهم . ووحدوا قيادتهم . بعد أن أسلموها لمن هو لحملها أجدر وأقوى ، فاستبدلوا النصر بالهزيمة واستخلصوا بلادهم من براثن الأوربيين ، والحق أنها كانت (تجربة) استعمارية مقضيا عليها بالفشل ، وإن طال أمدها : فان هـذه (القطعة) من الأرض الأوربية التى غرسها أصحابها فى قلب العالم العربى عجزت عن أن تنبت لها جذورا تمدها بالعناصر التى تحفظ عليها حياتها ، ولم يستطع الاحتلال الأوربى أن يزودها بتلك العناصر ، فانهارت تحت مطارق الفاتحين ، وعادت الأرض لأصحابها .

وهكذا كانت الحروب الصليبيةفى الشام ومصر تجربة جديدة فى العلاقات بين العرب وأوربا . والحق أن أثرها لم يقتصر على ما لابسها من غزو واعتداء ، وسيطرة واحتلال . فقد زال هذا كله بعد زمن . ولكن أثرها امتد إلى أبعد من ذلك : فقد دخلت العلاقات بين الجانبين فى طور جديد . وظلت هـذه العلاقات متأثرة إلى حد كبير ولمدة طويلة — بما لابس طبيعة هـذه الحروب (الصليبية) من تعصب وعنف وقسوة . (فالفكرة) الصليبية لم تنته بانتهاء الحروب الصليبية أى بانسحاب الصليبيين نهائيا من المشرق فى أواخر القرن الثالث عشر ، حقيقة إن العناصر التى دعت إلى تلك الحرب ثم حملت لواءها من رجال دين وفرسان

وتجار قد ضعفت كثيرا عن ذى قبل ، وشغلت بأشياء أخرى كثيرة صرفتها عن الدعاية الصليبية ، وجدّ على المسرح الأوربى عناصر جديدة من ملوك وأمراء أشد حرصا على بسط سلطانهم فى ممالكهم وإماراتهم منهم على تبذير قواهم فى بلاد بعيدة ، أصبحت — تحت حكم الأتراك — أشد منعة وأعز منالا .

كل هذا كان من شأنه — حقا — إضعاف الروح الصليبية فى أوروبا ، ولكنها ظلت قائمة لم يقض عليها ، وظل « للصليبيين » مواقعهم المتقدمة يشنون منها الإغارات على بلاد المسلمين : كفرسان القديس يوحنا فى رودس وقبرص ثم مالطة ، وهم الذين اتخذوا الصليبية لهم حرفة ، حتى استحالت — على أيديهم — إلى قرصنة . ومن ذلك غزو الاسكندرية ونهبها فى سنة ١٣٦٥ والاعتداءات المتكررة على طرابلس وغيرها من موانى الساحل السورى ، وغزو المهدية من أعمال تونس سنة ١٣٩٠ ، والاعتداءات المتتالية من فرسان مالطة على طرابلس والجزائر وغيرهما من مدن الساحل الأفريقى الشمالى . والحق أن صليبية نيكوبوليس (١٣٩٦) لم تكن المعركة الصليبية الأخيرة وإنما كانت حلقة فى سلسلة طويلة من الحروب التى ظلت تتسم بالروح الصليبية ردحا طويلا من الزمن ، وربما كانت آخر حلقاتها يوم أن وقف الجنرال أللنبى يعلن فى بيت المقدس فى سنة ١٩١٧ « انتهاء الحروب الصليبية » .

ولا شك فى أن هذا كله كان كافيا لتشويه العلاقات بين العرب وأوربا طوال القرون التى تلت خروج الصليبين من بلادهم ، فقد شاهد العرب من أوربا — أول ما شاهدوا — وجهها الكريه المتعصب . وظلت أوربا دهرا طويلا لا تظهر للعرب غير هذا الوجه الكريه المتعصب .

على أن الحروب الصليبية كان لها جانبها المثمر ، فقد زادت كلا من العرب والأوربيين معرفة بالآخر ، و (قربت) بينهما إن صح هذا التعبير ، وأظهرت كلا منهما على جوانب مفيدة مثمرة فى علاقاتهما ، فأصبح كل فريق حريصا على استدامة هذه العلاقات وإنمائها تحقيقا للمصلحة المشتركة ، وهكذا أخذ كل فريق من الآخر وأعطى ، وكان هذا التبادل فى التجارة والثقافة والنظم الاقتصادية والاجتماعية من أهم مقومات العصور الوسطى المتأخرة فى الشرق والغرب جميعا .

وإن كان هـــذا لايقاس بما أفاده الغرب من حضارة العرب فى الأندلس وفى صقلية بصفة خاصة .

ولقد كانت كفة العرب فى هـذه العلاقات هى الراجحة : فقد كانوا يملكون من مقومات الحضارة المادية والعقلية ما يستطيعون أن يقدموا منه لأوربا ، بينما لم تكن أوربا ـــ حتى القرن السادس عشر ـــ تملك من هـــذه المقومات مالا يملكه العرب ، لهذا أخذ الأوربيون من العرب أكثر مما أعطوا ، اقتبس الأوربيون من علوم العرب وفلسفتهم ، وتأثرت لغاتهم وآدابهم ومجتمعاتهم ـــ إلى حد كبير ـــ باللغة العربية والآداب العربية والحياة العربية . والعرب يملكون فى بلادهم أو يجلبون إليها أشياء كثيرة كانت تعوز الأوربيين ولايجدون إليها سبيلا إلا فى بلاد العرب أو عـــبر بلاد العرب كالتوابل والعقاقير والتبر وغيرها من منتجات الشرق المعروفة . وهكذا شهدت الفترة بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر ، بين خروج الصليبيين من المشرق وتحول التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، شهدت هذه الفترة إزدهارا فى العلاقات التجارية بين العرب وأوربا لم يعرفه كل منهما من قبل . وقد بلغ من حرص الايطاليين ـــ والبنادقة منهم خاصة ـــ وهم الوسطاء فى نقل هذه التجارة ـــ على هذا التبادل التجارى أنهم تحدوا أوامر البابوات بتحريمها ، بل تحدوا (الحرمان) الذى أنزله البابوات بكل من يساهم فى هذه التجارة .

وكذلك رأى العرب أن مصلحتهم تدعوهم إلى الحرص على هـذه العلاقات التجارية مع أوربا ، فقد كانوا يجنون منها ربحا كثيرا ، ثم هى ـــ بعـــد ـــ وسيلتهم إلى الوقوف على أنباء الشعوب الأوربية ذات الصلة أو ذات الاهتمام بالشرق وأهله . كما هى وسيلتهم إلى تحطيم أى تكتل نصرانى تحاول أوربا أن تصنعه ضد العرب والمسلمين .

والعرب والمسلمون ـــ فوق هذا ـــ لا يجدون بأسا من الاتصال بهـــذه الشعوب الأوربية ، فقد ملأهم النصر فى الحروب الصليبية المتأخرة ثقة فى قوتهم واعتدادا بكفاية عتادهم ورجحان تفوقهم ، فقد استطاعوا استئصال الصليبيين من المشرق ، كما صمدوا للاغارات الصليبية على السواحل المصرية والسورية ، وهم يرون سلاطين المماليك ينتزعون قبرص ويرفعون فوقها لواء

الاسلام ، ثم هاهم الأتراك العثمانيون — وقد غدوا أقوى قوة إسلامية — يرفعونه فى البلقان وشرقى أوربا ويحملونه مظفرا حتى أسوار فينا .

والعرب والمسلمون لم يثقوا فى قوتهم وكفايتهم لمواجهة أوربا فحسب ، وإنما وثقوا فى تفوق حضارتهم ، بعد أن شهدوا نوع الحضارة التى كان يتحضر بها أبناء الغرب فى ذلك الوقت من العصور الوسطى ، فقد كان الأوربيون يعيشون حياة أشد غلظة وجفافا ، وكانوا — على وجه العموم — فى العلم والثقافة والاقتصاد والسياسة أضعف من العرب جانبا .

وظل العرب فيما تلا ذلك العهد من سنين — متمسكين بهذه الثقة وهذا الاعتداد فى قوتهم وتفوق حضارتهم ، حتى بعد أن تبدل الميزان واصطنع الأوربيون أسباب القوة والمنعة وتزودوا بمقومات النهضة العقلية والفنية منذ القرن الخامس عشر . وبذلك رجحت كفتهم فى ميزان الحضارة والقوة .

على أن رجحان القوة الأوربية فى التقائها مع العرب منذ أواخر القرن الخامس عشر لا يرجع إلى ما ذكرنا من أخذ الأوربيين بأساليب جديدة فى مجال القوة العسكرية والحضارة العقلية والفنية فحسب ، وإنما رجع أيضا إلى عوامل أخرى أصابت قوة العرب وأضعفت قدرتهم على النضال .

فإذا كان المسلمون قد استطاعوا فى النهاية هدم الملك الذى أقامه الصليبيون فى سورية ، ثم استطاعوا طرد الصليبيين من المشرق جملة فقد نجح المغول فى انتزاع قطر عربى كبير — هو العراق — من الكتلة العربية فى الشرق العربى ، وأقاموا لهم ملكا فيه ، وربطوا مصيره بمصير الكتلة المغولية الإيرانية فى آسيا ، بعد أن هدموا معالم حضارته ، وقوضوا منشآته الاقتصادية ، واستمرت غزوات المغول التخريبية تفعل فعلها فى الشرق العربى حتى القرن الخامس عشر .

وظهر الأتراك العثمانيون متأخرين على مسرح الإسلام ، ولكنهم مالبثوا أن أقاموا لهم ملكا عريضا اقتطعوه من عالم العرب والإسلام ومن النصرانية الشرقية على السواء . وهكذا حل الترك عن العرب فى الشرق الأدنى لواء الإسلام ورسالته ، وفى الوقت نفسه كان العرب — فى الأندلس — يواجهون محنة (صليبية) أخرى انكشفت فى آخر القرن الخامس عشر عن خروج العرب واستئصال الإسلام من شبه الجزيرة . وهكذا ظهر ضعف العرب — فى الشرق

وفى الغرب جميعا ، ولكن العرب وجدوا فى الشرق قوة إسلامية ، سلموها رسالة الإسلام لحملتها إلى قلب أوربا ، بينما هوت فى الغرب قوة العرب وقوة الإسلام معاً تحت مطارق الغزاة الفاتحين من الأسبان والبرتغال ، وما يلبث الاسبان أن يحملوا الحرب إلى المغرب العربى ، بينما يحملها البرتغاليون إلى الشرق العربى فى حرب اقتصادية دينية معاً .

وهكذا عند ما عادت للقوة الأوربية — ممثلة فى البرتغال والاسبان — إلى الالتحام بالعرب منذ أواخر القرن الخامس عشر — ظهر أن القوتين غير متكافئتين . فنى هذه القرون الثلاثة التى مضت منذ خرج الأوربيون من المشرق كانت أوربا تمضى تتزود بأسباب القوة العسكرية والتكتل السياسى والاقتصادى ، بينما وقف العرب حيث كانوا ، بل انهارت قواهم تحت جحافل الغزاة من المغول والتتر ، وخربت عواصمهم : بغداد ودمشق وحلب ، وتقطعت طرق مواصلاتهم ، فأسلموا زمام القيادة لمن كانوا أقدر منهم على حمل أعبائها من أخلاط المماليك والكرد والجركس .

وظهر هذا جليا حين اصطدم العرب بأوربا فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر ، حين وصلت سفن البرتغاليين إلى البحار العربية وشنوها حربا عنيفة على التجارة العربية ، وعملوا على خنق العرب فى مياههم الداخلية ، هذا فى الوقت الذى نزلت فيه جيوش الاسبان ساحل المغرب العربى ، وبدأوا يحتلون نقطا يتخذونها قواعد للاغارة ، ويشيعون الفتنة ، ويضربون أمراء العرب والبربر بعضهم ببعض ، حتى تتم لهم الغلبة عليهم جميعاً .

وجدت أوربا قوى العرب — سواء فى الشرق أم فى الغرب — مشتتة ضعيفة ، فنى الشرق كانت مصر المملوكية أقوى دولة (عربية) ، ولكن المماليك كانوا فرسانا ولم يكونوا رجال بحر ، وكانت عوامل الفرقة تعمل عملها فى ذلك البناء ، أما القوى العربية فى اليمن وعمان ومسقط والخليج الفارسى فلم يكن يجمعها تنظيم سياسى واحد يلم شتاتها ويجمع قواها ، وقد مضى على أهلها قرون انصرفوا فيها عن تعبئة القوة البحرية العسكرية الكافية لتأمين تجارتهم ، وهى المصدر الرئيسى لحياتهم . وكذلك كان الحال فى المغرب العربى . فرقة وانقساما وتشتيتا للقوى ، وتضييعا للجهود .

فى هذه الفترة الحاسمة من تاريخ العرب (أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر) حين عجزت قواهم عن الصمود لاعتداءات البرتغاليين والاسبان فى الشرق العربى والمغرب العربى جميعا . لجأ العرب إلى الأتراك العثمانيين مستصرخين مستنجدين بهم . فنزل الأتراك الشرق العربى ، وانساحوا فيه حتى وصلوا إلى ميادين الصراع مع البرتغاليين فى البحار العربية والمحيط الهندى ، كما نزلوا أرض المغرب العربى ، عدا مراكش ، وانساحوا فيه ، واقتحموا ميادين الصراع مع الاسبان فى حوض المتوسط وجزائره وسواحله .

وبوصول الترك العثمانيين — فى القرن السادس عشر — إلى ميادين الصراع العربى — البرتغالى ، والعربى — الاسبانى وقف هذا الصراع ، لمصلحة العرب والإسلام ، فقد استطاعت القوة البحرية العثمانية أن تصمد للقوى البحرية البرتغالية والاسبانية . وأن ترد القوة البرتغالية عن النفوذ إلى البحار العربية الداخلية ، وبذلك تسنى لها إنقاذ الكتلة العربية فى الشرق العربى من الاعتداء البرتغالى . كما تسنى لها أيضا إنقاذ الكتلة العربية فى المغرب من الضغط الإسبانى والاحتفاظ بهذه البلاد للعروبة والإسلام .

وهكذا كان لهذا الالتحام بين العرب وأوربا — ممثلة فى البرتغال والاسبان — نتائجه الخطيرة على العرب وعلى أوربا جميعا . أما أوربا فقد استطاعت بفضل الكشوف والحروب البرتغالية أن تصل إلى منتجات الهند والشرق الأقصى بواسطة طريق بحرى مباشر وهو طريق رأس الرجاء الصالح حول أفريقية ، دون أن تضطر إلى جلبهـــا فى الطرق البرية أو البرية البحرية عبر الشرق العربى ، فى العراق والشام ومصر . وكان البرتغاليون ثم الهولنديون فالانجليز والفرنسيون أكثر الشعوب الأوربية إفادة من الطريق البحرى الجديد ، بينما كان الإيطاليون — والبنادقة خاصة — أشدهم مقاساة من الكشف الجديد . وهكذا تحول ميزان القوة والثروة فى أوربا من بلاد البحر المتوسط إلى غربى القارة ، وحدث هذا فى الوقت الذى كشف فيه الأسبان عن العالم الجديد ، وبدأت موجات الكشف والاستعمار الأوربى ، فزادت أوربا الغربية قوة وبأسا بينما ازدادت بلاد البحر المتوسط عزلة وفقراً .

أما العرب فقد خرجوا من هذا الصراع وقد فقدوا مصدرا ثمينا من مصادر

ثروتهم ورخائهم . حقاً إن الكتلة العربية فى الشرق الأدنى سلمت من الاعتداء البرتغالى ، إذ عجز البرتغاليون عن تحقيق أطماعهم فيها ، فشلوا فى احتلال عدن رغم هجومهم المتكرر عليها ، وأخفقوا فى احتلال قواعد لهم على ساحل البحر الأحمر رغم اتصالاتهم بالحبشة المسيحية واندفاعهم فى البحر الأحمر حتى هددوا فى بعض غزواتهم المفاجئة جدة والسويس ، وفشلوا فى بسط سلطانهم على الخليج الفارسى رغم احتلالهم جزيرة هرمز فى مدخله ونزولهم على أجزاء من سواحله .

ولكن الضربة الاقتصادية التى أنزلها البرتغاليون ثم خلفاؤهم الهولنديون بالعرب كانت أشد وأنكى . فقد كان العرب فى اليمن وعدن وحضرموت وما إليها من إمارات ومشيخات على البحر الأحمر والمحيط الهندى والعرب فى عمـــان ومسقط والبحرين وما إليها من إمارات ومشيخات على الخليج الفارسى كانوا يعملون فى نقل المتاجر الشرقية من الهند والشرق الأقصى إلى مصباتها فى موانى البحر الأحمر والخليج الفارسى ، حيث تتولى القوافل العربية نقلها من السويس عبر الأراضى المصرية إلى القاهرة فالاسكندرية ، أو من البصرة عبر العراق وبادية الشام إلى موانى الشام ، حيث تنتظرها سفن البنادقة لتحملها إلى أوربا . كان العرب إذن أهم وسطاء لنقل هذه التجارة بين الشرق والغرب . حقا إن البرتغاليين لم يستطيعوا قفل منافذ البحار (العربية) تماما فى وجه العرب ، فإن حلقة الحصار البرتغالى لم تكن محكمة ، وكان العرب بسفنهم الخفيفة يجدون من الثغرات ما ينفذون منها حاملين ما استطاعوا حمله من متاجر الشرق . لهذا لا نستطيع القول إن (الشرايين) التى كانت تجرى فى الكتلة العربية فى الشرق الأدنى تحمل إليها عناصر النماء قد جفت تماما . وإذ كان الجانب الأكبر من التجارة الشرقية قد تحول إلى الطريق البحرى المباشر فإن أسواق العواصم والثغور العربية فى بغداد والبصرة ودمشق وحلب والاسكندرونة وصيدا والقاهرة والاسكندرية ظلت عامرة بمنتجات الشرق مما تجلبه إليها القوافل ، ويتردد عليها التجار من جنسيات مختلفة ليتزودوا منها بما يريدون .

وكان لعجز العرب عن مدافعة البرتغاليين فى البحار الشرقية نتائجه السياسية الخطيرة على مستقبل بلادهم ، فقد اضطر العرب إلى الاستنجاد بقوة إسلامية أخرى فتية ، هى قوة الأتراك العثمانيين ، وقد رأينا مدى النجاح الذى أحرزه الأتراك فى مدافعة البرتغاليين عن الشرق العربى وفتح منافذه البرية والبحرية

للتجارة الشرقية متعاونين مع العرب حينا وغير متعاونين معهم أحيانا . وكان لابد أن يتقاضى الترك (ثمن) هذه المساعدة ، ولم يكن هـذا الثمن أقل من أن يبسط الترك العثمانيون سيطرتهم على الشرق العربى كله ، وقد دامت هذه السيطرة نحو قرون أربعة .

وحدث مثل هذا فى المغرب العربى أيضا : فان عجز القوى العربيـة فى الجزائر وتونس وطرابلس عن مدافعة الأسبانيين عن هـذا الوطن العربى قد أفسح المجال للأتراك العثمانيين لينزلوا هذا الوطن ويعملوا على استخلاصه من الضغط الأسبانى ،ثم ليسيطروا عليه ويحكموه دهرا طويلا .

وهكذا ارتبط نزول الأتراك العثمانيين فى الشرق العربى وفى المغرب العربى وبسط سلطانهم على دنيا العرب جميعاً — عدا مراكش — ارتبط بالاعتداء الأوربى — البرتغالى والأسبانى — على البلاد العربية فى الشرق والغرب . وفى ظل السيادة العثمانية على البلاد العربية تحددت علاقات العرب بأوربا . لم يبق للعرب كيان دولى خاص ، وعن طريق الدولة العثمانية صاحبة السيادة على بلاد العرب — أخذت أوربا (تمارس) علاقاتها بالعرب ، بل إن الأوربيين راحوا (يخلطون) بين العربى والتركى ، فأصبحوا يطلقون على كل مسلم كلمة (تركى) ، وهذا أمر طبيعى : فقد وقف الترك يمثلون قوة الإسلام إزاء أوربا والنصرانية ، وكانت فتوح الترك فى البلقان وجزائر البحر المتوسط وشرقى أوربا فتوحا (اسلامية) وباسم الاسلام نزل الترك الأرض الأوربية وباسم الاسلام فتح محمد الثانى عاصمة قسطنطين وأدال من دولته ، وباسم الإسلام قاد سليمان جنده إلى أسوار فينا . وهكذا زالت فكرة (العروبة) من أذهان الأوربيين أو كادت . وحلت محلها فكرة الإسلام فى عمومه تمثلها قوة الأتراك العثمانيين . ولم تعد (العروبة) تثير فى أوربا سوى ذكريات بعيدة عن ظهور الإسلام ، والفتوح الأولى للسلمين العرب والحضارة العربية فى أيام عزها ، ولكن هذا كله لم يعد سوى ذكرى بعيدة إن صلحت للدراسة التاريخية ، فلا تصلح لبناء خطط سياسية إنشائية ، منذ انزوى العرب من ميادين السياسة الدولية والاقتصاد العالمى ، وظهر عجزهم عن إقامة تشكيل سياسى قائم بذاته وسط المنافسات والمساومات الدولية ، وانتقل مشعل الإسلام إلى أيد جديدة قوية : هى أيدى الأتراك العثمانيين .

وفى ضوء هذه النظرة تحددت علاقات العرب بأوربا منذ القرن السادس عشر

حتى القرن التاسع عشر ، أى منذ انضوى العرب فى حوزة الأتراك العثمانيين حتى تكشف ضعف الترك ، وعاد العرب وعادت بلادهم إلى الظهور فى معترك المنافسات والمساومات الدولية السياسية والاقتصادية ، وعاد الأوروبيون (يتعاملون) مع العرب رأساً . وبدأت المؤثرات الأوروبية تفعل فعلها فى العالم العربى منذ أواخر القرن الثامن عشر .

* * *

رأينا كيف تقدم الأتراك العثمانيون فاستولوا على بلاد الشرق العربى : بدأوا بالشام ، ثم مصر ، فالحجاز ، ثم عملوا على بسط سلطانهم على اليمن ، كما فتحوا العراق من الدولة الصفوية . ولقد نهض الترك لمدافعة البرتغاليين عن البحار الشرقية منذ فرغوا من امتلاك مصر فى سنة ١٥١٧ : فجعلوا من السويس قاعدة بحرية لعملياتهم فى البحر الأحمر والمحيط الهندى والخليج الفارسى (على نحو ما كانت عليه السويس فى أواخر الدولة المملوكية) : ولهذه الغاية أنشأ العثمانيون منصب (قبطانية مصر) وجعلوا مقره السويس ، ولكن جهود العثمانيين فى البحار الشرقية — على قوتها واتساع نطاقها — لم تؤد إلى نتائج حاسمة . حقا إنها نجحت فى تخفيف الضغط البرتغالى على التجار العرب والإمارات العربية الساحلية وأوقفت الاعتداء البرتغالى ، فعجز عن أن يمتد إلى الكتلة العربيه الداخلية وحطمت كل محاولة لتكوين جبهة مسيحية من البرتغاليين والأحباش ضد القوى العربية الإسلامية على البحر الأحمر وشرقى أفريقية ، بل لقد أدى وصول القوة البحرية العثمانية إلى هذه الأنحاء إلى انتعاش هذه القوى العربية الإسلامية على نحو لم تعرفه من قبل . كل هذا حققته القوة البحرية العثمانية متعاونة مع العرب حينا وغير متعاونة معهم أحيانا .

ولكن الأتراك العثمانيين لم يستطيعوا مواصلة جهودهم البحرية فى البحار الشرقية بعد منتصف القرن السادس عشر ، ووضح أن البحرية العثمانية — وهى بعيدة عن قواعدها (الأصلية) فى البحر الأبيض المتوسط — عاجزة عن التغلب على البحرية البرتغالية ، فتركوا هذه المهمة لغيرهم : تركوها لدول أوربية أخرى للهولنديين ثم للإنجليز . والحق أن الأتراك العثمانيين لم يستطيعوا أن يكتلوا

القوى الاسلامية فى نضالهم ضد البرتغاليين . فالنزاع بين العثمانيين والصفويين، بين السنة والشيعة كان على أشده . وسمعة الأتراك العثمانيين فى الأقاليم والبحار الشرقية لم تكن عالية ، بعد الأسلوب الغادر الذى استولوا به على عدن فى سنة ١٥٣٥ وماكان يرتكبه قوادهم فى الموانى العربية التى كانوا يحلون بها . ولولا ما أشرنا إليه من مهارة الملاحين والتجار العرب فى الإفلات من حلقات الحصار التى ضربها البرتغاليون على منافذ البحار العربية الداخلية : الخليج الفارسى والبحر الأحمر — لولا ذلك لكانت الضربة التى أنزلها البرتغاليون بالاقتصاد العربى أشد وأنكى . ومهما يكن من شىء فإن المقادير البسيطة التى كان العرب يجلبونها رغم الحصار البرتغالى للبحار الشرقية لم تكن كافية لأن تبعث ذلك الانتعاش الاقتصادى الذى كان يفيده العرب من التجارة الشرقية قبل أن يصل البرتغاليون إلى البحار الشرقية وينفذوا فيها خططهم العدوانية ضد العرب والاسلام .

وفى الوقت نفسه لجأ الأتراك إلى أمر آخر للمحافظة على أسواق الشرق الأدنى — وقد أصبحت كلها فى حوزتهم — فعقدوا مع البنادقة معاهدات لتشجيع تجارهم على الاستمرار فى ممارسة نشاطهم فى نقل المتاجر الشرقية من الاسكندرية وغيرها من موانى الشرق الأدنى ، كما كانوا يفعلون أيام السلطنة المملوكية . ثم عقدوا مع فرنسا فى سنة ١٥٣٥ معاهدة أقروا للفرنسيين فيها بعض الامتيازات فى بلاد الامبراطورية العثمانية . ثم أتبعوها بمعاهدات على غرارها مع بعض الدول الأوربية الأخرى كهولندا وانجلترا .

ولكن هذا كله لم ينتج نتائجه المرجوة فى ترويج التجارة الشرقية عبر البلاد العربية : فقد وضح عجز البحرية العثمانية من منتصف القرن السادس عشر . ولقد كان لضعف البحرية العثمانية نتائجه الخطيرة على الشرق العربى والغرب العربى على السواء : ففى الشرق العربى نجح البرتغاليون فى قفل المنافذ البحرية فى وجه العرب ، فأخرجوا الشرق العربى بذلك من تيار التجارة العالمية ، وبدأ هذا العهد الطويل من العزلة الاقتصادية وما صحبها من عزلة سياسية وعزلة فكرية ، رانت على الشرق العربى منذ القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر .

على أن هدم نفوذ البرتغاليين فى البحار العربية والشرقية الذى تم على أيدى منافسيهم الهولنديين والانجليز والفرنسيين ، ثم قيام المنافسة بين هؤلاء أدى

إلى نوع من الجمع بين الطريق البحرى الطويل والطرق البرية التى تخترق الولايات العربية ، مما أعاد إلى تلك الطرق شيئا من أهميتها القديمة . وهذا الوضع هو الذى ساد فى القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر عندما دخلت العلاقات بين العرب والغرب فى طور جديد .

هذا إلى أن الدولة العثمانية نفسها قد سعت إلى ضبط العلاقات الأوربية العربية وتوجيهها فى أوضاع محددة — اتقاء الفتنة ، عندما رأت أوربا تتحرك وتحاول أن تمد يديها إلى الشرق الأدنى ، تلك المشروعات والمحاولات التى بذلها أفراد من الأوربيين المغامرين من جنسيات مختلفة لإحياء الطرق البحرية (العربية) ، ومن ذلك أن السلطان العثمانى رفض رفضا باتا أن يسمح للسفن الأوربية بأن تبحر فى البحر الأحمر إلى أبعد من ميناء جدة شمالا ، وحرم على السلطات الحاكمة فى مصر استقبال سفن أوربية بالسويس والإذن لركابها باختراق الأرض المصرية فى طريقهم إلى الاسكندرية ، وأظهر السلطان خشيته من أن تكون هذه المحاولات — تحت ستار التجارة — سبيلا إلى نفوذ الاستعمار الأوربى لهذه البلاد العربية الإسلامية ، وضرب السلطان المثل بما فعله الانجليز فى الهند (فرمان سنة ١٧٧٩) .

كما أن ضعف البحرية العثمانية منذ أواخر القرن السادس عشر كان مسئولا عن انهيار السيطرة العثمانية على اليمن وخروج الأتراك منه على يد أئمة صنعاء الزيديين فى سنة ١٦٣٥ ، وكذلك كان هذا الضعف مسئولا عن عجز العثمانيين عن بسط سلطانهم على الامارات العربية فى الخليج الفارسى ، وبالتالى عجز العثمانيون عن مد سيطرتهم إلى داخل الجزيرة العربية بعد أن أعوزتهم القواعد على البحر الأحمر والخليج الفارسى . ولم يبق للأتراك فى شبه الجزيرة العربية إلا الحجاز . وكان الحكم المباشر فيه لأشراف مكة . والحق أن اتصال الحجاز بمصر حتى القرن التاسع عشر كان أقوى من اتصاله بالدولة العثمانية نفسها .

وكذلك كان لضعف القوة البحرية العثمانية فى البحر الأبيض المتوسط منذ القرن السابع عشر نتائجه الخطيرة على مستقبل أقطار المغرب العربى ، فقد ضعفت أسباب الاتصال بينها وبين السلطنة العثمانية ، ووهن سلطان الدولة على ولاياتها المغربية . فغدا الطريق ممهداً لانفصال هـــذه الولايات عن الدولة على أيدى

عصبيات عسكرية بحرية فى كل منها ، انتزعت الحكم من نواب السلطنة كالدايات فى الجزائر والبايات من الأسرة الحسينية فى تونس والأسرة القرمانية فى طرابلس. على أن البحرية الاسبانية كانت هى الأخرى قد أصابها الوهن والانحلال منذ أواخر القرن السادس عشر ، مما هيأ للولايات العربية المغربية — ومنها مراكش تحت حكم الأشراف — أن تنجو بمستقبلها فى القرون الثلاثة المقبلة — من الضغط العثمانى والضغط الأسبانى على السواء .

وعلى هذا تحددت — منذ منتصف القرن السادس عشر — علاقات البلاد العربية فى الشرق وفى الغرب بالدولة العثمانية من ناحية وبأوربا من ناحية أخرى. فمن ناحية الدولة العثمانية انكمش ملكها العربى بعض الشىء : بخروج اليمن وانهيار السلطان العثمانى على إمارات الخليج الفارسى ومشيخاته وفى داخل شبه الجزيرة العربية ، وانهيار السلطان العثمانى على الولايات المغربية . ولم يبق للدولة من ملكها العربى سوى مصر والشام والعراق والحجاز ، يرسل إليها السلاطين نوابا عنهم لحكمها هم الباشوات ، وإلى جانبهم أصحاب العصبيات العنصرية أو الاقليمية كالأمراء المماليك فى مصر وأصحاب المقاطعات فى سورية ولبنان من أمراء ومقدمين وشيوخ ، والمماليك الباشوات فى العراق وأمراء الأكراد وزعماء العشائر البدوية .. الخ .

على أن ضعف (القبضة) العثمانية على الولايات العربية حتى القرن التاسع عشر فى مصر والشام والعراق والحجاز لم يفسح المجال الكافى لظهور الفكرة القومية فى هذه البلاد ، فإن ظهورها لم يكن متوقفا على تراخى القبضة الحاكمة بقدر ما كان متوقفا على عناصر أخرى . من ترك أمر الحرب للجند غير العربى واختفاء السلاح إلا من أيدى رؤساء العصبيات القبلية وهى بطبيعتها محدودة الأمد محدودة العمل . وعدم قيام زعامة قومية وتربية وطنية ووعى قوى ونضوج فكرى . الخ .. وهذا كله — بل بعض هذا كله — كان يعوز العرب حتى القرن التاسع عشر . وكان الشعور العام بالانتماء إلى عالم كبير — أكبر من الوطن العربى ذاته — هو العالم الإسلامى العثمانى من أهم العوامل التى عرقلت نمو القومية العربية حتى ذلك العصر .

حتى إذا كان القرن التاسع عشر انتقضت العلاقات العربية — العثمانية بفعل

عاملين : الأول ظهور « الفكرة » العربية أولا فى قطرين من العالم العربى ، فى الجزيرة العربية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ممثلة فى الدعوة إلى إحياء الإسلام فى بساطته (العربية) الأولى وتخليصه من شوائب البدع التى دخل أكثرها — على أيدى المسلمين فى غير العرب ، وتمثلت فى ازدياد نفوذ التصوف بما صحبه من انحلال منذ القرن السادس عشر . والقطر الآخر الذى ظهرت فيه الفكرة العربية هو مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . مدعمة بمقومين أساسيين : القوة العسكرية الوطنية وإحياء الثقافة العربية ، مع محاولة إنشاء ملك سياسى يقوم على سواعد العرب فى كلا القطرين .

والعامل الثانى : بدء الضغط الأوربى على بلدان الشرق العربى ممثلا فى حملة بونابرت على مصر والشام .

وقد أحدث هذان العاملان : ظهور الفكرة العربية والضغط الأوربى أثرهما فى تشكيل العلاقات العربية العثمانية على نحو جديد . فقد أدركت الدولة العثمانية أن أساليبها فى حكم ولاياتها منذ القرن السادس عشر لم تؤد إلا إلى تعريض هذه الولايات لخطر الاعتداء الأوربى أو إفساح المجال لتقوى العصبيات فيها مما هدد الدولة بأعظم الأخطار . فعزمت الدولة على اصطناع أساليب جديدة فى حكم ولاياتها ، تستهدف تقوية قبضتها على هذه الولايات ، على نحو يكفل لها الدفاع عنها فى وجه معتد أجنبى أو صاحب عصبية طموح . وعلى هذا النحو سارت الدولة العثمانية فى حكم ولاياتها العربية منذ منتصف القرن التاسع عشر ، بل لقد سعت الدولة إلى استرداد ما كانت قد فقدته من الولايات العربية . فعادت جيوشها تفتح اليمن (١٨٧٢) وتضع حامياتها على أجزاء من الخليج الفارسى وتطأ فى داخل الجزيرة العربية أرضا لم تطأها قط قدم جندى عثمانى من قبل .

وهكذا دخلت العلاقات العربية العثمانية فى طورها الأخير الذى انتهى بانهيار الامبراطورية العثمانية وانتهاء الحكم العثمانى للولايات العربية .

* * *

أما أوربا فقد رسمت هى الأخرى سياستها إزاء الشرق العربى فيما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر على أساس الأوضاع المحددة التى نجمت عن تحول

التجارة إلى طريق الرأس ، وعن بسط السيادة العثمانية على الولايات العربية وسياسة العثمانيين في ضبط العلاقات بين العرب وأوربا في أوضاع وقوالب محددة . واطمأنت أوربا — من جهتها — إلى هذه الأوضاع والقوالب ، ولم تجد ما يدفعها إلى نقضها . يفسر هذا حرص الحكومة الانجليزية على مقاومة المشروعات التي بذلها أفراد مختلفون في النصف الثاني من القرن الثامن عشر من إنجليز وغيرهم لإحياء الطريق البري ، طريق مصر والبحر الأحمر . وهكذا تضافرت السياسة العثمانية والسياسة الأوربية على استدامة تلك الأوضاع المحددة الاقتصادية والسياسية التي سادت العلاقات بين العرب وأوربا من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر . أي حتى ظهور العاملين اللذين أشرنا إليهما وهما الضغط الأوربي على الولايات العربية وقد بدأته حملة بونابرت على مصر والشام ، وظهور الفكرة العربية في الجزيرة العربية ومصر . فكان لهذين العاملين أثرهما في تشكيل العلاقات العربية الأوربية وتوجيهها وجهة جديدة قائمة على انتهاء عهد العزلة وتزايد الاهتمام الأوربي ببلدان الشرق العربي في شتى صوره ، ذلك (الاهتمام) الذي ظهر أثره في سلسلة التدخلات . وبسط النفوذ ثم الاعتداءات الأوربية المتوالية على العالم العربي في الشرق وفي الغرب منذ القرن التاسع عشر ، حتى وصل هذا الاهتمام إلى غايته في خلال الحرب العالمية الأولى وفي أعقابها ، ولا يزال يحمل طابعه (التحكمي أو العدواني) حتى اليوم .

* * *

ولقد كان لهذه الأوضاع المحددة التي صبت فيها العلاقات العربية الأوربية من القرن السادس عشر إلى التاسع عشر نتائجها الخطيرة على الكيان العربي . فقد تحول الاقتصاد العربي من اقتصاد نقدي نشط متحرك أهم عناصره التجارة والأخذ والعطاء إلى اقتصاد إقطاعي جامد أهم عناصره الزراعة وما تنتج الأرض ، بل أنها كانت زراعة محدودة للاستكفاء الذاتي فقط ، من الحبوب والأرز ، ولا تكاد تنتج ما يكفي للتصدير إلا بعض الحبوب (في مصر) والقطن (في سوريا) والنيلة . وهكذا أضحى الاقتصاد العربي اقتصادا محليا لا تكاد تقوم بينه وبين الاقتصاد الخارجي صلة إلا في أضيق الحدود . وهكذا لم يعد التاجر الأوربي يجد في هذه

البلاد ما يجذبه إليها ، منذ استطاع أن يصل مباشرة إلى منابع التجارة الشرقية متنكبا الطرق التجارية (العربية) وهو لا يجد في منتجات الولايات العربية ما يحتاج إليه أشد الحاجة، فإن أرضها تغل ما يكفي لسد حاجات أهلها ، وما فاض منها تحرم الدولة تصديره إلا إلى ولاياتها ، والقدرة الشرائية لدى الغالبية العظمى من الأهالي في الولايات العربية من الضعف بحيث لا تمكن من التوسع في استيراد المواد المصنوعة في البلاد الأوربية ، لهذا كله انحصرت العلاقات التجارية بين أوربا وبلاد الشرق العربي في نطاق ضيق ، وقل عدد التجار الأوربيين الذين كانوا يترددون على البلاد العربية أو يقيمون فيها .

هذا إلى أن ظروف الحياة في الولايات العربية في ذلك الوقت (بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر) لم يكن من شأنها أن تيسر المقام لهؤلاء الأجانب ، فإن السلطات الحاكمة في هذه الولايات كان أكثرها يجد في هذه الجاليات الأجنبية مصدرا لابتزاز المال ، على الرغم مما كان يتمتع به الأجانب من امتيازات خاصة منحهم إياها السلاطين[1] . وكثيرا ما تعدت هذه المغارم إلى قناصل الدول أنفسهم — وقد كانوا تجارا — فضربوا أو سيقوا إلى السجن أو هددوا بالموت . وتاريخ الأجانب في مصر العثمانية — وفي القرن الثامن عشر خاصة — يقدم لنا أمثلة كثيرة لما ذكرنا من سوء المعاملة التي كان الأجانب يلقونها من السلطات الحاكمة ، حتى لقد عرفت مصر في الأوساط الأجنبية في ذلك الوقت بأنها بلد المغارم !

---

(١) ذكر الرحالة فولني أن الأتراك كانوا أكثر مراعاة لجانب التجار الأجانب منهم التجار الوطنيين ، فقد كان الأجانب لا يدفعون إلا ٣ ٪ رسما على متاجرهم بينما كان الأهالي يدفعون ١٠ ٪ أو ٧ ٪ على الأقل إذا تساهلت السلطات معهم . والتجار الأفرنج إذا دفعوا الرسم الجمركي عن بضاعة معنية في أحد الجمارك لا يدفعونه مرة أخرى في جمرك آخر ، بينما كان الأهالي لا يعفون من ذلك ، وكانت المنازعات التجارية ترفع أمام القناصل الأوربيين . ويعلق فولني على ذلك أنه ليس عجبا إذن أن يتزل المسلمون عن التجارة في بلادهم لمنافسيهم من التجار الفرنج .

ولعل الذكريات (الصليبية)(١) التى ظل الناس يتناقلونها جيلا بعد جيل أثرها فى نظرة الشك والريبة والحذر التى كان ينظر بها إلى الأجانب ، وفى الوضع الذى حاول الناس أن يضعوهم فيه على هامش المجتمع العربى الإسلامى الذى يقيمون — ولا نقول يعيشون — فيه . فنشاطهم ينبغى أن يظل محصورا فى أضيق نطاق ممكن ، فلا تباح لهم حرية الانتقال والاتصال اتقاء للفتنة ، وبيوتهم ومحلاتهم ومعابدهم ينبغى أن تجمع فى حى خاص أو فندق أو خان ، حتى تسهل مراقبتها . ويحتوى الخان على مخازن التجارة فى الدور الأرضى وفوقها مساكنهم ، ولا يسمح لتاجر أجنبى أن يسكن خارج الخان ، بل إن التاجر الذى يزمع السفر إلى الشرق للمتاجرة فيه عليه أن يتأكد قبل أن يبرح بلده من وجود مكان خال له بالخان فى البلد الذى ينوى أن يذهب إليه ، فإذا لم يجد له مكانا خاليا تعذر عليه الحصول على الرخصة اللازمة للسفر .

وكان التجار يقفلون الخان على أنفسهم إذا قامت فتنة بالمدينة أو فشا فيها الوباء . كما يقفل عليهم الباب الحديدى الضخم للخان فى كل مساء ، ويسلم مفتاحه إلى القنصل حتى يرده فى صبيحة اليوم التالى ، وكذلك يقفل الخان على من به وقت صلاة الجمعة حتى ينصرف المسلمون إليها آمنين على بيوتهم ومتاجرهم وأعراضهم . والأجنبى إذا خرج من الحى الذى يسكنه يجمل به أن يرتدى الزى الشرقى وأن يتكلف الحشمة فى سلوكه حتى لا يثير عليه غضب العامة . . هذه وغيرها فنون من القيود والمضايقات لم يكن من شأنها أن تشجع الأجانب على إطالة مقامهم فى هذه البلاد أو المغامرة بأموالهم فيها(٢) .

---

(١) كانت إغارات قراصنة الطة من فرسان القديس يوحنا لاتكاد تنقطع عن السفن والموانى العربية ، وكان التجار الأجانب المقيمون فى هذه الموانى يعدون مسئولين عن هذه الاعتداءات ، فتصادر بضائعهم وتؤخذ منهم الرهائن .

(٢) ومن ذلك أن الأجانب — عدا القناصل — كان لا يسمح لهم بركوب الخيل ، بل كان عليهم أن ينزلوا عن حميرهم إذا مروا بأحد الضباط الأتراك أو المماليك أو أحد أغوات السراى الذى يأتون إلى مصر لقضاء آخر أيامهم بها . وكان لا يسمح للسفن الأجنبية بالدخول إلا فى الميناء الشرقى من الاسكندرية ، وكان الأجانب يشكون من كثرة صخوره وتعرض سفنهم فيه للخطر ، أما الميناء الغربى — وهو أكثر أمناً — فكان مخصصاً لسفن المسلمين .

والحكومات الأوربية نفسها أضافت إلى هذه القيود قيوداً أخرى فرضتها على التجار الذين يودون الذهاب إلى البلاد الشرقية للتجارة فيها . فالفكرة السائدة لدى هذه الحكومات — وخاصة فى انجلترا وفرنسا — أن الإقامة فى هذه البلاد والمتاجرة مع أهلها ضرب من المغامرة ينبغى أن تسعى الدولة لتنظيمه حتى تجنب مواطنيها ما تستطيع تجنيبهم إياه من عواقبه . ولهذا أنشأت انجلترا الشركات التجارية لتنظيم النشاط التجارى ، بل لتحتكره . ومن ذلك أن أى تاجر انجليزى لا يستطيع أن يأخذ بنصيب فى التجارة الهندية إلا إذا كان عضواً فى شركة الهند الشرقية خاضعا لقوانينها ونظمها ، ولا يستطيع تاجر أن يأخذ بنصيب فى تجارة الشرق الأدنى إلا إذا كان منتميا للشركة التركية أو شركة الليفانت خاضعا لقوانينها ونظمها . ولا يستطيع تاجر فرنسى أن يتاجر فى بلاد الشرق الأدنى إلا إذا انتمى لغرفة التجارة بمرسيليا ونال منها رخصة تمكنه من مزاولة نشاطه والتمتع بحماية دولته . وخضع لما تفرضه من نظم وتضعه من قيود .

وكثيرا ما تشابهت النظم التى تفرضها هذه الهيئات (الاحتكارية) سواء أكانت انجليزية أو فرنسية . ومن ذلك أن التجار لا يتركون فى أى مكان يشاءون ، وإنما ينظمون على شكل (جاليات) تقيم فى (أساكل) معينة . يحسن أن تكون على الساحل أو قريبة منه حتى تشعر بقدر من الأمان . والشركة تنشىء الأساكل و تلغيها أو تنقلها من مكان لآخر تبعا لحالة التجارة والأمن فى كل أسكلة . فإذا قررت الشركة مثلا أن ينتقل تجارها من القاهرة إلى الاسكندرية أو من طرابلس إلى الاسكندرونة وجب عليهم أن يطيعوها ، وإلا فقدوا حماية دولتهم وأصبحوا عرضة لأخطار قد لا يستطيعون لها دفعا .

والتاجر الذى يرخص له بالسفر إلى البلاد الشرقية للمتاجرة فيها لا ينبغى أن تنقص سنه عن حد معينة (٢٥ سنة) حتى يكون كفؤا للمغامرة التى هو مقدم عليها . ومقامه فى هذه البلاد لا ينبغى أن يتجاوز زمنا معينا ، عشر سنوات أو خمس عشرة سنة يعود بعدها إلى بلاده ، وقد تجدد له الرخصة فترة أخرى . وهو لا يستطيع أن يصحب زوجته معه حتى لا تكون عبئا عليه أو تجلب له المتاعب . وينبغى على كل تاجر أن يدفع لقنصله رسما معينا على كل بضاعة يصدرها أو يستوردها .

ويرأس الجالية ويدير شئونها قنصل أو نائب قنصل ، وهو يتبع الشركة

الشرقية إن كان إنجليزيا ، أو غرفة التجارة المرسيلية إن كان فرنسيا . فشركة الليفانت هى التى تعين القناصل الانجليز فى مناصبهم وهى التى تعزلهم ، وهى التى تدفع لهم رواتبهم ، فالقنصل يمثل الشركة ومصالحها أكثر مما يمثل حكومته ، لأنه فى الواقع يمثل مصالح تجارية أكثر مما يرعى مصالح سياسية . بل لقد بلغ من ذلك أن سفير انجلترا لدى السلطان كانت تعينه — أو فى الأقل ترشحه — شركة الليفانت وتدفع له راتبه أو الجانب الأكبر منه . والقناصل الانجليز فى الشرق الأدنى يتبعونه ويتلقون أوامره .

وكذلك كان القناصل الفرنسيون تابعين لغرفة التجارة بمرسيليا ، تدفع لهم الغرفة رواتبهم ويرفعون إليها تقاريرهم ، وهم مسئولون أمام السفير الفرنسى بالقسطنطينية ، وكانوا يختارون من بين التجار وكان يسمح لهم بالاستمرار فى مزاولة التجارة ، وتقرر لهم (عوائد) على التجار من مواطنيهم أو من التجار الآخرين الذين لا قناصل لهم فيضعون أنفسهم فى حماية أحد القناصل الأوربيين، وفى بعض الأحيان كان ملك فرنسا يمنح أسرة معينة إحدى القنصليات الفرنسية فى المشرق ملكا تاما لها يتوارثه أفرادها . فكانوا يؤلفون لاستغلالها شركة أو جماعة مساهمة . حتى كانت إصلاحات الوزير كولبير فأصبح القناصل الفرنسيون موظفين ملكيين ، يعينهم الملك بعد أخذ رأى غرفة التجارة بمرسيليا ومدير إقليم بروفنس ، وحرم على القناصل الاشتغال بالتجارة ، كما حرم عليهم جباية أى رسوم من التجار وقررت لهم مرتبات ثابتة .

وكثيراً ما تشاحنت الجاليات الأجنبية فى الأسكلة الواحدة وكاد بعضها لبعض ، واستعدى بعضها السلطات الحاكمة على البعض الآخر . وكثيراً ما تنازع القناصل فيما بينهم . وكان أكثر ما يتنازعون عليه بسط (حمايتهم) على التجار الأجانب الذين لا قناصل لهم ، لأنهم يتقاضون منهم رسوما معينة ، أو على نفر من رعايا السلطان — وخاصة المسيحيين — الذين كانوا يلجأون للقنصليات الأجنبية يطلبون الدخول فى حمايتها تخلصا من بعض الضرائب أو لمجرد الرغبة فى الاستعلاء على مواطنيهم[1] .

---

(١) كان لكل قنصل فرنسى فى أساكل الشرق خمسون (براءة) يمنحها أو يبيعها لمن يطلبها من اهل البلاد وخاصة من الطوائف المسيحية ، والبراءة ثمن محدد .

والقنصل يقيم فى الأسكلة الكبيرة ، ويكون له نواب فى الأساكل الصغرى ، فالقنصل الفرنسى يقيم فى القاهرة ويكون له نواب فى الاسكندرية ودمياط ورشيد والسويس . فإذا انتقل القنصل إلى الاسكندرية أرسل نائبا عنه فى القاهرة. والقنصل يقيم فى حلب ويكون له نواب فى الاسكندرونة وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا والرملة وغيرها . وقد يرتفع نائب القنصل إلى قنصل إذا ارتفعت أهمية الأسكلة التى يقيم فيها ، كما حدث لصيدا على عهد فخر الدين المعنى أو لعكا على عهد ظاهر العمر أو لبيروت على عهد الأمراء الشهابيين . وقد يكون نواب القناصل من أبناء البلاد ، يختارون من الأسر البارزة التى عرفت بالولاء للدولة التى ينتمى إليها القنصل . فبعض الأسر المارونية الكبيرة فى لبنان — كالأسرة الخازنية — قدمت عددا من نواب القناصل لفرنسا ،وكذلك بعض الأسر المسيحية فى صعيد مصر إلى عهد ليس ببعيد (بصفةقناصل فخريين).

وإلى جانب القنصل ترجمان ، وهو يده اليمنى فى الاتصال بالسلطات المحلية الحاكمة ، فهو ليس مجرد مترجم ، وإنما هو شخصية ينظر إليها بعين التقدير والاحترام ، ولا يستغنى عن خدماته ، لا من جانب القناصل ، ولا من جانب السلطات المحلية . وهم فى الغالب من أبناء الأسر المسيحية التى اتصل أفرادها بالأجانب وتعلموا اللغات الأوربية ووقفوا على أساليب السلوك الأوربى وحذقوا فنون الاتصالات والمداخلات فى بلاد الشرق[1] .

وتعد الجالية هيئة واحـــدة متضامنة ، فأية إساءة تحل بأحد أفرادها تعد إساءة للجالية كلها ، وكذلك إذا ارتكب أحـــد أعضاء الجالية جرما عدت الجالية مسئولة عما ارتكب . وكانت الجالية والقنصل وتابعوهم يحرصون على أن تكون علاقتهم بالسلطات الحاكمة طيبة ، فجرت العادة بأن يقدموا للباشا ورجاله هدايا فى الأعياد والمناسبات الهامة ، حتى جرت هذه العادة مجرى التقليد ، ومنها هدايا من الشراب والمربى للباشوات والبكوات والأغوات وغيرهم من أصحاب السلطان فى رمضان والعيدين ، بل لقد كانوا يطلبون

(١) فى سنة ١٧٢١ أنشىء بكوليج لوى الكبير فى باريس قسم لتدريس اللغات الشرقية لبعض الشبان ، ثم كانوا يرسلون إلى القسطنطينية حيث يتمون تعليمهم وتدريبهم على مدرس خاص فى أحد الأديرة ثم يعينون تراجمة فى القنصليات الفرنسية بالشرق ، وقد عنى نفر منهم بالاستشراق ، فعينوا أساتذة للعربية والتركية فى الكوليج دى فرانس وبمدرسة اللغات الشرقية الحية أو سكرتيرين مترجمين للملك .

خمورا وهدايا أخرى متنوعة مقابل أداء خدمة معينة ، وشكا تجار صيدا أن الباشا كان يلزمهم بأن يقدموا إليه هدية ملائمة فى كل مرة يحل فيها ركابه بصيدا بعد أن يغيب عنها أياما معدودات ، بل إنه فى كل يوم كان لايتحرج عن أن يرسل إليهم فى طلب خمر أو ورق أو شمع .

وفى سنة ١٧٤٤ — رد نقيب أشراف حلب عشر قطع من الجوخ لأنه وجدها لاتكافىء الخدمة التى أداها للجالية الفرنسية . بل لقد كانت الجاليات الأجنبية أحيانا تضطر الى دفع مبالغ من المال اتقاء لفتنة تصيبها . وكان ظهور القراصنة فى المياه السورية — كما كان يحدث كثيرا فى صيدا — كفيلا بأن يثير السلطات الحاكمة فى المدينة على من بها من الأجانب فتفرض عليهم المغارم (١).

(١) وكان يحدث أحياناً ماهو أشد من المغارم : ففى سنة ١٧٣٦ هاجم ميناء الإسكندرونة قرصان مالطى ونهب سفينة تركية محملة قمحاً وأخذ بعض ركابها أسرى ، فرد الأهالى على ذلك بمهاجمة دير لليسوعيين وقبضوا على رئيسه وأهانوا نائب القنصل حتى ردت المنهوبات وأطلق سراح الأسرى المسلمين . ولهذا كانت سفن الأسطول الفرنسى فى البحر المتوسط تساهم فى مطاردة سفن القراصنة المالطيين .

علاقات سورية التجارية بأوربا

بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر

كان التجار الإيطاليون من البنادقة والجنويين والفلورنسين أسبق الأجانب إلى المتاجرة فى بلاد الشرق الأدنى والإقامة فيها ، وكان التجار الآخرون من انجليز وفرنسيين وغيرهم يمارسون تجارتهم عن طريق هؤلاء التجار الايطاليين. وقد انتعشت التجارة بين صيدا وليفورنو — ميناء تسكانا — انتعاشا كبيرا فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر فى عهد فخر الدين المعنى الثانى ، نتيجة لصلة الود التى قامت بين فخر الدين وأدواق تسكانا .

ثم أفاد الفرنسيون من معاهدة (الامتيازات) التى عقدوها مع السلطان سليمان القانونى (سنة ١٥٣٥) ومن ذلك الوقت بدأوا يتاجرون فى بلاد الشرق الأدنى عن طريق غرفة التجارة بمرسيليا التى كادت تتركز فيها تجارة الليفانت والمغرب . وكانت مرسيليا هى الميناء الذى يجرى فيه الحجر الصحى للسفن الآتية من تلك الأنحاء . وفى أواخر القرن السادس عشر بدأ الانجليز يدخلون ميدان التجارة الشرقية : فى سنة ١٥٨١ تأسست شركة الليفانت أو الشركة التركية، ومنح أعضاؤها وحدهم حق احتكار التجارة فى الامبراطورية العثمانية، وعينت الحكومة الانجليزية أول سفير لها فى بلاط السلطان رغم معارضة السفراء الآخرين وكيدهم له ، وعينت الشركة قنصلا بالقاهرة (١٥٨٣) وتتبعه الاسكندرية وغيرها من الأساكل المصرية ، كما عنيت قنصلا بطرابلس وتتبعه حلب ودمشق وعمان وبيت المقدس وغيرها من المدن السورية ، وبعد ذلك حلت حلب محل طرابلس كأهم مركز للتجارة السورية .

وعلى هذا النحو بدأت التجارة الانجليزية فى الشرق العربى ، وكانت فى ذلك الوقت تعد ضربا من المغامرة ، إلى حد أن أسقف لندن دعا إلى وقف هذه التجارة خشية تعريض الانجليز للأسر والرق على أيدى المسلمين ! وعلى الرغم من تلك الصعوبات فقد ازدهرت الجالية الانجليزية بحلب ، حتى أصبح بها

١٤ تاجرا إنجليزيا عدا القنصل ، وقررت الشركة أن تنشىء مخـــزنا لها فى الاسكندرونة ، ميناء حلب ومنفذها على الساحل .

وكانت حلب سوقا رائجة للتجارة : إذ تنتهى إليها القوافل الآتية من إيران والخليج الفارسى عبر العراق والجزيرة حاملة منتجات الشرق من التوابل والعقاقير والعطور والسجاد والأقمشة الهندية والفارسية الدقيقة . وقد ذاعت لحرير فارس شهرة كبيرة فى الأوساط الأوروبية [1] ، وكانت حلب تعد مركزا هاما لتجارته . وقدازدهرت تجارة حلب على الخصوص بعد سنة ١٥٨٠ . وهى السنة التى سقطت فيها البرتغال تحت حكم الاسبان . وانهار ملك البرتغاليين فى الشرق ، وقلت مقادير المتاجر الشرقية التى كانت تحملها السفن البرتغالية عن طريق الرأس، مما ساعد على إنعاش الطريق البرى، طريق الفرات وحلب . وقد عرف أهل حلب بلين الجانب وطيب العشرة والألفة مع الغريب . فكان التجار الأوربيون يتمتعون فيها برعاية لا يتمتعون بها فى أى مكان آخر من الامبراطورية العثمانية . وقد تنافسوا على تجارة حلب . وكان السبق أولا للبنادقة ، ثم للفرنسيين ، ثم انتعشت التجارة الانجليزية فى حلب التى كانت تقوم بها شركة الليفانت ، حتى بزت — فى السنوات الأولى من القرن السابع عشر — تجارة البنادقة والفرنسيين ، تغلب الفرنسيون أولا على البنادقة ، الذين انهارت تجارتهم ، بل انهارت إمبراطوريتهم فى البحر المتوسط أمام الزحف العثمانى ، ثم تغلب الانجليز على البنادقة والفرنسيين جميعا ، أفاد الانجليز من حالة الحرب التى قامت بين الأتراك والبنادقة ، والرسوم الباهظة التى فرضت على التجار البنادقة ، بل راح الانجليز يقلدون الأقمشة البندقية ويبيعونها فى الأسواق الشرقية بأثمان أرخص ، ولم يكد ينتصف القرن السابع عشر حتى كانت تجارة البنادقة فى مصر قد اختفت ، وكانوا يتحدثون عن عزمهم على إغلاق قنصليتهم بحلب (سنة ١٦٨٠) .

أما فرنسا فكانت حصما عنيدا لانجلترا فى أسواق الشرق الأدنى . فقد كانت فرنسا أسبق الدول الأوربية إلى توطيد علاقاتها السياسية والتجارية مع الدولة

---

(١) بفضل حرير فارس الذى كان يجلب أكثره عن طريق حلب انتعشت صناعة الأقمشة الحريرية فى انجلترا فى القرن السابع عشر .

العثمانية وإلى الحصول على الامتيازات فى بلادها (سنة ١٥٣٥) . وفى سنة ١٥٦٠ أسس الفرنسيون قنصليتهم بحلب ، قبل أن يصل الانجليز والهولنديون إلى أسواق الليفانت. وسرعان ما ازدهرت التجارة الفرنسية بحلب خاصة ، ولكنها مالبثت أن واجهت منافسة قوية من التجار الانجليز والهولنديين ، حتى نقص مجموع التجارة الفرنسية فى الشرق الأدنى من ١٤ مليون جنيه فى سنة ١٦٣٥ إلى ٣ مليون جنيه بعد خمسة وعشرين عاما ، ونقص عدد السفن التى كانت فرنسا ترسلها إلى موانى الشرق الأدنى من ألف سفينة إلى ٣٠ فقط .

أما الهولنديون فقد بدأوا يصلون إلى الشرق الأدنى منذ أواخر القرن السادس عشر بعد أن فازوا بحريتهم واستقلالهم من حكم الأسبان ، ولكن الهولنديين انضووا أولا تحت العلم البريطانى ريثما ينشئون لهم سفارة فى القسطنطينية وقنصليات فى الأساكل الشرقية ، وكما اتفق الفرنسيون والبنادقة ضد الانجليز أول ما حلوا ، اتفق الفرنسيون والبنادقة والانجليز ضد الهولنديين ، ولكن هؤلاء أثبتوا أنهم خصم عنيد ، فقد كان للهولنديين مهارة فى شئون المال والتجارة وكانوا يخضعون لنظام دقيق تحت إشراف شركة مقرها أمستردام ، وكانت البضائع التى يجلبونها من الأقمشة أو من منتجات شركة الهند الشرقية ومصنوعات ألمانيا المعدنية تلقى سوقا رائجة فى الليفانت . ولكن مركز التجارة الهولندية كان فى أزمير ، أما فى حلب فلم تكن تجارتهم ذات شأن كبير ، حتى لقد مضت مدة طويلة وتجارهم يتبعون القنصل البريطانى .

ولكن تجارة حلب ما لبثت أن تهددت نتيجة لذلك الصراع الطويل بين الترك والإيرانيين على عهد الشاه عباس الكبير ، فقد كان الشاه حريصاً على أن يحول عن ولايات الدولة العثمانية مجرى التجارة الفارسية وخاصة تجارة الحرير ، فراح يبحث لها عن طرق جديدة ، عبر الأراضى الروسية ، أو طريق الخليج الفارسى ، ولهذا الغرض اتصل الشاه بتجار من الانجليز وعمال من شركة الهند الشرقية البريطانية[1] . ولكن شركة الليفانت قاومت هذا المشروع حتى فازت بإحباطه (سنة ١٦١١) .

وكانت طرابلس تعد ميناء حلب ، وكان التجار البنادقة أول من نزلوها من

(١) توطدت الصداقة بين الشاة عباس الكبير وشركة الهند الشرقية ، حتى لقد ساعد أسطول الشركة الإيرانيين فى انتزاع جزيرة هرمز من البرتغاليين فى سنة ١٦٨٢ .

التجار الأجانب ، انتقل إليها قنصل البندقية من دمشق سنة ١٥٤٥ ، ثم انتقل إلى حلب بعد أعوام ثلاثة ، ولكن التجار البنادقة احتفظوا بمخازنهم فى طرابلس على اعتبار أنها ميناء حلب .

وقد كانت طرابلس مدينة زاهرة كبيرة ، حتى لقد قدر نائب القنصل الفرنسى بها عدد سكانها بثمانين ألفا ، ولقد كانت مقر باشوية ، وعصبية قوية هى آل سيفا ، وقد قامت منافسة بين طرابلس والاسكندرونة على أيهما يكون ميناء الحلب ، وكانت طرابلس تمتاز على الاسكندرونة بعمارها وطيب هوائها ، ولكن الاسكندرونة كانت أقرب إلى حلب ، إذ كانت قوافل الابل تقطع المسافة بينهما فى ثلاثة أيام بينما تستغرق المسافة بين طرابلس وحلب ثمانية أيام . وكثيراً ما تعرضت قوافل التجارة لاعتداءات العشائر الكردية الضاربة فى تلك الأنحاء[1] ، وكان التجار يضطرون إلى شراء سلامتهم بالمال ، هـــذا إلى اضطراب أحوال طرابلس تحت حكم آل سيفا , مما أدى إلى تحول التجار الأفرنج من طرابلس إلى الاسكندرونة ، ولكن السلطات التركية ادعت أن الاسكندرونة ليست ميناء صالحا ، بل هى ميناء مكشوف ، فهى أكثر تعرضاً لاعتداءات القراصنة ، فقررت السلطات إقفال ميناء الاسكندرونة ونقل التجارة إلى طرابلس (١٦٠٩) وأمر العمال القنصليون لفرنسا وانجلترا بالنزوح إليها . ويبدو أن هذا الانتقال جاء نتيجة لحرص باشوات طرابلس من آل سيفا على الرسوم الجمركية التى كانوا يجبونها من التجار الأجانب . ولكن السفير البريطانى احتج لدى الباب العالى ، وهدد بوقف التجارة الانجليزية ، فأذعنت السلطات التركية ، وعاد التجار إلى الاسكندرونة واستقر مركزها كميناء لحلب فى سنة ١٦١٢ .

وإذا كانت طرابلس قد (فشلت) فى أن تستمر ميناء لحلب فإنها ما لبثت — منذ ١٦٨٠ — ان غدت (أسكلة) مستقلة تستمد أهميتها من بعض صناعاتها المحلية ومنتجات لبنان الشمالى — وخاصة الحرير — فأقبلت عليها منذ أواخر القرن السابع عشر جالية من التجار الفرنسيين ، الذين ما لبثوا أن احتكروا تجارتها الخارجية فى الوقت الذى زارها فيه الرحالة فولنى حوالى سنة ١٧٨٤

---

(١) كان الحمام الزاجل يستخدم لنقل الرسائل بين حلب والإسكندرونة وبغداد، ولكنه بطل فى حوالى منتصف القرن الثامن عشر ، فقد اتهم الأكراد بأنهم كانوا يمسكون الحمام ويذبحونه

وكان لهم بها قنصل وثلاث وكالات . وكانت تدخل ميناءها فى كل عام خمس سفن أو ست لتنقل من طرابلس ما تبتاعه من سجاد وأقمشة وقطن وتيل .

وميناء آخر أصاب شيئاً من الانتعاش فى القرن الثامن عشر ، هو اللاذقية، وكانت بعض السفن الفرنسية تتردد عليها لشراء الطباق الذى اشتهرت به منطقة اللاذقية، وفى سنة ١٧٧٩ أقام بها نائب قنصل . وتنبأ كثيرون بأن اللاذقية ستحل محل الاسكندرونة كميناء لحلب، ولكن التجربة لم تؤيد هذا الرأى ، وإن بقيت اللاذقية (أسكلة) من الأساكل السورية

ولكن شركة الهند الشرقية ساءها تحول جانب كبير من متاجر الشرق إلى الطرق البرية الداخلية فتقع بذلك فى دائرة الشركة التركية ، بينما كانت شركة الهند تعمل على تشجيع نقـــل المتاجر عن طريق الرأس ، لذلك سعت شركة الهند الشرقية إلى التغلب على منافسة الشركة الشرقية فكانت ترسل المنتجات الشرقية إلى أوربا عن طريق رأس الرجاء الصالح بنحو نصف أثمانها التى تشترى بها من أساكل الشرق الأدنى . لهذا انصرف كثير من التجار الأجانب عن جلب المنتجات الشرقية من الأسواق العربية وفضـــلوا أن يبتاعوها من عملاء شركة الهند الشرقية . بل لقد انعكس مجرى هذه التجارة فى البحر المتوسط . فبعد أن كانت تسير من شرقه إلى غربه ، أى من الموانى السورية والمصرية إلى أوربا . أصبحت تسير من غربه إلى شرقه ، أى من أوربا (بعد جلبها من الهند والشرق) إلى الموانى الشرقية حيث تباع بأقل مما كانت تجلب به من الهند والشرق عبر طرق القوافل أو عن طريق البحر الأحمر .

وكلما تقدم القرن السابع عشر زادت منافسة شركة الهند الشرقية وطريق الرأس للشركة الشرقية والطرق البرية الداخلية ، وأخذت مقادير كبيرة من حرير فارس يتحول عن حلب وتتركز تجارته فى إصفهان ، حتى إنه فى الفترة بين سنتى ١٧٥٠ و ١٧٦٥ لم تظهر أية كمية من الحرير فى أسواق حلب ، ووطدت شركة الهنـــد الشرقية أقدامها فى البصرة التى سرعان ما حلت محل حلب كمركز أساسى لمبادلة الأقمشة الانجليزية بحرير فارس .

وأخذت واردات القطن من جزائر الهند الغربية تتدفق على إنجلترا منافسة قطن الليفانت الذى كان يصدر إليها من الإسكندرونه خاصة . وهكذا مضت

تجارة حلب فى طريق الانهيار ، فهبط عدد التجار الإنجليز بهـا (فى مستهل القرن الثامن عشر) من ٤ إلى ١٥ تاجرا . وفى العهد الذى زارها فيه فولنى (١٧٨٣ — ٨٥) لم يكن بها سوى بيتين تجاريين ، ولم ير الانجليز داعيا للابقاء على وكالتهم بالاسكندرونة ، فألغوها سنة ١٧٨٣ ، وبعد ثمان سنوات ألغوا قنصليتهم بحلب ، وحملوا سجلاتها إلى القسطنطينية . ولكن بقى بها بعض التجار الانجليز يمارسون فيها شيئا من النشاط على مسئوليتهم الخاصة فى تجارة الحرير والموسلين والفستق والبضائع القطنية التى تحملها القوافل من البصرة . وقد رسم القنصل الفرنسى فى سنة ١٧٥٨ صورة مظلمة لحلب بعد انهيار مكانتها التجارية ، قال إن شوارع المدينـة غاصة بالفقراء والمعوزين ويموت منهم فى كل يوم بتأثير الجوع والبرد عدد يتراوح بين ١٢ و ٢٠ شخصا ، فضلا عن إرهاق السلطات الحاكمة للأهالى ، حتى إن كثيرين من كبار التجار هجروها إلى مصر أو إلى غيرها من بلاد الشرق الأدنى ، ويخشى أن يفشو الوباء فيها ، وهو النتيجة الطبيعية للقحط ، فتزداد الحالة سوءا . وهذه لاشك صورة تختلف كثيرا عن الصورة التى عهدناها لحلب بخاناتها وأسواقها العامرة فى القرن السابع عشر ، حتى لقد كانت تعد أكبر مركز تجارى ليس فى سورية فقط . وإنما فى الشرق الأدنى كله ، إلى أن تحولت عنهـا أكثر التجارة الشرقية (العابرة) فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر ، وتفوقت عليها أساكل أزمير والاسكندرية وصيدا .

وقد وضع بعض الفرنسيين المهتمين بالتجارة الشرقية مشروعا (فى سنة ١٧٦٨)[1] يهدف إلى التغلب على منافسة شركة الهنـد الشرقية الانجليزية التى كانت تستخدم طريق الرأس ، وذلك بالعمل على إحياء الطريق القديم ، طريق الخليج الفارسى والفرات وحلب . فيشجع التجار على جلب متاجر الهند إلى البصرة ومن ثم تحملها القوافل إلى حلب ثم إلى البحر الأبيض المتوسط فأوربا ، وتصبح حلب — إذا تحقق المشروع — مركزا للتوسع الفرنسى التجارى فى الشرق الأوسط . ولكن غرفة التجارة بمرسيليا — وهى التى قدم إليها هذا المشروع — لم يهتم به كثيرا ، بل ردت على أصحابه مؤكدة ما يعترضه من صعوبات .

* * *

---

(١) يلاحظ أنه فى نفس الوقت وضعت مشروعات أخرى لاحياء الطريق البرى الآخر ، طريق مصر والبحر الأحمر .

ولقد كانت سورية الجنوبية وفلسطين مصدرا لتصدير القطن قبل أن تتغير صناعة غزل القطن ونسجه فى انجلترة بفضل الاختراعات الجديدة التى تطلبت أنواعا من القطن أجود من القطن السورى، وأخذت فى استيرادها من الولايات المتحدة الأمريكية والهند، ثم أضيف إليها فيما بعدالقطن المصرى الجديد . وبفضل تصدير غزل القطن والأقمشة القطنية نمت صيدا وغدت أسكلة رئيسية يقيم بها القناصل الأجانب ، وتتبعها أساكل فرعية فى عكا والرملة وحيفا ويافا ثم بيروت . وكان يقيم بكل منها نائب قنصل .

وقد بدأت أهمية صيدا منذ نزلها فخر الدين المعنى الثانى واتخذها عاصمة له سنة ١٥٩٣ واهتم بتعميرها وترويج تجارتها ، حتى غدت أكبر ميناء تجارى فى شرقى البحر المتوسط ، وكانت تعد المنفذ البحرى لدمشق[١] والأقليم الداخلى . وكان للتجار الفلورنسيين السبق على غيرهم من الشعوب الأوربية ، فكانوا يصدوون منها الحرير والقطن والرماد — وهو نوع خاص يصلح لصنع الأوانى الزجاجية — والقمح[٢] . ثم ورث الفرنسيون مكانة التجار الفلورنسيين فى القرن الثامن عشر فى صيدا وغيرها من الأساكل السورية الجنوبية ، ومنها حيفا التى كانت مقر كثير من البيوت التجارية الفرنسية ، إذ كان ميناؤها أكثر أمانا من يافا . التى تكاد تنحصر أهميتها فى أنها كانت بمثابة ميناء القدس الشريف . ينزل بها الحجاج المسيحيون ولا يقيمون بها إلا ريثما تتهيأ لهم وسائل السفر إلى القدس ، وكذلك كان بالرملة بعض بيوت تجارية فرنسية . أما عكا فترجع أهميتها إلى عهد الشيخ ظاهر العمر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . وقد حددت الحكومة الفرنسية عدد البيوت التجارية الفرنسية التى تأذن بإقامتها فى تلك الأساكل : فكان نصيب صيدا ١٨ — ٢٠ بيتا وعكا ١٧ أو ١٨ والرملة ٥ أو ٦ بيوت، أما يافا فلم تكن سوى محلة حقيرة بها تاجران أو ثلاثة تجار .

---

(١) كان الفرنجة يتحرجون عن الإقامة فى دمشق أو التردد عليها ، فقد كانت لها صفة دينية بحكم كونها مركز تجمع الحجاج (الأسيويين) إلى بيت الله الحرام . وقد حكى فولنى أن أحداً من الأجانب لايستطيع أن يسير فيها مرتديا الزى الأوربى . ولكن كان بدمشق بعض الرهبان من الكابوشيين تحت رعاية ملك إسبانيا .

(٢) تحدى فخر الدين المعنى قرار الباب العالى بمنع تصدير القمح إلى تسكانا ، وملأ أكثر من مائة سفينة تسكانية قمحاً .

أما بيروت فتبدأ أهميتها (الحديثة) منذ الوقت الذى سكنها فيه الأمراء الشهابيون فى القرن الثامن عشر . فقد أدى نشـــاط حركة التجارة فى سورية الجنوبية والوسطى إلى البحث عن مراكز تجارية تكون قريبة من صيدا وطرابلس فاتجهت الأنظار إلى بيروت ، وكانت حركتها التجارية قد ضعفت كثيراً عن ذى قبل ، ولكن مظالم باشا صيدا جعل أسرات كثيرة ترحل إلى بيروت — وهى لم تكن مركز باشوية — وتحمل معها تجاراتها فى غزل القطن والحرير . وقد بدأ بعض التجار الفرنسيين يقيمون بها منذ حوال منتصف القرن الثامن عشر ، وأخذت بيروت تستعيد ازدهارها . وقد نوه رحالة ذلك العصر بما كان يلقاه المسلمون والمسيحيون فيها من مساواة وعدالة فى ظل حكم الأمراء الشهابيين ، الذين وجدوا أن من صالحهم تشجيع التجار على الإقامة فى بيروت . وكان السوق العام للحرير يقام فى بيروت فى أغسطس من كل عام بعد أن يتم جنى محصوله فى لبنان ، وكان الأمير الشهابى يعقد ديوانا ، حيث يفتتح السوق ويحدد الثمن الذى يباع به الحرير . ويأتى تجار صيدا فيبتاعون نصيبهم منه ، وقد يبلغ ٦٠٠ أو ٧٠٠ بالة يصدرونها إلى مرسيليا ، ويحمل ما يبقى من الحرير إلى مصر ودمشق . وكانت السفن الفرنسية تتردد على بيروت حاملة أرزاً من دمياط وأقمشة من مصر ثم تعود إلى الاسكندرية محملة بحرير بيروت .

وقد اشتدت المنافسة التجارية بين الفرنسيين والانجليز فى سورية : وبينما تفوق الانجليز فى سورية الشمالية وقاعدتها حلب ، تفوق الفرنسيون فى سورية الجنوبية وقاعدتها صيدا ، وقد اشتدت هذه المنافسة فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وهى منافسة لا نجدها فى سورية وحدها ، وإنما نجدها فى مصر وفى العراق ، وفى كل مكان بالشرق الأدنى ، وكان التفوق بصفة عامة للفرنسيين ، حتى فى حلب التى كانت معقلا للتجارة الانجليزية والنفوذ الانجليزى ، حتى لقد زادت الصادرات الفرنسية إلى حلب من الأقمشة الفرنسية وغيرها على مجموع الصادرات الأوربية الأخرى .

أما فى جنوب سورية فقد كاد الفرنسيون يحتكرون تجارة الصادر والوارد ، ولم ير الانجليز جدوى من منافسة خصومهم فآثروا الانسحاب . وكذلك تغلب الفرنسيون على منافسة التجار من الشعوب الأخرى ، فالهولنديون أصبحوا

قليلى التردد على الساحل السورى ، والبنادقة قد انهارت تجارتهم وكذلك أهل تسكانا ، والجنويون كانوا يفضلوا أن يزاولوا نشاطهم فى ظل العلم الفرنسى .

* * *

وقد اضطربت التجارة الأوربية فى الأساكل الشرقية فى فترات الحروب العثمانية الروسية (١٧٦٨ — ١٧٩٢) وما صحبها من تراخى (القبضة) العثمانية على ولاياتها ، وهو التراخى الذى أدى إلى تقوى أصحاب العصبيات كظاهر العمر فى فلسطين وعلى بك الكبير ثم مراد وإبراهيم فى مصر واحمد الجزار فى عكا والأمراء الشهابيين فى لبنان والمماليك فى العراق والوهابيين فى شبه الجزيرة .

هذا إلى اضطراب الملاحة فى البحر المتوسط . ونشاط القرصنة ضد السفن العربية والإسلامية عامة ، مما أساء إلى مركز الجاليات الأجنبية ونشاطها فى الأساكل الشرقية .

وفى فترة حروب على بك وحليفه ظاهر العمر ازدادت أحوال التجارة الأوربية سوءا ، لولا أن الزعيمين الكبيرين كانا يقدران أهمية هذه التجارة لرخاء بلادهما ، بما يجبى من رسوم عليها . فضلا عن أن العلاقات التجارية من شأنها أن تدعم العلاقات السياسية التى كان الحليفان يسعيان إلى عقدها مع الدول الأجنبية . ومن ذلك أن الشيخ ظاهر العمر وأبناءه حرصوا على إظهار نياتهم الودية نحو قنصل فرنسا ومواطنيه . وكذلك كان يفعل على بك فى مصر وفى الأساكل الفلسطينية التى فتحها كعكا والرملة ويافا (١) . وكان هذا مبعث ارتياح التجار الأجانب لشعورهم بقدر من الأمان والحماية افتقدوهما منذ زمن . ولكن حركة التجار ظلت راكدة : لفقدان الثقة ، وتعطل المواصلات ، وازدياد أعمال القرصنة وخاصة قراصنة مالطة ، وإهمال الزراعة ، ونقصان كميات الحرير التى كانت تحمل من الداخل إلى الموانىء ، حتى لقد كتب قنصل فرنسا فى صيدا إلى وزير البحرية الفرنسية (فى يونية ١٧٧٢) يقترح عليه أن تتقدم حكومته ببضع

---

(١) ومن ذلك أن على بك قد عمل على إحياء التجارة عبر الطريق البرى : طريق مصر والبحر الأحمر .

فرقاطات لمساعدة السلطان فى استعادة سلطانه بسورية . كما أن من شأن هذه (الحملة) البحرية أن تعيد لفرنسا هيبتها فى الشرق ، تلك الهيبة التى تأثرت بهزائم فرنسا فى حرب السنوات السبع وضعف مكانتها فى أوربا وفى خارج أوربا . ولكن الحكومة الفرنسية لم تلق بالا إلى هذا الاقتراح ، لأنها تعلم تماما أن السلطان يؤثر إخضاع رعاياه الثائرين بقواته الخاصة على أن يستعين عليهم بقوات أجنبية مسيحية .

ثم جاءت إغارات السفن الروسية على الموانى السورية . صيدا وبيروت ويافا لتأييد حليفهم ظاهر العمر وعلى بك فأضافت عاملا جديدا لاضطراب التجارة الخارجية .

أما سورية الشمالية فلم تسلم من نصيبها من الكوارث . فى سنة ١٧٧٢ انتشر الوباء فى فارس وبغداد والبصرة ، وقال القنصل الفرنسى بحلب إن ٣٠٠,٠٠٠ شخص ماتوا فى بغداد و ٨٠ ألفا بالبصرة ، ووقفت المواصلات بين حلب والعراق وإيران ، وعاد الأكراد والتركمان إلى اعتداءاتهم على القوافل منتهزين فرصة خلو حلب من الجند، واستمرت اعتداءات القراصنة من المالطيين والإغريق والبلقانيين على الساحل السورى من الاسكندرونة حتى يافا ، وكانوا يحتمون بالعلم الروسى ، ويعتدون على السفن الإسلامية والمسيحية جميعا ، وظلوا سادرين فى اعتداءاتهم حتى بعد عقد صلح قينارجه (١٧٧٤) .

وفى فترة الهدوء التى تلت عقد هذا الصلح استطاعت الدولة القضاء على ظاهر العمر ، كما استطاعت أن تبسط حكمها المباشر على سورية كلها ، وقد أثبت أحمد الجزار ولاءه فثبتت الدولة ولايته على باشوية صيدا (ومقرها عكا) ، ولكن أحوال الأوربيين (والأهلين جميعا) — تحت حكمه الغاشم — لم تتحسن ، وإنما ازدادت سوءاً .

* * *

وبينما كانت الجاليات الفرنسية فى الأساكل السورية — وهى كما قلنا أكثر الجاليات الأوربية عددا وتشاطا — لا تكاد وسط هذه الاضطرابات تحتفظ

بكيانها إلا بجهد شديد كانت عوامل الفرقة والتنازع تدب بين أفرادها ، وبينهم وبين قناصلهم ونواب قناصلهم ، حتى تدخلت حكومتهم وأصدرت عدة مراسيم (سنة ١٧٧٦) لتنظيم الخدمة القنصلية وترتيب شئون الجاليات ، وأرسلت البارون دى توت فى رحلة (١٧٧٧ — ١٧٧٨) للاشراف على تنفيذ هذه المراسيم واقتراح أفضل الوسائل للنهوض بالتجارة الفرنسية فى الليفانت[1]. وكان من نتيجة أبحاثه التى ضمنها تقريره صـــدور قرار فى ٣ مارس ١٧٨١ يسن دستوراً جديداً للأساكل الفرنسية فى الليڤانت . وقد اعترف هذا القرار بصفة عامة بأن النظم القائمة كافية على شرط أن تنفذ بدقة ، فكأن الدستور الجديد لم يعدلها ، وإنما أعطاها — فى العهد السابق للثورة الفرنسية — شكلها النهائى .

ولكن الدستور الجديد لم يفد فى عـــلاج الأدواء التى كانت تقاسى منها الأساكل الشرقية ، فقد ازدادت المنازعات حـــدة ، وانحل النظام — فى عهد الثورة — ورأت السلطات العثمانية فى ذلك فرصتها لإرهاق الأوربيين بالمغارم . وقد ضرب أحمد الجزار باشا صيدا (أو عكا) المثل فى هذا العسف . فقد حملته حاجته الملحة إلى المال لتكوين قوة عسكرية وتحصين القلاع وجلب المدافع والذخائر إلى الاشتطاط فى طلب المال ، ففرض المغارم على التجار الأجانب ، ولم يقف جشعه عند حد . هذا إلى أن الحروب التى شنها على الدروز والمتاولة قد عطلت الزراعة وشلت حركة التجارة ، ولما تجددت أعمال القرصنة على الساحل السورى ، كشف الباشا عن اتصالات قام بها بعض التجار الفرنسيين فى عكا وصيدا بخصومه ، فوضع يده على متاجرهم وأملاكهم ، وأتى تدخل السفير الفرنسى لدى الريس أفندى بنتيجة عكسية ، فقد أمعن الباشا فى عسفه ، واضطر القنصل الفرنسى بعكا ومواطنوه إلى الخروج إلى يافا هربا بحياتهم ، وكذلك رحلت جالية صيدا إلى طرابلس . فلم يبق فى (دولة) الجزار فرنسى واحد (١٧٩٠) .

وقد بلغ من خوف التجار الفرنسيين من عسف الجزار أنه لما عرض السفير الفرنسى عليهم — بالاتفاق مع الباب العالى — أن يعودوا إلى أساكلهم فى صيدا

---

(١) وإلى جانب هذه المهمة (الرسمية) عهد إلى دى توت بمهمة أخرى سرية : وهى دراسة الأحوال فى الأمبراطورية العثمانية وتقدير مدى قوتها ، وبحث موضوع استيلاء فرنسا على مصر ، وقد قدم توت تقريراً ذهب فيه إلى سهولة فتح مصر .

وعكا على ظهر سفينة حربية فرنسية ، إظهاراً لهيبة فرنسا ، ازداد الفرنسيون هلعاً ، وضرب الجزار بأوامر الباب العالى عرض الحائط ، وأعلن أنه لن يقبل فى الأساكل الخاضعة له إلا تجاراً فرنسيين جدداً .

وسرعان ما احتذى الباشوات العثمانيون الآخرون فى طرابلس وحلب المثل الذى ضربه لهم الجزار . ففرضوا القروض والمغارم على التجار الأوربيين ، وألقى التجار الفرنسيون مسئولية المظالم التى كانت تنزل بهم على قناصلهم وطلبوا إلغاء مناصبهم ، وترك الجاليات تحكم نفسها بنفسها (متأثرين بروح الثورة)[1] وزاد الأمر اضطرابا إلغاء غرف التجارة الفرنسية ، ومنها غرفة التجارة بمرسيليا التى كانت تشرف على تجارة الشرق .

---

(١) بل إن بعض التجار اتهم السفير الفرنسى فى استانبول شوازيل جوفيه بممالأة الجزار ، ولما دعى السفير إلى باريس أبى وذهب إلى روسيا . ويصف فرنسوا شارل رو كل أسكلة من أساكل الليفانت بأنها أصبحت صورة مصغرة لأى مدينة فرنسية فى عهد الثورة : ثورة على الأوضاع والنظم القائمة وتحدياً للرؤساء ، ومناقشات ومنازعات ... الخ .

علاقات مصر التجارية بأوربا

بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر

كانت الجالية البندقية أقدم الجاليات الأوربية بمصر، كما كانت بسورية. فكان البنادقة أول من أقاموا لهم قنصلا بالاسكندرية (سنة ١٣٤٦)، وكادوا يحتكرون نقل المتاجر الشرقية من الاسكندرية إلى أوربا، فكانت لهم مخازن بالسويس والقاهرة والاسكندرية ووكلاء بهذه المدن. ولكن تحول التجارة إلى طريق الرأس، ثم حالة الحرب بينهم وبين الأتراك العثمانيين قد وضع حداً لتفوق البنادقة فى ميدان التجارة الشرقية، وقد رأيت كيف سعى الهولنديون والفرنسيون والانجليز للافادة من انهيار مركز البنادقة، فسارعوا إلى الشرق العربى ليأخذوا بنصيبهم من تجارته.

وقد بدأ التجار الفرنسيون بمصر فى الفترة التى تلت نيلهم الامتيازات من السلطان سليمان القانونى. فأقاموا لهم قنصلا بالاسكندرية، ثم نقل مقره إلى القاهرة فى سنة ١٦١١، وعين وكيلا له بالإسكندرية وآخر برشيد. ولكن القنصل عاد بعد ذلك إلى الإسكندرية فى سنة ١٧٧٧ فاراً بنفسه من مظالم السلطات الحاكمة فى القاهرة. وقد تراوح عدد التجار الفرنسيين بالقاهرة من ٢٠ إلى ٣٠ تاجرا أكثرهم من إقليم بروفنس، فاذا عين لهم قنصل من غير إقليمهم عدوه (أجنبيا) عنهم فشكوه وضايقوه حتى يرحل.

أما الإنجليز فقد أتوا مصر متأخرين عن الفرنسيين، ولم يصل عدد تجارهم بالقاهرة أو بالإسكندرية فى أى وقت إلى مثل عدد الفرنسيين، وإن كانوا شاركوهم نوع الحياة التى كانوا يحيونها بمصر.

بدأ اهتمام الانجليز بالسوق المصرية فى سنة ١٥٨٣. فى تلك السنة عين السفير الانجليزى فى القسطنطينية — وكان يعمل فى خدمة شركة الليفانت — أول قنصل لانجلترا بمصر. وأرسلت الشركة إلى الإسكندرية سفينة تحمل قصديراً ورصاصا لتبادلها بمقادير من التوابل والعقاقير، ثم أرسل السفير بعثة من بعض التجار

الانجليز (١٥٨٦) لدراسة السوق المصرية والوقوف على مدى إمكانياتها، فوضعوا تقريراً متفائلا . وفى السنة التالية حضر إلى مصر بعض التجار الانجليز فأقاموا بالقاهرة والإسكندرية وبدءوا يمارسون عملهم فى ظروف شاقة ، فقد فرض على متاجرهم رسم قدره (١٠٪) وهو أعلى مما كان يدفعه الفرنسيون ، ولم تجد الأقمشة الصوفية — وهى أهم ما كان يحمله التجار الانجليز — سوقا رائجة فى هذه البلاد ذات الطقس الحار . وأشد من هذا أن الفرنسيين لم ينظروا إلى وصول الانجليز بعين الارتياح ، فقد خشوا منافستهم ، وأخذوا يكيدون لهم لدى السلطات الحاكمة فى القاهرة وفى القسطنطينية ، حتى ضاق الانجليز بما كانوا يلقونه فخرجوا من مصر رجلا بعد آخر ، حتى لم يجد السفير إلا تاجراً بندقياً ينصبه قنصلا لانجلترا بالقاهرة. ثم ألغيت القنصلية الانجليزية وعهد برعاية المصالح الانجليزية بمصر إلى القنصل الفرنسى .

وعندما عاد السفير فى سنة ١٦٠٠ إلى تعيين قنصل انجليزى بالقاهرة رفض الرعايا الانجليز بالقاهرة — وكانوا تاجراً واحداً أو تاجرين — قبوله والاعتراف به، محتجين بأن التجارة الانجليزية فى مصر ليست من الرواج بحيث تكفى للقيام بنفقات القنصلية ، فالبضائع الانجليزية لا تجد لها سوقا رائجة فى مصر ، والسوق المصرية قلت بها المنتجات الشرقية إلى درجة كبيرة ، منذ بدأت شركتا الهند الشرقية — الهولندية والانجليزية منذ أوائل القرن السابع عشر تصبان منتجات الشرق إلى أوربا عن طريق رأس الرجاء الصالح بنصف أثمانها التى كانت تشترى بها من أسواق الليفانت[1] .

وهكذا آثرت شركة الليفانت — حوالى منتصف القرن السابع عشر — أن تتخلى عن السوق المصرية ورفضت أن تعترف بالقنصل الانجليزى القائم فى القاهرة أو تدفع له مرتباً[2] ، وتركت من بقى من التجار الانجليز يزاولون

---

(١) انظر فيما سبق ص ٢١٠ .

(٢) فى بعض الأحيان كان التاجر الإنجليزى الوحيد الباق بالقاهرة أو الإسكندرية ينصب نفسه قنصلا لدولته وممثلا لشركة الليفانت حتى تروج أعماله ! ولكن الشركة كانت تأبى الاعتراف به ، بل إنها كتبت فى بعض خطاباتها لسفير فى القسطنطينية قائلة عن السوق المصرية : « إنها إذا أمطرت ذهبا بالإسكندرية فلن نرى أنها تستحق أن نذهب ونجمعه».

"If it rayned (at Aleyandria) gold wee should not think it worth the while to goe and fetch it".

نشاطهم على مستوىتهم الخاصة ، تحت رعاية القنصل البندق تارة ، والقنصل الفرنسى تارة أخرى .

وعلى الرغم من ذلك فانه لم يكد القرن السابع عشر يشرف على النهاية حتى عادت شركة الليفانت والسفارة الانجليزية فى القسطنطينية إلى الاهتمام بالسوق المصرية ، إما تحت ضغط التجار الانجليز الباقين بمصر — على قلة عددهم ، وإما رغبة فى تحدى فرنسا ومنافستها فى الأسواق الشرقية . فنى سنة ١٦٩٧ عينت الشركة قنصلا بالقاهرة ووكيلا له بالاسكندرية . وأصدر السلطان مصطفى الثانى خطا شريفا بأن يتمتع التجار الانجليز بمصر بنفس الامتيازات التى كان يتمتع بها الفرنسيون، وأهمها أن لايدفعوا أكثر من ٣ ٪ رسما على ما يستوردونه لمصر. وهكذا وطدت الجالية الانجليزية بين سنتى ١٦٩٩ و ١٧٥٦ أقدامها بمصر منافسة الفرنسيين ، بل لقد نافس القنصل الانجليزى زميله الفرنسى فى بسط حمايته على التجار الأوربيين الآخرين الذين ليس لهم قناصل بمصر كأهل جنوه وليفورنه ومسينا وراجوزه والبندقية (حين كانت فى حرب مع الترك) وهولندا . وكان التجار الانجليز يصدرون من مصر مقادير لابأس بها من العقاقير والعطور والجلود والتمر والسكر والسجاد والتبر وريش النعام والصمغ، ويستوردون الزجاج والمعادن والأقمشة الصوفية (من الجوخ) خاصة . ولكن الانجليز — مع هذا — لم يستطيعوا أن يحطموا المكانة الوطيدة التى نالها الفرنسيون فى السوق المصرية : فنى سنة ١٧٠٢ كان بالقاهرة وحدها ٥٠ تاجرا فرنسيا ، كما كانت لهم منشئات بالاسكندرية ورشيد . بينما لم يكن بالقاهرة سوى انجليزيين وبالاسكندرية انجليزى واحد ، هو نائب القنصل فى الوقت نفسه ، وعندما زار ڤولنى مصر (١٧٨٣) لم يجد بها أحدا من التجار الانجليز لا بالقاهرة ولا بالاسكندرية . والواقع أن شركة الليفانت كانت أكثر عناية بمراكزها فى استانبول وأزمير وحلب . أما فى مصر فلم يكن لها منشئات ثابتة ، وكذلك كانت مصالحها فى الساحل السورى الجنوبى — كما رأينا — أقل أهمية ، بل إن الشركة عادت فألغت قنصليتها بمصر فى سنة ١٧٥٦ .

* * *

على أن اهتمام الإنجليز بمصر مالبث أن تجـــدد فى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر ، لا على أنها سوق تجارية ، ولكن لعاملين جديدين : الأول وضوح ضعف الدولة العثمانية على أثر هزائمها المتواصلة فى البلقان وازدياد الرأى فى الدوائر الفرنسية القائل بقرب انهيار السلطنة العثمانية وضرورة تقدم فرنسا لنيل نصيبها من الغنيمة وهو مصر .

والعامل الثانى ظهور أهمية مصر كحلقة فى طريق المواصلات البرية البحرية بين أوربا والهند ، فقد انتزعت انجلترا من فرنسا أكبر مستعمراتها فى الهند فى صلح باريس سنة ١٧٦٣ ، واتجه الاهتمام إلى تيسير المواصلات بين إنجلترا وأمبراطوريتها الهندية ، ومن هنا انبعث التفكير إلى إحياء الطرق البرية القديمة وأهمها طريق البحر الأحمر ومصر ، وطريق الخليج الفارسى والفرات .

* * *

كان البحر الأحمر — منـــذ فتح العثمانيين مصر واستيلائهم على الحجاز فى القرن السادس عشر قد أغلق بأوامر السلطان فى وجه السفن الأوربيـــة ، فلا تستطيع أية سفينة أوربية آتية من المحيط الهندى أن تبحر فى البحر الأحمر شمالى مخا ، ميناء اليمن ، ولكن منذ أواخر القرن السابع عشر قدر شريف مكة ما يجنيه من رسوم الجمارك إذا جعلت جدة مركز الوصول للسفن الأوربية ، فأذن الشريف بأن تصل إلى جدة ، ووافق السلطان على ذلك ، واعتبرت رسوم التجارة فى جدة موردا هاما لشريف مكة . على أن السلطان حرم على السفن الأوربية أن تتجاوزها شمالا ، فاذا كانت السفن تحمل متاجر إلى مصر ، فليس لها إلا أن تنقل هـــذه المتاجر على سفن عربية إسلامية حتى السويس ، أو غيرها من الموانى المصرية كالقصير أو الطور . وقد أصر السلطان على ذلك معتقدا — أو مدعيا — أن فى ذلك سلامة الأراضى الاسلامية المقدسة ومصر من إعتداء الأوربيين .

ووجدت هذه الخطة هوى لدى شركة الهنـد الشرقية الإنجليزية التى كانت تفضل طريق رأس الرجاء الصالح لتجارتها ومراسلاتها بين الهنـــد وإنجلترا . واطمأنت إلى سلامة هـذا الطريق فى ظل القوة البحرية البريطانية ، وما كانت الحكومة البريطانية تستطيع أن تخرج فى سياستها (الشرقية) على ما ترسمه شركة

الهند الشرقية ، ولهذا لم تجيء مشروعات إحياء الطريق البرى طريق مصر والبحر الأحمر من رجال لهم صفة رسمية ، من عمال الشركة أو موظفى الحكومة، وإنما كانوا تجارا أو رحالة أو مغامرين ، أو مجرد أصحاب مشروعات ! ولم يكونوا من جنسية واحدة ، ففيهم الاسكتلندى بروس والانجليزى بلدوين والفرنسى ترجويه والايطالى روزتى وغيرهم كثيرون .

ولقد كان من أغراض على بك الكبير فى فتح الحجاز تيسير تنفيذ المشروع الذى عرضه عليه روزتى ، وهو الأذن للسفن الأوروبية بأن تأتى إلى السويس ، وتنزل بها حمولتها من المتاجر الشرقية ، فتحملها القوافل إلى القاهرة ، ثم تحملها السفن إلى الاسكندرية ، وبذلك يستفيد على بك من الرسوم التى تجبى على تلك المتاجر فى ديوان السويس وتستفيد مصر من مرور التجارة الشرقية بأرضها فتستعيد رخاءها القديم ومكانتها فى السياسة الدولية والاقتصاد الدولى .

ثم عرض المشروع مرة أخرى على محمد أبى الذهب ، وعلى الرغم من أن أبا الذهب كان يد الباب العالى فى البطش بعلى بك ، إلا أنه اتبع فى موضوع إحياء طريق البحر الأحمر ومصر سياسة مستقلة عن الباب العالى . أقر أبو الذهب المشروع ، وكتب بذلك إلى حاكم البنغال وارن هيستنجز ، وعقد معه — بواسطة الرحالة الاسكتلندى بروس — اتفاقية ، لتشجيع حركة التجارة بين مصر والهند ، وتحديد الرسوم الجمركية التى تدفع فى الموانى المصرية وحماية المسافرين فى الطريق الصحراوى بين السويس والقاهرة .

ولكن الباب العالى أصر على رفض الأذن للسفن الأوروبية بأن تبحر فى البحر الأحمر إلى ما بعد جدة شمالا ، وأصدر فرمانا يذكر فيه السلطات الحاكمة فى مصر بما فعله الانجليز فى الهند ، حين نزلوها تجارا ثم مالبثوا أن تحولوا إلى مستعمرين وحكام .

أما الحكومة البريطانية فقد رضخت لمقاومة شركة الهند الشرقية للمشروع واستجابت لأمر السلطان فأعلنت رفضها للمشروع .

وعلى الرغم من ذلك فقد وصلت إلى مصر عدة سفن إنجليزية وغير انجليزية من الهند بين سنتى ١٧٧٥ و ١٧٧٩ ، ورسا بعضها فى ميناء السويس ، بينما فضلت

سفن أخرى أن ترسو فى القصير[1]، واتجهت سفن أخرى إلى الطور ، وتعرضت قوافل التجار والمسافرين لأشد الأخطار ، مما زاد السلطات البريطانية فى الهند وفى انجلترا اقتناعا بأن هذا المشروع مآله إلى الفشل .

ولم يكن حظ النمسويين أو الفرنسيين فى محاولاتهم إحياء الطريق البرى عبر مصر بأحسن من حظ الإنجليز .

كان التجار الفرنسيون — كما تقدم بنا القول — قد ضاقوا ذرعا بما كانوا يلقون من إرهاق الأمراء بالقاهرة ، فانتقلوا مع قنصلهم إلى الاسكندرية ، وأقاموا بها (من سنة ١٧٧٧ إلى سنة ١٧٩٣) ، ثم عين شارل مجالون قنصلا ، وعاد مع مواطنيه إلى القاهرة ، وكانت له — ولزوجه — مداخلات لدى الأمراء . وبفضلها نجح المبعوث الفرنسى ترجويه (Truguet) فى عقد ثلاثة اتفاقات (١٧٨٥) مع مراد بك لتشجيع ورود السفن الفرنسية والمتاجر الفرنسية إلى السويس ، وتحديد الرسوم الجمركية وحماية الفرنسيين فى الأراضى المصرية . ولكن السفير الفرنسى فى القسطنطينية أخفق فى نيل موافقة الباب العالى على المشروع ، ولم يكن الباب العالى محتاجا إلى تحريض انجلترا ليصر على رفضه .

ولكن المشروع الفرنسى كان كفيلا بأن يثير مخاوف الانجليز ، فرأت الحكومة الانجليزية أن من الضرورى أن يكون لها فى مصر مركز للاستطلاع وجمع المعلومات ، فقررت فى سنة ١٧٨٦ إعادة قنصليتها بمصر ، وعنيت لهاجورج بلدوين ، الذى نصب نفسه داعية لمشروع إحياء طريق البحر الأحمر منذ جاء إلى مصر فى سنة ١٧٦٥ ، ولكن لم ينجح إلا فى إثارة مخاوف حكومته وشركة الهند الشرقية وشركة الليڤانت وحقد السفير البريطانى فى القسطنطينية، وعلى الرغم مما كان يلوح به بلدوين لحكومته من مشروعات روسية تارة وفرنسية تارة أخرى لاحتلال مصر ، فإن الحكومة البريطانية — وقد زادها اضطراب الحالة فى مصر تشبثا بسياستها السلبية إزاء مصر — آثرت أن تنفض يدها

---

(١) ألقت إحدى السفن الانجليزية مراسيها أمام القصير ونشب نزاع بين بحارتها وأهالى المدينة ، فأطلقت السفينة مدافعها على المدينة .

من الأمر كله ، فقررت إلغاء قنصليتها بمصر (فبراير ١٧٩٣) [١]، بعد شهر واحد من إعادة فرنسا قنصليتها العامة بالقاهرة ، ولهذا — لا شك — دلالته في تقدير مدى اهتمام كل من الدولتين بمصر وبمشروع إحياء طريق البحر الأحمر للتجارة الشرقية .

وفي هذه الأثناء كانت الأحوال في مصر — تحت حكم مراد وإبراهيم — تسير من سيء إلى أسوأ ، وتعلو صرخات الجالية الفرنسية إلى حكومتها طالبة حمايتها من عسف الأمراء ، ويتجه اهتمام الحكومة الفرنسية إلى مشروع احتلال مصر فتحققه في صيف ١٧٩٨ .

وفي خلال السنوات الثلاث التي قضتها الحملة الفرنسية بمصر ، تكون اهتمام الحكومة الانجليزية بمصر ، ذلك الاهتمام الذي ستزيده أحداث القرن التاسع عشر قوة ، حتى يصل إلى غايته باحتلال بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢ .

---

(١) بقي بلدوين بعد ذلك بعض الوقت بالقاهرة يقوم بعمله — كقنصل — على مسئوليته الخاصة ، وقد عقد مع الأميرين مراد وابراهيم (سنة ١٧٩٤) معاهدة على مثال معاهدة ترجوبه — مراد (١٧٨٥) . ولكن الحكومة الانجليزية لم تعترف بنشاط بلدوين وطلبت إليه أن يبرح مصر .

علاقات العراق التجارية بأوربا

بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر

كان استيلاء هولاكو على بغداد سنة ١٢٦٨ ضربة قوية أصابت العراق فى صميم حياته الاقتصادية ، فقد قتل الألوف من أهله ، وخربت أكثر منشآته وأسواقه ، وغدت بغداد مقرا لولاية حقيرة تابعة الأمبراطورية المغولية الكبيرة . هذا إلى أن الانفصال السياسى بين كتلتى الشرق الإسلامى ، الكتلة الشرقية الإيرانية وفيها العراق ، والكتلة الغربية المملوكية وتتألف من مصر والشام ، كان من شأنه خلق حالة من العداء المستمر والاضطراب فى الشرق الأدنى ، مع ما يلحق ذلك تعطيل الطرق وفقدان الأمن ووقف حركة التجارة .

فان مرور جانب كبير من التجارة الشرقيـــة عبر العراق ، عن طريق إيران أو عن طريق الخليج الفارسى قد حفظ على العراق موردا ثمينا . فكانت البصرة سوقا من أعظم الأسواق الشرقية ، بل العالمية ، وتمتعت بشهرة كبيرة لا تدانيها سوى شهرة بغداد بأسواقها وخاناتها ، حيث تتجمع طرق القوافل من إيران والبصرة وديار بكر وحلب . ثم جاء سقوط بغداد فى أيدى المغول ودخول العراق فى الأمبراطورية المغولية الإيرانية وتحوله عن منطقة البحر المتوسط ،ففقد العراق جانبا كبيرا منأهميته كوسيط للتجارة بين الشرق والغرب ، تلك التجارة التى تحولت شمالا وشرقا إلى تركيا وإيران وغربا إلى مصر والبحر الأحمر .

ثم جاء كشف البرتغاليين عن طريق الرأس فى أواخر القرن الخامس عشر فأضاف إلى الضربة الأولى التى أصابته على أيدى المغول ، ضربة أخرى ، وكانت ضربة موجعة لم يكد يخلص العراق من آثارها إلا فى القرن التاسع عشر .

وقد رأيت الجهود التى بذلها البرتغاليون لانتزاع التجارة الشرقية من أيدى

العرب ، وكيف سعوا إلى (ردّ) العرب إلى مياههم الداخلية فى الخليج الفارسى والبحر الأحمر وحصرهم فيها وإقفال منافذها عليهم ، حتى يخلص المحيط لهم (أى البرتغاليين) . لهذا حرص البرتغاليون على الاستيلاء على جزيرة هرمز فى مدخل الخليج الفارسى وجزيرة سقطرة بقرب مدخل البحر الأحمر ، كما سعوا إلى ضرب الامارات العربية بالخليج الفارسى ، وخاصة مسقط والبحرين . ولكن نصيبهم من النجاح فى الخليج الفارسى ، لم يكن أكبر من نصيبهم فى البحر الأحمر ، وهم إذا كانوا قد فازوا فى البحر ، حيث لأساطيلهم الغلبة ، فقد عجزوا على الأرض حيث أعوزتهم الجيوش ووسائل الحكم والاستقرار .

وفى الوقت الذى كانت فيه الأساطيل المصرية — فى أخريات أيام المماليك فى مصر — تواجه الأساطيل البرتغالية فى بحر العرب والمحيط الهندى ، محاولة — ما استطاعت — أن تشق للعرب طريق البحار ، كان العراق تغزوه جيوش الدولة الإيرانية الصفوية (سنة ١٥٠٨) . ولقد كان للدولة الصفوية منذ قامت فى إيران أهداف معينة تعمل على بلوغها . وأخصها نشر مذهب الشيعة لافى إيران وحدها وإنما فى العالم الإسلامى أجمع ، وقد صرفتها هذه الأهداف عن الاهتمام بحركات البرتغاليين فى البحار الشرقية منذ بدأت فى أواخر القرن الخامس عشر ، بل لقد كان من شأنها عرقلة الجهود التى بذلها الترك والعرب فى تلك الأنحاء .

ولقد جاء فتح العثمانيين العراق (١٥٣٤) متأخرا سبعة عشر عاما بعد فتحهم سوريا ومصر ، ولقد نشطوا منذ فتحوا مصر إلى متابعة الرسالة التى تلقوها عن الدولة المملوكية ، وذلك بإعداد الأساطيل لمدافعة البرتغاليين عن المياه الشرقية ، فاتخذوا السويس قاعدة لهم ، بل إنها ظلت قاعدتهم الوحيدة لعملياتهم البحرية التى امتدت حتى ساحل الهند الغربى من ناحية . وتوغلت فى الخليج الفارسى حتى البصرة ، من ناحية أخرى . وحتى بعد أن احتلوا عدن (١٥٣٤) لا يبدو أنهم أفادوا منها كقاعدة بحرية حربية لهم فى المياه الشرقية ، فقد كان مقامهم بها قلقا ، إذ لم يطمئنوا قط إلى (جبهتها) الداخلية . بسبب حالة العداء التى واجهتهم منذ نزلوا هذا الجزء من أرض اليمن ، من جانب المقاومة اليمنية الزيدية ، ومن جانب البدو الضاربين على مشارف الميناء[1].

(١) تحالف هؤلاء البدو مع البرتغاليين نكاية فى الأتراك العثمانيين ومكنوهم من دخول عدن واحتلالها فترة قصيرة من الزمن .

أما فى الخليج الفارسى فكان سلطان الأتراك العثمانيين ضعيفا . وحتى بعد استيلائهم على بغداد (١٥٣٤) ثم البصرة (١٥٤١) لم يستطيعوا أن ينشئوا لهم قاعدة بحرية يبسطون منها نفوذهم على مياه الخليج ، الخليج الذى ظل حتى بعد وصول العثمانيين (فارسيا) . فالبصرة بمستنقعاتها وخلجانها على شط العرب كانت لا تصلح لهذا الغرض ، هذا إلى أن الترك فيها كانوا يواجهون مقاومة من جانب العصبيات البدوية المحلية ومن جانب الإيرانيين أيضا . وقد سبق البرتغاليون إلى احتلال هرمز ومسقط ومراكز أخرى حصينة ، وجاء العثمانيون متأخرين . ونزلت قوات عثمانية واحتلت القطيف وقطر وأجزاء من الأحساء التى جعلت ولاية عثمانية ، وعين السلطان بها ولاة وموظفين . ولكن هذا كله لم يؤد إلى نتيجة حاسمة فى بسط السيطرة العثمانية على الخليج الفارسى : فإن الشقة بينه وبين القاعدة العثمانية الأساسية فى السويس بعيدة ، وقد ثبت أن السويس أبعد من أن تصلح لإرسال حملات بحرية متوالية تتوغل حتى الهند والبصرة ، لهذا مالبثت أن انهارت السيطرة العثمانية فى الأجزاء القليلة التى انبسطت عليها من الخليج الفارسى فى النصف الأول من القرن السادس عشر .

* * *

على أن الحصر الذى ضربه البرتغاليون لم يكن — كما قلنا — كاملا ، فكان جانب من متاجر الشرق يتسرب إلى أيدى التجار العرب فيحملونه فى سفنهم الخفيفة إلى البصرة من ناحية وإلى السويس من ناحية أخرى ، فتعمر بهذه وتلك أسواق العواصم العربية : البصرة ، بغداد ، حلب ، دمشق ، السويس ، القاهرة والاسكندرية ، هذا إلى أنه فى فترات السلام التى كانت تتوسط حالة الحرب بين إيران وتركيا كانت القوافل التى تجتاز الدروب والمسالك وسط آسيا عبر إيران تحمل إلى بغداد منتجات الشرق ، فكانت بغداد بمثابة مركز لتوزيعها . وهكذا يمكن القول إن موقع العراق ، فى تلك المنطقة المتوسطة بين وسط آسيا وغربها ، وفى تلك الشقة من الأرض التى تصل إلى مياه الخليج الفارسى ، كان هذا الموقع كفيلا بأن يجذب إلى العراق جانباً لا يستهان به من التجارة الشرقية . وبفضل هذا القدر من التجارة الخارجية — ولو كان محدوداً — احتفظ العراق بعلاقاته مع العالم الخارجى .

أخذت مكانة البرتغاليين فى البحار الشرقية تتدهور منذ خضعت بلادهم للتاج الأسبانى (١٥٨٠) فتراخت سيطرتهم على تلك الأنحاء ، وعاد التجار الإيرانيون والعرب إلى رحلاتهم البحرية وجرؤوا على إغلاق موانيهم فى وجه السفن البرتغالية وأفاد الإيرانيون من ضعف البرتغاليين فنهضوا لاسترداد المواقع التى كان البرتغاليون قد احتلوها . استرد الإيرانيون البحرين (١٦٠٢) واشتد ضغطهم على هرمز (١٦٠٨) وطردوا البرتغاليين من بندر عباس (١٦١٤) ثم من هرمز (١٦٢٢).

والحق أن طرد البرتغاليين من البحار الشرقية لم يتم على أيدى الإيرانيين ، ولا على أيدى العثمانيين ، ولا على أيدى العرب ، وإنما تم على أيدى شعوب أوربية أخرى ، بدأت تتطلع إلى تلك الأنحاء منذ أواخر القرن السادس عشر . فقد أنشئت شركة الهند الشرقية (الإنجليزية) فى سنة ١٥٩٩ ، وقد عملت منذ تأسيسها على أن تسيطر على التجارة الشرقية وتبسط الاستعمار البريطانى فى الهند ، وقد أرسلت الحكومة البريطانية بعثة لارتياد طريق الفرات ودراسة مدى إمكانياته ، واتصلت بشاه إيران ، ونفذت إلى الخليج الفارسى . وساعدت الإيرانيين فى حروبهم ضد البرتغال .

وفى السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر وصل الهولنديون إلى الهند وجزائر الهند الشرقية والشرق الأقصى ، وسعوا إلى أن يرثوا ملك البرتغاليين فى المياه الشرقية وقد تحالفوا أولا مع الإيرانيين والبريطانيين ضد البرتغاليين ، وكانوا منذ طردوا من هرمز قد حطوا فى مسقط والشحر واتخذوا من أوكار الساحل العربى قواعد لإغاراتهم البحرية .

ولقد كانت البصرة — بحكم موقعها على شط العرب الذى ينتهى إلى الخليج الفارسى — أكثر مدن العراق اتصالا بالصراع الدائر على النفوذ فى الخليج . وفى الوقت الذى أخذ فيه سلطان البرتغاليين يتدهور فى الخليج الفارسى كانت البصرة تشهد فصلا جديداً فى تاريخها : وقد أشرنا إلى أن الحكم العثمانى فى البصرة كان يضيق بضغط العشائر البدوية من ناحية وبالضغط الإيرانى من ناحية أخرى . وفى أوائل القرن السابع عشر تولى الحكم فيها — فى ظروف غامضة — أحد المغتصبين من أبنائها ويدعى « أفراسياب » (سنة ١٦١٢) . وقد تمتعت البصرة فى حكم آل أفراسياب (١٦٠٢ — ١٦٦٨) بعهد من الاستقرار والأمن لم تعرفه

منذ سنوات . وقد سعى البرتغاليون إلى مد نفوذهم إلى البصرة ليتخذوا منها قاعدة تفيدهم فى الصراع الدائر حول الخليج الفارسى. وقد رحب بهم أفراسياب أولا ، مما جلب عليه سخط الشاه ، فسير عليه جيشاً ، ولكنه استطاع صده بمعونة البرتغاليين ، وكذلك فشلت المحاولات التالية التى بذلها الشــاه عباس الكبير لفتح البصرة .

وتوالت هزائم البرتغاليين ، فاضطروا إلى الجلاء عن الشحر لقوة عمانية (١٦٤٣) ثم عن مسقط (١٦٥٠) ، كما فقدوا نفوذهم فى البصرة ، وفى كل مكان فى المياه الشرقية ، واستحال نشاطهم التجارى والبحرى إلى قرصنة .

ولكن الصراع ما لبث أن بدأ بين الهولنديين والانجليز ، وشهدت البصرة فنوناً من هذا الصراع ، وكان التفوق للهولنديين أولا ، ولكنه لم يستمر طويلا ، فما أوشك القرن السابع عشر على النهاية ، حتى كان الانجليز قد وطدوا أقدامهم فى تلك الأنحاء ، بتحالفهم مع إيران واستيلائهم على مراكز حصينة فى الخليج الفارسى ، ونشاط شركة الهند الشرقية فى التجارة الشرقية .

ظهر الانجليز للمرة الأولى فى البصرة فى سنة ١٦٣٥ ، حين رست فى الميناء سفينة انجليزية صغيرة تحمل بعض بضائع الهند ، ولكن المنافسة البرتغالية فى ذلك الوقت كانت شديدة ، فقد كانوا يسوقون فى كل سنة إلى البصرة أسطولا ، ويغمرون أسواقها بما يحملون . ولكن الانجليز ظلوا يزاحمون ليفسحوا لهم مكاناً . وفى سنة ١٦٤٣ أنشأوا لهم محطة أو وكالة ثابتة بالبصرة ، وكان رئيس الوكالة يشغل منصب القنصل أيضاً ، وكانت له امتيازات جمة : فله حرسه الخاص ، وله مدافع تنصب أمام داره ، ويتقدمه فى سيره خيالة بأيديهم دبابيس مفضضة ، وكان للقنصل البريطانى فى البصرة وكيل فى بغداد من أهلها .

ولكن ما أن تخلص الانجليز من البرتغاليين حتى واجهوا الهولنديين ، وتغلب الهولنديون أولا حتى أوشك التجار الانجليز بالبصرة على الإفلاس ، واستهان باشا البصرة بهم فألغى وكالتهم (١٦٥٧) ، وإن بقيت بعض سفن شركة الهند الشرقية تتردد على البصرة من وقت لآخر ، أما تجارة الهولنديين فكانت رائجة والواقع إن البصرة ـــ تحت آل أفراسياب ـــ كانت ترحب بالأجانب جميعاً من هولنديين وانجليز وهنود وترك ، وكانوا يتجرون فى التوابل والأقمشة والنيلة ،

فمن القسطنطينية وأزمير وحلب والقاهرة وجميع أنحاء الشرق العربي كان التجار يتواردون لشراء البضائع المجلوبة من الهند وفارس ، ثم يحملونها فوق الإبل ، التي يشترونها من البدو الذين يأتون بها من البادية لبيعها . وكان يأتي إلى البصرة تجار من ديار بكر والموصل وبغداد والجزيرة فيبعثون ما يشترونه في السفن التي تجري في دجلة . وكانت البصرة تنقل متاجرها إلى بغداد في نهر دجلة ، ومن بغداد كانت القوافل تحملها إلى حلب ، وأحيانا كانت القوافل تعبر البادية رأسا من البصرة إلى حلب مارة بالنجف .

وقد تمتعت الطوائف الدينية المختلفة بعهد من التسامح في ظل آل أفراسياب : فكان في البصرة كنيسة للكرمليين الإيطاليين ، وكان للبرتغاليين كنيسة . وقد عين رئيس الكرمليين قنصلا لفرنسا رغم أنه لم يكن فرنسيا .

ولم تفقد البصرة مكانتها التجارية في الفترة التي حكمها فيها الإيرانيون[1] .

فقد شجعوا حركة التجارة فيها ، وبذلك جذبوا إليها التجار الأجانب وخاصة الإيرانيين والهنود من سورات . ولكن اضطراب الحكم في البصرة بعد ذلك ، والضغط الإيراني من جهة ، واعتداءات الشعائر البدوية من المنتفك وكعب وغيرهم من ناحية أخرى وجشع الباشوات العثمانيين[2] ، كل هذا كان من شأنه إشاعة جو من عدم الاستقرار ، مما سبب انصراف عدد كبير من التجار الأجانب وإضعاف حركة التجارة في البصرة ، وكانت الوكالة الهولندية والوكالة الانجليزية دائمتي الشكوى من تلك الحالة السيئة .

* * *

---

(١) استولى الفرس على البصرة أولا في سنة ١٦٩٧ على يد حاكم الحويزة الفارسي ، ثم تركوها بعد عامين ، ثم عاد الفرس إلى تهديد العراق في عهد نادر شاه الذي أنهى حكم الأسرة الصفوية وحكم إيران في سنة ١٧٤٣ فأغار على البصرة وحاصر بغداد ثم ارتد عنها وصالح الأتراك . وفي سنة ١٧٧٤ عاد كريم خان الزندي فأعلن الحرب على العثمانيين وأرسل قوة حاصرت البصرة ومعه شيخ بني كعب وعشيرته، ودام الحصار أكثر من عام حتى اضطرها للتسليم ، ولكن عشائر المنتفك خرجت إلى الفرس وكسرتهم ، ثم طاردتهم حتى أخرجتهم من البصرة سنة ١٧٧٩ بعد أن حكموها نحو ثلاث سنوات . وعادت البصرة إلى التبعية لباشوية بغداد ، فكان الباشا يعين عليها متسلماً ، حتى سنة ١٨٧١ ، بعد أن عزل مدحت باشا من ولاية بغداد فانفصلت البصرة عن بغداد وأصبحت تابعة رأساً للقسطنطينية ويرسل السلطان لحكمها المتصرفين ثم الولاة ابتداء من سنة ١٨٨٣ .

(٢) كانت (القورنة) مقر الجمرك حيث يدفع التجار المكوس على بضاعتهم .

وصف أحد الرحالة الهولنديين تجارة بغداد فى النصف الثانى من القرن السادس عشر بقوله : إن نهرى دجلة والفرات ضروريان ليس فقط لنقل المؤن إلى بغداد كالحبوب والفاكهة ، بل لورود البضائع المنوعة ، فقد كانت ترد إليها يوميا سفن عديدة مشحونة ، وكانت بغداد مركز تجارة واسعة ، تأتى إليها براً وبحراً لاسيا من بلاد الأناضول وسورية وارمينية والقسطنطينية وحلب ودمشق ، لتوسق بعدئذ إلى الهند وبلاد فارس وغيرها ، وقد اتفق أنه فى يوم واحد رست ٢٥ سفينة مشحونة بالتوابل والعقاقير الثمينة أتت بحراً من الهند بطريق هرمز إلى البصرة ، حيث أفرغت فى سفن صغيرة صعدت النهر إلى بغداد ، حيث كان ينتظرها التجار الذين ضربوا خيامهم خارج المدينة ليبعثوا بها فى القوافل .

على أن صلات البصرة بالعالم الخارجى كانت أقوى من صلات بغداد ، وذلك لموقع البصرة على مشارف الخليج الفارسى ، أما بغداد فمدينة (داخلية) تعتمد فى رواج تجارتها — إلى حد كبير — على علاقاتها التجارية بإيران ، التى كانت قوافلها أغنى القوافل الشرقية ، ولكن حالة الحرب التى كادت تكون مستمرة بين إيران وتركيا منذ فتحت الأخيرة بغداد من الصفويين (١٥٣٤) كان من شأنها تعطيل حركة التجارة بين إيران ووسط آسـيا من ناحية وغربى آسيا من ناحية أخرى ، وقد قاست بغداد وكذلك الموصل من ذلك كثيراً .

هذا إلى أن اضطراب الحكم فى بغداد ، وجشع الباشوات ، وانتشار المجاعة من وقت لآخر كان له أثره فى عرقلة التجارة .

ولكن علاقات العراق الخارجية بدول أوربا الغربية قد اتسعت منذ القرن الثامن عشر : فقد كثر عدد السائحين الذين زاروا العراق فى طريقهم إلى إيران أو الهند . واستقرت فى بغداد جالية أوربية قليلة العدد من بعض الكرمليين الفرنسيين وصيرفى إغريقى وتاجر بندقى ، وكانوا يستضيفون وكلاء شركة الهند الشرقية الذين يمرون ببغداد من وقت لآخر . وكان الفرسان « التتر » يحملون إلى استانبول بريد الباشا والقناصل الأوربيين فى الشرق الأوسط . وكان لشركة الهند الشرقية بريد منتظم تحمله الإبل فى الصحراء بين بغداد وحلب . واستقرت المؤسسات الدينية الفرنسية والإيطالية فى أبنية خاصة بها . وكان أسقف « بابل »

يشغل كرسيه الأسقفى ووظيفة القنصل الفرنسى معاً ، وكان الموظفون القنصليون الفرنسيون أسبقهم إلى تلك البلاد . ولكن المصالح الفرنسية فى العراق لم تكن كبيرة ، وكان الوكلاء الفرنسيون لا يلقون رعاية ولا اهتماما من السلطات الحاكمة بسبب ما عرف عن انهيار النفوذ الفرنسى فى الهند ، وانعدام أى نفوذ لهم فى الخليج الفارسى ، ثم جاءت حملة بونابرت على مصر (١٧٩٨) فاعتقلت السلطات العثمانية عمال فرنسا والتجار الفرنسيين فى العراق وقضت على ما كان لهم من مصالح قليلة فى العراق . ولما أطلق سراحهم بعد ذلك لم يستطيعوا أن يؤسسوا لهم مصالح قوية بالعراق ، وإن كان العراق بعد ذلك لم يخل من الفرنسيين ، فقد استخدم سليمان باشا طبيبا فرنسيا ، واستخدم داود باشا مدربا فرنسيا لجيشه .

أما انجلترا فكانت قوتها تحس فى العراق ، بعد أن تغلبت على فرنسا ووضعت يدها على أكثر مستعمراتها فى الهند ، كما انفردت بالنفوذ فى الخليج الفارسى ، واحتلت التجارة البريطانية فى العراق وإيران المكان الأول . وكانت شركة الهند الشرقية (البريطانية) تعد وكالتها التى أنشأتها بالبصرة (سنة ١٦٤٣) مركز تجارتها الرئيسى ، ولكنها لم تنشىء لها تمثيلا ببغداد إلا فى سنة ١٧٥٥ وجعلته أولا تابعاً للبصرة ، وقد قنعت أولا بتعيين وكيل أرمنى استبدلت به بعد عشر سنوات وكيلا بريطانيا . وقد شجع الحكومة البريطانية على إنشاء هذه الوكالة ما تمتع به العراق من استقرار وإصلاح على عهد الباشوات من المماليك (١٧٤٩ — ١٨٣١) الذين عرفوا بنزعتهم الاستقلالية ، وقد عملت شركة الهند الشرقية على أن ترضى فيهم هـذه النزعة ، وذلك بتلبية رغبتهم فى إمدادهم بالسلاح والعتاد والفنيين لتنظيم الجيش الذى كونوه . بل لقد قيل إن شركة الهند الشرقية قد ساعدت سليمان باشا الكبير فى تولية باشوية بغداد (١٧٨٠ — ١٨٠٢) فقد وسط المقيم البريطانى فى بغداد سفير دولته فى القسطنطينية لصالح الباشا، فأثاب الباشا الشركة الانجليزية على ذلك بالرعاية والعطف اللذين أسبغهما عليها وعلى نشاطها فى العراق فى مدى عشرين عاما . وقد أجابته الشركة إلى ما طلبه فى سنة

١٧٨٢ من سلاح وعتاد فجلبتهما له من بومباى ، ثم أردفت ذلك بعدد من المدربين الانجليز جاءت بهم من الهند . وقد نشط عمال الشركة فى سنة ١٧٩٨ لتحطيم الدعاية والمشروعات الفرنسية فى الشرق الأدنى ، فثبتت المقيمية البريطانية فى بغداد بتعيين مقيم بريطانى ثابت ، ثم زودته بالاختصاص القنصلى فى سنة ١٨٠٢ . وأصبحت بغداد منذ ذلك الوقت أهم قاعدة للنفوذ البريطانى فى العراق. وكانت القنصلية البريطانية فى بغداد تحتل داراً حسنة البناء يبدو فيها الموظفون والخدم بملابسهم اللامعة المزركشة والحرس الخاص من الأسباهية الهنود ،وقد رست أمامها سفينة على شاطىء دجلة رفع عليها العلم البريطانى . وعلى الرغم من حالة الحرب بين الدولة العثمانية وانجلترا (١٨٠٧) فإن الباشا المملوكى لم يتزعزع فى رعايته للانجليز . وإن النفوذ الانجليزى فى العراق فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ليدين كثيراً لمستر جيمس رتش Rich الذى عين مقيماً فى بغداد فى سنة ١٨٠٨ . وقد فتح دار الإقامة البريطانية للموظفين الأتراك والأشراف وشيوخ البادية ، كما أنه بدأ حملات التنقيب عن الآثار . ويبدو أن رتش بنشاطه الواسع واتصالاته الكثيرة قد أثار مخاوف داود باشا — أعظم الباشوات من المماليك وآخرهم (١٨١٧ — ١٨٣١) ، حتى إن الباشا لم يتورع عن أن يعلن فى سنة ١٨٢٠ أنه « لا توجد حقوق أوربية فى بغداد » ، وأردف ذلك بزيادة الرسوم الجمركية على البضائع البريطانية . ولما عزم رتش على الرحيل إلى بومباى منعه رجال داود واعتقلوه بعد معركة خاضوها مع الحرس الخاص للمقيم،ولم يأذن له داود بالسفر إلا بعد أن تلقى رسائل شديدة اللهجة من حاكم بومباى .

ثم صفا الجو بين داود باشا والمقيم الجديد ، ولكن الباشا أصبح واثقاً أنه لن يستطيع الاعتماد على شركة الهند الشرقية أو السفارة البريطانية فى القسطنطينية بل لقد أخذت هذه السفارة على عاتقها أن تكيد لداود باشا فى الدوائر العثمانية حتى نهاية حكمه (١٨٣١)[١] . فعندما صدر الأمر بحل فرق الانكشارية (سنة ١٨٢٦) وشرع داود باشا فى تدريب جيشه الجديد رفضت شركة الهند الشرقية

---

(١) أرسل السلطان محمود الثانى قوة عسكرية دخلت بغداد وكان الطاعون قد انتشر فيها وتفى داود وانتهى حكم المماليك فى العراق، ثم مات داود وهو يتولى منصب شيخ الحرم المدنى.

أن تلبي ما طلبه من الضباط والمدربين والصناع والذخائر والسفن الحربية . فلجأ داود إلى استخدام ضابط فرنسي لتدريب جنده طبقاً للأساليب الأوربية ، وقد أنشأ داود باشا في بغداد بعض المصانع الحربية واستدعى لإدارتها خبيراً فنياً من جنيف . وفي عهده بدأ الحديث عن فتح مواصلات سريعة بين أوربا والهند عن طريق الفرات ، وذلك باستخدام السفن البخارية في دجلة والفرات ، وأتى إلى العراق جماعة من الفنيين الانجليز (لمسح) هذا الطريق والوقوف على مدى إمكانياته .

العلاقات السياسية بين الشرق العربي وأوربا

بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر

وإذا كانت العلاقات التجارية بين الشرق العربي وأوربا في تلك الحقبة قد حددتها — كما رأينا — حدود معينة ولم تتجه نحو أهداف التنمية الاقتصادية ، كذلك جرت العلاقات السياسية التي قامت بين بعض حكومات الشرق العربي وبعض الدول الاوربية في تلك الفترة . فهذه الولايات العربية واقعة تحت السيادة العثمانية ، فلا تستطيع أن تمارس أي علاقة سياســية خاصة مع دولة أجنبية إلا عن طريق الدولة صاحبة السيادة ، وهي محرومة من أي تمثيل سياسي في العواصم الأوربية ، فأية علاقة ذات صفة سياسية تقوم مباشرة بين إحدى هذه الولايات ودولة أخرى أجنبية لابد أن تجرى من وراء (ظهر) الدولة العثمانية ، ولا يمكن ن أتنظر إليها الدولة بعين الارتياح ، بل كثيرا ما تكون موجهة ضد الدولة نفسها .

والحق أنه بقدر ما كانت الدولة العثمانية حريصة على تحديد العلاقات التجارية أو السياسية بين ولاياتها وأوربا خوفا في تغلغل النفوذ الأوربي ، كان أصحاب العصبيات الثائرة في هذه الولايات من باشوات وبكوات وزعماء حريصين على وصل هذه العلاقات وتنميتها ، لأنهم يرون أن قيام هذه العلاقات يسبغ عليهم (صفة) خاصة ، ويتضمن الاعتراف بالكيان الذي يعملون على اصطناعه لأنفسهم ولحكمهم ، كما أنه يمكنهم من دعم كيانهم بما يأملون أن تقدمه لهم الدولة الأوربية ذات العلاقة بهم من سلاح وعتاد وخبرة فنية . هذا إلى رواج التجارة وجمع المكوس وتنشيط الاقتصاد المحلي ، والخروج ببلادهم من نطاق العزلة التي فرضت عليهم وما يتبع قيام العــلاقات الخارجية من إيجاد مصالح متنوعة للاوربيين في بلادهم تجعل دولهم أكثر اهتماما بالولايات الشرقية وبمصيرها . وكل هذا يستخدمه حاكم الولاية أو صاحب العصبية فيها لتقوية مركزه إزاء السلطة العثمانية .

والدول الأوربية التى تتصل مصالحها بالدولة العثمانية وولاياتها فريقان : الأول يتكون من دول ترى المحافظة على تماسك الدولة بقدر الامكان . وعلى رأس هذه الدول فرنسا وانجلترا . وقد قبلت هذه الدول — بصفة عامة — الوضع الذى اصطنعته الدولة العثمانية لولاياتها ولم تحاول أن تنقضه ، بل رأت فى بقاء الدولة على تماسكها ضمانا للسلام فى الشرق .

والفريق الثانى دول ترمى إلى أن ترث الملك العثمانى أو أجزاء منه تحقيقا لأهداف حربية أو اقتصادية أو معنوية . فهى يهمها لهذا أن تثير الاضطراب فى ولايات الدولة ، ومن وسائلها لتحقيق ذلك أن تتصل بالعصبيات الثائرة على الدولة ، وتمد لها يد المساعدة فى حدود إمكانياتها وظروفها العامة . ومن هذا الفريق من الدول تسكانا فى القرن السابع عشر متأثرة بالروح الصليبية التى نشأت — أول مانشأت — فى إيطاليا واحتضنتها البابوية ، وهى ترمى قبل كل شىء إلى استرداد . البقاع المسيحية المقدسة من حكم المسلمين . ومن تلك الدول المعادية للدولة روسيا فى القرن الثامن عشر متأثرة (بصليبية) من نوع آخر ، قوامها التعصب للسلافية واسترداد عاصمة قسطنطين من سلطان العثمانيين ، ومن تلك الدول أيضا النمسا فى القرن السابع عشر والثامن عشر واتجاهها نحو الاتساع فى شبه جزيرة البلقان .

لهذا لم يتح للعلاقات التى قامت بين هذه الدول وبعض بلدان الشرق العربى أن تتطور إلى حركة عامة كبيرة يمتد خطرها بحيث ينقض الوضع الذى استقر عليه الشرق العربى منذ القرن السادس عشر ، على نحو ماتطورت إليه مثلا حركة محمد على فى القرن التاسع عشر ، فقد كانت علاقات متقطعة مترددة ، غير شرعية (إن صح هذا التعبير هنا) ، قائمة على مجرد انتهاز الفرصة ، سواء من جانب أصحاب العصبيات المحلية الثائرة أو من جانب الدول الأوربية التى اتصلت بها . وكانت ترمى إلى تحقيق أغراض مؤقتة بوقتها ، بل إن اكثرها ظل محصورا فى نطاق (المشروعات) : كالمشروعات البابوية والتسكانية والاسبانية فى القرن السابع عشر ، أو اتخذ صفة (اضرب واهرب) كما فعل الروس فى القرن الثامن عشر . لهذا لم تتطور إلى خطط إنشائية واسعة النطاق[1] ولهذا سهل للدولة القضاء

(١) لا ينطبق هذا على التوغل الروسى والنمسوى فى البلقان ، فقد كانت للروسيا والنمسا فيه خطط إنشائية واسعة النطاق .

عليها قبل أن تستفحل ، على نحو ما تطورت إليه علاقة محمد على بأوربا . ولم تمهد ظروف الحياة فى الولايات العربية العثمانية حتى القرن التاسع عشر لقيام مصالح أوربية ثابتة عميقة فيها بحيث تنهض الدول الأوربية — سواء الصديق منهـا أو العدو — لحمايتهـا والدفاع عنها بالتأييد حينا أو بالضغط ثم بالتدخل المسلح أحيانا .

والحق أن الدولة العثمانية كانت يقظى للقضاء على محاولات الاتصال بين العصبيات الثائرة فى ولاياتها وبين الدول الأوربية . قد تتهاون الدولة أو تتراخى فى القضاء على صاحب عصبية ثائر أو مغتصب طالما ظل خطره محصورا فى داخل بلاده ، ولم يسع للاتصال بدولة أجنبية يستعديها على السلطنة . ولكن أن يمتد خطره حتى ليتصل بأعداء الدولة من الأجانب فهذا أمر لا تطيق الدولة احتماله ، بل هى تبذل جهدها للقضاء عليه ، على نحو ما فعلت فى القضاء على جانبولاد فى حلب والمعنى فى لبنان فى القرن السابع عشر وظاهر العمر فى فلسطين وعلى بك فى مصر فى القرن الثامن عشر والباشوات المماليك فى العراق فى القرن التاسع عشر .

وهذه الدول الأوربية المعادية للدولة لم تشأ — أو لم تتمكن — من أن تضع هذه المشروعات موضع التنفيذ ، أو تسير فى تنفيذها إلى أبعد مما ذهبت إليه ، حملها على إلى ذلك أمران :

الأمر الأول أن هذه الدول — وأوربا بصفة عامة — لم يكن لها فى الشرق العربى فى ذلك الوقت (بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر) مصالح ثابتة واسعة تخشى عليها وتنهض للدفاع عنها إذا مسها من جانب الدولة أو من جانب السلطات المحلية سوء . فقد رأيت أن المصالح التجارية الأوربية فى الشرق العربى كانت محدودة ، وظلت — على وجه الجملة — قائمة موضع الرعاية و (والامتياز) . والاساءات أو الاهانات التى كانت تلحق بعض التجار الأجانب فى الولايات العثمانية من وقت لآخر لم تكن تصدر عن خطة ثابتة ، وإنما كانت بعض ما يتصل باضطراب الحكم وفساد الادارة وجشع الحاكمين .

والأمر الثانى أن الدول الأوربية الغربية لم يكن لها فى ذلك الوقت مطمح حقيق فى امتلاك بلاد الشرق العربى ، فلم يعد فى هذه البلاد إذا ذاك ما يجذب

إليها الفاتح المستعمر ، الذى انصرف عن الشرق الأدنى منذ تحولت عنه طرق التجارة العالمية إلى التوسع الاستعمارى فى العالم الجديد وفى الهند والشرق الأقصى .

ثم إن أوربا كانت لا بد أن تتردد كثيرا قبل أن تغامر بمنازلة الترك فى الشرق العربى ، حيث قلب الإسلام وروحه . فقد عاشت تركيا ردحا طويلا — حتى القرن الثامن عشر — مبعث رعب لأوربا ، ولم تكف الهزائم التى ألحقتها بها أوربا فى المجر والبلقان والبحر المتوسط لدحر القوة التركية وردها إلى وطنها الأصيل ، ومازالت تركيا تحمل لواء الإسلام حتى أسوار فينا (١٦٨٣) وانتزعت كريد من البنادقة (١٦٦٩) ، وكانت اسبانيا خصمها العنيد قد أنهكها طول المحن ، فنزلت عن مكان الزعامة فى أوربا ، ثم انحدرت فى القرن الثامن عشر إلى دولة من الدرجة الثانية ، والإمارات الايطالية التى كانت أول ما انبعثت منها الدعوة الصليبية ، وظلت زمنا طويلا تحمل لواء هذه الدعوة — كانت هذه الإمارات ، يكيد بعض دولها لبعض ، ويستعدى بعضها الغريب على البعض الآخر . وقد خبر البنادقة قوة الترك فى البحر المتوسط وجزائره وفى المورة ، فكانوا — كما كان أهل جنوه وفلورنسه وغيرهم من الايطاليين — أشد حرصا على مداهنة الأتراك منهم على مبادأتهم بالعدوان . أما البابا فكان أعجز من أن يدعو فى القرن السابع عشر أو الثامن عشر — إلى حرب صليبية جديدة يؤلب فيها العالم المسيحى على الترك والمسلمين .

أما روسيا والنمسا فكان البلقان ميدانهما ، وكانت تركيا لا تتزحزح عن قطعة منه إلا بجهد جهيد . وقد احتاج رد الترك عن البلقان من أوربا أربعة قرون ولا تزال لها فيه قطعة غالية من الوطن التركى !

والميدان الآخر للنشاط الروسى فى اتجاه فارس والإمارات التركية الآسيوية كان أيضا بعيدا عن الشرق العربى .

* * *

هذه العوامل كان من شأنها أن تحول اهتمام أوربا السياسى والعسكرى عن بلاد الشرق العربى فى خلال القرون الثلاثة الفاصلة بين القرن السادس عشر والقرن التاسع

عشر وتحول دون قيام علاقات سياسية بين أوربا وبلاد الشرق العربى إلافى أضيق الحدود ، حين تسعى الدول الأوربية المعادية للسلطنة لتمد أيديها إلى أصحاب العصبيات الثائرة على الدولة بالمعونة والتأييد حتى تثير على الدولة حربا داخلية تصرفها عن تكريس كل جهدها للحرب الخارجية .

وأوضح مثال لهذا النوع من العلاقات تلك التى قامت بين العصبيات السورية الثائرة على الدولة وبعض الدول الإيطالية واسبانيا ومالطة فى القرن السابع عشر . وبين بعض العصبيات السورية والمصرية وروسيا فى القرن الثامن عشر . وكذلك العلاقات بين الأوربيين والطوائف المسيحية .

كان أدواق تسكانا لا يزالون فى القرن السابع عشر يكنون روحا صليبية قوية ضد الترك والإسلام ، وكانوا يركزون اهتمامهم لفتح إقليمين من الترك : سورية — وفلسطين خاصة بما تحتويه من بقاع مقدسة — وقبرص لقربها من الساحل السورى وصلاحيتها لهذا أن تكون قاعدة للاستطلاع وللعمليات الحربية البحرية . لهذا راحوا يسعون للاتصال بكل من يستطيعون الاتصال به من أصحاب العصبيات فى سورية لنيل معونتهم لتحقيق مشروعاتهم (الصليبية) ، وكانوا لهذا يحتضنون بعض السوريين الكاثوليك ليتخذوهم أدوات اتصال بأمراء سورية وأصحاب العصبيات فيها . وكان أقواهم فى ذلك الوقت (أوائل القرن السابع عشر) على باشا جانبولاد الكردى صاحب كلس وعزاز وكان ثائرا على الدولة فى شمال سورية ، وفخر الدين المعنى صاحب الشوف فى لبنان ، وكانا قد تحالفا على الدولة وهزما جيوشها ، وبدأت أخبارهما تصل إلى دوائر السياسة الفلورنسية ، فرأت فيهما أداة لضرب الدولة وتحقيق مشروعها الصليبى . وكان فردناند الأول جراندوق تسكانا فى ذلك الوقت . وكان قبل أن يتولى إمارة تسكانا كردينالا ، وكان كبير الاهتمام بمسيحيى الشرق وخاصة الموارنة، وكان متصلا بطريركهم ، وقد أسس فى رومة المطبعة المديشية الشرقية ونشر فيها فى سنة ١٥٩٠ كتاب القداس المارونى فى طبعة متقنة مصورة (١) . وظل فرناند وعلى اهتمامه هذا بعد أن أصبح أميرا على بلاده . ففى سنة ١٦٠٧ أوفد إلى سورية رسولا حلبى الأصل وسلمه

(١) تولى إدارة هذه المطبعة فى القرن الثامن عشر خورى مورانى هو بطرس مبارك .

رسائل وهدايا الجانبولاد ، وفخر الدين وشاه العجم ، وهم جميعا خصوم السلطنة العثمانية وأوصى برسوله بطريرك الموارنة . ومعاهد الرسول مع الباشا الثائر على أن يفتح الموانى التابعة له لتجار توسكانا وأن يناصر القوة العسكرية التى يرسلها الجراندوق لسورية إذا استطاع هذا أن ينتزع قبرص من الترك .

ولكن المشروع لم يتحقق منه شىء : فالأسطول التسكانى عجز عن احتلال قبرص أو أية قاعدة أخرى بالشرق ، وحليفه جانبولاد ما لبث أن هزم وشتت الصدر الأعظم جموعه ، فاتجه فردناند إلى حليفه الآخر : الأمير فخر الدين المعنى عله يكون أصلب من جانبولاد عوداً وأكثر توفيقاً .

وكان فخر الدين المعنى الثانى ينطوى على أطماع قوية لبسط سلطانه على لبنان وسورية وفلسطين بقبول من الترك أو رغما عنهم . ولكن الظروف التى مرت به وبيلاده ، منذ أن نكب الترك الدروز فى سنة ١٥٨٤[1] ، واضطر هو إلى الاختباء خوفا من بطش الترك ، حتى اشتد ساعده فظهر وتولى حكم الشوف (١٥٩٠ — ١٦٣٥) . هذه الظروف علمته ان يكون حذرا ، فكان يمالىء رجال الدولة ويصلهم بالهدايا ، ولكنه يمضى فى جمع الجند وشحن القلاع وضم المقاطعات وإخضاع الخصوم مما أثار عليه حنق الولاة ، واستشعر فخر الدين الخوف ، فاتجه إلى الاستعانة بدولة أجنبية لتعاونه بالسلاح والعتاد والفنيين لتكوين قوة عسكرية مدربة يحقق بها أطماعه ويحتمى بها من بطش الدولة .

عاد الجراندوق فأرسل إلى فخر الدين رسولا ، فعقد معه اتفاقا على مثال ذلك الذى عقد فى العام السابق مع جانبولاد : حماية وتشجيع التجار الإيطاليين من رعايا تسكانا فى الموانى والمدن السورية التابعة للزعيم الدرزى ، وتزويده بالأسلحة والذخائر وبخبير يصب له المدافع ، استصدار أمر من البابا إلى موارنة لبنان بل مسيحيى الشرق كافة بأن يقفوا إلى جانب فخر الدين ويشدوا أزره[2] ، حتى إذا

---

(١) فى تلك السنة نهبت خزنة السلطان فى عكار وألصقت التهمة بدروز الشوف فاجتاح ابراهيم باشا والى مصر بلادهم وأمعن فيها سلبا وتخريباً حتى بلغ عدد القتلى فيما تحكى بعض المصادر السورية ستين ألفاً .

(٢) لما أزمع فخر الدين أن يكون قوة عسكرية لم يجد من الدروز العدد الكافى فاتجه إلى الموارنة، وكان أكثرهم يسكن بلاد خصمه يوسف سيفا صاحب طرابلس وعكار ، فبسط عليهم فخر الدين حمايته وشجعهم على القدوم للاقامة فى بلاده واتخذ من كبارهم مدبرين وسفراء لدى الدول الأجنبية ، ورحب ببطريركهم لما فر من بطش سيفا وساعده على إنشاء كرسى له بلبنان .

نجح الأسطول التسكانى فى فتح قبرص ، ووصل بالحملة الصليبية إلى الساحل السورى خرج إليها فخر الدين برجاله وأعانها على فتح بيت المقدس .

ولما مات فردناند سعى فخر الدين لتوثيق صلته بخلفه كوزما الثانى (١٦٠٩) . كما سعى لعقد صلات مع البابا بولس الخامس ، فأرسل لهذا الغرض (١٦١١) المطران جرجس بن مارون الإهدنى الذى رشحه البطريرك المارونى يوحنا مخلوف لهذه المهمة .

وأقام المطران المارونى أكثر من عام فى إيطاليا ، ثم عاد إلى سورية دون أن يظفر بشىء .

وصلت قطع من الأسطول التسكانى ، ولكنها عجزت عن فتح قبرص ، وقنع فخر الدين بأن استخدمها فى الإغارة على طرابلس مقر خصمه العنيد يوسف باشا سيفا . وعدا ذلك لم تثمر تلك الاتصالات سوى إثارة شكوك السلطان وحنقه على الأمير الدرزى المتحالف مع المسيحيين .

ووقف الأمير فخر الدين وحده يواجه القوات البرية والبحرية التى وجهتها عليه الدولة،حتى إذا انكسر خرج لاجئا لدى صديقه جراندوق توسكانا (١٦١٣) .

حاول الأمير فى أول الأمر أن يظهر بمظهر الزعيم صاحب النفوذ الكبير الذى أتى لينال مساعدة أوربا المسيحية على استرداد البقاع المقدسة فى مقابل مساعدته — وخاصة فى البحر — على الاستقلال من حكم الترك . ولكن أوربا المسيحية لم تتحمس للشروع التحمس الكافى . وخشى البابا أن لايجدى المشروع إلا فى إثارة غضب الترك ودفعهم إلى الانتقام من رعاياهم المسيحيين . أما الجراندوق فرأى قبل أن يتخذ قراراً أن يرسل بعثة[1] من بعض الخبراء إلى لبنان لدراسة أحوال البلاد : موانيها وقلاعها وطرقها ومواردها وقوة أميرها وقدرته على المعاونة فى هذا المشروع الخطير .

---

(١) كانت البعثة مؤلفة من ثلاثة خبراء : أحدهم ضابط والآخر جيولوجى والثالث مهندس . وقد نقلت البعثة صوراً ورسوماً لأهم موانئ لبنان وقلاعه ، كما أخذت (عينات) من أحجاره . وبعد عودة البعثة قدم كل من الخبراء الثلاثة تقريراً للجراندوق، وفى هذه التقارير — وقد نشرها الاب قرآلى فى كتابه عن فخر الدين — خلط كثير .

وأدرك فخر الدين عجز القوى المسيحية فى إيطاليا وأسبانيا ومالطة وتشاحنها فيما بينها. وكان الغراندوق قد أخذ يضيق بهو بنفقاته ،وبدا للأمير أن تلويحه بمشروع استرداد البقاع المقدسة لم يعد بجدى ، فرأى أن لا سبيل أمامه إلا معالجة موقفه مع الباب العالى إما بالعنف أو بالملاينة . وأقام فى فلورنسة ينتظر فرصة مواتية ليعود إلى وطنه ، فلما ضاق بالإقامة فيها انتقل إلى مسينا ثم إلى بالرمو فنابلى ليكون فى رعاية ملك أسبانيا ، وليجرب معه ما عجز عن نيله من جراندوق تسكانا .

وبعد ثلاث سنوات أخرى قضاها بالمنفى عاد فخر الدين إلى بلاده (سنة ١٦١٨) بعد أن اطمأن إلى أن الظروف فيها قد أصبحت مواتية له. ولكن سنوات النفى لم تخفف من حدة أطماعه ، وعاد فسعى حتى مد سلطانه من حلب شمالا إلى قرب القدس جنوبا ، بل قيل منحه السلطان لقبا خاصا هو (سلطان البر) .

ولا شك أن السنوات التى قضاها فخر الدين بإيطاليا وصقلية وزيارته لمالطة قد أوقفته على أشياء كثيرة لم يكن له بها عهد من قبل : كأنظمة الحكم ومظاهر الحضارة والعمران ، فسعى إلى اقتباس كثير منها لبلاده بعد رجوعه إليها. ولهذا الغرض استدعى بعض الخبراء الفنيين فى العمارة والزراعة والفنون العسكرية وطبيبا[1] وصيدليا ، وبعض العائلات من الفلاحين لتدريب اللبنانيين على طرق الزراعة المتبعة فى إيطاليا ومعهم الأدوات الزراعية اللازمة وعدد من الأبقار الممتازة .

اتخذ فخر الدين بعد عودته بيروت مقرا له ، وبنى له بها قصرا بديعا ، وأحاطه بالبساتين الجميلة التى وصفها معاصروها بأنها من (عجايب الدنيا) ، كما أنشأ حديقة للحيوان وأقام برج الكشاف، ليكشف عن السواحل والبحار . ووقف فخر الدين فى إيطاليا على أعمال الصيرفة ، فأخذ يرسل فى كل سنة كميات من الحرير،وأمر بأن تودع أثمانها باسمه واسم أولاده الصغار فى مصرف الرحمة بفلورنسة لتشترى بها سندات .

ولكن العلاقات مع الباب العالى عادت إلى السوء ، وعاد فخر الدين يلوح بمشروع الأراضى المقدسة ، وتحمس رجال الدين الموازنة للمشروع واوصوا به

(١) شكا قنصل تسكانا بصيداً من جهل هذا الطبيب واقتصاره على التطبيب بالسحر والشعوذة واستدعاء الأرواح بواسطة وسيط استدعاه من تسكانا ! .

لدى البابا لأنهم « يعدون مملكته ميناء يلجأ إليه المسيحيون فى الشرق هربا من عواصف الأتراك الهوجاء[1] » .

وتجددت السفارات بين فخر الدين والدوائر الايطالية والاسبانية . ولكن انشغال دول أوربا بحرب الثلاثين عاما — كما قيل لفخر الدين — حال دون « تجهيز الفرق المسيحية لتصعق قوات الجحيم ، فاكتفت بالدعاء إلى الله ، أن يبلغ الأمير مرامه فى العمل الشريف الذى باشره على يده[2] » !

ثم تأزمت العلاقات بين فخر الدين والباب العالى (١٦٣٤) وسير السلطان عليه حملة قوية فى البر وفى البحر ، وبدأت هزائمه تتوالى ، فاتجه ـ للمرة الأخيرة ـ إلى الكرسى الرسولى وبلاط تسكانا ، وبينما كان رسوله المطران المارونى جرجس يتردد بين رومه وفلورنسه داعيا لمشروعه كانت القوات العثمانية تطبق على سيده فى قمعة جزين وتسوقه إلى القسطنطينية حيث يلقى مصرعه (١٦٣٥) .

وتزداد الإمارات والجمهوريات الإيطالية ضعفا ، وتبسط النمسا نفوذها على ايطاليا ، فيزول خطرها فى البحر المتوسط ، وتنهار مكانتها التجارية فى الأوساط الشرقية ، وبذلك ينتهى (دورها) فى المسألة الشرقية .

* * *

وبقدر ما يهبط النفوذ الإيطالى فى المسألة الشرقية يعلو نفوذ انجلترا وفرنسا ، وقد أخذتا — بصفة عامة — حتى القرن التاسع عشر بمبدأ المحافظة على الدولة العثمانية . كما عملتا فى الوقت نفسه على ترويج تجارتهما فى الأسواق الشرقية . كما أخذ يعلو نفوذ روسيا والنمسا متعاونتين أو متخاصمتين ، حددت الأولى هدفها : القسطنطينية والمضيقين ومياه المتوسط الدافئة . وشرعت الأخرى تمد سلطانها فى البلقان .

وتطلعت روسيا فى حروبها التى كانت لا تكاد تهدأ ضد السلطنة إلى الاتصال

---

(١) من كتاب البابا أوربان الثامن إلى بطريرك الموارنة ، وكان بعض الموارنة يروج لفكرة أن فخر الدين من أحفاد جودفروا دى بويون القائد الصليبى الشهير !

(٢) قيل إن حبوط المشروع يعود إلى ما كان من تحاسد بين أسرة مديتشى الحاكمة فى تسكانا وأسرة بربرينى الحاكمة فى رومة ، وهذا قسم فخر الدين (الأسلاب) بين الأسرتين فى مشروعه الأخيرة : فللأولى بيت المقدس وللأخرى قبرص !

بأصحاب العصبيات الثائرين على الدولة فى منطقة البحر الأبيض المتوسط ، وكانت قد سيرت أسطولها فى البلطيق حتى المتوسط ، فوجدت منهم على بك الأمير المملوكى الكبير فى مصر وظاهر العمر الزعيم البدوى فى فلسطين .

وكان على بك قد تحدى الدولة فامتنع عن أداء مال السلطان ، وطرد نائبه من مصر ، ورفض أن يستقبل نائبا بعده ، وقضى على خصومه المنافسين له ، وكون قوة عسكرية كبيرة . وأخذ يسير فى الحكم سيرة الحاكم المستقل . ومد بصره إلى بعث النفوذ المصرى فى الحجاز والشام وإحياء تجارة البحر الأحمر .

أما ظاهر العمر فكان لايقل عن حليفة المصرى نشاطا ونزوعا إلى الاستقلال وبسط السلطان ، والحق أن كلا منهما قد هالته حالة بلاده تحت الحكم العثمانى ، وما هى عليه من التشتت والانقسام والتنازع بين العصبيات المختلفة ، مما أغرق البلاد فى بحر من الفوضى . فعزم على أن يجمع هذا (الشتات) فى بناء واحد، ويسترد لهذا البناء دوره (التاريخى) طوال العصور الماضية ، فيخرج به من نطاق العزلة التى عملت الدولة على فرضها على تلك البـــلاد ، ويعيد إليها مكانتها وحيويتها كعامل سياسى واقتصادى له وزنه فى الشرق الأدنى وحوض البحر الأبيض المتوسط .

لهذا سعى كل من الزعيمين للاتصال بالعالم الخارجى : اتصل على بك أولا بجمهورية البندقية فوعدته بالمساعدة ، ولكن البندقية إذ ذاك بلغت من الضعف حدا جعلها عاجزة عن أن تبذل أى نشاط عدائى ضد السلطنة العثمانية فى البحر المتوسط ، فلم تستطع لهذا أن تقدم أى مساعده عملية لعلى بك .

واتصل على بك أيضا بالسلطات البريطانية فى الهنـــد وأبدى استعداده لاستقبال سفنها فى موانيه، كما تعهد ببسطه حمايته على المسافرين والتجار الأجانب الذين ينزلون فى بلاده .

ثم اتصل على بك بالسلطات الروسية البحرية فى البحر الأبيض المتوسط ، وتحدث مع رسلهم — أواتفق معهم — على أن يزودوه بالسلاح والفنيين لتقوية جيشه فى مقابل أن يخلع طاعة السلطان ويسير إلى قتال جيوشه فى سورية ، وأن يسمح للسفن الروسية بالتردد على الموانى المصرية والتزود منها بما تحتاج إليه من

المؤن ، على أن يكون الأسطول الروسى درعاً يحميه إذا سيرت عليه الدولة العثمانية قوة من جانب البحر .

وأكبر الظن أن على بك كان مستعداً ليعقد مثل هذا الاتفاق مع أية دولة أوربية أخرى ، تمكنها سياستها إزاء الدولة العثمانية وظروفها فى البحر الأبيض المتوسط من ذلك ، تدعيماً للخطة العامة التى سار عليها فى بعث الدولة المصرية واقتباس الوسائل الفنية الكفيلة بهذا البعث وخاصة فى الناحية العسكرية .

ولكن عهد على بك لم يطل (١٧٦٧ — ١٧٧٣) والمساعدات الروسية التى وعد بها لم تصله ، وثبت أن نزعات التشتت كانت أقوى من جهوده فى التوحيد ، ثم ما لبثت الحرب الروسية التركية أن وضعت أوزارها (١٧٧٤) فوقف مشروع التحالف الروسى المملوكى ، وإن لم تتخل روسيا نهائياً عن سياسة الكيد للدولة فى ولاياتها والاتصال بالأمراء والزعماء فى مصر والشام .

ولم يكن اتصال الروس بظاهر العمر أقوى أثراً من اتصالهم بعلى بك . وقد بدأ هذا الاتصال منذ مد ظاهر العمر الزيدانى سلطانه إلى الساحل السورى ، فدخلت عكا ثم صيدا فى نطاق حكمه ، وقد فتح ظاهر بلاده للتجار الأجانب فلقوا فى ظله من الرعاية ما أطلق الألسنة بالثناء عليه[1] . ورأى فيه الكونت ألكسيس أورلوف قائد الأسطول الروسى فى شرقى البحر الأبيض المتوسط حليفاً يركن إليه ، فكان ابراهيم الصباغ وكيل الشيخ واسطة الاتصال بين سيده والأميرال الروسى . واستعان ظاهر بقوات حليفه على بك فأتت يقودها محمد أبو الذهب وأعانته فى التغلب على باشا الشام وانتزاعها منه .

ولكن أبا الذهب سرعان ما انقلب على سيده ، وجمعت الدولة القوات الموالية لها بالشام على ظاهر ، وأعلن أحمد الجزار الحاكم فى بيروت نائباً عن أميرها الدرزى يوسف الشهابى خلع طاعته لسيده ودخوله فى طاعة السلطان ، فتحرج مركز الشيخ ظاهر فاتصل بالروس لينفذوا ما وعدوه به من المساعدة . ووجدها الروس فرصة سانحة للنهب وجمع المال تحت ستار تأييد ظاهر ، فأخذوا من الشيخ مبلغاً من المال تلقاء ضرب خصومه من الساحل ، وأتت سفن روسية وضربت

---

(١) ذكر فولنى أن جالية من روم قبرص أتوا إلى سورية فرحب بهم ظاهر العمر وأسكنهم تحت أسوار عكا ، فزرعوا الأرض بساتين .

بيروت بالمدافع ، ثم أخذوا ٦٠٠ كيس لقاء امتناعهم عن نهب المدينة ، وبقوا خمسة أشهر (أكتوبر ١٧٧٣ — فبراير ١٧٧٤) حتى تسلموا ذلك القدر من المال ورفعوا علمهم فوق أبراج المدينة ، وعلقوا صورة امبراطورتهم فوق بابها الرئيسى . ثم نقلوا وفدا من الدروز ليقدم للامبراطورة هدية من جياد الخيل . وكانت هذه هى (المساعدة) الروسية الوحيدة للشيخ ظاهر العمر .

وكذلك اتصل ظاهر العمر بفرسان القديس يوحنا فى مالطة ، وكانوا فى حرب متصلة مع الدولة العثمانية اتخذت شكل القرصنة ، فكتب ظاهر إلى رئيسهم أو « مدير جمهور الدولة المالطية » على حد تعبيره — يعرض عليه صداقته . وأرسل إليه هدية من كرام الخيل (١٧٥٣)(١) .

ثم عادت روسيا إلى اهتمامها بالشرق عندما تجددت الحرب بينها وبين السلطنة العثمانية (١٧٨٧) . وكان النزاع بين الأمراء المماليك فى مصر على أشده منذ وفاة أبى الذهب ، فابراهيم ومراد فى جانب ، واسماعيل فى جانب آخر . وكانت الدولة قد أرسلت إلى مصر حملة بحرية يقودها قبطان البحر حسن باشا ، ولكنها لم تستطع أن تفعل شيئا إلا أن غلبت اسماعيل على منافسه . حتى إذا عاد حسن باشا إلى القسطنطينية عاد إبراهيم ومراد إلى الحكم بالقاهرة . وكان كل فريق من هؤلاء الأمراء لا يقل عن الآخر رغبة فى الارتباط بروابط الصداقة مع دولة أوربية ليستعين بها على دعم نفوذه . وقد شجع مراد وابراهيم على إحياء طريق البحر الأحمر ، وعقد مراد مع ترجويه المبعوث الفرنسى عدة اتفاقات لتنظيم مرور التجارة الفرنسية عبر الأرض المصرية وحمايتها . وزاد إبراهيم ومراد على ذلك فاتصلا بالروس : أرسلا (١٧٨٣) رسولا إلى بلاط القيصرة يحمل إليها مقترحات بعقد تحالف بين الحكومتين ، بل قيل إن مراداً عرض على روسيا أن يعطيها — وقت الحرب مع الدولة العثمانية — حق إقامة حاميات بالإسكندرية ورشيد ودمياط فى مقابل اعترافها باستقلال مصر . وفى العام التالى جاء رسولان من روسيا لفحص هذه الأماكن تمهيدا لانزال حاميات روسية بها ، واستقبل مراد

---

(١) ذكر فولنى أن بعض قراصنة مالطة هاجمت سفناً تركية ثم باعت مانهبته فى سوق عكا وهاجت الدوائر العثمانية ، ولكن ظاهراً ادعى جهله بالحادث وأرسل بعض سفنه لمطاردة سفن القرصنة ، ولكنها (اتصلت) بها فى عرض البحر بعيداً عن أعين الرقباء !

قنصلا لروسيا بالإسكندرية[١] ، ولا شك فى أن هذا القنصل أساء إلى قضية حليفيه عند ما أعلن للقبطان باشا أن الأميرين فى حماية القيصرة !

ثم تولى اسماعيل مشيخة البلد ، وكان لا يقل عن منافسيه رغبة فى نيل صداقة دولة أجنبية ، تكون صديقة للباب العالى ، كفرنسا أو انجلترا . لهذا سار اسماعيل — هو الآخر — فى مشروع إحياء طريق مصر والبحر الأحمر للتجارة الفرنسية والانجليزية . واتصل بالحكومة الفرنسية وطلب منها مدافع وفنيين ، وحاولت روسيا أن تجرب صداقتها مع اسماعيل : فى أغسطس ١٧٨٨ وصل إلى دمياط القنصل الروسى السابق على ظهر فرقاطة مسلحة بأربعين مدفعا ومعه سفينتان محملتان أسلحة وذخائر وهدايا ، واستدرجه اسماعيل بك — رجل السلطان ومختار قبطانه — إلى القاهرة ، حيث أودعه سجن القلعة . بعد أن كاد الناس يفتكون به .

ثم عاد مراد وإبراهيم مرة أخرى إلى الحكم ، وقد ظهر لهما منذ ولايتهما الأولى أن روسيا لم تصنع لهما شيئاً ، بل هى صديقة (خطرة) ، فراحا يبحثان عن صديق آخر ، واتجها هذه المرة إلى الأمبراطورية ، ففكرا فى أن يرسلا إلى فينا رسولا ليعرض على حكومتها ما سبق أن عرضاه على الروس ، على أن تتعهد بأن لا تبرم صلحا مع تركيا إلا على شرط استقلال مصر[٢].

ولسنا نعرف شيئا عن مصير هذا العرض ، هل قدم للحكومة النمسوية أم لم يقدم ، ولكن روسيا ظلت دائبة على الاهتمام بمصر . فى سنة ١٧٩٠ راجت شائعة — قدم بها أنسلى للسفير البريطانى تقريراً إلى الباب العالى — بأن روسيا شارعة فى إعداد أسطول ترسله إلى البحر الأحمر لهدم مينائى جده وينبع ونهب مكة والمدينة ونبش قبر الرسول وتحطيم السفن الإسلامية فى البحر الأحمر[٣] ؛ وأن هذا الأسطول سيكون متخفياً فى شكل سفن تجارية تحمل العلم الهولندى .

---

(١) هو البارون دى تونيس Baron de Thonus ، ذكر مجالون القنصل الفرنسى أن إبراهيم كان أشد من مراد تحمساً للتحالف مع روسيا ، وأن تونيس أدخل فى بلاط الأميرين عدداً من (المماليك) الروس ، وقد اتهمه مجالون بأنه كان يكيد للفرنسيين لدى مراد ، وقد عد مصرعه فى سجن القلعة (حادثاً سعيداً) .

(٢) قال بلدوين التاجر والقنصل الانجليزى بالقاهرة إن ابراهيم ومراد عرضا عليه أن يكون سفيرهما إلى النمسا لقاء مبلغ كبير من المال .

(٣) وهذا المشروع يشبه مشروعاً للبرتغاليين فى أوائل القرن السادس عشر .

وأرسل الباب العالى أوامره إلى مصر للتنبه إلى هذا الخطر .

° ° °

هذه ألوان من العلاقات السياسية التى قامت فى فترات مختلفة بين بعض الدول الأوربية وبعض الولايات العربية تحت الحكم العثمانى ، ورأينا أنها كانت — كما قلنا — تجرى من وراء (ظهر) الدولة صاحبة السيادة ، وكانت تستهدف خلق المصاعب — أو زيادتها — لهذه الدولة ، تحقيقاً لأطماع الدول الأوربية ، لهذا مضت كلها — تقريباً — دون أن تخلف آثاراً تكفى لبناء مستقبل ثابت فى مجال العلاقات العربية الأوربيـــة . قد يستثنى من ذلك علاقات الطوائف الكاثوليكية فى الشرق العربية بالبابوية وفرنسا ، وخاصة الموارنة فى جبل لبنان. أما البابوية فبسبب زعامتها للكاثوليكية فى العالم . أما فرنسا فبسبب ما كانت تدعيه لنفسها من حق حماية الطوائف المسيحية ببلدان الشرق

كانت سورية بما فيها لبنان وفلسطين — دائماً موضع اهتمام البعثات الدينية الإيطالية والفرنسية . منذ أيام الحروب الصليبية،وكانت تتطلع — بعد انتهاء هذه الحروب — إلى (صليبية) سلمية لنشر المذهب الكاثوليكى فى تلك البلاد . وقد كان التفوق أولا للفرنسسكان من الإيطاليين ، ثم للكابوشيين . وقد مد لهم الأمير فخر الدين المعنى الثانى فى حمايته ، حتى تذكر بعض المصادر أنه تنصر سراً على أيديهم . وقد عنوا إلى جانب مهمتهم الدينية بإنشاء بضع مدارس صغيرة فى لبنان، علموا فيها أطفال الموارنة اللغات العربية والفرنسية والإيطالية ، حتى إذا انتهى حكم فخر الدين لم يبق للكابوشيين من سند فاضطهدتهم السلطات الحاكمة ، وأخذ اليسوعيون الفرنسيون مكانهم وتابعوا نشاطهم الدينى والتعليمى .

وفى القرن الثامن عشر أيضاً استقرت أوضاع الكنيسة المارونية وعلاقتها بالبابا ، فقد جرت العادة أن يختار الموارنة بطريركهم — وهو زعيمهم الروحى ورئيس طائفتهم فى الوقت نفسه — ثم يقره البابا فى مركزه . ومنذ القرن السادس عشر حرص الموارنة على توثيق صلتهم برومة ، فكانوا يستقبلون مبعوثى البابا ، ثم أخذوا بالتقويم الجريجورى ، وحرص البابوات فى الوقت نفسه على تقوية نفوذهم على الكنيسة المارونية ، فأنشأ البابا جريجوار الثانى عشر (الكلية الشرقية) برومة ، وكان القسس الموارنة يلحقون بها ليتموا تعليمهم

الديني ، وأثمرت هذه العلاقة ثمرتها : ففي سنة ١٧٣٦ عقد مجمع مقدس في لبنان برياسة مبعوث للبابا — كان أحد رجال الدين الموارنة من خريجي الكلية الشرقية بروما — (يوسف السمعاني) ، وقد أعطت قرارات هذا المجمع للكنيسة المارونية في لبنان نظامها النهائي ونسقت تبعيتها للكرسي المقدس .

وبعد حل اليسوعيين (١٧٧٣) خلفهم العاذاريون — ولم يكن نشاط رجال هذه البعثات التبشيرية مقصوراً على علاج الروح ، وإنما كان يطلب منهم تطبيب البدن أيضا ، فقد كان الشرقيون لا يفرقون بين الأجنبي والطبيب ، وكان هؤلاء المبشرون ينتقلون في القرى يحملون ألوانا مختلفة من الدواء ، كما كان منهم مستشارون للمشايخ اللبنانيين من الموارنة ، وهم لم يتوانوا قط عن التبشير لفرنسا والملكية الفرنسية . فكانت الفرق التبشيرية الفرنسية من أهم الدعائم التي بنت عليها فرنسا نفوذها (الأدبي) في لبنان في تلك الأيام . وقد أنشأ اليسوعيون الفرنسيون في لبنان أول مركز للثقافة الفرنسية ، وهي المدرسة التي أنشأوها في قرية عينطورة ، وقد تعلم فيها أجيال من شباب الموارنة . ومنهم من أتم دراسته في الكلية الشرقية بروما أو بمدارس فرنسا . ومن ذلك أنه في سنة ١٧٠٠ خصصت ١٢ منحة دراسية لأطفال من أبناء الطوائف المسيحية الشرقية ليتعلموا في كوليج لوي لجران (Collège Louis le Grand) لينشئوا على المذهب الكاثوليكي والثقافة الفرنسية ، ثم ليكون منهم بعد ذلك المترجمون في القنصليات الفرنسية بالشرق . ولكن التجربة لم تفلح فعدل عنها إلى وسيلة أخرى : وهي إعداد شبان من الفرنسيين لهذا الغرض في الكوليج دي فرانس ثم مدرسة اللغات الشرقية بباريس .

واستغلت فرنسا هذا الوضع للتقرب إلى أصحاب العصبيات في لبنان وخاصة المشايخ الموارنة . كما استغلت بعض الأسر المارونية لاجتناء منافع خاصة . ومن ذلك أن لويس الرابع عشر قبل إلحاح رجال البعثات الفرنسية على حكومته لتعيين الشيخ أبي نوفل الخازن نائباً لقنصل فرنسا في بيروت (سنة ١٦٥٥) ، ثم قنصلا بها بعد جعلها أسكلة مستقلة (١٦٦٢) ، وقد ظل هذا المنصب في أسرة الخازن نحو مائة عام تولاه منهم أربعة[1] . والحق أن مطالب المشايخ الخوازنة من

(١) ظلت أسرة الخازن على ولائها لفرنسا: ففي أثناء الحرب الكبرى الأولى كان الشيخ فيليب الخازن مترجماً بالقنصلية العامة لفرنسا في بيروت ، وأخوه الشيخ فريد خدم فرنسا على صفحات الجرائد ، وقد أعدمتهما السلطات التركية شنقاً بتهمة الخيانة في ٦ يونيه ١٩١٦ .

الحكومة الفرنسية ، ومن لويس الرابع عشر خاصة — كانت لا تنقضى ، فكانوا دائماً يضربون على نغمة اضطهاد السلطات التركية للموارنة ، ويلوحون بالخطر على المسيحية فى لبنان إذا لم تبادر فرنسا بانقاذهم . وكثيراً ما لبت الحكومة الفرنسية هذا النداء فتدخلت لدى حكومة الباب العالى — بواسطة سفيرها لديه — لرفع ظلم أورد عادية عن موارنة الجبل . ولكن الحكومة الفرنسية — فى الوقت نفسه — كانت حريصة على أن لا تمضى فى هذا السبيل إلى حد إثارة غضب السلطان ، وقد كان حليفها ، وقد يؤدى هذا الغضب إلى ازدياد مركز الموارنة والطوائف المسيحية فى الشرق سوءاً .

والحق أن الباب العالى كان لا يرتاح إلى توثيق العلاقات بين الموارنة وفرنسا ، فهو لا يرحب بأن تقوم أى دولة — مهما بلغت صداقتها له — واسطة أو حكما بينه وبين طائفة من رعاياه . وإذا كانت السلطنة العثمانية قد حرصت على أن تضع نشاط الطوائف غير الإسلامية فى الامبراطورية فى قوالب وأوضاع محدودة إلا أنها كانت بعيدة عن روح التعصب الدينى ، بل إن هذه الطوائف كانت تتمتع فى الكيان العام بحرية وحكم ذاتى لا شك كانت تحسدها عليهما كثير من الطوائف المسيحية فى أوربا نفسها .

وقد ساء الباب العالى أن تعين الحكومة الفرنسية قنصلا لها فى بيروت من أبناء البلاد ، وخاصة حين راح هذا القنصل — الخازنى — بقيه بعلم فرنسا وشعار ملكيتها يرفعهما فوق داره ، ورضحت الحكومة الفرنسية لاعتراض الباب العالى فانتزعت هذا المنصب من الخوازنة . وإن كانت بعد ذلك بأربعين عاما عينت مارونيا آخر هو الشيخ غندور سعد الخورى قنصلا لها فى بيروت استجابة لطلب الأمير يوسف الشهابى من الملك لويس السادس عشر (سنة ١٧٨٧) .

على أن الموارنة أنفسهم قد ضاقوا فى بعض الأحيان بالنفوذ الفرنسى الذى سعت فرنسا إلى إحكامه عليهم . ومن ذلك أن الموارنة فى منطقة طرابلس ضاقوا ذرعاً بتدخل قنصل فرنسا فى انتخاب بطريرك معين للموارنة وأبانوا أنهم لا يعترفون بأى سلطة إلا سلطة العثمانيين ، وهددوا بالالتجاء إلى السلطات العثمانية لوقف

تدخل القنصل الفرنسى فى مسألة داخلية تمس الطائفة فى صميم حياتها الروحية والزمنية (١).

وهكذا عن طريق فرنســا وإيطاليا كان الموارنة أكثر الطوائف اتصالا بالحضارة الغربية . وللعلماء الموارنة فضل تعريف الغرب بكتب الآداب السريانية ، كما كان لهم فضل تعريف مواطنيهم بنماذج من الثقافة الغربية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت . لأن خريجى الكلية الشرقية خاصة نشروا فى أوربا معارف الشرق : لغاته وتاريخه وديانانه وآدابه ، فكانوا أكبر عون للمستشرقين الأوربيين ، حتى إذا عادوا إلى بلادهم كتابا أو علماء أو قسسا — وكثيراً ماجمع الواحد منهم بين الكتابة والعلم واللاهوت — كانوا الصلة لتعريف مواطنيهم بالحضارة الغربية . ومن أشهر هؤلاء العلماء « الدويهى » الكاتب المؤرخ البطريرك (١٦٧٠ — ١٧٠٤) ومنهم أفــراد من أسرة السمعانى كيوسف السمعانى أمين مكتبة الفاتيكان (١٧٨٦) و « جبرائيل الصهيونى » (المتوفى سنة ١٦٨٤) الذى بعد أن أتم تعليمه فى رومة : دعاه ملك فرنسا لويس الثالث عشر إلى باريس حيث أصبح أستاذاً للغات الشرقية فى كوليج دى فرانس (كوليج رويال فى ذلك الوقت) ، كما شغل منصب مترجم الملك ، وقد نشر عدة مؤلفات علمية منها أجرومية عربية عرفت باسم صناعة النحو . ومنهم « يوحنا الحصرونى » وقد نشر رسالة عن عادات أهل الشرق ، كما اشترك فى ترجمة الادريسى ووضع رسالة دينية باللغة العربية . ومنهم (ابراهيم الحاقلانى) الذى أصبح أستاذاً للغتين العربية والسريانية برومة ، وقد قام بالمفاوضات بين فخر الدين المعنى والبابا إربان الثامن و « اسحاق الشدراوى » أسقف طرابلس الذى أصبح أستاذاً للسريانية فى ميلان .

ولا شك أن قيام الطباعة العربية فى أوربا — وفى إيطاليا أولا بصفة خاصة — كجزء من حركة النهضة والإحياء قد ساعد على نشر أبحاث العلماء الموارنة ، كما مهد لنشر المعارف الشرقيـــة فى أوربا . وقد أسست أول مطبعة عربية فى إيطاليا بأمر من البابا يوليوس الثانى فى أوائل القرن السادس عشر وقد نشرت هذه

---

(١) علق المؤلف الفرنسى ريستلهوبر على ذلك بأن الموارنة بسلوكهم هذا قد أعماهم الغضب حتى أنساهم ماضيهم ! وحذرهم السفير الفرنسى فى القسطنطينية بمواقف هذا الوقت مذكراً إياهم بأن طائفتهم هى وحدها التى تتمتع بامتياز أن يكون لها حق اختيار بطريركها دون الحاجة إلى استصدار فرمان من السلطان بتعيينه فى منصبه .

المطبعة أول كتاب طبع باللغة العربية وهو كتاب « صلاة السواعى » (سنة ١٥١٤) ثم انتقلت الطباعة العربيــة إلى جنوة حيث نشر (١٥١٦) سفر الزبور بأربع لغات ـ هى العبرية واليونانية والعربية والكلدانية مع ترجمة لاتينية ؛ ثم انتقلت الطباعة العربية بعد ذلك للبندقية وطبع بهــا القرآن باللغة العربية (١٥٣٠) . ثم توالى نشر كتب من الكتب باللغة العربية من المطابع الإيطالية ؛ وأكثرها كتب دينية ، وذلك لحاجة البعثات التبشيرية الكاثوليكية لها فى بلاد الشرق ، وكذلك نشرت كتب علمية ـ منها كتاب (البستان فى عجائب الأرض والبلدان) وقد طبع فى مطبعة مدرسة الآباء اليسوعيين برومة (١٥٨٤)، وكتاب (مبادىء اللغة العربية) وكتاب (نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والآفاق) للادريسى (١٥٩٢) وقانون ابن سينا فى الطب وفى آخره كتاب النجاة ، و(تحرير أصول أقليدس) لنصر الدين الطوسى (١٥٩٥) ، وغيرها من الكتب الدينية واللغوية والعلمية .

وأنشئت مطبعة ليدن بهولندة سنة ١٥٩٥ ، والمطبعة الملكية بباريس وكان أول كتاب عربى طبع بها كتاب صناعة النحو الذى تقدم ذكره للعالمين القسين المارونيين جبرائيل الصهيونى ويوحنا الحصرونى ، ثم أسست مطبعة فى لندن وأهم مطبوعاتها الأولى (تاريخ الدولة الخوارزمية) لأبى الفداء سنة ١٦٥٠ ، ثم مطبعة اكسفورد فى منتصف القرن السابع عشر ومن أهم ما أصدرته كتاب عبد اللطيف البغدادى عن رحلته فى مصر (سنة ١٨٠٠) ، وانتشرت الطباعة العربية فى العواصم الأوروبية وتوالى صدور الكتب العربية .

وكما نشأت الطباعة بحروف عربية فى أوربا مرتبطة بجهود البعثات التبشيرية الكاثوليكية كذلك نشأت على هذا النحو فى بلاد الشرق ، وكانت مطبعة الآستانة العبرية أول مطبعة أنشئت بالشرق ، وقد نشرت — فيما نشرت — بعض الكتب العربية ولكن بحروف عبرية ، ومن ذلك بعض رسائل ابن ميمون فى اليهودية وترجمة للتوراة إلى العربية (١٥٥١) . أما الطباعة بحروف عربية فلم تبدأ فى هذه المطبعة إلا فى أوائل القرن الثامن عشر . ولم تنشأ هذه المرة بجهود رجال الدين والتبشير ، وإنما تقدم بمشروعها للصدر الأعظم نجل السفير العثمانى فى باريس ، وقد احتاج الأمر إلى استصدار فتوى من شيخ الإسلام اقصدرت رخصة السلطان

بإنشاء المطبعة ، على أن لا تتصدى لطبع كتب التفسير والحديث والفقه والكلام وكان أول مطبوعاتها (صحاح الجوهري) مترجما إلى اللغة التركية . ولكن المطبعة ما لبثت أن تعثرت وقل إنتاجها ، وكان أكثره باللغة التركية .

وكذلك كانت أول مطبعة أنشئت بالشام لطبع الكتب العبرية ، وهى مطبعة دير قزحيا جنوبى طرابلس فى أوائل القرن السابع عشر وقد طبع فيها كتاب (المزامير) باللغتين السريانية والعربية بالخط الكرشونى (سنة ١٦١٠) ثم أنشئت أول مطبعة عربية بحلب فى أوائل القرن الثامن عشر ، أنشأها بطريرك أنطاكية وكان أول مطبوعاتها كتاب فى الطقوس الدينية (١٧٠٢) ثم الإنجيل (١٧٠٦) .

وقد أنشئت ثالث مطبعة عربية بالشرق ، وهى التى أنشئت فى دير مرحنا بالشوير من أعمال لبنان حوالى سنة ١٧٣٣ . وكانت أكثر مطبوعاتها كتبا دينية .

وأنشأ الروم الأرثوذكس فى دير القديس جاور جيوس فى أواسط القرن الثامن عشر مطبعة عربية لينافسوا بمطبوعاتها الدينية مطبعة الشوير . أما فى مصر فكانت مطبعة الحملة الفرنسية أول مطبعة أنشئت بها .

على أننا نلاحظ أن أثر هذه الطباعة العربية التى كانت قائمة سواء فى أوربا أوفى الشرق قبل القرن التاسع عشر فى الثقافة العربية كان ضئيلا ، أو منعدما إلا فى الناحيه الدينية ، لتيسير عمل المبشرين كما ذكرنا .

ذلك لأن (المطبعة) تحتاج لتؤتى ثمرتها إلى توافر عوامل ومقومات أخرى مكملة بل لازمة لها : منها إيجاد البيئات العلمية التى تزود المطبعة بإنتاجها من ناحية وتلتهم إنتاجها من ناحية أخرى ، والنهوض بالمرافق المختلفة للدولة ، من تعليم وصحة وجيش وأسطول واقتصاد ، فالمطبعة ليست غاية فى حد ذاتها وإنما هى إحدى الوسائل ، بل هى فى مقدمتها ، للنهضة العامة .

والواقع أن المطبعة التى أنشأها محمد على فى بولاق سنة ١٨٢١ كانت أول مطبعة عربية أثرت أقوى الأثر فى بعث ونشر الثقافة العربية فى مصر وسائر أقطار الشرق الأدنى .

* * *

هذا تصوير للعلاقات التى قامت بين العرب والغرب فى العصر الممتد بين أوائل القرن السادس عشر وأواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، فى النواحى الاقتصادية والسياسية والدينية والعلمية . تقع هذه الفترة — فى تاريخ العلاقات بين العرب وأوربا — بين حربين ، فقد بدأت فى أعقاب الاعتداءات البرتغالية والإسبانية على العـــالم العربى فى المشرق والمغرب ، وكان دخول الأتراك العثمانيين ميادين الحرب فى البحار الشرقية ضد البرتغاليين من ناحية وفى شمال أفريقية ضد الإسبان من ناحية أخرى إيذانا باعتدال ميزان التفوق ووقف الاعتداءات الأجنبية وإنقاذ دنيا العرب والإســلام عــا كان يدبر لها .

وانتهت هذه الفترة فى أواخر القرن الثامن عشر بعودة الصراع بين العرب والإسلام وبين القوى الأوربية ، هذا الصراع الذى لا يزال ممتدا حتى الوقت الحاضر ، ولم يكتب فصله الختامى بعد .

وهكذا كانت فترة القرون الثلاثة هذه (بين السادس عشر والتاسع عشر) بمثابة « هدنة » بين الفريقين المتحاربين : العرب والإسلام فى ناحية والغرب المسيحى فى الناحية الأخرى . وقف فيها التوسع الإسلامى فى العالم المسيحى بسقوط البلقان والمجر فى أيدى الترك العثمانيين ، ووقف التوسع المسيحى فى العـــالم الإسلامى بسقوط الأندلس فى أيدى المسيحيين ، وقف توسع كل من الفريقين على حساب الفريق الآخر ، واتجه التوسع الإسلامى والمسيحى إلى ميادين جديدة : اتجه التوسع الإسلامى إلى افريقية والهند والشرق الأقصى ، واتجه التوسع المسيحى إلى الأمريكتين .

وهكذا وقفت الحرب بين الجانبين وقامت الهدنة بينهما ، إلا ما يصحب الهدنة عادة من مناوشات على الخطوط الأمامية من حدود العالم الإسلامى والعالم المسيحى ، فى المجر ، وفى أطراف الجزيرة العربية والخليج الفارسى ، وفى المغرب العربى . ولكنها لم تتطور إلى حرب عدوانية عامة منظمة ، مدروسة الغايات ، مضطردة التنفيذ ، على نحو ما ستكون عليه الحرب العدوانية على العرب والإسلام فى القرن التاسع عشر وما بعده .

وكان من الطبيعى أن تسكون العلاقات بين العرب والغرب فى فترة « الهدنة » هذه بطبيعة الهدنة وأوضاعها . فكانت — كما وصفنا — علاقات محدودة ، نظمتها السلطات العثمانية الحاكمة فى قوالب موضوعة ، فلا هى بالعلاقات العدائية ولا هى بالعلاقات الودية ، وإنما هى مثقلة بتراث الماضى وذكرياته — وهى ذكريات من الجانبين (صليبية) ! وهكذا مضت العلاقات بين الجانبين حذرة مترددة ، ومثل هذا النوع من العلاقات لا ينتظر منه أن يكون قوى الأثر أو مثمرا فى حياة الناس من الجانبين .

والحق أن العرب — فى ظل هذا النوع من العلاقات — كانوا هم الخاسرين . فإن الغرب — فى فترة الهدنة — كان يعمل على تقوية نفسه . معتمدا على الوسائل الفنية والتكنولوجية الحديثة . منذ بدأ عصر النهضة أو الإحياء . وعمت النهضة مختلف المرافق عند الشعوب الأوربية الغربية . فى الفكر والأدب والعلم والصناعة وأداة الحرب وتنظيم الحكومة . الخ . وكانت طبيعة العلاقات القائمة بين العرب والغرب — فى هذه الفترة — تحول دون وقوف العرب على حقيقة الأوضاع فى العالم الغربى المسيحى . وأفادتهم من ثمرات النهضة الأوروبية هذه وخاصة فى الناحية التكنولوجية .

وهكذا سارت أوضاع العالم العربى بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر على وتيرة واحدة . فى الفكر والاجتماع والاقتصاد وأداة الحرب والادارة . لا تكاد تستبين فيها (نموا) . كالشجرة تعيش على مقوماتها الأصلية وحدها دون أن تلقحها عناصر جديدة ، فلا تكاد تثمر — على طول المدى — إلا ثمرا ضعيفا ، حتى إذا لقحت بعناصر (غريبة) هاجت واخضلت وأينعت ثمرا جديدا .

أما الغرب — فى هذه الفترة — فكان دائم التغيير والتبديل فى أوضاعه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية ، كان من نتيجته أن تجمعت له عناصر القوة التى سيستخدمها فى القرن التاسع عشر للسيطرة على العالم .

وما أن انتقصت طبيعة هذه العلاقات — وكان الغرب هو البادىء فى نقضها — وبدأت العلاقات بين الجانبين تسير على أسس جديدة ، أو بعبارة أخرى عندما عادت حالة (الحرب) بين الفريقين منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى ظهر

أثر هذا التخلف ، وهذا الجهل بحقيقة الأوضاع ، فكان التفوق واضحا في جانب الغرب ، واختل ميزان التعادل بين الجانبين ، وواجه الفريقان جميعا هذه المشكلة أو هذا (التحدى) — وقد كانا من قبل فى غنى عن مواجهتها — نتيجة لانهيار الوضع السابق والحاجة إلى تنسيق الوضع الجديد .

على أن الغرب فى علاقاته بالشرق فى هذه الفترة إنما كان يواجه الاسلام والمسلمين ، ويمثله ويمثلهم فى نظر الغرب إذ ذاك الأتراك العثمانيون ، أما العروبة ؟ فأصبحت عديمة الأثر فى تشكيل السياســة الأوربية ، حتى إذا كان القرن التاسع عشر بدأت أقلام بعض رجال السياسة وأهل الأدب — كلامرتين مثلا — تجرى بالحديث عن العرب والعروبة وعن إمكان توجيه السياسة الأوربية لبحث مسائل الشرق الأدنى على أساس جديد . إلا أنه يمكن القول إن هذا التوجيه للسياسة الأوربية لم يكتمل وينتج نتيجته إلا فى الحرب الكبرى الأولى حينما استخدم الغرب « العروبة » كوسيلة لهدم الامبراطورية العثمانية وترتيب الشرق الأدنى على أساس « قوى » جديد فى كنف النفوذ الغربى .

القسم الثاني

الدراسات الخاصة

الفصل الرابع

العراق

للدكتور محمد بديع شريف

موضوعات الفصل

١ . تمهيد يبين اصطراع الأمم على العراق قبل الحرب العامة الأولى — ٢ . بريطانيا تدخل العراق عام ١٩١٤ ، موقعة الكوت ، فتح بغداد — ٣ . أتمام احتلال العراق — ٤ . وضع العراق في بدء الاحتلال — ٥ . الإدارة والحكم البريطاني المباشر ، القضاء ، القضاء العشائري ، التنظيم المالي — ٦ . وجهة النظر البريطانية في مستقبل الحكم في العراق — ٧ الحركة الاستقلالية في العراق ، بيانات ووعود تمهد لنيل الاستقلال — ٨ . الإذن بالاستفتاء العام حول مستقبل الحكم في العراق من وجهة النظر الوطنية وإعلان استقلال العراق التام — ١٠ بوادر الثورة العراقية وإعلان بدء الثورة . — ١١ . الحكومة المؤقتة — ١٢ . عرش العراق ومبايعة الملك فيصل الأول — ١٣ . العهد الجديد وبدء النضال بين وجهات النظر الوطنية ووجهات النظر البريطانية — ١٤ . المعاهدة العراقية الأولى والتصديق عليها — ١٥ . القانون الأساسي — ١٦ . المجلس التأسيسي ١٧ . قضية الموصل وامتياز النفط ومعاهدة ١٩٢٦ — ١٨ ، معاهدة ١٩٢٧ — ١٩ ، معاهدة ١٩٣٠ — ٢٠ ، تحرر العراق من الانتداب ودخوله عصبة الأمم — ٢١ . الإنشاء والتكوين ، مذكرة الملك فيصل في حالة العراق — ٢٢ . تجارب الحكم الوطني ، حوادث وتطور ، اقحام العشائر والجيش في السياسة — ٢٣ . وفاة جلالة الملك غازي الأول — ٢٤ . العراق والحرب العالمية الثانية ، تدخل الجيش في السياسة — ٢٥ . حركة رشيد عالي الكيلاني — ٢٦ . عودة الأحزاب السياسية — ٢٧ . معاهدة بورتسموث ، تدخل الطلاب بالسياسة — ٢٨ . استلام جلالة الملك فيصل الثاني سلطاته الدستورية — ٢٩ . إلغاء المعاهدة العراقية لعام ١٩٣٠ — ميثاق التعاون المتبادل بين تركيا والعراق ، الميثاق الخاص بين العراق وبريطانيا ومذكراته — ٣٠ . تطور العراق والمستقبل الذي ينتظره .

تمهيد

يبين اصطراع الامم على العراق قبل الحرب العامة الأولى

العراق الحديث وليد بيئته الطبيعية التى فتحت عيون العالم عليه ، فاذا تقارعت على بطاحه السيوف ودوت المدافع ونشأت حضارات ومدنيات وطمست معالم عز وسؤدد وزالت حكومات وتكونت أخرى وتعاقبت دول ، فان منشأ ذلك كله يعود إلى هذه البيئة الطبيعية وبعبارة أخرى إلى موقعه الجغرافى الذى يصل الشرق بالغرب وإلى خصوبة أرضه وترامى سهوله وبطاحه وغزارة مياهه ووفرة كنوزه ومعادنه . هذا الوجود الحديث أو الكيان القائم ما هو إلا نتيجة حتمية لظروف العراق الاقتصادية والجغرافية والسياسية . وأستطيع أن أقول إن القدر كتب فى لوحه صحيفة العراق الحديثة يوم أن أخذ الانجليز يجوبون الشرق الأوسط لترويج بضائعهم والتفتيش عن أسواق تجارية لمنتوجاتهم واستيراد مواد أولية تساعد هذه المنتوجات وتشبع رغبات سكان الجزر البريطانية . فرجال شركة الشرق الأدنى التى تأسست فى لندن عام ١٥٨١ أخذوا يجوبون أقطار الشرق خاصة ما كان منها تحت النفوذ العثمانى يتلمسون الأمان فى منافذ تجارتهم ويتوخون الأماكن التى يصرفونها فيها . وقد حصلوا على امتيازات من سلاطين آل عثمان تمكنهم من ذلك وتؤمن سيرهم فى أعمالهم . ثم تأسست بعد شركة الهند الشرقية حتى إذا تمكن الانجليز من أرض الهند وأصبحت هذه الدرة الثمينة تتلألأ فى مفرق التاج البريطانى أخذوا يبذلون أقصى ما عندهم للحرص عليها . وقد وجدوا فى بلاد العرب الجنوبية وفى فم الخليج الفارسى الخط الأمامى الذى يمكن بالمحافظة عليه أن يدرءوا به الخطر عن الهند كما يمكن أن يكون نقطة خطر عليها إذا كان النفوذ فيه لأمة أخرى تطمع أن تنتزع تلك الدرة من ذلك التاج .

فتح السلطان سليم الأول مصر عام ١٥١٧ وورث عن دولة المماليك مشروعات بحرية ونفوذاً فى بلاد اليمن وجنوب الجزيرة العربية، ووجد أن عدن نقطة ارتكاز

منها يستطيع مكافحة البرتغاليين والقضاء على نفوذهم فى الهند وأفريقية الشرقية لحماية التجارة عن طريق الاسكندرية ودمشق إلى بغداد والبصرة . وقد أتم ذلك بعده السلطان سليمان إذ بنى أسطولا كبيراً فى السويس بمعونة البحارة من أهل البندقية وتوجه الأسطول إلى عدن فى ٢٧ حزيران من عام ١٥٣٨ ،وعلى ظهر سفنه أربعة الاف جندى من الينيشاريين وألف وستمائة جندى آخرين . ووصلها فى اليوم الثالث من شهر آب من العام نفسه ، وفى إغراء وغفلة دعى شيخ عدن وحاكمها حينذاك « عمر بن داود » إلى ظهر السفينة فقتل وتم الاستيلاء عليها . وحاول أسطول الأتراك أن يمخر عباب البحر إلى الهند للاستيلاء عليها فلم يسعفه حظه وفى عام ١٥٤٧ ثار أهل عدن على الحامية التركية وتغلبوا عليها وسلموا المدينة طوعاً واختياراً إلى البرتغاليين ، ثم مالبث الأمر طويلا حتى سار إليهم أسطول العثمانيين بقيادة أمير بحرى مصرى وطردهم منها، واستمر العثمانيون بعد ذلك ردحاً من الزمن فى بسطة النفوذ على مصر والعراق واليمن ولكنهم أخذوا يفقدونه تدريجياً فى بلاد اليمن حتى بلغ الأمر نهايته عام ١٦٣٠ .

وفى عام ١٥٩٥ وصل إلى عدن أسطول هولاندى لأول مرة بقيادة كورينليوس هاوتمان . وفى عام ١٦٠٠ وصل إليها أسطول انجليزى أيضاً لأول مرة نمى أخيراً إلى شركة الهند الشرقية . وفى عام ١٦٠٩ وصلها القبطان شارلى على ظهر سفينة فألقى القبض عليه ولم يطلق سراحه إلا بفدية،وبعدها بعام وصلها أمير البحر السير ميدلتون فاستقبل من قبل الوالى التركى استقبالا حسناً ، ولما سافر إلى « مخا » ألقى القبض عليه وأخبر أن دخول الموانى العربية محرم على المسيحيين إلا بإذن من السلطان فى القسطنطينية وأطلق سراحه بعد أن عوض عما لحق به من ضرر وفى عام ١٦١٢ وصلت ثلاث بواخر انجليزية بقيادة جون سارتير إلى « مخا » فاستقبل فيها استقبالا ودياً . وفى عام ١٦١٦ توجه الهولنديون إلى عدن وحلوا فيها على الرحب والسعة ولكنهم لم يتمكنوا من مزاحمة التجار الهنود الذين كانوا هناك . واستطاع الانجليز عام ١٦١٨ أن يؤسسوا مركزاً تجارياً فى مخا مقابل ألا يزيد دفع المكوس عن ثلاثة فى المئة . وفى عام ١٦٣٠ انسحب الأتراك تماماً من بلاد العرب الجنوبية وصارت اليمن وفى ضمنها عدن فى منطقة نفوذ الإمام وفى عام ١٧٠٨ وصلت سفن الفرنسيين إلى عدن بقيادة سانت مالو وساروا منها إلى مخا حيث وجدوا جماعة من الهولنديين يقطنون فيها وتصلهم فى كل عام سفينة

من باتلفيا حولتها سبعة أطنـان لـكى تنقل القهوة وبعضاً من البضائع التى هى من صنع أهل البلاد .

أما الفرنسيون فـكانت لهم إرسالية دينية بجانب أعمالهم التجارية،وقد قدروا أن يرفعوا عليهم على سطوح مؤسستهم،وكانوا يدفعون ضريبة مكس بنسبة لاتتعدى ثلاثة بالمئة . ولقد وصل فى ذلك الحين مبعوث من القسطنطينية ليبلغ الإمام رغبة السلطان فى قطع العلاقات مع الأوروبيين جميعاً ويطلب منه ألا يرسل القهوة إلى أية جهة ماعدا مصر .

أما الانكليز فـكانت تصل منهم إلى هذه الميناء سفينة فى كل عامين تعود إلى شركة الهند الشرقية،ولـكنهم أرسلوا إليها عام ١٧٧٠ سفينتين حربيتين ثأراً لإهانة لحقت بقائد سفينة تجارية . وقد استطاعوا أن يفرضوا على الإمام تعويضاً كبيراً عن هذه الإهانة . ولما دخل الفرنسيون مصر خشى الانجليز على الهند فأرسلوا من بومبى فى نيسان عام ١٧٩٩ حامية بقيادة الضابط موزى احتلت جزيرة بريم وعين حاكماً سياسياً فى البحر الأحمر . وفى شهر مايس من العام نفسه احتل البريطانيون رسمياً ولمصلحة شركة الهند الشرقية جزيرة خالية من السكان لايدعيها أحد من الدول الأخرى،ولـكن صعوبة الحصول على ماء الشرب فيها إضطرهم أن يتقربوا من حاكم عدن السلطان أحمد بن عبد الـكريم فأنزلهم فى المدينة على الرحب والسعة .

وفى بداية القرن التاسع عشر أخذت سفن الأمريكان تطوف القسم الجنوبى من المحيط الهندى طمعاً فى صيد الحوت . كل هذه الأمور جعلت البريطانيين يحرصون على حراسة هذا القسم الجنوبى من بلاد العرب ، وانتهاز كل فرصة لتثبيت أقدامهم فيه . وقد عين السير بوفام عام ١٨٠٢ مبعوثاً رسمياً لهذا القسم وكلف بعقد معاهدة صداقة وتجارة مع اليمن وسلطان عدن . وقد أخفق فى مهمته مع اليمن ونجح مع عدن وعقد معها عام ١٨٠٢ معاهدة صداقة وتجارة كانت القنطرة الأولى للسيطرة على هذه المدينة التى تمت عام ١٨٣٩ بعد مقاومة عنيفة من أهلها وقصف بحرى شديدمن قبل البريطانيين،وكان أهم ما اتجهوا إليه ولا تحصين المدينة ومن ثم البدء فى إخضاع القبائل من حولها تارة باللين وأخرى بالشدة والتهديد وطفقوا يعقدون المعاهدات مع رءوس القبائل ، وقد تم لهم فى العام نفسه أخذ

وعد من سلطان لحج بأن يسلك مسلكا طيباً مع عدن . وفى عام ١٨٤٢ عقدوا معه معاهدة سلم وصداقة واستمر البريطانيون فى إغرائهم حتى كثر موالوهم .

وفى عام ١٨٥٠ جعلت عدن ميناء حرة فتمركزت فيها التجارة وتحولت عن مخا وكثر سكانها وأصبحت تسير فى أحكامها وقوانينها وفق القوانين الهندية . لقد تمكن البريطانيون من هذه البلاد وجعلوها فى حماهم حتى إذا بلغهم تقدم العثمانيين فى اليمن عام ١٨٧١ وعزمهم على التقدم إلى لحج احتجوا لدى الباب العالى وأرسلوا قسما من الجنود لحماية مصالحهم هناك ، وفى عام ١٨٧٤ اعترف الأتراك بمكانة بريطانيا فى المقاطعات التسعة . وفى عام ١٩٠١ تألفت لجنة منهم ومن الأتراك لوضع الحدود بين المحميات وبين اليمن انتهت بعقد معاهدة الحدود عام ١٩٠٥ ، وقد كان لألمانيا فى عدن قنصل فخرى وكان أحد موظفى شركة الفحم البريطانية وفى عام ١٩١٥ هزم البريطانيون من المحميات التسعة من قبل الأتراك وقبائل لحج وانسحبوا إلى عدن وتحصنوا فيها .

ذكرنا آنفاً أن البريطانيين احتلوا منذ عام ١٨٣٩ عدن ثم بريم وبعض الجزر وعقدوا معاهدات مع شيوخ القبائل فى البلاد العربية ، وكان ذلك من باب المندب إلى مرطاب دون أن يظهروا سيادة على هذه البلاد . أما عمان فقد كانت لهم فيها سيطرة فعلية وإن لم يعلنوها رسمياً ، وكان لهم نفوذ فى وسط البلاد العربية بما كانوا يبذلونه من مال وسلاح ، وكانت جزر البحرين فى منطقة نفوذهم وإن لم يحتلوها .

لقد كانت التجارة من قديم الزمان فى خليج عدن زاهية ، وكان موقع المدينة بالنسبة لهذا الغرض ممتازاً جداً ، وكانت هى المدينة الوحيدة التى يمكن الحصول منها على ما يرد إليها من الهند والصين وفارس من التوابل والبخور والصمغ وإن كان موقعها هذا لم يستطع مزاحمة القوافل التى تأخذ من الخليج الفارسى بضائعها مباشرة فلما خلف الأتراك حكومة الخلفاء على هذه البلاد وجدوا أن فى الاحتفاظ بها ما ينعش ماليتهم خاصة فى عدن وسواحل الصومال والبصرة على الخليج الفارسى ولما اكتشف البرتغاليون طريق الكاب فقدت هذه البلاد صفتها الممتازة . وهكذا ذهبت حرب الأتراك مع البرتغاليين عبثاً ونفضوا أيديهم فى القرن السابع عشر من جنوب البلاد وخاصة اليمن لاختفاء أهمية التجارة فى سواحلها .

حل البريطانيون محل البرتغاليين حين توجه هؤلاء إلى طريق الكاب وصارت

جنوب البلاد العربية بمكان من الأهمية لبريطانيا خاصة حينما أخذت السفن الشراعية تختفى وتحل محلها السفن البخارية ، وأصبح المسافرون والبريد يسيرون بسهولة من البحر الأحمر إلى الهند بهذه السفن . وقد أسست مراكز للفحم وزادت أهمية هذه الطريق زيادة عظمى عندما فتحت قناة السويس فى ١٦ نوفمبر ١٨٦٩ وطفق البريطانيون يؤسسون مراكز الفحم ليس فى جنوب بلاد العرب فحسب بل فى سواحل الصومال ، وفى عام ١٨٨٢ احتل البريطانيون مصر فأصبح الخط الذى يمر بالبحر الأحمر ويذهب إلى الشرق الأقصى وافريقية بيدهم تماماً .

أما فى الخليج الفارسى فقد تستطيع ان تعلم مبلغ أهمية ذلك لبريطانيا .

إذا عدنا إلى الوراء قليلا ورأينا كيف أخرج البريطانيون البرتغاليين عام ١٦٢٢ بمعونة الفرس من الخليج الفارسى وكيف طردوا الهولنديين بعد ذلك بقليل وماذا حل بهم من الاضطراب والقلق حين وصلت حملة نابليون إلى مصر وكيف استطاع الانجليز عام ١٨٠٠ الاستيلاء على بندر بوشهر . ومنذ عام ١٨٢٠ أخذوا يتدخلون فى كل قضية تحدث فى فم الخليج . وجعلوا من مكافحة القرصنة وسيلة لعقد معاهدات مع شيوخ المقاطعات هناك ، وأهم ما كان يذكر فيها أنهم لا يتنازلون عن شبر من أرضهم لأية دولة كانت ولا يسمحون بإعطاء أى حق فى أراضيهم لأحد ما عدا بريطانيا . ولما بدأت تأسيسات التلغراف وربط الهند بها صار الخليج الفارسى من أهم مناطق نفوذهم . وإنك لتعلم مبلغا لأهمية فى محاولة الجنرال چيزنى فى كشف طريق نهرى يمر بوادى الرافدين ، فقدقام برحلة على نفقته الخاصة أواخر عام ١٨٣٠ من دمشق إلى عانة ، ومن هناك ركب « طوفاً » ويسمى كذلك (كلك) وهو عبارة عن أعمدة من الخشب تشد إلى بعضها وتربط على أجربة منفوخة ، فى نهر الفرات حتى وصل إلى الفلوجة ، وكان يسبر عمق النهر ويسجل أسماء القرى التى يمر بها . وبعد أن وصل إلى بغداد رحل إلى البصرة ودرس نهر كارون مثلما درس نهر الفرات وبعد أن قدم لدولته المعلومات اللازمة تألفت بعثة برياسته لدراسة نهر الفرات دراسة رسمية . وقد تمت هذه الدراسة بمدة ثلاث سنوات ووضعت فيها الأدلة الكافية للفوائد العظيمة التى تجنيها الامبراطورية من النواحى العسكرية لتأمين الدفاع عن الهند .

وقد حرص البريطانيون على الاحتفاظ بالخليج حرصاً متناهياً ، وكادت محاولة

فرنسا فى تأسيس محطة للفحم فى مسقط وحماية أهلها تؤدى إلى قطع العلاقة بين الدولتين ، وقد رفضت محاولات روسيا جميعها فى إيجاد علاقة لها بالخليج ، وكتب اللورد كرزن (Persia II 465) ما نصه : « إن بريطانيا لا تطلب أن تجعل الخليج الفارسى بحيرة مغلقة فى وجه التجارة الأجنبية . . . ولكن وجود ميناء روسى فى الخليج الفارسى وهو ذلك الحلم الجميل الذى يحلم به وطنيو الروس من نيفا إلى الفولغا سيكون حتى فى أيام السلم عنصر قلق فى حياة الخليج يزعزع التوازن الدقيق الذى أسسناه بعد جهد جهيد ، وإذا ما وافقت أية دولة على إعطاء الروس ميناء فى الخليج الفارسى فانى أعتبر ذلك إهانة مقصودة لبريطانيا العظمى وخرقاً واضحاً للحالة الراهنة واستفزازاً مقصوداً للحرب ، وإنى لأتهم الوزير البريطانى الذى يذنب فيوافق على مثل هذا الاستسلام ، واعتبره خائناً لوطنه » وإذا كان الانجليز من قديم الزمان يحاولون أن يختصوا بالخليج الفارسى وحدهم فقد وجدوا فى كرزن خير ممثل حريص على تحقيق رغبتهم ، وهو الذى صرح فى عام ١٩١١ أمام مجلس اللوردات بقوله : « إن من الخطل أن نظن أن مصالحنا السياسية تنحصر فى الخليج إنها ليست منحصرة فيه ولا بين بغداد والبصرة إنها تتعدى ذلك حتى تصل إلى بغداد نفسها .

وكتبت جريدة الديلى ميل فى ٢٩ مارس عام ١٩١٥ : « إن حوض ما بين النهرين يجب أن يكون ملكا لبريطانيا ومنفذاً طبيعياً للانتقال من الهند » وخطب اللورد كرزن فى ١٥ نيسان من العـــام نفسه فى جمعية الفنون الجميلة يقول : « إن الأرض الواقعة شمال الخليج الفارسى ليست ملكا للأتراك، إنهم دخلاء عليها، وإن من واجب السياسة البريطانية أن تحرر هذه الأرض منهم وأن تعود تلك العلاقة الطيبة بين هذه البلاد وبين بريطانيا نتيجة لسياستنا التى اشتغلنا فيها منذ خمسين عاما ، وإن نفوذ الألمان يجب أن يأخذ حده ويختنق، وإن خط حديد برلين ـــ بغداد لن يكون له نفع ما لم يكن تحت رقابتنا » .

وفى ١٠ مارس من العـام نفسه كتبت جريدة التايمز : « إن من الواجبات الأولى علينا لأجل المحافظة على الهند ألا نرى فى الخليج الفارسى قوة مسلحة ماعدا القوة البريطانية . ويجب أن نعلم أن جميع الدلائل تهدينا إلى أن نوايا خط بغداد ليست اقتصادية وإنما هى سياسية صرفة » .

وهكذا نجد بريطانيا لما زال الخطر الروسى فى الخليج بعد معاهدة الصلح اليابانية الروسية عام ١٩٠٥ وبعد اتفاقيتها مع بريطانيا تحولت مخاوف الأخيرة نحو ألمانيا ، وبدأت هذه المخاوف تزداد منذ أن ظهرت قضية خط برلين بغداد إلى الوجود،فقام اللورد كرزن بعملية فائقة جعلت من المستحيل وصول هذا الخط إلى شواطىء الكويت ، ذلك أنه عقد اتفاقية مع الشيخ مبارك الصباح أمير المنطقة خولته الادعاء بمنطقة واسعة تصل إلى الجانب الأيمن من شط العرب،وبموجب نفوذ هذا الشيخ على شيخ المحمرة امتد نفوذ البريطانيين إلى الشاطىء الشرقى من شط العرب أيضاً . وقد اختفى البريطانيون فى هذه العملية وراء الستار وأبدوا أنه لا مطمع لهم فى شىء أبداً ، وعينوا لهم ممثلين فى مناطق شط العرب والخليج الفارسى جلهم من ضباط جيش الهند يعينون من قبل حكومة الهند ويتبعون فى أعمالهم وزارة الخارجية البريطانية . وعلى رأس هؤلاء الممثلين مقيم عام مقره بندر بوشهر يعتبر ملك الخليج غير المتوج.كان البريطانيون ينظرون إلى نفوذ تركيا فى الاحساء والكويت ومصب شط العرب على أنه غير ذى خطر ولكنهم عندما وجدوا الألمان يقتربون من هذه المناطق فى خط برلين بغداد بدأ شبح الخطر يتجسم لهم وطفقوا يحرضون شيوخ القبائل على الدولة العثمانية . وقد يستطيع المرء أن يحمل مبلغ اهتمام الانجليز فى هذا الخليج بما جاء فى خطبة الأدميرال ماهان عام ١٩٠٢ : « إن اعطاء الامتيازات فى الخليج الفارسى سواء أكان بموجب اتفاق رسمى مع دول أخرى أم عن طريق إهمال مصالح التجارة المحلية الواقعة حالياً تحت النفوذ السياسى والعسكرى سيعرض وضع بحرية بريطانيا العظمى فى الشرق الأقصى إلى الخطر كما يعرض وضعها السياسى فى الهند إلى ذلك ، ومصالحها التجارية فى كليهما ويفصم رباط الامبراطورية بينها وبين استراليا . إن حكم الخليج الفارسى من قبل دولة أجنبية ذات إمكانيات بحرية جسيمة ووجود أسطول هناك مرابط فى ميناء عسكرى قوى سيعيد صلات قادس وجبل طارق ومالطة إلى البحر الأبيض المتوسط وسوف تسيطر على كافة الطرق المؤدية إلى الشرق الأقصى والهند واستراليا ، وهذان الأخيران يقعان ضمن الامبراطورية كجهاز سياسى . ومع أن بريطانيا ستوقف بلا شك هذا الاسطول فى مثل هذا الموضع بجزء من أسطولها ولكن ذلك يستدعى حجز قسم كبير منه سيؤثر على قوة وضعها البحرى كثيراً » .

ومما كتبته التايمس فى تاريخها عن الحرب « إن المحافظة على تفوق بريطانيا فى الخليج الفارسى جزء ضرورى من خطة الدفاع عن الهند وإن وجود أية قوة أخرى فى الخليج الفارسى سواء أكان موقعها محصناً أم غير ذلك ستكون ذات تأثير كبير فى اضطراب الهند . وسيظل سكان الهند يفكرون فى احتمال الخطر المحدق ببلادهم من وضع كهذا . وإن رفع علم آخر يرفرف فى منطقة بسطت بريطانيا نفوذها عليها أو حيث كانت قواتها متفوقة فيها لمدة تنوف على قرن سيكون كافياً لاقناعهم بأن قوتنا آخذة بالتدهور وسيؤدى ذلك إلى إضعاف الثقة فينا بينما يمكننا الآن الايحاء إليهم بشدتها وقوتها » .

من ذلك كله نرى أن بريطانيا كانت شديدة التأثر عند ما ترى أدنى شئ يمس الخليج ومناطق نفوذها فى جنوب البلاد العربية ، وما كانت مخاوفها تقل فى هذه المنطقة عن مخاوفها فيما يمس قناة السويس أو حتى بحر المانش . وكانت ترى أن أى أثر يظهر مخالفاً لمصلحتها فى هذا الخليج يجرحها فى الصميم ويؤثر تأثيراً سيئاً على الأوضاع فى الهند . وإن أهمية جنوب البلاد العربية ومداخل البحر الاحمر وشط العرب لم تظهر فى نظر البريطانيين من أجل إضعاف تركيا لكى تستطيع بريطانيا أن تقوى مكانتها فى مصر والهند وإنما تريد أن تختص وحدها فى الطرق البحرية التى تسير إلى الشرق الأقصى، ولم تنظر إلى موقعها هنا كما كان ينظر الرومان وحكومات الخلفاء من حيث الكمارك والمكوس ومواقع التصدير والتوريد . إنما كانت تريد السيادة السياسية على البحر الأحمر وعلى الخليج وعلى ما يحفظ هذه السيادة من البر لكى تستطيع أن تتصرف كما تشاء ، تغلق وتفتح وتعطى وتمنع . وكانت منافسة الدول لها فى منع هذه السيادة وتحرر البحار من سلطانها . ولما كانت الهند نقطة ارتكاز السياسة البريطانية، والبلاد العربية هى الخط الأول المباشر ذو الأهمية فى هذه السياسة ، ولما كانت بلاد الرافدين موضع خطر تارة يبدو من جهة الروس وأخرى من قبل الألمان من وراء العثمانيين وجدت بريطانيا فى الحرب العالمية الأولى فرصة سانحة لاتمام خطتها وتنفيذ سياستها التى أوضحناها فى هذا التمهيد وكانت حربها فى العراق واستيلاؤها عليه ظهور صفحة فى تاريخ العراق ظلت تتطور إلى أن ولد العراق الحديث كما سنوضح نشأته وتكوينه فى الفصول التالية .

بريطانيا تدخل العراق

فى عام ١٩١٤

قبل انطلاق المدافع على ضفاف البسفور التى بدأت تدوى فى ٢٩ أكتوبر كانت بريطانيا تهيء نفسها للزحف على العراق . وقبـل أن تخطو الدولة العثمانية خطوة واحدة كانت استعدادات بريطانيا قائمة على ســاق وقدم فى الهند وفى فم الخليج ،وكانت بواخر بريطانيا وجيوشها جاهزة للحركة . فقد أصبح مؤكداً لساستها فى الهند أن الدولة العثمانية لابد من دخولها فى حرب ضد بريطانيا عاجلا أم آجلا وإن مصالح بريطانيـا فى نظر هؤلاء الساسة ستصبح مهددة بالخطر إذا لم يقوموا بحركة سريعة تحفظ لهم الخطوط الأمامية فى سهول الرافدين ، وإن نفط عبادان سوف لا يكون فى مأمن من غائلة الهجوم التركى المنتظر وإن هذه السهول ستكون نقطة ارتكاز قوية تؤثر كثيرا على مجرى الحرب ، وإن القائلين إن بريطانيا سوف تأخذ مكانتها فى هذه المنطقة سياسياً بعد انتهاء الحرب قول يشوبه ضعف وإن استعدادات تركيا فى هذه المنطقة وتحصينها وحركات بعض جيوشها لدليل واضح على أن الأتراك ينوون الانضمام إلى جانب الألمان . لذلك كله أبحرت أول فرقة بريطانية من بومبى فى اليـــوم التاسع عشر من أكتوبر بقيادة الجنرال (W. S. Delmain) وأطلق على هذه الفرقة التى هى قسم من جيش الهند رمز D أول حرف من اسم هذا القائد ، وفى يوم ٢٣ وصلت إلى جزر البحرين وفى اليوم الثانى من نوفمبر وصلت إلى بندر بوشهر وفى اليوم الثالث منه صارت أمام مصب شط العرب،وفى ساعة متأخرة من اليوم السادس أطلقت مدافع الباخرة أودين (Odin) قنابلها على حصن الفاد الواقع على ضفاف شط العرب ثم تلاها نزول جماعة من الجيش بقيـــادة الضابط روشر Rosher فكانت أول قدم انجليزية تنزل أرض العراق غازية معادية وطامعة فى تحقيق ما كانت تعمل له السياسة البريطانية منذ عشرات السنين فى هـــذا الجزء من بلاد العرب التابعة للامبراطورية العثمانية .

وقد سبق هـذا النزول بيان أذاعه المقيم البريطانى فى الخليج فى ٣١ تشرين

الأول من عام ١٩١٤ ويابعاز من حكومته جاء فيه : « إن بريطانيا دخلت الحرب بتحريض من ألمانيا وإن فى هذه الحرب ستكون نهايتها إذ يبدو أن الامبراطورية العثمانية لا يمكن بقاؤها . ولقد وعدنا الشيوخ الذين يتمتعون بحماية بريطانيا العظمى بأننا لا نقوم بأى عمل يهدد حريتهم أو شعائرهم الدينية ، كما طلبنا منهم أن يحافظوا على السكينة والأمن فى مناطقهم ولا يسمحوا للطائشين من رعاياهم فى القيام بما يعكر الأمن ويضر بالمصالح البريطانية ، وأعلناهم أنهم إذا التزموا ذلك فسوف يخرجون من هذه الحرب أشد قوة وأكثر حرية من ذى قبل . ثم أصدر بياناً آخر يؤكد فيه على احترام الشعائر الدينية والمحافظة على الأماكن المقدسة . . ولما أحس الانجليز ضعف قوى الأتراك أخذوا يتقدمون داخل البلاد دون وجل . ولقد حاول الأتراك سد شط العرب باغراق سفن تجارية تمنع تقدم السفن البريطانية فلم يجدهم ذلك نفعاً . ودخل الانجليز البصرة بعد انسحاب الترك منها فى ٢٢ تشرين الثانى ، وفى اليوم الثالث من كانون الأول تقدمت فرقة من الجيش البريطانى إلى القرنة فاحتلتها فى اليوم الثامن منه رغم ما كان يكتنف ذلك من صعاب حيث كان الأتراك يثيرون القبائل ويحرضونهم ضد بريطانيا ، وقد وقعت من جراء ذلك اضطرابات فى جنوب إيران حيث تقع مصافى النفط فقطعت الأنابيب بالقرب من عبادان فأثر ذلك على البريطانيين تأثيراً بالغاً . وفى ١٢ أبريل شن الأتراك هجوماً عنيفاً على الشعيبة بقيادة سليمان باشا عسكر ولكنه لم ينجح واحتل البريطانيون النخيلة وفى ٣ حزيران احتلوا مدينة العمارة بقيادة طاوزند « Townshend » ، وفى ٢٦ تموز احتلوا الناصرية بقيادة جورنج « Goring » وقد خرب الأتراك حصونهم وحفروا خنادقهم بالقرب من الكوت بقيادة نور الدين فهاجمهم البريطانيون وبعد قتال عنيف تكبد فيه الطرفان خسائر فادحة تراجع الأتراك إلى بغداد .

موقعة الكوت

وفى ١٧ نوفمبر هاجم البريطانيون الأتراك بقوة تقدر ب (١٥٠٠٠) جندى بالقرب من سلمان باك (المدائن) محاولين الوصول إلى بغداد فردهم الأتراك على أعقابهم ، وبعد أن تكبدوا خسائر فادحة انسحبوا إلى الكوت وتحصنوا فيها

فتعقبهم الجيش التركي بقيادة نور الدين وكانت ألمانيا أرسلت إلى جبهة العراق قائداً كبيراً من مشاهير قوادها هو « فون غولتز » المعروف ب غوليج باشا فساعد على تنظيم الحصار مما اضطر طاوزنذ على التسليم دون قيد أو شرط لما حل بجنده من الجوع ولذهاب محاولات البريطانيين عبثاً في فك الحصار عنه ، فاستسلم في ٢٩ أبريل عام ١٩١٦ هو وجنوده وضباطه البالغ (١٣٣٠٩) بعد حصار دام ما يقرب من خمسة أشهر ،وكان هذا الحادث شديد الوقع على بريطانيا سيء الأثر في الهند مما دعا الانجليز أن يفكروا تفكيراً جديا في الأمر ويعدوا العدة له .

فتح بغداد

وأعادت بريطانيا التفكير مرة أخرى في فتح بغداد رغم معارضة حكومة الهند وقد دعاها إلى ذلك أهمية بغداد الحربية وإلحاح الشركات التجارية وأمل رجال السياسة بالاتصال المباشر برجال العـــراق وتنظيم قوى أهل البلاد في إخراج الأتراك طبقا لما اتفقوا عليه مع الملك حسين . زد على ذلك خشيتهم من انقضاض الروس من الشمال على الموصل ومن ثم الزحف على بغداد وبذلك تضيع عليهم الخطة التي كانوا يعملون لها منذ عشرات السنين والتي مهدوا لتحقيقها بالاتفاقيات التي وضعت أثناء الحرب . فاتفاقية استانبول المعقودة في ١٨ مارس من عام ١٩١٥ بين روسيا وفرنسا وبريطانيا فيما تختص باستانبول والمضايق وإيران وميثاق لندن في ٢٦ أبريل من عام ١٩١٥ الذي وقعته كل من بريطانيا وروسيا وإيطاليا لقاء انضمامها إلى الحلفاء ضد ألمانيا . ومراسلات الشريف حسين ماكماهون التي مر ذكرها في الفصول السابقة والتي كانت تدور حول استقلال العرب لقاء تعاونهم مع الحلفاء وخروجهم على الترك .

واتفاقيات ربيع ١٩١٦ المعقودة بين بريطانيا وفرنسا وروسيا وهي اتفاقية سايكس — بيكو التي مر ذكرها وموافقة روسيا على اتفـــاقية تضم إليها كردستان الشمالية وأقسام الأناضول الشرقية : واتفاقية سنت جين دي موريين التي عقدت في ١٧ ابريل من عام ١٩١٧ بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا بشأن حصة ايطاليا في آسيا الصغرى ،

كل هذه المعاهدات والاتفاقيات التي ترمي إلى حفظ مصالح بريطانيا في أجزاء

الامبراطورية العثمانية تبين لنا أهمية بغداد فى نظر حكومة بريطانيا . ولقد رأينا فى مراسلات الشريف حسين — ماكماهون كيف أكد الانجليز على جعل البصرة وبغداد تحت السيطرة الانجليزية،ولم تجد احتجاجات الشريف وتصريحاته بأن العراق جزء مهم من البلاد العربية لا يتجزأ . يقرر ذلك التاريخ والدين واللغة . وبين احتجاجات الحسين وتصريحاته وتأكيداته وبين اصرار بريطانيا تقرر أن يترك أمر المفاوضات بشأن بغداد والبصرة إلى المستقبل وإذا احتلتها بريطانيا فعليها أن تدفع تعويضاً ماليا ولو كان الاحتلالى مؤقتا . وهكذا أصبح الزحف على بغداد مجدداً أمراً ضروريا تقتضيه مصلحة بريطانيا من جهات متعددة أولها الخوف من روسيا . وثانيها مركز بغداد الحـــربى، وثالثها أهميتها بالنسبة للامة العربية حيث يسهل الاتصال بوجوه البلاد وأشرافها لتنظيم قواهم فى إخراج الترك وضمان ضمهم إلى الحلفاء. وللتأكيد عليهم بأن هذه الحرب لا دخل لها بالدين وإن الجهاد المقدس الذى يدعو الترك إليه ضـلالة . وإن البريطانيين والحلفاء إنما يريدون بالعرب خيراً ،وبعد المداولات بين رجال الجيش البريطانى ورجال السياسة . وبعد استجمام القوى البريطانية مما حل بها بكارثة الكوت زحف البريطانيون على بغداد مرة أخرى بقيادة الجنرال « مود »،وبعد قتال شديد بين الجيشين تمكن الجيش البريطانى من إخراج الترك من الكوت واستمر فى زحفه حتى دخل بغداد فى ١١ مارس من عام ١٩١٧،وفى يوم ١٩ منه ألقى الجنرال مود بيانه التأريخى الذى جاء فيه .

« إننا لم ندخل بلادكم أعداء فاتحين إنما دخلناها محررين . فلقد خضـع مواطنوكم منذ أيام هولاكو لمظالم الغرباء فتخربت قصوركم وذوت بساتينكم وقاسى أسلافكم من آلام الاستبداد مثلما قاسيتم وسيق أبناؤكم إلى حرب لم تريدوها وسلبكم الظلمة ثروتكم وبعثروها فى الأرجاء البعيدة .

لقد وعدكم الأتراك منذ أيام مدحت باشا بالاصلاح ولكن ألم يكن هذا الخراب والإقفار برهانا على كذب الوعود .

إن أمنية مليكى وأمنية شعوبه بل أمنية الدول العظمى المتحالفة مع جلالته أن تعودوا كما كنتم فيما مضى حين كانت أراضيكم مخصبة وكان العالم يرضع أفاويق المعرفة من آداب أجدادكم وعلومهم ويتعلمون منهم الحرف والصنائع حيث

كانت بغداد إحدى عجائب الدنيا . لقد ارتبط قومكم بأقاليم جلالة مليكى المعظم برباط وثيق حيث تبادل تجار بغداد وتجار بريطانيا العظمى بعضهم مع بعض المنافع والصداقة مائة عام ، أما الألمان والترك فقد نهبوكم واتخذوا بغداد مدة عشرين عاماً مركزاً يهجمون منه على نفـــوذ بريطانيا وحلفائها فى إيران والأقطار العربية فلم تصبر بريطانيا على هذه الأفعال ولم تتغافل عما حدث وسيحدث فى بلادكم حاضراً ومستقبلا .

ياأهل بغداد إن أعمالـكم التجارية وإدخال الطمأنينة والأمن فى بلادكم من غوائل الغزو والظلم من الأمور التى تستوجب اهتمام الحكومـة البريطانيـة إلى الأبد .

لا تظنوا أن رغبة الحكومة البريطانية فى تطبيق النظم الأجنبية عليكم ان أمنيتها تحقيق ما تطمح إليه نفوس فلاسفتكم وكتابكم مرة أخرى ولسوف تغمر السعادة أهل بغداد ويتمتعون بالرخاء والسعة فى المال بفضل أنظمة توافق قوانينهم المقدسة وتوائم طموحهم الفكرى والقوى .

لقد طرد العرب بغاة الألمان والترك من الحجاز ونادوا بعظمة الشريف حسين ملكا عليهم ،وإن عظمته يتمتع بالاستقلال والحرية ويحالف الأمم التى تحارب دولتى الترك والألمان وكذلك هو شأن أشراف العـــرب وأمراء نجد والكويت وعسير معاً ، ولقد ذهب كثير من أشراف العرب ضحية فى سبيل الحرية على أيدى الظلمة من الترك .

لقد عزمت بريطانيا والدول العظمى المتحالفة معها ألا يذهب ما قاساه أشراف العرب هباء منثورا وإن أمل بريطانيا العظمى وأمل الأمم المتحالفة معها أن تعود عظمة الأمة العربية تارة أخرى وأن يسعى أبناؤها كتلة واحدة للوصول إلى هذه الغاية بالإتحاد والوئام .

يا اهل بغداد اذكروا انكم تألمتم مدة تربو على ستة وعشرين جيلا وقاسيتم فيها آلام الظلمة الغرباء الذين سعوا بالفساد والإيقاع بين البيت والبيت كى يستفيدوا من انشقاقكم إنها سياسة مكروهة عند بريطانيا وحلفائها وإنكم تعلمون ان السلام والفلاح لا يستقيمان فى احضان العداوة وسوء الحكم وعلى ذلك كله فقد

طلب إلى أن أدعوكم بواسطة أشرافكم وشيوخكم وممثليكم إلى الاشتراك فى إدارة مصالحكم ومعاضدة ممثلى بريطانيا السياسيين المرافقين للجيش كى تنضموا إلى اخوانكم شمالا وجنوباً وشرقاً وغرباً فى تحقيق طموحكم القومى .

الفريق الأول

مود

قائد القوات البريطانية فى العراق

إتمام احتلال العراق

لم تكتف بريطانيا بفتح بغداد كما كان يصرح بذلك ساستها وتكتب به صحفها بل أغراها الظفر بظفر آخر، فأخذت تعد العدة لإكمال فتح العراق جميعه . وبينما كانت القيادة مشغولة بذلك توفى الجنرال مود بمرض الهيضة فى يوم ١٩ تشرين الثانى من عام ١٩١٧ فخلفه فى مركزه الجنرال سير مارشال General Sir W. Marshall فتقدم بجيوشه شمالا وغربا حتى أصبح فى جهة الشمال على بعد ثمانية أميال من الموصل، وكاد يدخل المدينة لولا إعلان الهدنة ، ومع ذلك فقد أمرته وزارة الحربية البريطانية أن يتقدم بزحفه إلى الموصل فاحتلها فى اليوم السابع من شهر تشرين الأول لعام ١٩١٨ ، ولم يأبه باحتجاج القائد التركى على إحسان باشا الذى اعتبر هذا الاحتلال مخالفا لشروط الهدنة . وقد أذعن أخيراً حين وصله الأمر من استانبول مؤذنا بالجلاء ، فتركها فى العاشر من الشهر نفسه بناء على أن شروط الهدنة التى عقدت فى مدروس (Mudros) إحدى جزر اليونان بين بريطانيا والدولة العثمانية قد اشترطت أن تتخلى هذه الدولة عن مواقع حامياتها فيما بين النهرين وفى مناطق أخرى. وأن تسلم ذلك للحلفاء . وهكذا احتلت بريطانيا مدينة الموصل رغم غموض مستقبلها السياسى على حسب ما جاء فى معاهدة سايكس — بيكو التى كانت تنص على أن تكون الموصل ضمن منطقة النفوذ الفرنسى . وفى غموض شروط الهدنة واختلال التوازن فى اتفاقية سايكس — بيكو من جراء ما حدث فى روسيا من الانقلاب طبقت على الموصل إدارة عسكرية خاصة بها تختلف عن الإدارة فى بغداد ، ثم ما لبث أن أعيد النظر فى أمرها ، وفهم بأن الاتفاقية المذكورة سوف تعدل بالنسبة لولاية الموصل فاندمجت الإدارة فيها بإدارة القسم الجنوبى من الأراضى المحتلة .

وهكذا تم للجيوش البريطانية احتلال العراق جميعه . وقد كلفتها العمليات الحربية لهذا الاحتلال خسارة فادحة فى الأنفس والأموال تقدر بمائة الف إصابة فى النفوس ما بين قتيل ومفقود وجريح ومائتى مليون جنيها استرلينيا فى المال .

وضع العراق فى بدء الاحتلال

دخلت جيوش بريطانيا العراق فى ٦ تشرين الثانى من عام ١٩١٤ توجس خيفة من أهله ، فأدخلت معها الوعود المؤمنة والمغرية بالحرية الدينية والسياسية وحب التعاون مع أهله وبث الاخاء والمساواة وإعادة الرخاء وسعة العيش وما إلى ذلك مما يفعله بعض الغزاة الفاتحين ، والعراق فى ذلك الحين يشبه الفتى المراهق مضطرب قلق ، حائر ثائر . تتنازعه الآراء والعواطف . فدولة الخلافة هى الدولة المحاربة والعقيدة تقتضى أن يتمسك رعاياها بأوامرها ، والحركة العربية أخذ صوتها ينتشر فى الأرجاء ، وهو مظهر جديد لم يؤلف منذ غزو المغول لسهول العراق . والماضى القريب والحاضر الملازم قد أفسدهما سوء الإدارة التركية التى كان سببها جهل الموظفين الذين كانت ترسلهم الأستانة إلى هذه البلاد ليطبقوا انظمة نقلت عن النظم الأوروبية نقلا حرفيا لم يفهمها أمثال هؤلاء . فكان من جراء ذلك أن عم الجهل ، واقفرت السهول الممرعة ، وطفقت مياه الرافدين تجرى مطلقة تصب فى فم الخليج دون فائدة ، والأرض الصالحة للزراعة مثار منازعات وفتن تثار بين الفينة والفينة بين شيوخ القبائل لتوطيد مكانة الحاكم واستئثاره بالسلطان ، وينتج عن ذلك ضياع فى المال والأنفس والضغائن التى تنشر على الحياة رداء قاتم اللون . فلقد كانت معظم الأراضى فى دجلة تعتبر ملكا أميريا تؤجرها الحكومة بالالتزام لمدة خمس سنوات ، وكانت تقسمها إلى مقاطعات كبيرة ، وكان لا يتقـــدم إلى التزامها إلا الشيوخ المحليون الذين يسيطرون على المنطقة ويستأثرون بالعشيرة . ولكى يحافظ هذا الشيخ على مكانته يضطر لالتزام أرض واسعة تكفى لإشغال المنتمين إليه . وإن لم يفعل ذلك تخلى عنه الأتباع والأهلون . ولقد استفاد حكام الأتراك من هذه الظاهرة فوضعوا الأرض بالمزايدة بين الشيوخ الذين أخذ أحدهم يزيد على الآخر ، فصار من جراء ذلك أن زاد مبلغ الأجرة كثيراً على قيمة المقاطعة . وكان الموظف التركى يلعب على جانبين ، يخبر حكومة المركز فى الأستانة بما وصلت إليه الواردات الجسيمة فى الولاية ويتمتع بالرشوة من الملتزم لتأجيل الدفع ، وقد تتراكم أجور الالتزام حتى تصل إلى مكانة يتعذر فيها على الشيخ دفع ما عليه وقد يغضب الحاكم على الملتزم أو يحدث بينه وبين موظف آخر ما يدعو إلى

الغضب فيطالب فيمتنع وقد يثور ، ثم لا يلبث أن يدخل السجن وتعطى المقاطعة إلى ملتزم آخر ببدل إيجار أعلى قد يصعب تحصيله ، وبذلك يتولد اضطراب آخر ، وكان قليلا ما يمر العام دون حدوث ثورة تؤدى إلى قطع الطريق النهرى التجارى بين بغداد وفم الخليج باطلاق النار على البواخر النهرية من قبل العشائر الثائرة . كما أن النظام الذى أحدثه مدحت باشا عام ١٨٧١ فى تسوية أراضى المنتفك مثلا ـ تقسيمها بين الحكومة وبين أسرة معروفة كبيرة ثم تسجيلها بأسمائهم وصيرورة أبناء هذه الأسرة ملاكا للأرض قد أوجد ضغينه فى نفوس القبائل التى كانت تعتقد نفسها مالكة . فظلت ثائرة مضطربة بحيث لم توفق الحكومة إلا لتحصيل شىء قليل من الالتزام . وما كانت هذه مثار الاضطراب وحدها بل كانت هناك هوة بعيدة بين الأتراك الحاكمين وبين بعض أبناء البلاد من الناحية المذهبية وفى البلاد عناصر وعقائد ، فى العراق من المسلمين من هم على المذهب السنى ومن هم على المذهب الشيعى ، وفيه أقليات غير مسلمة . فيه مسيحيون ويهود ونحل أخرى كالصابئة واليزيدية ، وفى العراق عرب واكراد وفرس واتراك ، وفيه فريق محافظ وفريق ينزع إلى التجدد ، وفيه العشائر الرحالة التى تعيش فى الصحارى تنتجع الكلأ وتستغل الإبل والضأن . وفيه العشائر المستقرة التى تستغل الأرض بالفلاحة ، وفى هذه العشائر العربية والكردية شيوخ وأغوات متنفذون ينظرون إلى هذا الفاتح الجديد نظراً مريبا . ويرون فيه طارئا ودخيلا يريد أن يفتح البلاد ويحكمها ، ثم هم لا يعلمون ماذا سيحل بهم رغم تصريحات هذا الغازى وبياناته . وكثير من هؤلاء كان يتوقع رجوع جيش الخلافة لاسترداد كل شبر يفقده . ويؤمن بأن الغلبة لله ولرسوله وللمؤمنين ويجد فى الجهاد المقدس لرد عادية الغازى الجديد واجبا تحتمه العقيدة وفى معاضدته خروجا عليها ، وكان فريق منهم يرى أن الخروج على الخليفة يسىء إلى سمعته ويلصق به عاراً لا يمحى ، وقد وجد البريطانيون مقاومة عنيفة من رجال الدين فى أنحاء البلاد جميعها ، وافتى علماء المسلمين فى العراق على اختلاف مذاهبهم بإجابة أمر الخليفة ، وطاف نجل المجتهد الأكبر فى النجف بين عشائر العمارة يدعوها إلى الانضواء تحت علم الجهاد . وسرت دعوته إلى منطقة شيخ المحمرة فى إيران حيث ثارت القبائل وقطعت أنابيب النفط عن مصافى عبدان . كان على الأتراك ان يأخذوا هذه الطوائف باللين ويراعو وضعها الاجتماعى والدينى ، ولكن جهل الحكام وسوء الإدارة وعلاقتهم بالمدن المقدسة علاقة متوترة كان يؤدى إلى سوء

التفاهم وكانت نتائج ذلك كله وخيمة . وكانت كل إساءة تحدثها الإدارة التركية أو كل ضعف يبدو منها يجد له صدى فى الجهات الأجنبية التى تستغلها استغلالا مفيداً . فعندما اطلق الأتراك النار على كربلاء عام ١٩١٦ وشنقوا وجهاء الحلة كان البريطانيون مستعدين لتقبل الشكوى واستمالة زعماء هذه المدن إلى حظيرتهم .

وكان من جراء سوء الإدارة أن غير كثير من أهل البلاد رأيهم فى الترك وصاروا يعدونهم مغتصبين من طراز آخر ، ومال كثير من أهل البلاد إلى اعتناق الفكرة التى كانت تبشر بتحرير العرب من نير الترك ، ووجدوا فى وعود الحلفاء بعض ما يسوغ الميل إليهم . ومع ذلك كله ما كانت توجد ضغينة مستقرة وفكرة واضحة ، بل كانت هناك ميول مترددة وأموراً آنية تستحدثها الظروف التى تلائمها ، وبعبارة أوضح ما كان هناك رأى عام موحد منظم يستطيع المرء أن يجد فيه قوة يوجهها حيث ينفع التوجيه . وقد كان جل رجال السياسة والحرب من العراقيين خارج العراق ، إما فى جبهات القتال مع جيوش الترك ، وإما فى الجيش العربى تحت إمرة الشريف حسين وأنجـاله الذين بدأوا يقاتلون من أجل البلاد العربية وخلاصها من حكم الأتراك .

هكـذا وجد البريطانيون العراق ، وهكـذا تركه الأتراك (راجع مذكرة جلالة المغفور له الملك فيصل فى فصولنا التالية ففيها خير وصف للحالة) .

الإدارة والحكم البريطانى المباشر

كانت جيوش الاحتلال قد اصطحبت معها ضباط سياسيون على رأسهم السير برسى كوكس ، وكانت كلما تقدمت فى بلد من بلاد العراق أنيطت إدارته إلى رجل من هؤلاء . وكان كوكس هو المعنى بتنظيمهم وتعيينهم على المناطق ، وقد أعلن عند نزوله فى البصرة : « أنه لم يبق فى هذه المنطقة أثر للادارة التركية ، وقد حل محل ذلك العلم البريطانى الذى ستكون فى ظلاله الحرية والعدالة وسوف يتمتع الناس فى أمورهم الدينية والدنيوية تحت هذه الظلال » .

وكان موظفو الحكومة التركية يلتحقون بجيشهم حين يتقهقر ويتركون مراكز الحكومة خالية من الوثائق والسجلات التى يتلف قسم منها بأيديهم وقسم بأيدى الغوغاء . ومابقى سالماً من الوثائق والسجلات والأثاث يذهب نهباً مقسماً. وكان هذا مبعث صعاب للفاتح الجديد لا يجد بداً من حلها ، على أن هذا الفاتح كان قد أعد العدة لايجاد إدارة مؤقتة من أول يوم فكر فيه بفتح العراق زيادة على ما يقتضيه العرف الدولى فى الاتفاقيات الدولية المعقودة فى ١٨٩٠ ، ١٩٠٧ والتى تنص على وجوب قيام الدولة المختصة باتخاذ الوسائل اللازمة لإعادة الأمن إلى نصابه قدر استطاعتها مع احترام القوانين المعمول بها فى تلك البلاد .

وقد اتجهت نيات المحتلين إلى اتخاذ أساليب الإدارة الهندية طمعاً فى اضافة المناطق المحتلة إلى الهند وجعل ولايتى البصرة وبغداد تابعتين فى إدارتهما إلى بومبى وأول مظهر لذلك كان فى تكوين شرطة مدنية على نمط شرطة الهند أشرف عليها المستر آى . جى . جريجسن الخبير بشئون الحدود الشمالية الغربية من الهند والخليج الفارسى ، ثم تكونت مثل ذلك فى العمارة والناصرية وسوق الشيوخ . ولم يكتب لهذا التدبير شىء من النجاح فتكونت الشرطة المحلية « الشبانة » التى صارت فيما بعد نواة الشرطة العراقية التى توسع فيها تحت إشراف الكولونيل H. C. Prescott الذى صار مفتشاً عاماً للشرطة العراقية فيما بعد . والمظهر الثانى إدخال العملة الهندية حيث حلت محل العملة التركية التى نزلت قيمتها الشرائية ولم تعد المسكوكات الصغيرة كافية للتداول ، أما الليرة التركية الذهبية فقد بقيت دراجة فى السوق .

وقد حشد المحتل من الهند عدداً كبيراً من السياسيين والإداريين إما بطريق الاستعارة من الجيش وإما من الدوائر الهندية . ولم يستخدم فى الوظائف الإدارية الكبيرة التى عليها مسئولية مهمة إلا نفر قليل من العرب لم يتجاوز عددهم فى أول آب من عام ١٩٢٠ عشرين موظفاً لا تزيد رواتبهم عن (٦٠٠) روبية كان يقابلهم من البريطانيين والهنود ٥١٤ موظفاممن يتقاضى هذا الراتب ، (١٢٨٠) موظفاً بريطانياً وهندياً ممن تقل رواتبهم عن (٦٠٠) روبية ، وكان عدد موظفى الإدارة من الهنود (٢٣١٦) هندياً مع (١٠٢٢) بريطانيا . أما موظفى السكك الحديدية فقد كان عددهم فى أول نيسان عام ١٩٢٠ (٩٢٨ و ٢٤) بجميع الدرجات وكان ٨٠ ٪ منهم من الهنود ، ٣ ٪ من الأوربيين ، ١٧ ٪ من سكان البلاد . وقدقسمت البلاد إلىمناطق سياسية حسب التقسيم الموجود فى الهند،وظلت الإشاعة القائلة بإلحاق العراق بإدارة الهند قوية وأنه سيكون مخرجاً لازدياد السكان إلى أن صرف النظر عنها نهائياً وأعلن إنكار ذلك رسميا .

أما معاملة الفاتحين فى بدء الاحتلال فقد كانت معاملة الغالب للمغلوب ، وقد اتخذ الجيش أسلوبه فى تأمين حاجاته فأصدر الحاكم العسكرى أوامره وبياناته ونفذتها الشرطة العسكرية فيما يختص بالسيطرة على تحديد حرية الأشخاص ووسائط النقل البرية والنهرية وتفضيل الضباط البريطانيين والنساء الأوربيات وخدم الحكومة على الأهلين ، زد على ذلك ما أصدره من التعليمات المتعلقة بحمل السلاح وتنظيم بيع المشروبات والأدوية واستعمال مياه الأنابيب ، ولم يتردد الجيش المحتل عن إخراج السكان قسراً من دور سكناهم وأراضيهم دون أن يدفع لهم بدل الإيجار . وكانت السخرة مألوفة حيث تساق جموع الفلاحين والعمال من حقولهم وبيوتهم قسراً إلى العمل . وبينما كان العسكريون يعملون هذه الأعمال القاسية التى تنفر السكان وتملأ قلوبهم حقداً على هذا الفاتح الجديد كان الحكام السياسيون يخطبون ودا لأهلين ويحاولون جهد استطاعتهم تطبيق ما ورد فى بياناتهم عند نزولهم اليابسة من أرض العراق .

القضاء

أسست الحكومة المحتلة النظام القضائي في العراق في ١١ آب لعام ١٩١٥ واستندت فيه إلى مجموعة من القوانين مستمدة من قوانين الهند واخرجت بذلك مجموعة سمتها قوانين المناطق العراقية المحتله وأرادت بها استبدال النظام القضائي التركي بهذا النظام الجديد بناء على عدم امكانية تأسيس المحاكم على الأسس القديمة التي تستدعي الرجوع إلى محاكم التمييز في الاستانة وبناء على أن القوانين التركية أيضاً غريبة عن البلاد وعدم وجود حكام وموظفين ملمين بها . وقد أعطيت الصلاحيات المقتضية لتنفيذ أي قانون هندي يمكن تعديله بحيث يكون مناسباً للأصول المحلية ، كما اعطيت صلاحيات وضع الأنظمة اللازمة لاصول المحاكمات . وعندما احتل الجيش البريطاني بغداد وتوضحت السياسة البريطانية في بيان الجنرال مود بعدم إدخال المؤسسات الأجنبية في البلاد ، ولما كانت القوانين المشار إليها وهي قوانين المناطق العراقية المحتلة من ضمن المؤسسات وكانت رغبة الحكومة البريطانية إقامة دولة عربية في بغداد صار من الواضح أن القوانين المرعية في البلاد ستبقى نافذة المفعول ، وإن ألغيت فلا تلغى كلها كما جرى في ولاية البصرة . لذلك صدر بيان المحاكم في ٢٨ كانون الأول لعام ١٩١٧ . وعلى أثر هذا البيان بدأت المحاكم المعطلة عملها ثانية تحت إشراف السير إدجار بونهام كارتر صاحب هـذه الفكرة والخبرة الطويلة التي اكتسبها في القضاء السوداني . ونظمت محاكم البداية ومحاكم الصلح والمحاكم الشرعية ومحاكم الجزاء بدرجاتها . وكان الحكام العرب يعتبرون من حكام الدرجة الثانية والحكام البريطانيون من حكام الدرجة الأولى . وبقي قانون الجزاء العثماني نافذاً حتى استبدل بقانون العقوبات البغدادي الذي بني على أساس القانون الاول مع تعديلات أخذت من منابع مصرية كانت مأخوذة على الأغلب من القانون الفرنسي . وقد تم توحيد القضاء بين ولايتي البصرة وبغداد في اليوم الأول من شهر كانون الثاني لعام ١٩١٩ ، وألغي قانون المناطق المحتلة في العراق وجميع القوانين الهندية والبريطانية التي يعمل بها على موجبه عدا تسعة قوانين هندية وقانون بريطاني واحد ، وقد استخدم العراقيون في مناصب القضاء والوظائف الكتابية منذ البداية

ولم يتردد السير بونهام كارتر أن يقول بأن الموظفين العرب قضاة وكتبة أدوا واجبهم بكفاءة وخدمات ممتازة .

نظام القضاء بين العشائر .

استند القضاء بين العشائر على الأسس التي وضعها روبرت سندمان حوالى ١٨٧٥ نتيجة خبرته أثناء وجوده فى بلوخستان . وقد صارت مرجعاً لرجال الاستعمار يقتبسون منها وينسجون على منوالها . وكان هنرى دوبس من أولئك الأساطين الذين استفادوا منها فوضع أسساً مثلها للهند ، وقد طبقها فى العراق بما يناسب أحواله مستفيداً من علاقته بالعرب ومن خبرته فى العشائر الهندية حيث وضع نظـــام دعاوى العشائر الجزائية والمدنية ونظام جرائم الحدود الهندية . ومن جملة ما يرمى إليه النظام القضائى العشائرى فى العراق تقوية نفوذ الشيوخ وجعلهم تابعين لتوجيه الضباط السياسيين وخاضعين لسيطرتهم المباشرة على أساس المصالح المتبادلة فإن الدولة المحتلة يهمها قبل كل شيء استتباب الأمن وتأمين جمع الضرائب . فالشيخ ينفذ ما تأمره به السلطة والسلطة تسنده فى اقطاع الأرض والإعفاء من الضرائب ومده بالمال والسلاح ومساعدته للقضاء على منافسيه عند الاقتضاء . ومنح هذا النظام سلطة للحكام السياسيين لتشكيل مجلس عشائرى وهيئات تحكيمية أخرى لتفصل على موجب هذا القانون وبموجب عادات العشائر فى جميع القضايا التى يكون المتنازعان فيها من أبناء القبائل والكلمة الفصل فى النهاية تكون للحاكم السياسى . ومهما يكن فإن هذا النظام الجديد قسم المملكة قسمين كل فريق له قوانينه وأحكامه وهو أمر لا يقبله التقدم الاجتماعى البشرى الذى يرمى إلى المساواة بين الناس وتوحيد كلمتهم واتجاههم فى الحياة ، ولكن رغبة المحتل فى توطيد الأمن واستقرار الأحوال دفعته إلى اتخاذ التدابير العاجلة . وقد قدم كل من السير برسى كوكس والمستر هنرى دوبس خدمات جلى فى هذا الصدد إذ تحقق لديهما أنه لا يمكن الوصول إلى غايتهما بين العشائر ما لم يطبق مثل هذا النظام الذى يستخدم الرؤساء الطبيعيين للقبائل ليكونوا حكاماً ووسطاء فى تنفيذ رغبات المحتل . وقد تأكد لديهما أيضاً بأن حكم القبائل من قبل البريطانيين أو العرب المدنيين لا يأتى

بالنتائج السريعة المطلوبة وإن الاعتراف بعادات القبائل وعرفها وطباعها خير ضامن لما يريدان .

التنظيم المالى

واجهت السلطات المحتلة صعوبات جمة فى القضايا المالية كقضايا التزام الأراضى وجباية الواردات وإدارة الأوقاف وأعمال الكمارك والمكوس وأعمال البنوك والشركات التجارية والديون العمومية وغير ذلك . وقد كان الأتراك أتلفوا السجلات والوثائق ، وما بقى منها كان على الطراز القديم مرتبك غير منظم اللهم إلا سجلات الأراضى التى وجد بعضها . ولما انيطت أعمال الواردات بالمستر دوبس فى كانون الثانى من عام ١٩١٥ بدأ هذا بتنظيم الأعمال المالية ووضعها على أسس صحيحة خاصة بعد احتلال بغداد ، فقد جمعت المعلومات الاحصائية ونظمت السجلات ووضعت المذكرات الواضحة فى جميع الفروع المالية المذكورة وخاصة منها ما يتعلق بالتزام الأراضى وجمع الضرائب وزيادة كميات النقد المتداولة وإنشاء الأعمال الجديدة وتعمير بعض ما أصاب المدن من الخراب إبان الحرب وخاصة الكوت . وفتحت بعض الطرق وأنشئت لجنة للاعمار الزراعى لزيادة الإنتاج وإصلاح وسائل الرى ، كل ذلك أوجد المقاولين وبعث طبقة من التجار والعمال وصار الناس يشعرون بالفرق بين العهد التركى القديم وبين العهد البريطانى الجديد من حيث مستوى المعيشة .

وجهة النظر البريطانية فى مستقبل الحكم فى العراق

انقسمت هذه الوجهة قسمين ، بتعبير آخر مثلت مدرستين مختلفتين أولهما المدرسة البريطانية الهندية وهى التى ترى أن السيطرة على بلاد العرب يجب أن تتفق مع مصالح الهند ، وأن يكون ذلك عن طريق بسط النفوذ على مناطق الخليج الفارسى وما جاورها من هذه البلاد ، والتمكن من المتنفذين فيها تمهيداً لامتصاص هذه البلاد وجعل العراق إقليماً تابعاً فى إدارته للهند ، بل وإدماجه كما هو الشأن فى برما الغربية . لذلك لم تجد هذه المدرسة من الضرورى إشراك العرب مع البريطانيين فى الحرب

عند الأتراك ولا تعترف بالروح العربية الاستقلالية التى كانت آخذة فى القوة والانتشار فى العراق والبلاد العربية الأخرى .

وترى هذه المدرسة أن اتجاهها يؤدى إلى حفظ مصالح الامبراطورية بالتمكن من هذا الجسر الواصل بين الشرق والغرب تمكناً لا يشركها فيه أحد ،وتجد أن من أولى واجباتها التقرب من الزعيم العربى ابن سعود وتقوية نفوذه والاعتراف به زعيماً على العرب أجمع ليكون واسطة لتنفيذ أهداف هذه المدرسة ، وكان الجنرال مود من أقوى عناصرها . وقد عارض فى إلقاء بيانه الذى مر بنا آنفا معارضة شديدة ولكنه أرغم عليه،فقدكان لا يريد أن يعترف للعرب بشىء ، وقد رأينا كيف بذلت هذه المدرسة جهوداً جبارة حين جهزت الحملة العسكرية بآراء حكومة الهند ووسائل الإدارة . وقد بلغت هذه الآراء منتهاها حين صار ويلسن A. T. Wilson مندوباً مدنياً فى العراق عند ذهاب السير برسى كوكس Cox إلى إيران منذ ربيع ١٩١٨ حتى خريف ١٩٢٠ .

أما المدرسة الثانية فقد سميت بالمدرسة البريطانية المصرية أو المدرسة الهاشمية التى تعترف بالفائدة البالغة التى حصلت عليها من جراء التعاون مع العرب . وقد رأينا كيف اتصلت بالأسرة الهاشمية وبوجهاء العرب قبل الحرب وشجعتهم على إنشاء حكومة أو حكومات عربية . وقد لمست هذه المدرسة ماقام بهالعرب أثناء الحرب من العمليات الحربية ضد الأتراك وكيف ساعدوا جيوش الحلفاء فى الجبهة الغربية من بلاد العرب ، ووفاء لما قام به الشريف حسين وأنجاله وضباط العرب الذين انضموا اليهم وقادوا الجيوش العربية ترى هذه المدرسة إنشاء حكومة أو حكومات عربية خاصة فى دمشق لتكون حاجزاً منيعاً للتوسع الفرنسى الذى قد يتجه إلى الهند . وتجد فى إنشاء مثل هذه الدولة الصديقة تسهيلا لحماية قناة السويس وطريق الهند . ومن معاضدى هذه المدرسة وأتباعها رجال بريطانيون لعبوا دوراً مهماً فى البلاد العربية أثناء الحرب العالمية الأولى ، والذين يعترفون بالعهود والوعود التى أعطيت للملك حسين سنة ١٩١٥ ، والذين يوحى منهم ووحى من أتباع مدرستهم أذيع منشور الجنرال مود عام ١٩١٧ الذى نشرناه فى محل آخر من هذا الفصل والبيان الفرنسى البريطانى الذى نشر فى تشرين الثانى من عام ١٩١٨ وما جاء فى خطاب لويد جورج فى ٥ كانون الثانى ١٩١٨ ،كما أيد كل ذلك ما جاء

فى منطوق المادة الثانية عشرة من مواد الرئيس ولسن فى ٨ كانون الثانى من عام ١٩١٨ .

« الحركة الاستقلالية فى العراق »

تمهيد : بيانات ووعود تمهد لنيل الاستقلال

وضعت الحرب أوزارها ، وأعلنت الهدنة فى تشرين الثانى من عام ١٩١٨، وتم الزحف البريطانى على الموصل فى اليوم السابع منه حيث تم الاستيلاء على العراق من جنوبه إلى شماله ، ودخل الأمير فيصل بن الحسين ضاحية دمشق فى يوم ٢ تشرين الثانى من العام نفسه ، وطفقت الجيوش العربية فى سوريا بقيادة الضباط العراقيين تلاحق فلول الجيش التركى فى حمص وحماه وحلب .وفى يوم ٥ أكتوبر من هذا العام اذاع الأمير بياناً جاء فيه :

« تشكلت فى سوريا حكومة دستورية عربية مستقلة استقلالا مطلقاً لا شائبة فيه باسم مولانا السلطان حسين شاملة جميع البلاد السورية ».

وفى يوم ٨ نوفمبر من عام ١٩١٨ أذاعت فرنسا وبريطانيا بيانها الآتى :

« إن السبب الذى من أجله حاربت فرنسا وبريطانيا فى الشرق تلك الحرب التى اهاجتها مطامع الألمان إنما هو لتحرير الشعوب التى رزحت أجيالا طوالا تحت مظالم الترك تحريراً نهائياً وإقامة حكومات وادارات وطنية تستمد سلطتها من اختيار الأهلين الوطنيين لها اختياراً حرا . ولقد اجمعت فرنسا وبريطانيا على أن تؤيد ذلك بأن تشجعا وتعينا على اقامة هذه الحكومات والادارات الوطنية فى سوريا والعراق ، المنطقتين اللتين أتم الحلفاء تحريرهما ، وفى الأراضى التى مازالوا يجاهدون فى تحريرها ، وأن تساعدا هذه الهيئات وتعترفا بها عندما تؤسس فعلا وليس من غرض لفرنسا وبريطانيا أن تنزلا أهل هذه المناطق على الحكم الذى تريدانه ولكن همهما الوحيد أن يتحقق بمعونتهما ومساعدتهما المفيدة عمل هذه الحكومات والادارات التى يختارها الأهلون من ذات أنفسهم، وأن تضمنا حكماً عدلا منزهاً يساوى بين الجميع ويسهل عليهم ترقية الأمور الاقتصادية فى البلاد بإحياء

مواهب الأهلين الوطنيين وتشجيعهم على نشر العلم ووضع حد للخلاف الذى قضت به السياسة التركية ، تلك هى الأغراض التى ترمى إليها الحكومتان المتحالفتان فى هذه الأقطار المحررة .

ولما عقدت الهدنة بين الحلفاء والألمان فى ١١ نوفبر سنة ١٩١٨ دعا السير وليم مارشال قائد القوات البريطانية فى العراق أعيان بغداد وتلا عليهم بياناً جاء فيه :

حينما دخل المرحوم السير ستانلى مود بغداد على رأس جنوده الظافرة قبل ثمانية عشر شهراً كان أول عمل قام به هو إذاعته بياناً على أهل بغداد وبواسطتهم إلى سكان العراق جميعهم ، وكان ما حواه هذا البيان تأميناً فى الحاضر ورجاء فى المستقبل . ولا بد أن الكثيرين منكم يذكرون كلمات الجنرال . . . . فقد قال لكم إن الجيش البريطانى جاءكم منقذاً لا فاتحاً ، وأنه لا يوجد تحت الحكم البريطانى تعرض لديانة أى رجل كان ولا لأعماله . . .

أيها السادة ، إن الجنرال مود لم يجد سعة فى عمره لإنجاز هذا الوعد ، فقد وضع الأساس وبقى على إتمام البناء .

ثم قال لقد انتهت الحرب ويمكننا اليوم أن نبين أن الوعود التى أعطيت مراراً يجب أن تنجز فى أول فرصة ممكنة وبمثابة عربون فى الوقت الحاضر يدل على نياتنا الحسنة أبلغكم ما يأتى :

١ — يسمح لأسرى الحرب المعتقلين فى الهند الرجوع إلى أوطانهم ما عدا الذين من الجيش التركى .

٢ — تطلق الحرية التامة للتجارة وتخفف تطبيقات الحصار فى داخل الأراضى المحتلة

٣ — يخفف التطبيق ايضاً على العمل الشخصى.

٤ — يسمح بنقل الجثث التى تدفن فى كربلاء والنجف بشروط مناسبة .

٥ — تفتح الطريق من جديد للزيارات المنظمة للأماكن المقدسة .

٦ — يعطى راتب شهر مكافأة للموظفين الدائمين من الأهلين فى دوائر

الحكومة الملكية الذين لا يخدمون فعلا فى صفوف الجيش وقد قاموا بوظائفهم حق القيام .

٧ — يختار بعض المسجونين فى السجون الملكية ويطلق سراحهم .

٨ — يوزع طعام وألبسة على الفقراء فى بغداد والمدن الأخرى وتخفف القوانين الحالية بعض التخفيف .

ولا أجد أيها السادة ما أقوله غير ما قلته ، وأطلب إليكم أن تعتقدوا أن التضييقات والإزعاجات التى لا بد من وقوعها بسبب وجود الجيش بين ظهرانيكم لم تنشأ عن رغبتنا فيها ، وإنما اقتضتها الضرورة العسكرية ، وأعدكم باسم جلالة الملك الإمبراطور أن أقوم بإزالة ما يدعو إلى الشكوى بالسرعة الممكنة .

وفى يوم ٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ زار وفد من علماء النجف الحاكم السياسى وطلبوا منه أن يبلغ القائد العام تهانيهم بالنصر الذى أحرزه الحلفاء فى سوريا والبلقان وذكروه بما للعرب من حقوق . فأرسل إليهم رداً باسم القائد العام جاء فيه . «يود القائد العام منكم أن تذكروا علماء النجف وأعيانها وتجارها بما هو معروف عند كل أحد وهو أن بريطانيا حاربت ألمانيا لأجل صيانة العهود التى لا يحل نقضها وتأمين حرية الشعوب الصغيرة التى تتوقف سعادتها على رعاية العهود . والنتيجة الحاضرة للفوز الذى أحرزته جنود الحلفاء فى الشرق الأدنى هى تحرير الشعوب التى قاست العذاب من جور الدول الوسطى وحلفائها ، وعلى حسب ما تقتضيه حقوق الشعوب فالمناطق التى يسكنها اليونانيون تعطى لهم والتى يسكنها الصربيون تعطى لصربيا ويتخذ الحلفاء هذا المنهج الذى يسيرون عليه فى معاملة الشعوب الأخرى قاعدة لهم فى سياستهم نحو العرب .

وكما أن الصربيين اشتركوا فى استرداد بلادهم فالعرب أيضاً حاربوا جنباً إلى جنب لتحرير قطر عربى .

وقد سبقت هذه الوعود وعود أخرى عند نزول الجيوش البريطانية أرض العراق أشرنا إليها آنفاً وأكدتها مواد الرئيس ولسن الاربعة عشرة التى اعلنها فى خطاب القاه فى الكونجرس الأمريكى بتاريخ ٨ كانون الثانى من عام ١٩١٨ والتى من مبادئها حرية الشعوب الصغيرة والكبيرة واستقلالها على مبدأ المساواة

فى الحقوق وإنهاء سياسة الفتح والاستعمار وإلغاء المعاهدات السرية المجحفة بحقوق الأمم وإعطاء الشعوب المحررة حق تقرير مصيرها .

وقد تخللت أزمنة هذه البيانات والوعود معاهدات سرية وبيانات تنقضها وتثير الشكوك فيما ورد فيها ، من ذلك معاهدة سايكس — بيكو ووعد بلفور الذى أشرنا إليهما سابقاً .

وفى يوم ١٩ نوفمبر لعام ١٩١٨ أذاع الحاكم السياسى A.I. Wilson بياناً فى العراق يشير فيه إلى نوع الحكم الذى يرغب البريطانيون فى تطبيقه على العراق جاء فيه : « أذيع على أهل العراق من وقت لآخر أن سياسة الحكومة البريطانية تسعى دائماً إلى تنشيط روح الوطنية والاستقلال فى جميع البلاد التى يمتد إليها النفوذ البريطانى والنفع الذى يعود على أهل البلاد من انعاش هذه الروح هو عظيم جداً ، ولكنه لا يمكن للذين لم يحصلوا على اختبار عملى فى الامور إحراز كل ذلك مرة واحدة بل يرقون إليه تدريجياً ، ولا ريب فى أن الطريق المثلى التى يخطوها الأهلون أول خطوة هى اشتراكهم فعلا فى إدارة أمورهم المحلية الخاصة ، ثم يرتقون مع الزمان إلى أمور أوسع نطاقاً . وطبقاً لهذه الخطة تقرر أن ينشأ فى بغداد من أول شهر يناير سنة ١٩١٩ المقبل مجلس بلدى للنظر فى أمور البلدية . ويتألف هذا المجلس من رئيس ونائبين وكاتم أسرار ومعاون كاتم أسرار . وكل من هؤلاء يكون موظفاً لدى الحكومة ، ويكون أيضاً فى المجلس عشرة أعضاء غير رسميين يعينهم الرئيس وسته أعضاء غير رسميين آخرون ينتخبون على طريقة تشرح فيما بعد . ويرتأى أن ينظر هذا المجلس عند تأليفه فى رسوم البلدية وإيرادات بلدية بغداد تحت الإدارة الملكية ونظارتها ، ويزود بسلطة مالية ثابتة يمكنه معها أن يصادق على صرف مبلغ نهايته (٥٠٠) روبية فى السنة ويمكنه أيضاً التصديق على مبلغ قدره (١٥٠) روبية فى الشهر لكل شأن من الشئون . وتكون هذه السلطة ثابتة على كل حال لما خصص فى الميزانية لهذا الشأن ، وعلى المجلس الذى أعطى هذا المقدار من السلطة المالية أن يعنى بالأمور الآتية : النظافة والصحة العامة والمستشفيات وإسعاف الفقراء والطرق والمتنزهات والأسواق والحرف وتخطيط الدور والأبنية والتجارة والهندسة والأمور الأخرى المتعلقة بالبلدية .

وقد وضعت قوانين العمل وصودق عليها وحدد فيها عدد الجلسات التي يعقدها المجلس في كل شهر والطريقة التي تتبع في المناقشات ، ويكتب محضر المجلس باللغتين العربية والانكليزية وينشر من وقت لآخر ليطلع عليه العموم ، وينشأ مثل هذا المجلس في مدن العراق الكبيرة جميعها ، ويكون عرضة للتغيير حسبما تقتضيه الحالة المحلية . وهذا العمل يكون عربوناً يدل على نيات الحكومة البريطانية الحسنة نحو أهل العراق الذين يؤمل منهم أن ينتهزوا هذه الفرصة السانحة ويبادروا بروح الإخلاص لخدمة الوطن المشترك » .

وفي يوم ٢٩ حزيران ١٩١٩ ألقى الحاكم السياسي العام السير ولسن في حفلة إحياء ذكرى ميلاد ملك بريطانيا خطاباً جاء فيه : « ان الأمبراطورية البريطانية التي خاضت غمار الحرب مدة خمس سنوات قد احتلت القطر العراقي الكريم بجنود بريطانيه أتت بها من جميع أقطار العالم . وقد مكثنا بين ظهرانيكم في بغداد خلال السنتين الماضيتين فأصبحنا شركاء لكم نشاطركم العمل لتأسيس مستقبل باهر لقطركم السعيد ، لقد طرأت جملة تغييرات وألغيت جملة تطبيقات ، ولا شك عندي في أنه ستطرأ جمله تغييرات خلال الأثنى عشر شهراً المقبلة ، فيزول عن حكومة العراق تدريجياً شكلها الحالي المؤقت ويستبدل بشكل حكومة وطنية ثابتة الأركان ثم قال وقد أعلنت الحكومة البريطانية قبل الآن نيتها على إسداء المعونة لتأسيس حكومة في العراق توافق مشارب الأهلين ، وأن تكفل في الوقت نفسه سير العدل سيراً مستقيماً لا تشوبه شائبة المحاباه ، وان تنشط التجارة والموارد الاقتصادية وتنشر العلوم والمعارف، فهذه وعودها ستتمها . ولا بد أنكم تودون الوقوف على ما قامت به السلطة من الأعمال التمهيدية لتأسيس نظام لحكومتكم العراقية . ذلك النظام الذي سيساعد العراقيين على الاشتراك مع السلطة في إدارة شئونهم من أول الأمر ، ثم بين تقسيم العراق الاداري إلى ألوية وقال : إن في النية تأليف مجلس يعين أعضاؤه من الأعيان في كل لواء ، وينعقد في أوقات معلومة لإبداء المشورة الى الحكومة في الأمور والمهام المحلية كالتعليم والزراعة والري وفتح الطرق وتوسيعها وماشابه ذلك ، ويرأس كل مجلس الحاكم السياسي في اللواء على أن يكون كاتم سره عراقياً يشتغل معه غالباً بصورة مشاور له .

وأما في إدارات الحكومة الأخرى كالمالية والمعارف والعدلية ففي النية تعيين

عراقى كفء ليكون مستشاراً لرئيس دائرته ويؤمل من هذا تدريب عدد كاف من العراقيين لخدمة الحكومة ، وهذه هى الخطوة الأولى وليست الأخيرة التى قررت الحكومة جعلها دستوراً لها فى أعمالها .

هذا ويعلم أبناء العراق أن تدريبهم على مبادىء الإدارة الحديثة الصحيحة يستغرق وقتاً من الزمن ويجب أن يتم بتؤدة ، فإن التسرع فى إدخال النظم الحديثة يولد الارتباك والتشويش كما حصل فى تركيا وأفغانستان ويجلب الويلات كما حدث فى إيران ، ففى العجلة الندامة وفى التأنى السلامة ، وإذن فالأمل ضعيف فى إنشاء حكومة تدير أمورها بادىء ذى بدء بدون مساعدة الخبيرين . لقد سفكنا دماءنا وبذلنا أموالنا فى سبيل تحرير العراق وقد عاونتنا بعض الأعراب بالقيام بمهمتنا فنتوقع أن نشارككم فى إتمام هذه الأعمال .

الإذن بالاستفتاء العام حول مستقبل الحكم فى العراق لسنة ١٩١٨ — ١٩١٩

وضعت حكومة لندن بياناً عاماً يسترشد به وكيل المندوب السامى فى العراق ورجت منه أن يستطلع الرأى العراقى العام فى هذا الموضوع . وكان هذا أول بيان تعلن حكومة صاحب الجلالة البريطانية منذ الهدنة ، وأمرت بإجراء استفتاء عام فى شكل الحكم الذى يريده العراقيون . ولم يحو البيان غير تكرار للسياسة الواردة فى التصريح البريطانى الفرنسى وتوضيح ظاهر بأن وضع الولايات العربية النهائى سيتحتم فى مؤتمر الصلح وأن حكومة صاحب الجلالة لا تنوى التخلى عن السيطرة أو إهمال أصدقائها . وفى الوقت نفسه فإن التفاتها منصرف إلى مشكلة تأسيس أحسن شكل للحكومة . هذا خلاصة ماجاء فى البيان . وقد وردت معه برقية من وزير الهند بتاريخ ٢٨ تشرين الثانى ١٩١٨ تخول وكيل المندوب السامى إجراء استفتاء عام يعرب فيه سكان المناطق المختلفة عن رأيهم فى النقاط التالية :

١ — هل يفضلون دولة عربية واحدة تقوم بإرشاد بريطانيا وتمتد من حدود ولاية الموصل الشمالية إلى الخليج الفارسى .

٢ — وفى هذه الحالة هل يرون بأن عاهلا عربياً إسمياً يجب أن ينصب فى رأس هذه الدولة .

٣ — وإذا كان الأمر كذلك من هو الذى يفضلون نصبه رئيساً للدولة ؟

وترى وزارة الهند أن تحصل على إفصاح حقيقى للرأى العام المحلى فيما يختص بهذه النقاط ، على أن يكون بشكل يمكن إذاعته إلى العالم بصفته القول الفصل لسكان بلاد ما بين النهرين .

وقد ارفقت هـــذه النقاط الثلاث بتعليمات وتوضيحات تسهل فهمها وتجنب بعض ما يعترضها من العقبات وإن كانت العقبات لا يمكن تخطيها بسهولة .

لقد كان سكان العراق متفاوتين فى المقدرة على التعبير عن رأى واضح فنهم سكان المدن الذين فيهم كثرة من المثقفين والمتعلمين وسكان الأرياف الذين يرعون الماشية ويزرعون النخيل والقمح والأرز، والقاطنون فى الأهوار والمتنقلون فى الصحراء ينتجعون الكلأ ويتسقطون مواقع المياه، ومنهم ملاك الأراضى والتجار. وقد حصر الاستفتاء فى الريف والمدن الصغيرة بالشيوخ والملاكين من الوجهاء. وفى المراكز الكبيرة كالبصرة مثلا تذاكر وكيل الحاكم الملكى العام والحكام السياسيون مع الشخصيات المهمة.

أما فى المدن المقدسة كالنجف وكربلاء والكاظمية وفى بغداد فلم يكن الأمر سهلا. ولم تكن نتائجه مرضية، فقد كانت نتيجة النجف مرتبكة بين تفضيل الحماية البريطانية مطلقة وبين الحماية البريطانية وتعيين أمير عندما تكون البلاد مستعدة وبين حكومة عربية يرأسها أمير دون ذكر لاسم بريطانيا.

وفى كربلاء أصدر العلماء فتوى « بأن كل شخص يصوت لحكومة غير مسلمة يعد خارجاً على الدين »، وفى الكاظمية كانت المعارضة شديدة وكان العلماء قد افتوا مثل فتوى كربلاء، وفى بغداد لم تستطع السلطات البريطانية التأثير والتدخل فيما يريده الأهلون. وبعد مداولات واتصالات بقاضى السنة وقاضى الشيعة واجتماع وجهاء البلدة فى مؤتمر توصل إلى النتيجة التالية : « لما كان مفهوماً أن غرض حكومة بريطانيا العظمى وفرنسا فى الشرق هو تحرير السكان وتأسيس حكومات وإدارات فى البلاد مبنية على أسس عملية بحسب رغبة السكان أنفسهم فإننا الذين ننتمى إلى الأمة العربية المسلمة والذين نمثل الطائفتين السنية والشيعية من سكان بغداد وضواحيها نقرر بأن البلاد الممتدة من شمال الموصل إلى الخليج الفارسى يجب أن تؤسس فيها دولة عربية واحدة يرأسها ملك مسلم من أنجال الشريف حسين يكون مسئولا أمام مجلس تشريعى يكون مركزه فى بغداد عاصمة العراق.

ومهما يكن فإن الطريقة التى اتبعها وكيل الحاكم العام لم تؤد إلى نتيجة واضحة ولا حاسمة، بل لم تكن رأياً حقيقياً لأهل البلاد فأن مضبطة بغداد الآنفة قد أسقطت من الإحصاء بدعوى أنها لا تمثل أكثرية السكان كما نفى سبعة من الوجهاء إلى خارج القطر العراقى. ولم يستفت لواء الدليم. أما مضبطة الموصل فقد وقع عليها

عشرون شخصا من المسلمين واعتبرت لجميع سكان المنطقة . ولم تعرب مدينة كربلاء عن رأيها بصورة رسمية ،وجل ما حصلت عليه السلطة كان من الذين يخشون ضياع هذا النفع بزوالها . أما ذووالرأى من رجال الدين المثقفين الوطنيين الذين كرسوا حياتهم من أجل استقلال البلاد فقد تركوا جانبا . ولم يكن خلود العشائر الراحلة أو المشتغلة بالزراعة دليلا على الرضا وذلك للسياسة العشائرية التى اتبعتها الحكومة فى أرضاء شيوخ القبائل بالإقطاع والمال وتقوية النفوذ والسلطان . لقد كانت نتيجة هذا الاستفتاء المرتبك أن أعرب الناس إعراباً بضم ولاية الموصل إلى الدولة الجديدة ، وأعرب الوجهاء والمتنفذون فى سبع مناطق عن رغبتهم فى بقاء الحكم البريطانى ، وأظهرت خمس مناطق بصورة غالبة فى تأسيس حكومة عربية مع الاحتفاظ بأنه لا يوجد شخص يليق أن يترأس الدولة ، وأعربت منطقتان فى عدم الموافقة على تولية الحكم من قبل أحد أنجال الشريف . وأفصحت ثلاث مناطق عن رغبتها فى تأسيس حكومة عربية يحكمها أحد أنجال الشريف . ولكن مضابط هذه المناطق أسقطت من الحساب . ومع ذلك كله فقد أقر نائب الحاكم العام ولسن هذا الاستفتاء وأبان إلى حكومته رغبة أكثرية الشعب العراقى فى العيش فى ظلال الحماية البريطانية وأن هناك أقلية ضئيلة ترغب فى أمير عربى تحميه الراية البريطانية وأنه من المفيد أن يكون للعراق مندوب سام يعاونه وزراء عراقيون يديرون دفة الحكم فى البلاد .

ومهما يكن من نتائج فإن المسئولين البريطانيين لم يستطيعوا أن يبتوا فى الأمر أو يقرروا شيئاً بشأن العراق قبل أن تتم مقررات مؤتمر الصلح خوفاً من نقدات الرأى العالمى .

وفى الواقع أن الحكومة البريطانية كانت تتوق إلى وجود حل لقضية العراق يخرجها من المأزق الذى هى فيه ، على أن يتفق هذا الحل مع الوعود التى قطعوها للعرب ، وبذلك أبرقت وزارة الهند إلى نائب الحاكم العام فى ١٤ شباط لعام ١٩١٩ بما يلى : « يسرنا أن تقدموا لنا دستوراً لحكومة عربية أومجموعة حكومات عربية تقترحونها مستندة إلى رغبة السكان ، على أن يكون للسيطرة البريطانية مكانة لا تنازع فيها . كما تراعون روحية ما الزمنا به أنفسنا بالتصريح البريطانى الفرنسى بشأن تأسيس حكم وطنى ، وأن يكون هذا الدستور مرناً يفسح المجال لاشتراك عناصر

السكان جميعها والإعتراف بسجاياهم ويؤدى إلى اشتراك العرب الفعلى فى حكومة البلاد وإدارتها بمرور الزمن » .

فقدم الحاكم العام دستوراً استعمارياً صريحاً وجعل السطة العليا فيه بيد الموظفين البريطانيين وادعى أن لائحة هذا القانون قد وضعت بمعرفة لجنة من الضباط المشتغلين معه فى ضبط الوضع فى العراق . بيد أن هذه المقترحات وجدت نقداً صارماً من المسئولين معه وخاصة منهم السكرتير العدلى السير بونهام كارتر E. B. Carter وهو من الموظفين البارزين ذوى الخبرة الممتازة فى الشئون الإداريه والعدلية التى حصل عليها فى الهند والسودان ومصر . وقد وجه هذا الخبير نقداً لاذعاً وطلب أن يشترك الموظفون العرب فى مراكز الإدارة المهمة .

وعلى موجب هـــذه الاعتراضات ، وعلى أساس التغيير الذى وجده وكيل الحاكم العام بعد رجوعه من لندن وباريس فى الرأى العام فى العراق والبلاد العربية وعلى ما أدركه فى ميثاق عصبة الأمم ، وبناء على قناعة وزير الهند واللورد كرزن صار مقرراً إنشاء حكومة وطنية دستورية ، فتألفت لجنة برياسة السير بونهام كارتر وضعت قواعد الدولة المنتظرة وتضمنت أولى مبادىء الانتداب وإن لم تكن هذه اللجنة قد اطلعت بعد على صك الإنتداب على العراق ، ويمكن تلخيص قواعد اللجنة بما يلى :

١ — يجب أن تتألف حكومة من أهل البلاد تحت رعاية الدولة المنتدبة .

٢ — يجب أن يتعين شكل الحكومة حسب إرادة السكان الحرة بحيث يضمن للسلطة المنتدبة أن تقوم بمهمة الإنتداب .

٣ — يجب أن يحتوى الدستور الضمانات اللازمة التى تساعد الدولة المنتدبة على انجاز الأمانة التى حملتها فى سبيل تقدم السكان واستتباب الأمن والطمأنينة وقد قدمت هذه المقترحات مع تقرير ضاف إلى لندن ، وقبل وصولها بيومين كانت دول الحلفاء قد قررت رسمياً فى مؤتمر سان ريمو بتاريخ ٢٥ نيسان من عام ١٩٢٠ بأن تعهد إلى بريطانيا العظمى بالانتداب على العراق وفلسطين ، وأن تكون فرنسا منتدبة على سوريا . فكانت مقترحات لجنة بونهام كارتر موضع اختلاف وتبادل فى الرأى . وقد استقر الرأى فى لندن أن يؤجل كل شىء حتى يتم وضع خطط

الانتداب ، وأبلغ وكيل الحاكم العام بذلك ، وكانت الأمور تتعقد يوماً فيوماً وتقتضى حلا سريعاً قبل وقوع التصادم المتوقع بين العراقيين والبريطانيين ، فأرسل الحاكم العام يطلب تخويلا باعلان مقترحات لجنة كارتر . وفى ٧ حزيران بلغه التخويل بالإعلان عن عودة السير برسى كوكس وتطبيق مقترحات كارتر التى ستكون أساساً يبنى عليه الحكم الوطنى حسب شروط الانتداب . وفى ٢٠ حزيران من عام ١٩٢٠ نشر فى بغداد بلاغ جاء فى مضمونه ما يلى :

بناء على أن حكومة صاحب الجلالة قد تقررت وكالتها على العراق فإن شروط هذه الوكالة ستكون على الوجه التالى .

جعل العراق حكومة مستقلة تضمن استقلالها عصبة الأمم ، وعلى بريطانيا حفظ الأمن فى الداخل والخارج وان تقوم بوضع قانون أساسى باستشارة أهل البلاد مع حفظ حقوق الأجناس المختلفة فيه وتحقيق رغباتها ومنافعها ، وأن تمهد مسالك الرقى للعراق بصفته حكومة مستقلة وتنتهى هذه الوكالة متى مااستطاع العراق الوقوف بنفسه وقد قررت حكومة جلالة الملك أن يقوم السير برسى كوكس بتنظيم موقت فى تكوين مجلس شورى تحت رئاسة عربى ومؤتمر عراقى منتخب يمثل جميع أهل العراق ليضع القانون الأساسى .

وجهة النظر الوطنية وإعلان استقلال العراق التام

دخل فريق كبير من الضباط العراقيين دمشق مع الأمير فيصل ظافرين وفى نفوسهم أمل باستقلال البلاد العربية التى كرسوا جهودهم من أجلها . فقد ألفوا الجمعيات السرية وفتحوا الأندية فى الاستانة وغيرها من البلاد أيام السلم لجمع الشمل وبث الفكرة ، ثم دخلوا الحرب مع الشريف وأنجاله ضد الترك ، ومن لم يشترك منهم فى الحرب عاد إلى دمشق لينضم إلى إخوانه . ثم ما لبثوا أن رأوا مبادئ معاهدة سايكس ـ بيكو أخذت تظهر شيئاً فشيئاً ، وطفق الحلفاء يصفون قضية سوريا على حسب هذه المعاهدة ، ولكنهم أخذوا ينظرون من جهة اخرى إلى وعود الحلفاء وتصريحاتهم بعد الهدنة وأثناء الحرب ، وقد أشرنا إليها آنفا وذكرنا طرفا منها . فكانوا بين الأمل والخيبة . لقد أعلنت سوريا استقلالها وامتعضت نفوس الفرنسيين والبريطانيين لهذا الإعلان وشعر العرب بذلك فتوترت العلاقات بين الطرفين

ثم انفثأت بعد ذلك على إثر التصريح المشترك الذى أذاعته فرنسا وبريطانيا ، ولكن شعور العرب كان فى محله حيث أخذوا ينظرون إلى الحركات العسكرية وإلى مايجرى فى سوريا من جهة من حيث التمهيد للجيوش الفرنسية أن تحتلها وإلى التدابير التى يتخذها الحاكم العام السياسى فى العراق التى أشرنا إليها فيما تقدم . ولقد كان جل هؤلاء الضباط أعضاء فى جمعية العهد السرية التى كان من مبادئها استقلال البلاد العربية . ولما شعرت هذه الجمعية بنيات دول الحلفاء فى عدم الموافقة على تأليف دولة عربية موحدة رأى رجالها أن ينقسموا قسمين : يسمى أحدهما جمعية العهد السورى والآخر جمعية العهد العراقى ، ليبذل كل فريق منهما جهوده فى تخليص بلاده من ربقة هذا الاستيلاء الجديد . وقد أذاعت الجمعية بيانا حول انقسامها . وكان من أهداف جمعية العهد العراقى استقلال العراق استقلالا تاماً ضمن الوحدة العربية وداخل حدوده الطبيعية ، وطلب المساعدة الفنية والاقتصادية من بريطانيا على أن تكون هذه المساعدة بالثمن ولا تمس استقلال العراق التام وإنهاض الشعب العراقى ليبارى أرقى الأمم الغربية والسعى لخير الأمة العربية عامة .

ثم أخذت ترسل إلى فروعها القديمة فى الموصل وبغداد والبصرة منشوراتها وتعليماتها لتنمية الحركة الوطنية فى البلاد ومقاومة الاحتلال . وقد عملت على كتابة مضابط موقعة من أعيان البلاد يوكلون بها الأمير فيصل للدفاع عن قضية العراق فى مؤتمر الصلح . ولما زارت العراق اللجنة الأمريكية التى أرسلت لاستفتاء الأهلين فى تقرير مصيرهم عملا بمبادىء الرئيس ولسن قابلها وفد منها وقدم إليها باسم العراق طلباً باستقلال العراق من ديار بكر إلى الخليج الفارسى وتأسيس حكومة دستورية مدنية ملكية ملكها الأمير عبد الله أو شقيقه الأمير زيد واحتجت على الفقرة الخاصة بالانتداب من المادة ٢٢ من عهد جمعية الأمم ، ورفضتها رفضاً باتاً ، وطلبت أن تكون الاستعانة بامريكا فيما تحتاج إليه البلاد من المساعدات الفنية والاقتصادية ، على ألا يمس ذلك استقلال البلاد السياسى ، ورفضت تشجيع مهاجرة العناصر الأجنبية كالهنود واليهود إلى البلاد العربية ، كما طلبت الاستقلال التام لسوريا على أن ترفع الحواجز السياسية بين سوريا والعراق .

وتألفت جمعية حرس الاستقلال فى بغداد فى شهر نوفمبر من عام ١٩١٩ ومن

مبادئها استقلال العراق استقلالا مطلقاً . وأن يسند منصب الملكية إلى أحد أنجال جلالة الملك حسين بن علي ، وأن يكون ملكاً دستورياً ديموقراطياً ، واختلفت مع جمعية العهد على الفقرة الخاصة فى الاستعانة بالمساعدات الفنية والاقتصادية من بريطانيا ، ثم مالبثت الجمعيتان حتى اتفقتا وأنشأتا هيئة إدارية مشتركة للجمعيتين تديرهما وتتولى شئونهما ، ثم اختلفتا بعد ذلك وعادت جمعية الحرس إلى استقلالها فى عملها ، وتألفت بعد ذلك جمعية سرية من الشباب ما لبثت أن انضمت إلى جمعية حرس الاستقلال .

وقد بدأ نشاط الضباط العراقيين بسورية فى معارضة السياسة البريطانية فى العراق ومراقبتها واستعجال المسئولين فى تنفيذ التصريح الفرنسى البريطانى ، وقد رحبوا بهذا التصريح بكتاب أصدروه فى شهر كانون الثانى من عام ١٩١٩ وتلاه كتاب آخر لايستبعد أن يكون الأمير فيصل نفسه كتبه إلى السير جلبرت كلايتون رئيس الحكام السياسيين للحملة العسكرية المصرية يبين له خشونة الموظفين البريطانيين فى معاملة العراقيين ونفور السكان منهم . وقد تسلل كثير من هؤلاء الضباط عبر الصحراء ورأوا مايجرى فى العراق من ترتيبات يقوم بها الحاكم العام ووقفوا على الشعور العام النافر من هذه الترتيبات . وانبثت الدعوة بين الطبقات المثقفة والمجامع الدينية والوجهاء ورؤساء القبائل تحث الناس على المطالبة بالحرية وانجاز الوعود التى وعد بها الحلفاء ، وتهييج النفوس وتذكرها بالنتائج المترتبة على تلك الخطوات التى أخذ يخطوها نائب الحاكم العام من تثبيت قدم السلطة وتنفيذ مقرراته بشدة مع التعمد والعناد وسبق الاصرار وإيقاع العقوبات الجزائية ونفى الزعماء إلى خارج البلاد مما ولد يأساً فى النفوس وأفهمها بعدم تحقيق الوعود الأولى التى كانوا يعقدون عليها الآمال .

وقد عملت جمعية العهد على إقامة مؤتمر عام عراقى فى يوم ٨ مارس عام ١٩٢٠ عقد فى منزل نورى السعيد فى حى الشهداء بدمشق وتلا رئيسه توفيق السويدى قرار المؤتمر الذى جاء فيه :

بصفتنا ممثلى الشعب المكلفين بالإعراب عن إرادته أعلنا باجماع الآراء استقلال البلاد العراقية المسلوخة عن تركيا بحدودها المعروفة من شمال ولاية الموصل إلى خليج فارس استقلالا تاماً لا شائبة فيه وأيدنا استقلال سوريا التام

و أعلنا اتحاد العراق بها اتحاداً سياسياً واقتصادياً ونادينا بحضرة صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله ملكاً دستورياً بلقب صاحب الجلالة ملك العراق ، وعهدنا في نيابة الملك إلى صاحب السمو الأمير زيد المعظم ، وأعلنا انتهاء حكم الاحتلال العسكري الحاضر على أن تقوم مقامه حكومة وطنية مسئولة أمام الشعب . وإننا باسم الأمة العربية العراقية التي أنابتنا عنها وعهدت إلينا تقرير مصيرها نعلن محافظتنا على صداقة الحلفاء الكرام وعزمنا على احترام مصالحهم ومصالح جميع الدول الأجنبية في بلادنا راجين منهم أن يعترفوا بهذ الاستقلال ويجلوا عن بلادنا العراقية ليحل محلهم فيها الجند الوطني والإدارة الوطنية فتتمكن دولتنا حينئذ من أن تكون عاملا من عوامل الرقي في العالم المتمدن » .

« بوادر الثورة وإعلانها »

بقيت الحدود ما بعد عقد الهدنة بين سوريا والعراق وبين سوريا وتركيا لم يبت بشأنها ، وبقيت مدينة دير الزور التي كانت تابعة في إدارتها مباشرة إلى الاستانة تنتظر مصيرها حتى احتلتها حكومة دمشق في منتصف شهر كانون الأول من عام ١٩١٨ ثم ما لبثت أن تولت إدارتها السلطات البريطانية فسيطرت على الشريان التجاري الممتد من حلب إلى ماوراء الفرات . ومن هنا نشأ الخلاف بين السلطات البريطانية وبين حكومة دمشق . وبعـــد أخذو رد تقرر أن تكون دير الزور ضمن نطاق النفوذ البريطاني حتى يبت مؤتمر الصلح بشأنها ، ولكن جمعية العهد أخذت تعمل لإعادة هذه المدينة وتبث الدعاية حتى تقدم أحد شيوخ العشائر المجاورة لها السيد رمضان الشلاش فاحتلها في ١٠ كانون الأول من عام ١٦١٩ فاحتجت بريطانيا على هذا العمل وتنصلت حكومة دمشق من المسئولية وقد بت مؤتمر الصلح في أمرها وجعل نهر الخابور حدا موقتاً بين سوريا والعراق . واستمرت المطالبة بانسحاب الجيش البريطاني إلى وادي حوران الواقع على مسافة بضعة أميال من بلدة « عانة » ، وفعلا تم تراجع القوات البريطانية فاخليت البوكمال ، وصارت الحدود ما بين العراق وسوريا إلى مافوق القائم بقليل ، وصارت دير الزور مركزاً مهماً لدعاية العهديين . ومنها بدأت اتصالاتهم بفرع جمعية الموصل لبث الدعاية وتهيئة الأفـــكار .

وفى ٣٠ من مايس عام ١٩٢٠ علمت السلطات البريطانية أن جيشاً عربياً يتقدم نحو الموصل، وكانت السلطة المحتلة حامية من الدرك بقيادة الكابتن ستيوارت ويظهر أن تعاوناً مع ضابط عربي[1] واحد ضباط هذه الحامية وهو عربي أيضاً كان قد تم فقتل ضابط الحامية قائده الكابتن ستيوارت فى يوم ٣٠ حزيران . وبذلك عجزت الحامية عن الدفاع عن تلعفر فدخلتها فرسان العشائر من الجبور وشمر بقيادة شيوخها ثم دخلها الضابط العربى على رأس قوته الصغيرة ، وتبع ذلك قتل ثلاثة من الحامية البريطانية ووقوع سيارتين مصفحتين فى كمين قتل من فيهما جميعاً وكان عددهم أربعة عشر رجلا وأسقطت طيارة استطلاع وقتل الكابتن بارلو Barlau عند هروبه من أيدى العشائر فخف البريطانيون بإرسال قوة آلية من الموصل لصد هذه الغارة وما اتصلت طلائع هذه القوة بقوة الضابط جميل المدفعى حتى ترجع قافلا إلى دير الزور .

لم تقطع جمعية العهد أملها من المقاومة رغم الأحداث فأخذت تبث دعايتها فنشرت فى اليوم السادس من حزيران بياناً يحمل ختمها المخمس الرؤوس واستمرت تنشر البيانات وتشيع الشائعات حتى سقوط دمشق بيد الفرنسيين وخروج فيصل من سوريا وبذلك تركزت الحركة فى بغداد ومنها أخذت تتغذى وتتسع . لقد كانت حركة الموصل من أخطر الحركات ، فقد انعزلت الموصل بفعل مهـــاجمة فرسان العشائر لخطوط المواصلات ، ولما ضعف الأمل بورود قوات من الهند للمحافظة على الأمن اقترح الحاكم العام التخلى عن ولاية الموصل بأجمعهـا .

ولما فوجئت البلاد بقرار مؤتمر سان ريمو فى الخامس والعشرين من شهر نيسان لعام ١٩٢٠ الذى يقضى بوضع العراق وفلسطين تحت الإنتداب البريطانى ووضع سوريا ولبنان تحت الإنتداب الفرنسى هاجت الخواطر واشتدت العزائم المطالبة بحقوق البلاد ووفاء العهود المقطوعة من الحلفاء ، وكان هذا الاعلان

---

(١) أخبرنى السيد محمود رامز وهو من رجال الثورة العربيـــة أن اسم هذا الضابط جميل أبو حمرة . وأما الضابط جميل المدفعى فقد جاء بعد ذلك .

دليلا آخر على عدم وفاء بريطانيا بعهودها ، ولم ير أهل البلاد فى كلمة الإنتداب أكثر من معنى الخضوع لدولة أجنبية . وعلى ذلك طفق رجال العهد وزعماء البلاد يعملون يداً بيد . وكانت نتائج ذلك الإعلان عقد اجتماعات متتالية لتبادل الرأى واتخاذ الوسائل اللازمة لجمع شمل أهل البلاد ولم كلمتهم ، فأسست جمعية حرس الاستقلال مدرسة التفيض الأهلية ، وكانت هيئتها التعليمية من نخبة الشباب الوطنيين ، وقد بلغ عدد طلابها سبعين طالباً ، وكان سيرها العلمى لا غبار عليه حتى أن الحكومة أمدتها بالمال . ولكنها فى الواقع كانت مركزاً لعقد اجتماعات الجمعية ومثابة للمتطرفين من أبناء البلاد ، وكانت فكرة الاحتفال بالمولد النبوى من خير الفكر التى تآلفت على عقده قلوب أبناء السنة والشيعة فى مساجدهم جميعاً دون تفرقه ، فكانت تلقى الخطب والقصائد السياسية بعد الإنتهاء من تلاوة المنقبة النبوية ، فأثير الرأى العام ووقعت اصطدامات بين الشرطة والأهلين من جراء ذلك ، وقرر الزعماء انتخاب خمسة عشر شخصاً منهم وأن تحضر مطاليب يقومون بتقديمها إلى الحاكم العام فأعدوا مذكرة مختصرة وتقدموا بها إليه ، وبعد أن رحب بهم تلا عليهم بياناً قرأ فيه المادة العشرين من معاهدة عصبة الأمم وتص تصريح حكومتى فرنسا وبريطانيا الذى تقدم ذكره ، ثم ختم كلامه بأن قال : « أصرح لكم أن حكومة جلالة الملك ترغب فى تأسيس حكومة وطنية فى العراق » وقال : « اننى أؤكد لحضراتكم أن الأفراد الذين يرمون إلى تأسيس حكومة ملكية بالحض على استعمال العنف وتهييج أفكار البسطاء من الأمة يجنون على وطنهم مهما كانوا مدفوعين بدوافع الوطنية » .

وقال : « ونخوض الآن فى الكلام عن حكومة العراق المقبلة : وطدت الحكومة البريطانية عزمها على وضع نظام للحكومة العراقية المقبلة فى أقرب وقت ممكن . وقال ومع هذا فلا بأس أن أقول لكم على وجه الاجمال أن ما تنويه هو تشكيل مجلس الأمة يرأسه رئيس عربى يتولى الرئاسة إلى أن يرفع دستور العراق الأساسى إلى المجلس التشريعى المنوى أيضاً تشكيله ، ونعتقد بضرورة ، اعطاء البلاد متسعاً من الوقت إلى أن تستقر أمورها وإعطاء الأهلين فرصة لتأسيس فكرة صحيحة تنشر بواسطة المجلس التشريعى بعد تشكيله ، ليس هناك خير يرجى من التسرع فى أمور كهذه » . وختم كلامه بقوله « وأشكركم فى الختام لسماعكم أقوالى ويسرنى معرفة اقتراحاتكم وسأرفعها إلى حكومة جلالة الملك » .

ثم قدم الوفد مذكرته التي جاء فيها : —

تعلمون أن الشعب قد انتدبنا بمظاهرته التي أقامها ليلة ٧ رمضان الحالي الموافق ليلة ٢٦ من مايس للنيابة عنه في مطالبة السلطة المحتلة ومفاوضة رجالها بشأن تنفيذ ثلاثة مطالب جوهرية يرى جمهور الشعب ومعظم قادة أرائه ضرورة تنفيذها وهي : —

١ — الإسراع في تأليف مؤتمر يمثل الأمة العراقية ليعين مصيرها ويقرر شكل إدارتها في الداخل ونوع علاقتها في الخارج .

٢ — منح الحرية للمطبوعات ليتمكن الشعب من الافصاح عن رغائبه وأفكاره

٣ — رفع الحواجز الموضوعة في طريق البريد والبرق بين أنحاء القطر أولا وبينه وبين الأقطار المجاورة والممالك الأخرى ثانياً ليتمكن الناس هنا من التفاهم مع بعضهم ومن الاطلاع على السياسة الراهنة في العالم .

فبصفتنا نواباً من أهالي بغداد والكاظمية نطلب إليكم أن تصادقوا على تنفيذ هذه المطاليب الثلاثة بكل سرعة ممكنة . وأن تهتموا حالا بمراجعة حكومة جلالة الملك في تلزمكم مراجعتها به من تنفيذ المطالب المذكورة ، ولا يغرب عن بال سيادتكم ما في قبول هذه المطاليب وإحلالها محـــل الاجراء والتنفيذ من صيانة للأمن وحفظ للنظام والسلام العام .

وتلت هذه المبادلة في الأراء بين الوفد والحاكم العام مناشير توضح سياسة الحكومة المحتلة فيما يتعلق بمستقبل العراق فقد استند منشور رقم (٧) بتاريخ ١٧ حزيران ١٩٢٠ إلى ما يأتي :

أولا — جعل العراق حكومة مستقلة تضمن استقلالها عصبة الأمم وتوكل بريطانيا العظمى وكالة بها .

ثانياً — تكليف الحكومة البريطانية بالمسئولية عن حفظ السلم الداخلي والأمن الخارجي .

ثالثاً — الزامها بوضع قانون أساسي ، وبأن تستشير أهل العراق في مسألة تشكيله مع ملاحظة حقوق الأجناس المختلفة الموجودة في العراق ورغباتها ومنافعها

فتحتوى الوكالة المذكورة على شروط لتمهيد مسالك الرق للعراق بصفة حكومة مستقلة إلى أن تتمكن من الوقوف بنفسها فحينئذ تنتهى مدة الوكالة ، فقررت حكومة جلالة الملك تكليف سير برسى كوكس بتنفيذ هذه المهمة فعليه سيرجع سعادته إلى بغداد فى موسم الخريف ويتقلد وظيفة الممثل الأعلى للحكومة البريطانية فى العراق بعد انقضاء الإدارة العسكرية الموجودة الآن ، وستعطى له السلطة فى تنظيم موقت . يشمل ما يأتى : —

١ — مجلس شورى تحت رئاسة عربى .

٢ — مؤتمر عراقى يمثل جميع أهل العراق ينتخب أعضاؤه باختيارهم فيكون مما يجب عليه تجهيز القانون الأساسى باستشارة المؤتمر العراقى .

لاقى خبر عودة كوكس قبولا حسناً وارتياحاً فى نفوس الأهلين ، ولكن الحاكم العام ظل سادراً فى غلوائه يذيع المنشورات فى التهديد والوعيد لتسكين الحالة وحفظ الأمن تارة وتارة أخرى يدعو الناس لتكوين مؤتمر لانتخاب مجلس شورى ، وقد ذهبت جميع محاولاته أدراج الرياح ، وأخذت الحالة تزداد توتراً والاجتماعات الدينية والسياسية علنية وسرية تتوالى فى بغداد وغيرها من المدن المقدسة ، وعلماء الدين فى بغداد والنجف وكربلاء يحثون الناس على المطالبة بحقوق الشعب ، والمنشورات الطويلة توزع فى كل مكان وتناشد المؤمنين الصادقين أن يذبوا عن حياض الإسلام . وزادت الحالة توتراً واشتدت أعمال العنف التى اتخذتها تدابير الحاكم العام فى تفتيش بيوت السكنى ومطاردة الزعماء ، ونفى من وقع بيد الشرطة من وجهاء بغداد والمدن الأخرى إلى هنجام ، واعدام من اتهمته بالمؤامرة ضد نظام حكم الاحتلال . بينما كانت هذه الأمور تجرى تباعاً وتولدها الظروف المحيطة بالوضع العام كانت خطط الثورة تسير سراعاً ، وكان الهياج فى القبائل قد أخذ مأخذه وطفقت المناوشات بين الوطنيين والبريطانيين تزداد وعوامل تخريب طرق المواصلات الحربية تتكاثر ونار الثورة لاتحتاج إلا إلى زناد يقدح وشرارة تطير .

بدء الثورة

إن الروح الوطنية والشعور بالحرية التي كانت تملأ آذان العالم العربي بعد أن وضعت الحرب أوزارها وبعد أن أكد الحلفاء لزعماء القضية العربية تحقيق رغبات الأمة كانتا السائدتين في البلاد . فلما ضعف أمل رجال القضية العربية في تحقيق ذلك بدأوا من جديد ينظمون قوائم ويضعون خططهم فأثاروها حركة وطنية من أجل الحرية والاستقلال ، واتخذوا لها تلك السبل التي مهدنا بها فصلنا هذا ، وقد انتهت تلك السبل باشعال الثورة في كل البلاد إثر حادثة حدثت في الرميثه . وقد يمكن أن يجعل يوم ٣٠ حزيران من عام ١٩٢٠ يوماً لانبعاث الشرارة ، وهو اليوم الذي هجم به الظوالم من قبيلة بني جحيم على سراي الحكومه لإطلاق سراح شيخهم الذي كان معاون الحاكم السياسي قد حبسه إثر نزاع حصل حول ما على هذا الشيخ من دين . لقد كان حصار هذه القبيلة سراي الحكومة وإطلاق سراح شيخهم إيذاناً بثورة عامة أخذت تنتشر في أنحاء البلاد جميعها مما يدل على احكام الخطة وتغلغل الدعوة شرقاً وغرباً وشمالا وجنوبا . وبينما كانت القوات البريطـانية المتفرغة للخدمة الفعلية متكونة من (٤٢٠٠) بريطاني ، (٣٠/٠٠٠) هندي بسلاحها وعتادها وآلاتها الحديثة وسياراتها ومصفحاتها كان الثوار لا يحملون غير البندقية وقليل من المدافع الرشاشة وقد أخذت الحركات تتطور بسرعة ، وانتصارات الثوار توالى وتشجع الناس على الالتحاق بالثورة . ورجال الدين ورجال السياسة في جمعيتي العهد وجمعية الحرس يراقبونهـا ويغذونها ، وأخذ البريطانيون يرون فيها الجد والقوة ويعدون لها العدة وطفقت صحافتهم ورجال سياستهم في لندن ينظرون إليها نظراً مهماً ويتدارسونها ويضعون الحلول لإنهائهـا .

ولقد كانت المواقع سجالا بين الثوار والجيش المحتل . وكانت موقعة الرارنجية من المواقع ، الماحقة ، فقد جهز البريطانيون قوة مؤلفة من ثلاث سرايا (فوج مانجستر الثالث) ، وكان الحر شديداً ولم تتخذ العدة لتجهيز هذه القوة بالماء وعند التقاء هذه السرايا بقوى الثوار انكسرت الفرقة البريطانية وتقهقرت ولم يبق منها

إلا نفر قليل تراجع إلى مدينة الحلة ، وأخذت الخسائر تتوالى على البريطانيين فخسروا قطارين مصفحين فى ١٣ آب ١٩٢٠ وعدة سفن فى أعلى الفرات ، كما استولى الثوار على الزورق البخارى (آيس ٩) وأسر جميع من فيه ، وقد محيت باجمعها القوة البريطانية التى حاولت إنجاد معسكر قطار السماوة .

وأخلى البريطانيون مدناً كثيرة ، وتأسست فى هذه المدن إدارة وطنية موقتة وفى الثانى عشر من آب قتل رئيس قبيلة زوبع القائد ليجمن فامتدت الثورة فى لواء الدليم من الفلوجة إلى عانة . وكانت بغداد هادئة لوجود قوات كبيرة من جيش الاحتلال والتدابير القاسية التى اتخذت فى نفى عدد كبير من الزعماء .

وكان طبيعياً أن ترجح كفة الجيش المحتل لتفاوت القوى بين الطرفين . وفى أواخر أيلول من عام ١٩٢٠ تبين هذا الرجحان وأصبح لقوات الاحتلال اليد العليا . ولقد تكبد الطرفان خسائر فادحة فى الأنفس والأموال وقتل من البريطانيين (٤٢٦) بريطانياً ووقع (١٢٢٨) جريحاً . (٦١٥) أسيراً . وقدرت الخسارة المادية بما يقرب من عشرين مليوناً ، أما ما أصاب الثوار فقد قدر بما يقارب (٨٤٦٠) إصابة فى الأنفس ما بين قتيل وجريح ومفقود . ولقد يعزى ذلك إلى تفاوت فى السلاح بين الجانبين وإلى احتقار الثائرين للموت فى ميادين القتال وكانت خسائر الثوار فى المال جسيمة منها ما كان نتيجة لأضرار الحرب المباشرة ومنها ما كان غرامة وضعتها القوة الغالبة على المغلوبين من نقود وسلاح .

انتهت الثورة ولكنها كانت درساً بليغاً علمت الثائرين كيف يمكن توحيد الكلمة إذا أرادت النفوس . وكيف تكون التضحية قدوة مثلى فى الشجاعة والإباء عندما تضام الحريات . وعلمت الخصم احترام الرأى العام ، وبين هاتين الفائدتين حدث التقارب بين الطرفين لوضع الأسس اللازمة للتفاهم فى شأن حكومة وطنية .

« الحكومة المؤقتة »

كانت الحكومة البريطانية رسمت خطة لتكوين حكومة وطنية . وأعلنت هذه الخطة فى ١٧ حزيران من عام ١٩٢٠ وأذاعتها على الشعب العراقى فى ٢٠ منه ولكن الاضطرابات وما منيت به الأمة من جراء تدبير الحاكم العام وما كان يسود البلاد من أمل ضعيف فى تحقيق رغائب الأمة وفى انجاز الحلفاء وعودهم . كل أولئك مهد لثورة ٣٠ حزيران من عام ١٩٢٠ .

ومن جملة ماجاء فى هذه الخطة تعيين السير برسى كوكس مندوباً سامياً مزوداً بالسلطة التامة والتصرف المطلق فيما يراه ملائماً للبلاد فى تكوين حكومة وطنية حسب الخطة المرسومة باجراء الانتخابات للمجلس التأسيسى الذى سيضع القانون الأساسى للبلاد . وصل السير برسى كوكس فى ١١ تشرين الأول من عام ١٩٢٠ بغداد تسبقه سمعته الطيبة وخبرته الطويلة الممتازة وصداقته التى اكتسبها بحكمته ورويته فى الأمور أثناء ما كان حاكماً ملكياً على العراق قبل ارتحاله إلى إيران ، فاتخذ مقترحات كارتر المنقحة أساساً لعمله . وكان قبل وصوله إلى بغداد زار العجير لمقـــابلة الملك ابن السعود والشيخ خزعل أمير المحمرة . واتصل بوجهاء البصرة وذهب إلى الناصرية وسوق الشيوخ والعمارة والكوت وغيرها من المدن العراقية وكان يبغى من وراء ذلك تهدئة الخواطر وبث الطمأنينة فى النفوس ، وقد استقبل استقبالا رسمياً وحفل به أصدقاؤه القدامى وحياه الزهاوى بقصيدة عامرة، ثم رد عليه السير برسى كوكس بكلمة موجزة وضح بها خطوط السياسة البريطانية الجديدة . ثم بدأ مشاوراته لأصحابه من الانجليز وبينهم المس بل التى أصبحت السكرتيرة الشرقية لدائرته ، وطفق يتصل بوجوه البلد ويشاورهم فى الأمر . وبعد الحاح منه قبل السيد عبد الرحمن نقيب الأشراف فى بغداد أن يتولى منصب رئاسة الحكومة المؤقتة ، ووقع قبوله لهذا المنصب موقعاً حسناً فى لندن وبغداد لما للسيد النقيب من منزلة محترمة فى العراق والهند . وقد تشكلت الحكومة الجديدة من رئيس وثمانية وزراء أضيف إليهم اثنا عشر وزيراً بلا وزارة ، واجتمع مجلس الوزراء لأول مرة فى دار السيد النقيب فى اليوم الثانى من شهر تشرين الثانى لعام ١٩٢٠ ، ولم

يتخذ فى هـــذا الاجتماع قرار ماعدا المناقشة التى تناولت علاقة الوزراء العرب بالمستشارين البريطانيين ، وقد قدم المستر فلبى مذكرة خاصة تتناول هذا الموضوع مع موضوع منصب المندوب السامى . وفى الاجتماع الثالث المنعقد فى ١٣ تشرين الثانى الذى يعتبر أول جلسة رسمية لمجلس الوزراء أقرت تلك المذكرة وصدرت على شكل تعليمات لمجلس الوزراء . وقد أوضحت هذه التعليمات صلاحية مجلس الوزراء وعلاقة المستشار بالوزير وصلاحية المندوب السامى وهى صلاحيات وعلاقات للسلطة الانجليزية فيها اليد العليا . وكان المندوب السامى أصدر بلاغاً فى اليوم الحادى عشر من شهر تشرين الثانى لعام ١٩٢٠ جاء فيه ما يلى :

« بناء على ماورد فى المنشور الصادر فى ١٧ حزيران ١٩٢٠ بأن حكومة جلالة ملك بريطانيا أذنت بتشكيل مجلس نيابى منتخب لسن قانون أساسى للعراق ، فالى أن يتم تأليف هذا المجلس وسن قانون أساسى يجدر أن تدير دفة الحكومة فى البلاد حكومة وطنية موقتة بنظارتى وارشادى . وبناء عليه أنا الميجر جنرال السير برسى كوكس . جى . سى . آى . آى . ك . سى آى . آى ، ك . سى إم جى . بصفتى مندوباً سامياً فى العراق أعلن ما يلى :

١ — تؤلف هيئة وزارية من رئيس وزراء ووزراء للداخلية والماليه والعدلية والأوقاف والمعارف والصحة والدفاع والأشغال العمومية والتجارة ووزراء آخرين لا تكون لهم وزارات خاصة بهم .

٢ — ستقع مسئولية إدارة شئون الحكومة ماعدا الأمور الخارجيه والحركات الحربية والأمور العسكريه العمومية إلا مايعود إلى القوات الوطنية على هيئة الوزراء . وستجرى أعمال هيئة الوزراء بنظارتى وإرشادى .

وقد قامت الحكومة الموقتة بتقسيم العراق إلى وحدات إدارية أى إلى عدد من الألوية والأقضية والنواحى . وأنشأت دواوين الحكومة فعينت لكل لواء متصرفاً إلى جانبه مستشار بريطانى . وفى كل قضاء عينت قائمقاماً ، وفى كل ناحية مدير ناحية ، وعينت فى دواوين الحكومة مديرين عامين ، ووضعت إلى جانب كل مدير عام مستشاراً بريطانياً ، وجهزت دواوين الحكومة والدوائر الأخرى بعدد من الكتبة والسكرتاريين لإدارة الأعمال الكتابية والمراسلات . وقد كان عدد كبير من الهنود والأرمن والإيرانيين فى خدمة الحكومة إلى جانب الوطنيين ، أما مهام الأمور فقد أجلت وكانت تنتظر حلا عاجلا .

عرش العراق ومبايعة الملك فيصل الأول

كانت الخطوة الثانية لتأسيس حكم وطنى ثابت تنتظم به الأحوال الداخلية والخارجية اختيار عاهل لعرش العراق ، وعرش مثل هذا تزدحم فى إقامته وجهات النظر وتتضارب الآراء وتتسابق للجلوس عليه النفوس الطامحة . ووضع العراق الاجتماعى والسياسى يتطلب اختياراً تتفق عليه السلطة المحتلة والأمة التى تنزع إلى تكوين حياة جديدة وتهيئة وسائل لضمان مستقبل زاهر فيه تكوين وانشاء . وفى هذا المزدحم من التنافس ظهر للوجود أشخاص عديدون رشحوا أنفسهم أورشحهم الموالون والاصدقاء ، ومن بين هؤلاء المرشحين الأمير التركى برهان الدين نجل السلطان عبد الحميد ، والشيخ خزعل أمير المحمرة ، وأغا خان زعيم الاسماعيلية ، ووالى بشتكوه الإيرانى ، كما رشح الملك ابن السعود أو أحد أنجاله . وقد رشح من الوطنيين السيد عبد الرحمن النقيب نقيب اشراف بغداد ورئيس الحكومة الموقتة والسيد طالب ابن نقيب البصرة ، وهادى باشا العمرى من وجهاء الموصل ، وكان طالب النقيب من أبرز المرشحين الوطنيين لهذا المنصب ، ومع ذلك فقد كان نصيبه من الترشيح نصيب غيره فى الاخفاق ، وقد توجهت الأنظار إلى البيت الهاشمى لما لهذا البيت من مكانة دينية سامية وفضل كبير على الحركة العربية وكادت الآراء تجمع على اختيار أمير من أنجال الملك حسين ومن بينهم الأمير فيصل الذى صار المرشح الوحيد .

لقد مر بنا أن المؤتمر العراقى فى سوريا أعلن استقلال العراق ونادى بالأمير عبد الله ملكاً عليه حين نودى بالملك فيصل ملكاً على سوريا . غير أن حوادث دمشق واستيلاء الفرنسيين عليها جعل الحوادث تسير سيراً آخر . فقد أخذت الآراء تتجه إلى الملك فيصل بعد خروجه من سوريا ، وكادت تجمع على لياقته إلى عرش العراق نظراً لما يتمتع به من مكانة ممتازة وسمعة طيبة ومواهب انتزعت إعجاب العرب والبريطانيين وتقديرهم ، خاصة أولئك الذين رافقوه إبان الثورة العربية وفى مواقع القتال ومؤتمر السلم فى فرساى وحكمه القصير فى سوريا . وقد كان الملك فيصل حين هذا الترشيح فى لندن فجرت مداولات بينه وبين السياسيين فى بريطانيا

كانت نتيجتها التفاهم بين الطرفين على أن تكون إدارة العراق بيد سلطة عربية . وأن تبذل بريطانيا مافى وسعها لتضمن انتخاب فيصل ملكاً على العراق . وأن تعقد معه معاهدة تحالف تحل محل الانتداب . وقد كان الجو مهيئاً فى بريطانيا لمثل هذا التحالف إذ قامت حملة من الصحافة والرأى العام تندد بسياسة الحكومة وتتخذ من الخسائر الفادحة التى نجمت عن الثورة العراقية والمصروفات الضخمة التى تتحملها الخزينة البريطانية ومن ثم دافع الضريبة . كل ذلك دعا الحكومة البريطانية أن تعقد مؤتمراً للعمل فى حل عاجل . وقبلت الحكومه اقتراح المستر تشرشل لعقد هذا المؤتمر فى القاهرة تدرس فيه حالة الشرق العربى . وقد عقد المؤتمر فى ١٢ مارس لعام ١٩٢١ حضره السير برسى كوكس المندوب السامى فى العراق . وقرر المؤتمرون وضع المسألة التى تم التفاهم عليها بين فيصل وتشرشل موضع التنفيذ . وأن يسافر فصيل إلى العراق مرشحاً للعرش ، وأن ينصب ملكاً بعد البيعة من الشعب . وقد أمل المؤتمر أن هذا التدبير سيؤدى إلى تخفيض النفقات والاستقرار .

أما فى العراق فقد كان الجو مهيئاً لاستقبال العاهل الجديد . وفعلا وجد الملك فيصل ترحاباً ممتازاً واستقبل فى بغداد استقبالا منقطع النظير . واجتمع مجلس الوزراء فى اليوم الحادى عشر من شهر تموز لعام ١٩٢١ ، واقترح رئيسه السيد عبد الرحمن النقيب أن ينادى بالأمير فيصل ملكاً على العراق فوراً ، واتخذ المجلس قراراً بذلك على أن تكون حكومته دستورية نيابيه ديموقراطية مقيدة بالقانون . وعلى أساس هذا القرار اتخذت التدابير اللازمة للوقوف على رأى الشعب وتعبيره تعبيراً رسمياً عن رغبة وجرى استفتاؤه تحت إرشاد رجال الادارة العراقيين والمستشارين البريطانيين فى أنحاء العراق باستثناء لواء السليمانية الذى لم يكن الاتجاه السياسى فيه مستقراً حينذاك ، وكانت نتيجة هذا الاستفتاء أن ٩٦ ٪ من العراقيين بايعوا الأمير فيصلا ملكا على العراق . وكانت هذه النسبة الضئيلة ناتجة عن لواء كركوك الذى لم يكن مستقر الاتجاه فى ذلك الوقت .

وقد اختار الملك فيصل يوم ٢٣ آب من عام ١٩٢١ موعداً لتتويجه وجرت حفلة التتويج فى ساحة السراى . وقد وصلها الأمير فى السادسة من صباح ذلك اليوم ، وكانت مزدحمة برجال السياسة ووجهاء العراق من جميع أنحائه ، واخذ مكانه من كرسيه

العالى وجلس المندوب السامى عن يمينه وقائد القوات البريطانية عن شماله ، ثم أعطى المندوب السامى سكرتير مجلس الوزراء بلاغاً تلاه على الجمهور جاء فيه :

إن مجلس الوزراء قد اقترح فى ١١ تموز المناداة بالأمير فيصل ملكاً على العراق على أن تكون حكومة سموه حكومة دستورية نيابية ديموقراطية مقيدة بالقانون . وبعد اجراء التصويت التام برغبة منى استقرت النتيجة على اكثرية كلية ممثلة ب٩٦ ٪ من مجموع الناخبين على أن سمو الأمير فيصل نجل الملك حسين قد انتخب ملكاً على العراق . وأن حكومة جلالة ملك بريطانيا قد اعترفت بجلالته ملكاً على العراق ، ثم هتف ليحى الملك . وصدحت الموسيقى السلام الملكى البريطانى ليحرس الله الملك .

ثم اعقبه السيد محمود النقيب اكبر انجال رئيس الوزراء فالقى دعاء موجزاً فقام جلالة الملك فألقى خطاباً مفصلا يكاد أن يكون خطاباً للعرش وخطوطاً لسياسة الملك المقبلة . وقد استهله بالشكر لجهود الخليفة وجهود العراقيين فى اعتلائه العرش ، ثم استعرض فيه جهود أبيه فى حقل القضية العربية وحيا ذكر أبطال الثورة وعرج على وصف حالة العراق وما انتابه من محن ومصائب وضعته فى هذا الموضع السيء ، وأنه يريد بذل الجهد والمعونة لإعادة مجده وعمرانه ثم قال إن ما نحتاج إليه لتحقيق ذلك يتوقف على معونة أمة تمدنا بأموالها ورجالها ، وبما أن الأمة البريطانية أقرب الأمم إلينا وأكثرها غيرة على مصالحنا فاننا نستمدها ونستعين بها وحدها على الوصول إلى غايتنا المنشودة فى أسرع وقت ، ثم قال : إنه إذا كان الناس على دين ملوكهم فالملوك على دين شعوبهم ، فعلى قدر التضامن يكون النهوض ونحن الآن أحوج الأمم إلى التضامن والتعاضد والعمل بجد ونشاط ضمن دائرة السلم والنظام وإنى لا آلو جهداً بأن استعين برجال الأمة على اختلاف مواهبهم وتباين طبقاتهم وتفاوت معتقداتهم ، فالكل عندى سواء لافرق بين حاضرهم وباديهم ولا ميزة لأحد عندى إلا بالعلم والمقدرة ، والأمة بمجموعها هى حزبى لاحزب لى سواها ومصلحة البلاد العامة هى مصلحتى لا مصلحة لى غيرها .

ألا وإن أول عمل أقوم به هو مباشرة الانتخابات وجمع المجلس التأسيسى ولتعلم الأمة أن مجلسها هو الذى سيضع بمشورتى دستور استقلالها على قواعد الحكومات السياسية الديموقراطية ويعين أساس حياتها السياسية والاجتماعية

ويصادق نهائيا على المعاهدة التى سأودعها إليه فيما يتعلق بالصلات بين حكومتنا والحكومة البريطـــانيه العظمى ، ويقرر حرية الأديان والعادات شرط ألا تخل بالأمن العام والأخلاق العمومية ، ويسن قوانين عدلية تضمن منافع الاجانب ومصالحها وتمنع كل تعرض بالدين والجنس واللغة وتكفل التساوى فى المعاملات التجارية مع كافة البلاد الاجنبية ، وإنى لواثق تمام الوثوق بأن بالاستشارة مع فخامة المندوب السامى جناب السير برسى كوكس . الذى برهن على صداقته للعرب التى خلدت له الذكر الجميل ، سنصل إلى غايتنا هذه بأسرع وقت إن شاء الله .

فالى الاتحاد والتعاضد والتضامن إلى العلم إلى العمل أدعو أمتى والله الموفق والمعين .

العهد الجديد

وبدء النضال بين وجهات النظر الوطنية ووجهات النظر البريطانية

صار ارتقاء الملك فيصل عرش العراق فاتحة عهد جديد يرى فيه العراقيون زوال عهد الانتداب الذي يمقتونه ولا يجدون فيه غير معنى مرادفاً للاستعمار .

ويرون فى عقد المعاهدة التى جاءت فى خطاب الملك وترددت على ألسنة لساسة البريطانيين تحديداً لمكانة كل من الحكومتين فى علاقتها بالأخرى . وأنها ستفسح مجالا للملك ومؤازريه من أبناء الشعب للعمل فى توطيد أركان المملكة وافتتاح عهد الإنشاء والتكوين لدولة مستقلة ملكية ديموقراطية نيابية ليس لها بالحكومة البريطانية علاقة إلا علاقة المشورة والاستعانة التى أشار إليها الملك فى خطابه ، فهى فى نظرهم استقلال وطنى بالمعنى المفهوم فى عقد المعاهدات . أما البريطانيون فكانوا يرون فيها وسيلة لتبديل كلمة الانتداب وتنظيم علاقتهم بالحكومة العراقية تنظيما يبعدهم عن الاحتكاك المباشر دون تغيير موقفهم تجاه عصبة الأمم وقد تأيد هذا الرأى عندما أعلن المستر فيشر فى مقر العصبة بتاريخ ١٧ تشرين الأول من عام ١٩٢١ أن المعاهدة المقترحة ستقوم بتنظيم العلاقات بين حكومة بريطانيا وحكومة العراق وسوف لا تكون بدلا عن الانتداب الذى عين الالتزامات التى ستقوم بها بريطانيا فى العراق بالنيابة عن عصبة الأمم .

كان اختلاف هاتين النظريتين مبعث نضال شديد بين البريطانيين والوطنيين وكان موقف الملك فيه موقف الحازم الذى يجد فى تحقيق رغبات الشعب ما يقوى مركزه ويرفع مكانته وفى إقناع الانجليز ومساومتهم فى تحقيق هذه الرغبات ما يقوى المعونة ويوطد العلاقة بينه وبين الشعب من جهة وبينه وبين الانجليز من جهة أخرى . وكان شعاره : « شعرة لم تنقطع ، إن هم جذبوها تركها وإن هم تركوها جذبها ، يلين عندما يستلزم الأمر لينا ويشتد عندما يستلزم الأمر شدة ، ولكنها شدة فى غير عنف ولين فى غير ضعف ، وبعبارة أخرى كانت سياسته المعروفة مبنية على قاعدة «خذ وطالب» ، وقد نشطت الحركة الوطنية نشاطاً ملموساً ، وكان أهم مظاهر

هذا النشاط الصحف والاجتماعات المتوالية المنظمة وتأليف ثلاثة أحزاب اثنان منها يمثلان المعارضة وهما حزب النهضة وكان مقره فى الكاظمية . والحزب الوطنى ومقره فى بغداد ، أما الحزب الثالث وهو الحزب الحر العراقى فقد كان ممالئاً للحكومة وقد أنشأه السيد محمود النقيب أكبر أنجال رئيس الوزراء وقد أخذت المعارضة مع صحافتها والصحافة الأخرى تطالب بتحقيق الاستقلال والخلاص من ربقة الانتداب ، كما طفقت تندد بسياسة الحكومة مما اضطر الوزارة إلى الاستقالة . ومع أن رئيس الوزارة كان من المحبذين لعقد معاهدة مع بريطانيا وكان رأيه متفقاً مع رأى الملك إلا أنه كان يرى أن محاولة بريطانيا الوقوف مع العراق كحليفة ومع عصبة الأمم كحكومة منتدبة لا يمكن التوفيق بينهما ، وكان يتردد فى التصديق على معاهدة لا تحقق رغبات الشعب وانشق مجلس الوزراء على نفسه فى مناقشة مواد المعاهدة . ورأى بعضهم فيها صورة مطابقة للانتداب لا تختلف معه إلا باللفظ ، وشرعت الصحف تهاجم فكرة الانتداب وتصفه بأنه استعمار مستور وتتخذ من سلوك فرنسا فى سوريا مثلا للتدليل على ذلك . وقد بلغ هياج الشعب ذروته فى اليوم الثالث والعشرين من شهر آب الموافق ليوم التتويج حيث نظم الحزبان المعارضان مظاهرة سلبية جامعة ، ولما وصل المندوب السامى إلى البلاط لتقديم التبريك بيوم التتويج رأى الساحة مكتظة بالناس والخطيب يلقى خطابه فوق شرفة عالية سمع هتافا أعقبه تصفيق وعلم بعده أن القوم يهتفون ضد الانتداب وأن المظاهرة نظمت من قبل الحزبين للاحتجاج على الانتداب ، فبعث فى اليوم التالى احتجاجاً شديد اللهجة طلب فيه فصل رئيس الديوان إذ هو المسئول عن ذلك مع تقديم الاعتذار . وقد كان الاعتذار عاجلا ووافياً ، وفى اليوم التالى أصيب الملك بمرض فجائى اضطر على أثره لإجراء عملية الزائدة الدودية ، فلم يكن فى استطاعته التوقيع على الأعمال الرسمية ، فانتهز المندوب السامى هذه الفرصة وأمسك زمام الأمر بيده وركن إلى الشدة والإرهاب وأغلق الحزبين المعارضين وأوقف صدور الجريدتين الناطقتين باسميهما ، وألقى القبض على محرريهما واعتقل سبعة من الزعماء ونفاهم إلى جزيرة هنجام ، وطلب من السيد محمد الصدر والشيخ الخالصى أن يتركا العراق فذهبا إلى إيران، وأرسل الطائرات لتهديد القبائل وإظهار صولة الحكومة ثم تقدم إلى الملك قبل إجراء العملية ليوقع الأمر الصادر بالقاء القبض على الزعماء فأبى الملك أن يضع توقيعه على حكم شخص من رعاياه وقد يكون ذلك آخر شىء

يفعله . واستطاع كوكس بهذه الشدة أن يوقف بوادر الثورة وأن يقضى على عناصر المعارضة للمعاهدة العراقية .

المعاهدة العراقية — البريطانية الأولى

والتصديق عليها

تم عقد هذه المعاهدة والتصديق عليها مع ملحقاتها خلال المدة التي مرت من ١٩٢٢ — ١٩٢٤ وكانت أساساً أولا فى وضع كيان العراق السياسى . فقد أقر متنها مجلس الوزراء وصدق عليها فى اليوم العاشر من شهر تشرين الأول من عام ١٩٢٢ مشترطاً بذلك ابرامها النهائى من المجلس التأسيسى المزمــــع عقده فى القريب العاجل . كما أقر مجلس الوزراء فى وزارة أخرى فى ٢٥ مارس لعام ١٩٢٤ ملحقاتها المتعلقة بالاتفاقيات المالية والعسكرية والدولية واتفاقية الموظفين البريطانيين . وقد وجدت هذه المعاهدة معارضة شديدة كما أشرنا آنفاً من جميع الطبقات . ذلك لأنها كانت صورة مستورة لصك الانتداب الذى مقته الشعب العراقى ، ففى متنها ضمنت أسس الانتداب ، وفى اتفاقياتها الأربع كفلت للبريطانيين مصالح واسعة النطاق . ولم يخص العراقيين منها إلا ما يوافق المصــــالح البريطانية وما تقتضيه الالتزامات التى التزمت بها بريطانيا أمام عصبة الأمم فى صك الانتداب فإن مضمون المادتين الأولى والثامنة من مواد هذا الصك أدخل فى المادة الثالثة من موادها التى تنص على ضرورة سن قانون أساسى وضمان حرية التعلم والأديان وقامت المادة الخامسة من المعاهدة مقام الثالثة من الصك وفيها تحديد الصلة بين الحكومتين فيما يختص بالتمثيل الخارجى بين العراق والدول الأجنبية حيث اشترطت أن يكون حق التمثيل منوطا بموافقة الحكومة البريطانية . أما المادة الثامنة من المعاهدة فإنها مطابقة لما جاء فى المادة الرابعة منه وهو عدم التخلى عن الأراضى العراقية بالتنازل أو بالايجار لسلطة أجنبية . وحلت المادة التاسعة من المعاهدة محل الخامسة من الصك وهو إلغاء الامتيازات الأجنبية التى كانت على عهد الدولة العثمانية . والقسم الأول من المادة الحادية عشرة فى صك الانتداب يطابق

المادة الحادية عشرة من المعاهده فيما يخص المساواة الاقتصادية فى البلاد المنتدبة لجميع أعضاء العصبة كما أضاف نص المعاهده من تعاقد معهم بريطانيا على ذلك .

ووضع القسم الأخير من المادة الحادية عشرة من صك الانتداب فى مادة خاصة هى السادسة عشرة فى المعاهدة ، والمادة العاشرة فى صك الانتداب التى تتعلق بحرية التبشير حلت محلها المادة الثانية عشرة من المعاهدة . وحلت الماده الثالثة عشره والرابعة عشرة من صك الانتداب محل صاحبتيها من المعاهدة فيما يتعلق بالتعاون مع عصبة الأمم فى مكافحة الأمراض والوقاية منها وسن قانون للآثار القديمة يحل محل القانون العثمانى . كما اشبهت الماده الخامسة عشرة فى المعاهده صاحبتها فى صك الانتداب من حيث تحمل الحكومة الجديده كافة المرافق العامة التى تعود أرباحها إلى الدولة .

وقد اشترطت الماده السابعة عشرة فى المعاهده مثلما اشترطت الماده التاسعة عشرة فى صك الانتداب من حيث احالة ما ينشأ من خلاف فى تفسير المعاهده إلى محكمة العدل الدولية وأضيف إلى مادة المعاهدة : « على أن يكون النص الانجليزى هو المعول عليه فى التحكيم إذا وجد تناقض بين النصين » .

وقد اشترطت المعاهده عقد أربع اتفاقيات متممة لها ، إحداها تتعلق بالموظفين البريطانيين فى العراق فى ضبط عددهم وشروط استخدامهم ، واتفاقية عسكرية تبين مدى ما تقدمه حكومة جلالة ملك بريطانيا من الإمداد والمساعدات لقوات جلالة ملك العراق عند الاقتضاء على أن تبلغ هذه الاتفاقية إلى مجلس عصبة الأمم كما تعقد اتفاقية قضائية تضع خطتها بريطانيا ويتعهد بقبولها ملك العراق لغرض حماية مصالح الاجانب بناء على إلغاء الامتيازات الاجنبية . وأما الاتفاقية المالية فإنها تبين تسوية العلاقات المالية بين الفريقين المتعاقدين فيما يختص بتسليم المرافق العامة وتقديم مساعده مالية إلى حكومة جلالة ملك العراق من حين لآخر حسبما تقتضيه الحاجة مع كيفية تصفية حكومة العراق جميع الديون المتكبده فى هذا السبيل وتبلغ الاتفاقية إلى عصبة الامم . وقد كانت هذه الاتفاقيات عبئاً ثقيلا على كاهل العراق أرهقته بالمال وقيدته بالسيطرة من جهة الموظفين البريطانيين على الشئون الإدارية والضباط البريطانيين على الشئون العسكرية . وأضيف إلى هذه المعاهدة ايضاح على هيئة ملحق يبين أجل المعاهدة ويحدده بأربع سنوات على أكثر تقدير ابتداء من

زمن المصادقة على الصلح مع تركيا ، وقد تمت هذه المصادقة فى ٦ آب ١٩٢٤ وبذلك أصبحت مدة المعاهدة اربع سنوات تقريباً بدلا من عشرين عاماً ، وهى المدة التى تعينت أولا فى المعاهدة من تاريخ المصادقة عليها .

« القانون الأساسى »

اشترطت المادة الثالثة من المعاهدة أن يوافق جلالة ملك العراق أن ينظم قانوناً اساسياً ليعرض على المجلس التأسيسى العراقى ويكفل تنفيذ هذا القانون الذى يجب ألا يحتوى على ما يخالف نصوص هذه المعاهدة ، وأن يأخذ بعين الاعتبار حقوق ورغبات ومصالح جميع السكان القاطنين فى العراق ، ويكفل للجميع حرية الوجدان التامة وحرية ممارسة جميع أشكال العبادة بشرط ألا تكون مخلة بالنظام والآداب العموميين . وكذلك يكفل ألا يكون أدنى تمييز بين سكان العراق بسبب قومية أودين أو لغة ، ويؤمن لجميع الطوائف عدم نكران أو مساس حقهـــا بالاحتفاظ بمدارسها لتعليم أعضائها بلغاتها الخاصة على أن يكون ذلك موافقاً لمقتضيات التعليم العامة التى تفرضها حكومة العراق . ويجب أن يعين هذا القانون الأساسى الأصول الدستورية تشريعية كانت أو تنفيذية التى ستتبع فى اتخاذ القرارات فى جميع الشئون المهمة بما فيها الشئون المرتبطة بمسائل الخطط المالية والنقدية والعسكرية . وبناء على هذه المادة اتخذت الإجراءات اللازمة لوضع قانون أساسى يبين قواعد الحكم المحكمة وعهد إلى لجنة فى بغداد أواخر عام ١٩٢١ مؤلفة من الميجر يونك Magor Young ممثلا عن دائرة الشرق الأوسط فى وزارة المستعمرات والمستر دراور Mr. M. Drauer مستشار وزارة العدلية فى الحكومة العراقية تحت اشراف المندوب السامى . وبعد اتمام المسودة الأولى من قبل هذه اللجنة احيلت إلى لجنة عراقية قوامها وزير العدلية ناجى السويدى ووزير المالية ساسون حقيل ورستم حيدر مستشار جلالة الملك . وبعد اكمال المسودة العراقية الأولى احيلت إلى وزارة المستعمرات فى ١٦ مارس ١٩٢٢ وقد جاء فى هذه اللائحة قيام هيئة تشريعية ذات مجلسين على غرار ما كان فى القانون العثمانى الأساسى ، فقام مجلس الأعيان مقام مجلس الملك الذى ورد فى مشروع اللائحة

الأولى وصار من المطلوب أن يقترن التشريع بمصادقة المجلسين ، ثم جاء رد وزارة المستعمرات معترضاً ومعدلا فأحيل إلى لجنة مؤلفة من ناجي السويدي والمستشار العدلي مع تخويلهما الاستعانة بالحقوقيين المحليين ، فأتمت لائحة عراقية ثانية قدمت تارة أخرى إلى حكومة لندن بتاريخ ١٥ شباط ١٩٢٣ .وكان أبرز ما فيها تقليص صلاحيات الملك التي كانت اللوائح السابقة خولته إياها . ثم عاد الرد البريطاني مقارباً لوجهة النظر العراقية . وعلى هذا الاساس تسلمت وزارة المستعمرات موافقة وزارة الخارجية البريطانية على هذه الصيغة النهائية . وكان النضال بين وجهات النظر البريطانية والعراقية ان البريطانيين يريدون حفظ مصالحهم حسبما جاء في المعاهدة العراقية والبريطانية التي مرت بنا عن طريق مضمون ، أما العراقيون فكانوا يريدونه قانوناً أساسياً لحكومة مستقلة ديموقراطية على غرار الامم ذات السيادة التامة . وقد كانت الصيغة النهائية تشمل على١٢٣ مادة في عشرة أبواب ومقدمة .

وتوضح المقدمة بالصيغة التي أبرمها المجلس أن يكون العراق « دولة ذات سيادة مستقلة حرة ملكها لا يتجزأ ولا يتنازل عن شيء منه وحكومته ملكيه وراثية وشكلها نيابي وعاصمتها بغداد وعلمها بألوانه المعلومة .

وتولى القانون تعيين حقوق الشعب العامة والخاصة التي يتولاها عادة كل قانون أساسي من حيث تحديد جنسية الأشخاص بقانون خاص والمساواة ومنع التعذيب والنفي وحرية العقيدة والتمتع بالحقوق والواجبات و .... وحرمة المسكن ومراجعة المحاكم و .... وصون أسرار المراسلات البريدية وحقوق الطوائف في تأسيس المدارس لتعليم أبنائها بلغاتها الخـــاصة ، وتعيين الدين الرسمي وهو الدين الإسلامي . . . . الخ .

وبين حقوق الملك وأكد على أن سيادة المملكة العراقية الدستورية للأمة وقد أودعها الشعب بين الملك فيصل بن الحسين ولورثته من بعده ، وبين القانون نسق العرش وبلوغ الرشد والوصاية ومكانة الملك في الدولة من حيث أنه مصون غير مسئول ، وأوضح حقوقه في تصديق القوانين ونشرها ومراقبة تنفيذها وافتتاح مجلس الأمة واجتماعه وتأجيله وحله وتعطيله و ... واختيار رئيس الوزراء وتعيين الوزراء وقبول استقالاتهم وفي تعيين أعضاء مجلس الأعيان وغير ذلك ...

وأناط السلطة التشريعة بالملك ومجلس الأمة المكون من النواب والأعيان مع بيان شروط العضوية لهذين المجلسين. وفرض أن ينتخب النواب بنسبة واحد لكل (٢٠٫٠٠٠) من الذكور وفق قانون خاص وأن تمثل الأقليات غير المسلمة. وحدد عدد الوزراء وواجباتهم ومسئولياتهم تجاه مجلس النواب وقسم المحاكم مع ضمان حرياتها.

وأبان أن الضريبة تجبى من جميع الطبقات دون تمييز. ولا تفرض إلا بقانون واشترط أن تكون الانحصارات والامتيازات خاضعة لقانون. وأن لا يصادق على المصروفات إلا بمقتضى قانون الميزانية السنوى. وحدد شئون الادارة فى المناطق وجعل البلديات تدار بمجالس بموجب قانون خاص. وتعرض لمواد أخرى خاصة بالقوانين والأنظمة والأوامر فى أيام الحكومة العثمانية وحكومة الاحتلال والتى أصدرتها حكومة جلالة الملك فيصل (يرجع فيها إلى القانون الأساسى).

أما تبديل أحكام القانون الأساسى فقد جعل لمجلس الأمة الحق أن يبدل أياً كان من الأمور الفرعية فى هذا القانون خلال مدة تبتدىء من حين تنفيذه. وفيما عدا ذلك لا يمكن إجراء أى تعديل لمدة خمس سنوات وبعد انتهاء هذه المدة يجب أن يصادق على كل تعديل أكثرية الثلثين من مجلس النواب والأعيان، وبعد المصادقة يتحل مجلس النواب ويقدم التعديل إلى المجلس الجديد للمصادقة عليه مجتمعاً مع مجلس الأعيان وبأكثرية الثلثين ومن بعد ذلك يقدم التعديل للملك للمصادقة عليه.

وقد عنى القانون الأساسى بالأحكام العرفية وجعل من حق الملك وموافقة مجلس الوزراء إعلان حالة الطوارىء فى جميع أنحاء العراق أو فى أية منطقة فيها وتوقيف القوانين والأنظمة المرعية بالبيان الذى تعلن فيه الأحكام العرفية. وموجز القول فإن القانون الأساسى قد أراد به المشرع العراقى أن يكون أساساً لبناء دولة ديموقراطية لها ملك مقيد بالقانون ومجلس وزراء مسئول أمام مجلس الأمة ومجلس أمة يتكون من مجلس أعيان ومجلس نواب. وأن يكفل حقوق الشعب العامة والخاصة، وأن توجد أنظمة مالية وقضائية وإدارية تكفل سير الدولة سيراً يتفق مع التكوين الحديث الذى أيضعها بين الأمم.

المجلس التأسيسى

بدأت انتخابات أعضاء المجلس التأسيسى بامتناع من عامة الشعب ورغبة أكيدة من الحكومة والسلطات البريطانية ، ولما صدرت الإرادة الملكية فى ١٩ تشرين الأول لعام ١٩٢٢ على أن تبدأ الانتخابات فى ٢٤ منه انتشرت فى طول البلاد وعرضها الدعوة لمقاطعة الانتخابات ، واستمرت تزداد من جهة الوطنيين امتناعاً ومعارضة وقد أفتى علماء الدين فى النجف وكربلاء والكاظمية بمقاطعة الانتخابات ولقيت فتاواهم نجاحاً وقبولا فى الحلة والكوفة ، واستقالت اللجان الانتخابية فى النجف وكربلاء ، وأعلن الموظفون فى الكاظمية عن فشلهم فى تأليف اللجان . وقد بذلت الجهود لاسترضاء العلماء فلم تنجح وركنت الحكومة إلى اتخاذ الشدة واقتنع الملك فيصل بذلك ووافق على إصدار مرسوم يخول الحكومة إبعاد غير العراقيين من البلاد . فأبعد الشيخ مهدى الخالصى وولداه حسن وعلى مع ابن أخيه وكلهم من الرعايا الإيرانيين . ثم ترك البلاد إلى إيران جماعة مؤلفة من تسعة علماء مهمين من رعايا إيران مع خمسة وعشرين من أتباعهم ناقمين على الأوضاع فى العراق . ولم تتم الانتخابات إلا فى عام ١٩٢٤ وافتتح المجلس التأسيسى فى ٢٧ مارس من هذا العام ، وقد حضره أربع وثمانون نائباً من مجموع مائة نائب وقد ألقى جلالة الملك خطبة الافتتاح استهلها بحمد الله وبعد الديباجة قال :

أيها النواب الكرام إن الأمة التى اختارتكم من بين أبنائها وأولتكم ثقتها قد فوضت إليكم حرية الإعراب عن نياتها ورغباتها فى أمور يتوقف عليها فلاحها وسعادتها ، ثم قال : إن الامة انتخبتكم أيها النواب للنظر فى أمور جوهرية هى الأسس المتينة التى يشاد عليها بنيان نظامها واستقلالها وهى :

١ — البت فى المعاهدة العراقية البريطانية لتثبيت سياستها .

٢ — سن الدستور العراقى لتأمين حقوق الأفراد والجماعات وتثبيت سياستها الداخلية .

٣ — سن قانون الانتخاب للمجلس النيابى الذى يجتمع لينوب عن الأمة ويراقب سياسة الحكومة وأعمالها .

هذه هى المسائل الثلاثة الجوهرية التى يتوقف عليها مستقبل الامة وأنا واثق

بأنكم ستتمونها بأسرع ما يمكن ليتسنى لنا دعوة المجلس النيابي في وقت قريب والقيام بالمشروعات النافعة الضرورية .

وقد توقع البريطانيون وجود أكثرية أمام المعارضة لكنهم وجدوا غير ذلك فقد اشتدت المعارضة داخل المجلس وخارجه وقويت حتى كاد الزمام يفلت . فركن للمندوب السامي إلى سياسة الشدة . وكان حينذاك المستر دوبس Sir Henry Dobbs الذي عين خلفاً للسر برسي كوكس في ١٥ أيلول من عام ١٩٢٣ ، وبلغ الأمر ذروته في اليوم العاشر من شهر حزيران لعام ١٩٢٤ ، وهو اليوم الذي حدده المندوب لقبول المعاهدة ، وطلب من الملك أن يحل المجلس حالا إذا لم يصادق عليها فاضطر النواب أن يجتمعوا ليلا وتمت المصادقة عليها قبل منتصف الليل . وقد صدقها ٣٧ نائباً وخالفها ٣٤ وامتنع عن التصويت ثمانية وغاب عن الجلسة (٢١) . انتهى أمر تصديق المعاهدة وهدأت النفوس وبدأ العراق عهداً جديداً مثقلا بالواجبات المشروعة . وسارت أعمال المجلس الباقية بهدوء حيث تمت الموافقة على القانون الأساسي بالإجماع في ١٠ تموز . كما وافق على قانون الانتخابات في ١٧ آب وفي هذا اليوم حل المجلس التأسيسي وانتهى عمله وتأجل نشر القانون الأساسي وتنفيذه لأمور سياسية تتعلق بامتياز النفط الذي يؤمل أن يوقع قبل نشر القانون الأساسي لأن فيه ما يقيد التوقيع بقوانين خاصة تعمدت الجهة البريطانية تجنبها .

قضية الموصل وامتياز النفط ومعاهدة ١٩٢٦

(أ) قضية الموصل

مر بنا كيف قسمت معاهدة سايكس ـ بيكو البلاد العربية المنسلخة عن الحكومة التركية بعد الحرب العامة ، ورأينا أن الموصل كانت واقعة في الحصة التي كان يجب أن يسيطر عليها النفوذ الفرنسي ، ومر بنا أن الجيش الانجليزي لم يدخلها حرباً وإنما دخلها بعد الهدنة ، وقد كان يمكن أن تبقى هذه المدينة في حوزة الانتداب الفرنسي لولا تبدل السياسة البريطانية الفرنسية وإعادة النظر من الجانبين في خريطة سايكس ـ بيكو حيث تمت الموافقة على أن تتنازل فرنسا عن ذلك فتكون الموصل في منطقة العراق ، وتم هذا التنازل وأخذ شكله النهائي في مؤتمر سان ريمو ١٩٢٠

أما الحكومة التركية فقد بقيت تطالب بالموصل وتعتبرها جزءاً من بلادها، وظلت الحال على هذا المنوال حتى اشترطت معاهدة لوزان عام ١٩٢٣ تسوية قضية الحدود التركية العراقية بالاتفاق بين بريطانيا وتركيا، فإذا لم يتم اتفاقهما عادت القضية إلى عصبة الأمم، ولما لم يحصل الاتفاق أعيدت القضية إلى العصبة فأقر مجلسها بتاريخ ٣٠ أيلول ١٩٢٤ تعيين لجنة دولية تنظر فى الأمر، وكان قوام هذه اللجنة من ثلاثة اشخاص أحدهم مجرى والآخر سويدى والثالث بلجيكى مع عدد من الخبراء والسكرتاريين والكتاب. وقد وصلت هذه اللجنة بغداد فى ١٦ كانون الأول لعام ١٩٢٥ وسافرت إلى مدينة الموصل فى السادس والعشرين منه ومكثت فيها مدة كافية تحرت الوضع واستمعت لوجهتى النظر التركية والعراقية واستطاعت أن تتصل بكثير من أهل المنطقة وتتحدث إليهم وتستوضح الأمر فى آرائهم. وكانت تركن إلى الاستيضاح سراً لكى تحصل على رأى صادق حتى استطاعت أن تحصل على معلومات قيمة قدمتها بتقرير مفصل إلى مجلس العصبة بتاريخ ١٦ تموز ١٩٢٥ فأحاله المجلس إلى محكمة العدل الدولية للنظر فيه. وعلى موجب تقرير اللجنة الفنية وقرار محكمة العدل المؤرخ فى ٢١ تشرين الثانى من عام ١٩٢٥ أقر مجلس العصبة بتاريخ ١٦ كانون الأول من عام ١٩٢٥ بأن الخط الذى أقرته اللجنة فى مدينة بروكسل وسمى باسمها صالح لتحديد المنطقة وأن تكون المنطقة المتنازع عنها جميعها ضمن المملكة العراقية واشترطت لذلك شروطاً أهمها : —

١ — أن يبقى العراق تحت الانتداب البريطانى لمدة خمسة وعشرين عاماً وأن يكون ذلك بمعاهدة بين بريطانيا والعراق تتقدم بها بريطانيا إلى مجلس العصبة تضمن بها الانتداب فى هذه المدة.

٢ — أن تراعى مصالح الأكراد فى الشئون الادارية وأن تكون اللغة الكردية فى القضاء والتعليم فى المنطقة الكردية اللغة الرسمية.

ولفرض تنفيذ هذا القرار تم عقد معاهدتين إحداهما بين بريطانيا والعراق بتاريخ ١٣ كانون الثانى لعام ١٩٢٦ والأخرى بين بريطانيا وتركيا والعراق بتاريخ ٥ حزيران ١٩٢٦، وقد أبانت المادة الخامسة من هذه المعاهدة الثلاثية اعتبار الحدود نهائية ولازمة كما وضحت المواد الأخرى علاقات حسن الجوار بين العراق وتركيا.

٢ — المعاهدة العراقية لسنة ١٩٢٦

أما المعاهدة العراقية الثانية التى أوجبتها العصبة فقدكان الرأى العام العراقى مهيئاً لها بناء على النتيجة التى حصل عليها فى ضم جزء طبيعى من البلاد إلى كيانه الحقيق، وكان أمل العراقيين حكومة وشعبا بأن تكون محتوية على امتيازات تعوض امتداد الانتداب . ولذلك كان النقد من جهة الحكومة والشعب للمعاهدة شديداً مما أوجب على البريطانيين إعادة النظر فيها وتخفيف ما اشتد من شروطها كما جاء ذلك فى المادة الثانية حيث نصت على اتفاق الفريقين المتعاقدين الساميين أن يواصلا فوراً بعد إبرام هذه المعاهدة وموافقة جمعية الأمم عليها النظر فى المسائل التى وضعت موضع البحث بينهما قبلا بخصوص تعديل الاتفاقيتين الناشئتين عن المادتين السابعة والخامسة عشرة من معاهدة اليوم العاشر من شهر تشرين الأول لعام ١٩٢٢، كما تقرر فى مادتها الثالثة ان يتعهد جلالة ملك بريطانيا النظر فى إمكان دخول العراق عصبة الأمم بعد كل أربع سنوات اعتباراً من نهاية الأربع الأولى فى ٦ آب ١٩٢٨ حسب التحديد الوارد فى بروتوكول ٣٠ ابريل لعام ١٩٢٣، وقد وافق عليها المجلس النيابى بأغلبية ٥٨ نائباً من بين ٨٨ نائباً، أما المعارضة وعدد نوابها ١٨ نائباً فقد تركت قاعة المجلس محتجة ولم يحضر عشرة نواب هذه الجلسة كما كان اثنان منهم مجازين.

٣ — قضية النفط العراقى

مادة الوقود التى تسير دواليب الحركة فى الحرب والسلم ومنشأ النزاع الاقتصادى والسياسى فى ربوع الرافدين . أخذت المكان الأول فى السياسة العراقية بعد أن توطدت العلاقة بين العراق وبريطانيا بالمعاهدة الأولى والثانية التى مر بنا ذكرها وبعد أن كسب العراق حقه الطبيعى فى الموصل التفتت السياسة البريطانية إلى هذه الثروة الممتازة، فلم تشأ أن تجعلها موضع بحث وحدها بل ربطتها بقضية الموصل وجعلت شأن هذه المدينة التى هى جزء طبيعى من بلاد العراق مربوطاً بامتياز النفط . لقد زعمت شركة النفط التركية أن لديها امتيازاً سابقاً من

الحكومة التركية يخولها البحث عن منابع النفط فى العراق . وقد حالت الحرب العامة دون تحقيق ذلك وأنها تعود الآن تطلب من الحكومة العراقية منحها هذا الامتياز استناداً إلى مالها من حق سابق ، ولكنها لم تستطع إبراز وثيقة تؤيد زعمها . وكان كل مالديها فى هذا الشأن وعد حصل عليه السفير البريطانى من الصدر الأعظم فى ٢٨ حزيران لعام ١٩١٤ يخول هذه الشركة البحث عن منابع النفط فى ولايتى الموصل وبغداد ، ولم تأخذ الجهات العراقية بهـــذا الزعم وقرر مجلس الوزراء فى ٣ آب من عام ١٩٢٤ عدم الاعتراف بوجود امتياز سابق أولا وفتح باب المفاوضة مع الشركات المتقدمة لأخذ الامتياز ثانياً ، وأخذ الجانبان يتفاوضان فى الأمر ، وكانت هذه المفاوضات تقف حينا وتستأنف حينا آخر حتى تدخلت الحكومة البريطانية فى الأمر . وكان المفاوض العراقى يطالب بأن يكون للعراق حق الاشتراك فى حصص رأس مال الشركة . وقد تصلب الجانب البريطانى برأيه كما ثبت الجانب العراقى عند رأيه حتى تم التوقيع على الاتفاق فى ١٤ مارس عام ١٩٢٥ تحت ضغط الظروف السياسية التى كان التهديد فيها ضياع مدينة الموصل بفصلها عن العراق .

وفى عام ١٩٢٩ عدل اسم الشركة فصارت تدعى «شركة النفط العراقية المحدودة» وكانت الشركة قد بدأت أعمال الحفر فى عام ١٩٢٧ ، وفى اليوم الرابع عشر من شهر تشرين الأول انبثق النفط بكميات هائلة من بئر « بابا كركر » بالقرب من كركوك وبقى النفط يتدفق بقوة حوالى عشرة أيام . ولم يتمكن الفنيون من السيطرة على البئر طول هذه المدة ، وتعد هذه البئر من أغزر آبار النفط فى العالم وعمقها ٤٦٣ متراً .

والشركات التى تشتغل فى نفط العراق هى : شركة النفط العراقية المحـــدودة وشركة نفط خانقين وشركة نفط الموصــل وشركة استثمار النفط البريطانية وشركة نفط البصرة المحدودة . وكانت حصة العراق من هذه الثروة الطبيعية الهائلة حصة المغبون . وقد أنشأت شركة نفط خانقين مصـــفى الوند لتصفية النفط وتوزيعه فى العراق ، وبقيت كذلك إلى سنة ١٩٣٢ حيث قامت شركة نفط الرافدين محلها فى توزيع منتجات النفط فى العراق ، وهى شركة فرعية لشركة النفط العراقية . وقد عدل الاتفاق مع شركتى الرافدين وخانقين فى كانون الأول من عام

١٩٥٢ . وبناء على هذه الاتفاقية أصبحت آبار النفطخانة المنتجة للنفط والتي يقوم مصفى الوند بتصفيته نفطها الخام ملكا للحكومة ، وصارت الشركة تدير هذا المصفى والمصفى الصغير المسمى مصفى المفتية فى البصرة لحساب الحكومة أيضاً . ثم عقدت اتفاقية فى ٣ شباط ١٩٥٢ واعتبرت نافذة من أول كانون الثانى ١٩٥١ ، وصدر بها قانون . وأهم ما جاء فى هـــذه الاتفاقية أن الحكومة تتقاضى حصة مقدارها ٥٠ ٪ من الربح الصافى الناتج من عمليات الشركات فى العراق مع شروط أخرى فى صالح الدولة .

وقد حدث هذا التعديل بناء على ما ذكرناه من الغبن الذى استوجب النقد المتواصل والمطالبة المستمرة بانصاف العراق فى ثروته بناء على الحركة التى قامت بها إيران وبناء على ما تتقاضاه الحكومة العربية السعودية من الشركة المستثمرة لنفطها . وبذلك حصل العراق على بعض الحق من مورده الطبيعى . ولا يزال فريق من المشتغلين بسياسة البلد يطالب بالتأميم كما صنعت إيران وفريق يطالب بنصف الانتاج عيناً أو ما يقابله نقداً . ومهما يكن فإن هذا التغيير قد أحدث تطوراً اقتصادياً عظيما فى العراق وهيأ للدولة العراقية مجالا للإنشاء والتكوين فى نواحى الحياة جميعها وسيكون لهذا أثره فى المستقبل القريب .

معاهدة ١٩٢٧

وضعت المعاهدتان السابقتان عبئاً ثقيلا على كاهل العراق فى قيـــودها وشروطها ومسئولياتها المالية والعسكرية ، وأوجدتا حكماً مزدوجاً كان العراقيون ينظرون إليه شزراً . وقد ظلوا ينظرون إلى هاتين المعاهدتين على أنهما رداء مبطن بالانتداب مهما تغيرت الألفاظ ، فكان النضال بين العراق وبريطانيا نضالا على وضع حد يقف فى وضحه الطرفان موقف المتعادلين . فلم يتوان العراق فى بذل الجهد واستمرار المطالبة بتغيير الأوضاع وإيجاد حلف شريف يحقق للعراق استقلاله ويبنى الصداقة العراقية البريطانية على أسس متينة عادلة ـ خاصة وقد نصت المعاهدة الأولى بالحق للفريقين المتعاقدين فى إعادة النظر من وقت لآخر فى شروط المعاهـــدة بقصد إدخال ما يراه مناسباً من التعديلات ، كما نص البروتوكول الملحق بها على إمكان عقد اتفاقيات جديدة والدخول فى مفاوضات

من شأنها تنظيم العلاقة على أسس عادلة . ولقد تمسك العراق بهذه النصوص ورأى أن الوقت قد حان لانهاء المسائل التي لا تزال معلقة فتقدمت الوزارة طالبة من جلالة الملك فتح المفاوضة لإنهاء ما بقي معلقاً من المسائل المهمة بين المتحالفين وأن تجرى هذه المفاوضة في محيط يمكن الطرفين أن يتوصلا إلى نتائج سريعة .

أما المندوب السامي الذي كان يمثل الجانب البريطاني فكان يرى أن تبقى الحالة على ما هي عليه ، وأنه لا يرى مبرراً لإعادة النظر في الوقت الحاضر ولا يجد مسوغاً لإعطاء العراق امتيازات أخرى ، وقد أوهم حكومته بأن الرأي العام في العراق راض عن الوضع الراهن وأنه لا يوجد مطالب بالتعديل غير الملك ووزرائه ، واشتد في تصلبه مما اضطر أولي الشأن إلى نقل المفاوضات من بغداد إلى لندن . فتولى رئيس الوزارة العراقية أمر المفاوضة وأشرف الملك بنفسه عليها ولكنها لم تأت بشيء يرضي حكومة العراق وشعبه ، وتأرجحت المفاوضة بين الاستمرار والانقطاع حتى آخر لحظة مما اضطر رئيس الوزارة العراقية أن يترك لندن دون نتيجة . ثم حدث ما غير الوضع في محادثة جرت مع جلالة الملك ورئيس وزارة بريطانيا وعادت الرغبة إلى استئناف المفاوضة على أن يتنازل الانجليز عن شيء من تصلبهم وتتنازل الحكومة العراقية عن شيء آخر . فكتب الملك إلى رئيس وزرائه يطلب إليه العودة للتوقيع على المعاهدة وقد جاء في هذا الكتاب ما يأتي :

« الحمد لله عدلنا المعاهدة تعديلا ما كان يتصوره أحد منذ شهر نيسان ، وذلك بمجهودنا والأمة مع الأسف جاهلة . بدلا من أن تساعدنا كانت من حيث لا تعلم تحاربنا وكانت بذلك عوناً علينا . لقد ثبتنا هذا الثبات كله ورجعنا وإن كنا لم نأت بالاستقلال التام الناجز ولكننا أتينا بتعديل شريف بقدر الامكان . وليس علينا ملامة بعد أن بذلنا كل ما في استطاعتنا وبناء عليه انتظر منك أن توقع على المعاهدة وترجع فوراً على بركة الله وتوفيقه » وجاء فيه أيضاً : والآن وقد رجعت فقد انتهى توسطي وعاد الصلح إلى مجراه ، حبذا لو كان رجالنا يشتغلون كذلك ، أما الاتفاقيات فلا لزوم للبحث فيها ، تقرر أن تترك المباحثة فيها لبغداد » ولما وصل رئيس الوزراء واطلع على كتاب الملك وقع على المعاهدة وعاد إلى بغداد

فلما وضعت المعاهدة أمام مجلس الوزراء في اجتماعه المنعقد في ١٨ كانون الأول سنة ١٩٢٧ تداول في الأمر وقرر إبداء الملاحظات التالية .

أولا — لما كان رئيس الوزراء لم يعد إلى بغداد ليقدم التفاصيل الكافية عن سير المفاوضات وعن المراسلات التي تبودلت بين المتفاوضين لم يتمكن مجلس الوزراء مع تقديره الصعوبات والمشاكل التي حامت حول هذه المفاوضات من فهم الأسباب المجبرة التي حالت دون الحصول على جميع التعديلات المقترح تثبيتها في المعاهدة الجديدة .

ثانياً — إن التعديلات المتعلقة بالاتفاقيتين المالية والعسكرية لم يبت فيها أثناء المفاوضات التي دارت في لندن . ولذلك لم تزل سياسة الدفاع التي كانت محور المفاوضات غير مثبتة تثبيتا يزيل الشكوك التي حصلت طول مدة المخابرات على أساس التعديل . وكذلك بقيت المسائل المهمة معلقة .

ثالثا — لم توضح علاقة المعتمد السامي بشئون الدولة الداخلية خاصة لتجنب إطالة المخابرات عند القيام بالأعمال التشريعية أو الإدارية .

فلهذه الأسباب يعتقد مجلس الوزراء بأن المعاهدة الجديدة لم تحتو على جميع التعديلات التي وضعت قاعدة للمفاوضات ، ومع هذا كله فالمعاهدة الجديدة بشكلها الحقوقي . وباحتوائها على اعتراف الحكومة البريطانية الصريح باستقلال العراق وبسيادته . وبخلوها من القيود الكثيرة والعراقيل الموجودة في المعاهدتين السابقتين وباحتوائها على تعهد صريح بمعاضدة حكومة بريطانيا لدخول العراق في عصبة الأمم سنة ١٩٣٢ ، وبإلغائها المعاهدتين السابقتين ، وبتركها حق التمثيل الخارجي السياسي حــراً غير مقيد ، يعتبرها مجلس الوزراء خطوة واسعة في سبيل توضيح مركز العراق السياسي والدولي فقرر الموافقة عليها وعلى نشرها في ٢٠ كانون لعام ١٩٢٧ ، مع الاشارة إلى التحفظ الذي أبداه الوفد العراقي بشأن عصبة الأمم المبحوث عنه في المادة السادسة من هذه المعاهدة بما يتضمن أن الحكومة العراقية لم تعترف بالمادة الثانية والعشرين من عهد عصبة الأمم الباحثة عن الانتداب ولا بأية صلة بينها وبين الحكومة البريطانية سوى صلة الصداقة المعبر عنها في المعاهدة الجديدة ، ومع الإشارة إلى تصريح الوفد البريطاني بقبول هذا الأساس . وستنشر الوثائق المتبادلة عند ورودها » . وانتهى قرار مجلس الوزراء

ولما نشرت المعاهدة استقال وزير المالية ووزير الداخلية وحدثت أزمة وزارية فاستقالت الوزارة . وألفت وزارة أخرى غيرها حلت المجلس النيابي واشتدت المعارضة وهاج الرأي العام وتمت الانتخابات وافتتح المجلس الجديد . وفي وسط هذا الغليان كانت المداولات في وجهات النظر العراقية ووجهات النظر البريطانية مستمرة مما أدى إلى تصلب الفريقين وتنحى الوزارة عن الحكم وإجماع أولى الرأي على عدم تولى منصب رئاسة الوازرة ما لم تجاب مطالب العراق العادلة . وهكذا بقيت البلاد بلا وزارة فترة تزيد على ثلاثة أشهر . وقد حدث أن انتهت مدة المندوب السامى «هنرى دوبس» وخلفه في منصبه السير جلبرت كلايتون الذى يعتبر صديقاً للعرب فاستبشر الناس بقدومه ورجوا فيه فاتحة عهد جديد لكن المنية عاجلته فلم يتم ما كان يؤمل منه ، وبعد وفاته بثلاثة أيام وصل العراق تصريح ينم عن اتجاه جديد في السياسة البريطانية تسلمه وكيل المندوب السامى قائد الطيران السير روبرت بروك وأبلغه الحكومة العراقية وكان يتضمن ما يلى :

١ — الوعد بترشيح العراق لعضوية عصبة الأمم لعام ١٩٣٢ .

٢ — إخبار مجلس العصبة في اجتماعه القادم التخلى عن مشروع معاهدة ١٩٢٧ .

٣ — إخبار مجلس العصبة في الوقت نفسه بعزم بريطانيا على إدخال العراق في عصبة الأمم سنة ١٩٣٢ .

وصرح وكيل المندوب السامى بعد ذلك عن رغبة الحكومة البريطانية في عقد معاهدة جديدة لتنظيم العلاقة بين الطرفين عندما يصبح العراق عضواً في عصبة الأمم .

وعلى أثر هذا التصريح تألفت الوزارة السعدونية الرابعة ولكن سرعان ما أكفهر الجو السياسى وتوترت العلاقات من جراء التفاهم على الاتفاقيتين المالية والعسكرية .

وقد حملت المعارضة حملة قوية على الحكومة أثناء مناقشة خطاب العرش فأجابهم رئيس الوزارة بخطاب قيم نقتطف منه ما يلى :

«أيها السادة إن هذا التصريح ليس بقليل الأهمية كما يعتقد بعض الإخوان بل هو ذو أهمية عظيمة ، فبدخول العراق عصبة الأمم تلغى جميع المعاهدات والاتفاقيات

وتعقد اتفاقية جديدة على أساس استقلال العراق التام . وعلى كل حال فإن السياسة المتبعة قد تغيرت بعد إعلان هذا التصريح ، وقد أصبح الوزراء العراقيون يتمكنون من تطبيق أحكام القانون الأساسي بصورة أوسع مما كانوا عليه في السابق . أما ماقاله بعض الإخوان من احتمال سقوط وزارة العمال فلا ينقض سقوطها ما نص عليه التصريح ، أما إذا حصل ذلك فأعتقد أن نوال الاستقلال تابع إلى جرأة الأمة ، فالأمة التي تريد الاستقلال يجب أن تتهيأ له ولا يكون ذلك بالكلام والأقوال الفارغة فالاستقلال يؤخذ بالقوة والتضحية » . وبلغت شدة التوتر مبلغ اليأس من نفس رئيس الوزراء السيد عبد المحسن السعدون مما دعاه أن يؤثر الموت على الحياة ، فكان انتحاره حادثاً جللا أيقظ العيون النائمة ونبه القلوب الغافلة وذهبت عبارته التي جاءت في وصيته الرائعة لولده مذهب الأمثال السائرة تملأ الآذان عظة وعبرة . « الأمة تنتظر الخدمة والإنكليز لا يوافقون » . وهكذا اختتمت حياة هذا السياسي العراقي في اليوم الثالث عشر من شهر تشرين الثاني لعام ١٩٢٩ .

ما خففت مصيبة السعدون شيئاً من حدة التوتر فقد استمرت المعضـــلة بين الحكومة العراقية ودار الاعتماد ، وكانت مقررات مجلس الوزراء العراقي التي تمس مصالح البريطانيين أو تلطف من حدة هذا الازدواج في الحكم ترتطم بصخرة ملساء ، وقد يكون ما نقتطفه من خطاب ياسين الهاشمي في المجلس النيابي وصفاً واضحاً للنضال بين وجهتي النظر العراقية والبريطانية . قال . « نحن أمام شكلين عجيبين وقوتين متعارضتين وشيئين متناقضين وصفهما رئيس الوزراء أحسن وصف . كان القصد من تأليف الوزارة الأخيرة القضاء على هذا التناقض والقضاء على هذا الاختلاف والقضاء على هذا الشكل العجيب ، إلى أن يقول «قلنا عندئذ إن من واجب كل عراقي أن يقضي على المعاهدة والاتفاقيات وهذا هو مبدأ الكفاح الذي قامت به كل حكومة سواء أكانت تقدمية أم مؤتلفة ، هذا الكفاح مسجل في اختبارات الطرفين وعلى هذه الاختبارات والأسس قامت الحكومة البريطانية بوعد شرف على لسان مندوب سام كان في الحقيقة خير وسيط للتعبير عن آراء الحكومة العراقية والهيئة التشريعية إلى الحكومة البريطانية ، وعندئذ أعطى التصريح إلى المرحوم عبد المحسن السعدون من أننا سندخل عصبة الأمم في سنة ١٩٣٢ وأننا سنبني صلاتنا على أساس المعاهدة أو الاقتراحات المصرية البريطانية ، على أن المرحوم لم يكتف بذلك بل وضع منهاجاً وقد لخصناه كخطط إلا أنه لم ينشر . وأقول

لكم مع الأسف أنه كان مصادقاً عليه . أما المواد الرئيسية التي يحتوي عليها المنهاج فهي مادتان : أولا إن المفاوضات يجب أن تجرى على أساس الاستقلال التام ، ثانياً أن يعجل إما في تطبيق المعاهـــدة من تاريخ إبرامها أو تسريع إدخال العراق إلى عصبة الأمم . وتحت هاتين المادتين وضعت مادة ثالثة تنص على أنه يجب أن تتطور الإدارة في البلاد على أساس التصريح الجديد. دخلنا لنعمل على هذا الأساس وعلى أساس التوفير في النفقات ولم تمض مدة إلا وجوبهنا وجوبهت أنا ببيانات وتصريحات تجعل الشيء الذي كنا سمعناه وقرأناه غير موجود ، هو خيالي كأننا في حلم . باشرنا بالتشدد في طلب الدخول في المفاوضات فوجدنا الطريق طريق المكاتبة كما يجري سابقاً ، طلبنا حسم قضية السكك الحديدية وفق المعاهدة فقالوا مكاتبة....، ثم قال « ولكننا في اللحظة الأخيرة فهمنا شكلا جديداً وذلك إن صلاتنا ليست مبنية على المعاهدة المكتوبة فقط ، وإنما توجد مواد لم تكتب أيضا ، ويجب على العراق أن يعترف بها ، وعند ذلك علمنا أننا مخدوعون ببيان رسمي وتصريح مندوب سام » .

كان هذا التدخل السافر الذي وصفه السيد الهاشمي من جهة الحكومة البريطانية في شئون العراق تدخلا لم يدع مجالا للتفاهم ، فكانت الوزارات تستقيل وتشكل إحداها تلو الأخرى . وكانت الاحتجاجات ترفع والمظاهرات تقام والصحف تكتب والمعارضة في المجلس النيابي تتكلم وتنتقد فتشتد الأزمة شدة على شدة حتى اضطرت الوزارة إلى الاستقالة في ٩ آذار من عام ١٩٣٠ . وكان دور الملك في هذه الأزمات دور الرجل الحكيم في إصلاح ذات البين وتخفيف شدة التوتر . وفي حكمة الملك وتردي فريق من ساسة العراق استطاع العراقيون أن يتقدموا خطوة إلى الأمام أمام تصلب الانجليز ويدخلوا من جديد في مفاوضات مع الحكومة البريطانية لعقد معاهدة جديدة .

معاهدة ١٩٣٠

وفى يوم ٢٣ من آذار عام ١٩٣٠ كلف جلالة الملك السيد نورى السعيد بتأليف الوزارة بعد أن قبل استقالة ناجى السويدى الذى قدمها فى ٩ منه .

وقد جاء فى كتاب رئيس الوزارة الجديد إلى جلالة الملك : « إن أهم مسألة سنضعها أنا وزملائى نصب اعيننا ونبذل كل ما فى وسعنا لا نجاوزها طبق رغبات جلالتكم ورغبات الأمة هى وضع المعاهدة الجديدة بيننا وبين حكومة صاحب الجلالة البريطانية التى سنبدأ بعون الله تعالى فى البحث فيها خلال العشرة أيام على أساس الاستقلال التام . يعلم صاحب الجلالة أن حكومة صاحب الجلالة البريطانية قد وعدت فى تصريحها المؤرخ فى ١٤ أيلول من عام ١٩٢٩ بأنها تتعهد بادخال العراق عصبة الأمم فى سنة ١٩٣٢ بلاقيد ولا شرط وأنها ستشرع فى مفاوضة الحكومة العراقية لعقد معاهدة بروح حرة تعين صلاتها على أساس مقترحات المشروع البريطانى المصرى . وقد صرحت مراراً بأنها لا ترغب إلا فى تأسيس دولة عراقية مستقلة تكون صديقة لبريطانيا العظمى ومدينة لها بالجميل . نظرا إلى هذا التصريح المطلق فإننا سنضع شروط المعاهدة على أساس الاستقلال التام مع ملاحظة ما ينبغى وضعه من المواد ولتوطيد الصداقة بين البلدين على أساس المنافع المتبادلة كما سبقت الإشارة إليه » .

وهكذا بدأت فى الأفق السياسى ظاهرة جديدة تشير إلى تقارب الآراء واتفاق الطرفين على حل أزمة اصطنعتها ظروف سياسية ما كان لها لزوم لو انصف الخصم . وقد عبر جلالة الملك فيصل عن هذا الظرف الجديد فى خطابه الذى القاه فى حفلة توديع اعضاء المجلس المعطل أحسن تعبير حين قال « وقد لا أكون مخطئاً إذا قلت إن هذه الظروف ستكون تاريخية فى حياتنا القومية حيث اننا على ما أعتقد نستقبل صبحاً وشمساً منيرة ، فعليه أطلب إليكم أن توحدوا صفوفكم لتقوموا بواجباتكم الوطنية ولتبرهنوا أننا أوفياء لأصدقائنا من الأمم مستعدون للدفاع عن مصالحنا القومية » .

وشرع الطرفان فى المفاوضة فى اليوم الثانى من نيسان لعام ١٩٣٠ لوضع الأسس الجديدة . وقد كانت المفاوضة تتناول عنصرين مهمين فى الحياة السياسية الجديدة :

١ — انتهاء الانتداب واستقلال العراق ودخوله عصبة الأمم في عام ١٩٣٢.

٢ — حفظ المصالح البريطانية وخاصة منها ما يتعلق بحماية المواصلات الجوية البريطانية.

وحين أجمعت آراء الطرفين على موادها تم التوقيع عليها بالحروف الأولى من قبل رئيس الوزارة العراقية السيد نوري السعيد والمعتمد السامي البريطاني السيد فرنسيس همفريز في اليوم الثلاثين من شهر حزيران لعام ١٩٣٠، وقرر الطرفان أن تذاع في بغداد ولندن في يوم واحد هو يوم ٢٨ تموز لعام ١٩٣٠.
ولما كان هذا الوضع الجديد يحتاج إلى استفتاء الأمة صدرت الإرادة الملكية بحل المجلس المعطل في أول تموز من العام نفسه وبإجراء انتخابات عامة لغرض افساح المجال لإبداء الأمة رأيها في هذه المعاهدة على ألسنة نوابها.

وقد استطاعت الحكومة أن تحصل على الأكثرية. فلما التأم المجلس في اليوم السادس عشر من تشرين الأول وعرضت عليه المعاهدة في جلسة تاريخية دامت أربع ساعات أسفرت عن قبولها بأكثرية ٦٩ صوتاً ضد ١٣ صوتاً من المعارضة كما تغيب خمسة من النواب. وتتكون هذه المعاهدة من إحدى عشرة مادة مع ملحق للشئون العسكرية مكون من سبع فقرات وملحق مالي مكون من خمس فقرات وعدد من الرسائل الموضحة التي تبودلت بين الطرفين. وألحق بالمعاهدة اتفاقية خاصة لتنظيم شئون العدلية حلت محل الاتفاقية العدلية السابقة.

وتنص هذه المعاهدة على أن يسود سلم وصداقة دائمين بين صاحب الجلالة ملك العراق وصاحب الجلالة البريطانية ويؤسس بين الفريقين الساميين المتعاقدين تحالف وثيق وتجرى بينهما مشاورة تامة وصريحة في جميع شئون السياسة الخارجية مما قد يكون له مساس بمصالحهما المشتركة، كما يتعهد كل من الفريقين بأن لا يقف في البلاد الأجنبية موقفاً لا يتفق وهذا التحالف أو قد يخلق المصاعب للفريق الآخر. ويمثل الفريقين المتعاقدين ممثل سياسي لدى بلاط كل منهما وفق الأصول المرعية. وجعلت الرسائل المتبادلة الممثل البريطاني بدرجة سفير والممثل العراقي بدرجة وزير مفوض ومنح السفير البريطاني امتياز التقدم على ممثلي باقي الدول، وفي سنة ١٩٤٦ تنازلت بريطانيا عن هذا الحق لمن يلي سفيرها حينذاك ورفعت درجة الممثل العراقي إلى درجة سفير.

وقد اتفق الفريقان على توحيد مساعيهما لتسوية النزاع الذى يقع بين العراق ودولة أخرى إذا كان هذا النزاع يترتب عليه خطر قطع العلاقات بتلك الدولة ، وإذا اشتبك أحد الفريقين فى حرب رغم ما جاء فى المادة الثالثة أعلاه وجب على الفريق المتعاقد فوراً أن يبادر إلى معونته بصفة كونه حليفاً وفق المادة التاسعة من هذه المعاهدة . أمامعونة صاحب الجلالة ملك العراق فتنحصر فى أن يقدم إلى صاحب الجلالة البريطانية فى الأراضى العراقية جميع ما فى وسعه أن يقدمه من التسهيلات والمساعدات ، ومن ذلك استخدام السكك الحديدية والأنهر والموانى والمطارات ووسائل المواصلات .

وتقع مسئولية حفظ الأمن الداخلى والدفاع عن العراق ضد الاعتداء الخارجى على عاتق صاحب الجلالة ملك العراق ، وأن يعترف ملك العراق بأن حفظ وحماية مواصلات صاحب الجلالة البريطانية بصورة دائمية فى جميع الأحوال هو من صالح الفريقين المتعاقدين . ولتنفيذ ذلك وتسهيلا لقيام صاحب الجلالة البريطانية بتعهداته التى جاءت فى المادة الرابعة يتعهد جلالة ملك العراق أن يمنح جلالة ملك بريطانيا موقعين لقاعدتين جويتين يختارهما صاحب الجلالة البريطانية فى البصرة أو فى جوارها وموقعاً واحداً لقاعدة جوية يتقيها صاحب الجلالة البريطانية فى غرب نهر الفرات . ويأذن لصاحب الجلالة البريطانية فى إقامة قوات فى الأراضى العراقية فى الأماكن الآنفة الذكر وفقاً لأحكام ملحق المعاهدة على ألا يعتبر وجودها احتلالا ولن يمس ذلك سيادة العراق .

ويعتبر ملحق هذه المعاهدة جزءاً لا يتجزأ منها ، وتحل هذه المعاهدة محل معاهدتى التحالف المعقودتين بين العراق وبريطانيا . وتوضع هذه المعاهدة فى نسختين فى كل من اللغتين العربية والانجليزية ، ويعتبر النص الانجليزى هو النص المعول عليه .

وعند الشروع فى تنفيذ هذه المعاهدة تنتهى من تلقاء نفسها وبصورة نهائية جميع المسئوليات المترتبة على بريطـــانيا فيما يتعلق بالعراق وفقاً للمعاهدات والاتفاقيات المشار إليها فى المادة السابعة من هذه المعاهدة فيما يختص ببريطانيا وإذا بقى شىء من هذه المسئوليات فيترتب على صاحب الجلالة ملك العراق وحده . وليس فى هذه المعاهدة ما يخل بالحقوق والتعهدات المترتبـــة أو التى قد تترتب لأحد الفريقين أو عليه وفقاً لميثاق عصبة الأمم أو معاهدة تحريم الحرب

الموقع عليها فى باريس فى اليوم السابع والعشرين من شهر آب لسنة ثمانى وعشرين وتسعمائة بعد الألف ، وإذا نشأ خلاف فيما يتعلق بتطبيق هذه المعاهدة أو تفسيرها ولم يوفق الطرفان للتفاهم عليه بالمفاوضة رأساً بينهما يعالج وفقاً لأحكام ميثاق العصبة . أما تنفيذ هذه المعاهدة فيكون عند قبول العراق عضواً فى عصبة الأمم وتبقى نافذة مدة خمس وعشرين سنة من تاريخ تنفيذها ، وعلى الفريقين بعد مرور عشرين سنة من تنفيذها أن يقوما بناء على طلب احدهما بعقد معاهدة جديدة ينص فيها على الاستمرار على حفظ وحماية مواصلات بريطانيا فى جميع الأحوال . وعند نشوب خلاف فى هذا الشأن يعرض هذا الخلاف على مجلس العصبة .

أما الملحق العسكرى فقد تناول إقامة قوات لصاحب الجلالة البريطـــانية فى الهنيدى (معسكر الرشيد الآن) والموصل لمدة خمس سنوات تبتدىء من تنفيذ المعاهدة لكى يتمكن العراق من تنظيم قوات فى هذه الفترة تحل محل القوات البريطانية بعد انتهاء مدة الخمس سنوات ، كما تناول امتيازات وحصانات القوات البريطانية (فى شئون القضاء والعائدات الأميرية بما فى ذلك الاعفاء من الضرائب) والتسهيلات الممكنة لتنقل القوات التى جاء ذكرها فى الفقرة الأولى وتدريبها واعاشتها ، وتناول اقامة حرس يقدمه العراق لحماية القواعد الجوية التى تشغلها القوات البريطانية وفق هذه المعاهدة ، واتجه الملحق إلى توحيد الجيشين البريطانى والعراقى فى السلاح والعتاد والتدريب واللباس ، ومن ذلك تعليم الضباط العراقيين فى الفنون الحربية والعسكرية والجوية فى المملكة المتحدة . وإذا احتاج العراق إلى سلاح وعتاد فإن الحكومة البريطانية تبيعه ذلك من أحدث طراز متيسر لديها وتقدم ضباط بريطانيين من جميع أصناف القوات العسكرية للخدمة بصفة استشارية للجيش العراقى . وعلى حكومة العراق أن تقوم بجميع التسهيلات الممكنة لمرور القوات البريطانية من جميع الصنوف العسكرية عبر العراق مع نقل وخزن المؤن والتجهيزات التى تحتاج إليها هذه القوات ، وتشمل هذه التسهيلات جميع طرق المواصلات والموانىء والمطارات مع الاذن العام لسفن بريطانيا بزيارة شط العرب .

كما تناول الملحق الثانى القضايا المالية المتعلقة بنقل المطارات والمعسكرات فى الهنيدى والموصل وبدلات الايجارات وانشاء السكك الحديدية إلى الحكومة العراقية وطريقة ادارتها فى طريقة يظهر فيها التعنت والتفضل . وقد عقدت اتفاقيات خاصة بشأن السكك والميناء وانتهى مفعولها .

وقد تضمنت الاتفاقية العدلية مناصب خطيرة لخبراء بريطانيين في القضاء العراقي مدة محدودة وأن يخول هؤلاء الخبراء سلطة قضائية وفقاً لقوانين العراق . (أما اليوم فليس في العراق قاضي أجنبي ويخضع العراقيون والأجانب إلى السلطة القضائية العراقية دون تمييز) أما المذكرات فقد تناولت قضية التمثيل الدبلوماسي وتسوية القضايا المالية المعلقة التي أشرنا إليها وتمت بالاتفاقية المذكورة . وتناولت المذكرة الثالثة الموظفين البريطانيين وترجيحهم على غيرهم في الوظائف العراقية إذا احتاج العراق إلى استخدام الأجانب . أما الرابعة فقد احتوت على طلب العراق بعثة استشارية عسكرية بريطانية يتعين عددها قبل دخول المعاهدة في حيز التنفيذ وتكون شروط خدمتها مماثلة لشروط خدمة البعثة العسكرية آنذاك .

ومهما يكن من شيء فقد قوبلت هذه المعاهدة بآراء مختلفة تختلف باختلاف وجهات النظر . فقد وجد فيها الملك ووزيره الأول السيد نوري السعيد خطوة أولى موفقة خطت بالعراق إلى الاستقلال التام مع حفظ بعض المصالح البريطانية . وان على العراق أن يثبت جدارته التي تؤهله ليكون في مصاف الدول . وقد ألقى جلالة الملك خطاباً على الوفود المهنئة بعودته من أوربا جاء فيه . « إن العراق حر طليق لا سيد عليه غير إرادته وحليفتنا بريطانيا ليس لها في هذه البلاد سوى شيء واحد هو الخط الجوي . وان الذي يؤسف له أن يكون من بين رجال الأمة من يدرك حقيقة ما بينته لكم ولا يجرأ على مصارحتكم حتى اضطررت أن أصارحكم بذاتي » .

ورأى فيها فريق صكاً انتدابياً مغلفاً . وأن النفوذ البريطاني متغلغل في مطاوي فقراتها وموادها وما هي إلا وسيلة لتنفيذ مآرب الحكومة البريطانية على أرض الرافدين وعلى حساب الحكومة العراقية . وقد ظهر مثل هذا النقد اللاذع بين أروقة مجلس عصبة الأمم وعلى لسان أعضائها . فقد أبان المسيو رابار ملاحظة حول المادة الخامسة منها وقال : « إنها جعلت كفة أحد الطرفين المتعاقدين راجحة على الأخرى ، وأنه شخصياً لا يحب أن يرى بلاده تدخل في مثل هذا التعهد الذي قبله العراق على نفسه » وقال أعضاء آخرون إن قبول العراق لهذه المعاهدة سيجعله بعد تحرره من الانتداب تحت الحماية البريطانية . وأشار المسيو رابار إلى أن المعاهدة صودق عليها من قبل المجلس قبل أن يتحرر العراق من الانتداب أي قبل ن يكون مالكاً لسيادته .

تحرر العراق من الانتداب

ودخوله عصبة الأمم

وفى ٤ تشرين الثانى من عام ١٩٢٩ كتبت وزارة الخارجية البريطانية إلى السكرتير العام لعصبة الأمم ليخبر أعضاء العصبة أولا بعدول بريطانيا عن تنفيذ المعاهدة العراقية البريطانية لسنة ١٩٢٧ وبارتباطها بالمعاهدة العراقية البريطانية لسنة ١٩٢٦ التى تنص مادتها الثالثة على ترشيح العراق لعضوية عصبة الأمم عام ١٩٣٢ . فأقر مجلس العصبة أن تقوم لجنة الانتدابات الدائمة بدراسة الموضوع وتقديم خلاصة رأيها . وقد أظهرت دوائر العصبة ارتياباً فى تقدم العراق الإدارى والسياسى والاجتماعى ، واهتمت فى مستقبل الأقليات . وقدمت بريطانيا تقريراً شاملا فى ١٣ مايس من عام ١٩٣١ ، وقد وضعه المعتمد السامى فى العراق السير فرنسيس همفريز والذى كان يمثل بريطانيا أمام لجنة الانتدابات الدائمة ، وقد جاء فى كلمته إلى اللجنة : « إن هذا التقرير محاولة تقديم صورة عامة دون تجزعها حصل من التقدم فى العراق فى عهد الانتداب الذى أخذته على عاتقها حكومة صاحب الجلالة البريطانية منذ شهر نيسان ١٩٢٠ . وقد قال الأستاذ إيفانز إن هذا التقرير يعد الأول من نوعه للغاية التى وضع من أجلها ، فهو محاولة دولة حامية تقيم البرهان على كفاءة قطــر قد تعهدته بالتدريب للحصول على حق تبوء مركزه بين الأمم .

وقد تناول التقرير عرضاً عاماً لمجمل تقدم العراق فى النواحى السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية وبين رغبة بريطانيا فى تأسيس دولة مستقلة مشبعة بروح عصبة الأمم ، كما يوضح قابلية العراق لتأسيس دولة تحكم نفسها بنفسها . وعلى أثر اختلاف الآراء صرح المندوب السامى السير همفريز بأن حكومة بريطانيا تقدر المسئولية التى تقع على عاتقها عند ما توصى بدخول العراق إلى عصبة الأمم وهى تجد فى ذلك الطريقة الوحيدة لإنهاء الانتداب . وإذا أثبت العراق عدم جدارته بالثقة التى وضعت فيه فإن المسئولية الأدبية فى ذلك تقع على عاتق بريطانيا وحدها ، وكان لهذا التصريح أثره العميق فى نفوس أعضاء

اللجنة . وفى اجتماع مجلس العصبة فى ٢٨ كانون الثانى لعام ١٩٣٢ تلى رئيس لجنة الانتدابات الدائمة تقرير اللجنة عن تحرر العراق من الانتداب وقد جاء فيه :

«لقد نظرت اللجنة فى اقتراح الحكومة البريطانية برفع الانتداب عن العراق فوجدت أن المعلومات المتوفرة إليها تسوغ الاعتقاد بأن للعراق اليوم حكومة مستقرة وإدارة قادرة على شئون الحكومة الجوهرية بصورة منظمة . وإن فى استطاعته المحافظة على الأمن العام فى القطر كله . ولديه مصادر مالية وافية لسد حاجات الحكومة الاعتيادية بصورة منظمة ، وله قوانين ونظام قضائى فيها مايضمن العدل المطرد للجميع على السواء» .

وبعد المذاكرة والمداولة بين أعضاء المجلس أقر مجلس العصبة فى ٣ تشرين الأول من عام ١٩٣٢ باجماع الآراء قبول العراق عضواً فى العصبة حسب منطوق المادة الثالثة من ميثاقها . وبذلك أصبح العراق الدولة السابعة والخمسين فيها وزال الانتداب عن أول دولة من الثلاثة التى وضع عليها الانتداب فى مؤتمر سان ريمو . وقد رحب رئيس الجلسة بهذا العضو الجديد وقال :

« إن دولة جديدة ظهرت إلى عالم الوجود بسلام بينما كان ذلك فى الماضى لا يحدث إلا بوسائل العنف . فالعصبة تظهر بذلك الخطأ الذى يرتكبه الكثيرون بظنهم أنها وضعت للإبقاء على الوضع الراهن ومنع العالم عن تقدمه الاعتيادى فدخول العراق عصبة الأمم قد أعطى فرصة لتنفيذ ما كان يتطلب ثورة فى الماضى» .

الإنشاء والتكوين

استقبل العراق مركزه الدولى الجديد متفائلا مبتسما بعد نضال طويل فيه تضحية وعنف وسياسة ولين وأخذ وعطاء وتضارب فى الوسائل والآراء . ثم طفق ينظر إلى وضعه الاجتماعى والسياسى فى الداخل والخارج بعد أن استلم أكثر من تلثى زمام الأمر بيده . وكان جلالة الملك فيصل مؤسس هذه المملكة أكثر من ملك فهو زعيم وموجه ومنشىء ومحرك ، عرف أوضاع العراق السياسية وعجم عيدان المملكة فعرف فيها الصلب واللين والحلو والمر ، فطلب من زعمائه وقادة الرأى فيه أن يضعوا أيديهم بيده لإنشاء دولة فتية تحتاج إلى كل شىء لتستطيع أن تقف على رجليها .

وقد وضع جلالته مذكرة صريحة واضحة فى تشخيص الداء ومعرفة مواطن الضعف وفيها دواء ناجع وفيها مقترحات بها إنشاء وتكوين . وقد وزع هذه المذكرة على بعض من يثق بهم ويطمئن إلى آرائهم . واننا واجدون فى هذه المذكرة دراسة عميقة وعقلا راجحاً ، وتكاد تكون الآراء فيها منبع الخير والشر لهذه البلاد فيها أسباب التقدم والتأخر وفيها القوة والضعف . وقد أراد فيصل فى توزيعها أن يعجم عيدان القوم ليرى فيهم المبدع والمكون وليضع يده فى أيديهم كى يستطيع أن يصل بالبلاد إلى المكانة التى يتمناها لها ، واننا نثبت هذه المذكرة لأهميتها وهى :

« كنت منذ زمن طويل أحس بوجود أفكار وآراء حول كيفية إدارة شئون الدولة عند بعض وزرائى ورجال ثقتى غير أفكارى وآرائى ، وكثيراً ما فكرت فى الأسباب الباعثة لذلك . وفى الأخير ظهر لى بأن ذلك كان ولم يزل ناشئا عن عدم وقوفهم تماما على أفكارى وتصوراتى ونظرى فى شئون البلاد وفى كيفية تشكيلها وتكوينها والسير بها نظراً إلى ما أراه من العوامل والمؤثرات المحيطة بها والمواد الإنشائية المتيسرة وعوامل التخريب والهدم التى فيها كالجهل واختلاف العناصر والأديان والمذاهب والميول والبيئات . لذلك رأيت من الضرورى أن أفضى بأفكارى وأشرح خطتى فى مكافحة تلك الأمراض وتكوين المملكة على أساس ثابت واطلع عليها أخصائى ممن اشتركوا وإياى فى العمل . وإنى ألخص خطتى مختصراً بجملة تحت هذا وبعد ذلك أتقدم إلى تفصيل نظرياتى ومشاهداتى .

أولا — إن البلاد العراقية هى من جملة البلدان التى ينقصها أهم عنصر من عناصر الحياة الاجتماعية ذلك هو الوحدة الفكرية والملية والدينية ، فهى والحالة هذه مبعثرة القوى منقسمة على بعضها يحتاج ساستها أن يكونوا حكماء مدبرين وفى عين الوقت أقوياء مادة ومعنى غير مجلوبين لحسيات أو أغراض شخصية أو طائفية أو متطرفة ، يداومون على سياسة العدل وللموازنة والقوة معاً ، على جانب كبير من الاحترام لتقاليد الأهالى . لا ينقادون إلى تأثرات رجعية أو أفكار متطرفة تستوجب رد الفعل .

ثانيا — فى العراق أفكار ومنازع متباينه جداً وتنقسم إلى أقسام : أولا الشبان المتجددون بما فيهم رجال الحكومة ، ثانيا المتعصبون ، ثالثا السنة رابعا الشيعة ، خامسا الأكراد ، سادسا الأقليات غير المسلمة ، سابعا العشائر ، ثامنا الشيوخ تاسعا السواد الأعظم المستعد لقبول كل فكرة سيئة بدون مناقشة أو محاكمة . إن شبان العراق القائمين بالحكومة وعلى رأسهم قسم عظيم من المسئولين يقولون بوجوب عدم الالتفات إلى أفكار وآراء المتعصبين وأرباب الأفكار القديمة لأنهم جبلوا على تفكير يرجع عهده إلى عصور خلت ، ويقولون بوجوب سوق البلاد إلى الأمام بدون التفات إلى أى رأى كان والوصول بالأمة إلى مستواها اللائق وبالاعراض عن القال والقيل طالما القانون والنظام والقوة بيد الحكومة فهى ترغم الجميع على اتباع ما تمليه عليهم . إن عدم المبالاة بالرأى بتاتا مهما كان حقيراً خطيئة لا تغتفر ، ولو أن بيد الحكومة القوة القاهرة التى تمكنها من تسيير الشعب رغم إرادته لكنت وإياهم . وعليه فإننا لحين ما نحصل على هذه القوة علينا أن نسير بطريقة تجعل الأمة مرتاحة نوعا ما بعدم مخالفة تقاليدها كى تعطف على حكومتها فى النوائب . إن المثل الصغير الذى ضربه لنا الاضراب العام يكفينا لتقدير حسياتها ووضعها مع الاعتبار وكذلك يكفينا لتقدير مبلغ قوانا لإخماد هياج مسلح ما قاسيناه إبان ثورة الشيخ محمود . والنقص العددى البارز الذى ظهر فى قواتنا العسكرية آنئذ . كل ذلك يضطرنى أن أقول بان الحكومة أضعف من الشعب بكثير . ولو كانت البلاد خالية من السلاح لهان الأمر ، لكنه يوجد فى المملكة مايزيد على مائة ألف بندقية يقابلها ١٥ ألف حكومية ، ولا يوجد فى بلد من بلاد الله حالة حكومة وشعب كهذه . هذا النقص يجعلنى اتبصر وأدقق وأدعو أنظار رجال الدولة ومديرى دفة البلاد للتعقل وعدم المغامرة . ألحت فيما تقدم إلى

أفكاري الخاصة. وأفكار رجال الحكومة والشبان وحالة الشعب. كل ذلك توطئة لما سأقوله فيما يلي وتصوير البلاد كما أراها في الوقت الراهن وكما أشخص أمراضها وبعد ذلك أبين أيضاً ما أراه ضرورياً لمعالجتها .

ثالثاً — العراق مملكة تحكمها حكومة عربية سنية مؤسسة على أنقاض الحكم العثماني، وهذه الحكومة تحكم قسماً كردياً أكثريته جاهلة بينه أشخاص ذوو مطامع شخصية يسوقونه للتخلي عنها بدعوى أنها ليست من عنصرهم، وأكثرية شيعية جاهلة منتسبة عنصرياً إلى نفس الحكومة، إلا أن الاضطهادات التي كانت تلحقهم من جراء الحكم التركي الذي لم يمكنهم من الاشتراك في الحكم وعدم التمرن عليه والذي فتح خندقاً عميقاً بين الشعب العربي المنقسم إلى هذين المذهبين، كل ذلك جعل مع الأسف هذه الأكثرية أو الأشخاص الذين لهم مطامع خاصة، الدينيون منهم وطلاب الوظائف بدون استحقاق والذين لم يستفيدوا مادياً من الحكم الجديد يظهرون بأنهم لم يزالوا مضطهدين لكونهم شيعة ويشوقون هذه الأكثرية للتخلي من الحكم الذي يقولون بأنه سيئ بحت. ولا ينكر ما لهؤلاء من التأثير على الرأي البسيط الجاهل. أخذت بنظري هذه الكتل العظيمة من السكان بقطع النظر عن الأقليات الأخرى المسيحية التي يجب أن لا نهملها نظراً إلى السياسة الدولية التي لم تزل تشجعها المطالبات بحقوق غير هذه وتلك. وهناك كتل كبيرة غيرها من العشائر كردية وشيعية وسنية لا يريدون إلا التخلي عن كل شكل حكومي بالنظر لمنافعهم ومطامع شيوخهم التي تتداعى بوجود الحكومة. تجاه هذه الكتل البشرية المختلفة والمطامع والمشارب المملوءة بالدسائس، حكومة مشكلة من شبان مندفعين أكثرهم متهم بأنهم سنيون أو غير متدينين أو أنهم عرب فهم مع ذلك يرغبون في التقدم ولا يريدون أن يعترفوا بما يتهمون به ولا بوجود تلك الفوارق وتلك المطامع بين الكتل التي يقودونها، يعتقدون بأنهم أقوى من هذا المجموع والدسائس التي تحرك هذا المجموع، غير مبالين بنظرات السخرية التي يلقيها عليهم جيرانهم الذين هم على علم بمبلغ قواهم. أخشى أن أتهم بالمبالغة ولكنه من واجبي ألا أدع شيئاً يخامرني خاصة لعلمي بأنه سوف لا يقرأ هذا إلا نفر قليل ممن يعلمون وجائبهم ومسئولياتهم، ولا أرغب أن أبرر موقف الأكثرية الجاهلة من الشيعة وأنقل ما سمعته ألوف المرات وسمعه غيري من الذين يلقون في أذهان أولئك البسطاء من الأقوال التي تهيجهم وتثير ضغائنهم، إن الضرائب على الشيعي والموت

على الشيعي ومناصب للسني . مما الذي هو للشيعي حتى أيامه الدينية لا اعتبار لها ويضربون الأمثلة على ذلك مما لا لزوم لذكرها .

أقول هذا على سبيل المثال وذلك للاختلافات الكبرى بين الطوائف التي يثيرها المفسدون . وهناك حسيات مشتركة بين أفراد الطوائف الإسلامية ينقمون بمجموعهم على من لا يحترمها . وهناك دسائس آثورية وكلدانية ويزيدية والتعصب للتفرقة بين هؤلاء الجهلاء توهن قوى الحكومة تجاه البسطاء . كما أن العقول البدوية والنفوذ العشائري الذي للشيوخ وخوفهم من زواله بالنسبة لتوسع نفوذ الحكومة كل هذه الاختلافات وكل هذه المطامع تشتبك في هذا الصعيد وتصطدم وتعكر صفو البلاد وسكونها . فاذا لم تعالج هذه العوامل بأجمعها وذلك بقوة مادية حكيمة ردحاً من الزمن حتى تستقر البلاد وتزول هذه الفوارق الوطنية الصادقة وتحل محل التعصب المذهبي والديني هذه الوطنية التي سوف لا تكون إلا بجهود متمادية وبسوق مستمر من جانب الحكومة بنزاهة كاملة فالموقف خطر . وفي هذا الصدد أقول وقلبي ملآن أسى إنه في اعتقادي لا يوجد في العراق شعب عراقي بعد ، بل توجد كتلات بشرية خالية من أي فكرة وطنية متشبعة بتقاليد وأباطيل دينية لا تجمع بينهم جامعة ، سماعون للسوء ميالون للفوضى مستعدون دائما للانتقاض على أي حكومة كانت ، ونحن نريد والحالة هذه أن نشكل من هذه الكتل شعباً نهذبه وندربه ونعلمه ، ومن يعلم صعوبة تشكيل وتكوين شعب في مثل هذه الظروف يجب أن يعلم أيضاً الجهود التي يجب صرفها لاتمام هذا التكوين وهذا التشكيل . هذا هو الشعب الذي أخذت مهمة تكوينه على عاتقي وهذا نظري فيه وإن خطتي في تشكيله وتكوينه كما يلي :

في اعتقادي وإن كان العمل شاقاً ومتعباً إلا أنه ليس مما يوجب اليأس والتخوف وإذا عولج بحكمة وسداد رأي وإخلاص إذا قامت الحكومة بتحديد خطة معينة وسارت عليها بجد وحزم فإن الصعوبات تجابه وبارقة الأمل في الرسوخ السياسي تزداد نوراً ، وألاحظ أن منهاجاً يقرب مما سأذكره أدناه يكون كافلا لمعالجة المهمة والنجاح وإليك بالاختصار أولا ثم بالتفصيل :

١ — تزييد قوة الجيش عدداً وبشكله الحاضر بحيث يصبح قادراً على إخماد أي قيام مسلح ينشب في آن واحد على الأقل في منطقتين متباعدتين .

٢ — عقب إتمام تشكيل الجيش على هذه الصورة تعلن الخدمة الوطنية .

٣ — وضع التقاليد والشعائر الدينية بين طوائف المسلمين بميزان واحد مهما أمكن واحترام الطوائف الأخرى .

٤ — الإسراع فى تسوية مشكلة الأراضى .

٥ — توسيع المأذونية لمجالس الألوية والبلديات بقصد الإمكان على النموذج القانونى العثمانى .

٦ — الإسراع فى تشكيل مدرسة الموظفين .

٧ — الأعمال النافعة وحماية المنتوجات .

٨ — المعارف .

٩ — تفريق السلطة التشريعية والسلطة الإجرائية .

١٠ — تثبيت ملاك الدولة .

١١ — وضع حد للانتقادات غير المعقولة ضد إجراءات الحكومة فى الصحف والأحزاب .

١٢ — العدل والنظام والإطاعة فى الموظفين والعدل عند قيامهم بوظائفهم .

(١) بدأت بالجيش لأنى أراه العمود الفقرى لتكوين الأمة ولأنى أراه فى الوقت الحاضر أضعف بكثير بالنسبة لعدده وعدده من أن يقوم بالمهمة الملقاة على عاتقه وهى حفظ الأمن والاطمئنان إلى امكانية كفاءته نظراً إلى ما تتطلبه المملكة ونظراً إلى العوامل المختلفة الموجودة والتى يجب أن تجعلنا دائماً متيقظين لوقوع حوادث عصيان مسلح فى كل وقت . انى لا أطلب من الجيش أن يقوم بحفظ الأمن الخارجى فى الحاضر الذى سوف نتطلبه منه بعد إعلان الخدمة العامة أما ما سأطلبه منه الآن هو أن يكون مستعداً لإخماد ثورتين تقعان لا سمح الله فى آن واحد فى منطقتين بعيدتين عن بعضهما ، إننى غير مطمئن إلى أننا بعد ستة أشهر وبعد أن تتخلى بريطانيا عن مسئولياتها فى هذه البلاد نتمكن من الوقوف لوحدنا مادامت القوة الحامية هى غير كافية ، ولا يمكننى أن أوافق على تطبيق الخدمة العامة أو القيام بأى إجراءات أخرى هامة أو محركة أو مهيجة ما لم أكن واثقاً بأن الجيش يتمكن من حماية تنفيذ هذا القانون أو أى اجراءات أخرى . وعليه أرى

من الضروري ابلاغه لحد يتمكن معه من إجابة رغبتي المار ذكرها وذلك بشكله الحاضر . أرى أنه من الجنون القيام بإنشاءات وإصلاحات عظمى فى البلاد قبل أن نطمئن إلى كفاية القوة الحامية لهذه الأعمال . أمامنا حركات برزان فى الربيع القادم ومن الضروري أن أرى بيدنا قوة احتياطية لمجابهة أى طارىء آخر يحدث فى المملكة .

(٢) علينا أن نطمن معنويات اخواننا الشيعة بالكيفية الآتية :

١ — إعطاء التعليمات إلى قاضى بغداد أن يسعى لتوحيد الصيام والإفطار وهذا ممكن وشرعى .

٢ — تعمير العتبات المقدسة حتى يشعروا بأن الحكومة غير مهملة لتلك المقامات التى هى مقدسة لدى الجميع والتى هى كذلك من الآثار التاريخية التى تزين البلاد فعلى الحكومة من كل الوجوه محافظتها من الخراب .

٣ — إن رجال الدين من الشيعة ليس لهم أى ارتباط مع الحكومة وهم فى الوقت الحاضر أجانب عنها خاصة حيث يرون أن رجال الدين السنيين يتمتعون بأموال هم محرومون منها والحسد خاصة فى الطبقة الدينية معلوم ، فعلينا مادمنا غير قادرين على تقسيم الأوقاف فيما بينهم أن نفكر فى إيجاد أوقاف خاصة ، ومن رأيي أن ذلك ممكن بالطريقة التى كنت تشبثت بهـــا غير أن الظروف حالت بيني وبين تحقيقها .

(٣) إن احترام الشعائر العامة غير عسير خاصة فى أيام رمضان والحيلولة دون تفشى الموبقات وإذا تمكنت الحكومة من سد بيوت الخناء لقامت بأكبر عمل يربط العامة بها .

(٤) لم أتكلم عن الضرائب إذ أن قانون ضريبة الاستهلاك قطع قول كل مفسد وإنه لأكبر عمل جرىء ولسوف نقتطف ثمراته إن شاء الله .

(٥) إن مشكلة الأراضى وحلها سيربط الأهالى بالأراضى وهو ذا مساس كبير بالشيوخ ونفوذهم ولا لزوم للاسهاب بمنافعه ويجب الاسراع بتطبيقه على قدر المستطاع ، كما أنه يجب أن لا يحس الشيوخ والأغوات بأن قصد الحكومة محوهم بل بقدر ما تسمح لنا الظروف يجب أن نطمئنهم على معيشتهم ورفاهيتهم .

(٦) أرجو أن تكون قضية المدرسة مطمنة لكل سكان العراق بأنهم سيشتركون فعلا في خدمات الدولة والاشتراك في خيرها وشرها مع أهل بغداد والموصل بصورة متساوية وتزول تهمة (الحكومة السنية أو العربية) كما يقول أصحاب الاغراض من أكراد وشيعة .

(٧) أقول بتحفظ إنه إذا أمكن إعطاء صلاحيات للألوية شبيهة بمجالس الولايات في العهد العثماني فسيكون ذلك من جملة أسباب تشويق سكان الألوية للاشتراك بالحكم .

(٨) لقد تحدثنا كثيراً حول تفريق السلطة التشريعية عن السلطة الإجرائية ويجب عمل ذلك بتعديل القانون الأساسي .

(٩) علينا ألا ندع مجالا للأحزاب المصطنعة والصحف والأشخاص ليقوموا بانتقادات غير معقولة وتشويه الحقائق وتضليل الشعب ، وعلينا أن نعطيهم مجالا للنقد النزيه المعقول وضمن الأدب . ومن يقوم بأمر غير معقول يجب أن يعاقب بصرامة .

(١٠) على موظفي الدولة أن يكونوا آلات مطيعة ونافعة حيث هم واسطة الاجراءات ، ومن يحس منه أنه يتداخل مع الأحزاب المعارضة أو يشوق ضد الدولة ينحى عن عمله وعليه أن يعلم بأنه موظف قبل كل شيء خادم لأي حكومة كانت .

(١١) النافعة أتيت بهذا الاسم الجديد ورجعت إلى التعبير التركي حيث رأيت أنه أشمل للأعمال المختلفة في مرافق الأمة . حسناً عملنا في السنة الماضية بتخصيص مبالغ للأعمال الرئيسية ولا ننكر أن ذلك القانون صدر بصورة مستعجلة على أن يكون قابلا للتحوير والتبديل في بعض مواده عندما نرى ضرورة لذلك وفي اعتقادي أنه من الضروري إعادة النظر في مواده خاصة قسم الأبنية والطرقات .

أقول بكل أسف إن الزراعة أفلست في بلادنا لبعد مملكتنا عن الأسواق لقد وضعنا الملايين لإنشاءات الري ولكن ماذا نريد أن نعمل بالمحاصيل ؟ إننا في الوقت الحاضر عاجزون عن تصريف ما بأيدينا من منتوجات أراضينا فكيف بنا بعد إتمام هذه المشروعات العظيمة ؟ هل القصد تشكيل اهرامات من تلك المحاصيل والتفرج عليها ؟ ماذا تكون فائدتنا منها إذا لم نتمكن من إخراجها إلى

الأسواق الأجنبية واستهلاكها في الداخل على الأقل ؟ ما الفائدة من صرف تلك الملايين قبل أن نهيء لها أسواقاً تستهلكها ونحن مضطرون إلى جلب الكثير من حاجاتنا من الخارج ؟

أعتقد أنه من الضروري إعادة النظر من جديد في موقفنا الاقتصادي ، نرى جيراننـــا الأتراك والإيرانيين باذلين أقصى جهودهم للاستغناء عن المنتوجات الأجنبية ، وكم هي العقبات التي وضعوها لمنع دخول الأموال الأجنبية إلى بلادهم وكيف لا يبالون بصرف الأموال الطائلة لإنشاء المعامل لسد حاجاتهم .

علينا أن نقلع عن السياسة الخاطئة التي أتتنا عن سبيل تقليد الأمم المتشبثة وعلينا أن نعـاون المتشبثين من أبنـاء الوطن بصورة فعـالة ، وعلينا أن نعطي الانحصارات لأبنـاء البلاد إلى مدد معينة الذين فيهم روح التشبث وإذا لم يظهر طالب أو راغب لإنشاء عمل صناعي ترى الحكومة أنه مربح فعليها أن تقوم هي به من مالها الخاص أو بالاشتراك مع رءوس أموال وطنية إذا أمكن وإلا فأجنبية أو كلاهما معاً . على الحكومة أن تشكل دائرة خاصة لدرس جميع المشاريع الصناعية على اختلاف أنواعها كبيرة كانت أو صغيرة وتبدأ ببنـاء الأهم فالمهم وترشد الأهلين إلى كيفية التشبث بالأعمال الصغرى وتقوم هي بالأعمال الكبرى إذا تعذر القيام بهـا من قبل الأهالي . إنه لمن المخزي والمضحك والمبكي معاً أن تقوم بتشييد أبنية ضخمة بمصاريف باهظة وطرق معبدة بملايين الروبيات ولا ننسى الاختلاسات وتصرف أموال هذه الأمة المسكينة التي لم تشاهد معملا يصنع لها شيئاً من حاجاتها . وإني أحب أن أرى معملا لنسيج القطن بدلا من دار حكومة ، وأود أن أرى معملا للزجاج بدلا من قصر ملكي ،

بهذه الصراحة في تشخيص الداء ووضع الدواء ، وبهذه الروح الواثقة من نفسها بدأ جلالة الملك فيصل الأول يعمل ويطلب من رجال العراق أن يشدوا أزره لبناء مملكة فتية يغمرها علم صحيح وثروة مستغلة وصحة منتشرة وشعور موحد وإجماع على حب البلاد ونظام الحكم وإطاعة مقرونة بالحرية والعدل الشامل ، ولكن الزمن لم يمهله حتى يقتطف ثمرة جهاده المر الذي قاسى فيه ما قاسى ، فقد كان فيصل زعيم شعب وقائد حركة تهدف إلى إيجـاد أمة . ولو أمهله الأجل لرأيت للعراق صفحة في التاريخ مشرقة الجوانب حافلة بالإبداع والتكوين ، وافاه الأجل المحتوم

فى يوم الجمعة فى الثامن من شهر أيلول لعام ١٩٣٣ أى بزمن لم يمض منه على دخول العراق عصبة الأمم عامان كاملان ، فكانت وفاته نكبة قاصمة شديدة الأثر على الأمانى الوطنية . بكته البلاد بدمع غزير وفقدت به سياسياً محنكا أكسبته التجارب خبرة وعلته الحوادث كيف يخلص من المشكلات وكيف يحل عقد الأمور إذا عضلت وكان فوق قوته فى السياسة ودهائه يتمتع بجاذبية قلما وجدت فى شخص من أمثاله .
و لقد أفاضت الصحف العربية والأجنبية فى تعداد مزاياه ، ومما قالت فى ذلك جريدة الديلى هيرالد بعد أن أفاضت بوصف سيرته « ولكن فيصلا لعب فى بغداد لعبة صبر ومشقة فى ظروف خارقة الصعوبة ، فهو لم يتخاصم يوما ما مع البريطانيين ومع هذا فانه استطاع رويداً رويداً أن ينال ثقة العراقيين » . وقال عنه السير هنرى دوبس فى خطاب ألقـــاه فى الجمعية الامبراطورية الملكية : « وفى جميع تلك الكفاحات جعل الملك فيصل نفسه فى طليعة الحركة الشعبية فكان دائماً هو حامل العلم وكان دائماً هو الذى يعود حاملا بيديه امتيازات جديدة أحرزهـا بفضل سياسته الخاصة أولا وبالذات » . أجل كان موته خسارة للعراق ، وقد تعرضت البلاد بعد موته لنكبات ما كانت تحدث لو كان على قيد الحياة . وبعد وفاة جلالة الملك فيصل اعتلى العرش ولى العهد غازى الأول نجل الملك فيصل الأول فى اليوم الثامن من شهر أيلول لعام ١٩٣٣ .

تجارب الحكم الوطنى

حوادث وتطور

حدثت أحداث تركت أثراً عميقاً فى البلاد استدعى تأخراً عظيما فى التقدم الذى كانت الأمة ترجوه ومن أهم ذلك :

١ — تمرد الآثوريين ورغبتهم فى تكوين حكم مستقل

حدث هذا التمرد فى صيف ١٩٣٣ حين كان العراق ملزماً أن يبر بوعده لعصبة الأمم من حيث رعاية مصالح الأقليات وحفظها . كان معظم هذه الزمرة وافداً من تركيا إلى العراق منذ نهاية الحرب العالمية الأولى . ولما أرادوا الرجوع إلى بلادهم امتنعت تركيا عن قبولهم بل استثنتهم من العفو العام وهددتهم بالعقوبة إذا حاول أحدهم الرجوع . وبتوصية من الحكومة المنتدبة قبلت الحكومة العراقية إيواءهم مع الإعتراف بزعيمهم المارشمعون رئيساً روحانياً لطائفتهم وخصصت له راتباً شهرياً قدره ثلاثة آلاف روبية وقدمت لأفراد الطائفة مساعدة مالية رغبة فى اغرائهم على العمل الزراعى وحباً بتسهيل إسكانهم . وقد كتب وزير الداخلية إلى هذا الرئيس كتاباً رسمياً جاء فيه : « ولادامة مقامكم الروحانى على الوجه المناسب تبحث الحكومة العراقية فى الوقت الحاضر فى كيفية إيجاد مورد لمساعدتكم بصورة مستديمة وليس فى نيتها تقليل المخصصات الشهرية التى تدفع لكم الآن إلى أن يحين الوقت الذى يصبح فيه لكم إيراداً كافيا من منابع أخرى » . وقد وافقت الحكومة العراقية أيضا على تعيين الكابتن فايكر البريطانى ضابطا للاسكان ، وفعلا قام هذا الضابط بإسكان الكثيرين منهم فهو يسكن ويرحل ويوزع كما يشاء ويرغب ، ولكن هذه الزمرة أنكرت جميل العراق فأظهرت تمردها بمراجعة الجهة البريطانية فى كل ما يعود إليها ولم تعترف بالحكومة العراقية . وعند ما أعلنت الحكومة البريطانية عزمها على ترشيح العراق للدخول فى عصبة الأمم أبدى الآثوريون جزعهم لهذه الظاهرة ، واشتد هذا الجزع حينما نشرت المعاهدة العراقية البريطانية المنعقدة فى ٣٠ حزيران من عام ١٩٣٢ ولم يجدوا فيها أية اشارة لقضيتهم

لقضيتهم كما يزعمون. وكانت بوادر التمرد قدظهرت مرتين بصورة مسلحة وإجرامية. فأول حادث وقع فى مدينة الموصل فى اليوم الخامس عشر من شهر آب لعام ١٩٢٣ حيث وقع نزاع بين البائع والآثوريين فى السوق أدى إلى شج رأس أحدهم فانتصر له المارون من الآثوريين واشتبك أهل المدينة معهم، فأدى الاشتباك إلى وقوع ١٨ إصابة بين قتيل وجريح ، ولو لم تسارع الحكومة البريطانية فى نقلهم إلى كركوك لحدثت مجزرة كبرى. والحادث الثانى وقع فى كركوك بتاريخ ٤ مارس من عام ١٩٢٤ حين وقع نزاع فى سوق مدينة كركوك بين جنديين من الآثوريين المنضمين للقوات البريطانية والبائع على تقدير السعر وعلى أثر هذا النزاع عاد فريق من الجنود الآثوريين مدججين بالسلاح وأقاموا فى السوق مجزرة بشرية بلغ عدد القتلى فيها (٥٦) والجرحى ٤٤ توفى بعضهم من أثر جراحه .

كانت الحكومة البريطانية تستخدم شباب هـــذه الطائفة الأقوياء جنوداً وتضيفهم إلى قوتها المسلحة فى العراق حتى أصبح منهم جيش مدرب مزود بالأسلحة الحديثة ، ويدعى هذا الجيش بكلمة ليفى Levy . وكان الجندى منهم إذا أنهى خدمته عاد إلى أهله يحمل معه بندقية وعتادها للدفاع عن نفسه عند الحاجة ضد الأكراد (كما يزعمون) حتى بلغ عدد هؤلاء ما يزيد على عشرة آلاف مدرب تدريبا ممتازاً وكانت هذه الطائفة تشعر بشعور عدائى ضد العراقيين ، وكان مظهرهم المختال يزعج المسلمين أشد الإزعاج ، وكان موقف رئيسهم المارشمعون يزيد مشكلتهم تعقيداً فكان هذا الرجل يريد أن يكون ذا سلطة زمنية بل يريد استقلالا ذاتيا لطائفته وكان يعارض فى تفريق أفراد هذه الطائفة على القرى والأرياف ويطلب إسكانهم فى بقعة واحدة لتحقيق مآربه ، وبالرغم من مواقف هذا الرجل فإن فريقا من هذه الطائفة كان مواليا وراضيا . وقد عزم فريق منهم على النزوح إلى سوريا باغراء أحد زعمائهم المسمى إسماعيل ياقو بأن الفرنسيين سوف يسهلون لهم قضية الإسكان بشروط حسنة ، فنزح منهم ما يقرب من ألف رجل وتركوا أولادهم وعوائلهم فى العراق . ولكنهم لم يجدوا فى سوريا مثلما وجدوه فى العراق فعادوا إلى العراق مدججين بالسلاح وأرادوا الدخول عنوة . وتقدمت منهم جماعة فأبادت الحامية العراقية فى مخفر من مخافر الشرطة الذى يقع فى فيشخابور . وبذلك أخذت حركة المارشمعون صبغة عسكرية ثورية كانت تنذر بخطر شديد . ولو لم يصمد لها الجيش العراقى المرابط فى تلك المنطقة لكانت عاقبتها وخيمة فقد وضع لها القائد بكر

صدق خططاً محكمة ووقعت الواقعة بين الجيشين أظهر فيها الجيش العراقى مقدرة وبسالة ممتازة وانهزم الآثوريون هزيمة منكرة . وقد أعلن وزير الداخلية بياناً ذكر فيه أن أربعمائة من هؤلاء قد أبيدوا على يد العشائر . وهكذا كان هذا الحادث امتحاناً صعباً لقوة الجيش العراقى الحديث ومحنة للحكم الوطنى الجديد الذى كاد يبتلى بهذه الظاهرة على يد هؤلاء الضيوف الذين أحسن العراق مأواهم ومثواهم والذين أرادوا أن يشكلوا حكومة مستقلة ضمن حدود المملكة العراقية . وقد حدث هذا الحادث دفاعا عن النفس وبدون علم من بريطانيا ، فهو حادث لخانق فوجىء به الجيش العراقى وأريد به أن يؤخذ على حين غفلة ، ولذلك قامت الصحف البريطانية وقعدت وعبأ دعاة الآثوريين تعبئة قوية تعكر فيها الجو الدولى ضد العراق وعد هذا العمل خروجا على التعهد الذى أخذه العراق على نفسه تجاه الأقليات . أما العراق فقد عده من الأمور الداخلية وأنه تمرد وعصيان لم تجد الحكومة بداً من إيقافه عند حده ولو لم تفعل ذلك لعمت البلاد فوضى ولترك هؤلاء أن يعيثوا فى الأرض فسادا .

٢ — إقحام العشائر والجيش فى السياسة

خلف الملك فيصل الأول حالة البلاد كما وصفها بمذكرته التى أثبتناها فى مقدمة هذا الفصل . واعتلى جلالة الملك غازى الأول عرش العراق والبلد حديث العهد فى تجربة الحكم الوطنى . والملك الشاب يتدفق حيوية ونشاطا يريد أن يسير بالبلاد على سيرة أبيه ، ولكن لم يمض عام على توليه الحكم حتى أخذ رجال السياسة ورؤساء الأحزاب يتسابقون على السلطة ويود كل واحد منهم أن يكون تقدم البلاد على يديه . ولم يخل هذا التسابق من أنانية وتحقيق مآرب شخصية ورغبة فى الاستئثار بالسلطة لنفسه دون غيره . وتكاد تكون آراء الأحزاب على اختلاف أنواعها متفقة فى تهيئة البلاد للاستقلال التام وتخليصها من الأعداء الثلاثة الجهل والفقر والمرض وتقدمها فى ميادين الصناعة والزراعة . وكان للملك فيصل اليد الأولى فى توجيه هذه الأحزاب والاستفادة منها . وقد أحدثت وفاته فراغا لا يسد فى هذه الناحية . وعلى ذلك أخذت هذه الأحزاب تسعى إلى الحكم . وكان أخطر ما فى هذا التزاحم إقحام العشائر فى السياسة واستغلال قواها لأخذ زمام السلطة ، فقد استغل حزب الإخاء الوطنى تذمر العشائر فى الجنوب لحرص حد

أعضاء حزبه السيد عبد الواحد الحاج سكر من شيوخ القبائل للخروج على الحكم وقد وجد هذا الشيخ في الاجابة على ذلك الاستفادة من ناحيتين معونته لحزبه واحتجاجه على الحكومة التي لم تهتم بدعواه في نزاع حول أراض يدعيها . وتوسع في خروجه إلى هدف ثالث حيث انضم إليه آخرون وعقدوا مؤتمراً في النجف بتاريخ ١١ كانون الثاني لعام ١٩٣٥ سمي مؤتمر الشيعة ، طالب فيه المؤتمرون إنصاف الشيعة وإقالة الوزارة وحل البرلمان ، واشتدت الحركة بالفرات الأوسط مما اضطر وزارة علي جودت الأيوبي إلى الاستقالة . وطلب الملك من حزب الإخاء تأليف الوزارة فاشترط الحزب حل البرلمان فلم يجبهم الملك ، وبذلك تألفت الوزارة برياسة جميل المدفعي ، ولم تصمد هذه الوزارة أكثر من ثلاثة عشر يوما حيث اشتدت المقاومة واتسع نطاقها واستمر فريق الأعيان بمقاطعة مجلسهم وكانوا أحد عشر عينا من مجموع عشرين . فاستقالت الوزارة حيث لم يقبل الجيش الاشتراك في قمع الحركة لأن رئيس أركان الجيش طه الهاشمي لم يكن ميالا لقمع الثورة بالقوة وهو أخ ياسين الهاشمي رئيس حزب الأخاء الوطني ، كما أن القائد بكر صدقي الضابط البارز حينذاك كان صديقا لحكمت سليمان الذي هو أحد المدبرين لهذه الحركة وبذلك استطاع الثائرون ارغام الوزارة على الاستقالة ، ولم يجد الملك بداً من إسنادها إلى رئيس حزب الأخاء ياسين الهاشمي فقبلها وألفها ، وفي تأليف الوزارة هدأت حركة الشيخ عبد الواحد الحاج سكر لجاء هذا مع حاشيته مدججين بالسلاح ودخلوا العاصمة ونزلوا ضيوفا على أصدقائهم من أعضاء الحكومة ، ولكن هيجان العشائر في جهات أخرى لم ينقطع ، واستمرت الحركة في الرميثة وسوق الشيوخ والمنتفك فتقدم الجيش وقمعها وسيطر على الموقف بعد معارك دامية ، كما تولى قمع حركات بارزان وحركة الزيدية في الشمال ، وبذلك فتحت صفحة جديدة في السيطرة على الحكم حيث أقحم الجيش في تأييد الحكومة ولمآرب حزبية .

وكان هذا الاقحام فاتحة للانقلاب العسكري الأول المعروف بانقلاب بكر صدقي . ويعزى هذا الانقلاب إلى ما تم من اتفاق بين حكمت سليمان وبين بكر صدقي للاستيلاء على السلطة . وقد كان حكمت من الأعضاء البارزين في حزب الأخاء ولما تشكلت الوزارة الإخائية التي مر ذكرها آنفاً ظل السيد حكمت بعيداً عن الحكم . زد على ذلك ما رافق الوزارة من دعاية ضد أعمالها .

كان من المقرر أن يقوم الجيش بمناورات واسعة النطاق ما بين بغداد وخانقين

وكان رئيس أركان الجيش طه الهاشمي في أجازته وكان بكر صدقي وكيلا عنه. فاغتنم الوكيل هذه الفرصة وأسر إلى قائد الفرقة الأولى عبد اللطيف نوري بالأمر فأحكم القائدان الخطة وكتبا كتاباً وقعاه معا ووجهاه إلى جلالة الملك يرجوان فيه أن يقيل الوزارة خلال ثلاث ساعات ويبديان استعداد الجيش في ارغامها على الاستقالة ويدعيان في رسالتهما سوء السياسة التي تتبعها الوزارة من حيث المحاباة والاستغلال والإسراف في أموال الدولة وما إلى ذلك. وظهرت طائرات القوة الجوية الملكية العراقية في سماء بغداد في الساعة الثامنة والنصف وألقت منشوراتها على الأهلين تطلب منهم أن يخلدوا إلى السكينة وتجلو لهم الحالة. ثم بعد فترة ألقت ربع قنابل وقعت بالقرب من دوائر الحكومة، وكان القائدان أرسلا الكتاب إلى جلالة الملك بيد من يعتمدون عليه ليسلمه إلى حكمت سليمان كي يقدمه إلى جلالة الملك. وحين لاحت الطائرات في الأفق توجه السيد حكمت إلى البلاط وسلم الرسالة إلى رئيس الديوان الملكي مؤكداً عليه أن يقدمها إلى الملك. وعلى أثر سقوط القنابل واطلاع الحكومة على مضمون الرسالة قدم رئيس الوزراء استقالته التي جاء في نصها:

« مولاي المعظم. تعلمون جلالتكم أن الوزارة سعت بكل قواها لتأييد النظام في البلاد والأخذ بجميع وسائل التقدم لإيصال المملكة إلى المستوى الذي يساعدها على القيام بالأعمال المنتظرة بالنسبة للظروف العالمية، إلا أنه ظهر أن قلة التجربة وبعض الأطماع قد طوحت بالمسئولين عن الدفاع عن هذه البلاد أن يقدموا على حركة أعتقد أنها تؤدي إلى نتائج غير محمودة. وبعد أن بحثت أنا وزملائي في الموقف تراءى لي أن الرغبة متجهة نحو اجتناب تعريض البلاد إلى خطر القلاقل الداخلية سارعت بالتقدم إلى جلالتكم بقبول استقالتي من أعباء الوزارة . . .

التوقيع: العبد المطيع ياسين الهاشمي

وقد قبل صاحب الجلالة استقالة الوزارة وأبدى أسفه الشديد على قبولها ذاكرا الجهود الطيبة التي بذلتها الوزارة. وكتب جلالة الملك رسالة شخصية إلى القائد بكر صدقي وكلف حملها وزير الدفاع في الوزارة المستقيلة السيد جعفر العسكري وقد جاء فيها:

عزيزى بكر صدقى !

تقـدون هذا الـكتاب من الســيد جعفر العسكرى الذى سيلاقيكم بصورة خصوصية لأجل بحث الموقف ، لقد بلغنى الآن أن بعض الطائرات ألقت ثلاث قنابر فاستغربت جداً لهذا الحادث الجديد بعد أن سبق لى أن أخبرتـكم تلفونياً بلزوم إيقاف كل حركة بينما أتدبر الوضع الحاضر ، إن كل حركة أخرى سوف لا تخلو من أن تؤثر أسوأ الأثر فى مستقبل البلاد وسمعة الجيش إذ ليس من حاجة اليه لشىء من ذلك . وسوف تفهمون التفاصيل من جعفر .

التوقيع : القائد العام (غازى)

فلما التقى جعفر العسكرى ... مة الجيش لم يمهل فقتل . وكان فى نية الثائرين القضاء على ياسين الهاشمى و نورى السعيد ورشيد عالى الـكيلانى ، غير أنهم عدلوا عن ذلك بتأثير من رئيس الوزراء السيد حكمت وموافقة لرغبة السفارة البريطانية التى استنكرت هذا الاتجاه واكتفى الجيش بإبعادهم عن البلاد ، ولـكن الحركة هذه لم تدم طويلا وقد تنبأ لها ياسين فى كتاب الاستقالة حيث وصفها بقلة التجربة وبعض الأطماع والنتائج غير المحموده وهكذا كان ، فقد اتجهت الحركة اتجاها ألب عليها البلاد ووضعت الخطط المحـكمة للقضاء على بكر صدقى وكان يعلم ذلك ويحتاط ولـكن لم ينفعه الحذر فقد انتهز المتآمرون فرصة ذهابه إلى تركيا فتقدم إليه جندى فى يوم ١١ آب ١٩٣٧ وهو جالس مع آمر القوة الجوية وأطلق عليه طلقتين من مسدسه أردته قتيلا فلما هم آمر القوة أن يمسك الجندى تلقى طلقة ألحقته بصاحبه ، ويعتبر هذا الحادث انقلاباً عسكرياً آخر حيث تم الاتفاق بين قائد الجيش فى الموصل السيد محمد أمين العمرى وبين المتآمرين على عدم تسليم المتهمين لمحاكمتهم فى بغداد ، وأعلن القائد خروجه على الحـكومة فى ١٤ آب . وقد حاولت وزارة حكمت سليمان أن تحل المشكلة فلم توفق إذ وجدت الجيش ضدها فاقدمت على الاستقالة فى يوم ١٧ آب ١٩٣٧ . وفى اليوم نفسه كلف جلالة الملك السيد جميل المدفعى بتأليف الوزارة فأراد أن يسدل الستار على الماضى ، لـكن المعارضة قاومته وعلى رأسهم السيد رشيد عالى الـكيلانى . وقد جاء فى كلامه فى المجلس النيابى: « إن السكوت على الجرائم السياسية لا يتلاءم مع سلامة الدولة » . فأجابه رئيس الوزارة إجابة تشير إلى ما قام به السيد الـكيلانى وصحبه فى إقحام العشائر فى السياسة أيضاً . « ومهما يكن من شىء فان إقحام الجيش والعشائر فى سياسة الدولة مفسدة

ما بعدها مصسة وقد ظهرت نتائجها فى مثل هذه الحركات التى أضعفت قوى الدولة وبددت أموالها فى أمور كانت هى فى غنى عنها وظلت تقع من وراء ذلك فى ورطات واحدة بعد الأخرى وكان من أشدها خطراً قيام فريق من ضباط الجيش فى يوم ٢٤ كانون الأول ١٩٣٨ على إقالة الحكومة ولما علم رئيس الوزراء بالأمر أذعن وقدم استقالته حقناً للدماء. وتألفت الوزارة برياسة نورى السعيد وكان أصحاب الانقلاب حصروا تأليفها به وبطه الهاشمى . فكلف جلالة الملك السيد نورى السعيد بتأليفها .

وفاة جلالة الملك غازى الأول

وفى يوم ٤ نيسان من عام ١٩٣٩ فوجىء العراق ببيان مجلس الوزراء ينعى جلالة الملك غازى الأول وقد جاء فى هذا البيان :

بمزيد الحزن والألم ينعى مجلس الوزراء إلى الأمة العراقية انتقال المغفور له سيد شباب البلاد جلالة الملك غازى الأول إلى جوار ربه على إثر اصطدام السيارة التى كان يقودها بنفسه بالعمود الكهربائى الواقع فى منحدر قنطرة النهر بالقرب من قصر الحارثية فى الساعة الحادية عشرة والنصف من ليلة أمس . . . الخ

وقد اضطربت بغداد لهذا الحادث الجلل وانتشرت الاشاعات القائلة بأن للانجليز يداً فى ذلك وعمت الاشاعة البلاد فتجمهر الناس فى مدينة الموصل وقتلوا القنصل الانجليزى انتقاما وكسروا نوافذ القنصلية وأعلنت الأحكام العرفية فى مدينة الموصل وما جاورها من المناطق التابعة لها . والتأم مجلس الوزراء فى قصر الزهور واتخذ قراراً بما يأتى :

١ — إعلان سمو الأمير ولى العهد فيصل ملكا على العراق باسم صاحب الجلالة الملك فيصل الثانى وفقا لمنطوق المادة ٢٠ من القانون الأساسى .

٢ — تسمية الأمير عبد الاله وصياً على جلالة الملك بالنظر إلى عدم بلوغه السن القانونية ونزولا عند وصية جلالة المغفور له غازى الأول المستندة إلى افادتى صاحبة الجلالة الملكة وسمو الأميرة راجحة شقيقة جلالته أمام مجلس الوزراء .

٣ — دعوة مجلس النواب المنحل تمهيداً لاجتماع مجلس الأمة للبت فى أمر الوصاية نهائياً وفقاً للفقرة (٢) من المادة (٢٢) من القانون الأساسى .

٤ — إعلان الحداد العام فى المملكة .

وعلى أثر ذلك استقالت الوزارة طبقاً للتقاليد الدستورية فعهد سمو الوصى إلى نورى السعيد أن يقوم بتشكيلها تارة أخرى فاعادها كما هى :

العراق والحرب العالمية الثانية

وفى ٣ أيلول من عام ١٩٣٩ أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا . وفى ٥ منه قررت الحكومة قطع العلاقات السياسية بين العراق وألمانيا ملتزمة بما تقتضيه معاهدة التحالف بين العراق وبريطانيا لعام ١٩٣٠ ، وأرسل سمو الوصى برقية بهذا الالتزام إلى جلالة الملك جورج ملك بريطانيا العظمى جاء فيها ما يلى :—

يدفعنى واجب الصداقة وشرف الوفاء بالعهد إلى الإعراب لجلالتكم عن تمسكنا حكومة وشعباً بمعاهدة التحالف المعقودة بيننا روحاً ونصاً وعن عزمنا الراسخ على بذل كل ما فى وسعنا لنسير بعين الروح مع حليفتنا العظمى حتى ينتصر الحق والعدل وتسود المبادىء السامية التى دخلتم الحرب من أجل الدفاع عنه

تدخل الجيش مرة اخرى فى السياسة

حدث فى ١٨ كانون الثانى من عام ١٩٤٠ أن اغتيل وزير المالية السيد رستم حيدر بيد أحد مفوضى الشرطة ، واعترف القاتل بأنه أقدم على ذلك بدافع من نفسه ولاشريك له فى الأمر . ثم مالبث أن غير رأيه واتهم معه فريقاً من رجالات البلد فتباينت آراء أعضاء الوزارة بشأن محاكمتهم . وكان نتيجة هذا التباين أن قدم رئيس الوزراء السيد نورى السعيد استقالته فى ١٨ شباط عام ١٩٤٠ . وقد جاء فى هذه الاستقالة ما يلقى ضوءاً على تدخل الجيش فى السياسة أوضحه الرئيس بكتاب الاستقالة إلى جلالة الملك نقتطف منه ما يلى :—

« إن الأدوار التى اجتازتها البلاد فى السنوات الأخيرة قد أطمعت فى الوصول إلى الحكم بعض أشخاص من المغامرين الذين لا تتوفر فيهم المزايا التى تؤهلهم لذلك ولا يقدرون العواقب ، وقد انفسح المجال أمام بعض هؤلاء الأشخاص — مع الأسف — فتولوا زمام الحكم فى غفلة من الزمن عن طريق التآمر والخروج على القانون . ولكن الحوادث لم تلبث أن كشفت عن حقيقتهم فتعثروا

بنتائج ما كان ينقصهم من صدق الوطنية ومشهود الكفاية وواسع التجربة وغيرها واجترفهم سيل مساوئهم بعد أن عرضوا البلاد لأعظم الأخطار وحرموا نخبة من خيرة رجالها الذين كان لهم الفضل الكبير فى تأسيس كيان المملكة . ولما تحررت البلاد من كابوس حكمهم ارتأى بعض المسئولين أن يسيروا ازاءهم على سياسة اسدال الستار . . . ولكنه لم يلبث أن اتضح خطأ هذه السياسة ، ثم بين الرئيس استنكار سياسة إسدال الستار التى شجعت على مجابهة البلاد بجريمة اغتيال وزير المالية ، وأبان رغبة الرأى العام فى اتجاه الحكومة إلى الإصلاح والتقدم وحفظ الأمن والوصول بالمملكة إلى ساحل السلامة فى هذه الظروف العصيبة ، وقال بما أنه يشعر بالمسئولية أمام مثل هذه المطالب كرئيس دولة وبما أن الظروف لا تساعده على ذلك فهو يفسح المجال لغيره لعل رغبات الأمة تتحقق على يديه . ويرجو قبول استقالته فقبل سمو الوصى الاستقالة وطلب من رئيس الوزراء أن يستمر ريثما تتم الترتيبات اللازمة لتشكيل الوزارة الجديدة . وفى هذه المرة تدخل الجيش تدخلا سافراً إذ ذهب رئيس أركان الجيش وطلب من رئيس الديوان الملكى تشكيل الوزارة الجديدة بشرط ألا تسند إلى أحد اثنين السيد نورى السعيد والسيد طه الهاشمى . وكان المتآمرون سبعة ثلاثة منهم وهم السيد حسين فوزى رئيس الأركان والسيد أمين العمرى والسيد عزيز ياملكى لا يرضون بدخول أحد الاثنين اللذين مر ذكرهما ، والأربعة الآخرون وهم العقداء السيد صلاح الدين الصباغ والسيد محمود سلمان والسيد فهمى السعيد والسيد كامل شبيبه كانوا يرون غير هذا الرأى فانقسموا على أنفسهم . وكادت البلاد تقع فى حرب أهلية كما يقال ، ولكن تدخل الوصى أدى إلى تهدئة الحالة . وفى اليوم الحادى والعشرين من شهر شباط صدرت الإرادة الملكية بإحالة رئيس أركان الجيش حسين فوزى وأمير اللواء السيد أمين العمرى والعقيد عزيز ياملكى على التقاعد . وفى اليوم الثانى والعشرين منه عهد إلى السيد نورى السعيد مرة ثانية بإعادة تشكيل الوزارة ولكنها لم تلبث أكثر من أربعين يوماً حتى اضطرت إلى الاستقالة فى يوم ٣١ مارس من عام ١٩٤٠ .

حركة رشيد عالى الكيلانى

عهد سمو الوصى إلى السيد رشيد عالى الكيلانى بتشكيل الوزارة بعد استقالة السيد نورى السعيد ، وتم هذا التشكيل فى يوم ٣١ مارس من عام ١٩٤٠ ، واستقبلت هذه الوزارة أحداث الحرب العالمية الثانية حيث التطاحن فى ميادين القتال وعلى موجات الأثير ، واختلاف الآراء بين موالاة دول المحور أو الاتجاه إلى دول الحلفاء .

إن بيننا وبين بريطانيا معاهدة حلف . وإن وزير الخارجية فى هذه الوزارة السيد نورى السعيد يرى التمسك بنصوصها بينما كان وزير العدلية السيد ناجى شوكت يرى أن يبقى الباب مفتوحاً للاستفادة من دول المحور فى شئون القضايا الوطنية . أما رئيس الوزراء السيد رشيد عالى الكيلانى فقد كان ميالا إلى التعلق بالمعاهدة أيضاً . ولكنه ما لبث أن وقع تحت تأثير الضباط الأربعة فى الجيش وغيرهم ممن يحدون فى الأمر فرصة للتخلص من بريطانيا . ولما تأزم الوضع بين الوزراء استقال وزير العدلية . وفى يوم ٢٨ صدرت الإرادة الملكية بإسناد منصب وزارة العدلية إلى محمود الشيخ على ومنصب وزارة الاقتصاد إلى يونس السبعاوى فلم يكن فى هذا التدبير حل للأزمة وقرر الوزراء استقالة الوزارة فلم يرض رئيس الوزراء متأثراً على ما يظهر بضغط عقداء الجيش الأربعة الذين يرون بقاءه فى الحكم . وفى يوم ٣٠ من هذا الشهر حدث هياج فى مجلس النواب ومعارضة شديده فى أمر استقالة الوزارة وقبولها وتعيين آخرين ، أخطر رئيس الوزارة أن يكتب إرادة ملكية يطلب فيها من سمو الوصى حل المجلس النيابى ، فلما عرضها على سموه ليوقعها تريث سموه فى الأمر فألح عليه رئيس الوزارة فما كان من سمو الوصى إلا أن ترك العاصمة إلى الديوانية لكى يصبح بعيداً عن الإحراج . عند ذلك أبرق السيد رشيد الكيلانى يطلب من سموه قبول استقالته فى ٣١ كانون الثانى من عام ١٩٤١ . وقد جاء فى برقية الاستقالة ما يأتى :

سيدى :

لقد حاولت أن أسير بالبلاد نحو المثل العليا منتهجاً سياسة تتفق ومصلحتها العامة ولم أشك فى أن سموكم يرغب فى إزالة العقبات التى تعترض طريق المخلصين

غير أن الأيدى والمصالح الأجنبية التى لا يروقها أن تسود الثقة المتبادلة بين سموكم وبين حكومة اعتزمت المضى فى خدمة البلاد بصدق وإخلاص وفق خطتها المرسومة حملت سموكم على عدم الارتياح منها . قد ظهر ذلك فى ترك سموكم البلاط الملكى واعتكافكم فى قصركم العامر الأمر الذى أثر على حرية سير الوزارة فى أعمالها ثم استمر عدم ارتياح سموكم فى ابتعادكم عن عاصمة المملكة وإيقاف الإرادات المعروضة على سموكم سيما الإرادة المتعلقة بحل مجلس النواب إذ أن الوزارة التى أخذت على عاتقها تحمل مسئولية البلاد وإدارة شئونها فى هذه الظروف العصيبة رأت ضرورة استفتاء الرأى العام عن خطتها السياسية لتأمين تعاون أوثق بين السلطتين التشريعية والتنفيذية بما تقتضيه الظروف الحاضرة ، وعليه فانى اعتذر عن الاستمرار فى تحمل المسئولية راجياً من سموكم قبول استقالتى من رئاسة الوزارة والله أسأل أن يمدكم بتوفيقه ،

فقبل سمو الوصى الاستقالة ، واستدعى فريقاً من ساسة البلد بينهم أعضاء الوزارة المستقيلة أن يوافوه فى الديوانية . وبعد المداولة عهد بالوزارة إلى السيد طه الهاشمى فقبلها وطلب من سمو الوصى أن يعفو عن العقداء الأربعة لتعهدهم بعدم التدخل فى السياسة . ولكن الأمر لم يلبث إلا قليلا حتى بدأ التدخل وتآمر الضباط ومعهم وكيل رئيس أركان الجيش السيد أمين زكى بإعادة رشيد الكيلانى إلى الحكم ، فاضطر طه الهاشمى على الاستقالة . وفى صباح اليوم الثانى تخلص سمو الوصى سراً بمساعدة المفوضية الأمريكية حيث انتقل إلى الحبانية ومنها طار إلى البصرة ثم توجه إلى عمان فالتحق به السيد نورى السعيد وجميل المدفعى وعلى جودت الأيوبى . وعلى أثر ذلك استولى الجيش على المرافق العامة وقامت فى البلاد حكومة موقتة سميت « حكومة الدفاع الوطنى » . وفى اليوم العاشر من نيسان اجتمع مجلس النواب بناء على دعوة رئيس المجلس فكان الحاضرون أربعاً وتسعين نائباً والغائبون أربعة عشر عضواً ، فاقترح السيد رشيد على المجلس تنصيب الشريف شرف (أحد أفراد العائلة المالكة) وصياً على العرش بدلا من الوصى الشرعى سمو الأمير عبد الآله ، فوافق الحاضرون على الاقتراح بالإجماع . وأقسم الوصى الجديد اليمين المطلوبة ، ثم قبل استقالة طه الهاشمى وعهد بتأليف الوزارة إلى رشيد عالى الكيلانى لتأليفها وبذلك انتهى أجل حكومة الدفاع الوطنى .

ويظهر أن الحكومة البريطانية لم تكن راضية على هذا الوضع الجديد الذى

لم تأمل فيه ضمان مصالحها فأخذت تتماهل بالاعتراف به ،غير أن الوزارة الجديدة تمتعت بمؤازرة لا يستهان بها من قبل الأمة لما كان يؤمل على يديها من احراز الاستقلال التام للبلاد والخطوات السريعة لتحقيق الوحده العربية .وبدأ الاختلاف بين الجهتين العراقية والبريطانية حول تطبيق نصوص المعاهدة التى تخول بريطانيا حق استعمال الموانىء وطرق المواصلات وخـــزن الذخائر والمؤن والتجهيزات. فكانت وجهة النظر العراقيه عدم السماح بانزال قوات جديدة إلا بعد أن تترك الأراضى العراقية القوات التى نزلت قبلا فلم توافق الجهات البريطانية على ذلك . ولما أخطر السفير البريطانى الحكومة العراقية بنزول قوات أخرى دون أن تتحرك التى قبلها تحرك الجيش العراقى من معسكر الرشيد إلى المطار البريطانى فى الحبانية واستولى على المواقع المشرفة عليه . وفى اليوم الأول من شهر مايس أنذرت القوات العراقية القيادة البريطانية بالتوقف عن الطيران وإلا فسوف تطلق النار على الطائرات المخالفة ، فرفضت القيادة البريطانية هذا الانذار ووجهت إنذاراً إلى القوات العراقية بلزوم الانسحاب من هذه المواقع . ولما لم يترك الجيش العراقى مكانه أخذت الطائرات البريطانيـــة تقصف مواقعه ، وكان ذلك فى تمام الساعة الخامسة من اليوم الثانى من شهر مايس لعام ١٩٤١ .وهكذا اشتعلت نار الحرب بين العراق وبريطانيا ودامت أربعة أسابيع . وكان أمل الحكومة العراقية معلقاً على مساعدة المحور ، ولكن دول المحور لم تكن مستعدة لمثل هذه المساعدة فى ذلك الوقت . وفى بضعة أيام استطاع الجيش البريطانى أن يفك الحصار عن نفسه وانسحب الجيش العراقى إلى مدينة الفلوجه التى تداولتها الأيدى . ومن ثم انسحب إلى بغداد للدفاع عنها بعد أن غمر الطرق المؤدية إليها من الغرب بالمياه محاولا إيقاف زحف الجيش البريطانى . وفى موقعة الكاظمية التى لم تدم إلا بضع ساعات رجحت كفة الجيش البريطانى المؤلف من قواته ومن النجدات المهمة التى جاءت إليه من شمال افريقية يعضدها الجيش الأردنى . وكان العقداء الأربعة والوزراء قد تركوا العراق إلى إيران ولم يبق إلا وزير الاقتصاد السيد يونس السبعاوى الذى أعلن نفسه حاكما عسكرياً فى بغداد . وعلى أثر هذه الموقعة زالت الحكومة العسكرية وتألفت لجنة دعيت لجنة الأمن الداخلى برياسة أرشد العمرى قامت بعقد الهدنة بين العراق وبريطانيا وقد ضمنت هذه الهدنة للعراق استقلاله وجيشه مع معداته ولبريطانيا كافة التسهيلات المقتضية التى أوجبتها معاهدة ١٩٣٠ .

وصل سمو الوصي الأمير عبد الآله بغداد في اليوم الثاني من حزيران فعهد بتأليف الوزارة إلى السيد جميل المدفعي، وأعلنت الأحكام العرفية في اليوم نفسه حيث قام بعض الغوغاء بنهب حوانيت اليهود، وألقت السلطات البريطانية القبض على معظم الذين نزحوا إلى إيران من رجال الحكومة السابقة فنفتهم إلى روديسيا ثم جاءت بفريق منهم وسلمتهم إلى الحكومة العراقية فحوكموا أمام المجلس العرفي وحكم على جميع البارزين من القائمين بالحركة بأحكام متفاوتة أقصاها الإعدام، ومن يكن حاضراً وقع عليه الحكم غيابياً . وقد نفذ حكم الإعدام بالعقداء الأربعة وبوزير الاقتصاد . وأخذت الأمور تسير في مجراها الطبيعي . كما تم تنفيذ معاهدة التحالف بأوسع ما يمكن من تنفيذها، وطفقت شئون الدولة الخارجية والداخلية تجرى على وفاق بين الحكومة العراقية والحكومة البريطانية .

إعادة النظر في الجيش

والقانون الأساسي وقانون الانتخاب

استدعت هذه الأحداث التي مرت بنا إلى إعادة النظر في بعض مقومات الحكم فالتفت المسئولون إلى الجيش وأرادوا وضع حد لتدخله في السياسة فلم يروا بدأ من إبعاد العناصر الفعاله منه وإحالتها على التقاعد، كما استقدمت بعثة عسكرية بريطانية زودت بصلاحيات استشارية وتفتيشية وجعل استخدامها لبضع سنوات لغرض تنظيم الجيش .

أما القانون الأساسي فقد كان موضع نظر المسئولين فعدل تعديلا يضمن استقرار الحكم . وكان أهم ماجاء في هذا التعديل إعطاء الملك حقاً يستطيع به إقالة الوزارة إذا رأى ضرورة لذلك (المادة ٢٦ ف ٦) من القانون الأساسي المعدل كما أضيفت فقرة ثانية إلى المادة (٢٠) بتعيين ولي العهد عند مدة شغور ولاية العهد (إذا شغرت ولاية العهد نظراً لقانون الوراثة فإنها تنتقل إلى أرشد رجل عراقي من أبناء أكبر أبناء الملك حسين بن علي مدة شغورها) فأصبحت ولاية العهد لسمو الوصي باعتباره مستوفيا لهذه الصفات . كما عدل تحديد أعضاء مجلس الأعيان فأصبح لا يتجاوز ربع مجموع النواب بعد أن كان لا يتجاوز العشرين . وسمح

القانون الأساسي بإمكان انتداب العين أو النائب للقيام بمهمة خاصة في خدمة الدولة لمدة لا تتجاوز السنتين . وتعديلات أخرى أهمها منع مجلس الأمة من عفو الأشخاص الذين ارتكبوا جرماً من شأنه المساس بتبديل شكل الدولة أو بتبديل الحكومة أو إرغام الملك أو الحكومة أو تهديدهما على إجراء عمل ما .

ولقد كانت آراء الحكومة في إعطاء الملك حق إقالة الوزارة ممثلة في خطاب رئيس الوزراء في المجلس النيابي الذي جاء فيه : « إذا شعر رئيس الوزراء بأن الملك لا يرغب ببقائه في الحكم فيتحتم عليه أن يستقيل ولا يستمر في تحمل مسئولياته أما إذا ادعى بأنه يقوم بخدمة للبلاد ويسعى للصالح العام ويريد البقاء في الحكم لهذا السبب فيجب أيضاً أن يتنحى ولو كان على حق ٩٩٪ بالمائة إذ ليس من مصلحة البلاد أن تجعل رئيس الوزارة المختلف مع الملك باقياً في الحكم مهما كان رأيه مصيباً . لأن الضرر الذي ينجم عن هذا هو أكثر بكثير من المصلحة التي يحب تمشيتها رئيس الوزراء المختلف . وقد وافق المجلس على جميع التعديلات التي مرت بنا وتعديلات أخرى يمكن الرجوع إليها في متن القانون الأساسي وتعديلاته (مطبعة الحكومة ١٩٤٤) . وكان أهم ما جاء في إصلاح قانون الانتخابات تصغير الدوائر الانتخابية بحيث يخرج منها نائب أو نائبان على خلاف ما كان يجرى في السابق حيث يعتبر اللواء وحده دائرة انتخابية تخرج نواباً على حسب ما فيها من النفوس . ولقد كان يمكن إصلاح الانتخابات ذات الدرجتين وجعلها ذات درجة واحدة . ولكن هذا الاقتراح وجد معارضة في المجلس فلم يؤيد . » وقد غير بعد ذلك كما سنرى » .

عودة الأحزاب السياسية

وبعد أن استقرت الأحوال استقراراً مرضياً ظهرت في الأفق بادرة جديدة وهي إفساح المجال لحياة ديموقراطية يمكن للبلاد أن تعيش في ظلالها بأمن ودعة ورفاهية ، فتألفت لذلك وزارة جديدة في ٢٣ شباط من عام ١٩٤٦ وأعلنت منهاجها وكان ما جاء فيه إطلاق حرية الصحافة وإعادة تأليف الأحزاب فتألفت لذلك خمسة أحزاب هي : حزب الاستقلال وحزب الأحرار والحزب الوطني الديموقراطي ، وحزب الاتحاد الوطني وحزب الشعب ، وكان في هذه الأحزاب من يميل إلى اليمينية المتطرفة ومنها من يميل إلى الاشتراكية اليسارية وكانت تجربة قوية

أخذت الآراء الحرة فيها تنشر بوضوح وتدعو إلى الإصلاح المنشود فى جميع نواحى الحياة مما أخاف رجال السياسة القدامى . ولم يلبث هذا الوضع إلا قليلا حيث استقالت الوزارة وشكلت وزارة أخرى لم تجد مفراً فى ثبات نفسها إلا بالسير على جهة أخرى من الخط ، وضاق صدرها برحابة الحريات التى أعطتها الوزارة السابقة فلم تطق صبراً وأخذت توجه الإنذارات للصحف وعطلت بعضها بما فيها الناطقة بلسان بعض الأحزاب ، فقامت فى وجهها معارضة الرأى العام ، وبدأت المظاهرات والاحتجاجات تتوالى والحكومة تشتد فى قسوتها حتى تنحت عن الحكم وخلفتها وزارة أخرى فى ٢١ تشرين الثانى ١٩٤٦ جرت فى سياستها على إضعاف قوة الأحزاب ، ثم تخلت عن الحكم وخلفتها وزارة أخرى فى ٢٩ مارس ١٩٤٧ .

معاهدة بورتسموث وتدخل الطلاب فى السياسة

بدأت وزارة ٢٩ مارس ١٩٤٧ أعمالها ثم ما لبثت قليلا حتى اكفهر أفق السياسة فى وجهها ، ذلك أنها أقدمت على عقد معاهدة مع الحكومة البريطانية لتحل محل معاهدة التحالف المعقودة فى عام ١٩٣٠ . وقد سميت المعاهدة الجديدة بمعاهدة بور تسموث . ولما أعلنت موادها فى الجرائد وقعت الواقعة واشتدت المظاهرات وعلت أصوات الاحتجاجات والمطالبة بسقوط الوزارة . وكان العنصر المهم فى هذه المظاهرات طلاب المدارس وطالباتها ، وانضم إليهم رجال السياسة وأفلت زمام الأمر من يد الشرطة وبلغت الاضطرابات منتهاها فلم يرأولو الشأن بدأ من التداول فى . الأمر وعلى ذلك اجتمع ممثلو الأحزاب وأولو الحل والعقد من رجال السياسة وأعضاء الحكومة ورجال الحكومات السابقة بطلب من سمو الوصى وولى العهد ، فتقرر بإجماع الآراء عدم تحقيق هذه المعاهدة لرغبات الشعب فضلا عن أنها لم تكن وثيقة تربط المملكتين بروابط الصداقة المنشودة . وعلى موجب هذا القرار أعلن سمو الوصى رفض أية معاهدة لا تحقق الأمانى الوطنية .
ولما عاد رئيس الوزراء من مفاوضاته فى لندن أراد أن يقنع الشعب بالمنطق فأعلن أن المعاهدة من خير ما يؤمن رغبات الأمة وأنها لم تلق معارضة إلا من خصومه السياسيين الذين أهاجوا الرأى العام عليه . فلم يقتنع الشعب بذلك وركن رئيس

الوزراء إلى القوة والشدة مما أدى إلى وقوع عدد من القتلى والجرحى بينهم الكاتب والعامل والبرىء وغيره . وإزاء هذه المواجهة من الأمة اضطر إلى تقديم الاستقالة وطويت صفحة معاهدة بورتسموث إلى الأبد . وكان فى طيها صدمة عنيفة للسياسة البريطانية كما كانت مبعثاً لشعور موحد خاصة بين طلاب المدارس . وقد ظهر شعور الطلاب بأجلى مظاهره عندما نشبت الحرب بين الصهونيين والعرب فى منتصف شهر مايس من عام ١٩٤٨ من أجل فلسطين ، فقد اعتصم بعض طلاب الدراسة العالية وأضربوا عن الطعام طالبين سوق الجيش العراقى إلى ساحة القتال بل تطوع فريق من الطلاب للقتال ضد الصهيونين . ومهما يكن فإن ظاهرة تدخل الطلاب فى القضايا السياسية أصبحت أمراً غير مستساغ وأصبحوا مصدر قلق زيادة على ما يصيبهم من ضياع فى البحث والدرس . وقد زاد هذا القلق عندما تسربت الأفكار الشيوعية إلى فريق من هؤلاء ، وصارت الأصابع الخفية توجه بعضهم توجيهاً ضد مصلحتهم والمصلحة العامة مما دعا الحكومة إلى الأخذ بالشدة . وفعلا تمت التحريات اللازمة واكتشفت مؤامرات تديرها جماعة منظمة لها خلاياها ومراكزها . وقد قدم بعض الذين ألقى القبض عليهم من هذه الخلايا للمحاكمة فحكم عليهم بأحكام متفاوتة أولها الإعدام الذى نفذ فى أربعة من رؤوس المحركين فكان التدبير ضربة قاصمة أضعفتها وشلت امتدادها . ومع ذلك ظل فريق من الطلاب يتدخلون بالسياسة متأثرين بمبادىء الأحزاب . كما أن بعض رجال الأحزاب كان لا يتردد عن الاستفادة من حركات الطلاب ، وكان الانتهازيون من منظمة الشيوعيين يستغلون كل حركة يقوم بها الطلاب .

مر بنا أن أحزاباً تشكلت عام ١٩٤٦ وكان عددها خمسة ألغى منها اثنان إلغاء رسمياً فى عام ١٩٤٧ وهى حزب الشعب وحزب الاتحاد الوطنى ، وفى عام ١٩٤٨ أوقف حزب الأحرار أعماله فلم يبق فى ميدان السياسة إلا حزبان : الحزب الوطنى الديموقراطى وحزب الاستقلال . وفى عام ١٩٤٩ ألف السيد نورى السعيد حزب الاتحاد الدستورى . ثم تبع ذلك تكوين حزب الجبهة الشعبية وحزب الأمة الاشتراكى . ومن يقرأ مبادىء هذه الأحزاب لا يكاد يجد فرقاً كبيراً بين أكثرها من حيث الإصلاح المنشود للبلاد ، كما كان بعضها يطالب بالانتخاب المباشر أى جعل الانتخاب على درجة واحدة بدلا من الطريقة المتبعة وهى التى يتم بها الانتخاب على

درجتين . وكان بعض هذه الأحزاب يتقدم بمذكرات إلى الجهات العليا بين حين وآخر يطلب إصلاحاً عاجلا للأوضاع السيئة . وقد أعلنت الوزارة التى تألفت فى ١٢ تموز من عام ١٩٥٢ قبول مبدأ الانتخاب المباشر ووعدت بأن الانتخاب سيكون حراً ومصوناً من التدخل .

وما زال تدخل الطلاب فى الشئون السياسية يستفحل حتى أصبح مظهراً قوياً من مظاهر القلق واضطراب الأمن . وقد أدى ذلك إلى وقوع تصادم بين المتظاهرين والشرطة نتج عنه وقوع عدد من القتلى والجرحى بعـــد أن أحرق المتظاهرون مكتب الاستعلامات الأمريكى ومطبعة الأوقات العراقيـة ومخفر باب الشيخ فاستدعى ذلك استقالة الوزارة . ولخطورة الحالة عهد سمو الوصى بتأليفها إلى رئيس أركان الجيش فتألفت فى يوم ٢٣ تشرين الأول لعـام ١٩٥٢ فأعلنت الأحكام العرفية وهيمنت قطعات الجيش على الوضع ؛ كما أعلنت الحكومة إلى جانب ذلك منهاجها الذى يؤدى إلى رفاهية الشعب وسعة عيشه واعداد لائحة قانون الانتخاب المباشر . وفعلا تم إصدار مرسوم بتنفيذ اللائحة وجرى انتخاب مجلس النواب الجديد بتاريخ ١٧ كانون الثانى من عام ١٩٥٣ على موجبها .

استلام جلالة الملك فيصل الثاني

سلطـاته الدســـتورية

وفي اليوم الثاني من شهر مايس لعام ١٩٥٣ تسلم صاحب الجلالة الملك فيصل الثاني سلطاته الدستورية لبلوغه السن القانونية ، وتم تسليمها باحتفال عظيم حضره كبار رجال الدول المجاورة وغير المجاورة ، وبدأت البلاد تستقبل عهداً جديداً هادئاً مكوناً ومنشئاً ، وكان فاتحة هذا العهد إلغـاء معاهدة التحالف لعـام ١٩٣٠ وإبدالها بميثاق له ملحقاته ومذكراته كما سيأتي :

إلغـاء المعاهدة العراقيه لعـام ١٩٣٠

وجلاء الطيران البريطاني مع استلام مطاري الحبانية والشعيبة

(ا) ميثاق التعاون المتبادل بين تركيا والعراق

عقدت الحكومة العراقية ميثاق التعاون المتبادل بينها وبين الحكومة التركية المحتوي على ثماني مواد ومذكرة متبادلة استناداً إلى معـاهدة الصداقة والأخوة المعقودة بين الدولتين الموقع عليها في أنقرة في اليوم التاسع والعشرين من شهر مارس لعام ١٩٤٩ . وبناء على أن المادة الحادية عشرة من معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي بين دول الجامعة العربية تنص على أن ليس في أحكامها ما يمس أو يقصد به أن يمس بأية حال من الأحوال الحقوق والالتزامات المترتبة أو التي قد تترتب للدول الأطراف فيها بمقتضى ميثاق هيئة الأمم المتحدة ، واستناداً إلى كون المتعاقدين عضوين في هذه الهيئة ويهمها استتباب الأمن في منطقة الشرق الأوسط وفقاً لأحكام المادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة .

بناء على ما مر آنفاً تم الاتفاق بين الدولتين أن تعاونا فى صيانة سلامتهما والدفاع عن كيانهما وفقاً لأحكام المادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة ، كما وأن لهما أن تتخذا التدابير اللازمة لتنفيذ هذا الاتفاق باتفاقات خاصة تعقد بين إحداهما والأخرى . وقد نص هذا الاتفاق على وجوب تحديد التدابير اللازمة عند وضع هذا الميثاق فى حيز التنفيذ ، وأن يمتنع كل فريق من المتعاقدين عن التدخل فى الشئون الداخلية للآخر ويقومان بفض النزاع بينهما وفقاً لميثاق هيئة الأمم المتحدة . كما نص على وجوب عدم وجود ما يتناقض مع الالتزامات التى لكلا الطرفين مع الدول الأخرى ولا يدخل أى فريق بالتزامات تتعارض مع هذا الميثاق . وأن يكون الميثاق مفتوحا لدول الجامعة العربية وللدول الأخرى التى يهمها استتباب السلم فى هذه المنطقة ، على أن تكون الدولة المنضمة معترفا بها اعترافا كاملا من كلا الفريقين ويصبح الانضمام نافذاً من تاريخ إيداع وثائق الانضمام لدى وزارة الخارجية العراقية . وقد جوزت المادة الخامسة منه لاية دولة منضمة إلى هذا الميثاق أن تعقد اتفاقيات خاصة بموجب المادة الأولى منه مع دولة أو أكثر من الدول الأطراف فيه ، ويشكل مجلس دائم من الوزراء للعمل ضمن نطاق أهداف الميثاق عند ما تبلغ الدول الأطراف عدداً لا يقل عن أربع ، ولهذا المجلس أن يضع نظام الميثاق الداخلى ، ويكون نافذاً لمدة خمس سنوات ويعتبر مجدداً لمدد أخرى كل منها خمس سنوات . كما سمح الميثاق لأى طرف أن ينسحب بشرط أن يبلغ الأطراف الأخرى برغبته قبل ستة أشهر من انتهاء أية من المدد المذكورة . وقد نصت المادة الأخيرة منه على إجراء تبادل وثائق الإبرام فى انقره ، وأن يكتب الميثاق بلغات ثلاث العربية والتركية والانجليزية ، وأن تكون الاخيرة هى المعول عليها فى حالة الاختلاف . ثم الحق بالاتفاق كتابان متبادلان بين رئيس الحكومة العراقية وبين رئيس الحكومة التركية ضمن كل منهما التأكيد على تعاون الطرفين لوضع مقررات الامم المتحدة المتخذة بشأن فلسطين موضع التنفيذ . وقد تمت كتابة الميثاق فى اليوم الرابع والعشرين من شهر شباط لعام ١٩٥٥ ونشر فى الوقائع العراقية فى ٢ مارس للعام نفسه .

(ب) الميثاق الخاص بين العراق وبريطانيا

لقد انضمت بريطانيا إلى الاتفاق العراقى التركى وبانضمامها إليه ألغيت معاهدة التحالف بين العراق وبريطانيا المعقودة فى عام ١٩٣٠ . وقد أعلنت الحكومة العراقية بياناً رسمياً عن إيداع حكومة صاحب الجلالة البريطانية وثيقة الانضمام فى وزارة الخارجية العراقية يوم ٥ نيسان سنة ١٩٥٥ . وبذلك يعتبر الميثاق الخاص الآتى المعقود بين الدولتين العراقية والبريطانية نافذاً من ذلك اليوم . وقد اشتمل على تسع مواد وثلاثة كتب ومذكرتين .

وينص هذا الميثاق الخاص على رغبة المملكتين فى عقده باعتبارهما شريكتين فى ميثاق التعاون المتبادل بين العراق وتركيا المعقود ببغداد يوم ٢٤ شباط من عام ١٩٥٥ متساويتين ومتمتعتين بالسيادة الكاملة على أن تقوما بادامة وتنمية الصداقة والسلم فى بلديهما والتعاون من أجل سلامتهما والدفاع عن كيانهما وفقاً لميثاق التعاون المذكور ، وعند تنفيذ هذا الاتفاق الخاص تنتهى معاهدة التحالف بين العراق وبريطانيا العظمى الموقع عليها ببغداد فى ٣٠ حزيران لعام ١٩٣٠ مع الملاحق والكتب المتبادلة بشأنها ، ولا تتحمل الحكومة العراقية بموجب هذا الاتفاق الخاص أية مسئولية خارج حدود العراق ، على أن تضطلع بمسئولية الدفاع التامة عن العراق وتتولى حراسة جميع المنشآت الدفاعية عنه ، وتتعاون الحكومتان العراقية والبريطانية تعاوناً وثيقاً للدفاع عن العراق وذلك بوضع الخطط العسكرية والتدريب وتوفير التسهيلات اللازمة لهذا التعاون . ولجعل القوات العراقية فى حالة كفاءة واستعداد تعمل الحكومة البريطانية بكل ما فى وسعها بناء على طلب من الحكومة العراقية تقديم المساعدات اللازمة للعراق بتأسيس وادامة قوة جوية عراقية وادامة المطارات والمنشآت الاخرى التى ترى ضرورتها والاشتراك مع الحكومة العراقية فى تأسيس جهاز للانذار ضد الغارات الجوية وتأمين حفظ الاجهزه اللازمة للدفاع عن العراق وتدريب وتجهيز القوات العراقية للدفاع عن بلادها . وأن تقدم للعراق الفنيين من القوات البريطانية تنفيذاً لما جاء فى هذه المادة ، وتتمتع الطائرات العائدة لكل من البلدين بتسهيلات المرور والترحيل داخل البلد الآخر . وفى حالة هجوم مسلح أو تهديد بهجوم مسلح على العراق تراه كلتا

الحكومتين المتعاقدتين خطراً على سلامة العراق تقدم بريطانيا للحكومة العراقية بناء على طلب العراق مساعدات تشمل عند الضروره القوات المسلحة للدفاع عن العراق ، على أن تسهل الحكومة العراقية ما يجعل هذه المساعدة سريعة وفعالة .

وقد وقع هذا الميثاق فى اليوم الرابع من نيسان لعام ١٩٥٥ ، وكتب باللغتين العربية والانجليزية ، ويعول على النصين على حد سواء إلا فى حالة الشك فإن النص الانجليزى هو المعول عليه .

أما الكتب المتبادلة فكانت تدور حول التدابير المقترح اتخاذها من قبل حكومة المملكة المتحدة البريطانية فيما يخص ليفى القوة الجوية الملكية فى العراق والمستخدمين المدنيين فى القواعد وحول المذكرات الموضوعة لغرض تنفيذ الاتفاق وتحتوى المذكرات على ما يأتى .

فالمذكرة المرفقة بكتاب رقم (١) تنص على انتقال القيادة فى الحبانية والشعيبة والمعقل من تاريخ توقيع الاتفاقية الخاصة إلى العراق ، ويعين ضباط عراقيون ذوو رتب مناسبة لهذا الغرض فى ٢ مايس لعام ١٩٥٥ ، ويجرى جلاء جميع الوحدات الجوية المنسوبة للقوة الجوية الملكية البريطانية المقيمة حالياً فى الشعيبة والحبانية بصورة تدريجية خلال سنة واحدة من تاريخ التوقيع على الاتفاق الخاص ، ويتبع هذا الجلاء جلاء تدريجى للأشخاص المنتسبين للمجموعات الفنية والإدارية ويبقى منهم من يقتضيهم هدف الاتفاق الخاص وهذه المذكرة فقط . والأشخاص البريطانيون الذين يبقون فى العراق إنما يكون بقاؤهم لمعاونة القوات العراقية فى التدريب والتأسيس والتشغيل والإدامة والتجهيزات ولخدمة الطائرات ، وتكون القيادة والإدارة والتأسيسات البريطانية تحت مسئولية الحكومة البريطانية ، وتؤمن الحكومة البريطانية لهذا الغرض الهيئة البريطانية المطلوبة على أن تكون تحت قيادة الضابط العراقى المسئول فى كل مؤسسة ، ويعمل الضابط البريطانى الأقدم المعين فى جميع الأحوال بارتباط وثيق مع الضابط العراقى الآمر .

وتنطبق نصوص الاتفاقية الخاصة بوضع قوات فرقاء شمال الأطلسى الموقعة فى لندن فى ١٩ حزيران من عام ١٩٥١ على قوات كل حكومة فى أراضى الحكومة الأخرى ، وتتسلم الحكومة العراقية مسئولية حماية جميع المطارات والمؤسسات فى العراق . و للتوصل إلى هذا الغرض يضم إلى القوات العراقية من يرغب من

منتسبى قوات الليفى العائدة إلى القوة الجوية البريطانية فى العراق ، وتيسر الحكومة البريطانية إعارة خدمات الضباط البريطـانيين الذين كانوا يخدمون بالليفى إلى الحكومة العراقية ، وذلك لتسهيل انتقال وانضمام هذه القوات إلى القوات العراقية كما يتم بذل الجهد لتأمين تشغيل أكبر عدد من المدنيين المستخدمين حالياً فى المعقل والشعيبة والحبانية . كما تبذل الحكومة البريطانية جهدها فى تقديم المشورة والمعونة الاختصاصية فى القضايا الفنية وما يتعلق بالتشغيل وتوسيع المطارات وإنشاء ما يرى ضرورياً منها مع تأمين الأشخاص للمعونة فى تدريب القوة الجوية الملكية العراقية وتقديم الإستشارة المستمرة المتعلقة بأساليب التدريب وفنونه فى جميع أدواره وترتيب قيام أسراب من القوة الجوية البريطانية وطائرات بريطانية أخرى بزيارات دورية للعراق ، ويتوخى تأمين التدريب المشترك فى جميع الأوقات وتيسير الأشخاص البريطانيين لغرض خدمة الطائرات البريطانية وإدامتها وتصليحها وتقديم التسهيلات لدورات التدريب خارج العراق إذا لم يكن ذلك ممكنا فى العراق ، مع تأمين الطائرات الضرورية وما يلزم لها من معدات على أن تكون من أحدث طراز . وتبذل الحكومة البريطانية بالاشتراك مع الحكومة العراقية لا يجاد جهاز كفء للدفاع ضد الغارات الجوية وأن يكون شاملا لمنظومة (رادار) للإنذار ومنظومة للإخبار عن الطائرات ، وتؤمن الحكومة البريطانية لهـذا الغرض الأشخاص الفنيين ذوى الاختصاص من العسكريين والفنيين وتدرب القوات العراقية الأرضية تدريباً يمكنها من التعاون مع القوات الأرضية البريطانية ، وتبذل الحكومة البريطانية جهدها فى تسهيل تجهيز الحكومة العراقية بالأسلحة والمعدات المناسبة الأخرى من الطراز الحديث .

وتتعاون الحكومتان فى تأسيس منشآت (الإدامة)[1] بما فى ذلك وسائل تصليح الدبابات للطرفين ، وعلى الحكومة البريطانية تأمين الفنيين لذلك ، وتؤمن الحكومة البريطانية تعاون ومشورة ذوى اختصاص فنيين لرفع الألغام ومراقبتها فى شط العرب ، ويستمر السماح من قبل الحكومة العراقية لزيارة قطعات الأسطول البريطانى فى شط العرب على أن تخبر مقدماً بذلك ، وتستمر تطبيق القواعد والتسهيلات فيما يخص نزول ومرور وتموين الطائرات العاملة للدولتين فى بلاد كل

---

(١) الإدامة — اصطلاح مستعمل فى الجيش العراقى يقصد به الصيانة .

منهما ، وتشترك الحكومتان فى تأسيس أكداس من المدخرات والتجهيزات العسكرية لتستعمل من قبل القوات المسلحة للدولتين فى حالة وقوع هجوم على العراق مع تأمين المحلات الضرورية لها والمحافظة عليها ، وتتحمل الحكومة العراقية المسئولية الكاملة فى حمايتها ، وللأغراض الإدارية تفصل المدخرات الخاصة بكل من الدولتين إحداهما عن الأخرى ، ولأجل أن تكون المدخرات جاهزة للإستعمال فى كل وقت يجب تأمين ما يقتضى لإدامتها وتقليبها وتفتيشها واستبدالها بصورة مستمرة دورية ، وتقوم كل من الدولتين فى تأمين الأشخاص اللازمين لأكداسهما لهذه المقاصد . وللحكومة البريطانية مطلق الحق فى التصرف فيما يعود إليها من المدخرات . وفى حالة التخلص مما يفيض عن حاجاتها فى العراق يجب أن يسبق رفض العراق لها . وتقوم الحكومة العراقية بتأمين الخدمات الضرورية لاستعمال الأشخاص البريطانيين ، وتخصص عند الضرورة إسكاناً ملائماً لهم ولعوائلهم ، وإذا وجدت ضرورة لتأسيسات جديدة لاغراض هذا الاتفاق الخاص وهذه المذكرة فإن الشروط التى يكون تأمينها بموجبها يتفق عليه بين الحكومتين .

وجاء فى المذكرة المرفقة بكتاب رقم (٢) :

إن جميع الممتلكات غير المنقولة التى تعود إلى الجهات البريطانية إما أن تستمر لهذه الجهات أو تسلم لحكومة العراق أو يترك للحكومة البريطانية حرية التخلى عنها ، وستسلم الحكومة البريطانية مجاناً وبدون ثمن بعض المؤسسات التى تخدم احتياج كلتا الحكومتين ، ويدفع ثمن كافة الممتلكات غير المنقولة التى يجرى تسليمها للحكومة العراقية بقيمتها وهى فى وضعها الراهن ، وتتمتع الحكومة البريطانية بالحق الكامل للاستخدام المجانى فى كافة المؤسسات التى تسلم مجاناً ، كما يحق لحكومة العراق فرض أجور معقولة على الممتلكات المنقولة التى دفعت ثمنها لدى استعمالها من قبل الحكومة البريطانية ، وتكون كل دولة مسئولة عن تشغيل وإدامة الممتلكات غير المنقولة التى تخصها ، وفى حالات أخرى يقتسمان التكاليف فيما يخص تشغيل وإدامة التأسيسات التى تستخدم لأغراضهما معاً . وتدفع الحكومة العراقية ثمن الممتلكات المنقولة لتشغيل الممتلكات التى أشير إليها فى اول هذه المذكرة بتقدير الكلفة الكاملة إذا كانت جديدة وبثمن معتدل إذا كانت مستعملة . أما الممتلكات الأخرى فتحتفظ بها بريطانيا ولها حق التصرف بها داخل العراق وخارجه وتتحمل الحكومة العراقية كلفة منظومة الإنذار الجوى العائدة لها

وتحسين مطاراتها ، وتتحمل كل حكومة تكاليف قواتها الخاصة والأشخاص المستخدمين من المدنيين من قبلها ، ويستثنى من ذلك ما تتكلفه حكوم العراق بصدد الفنيين المعارين من قبل الحكومة البريطانية للحكومة العراقية حيث سيتفق على ذلك مشتركاً ، أما القضايا المالية الأخرى فتجرى تسويتها بالاتفاق بين الحكومتين .

تطور العراق والمستقبل الذى ينتظره

يتربع اليوم على عرش مملكة العراق ملك شاب هو جلالة الملك فيصل الثانى فى حكم دستورى نيابى ، ويتكون برلمان العراق من مجلسين مجلس النواب ومجلس الأعيان . ومجلس النواب ينتخب انتخاباً مباشراً لكل عشرين ألف نسمة نائب ومجلس الأعيان يعين تعييناً من قبل جلالة الملك على ألا يزيد عدد أعضائه عن ربع عدد النواب .

وتبلغ مساحة العراق ١٦٨٫٠٤٠٠ ميل مربع ، يحده من الشمال تركيا ، ومن الشرق إيران ، ومن الغرب سوريا والأردن والمملكة العربية السعودية ومن الجنوب المملكة العربية السعودية والخليج الفارسى . وتقدر نفوسه بأكثر من خمسة ملايين نسمة فى عنصرين مهمين العرب والأكراد . ويبلغ عدد الأكراد بما يقدر بعشر عدد العرب . وهناك أقليات أخرى كالفرس والأتراك . والديانة الإسلامية هى الديانة الغالبة ، ودين الدولة الرسمى هو الإسلام ، وتوجد ديانات ونحل أخرى أهمها الديانة المسيحية ، وفيه قليل من اليهود والصابئة والزيدية .

وفى العراق ثروات طبيعية أهمها النفط والتمر على اختلاف أنواعه وتزرع فيه الحبوب والبقول ، وتعيش فى مراعيه ومروجه قطعان البقر والجمال والخيل والأغنام بكثرة وافرة تؤهله إلى تصديرها إلى الخارج ، وهناك كنوز أخرى من المعادن لا تزال مطمورة فى أجواف أرضه . وقد ذكرنا فى الفصول السابقة ما مر بالعراق من أطوار تنقل فيها من احتلال إلى انتداب إلى تحالف ومن ثم استكمل استقلاله التام ، وقد عقد ميثاقاً خاصاً بينه وبين حليفته بريطانيا أثر عقد الاتفاق التركى العراقى الذى انضمت إليه بريطانيا والباكستان وإيران . وعلى أثر انضمام بريطانيا ألغيت معاهدة ١٩٣٠ وهى معاهدة التحالف البريطانية العراقية التى مر

بنا ذكرها . وقد رأى العراق خلال هذا التطور أحداثاً مختلفة تعترى دوما كل أمة ناشئة تريد أن تلحق سراعا بالأمم الأخرى ، وكان أهم ما فى هذه الأحداث ما نتج عن الاصطراع السياسى العنيف بين وجهات النظر البريطـــانية ووجهات النظر العراقية فى تأسيس كيانه وما نتج عن اشتباك سياسة رجال الأمة وأحزابها فيما بينهم حول تولى سلطة الحكم مما أدى إلى أمور أفسحت المجال لتدخل العشائر والجيش والطلاب من حين لآخر فى سياسة البلد . وكان لهذا التدخل أثره فى تقدم العراق تقدماً كان ينشده ، ومع ذلك كله فقد خطا العراق خطوات واسعة وضرب بسهم وافر فى جميع نواحى الحياة . وهو ينتظر مستقبلا عظيماً .

لقد تركته الدولة العثمانية فى جهل غامرا اللهم إلا من مدارس معدودات وكتاتيب مبعثرة وزوايا فى المساجد والمعابد يدرس فيها الفقه الإسلامى والعلوم العربية وما إلى ذلك مما يحتاج إليه الفقيه والمتأدب فى نطاق غير واسع ، كما تركته فى فقر مدقع تنساب أنهاره فى سهوله الجافة انسياب الأفاعى ، أما من الوجهة الصحية فقد كان يرزح تحت أعباء الأوبئة الوافدة التى تزوره من حين لآخر فتقضى على كثير من سكانه .

فاندفع العراق إلى فتح المدارس الابتدائية فى جميع أنحاء القطر والمدارس الثانوية ودور المعلمين ، واستقدم من البلاد العربية وغيرها المدرسين والمعلمين ، فبعد أن كانت المدارس الإبتدائية عام ١٩٢١ (٨٥) مدرسة وعدد تلاميذها لا يتجاوز (٨٠٠) تلميذ أصبح عددها فى عام ١٩٥٥ (١١٥٤) مدرسة وعدد تلاميذها (٢٧٥٢٧٤) ، وكان عدد المعلمين للمدارس الإبتدائية عام ١٩٢١ (٤٨٦) وأصبح فى ١٩٥٥ (٩٦٢٧) ، وكان مجموع طلاب المدارس الثانوية عام ١٩٢١ (١١٠) وبلغ عددهم عام ١٩٥٥ (٥٣١٢١) ، وكان عدد طلاب المعاهد العالية عام ١٩٢١ (٦٥) وفى عام ١٩٥٥ (٥٢٥٥) مع العلم أنه لم يكن فى ذلك العهد غير مدرسة الحقوق . وقد زاد عدد المدارس الثانوية بزيادة هائلة بلغت ما يقرب من ٢٢٠ مدرسة بين متوسطة وإعدادية ، وفى جانب ذلك مدارس مهنية لتخريج المعلمين للدراسة الابتدائية ومدارس ثانوية تجارية وزراعية وصناعية وفنون بيتية ومعهد الفنون الجميلة هذا عدا المدارس الأهلية فى مراحل التعليم الإبتدائى والثانوى أما التعليم

العالى فقد تقدم شوطاً واسعا وأصبح فى العراق كليات ومعاهد عالية سوف تنتظمها جامعة بغداد التى قدم قانونها عام ١٩٥٦ إلى المجلس النيابى لاقراره وهذه الكليات هى : كلية الطب وكلية الهندسة وكلية الزراعة وكلية العلوم وكلية الصيدلة وكلية طب الأسنان وكلية التجاره والاقتصاد وكلية الحقوق وكلية الآداب وكلية الملكة عالية لتخريج مدرسات لمدارس البنات الثانوية ودار المعلمين العالية وكلية الشرطة والكلية الحربية وكلية الشريعة ومعهد التربية البدنية العالى ومعهد التعليم الصناعى . وللعراق ما يقرب من ألفى طالب يدرسون فى مختلف جامعات الشرق والغرب للحصول على الدرجات العالية فى الفنون والعلوم والآداب والصناعة وأكثرهم تنفق على دراستهم الدولة .

والتعليم فى العراق مجانى فى مرحلتيه الإبتدائيه والثانوية ، وفى مراكز الألوية توجد أقسام داخلية يقبل فيها النابهون من المدارس الابتدائية من القرى والنواحى لإكمال الدراسة الثانوية على نفقة الحكومة ، أما دور المعلمين ودور الصناعة فإن أكثر الطلاب فيها داخليون أى تقوم الحكومة بنفقات معيشتهم ، ومثل ذلك لفريق فى كلية الهندسة ودار المعلمين العالية ، والأجور التى تستوفى للدراسة العالية لاتكاد تؤثر فهى أقرب إلى المجانية .

وللعراق عملة نقدية خاصة به وحدتها الصغرى الفلس ووحدتها الكبرى الدينار ولكل دينار ألف فلس ، ولتثبيت هذه العملة واستقرارها وخدمة مالية الدولة وتسهيل الأداء الخارجى والداخلى والاعتماد لصالح التجارة والزراعة بصورة عامة أسست الدولة البنك الوطنى وجعلت له مع هذه الواجبات وغيرها حق الإشراف على البنوك والصيرفة ، وأنشأت الدولة بنوكا أخرى كالبنك الزراعى والبنك الصناعى وبنك الرافدين والبنك العقارى وبنك الرهون ، ولكل من هذه البنوك مهمة خاصة به . وغاية ذلك كله إنماء ثروة البلاد ورفع مستوى المعيشة . ويوجد إلى جانب هذه البنوك فروع للبنوك الأجنبية كالبنك الشرقى والبنك العثمانى والبنك البريطانى للشرق الأوسط وبنوك أخرى منها البنك العربى والبنك اللبنانى المتحد والبنك التجارى العراقى ، ومع هذه البنوك يوجد أربعة عشر صيرفياً وعدد هؤلاء آخذ بالاطراد تبعاً لنمو الثروة .

وكان ازدياد دخل العراق من ثرواته الطبيعية قد وجه أنظار الدولة إلى استثمارها على أحسن وجه ، وبعد دراسات من قبل الخبراء صدر قانون مجلس الإعمار رقم ٢٣ في اليوم السابع والعشرين من شهر مايس لعام ١٩٥٠ وتقرر بذلك إنشاء مجلس للإعمار تلقى على عاتقه مسئولية مشروع إقتصادى ومالى لتنمية موارد الثروة ورفع مستوى المعيشة ، على أن يكون هذا المشروع بشكل منهاج عام للمشروعات التى ينبغى القيام بها من قبل المجلس ، ويشمل ضمن نطاقه مشروعات تتعلق بوجه خاص بخزن المياه ومكافحة الفيضان ومشروعات الرى وتصريف المياه والصناعة والتعدين وكذلك المشروعات التى من شأنها تحسين طرق المواصلات النهرية والبرية والجوية على ألا يكون المشروع مقتصراً عليها وأن يتضمن درجة أسبقية هذه المشروعات فى منهاجه وكلفة هذه المشروعات التقريبية والمدة اللازمة لتنفيذها .

ولهذا المجلس شخصية معنوية يحق لها التملك والتعاقد والقرض والاقتراض وإصدار السندات ورهن موجوداته على أن تعتبر تعهداته تعهدات للدولة . وقد خول وزير المالية ضمان قروض المجلس وسنداته وفى حزيران من عام ١٩٥١ صدر القانون الأول رقم ٣٥ للمنهاج العام لمشروعات مجلس الإعمار لمدة خمس سنوات تنتهى بسنته ١٩٥٥ وبموجب هذا القانون قدرت واردات المجلس بمبلغ ٩٥,٠٧٥,٠٠٠ ديناراً يضمنها مبلغ ٣,٩٦٥,٠٠٠ حصيلة قرض مشروع الثرثار والباقى من موارد النفط . وقد خصص من هذا المبلغ ٦٥,٦٧٤,٠٠٠ لتنفيذ المنهاج العام أما الباقى فيترك لمشروعات أخرى .

وأهم مشروعات المجلس تنحصر فى تعبيد الطرق وإقامة الجسور ومشروعات الرى . ويقوم مجلس الإعمار بثلاث مشروعات ضخمة لخزن الماء المتزايد فى حوض دجلة وأهمها مشروع الثرثار ويتكون من سد (Bsrrage) على دجلة بالقرب من سامراء لتحويل مياه فيضان دجلة إلى منخفض الثرثار ومن قناة بين دجلة والمنخفض طولها ٦٥ كيلو متراً ومن منخفض طبيعى كبير تبلغ مساحته السطحية حوالى (٢٢٠٠) كيلو متر مربع ، ويتكون السد على دجلة من ١٨ فتحة عرض كل منها ١٢ متراً تكفى لإمرار (٧٠٠٠) متر مكعب فى الثانية من الماء فى حوض دجلة ، وعلى القناة ناظم مكون من ٢٤ فتحة عرض كل منها ١٢ متراً لامرار (٩٠٠٠) متر مكعب من الماء فى الثانية إلى المنخفض .

والغرض من هذا السد العظيم حماية بغداد والمناطق الزراعية من الغرق .

والمشروع الثانى مشروع دوكان على نهر الزاب الصغير وهو أحد روافد دجلة والغرض منه خزن المياه وضبطها وتوليد القوة الكهربائية وإرواء مساحة جديدة من الأراضى سيحا تبلغ مساحتها ١،٣٠٠،٠٠٠ دونم رياً منتظما صيفاً وشتاء ويبلغ ارتفاع السد ١٠٨ أمتار وطوله ٣٢٥ متراً وهو من الكونكريت ، وتقدر سعة الخزان بما يقرب من ٦،٧ مليار متر مكعب .

والمشروع الثالث مشروع سد دربندخان على نهر ديالى ، والغرض منه خزن المياه وضبطها وتوليد القوة الكهربائية ، وبواسطته سوف يمكن زيادة المساحة التى تأخذ مياهها منه بما يقرب من ٣٠٠،٠٠٠ دونم وسوف يتيسر الماء الكافى للمنطقة الزراعية الكائنة على جانبى ديالى والتى كانت تتعرض إلى الجفـــاف . أما مقدار ما سيخزن من الماء فيه فيقدر بـ ٣،٧ مليارات متر مكعب من الماء .

وتوجد مشروعات أخرى قيد الدرس مهمتها تنظيم الرى وتوليد القـــوى الكهربائية وتوسيع الأرض الصالحة للزراعة منها : أسكى موصل ، وخزان بخمة وسد العظيم وخزان الفتحة .

أما على نهر الفرات فقد استلم مجلس الإعمار خزان الحبانية قبل إكمال عمله من الحكومة العراقية وقد أتمه وبلغت نفقاته حوالى مليونى دينار .

ويقوم مجلس الإعمار بدراسة خزان هور أبى دبس غربى مدينة كربلاء كما توجد دراسات أخرى لوضع خزان فى أعالى الفرات قرب بلدة راوة أو خان البغدادى ، واتجهت نية مجلس الإعمار إلى إنشاء المبازل لصيانة مشروعات الرى كما وضع خطة لانشاء المبازل مع فتح الجداول الجديدة . وقد أخذ يوسع المشروعات القديمة كشروع الحويجة ومشروع الدجيلة ، وأقام كثيراً من النواظم على الفرات والمبازل ويقوم بحفر (٢٠٠) بئر ارتوازى فى الجهات التى لا تصلها مياه الأنهار وقد وضع مجلس الإعمار فى منهاجه للصناعة والتعدين ٣١ مليون دينار ، وقد زادها إلى ٤٣،٥٧١،٠٠٠ لغرض تنمية الصناعة والكهرباء . وأول صناعة أسسها المجلس هى معمل القير « الأسفلت » فى الكياره ، وشرع فى إنشاء معمل الغزل والنسيج القطنى فى الموصل ويؤمل الانتهاء منه فى صيف عام ١٩٥٦ ، وتعاقد المجلس على

اقامة معملين للأسمنت أحدهما فى سرجنار قرب السليمانية والثانى فى الموصل . كما يقوم بإنشاء معمل السكر فى الموصل . ويدرس المجلس وضع خطة لايجاد محطات الكهرباء الغرض منها كهربة العراق . وقد أقام المجلس جسرين فى بغداد وجسراً فى الكوفة وأنشأ عدداً من المدارس والمستشفيات ودور الاطباء والموظفين الصحيين . وينشىء دوراً للعمال وصغار الموظفين كما يقوم بإنشاء دور الحكومة . وقد تقدمت الصحة فى العراق تقدما يبشر بالخير فالأمراض الوبائية التى كانت تفد إلى العراق من حين لآخر قد انقطعت تماماً والملاريا آخذة فى الزوال . وإذا علمنا أنه فى عام ١٩١٨ لم يكن يوجد إلا مستشفى واحد فى العراق كله فإن فيه اليوم ما يقرب من تسعين مستشفى وما يقرب من خمسمائة مستوصف ، وهناك مستوصفات سيارة . ويوجد فى العراق اليوم ما يقرب من ألف طبيب ، ويعتبر مستشفى السل فى التويثه لمعالجة هذا المرض الخبيث من مفاخر العهد الحاضر .

إن فى العراق إمكانيات تؤهله لأن يكون فى مصاف الأمم الزراعية والصناعية ويؤهل سكانه أن يعيشوا فى أمن وبلهنية . وقد استقرت أوضاعه وبدأ ينهج مناهج الأمم المكونة بعد تلك الهزات العنيفة التى ذكرناها .

وإننا لنأمل أن يتم العراق رسالته فى تقوية أواصر المحبة بين الشعوب العربية ويوطد علاقات السلم بينه وبين جاراته من الأمم الأخرى .

الفصل الخامس

فلسطين وسورية والأردن ولبنان

للدكتور زكي المحاسني

موضوعات الفصل

تمهيد .

فلسطين : بين الانتداب والصهيونية — يقظة العرب بفلسطين — تطور القضية الفلسطينية — الحرب العربية الفلسطينية — إسرائيل — اللاجئون — الصهيونية والصليبية .

سورية : انقسام بلاد العرب — سورية بعد الحرب العالمية الأولى — ميسلون — النضال الوطني في سورية — الثورة الكبرى ١٩٢٥ — ١٩٢٧ . الجهاد السياسي — الاتفاق الجديد بين سورية وفرنسا — سورية في الحرب العالمية الثانية — يوم الجلاء — سورية بعد الاستقلال — عهد الانقلاب — حكم الشعب — نظرة عامة في الحياة الثقافية والاقتصادية في سورية .

المملكة الأردنية : وصفها — سكان الأردن — العادات العشائرية والبدوية — مراحل السياسة والسيادة في الأردن — الحياة الاقتصادية في الأردن — الوعي الوطني — الأدب الدولي في الأردن .

لبنان : لبنان الطبيعي — لبنان القديم — لبنان بعد الحرب العالمية الأولى — لبنان في عهد الانتداب الفرنسي — لبنان في الحرب العالمية الثانية — لبنان بين الطائفية والاشتراكية — هجرة اللبنانيين — لبنان الثقافي — لبنان الصحافي .

تمهيد

إن البلاد العربية الشامية الممتدة من جبال طوروس شمالا إلى خليج العقبة جنوباً ومن حدود العراق شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً كانت تحت الحكم العثمانى زهاء أربعة قرون (١٥١٦ — ١٩١٨ م) ، وقد عرفت حتى اليوم ببلاد الشام ، فلما انتهت الحرب العالمية الأولى بهزيمة العثمانيين وخضوعهم لمعاهدة سيفر سنة ١٩٢٠ تخلوا عنها مغلوبين على أمرهم ، فتقاسمها الحلفاء الظافرون بالحرب وفرضوا عليها نظاماً استعمارياً سموه انتداباً ، فكان القسم الجنوبى الذى يضم الأردن وفلسطين من نصيب الإنكليز ،أما سورية ولبنان فكانا من نصيب الفرنسيين .

وهذه البلاد التى قسمها الاحتلال دويلات ومقاطعات تؤلف وحدة طبيعية تاريخية منذ الفتح الإسلامى، جمعت بينها اللغة الواحدة والتقاليد والعادات . فكانت أمة ذات عبقرية أصيلة ، وكان من حقها أن تبقى على طبيعتها لولا أن الاستعمار الذى طغى فى هذا العصر عبث بوحدتها ونال من قوتها ، فشتت شملها وغرس الأضغان السياسية بين صفوفها ، لكنها بقيت على الرغم من كل ذلك تواقة إلى الحرية والاستقلال ، فكان الضيم والألم يؤلف بينها فى أيام المحن وتتنادى كلما سنحت السوانح لتجديد الكفاح وإعداد العدة ليوم الخلاص .

وما ذهب كفاحها سدى ولا ضاعت جهود أبطالها ودماء أبنائها التى أريقت فى سبيل الكرامة والحرية ، فقد حظى بعضها بالاستقلال والبعض الآخر ما يزال يسعى إليه وسيحقق المبتغى بالتعاون والإخلاص . وقد اكتسبت هذه البلاد التى طال نضالها وجهادها شهرة عالمية ووصلت أصوات ممثليها إلى ندوات الأمم فى أوربة وأمريكا وفرضت احترامها على الشرق والغرب .

وفيما يلى تفصيل القول بنواحى التاريخ الخاص بكل من هذه البلاد العربية :

فلسطين

١ — بين الانتداب والصهيونية

قال الشاعر احمد شوقي يرحمه الله مخاطباً اللورد اللنبي بعد دخوله إلى القدس فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وكان القائد الانكليزى يجر وراءه جيشه المحتل :

يا فاتح القدس خل السيف ناحية

ليس الصليب حديداً كان بل خشباً

فى بيت واحد وضع الشاعر العربى العظيم تاريخ فلسطين منذ كانت بعد تلك الحرب حتى يومنا هذا فى صورتها الدامية وعيشتها المريرة .

لقد انحسر حكم الترك عن بقاع الشرق الأوسط بعد خسرانهم الحرب التى شاركوا فيها الألمان لحق عليهم أن يقتسم من ربح الحرب البلاد التى كانوا مستولين عليها يسوسونها سياسة المستعمر ، ولولا ما كان يربط بينهم وبين أهلها من رابطة الدين لساموا أدهى ما تسام به البلاد المستعمرة ، وقدجروا بذلك البلاء والشقاء على تلك البلاد التى لم يكن لها ذنب فى الحرب الخاسرة ، فكانوا ضحية الجريرة التركية . وقد تقسمت الدول الظافرة أمصارهم لقما سائغة باسم انتداب أو احتلال توهم فيه أن شكل الحكم هذا يؤدى إلى أن يتعلم أهل البلاد حكمها بأنفسهم ، ففتحت بهذا صفحات جديدة فى تاريخ المشرق كانت كلها سوداء ، وكتب للشعب العربى فى إبان تفتحه الحديث أن يعانى القلق والحرج وأن يعيش فى نضال وكفاح مع أولئك المحتلين الغاصبين من فرنسيين وإنكليز بسطوا سلطانهم نحواً من ربع قرن أو يزيد على فلسطين والأردن وسورية ولبنان .

كانت أرض فلسطين قبل عدوان إسرائيل محددة إدارياً ، من الشمال بجنوب لبنان ومن الشرق بجنوب سورية وأرض الأردن والبحر الميت ، ومن الجنوب بصحراء سيناء ويحدها من الغرب حوض البحر الأبيض المتوسط .

وقد كانت هذه البقعة من أرض الشام صغيرة حجما وكبيرة بذكرياتها وتاريخها

وأماكنها المقدسة وانطلاق الوحي والحرية منها ، عاش أهلوها متصلين بجوارهم من اللبنانيين والسوريين والمصريين لمتاخمتهم لها . وكان سكانها يعيشون على الزراعة والتجارة مؤتلفين متعاونين بين مسلمين ومسيحيين .

وقد كانت خطة الانكليز فى احتلال فلسطين تختلف عن الخطط الأخرى التى سار عليها المستعمرون فى بلاد العرب .

لقد أعدوا الخطط قبل وصولهم إلى بلادنا ، ولطالما حلم الفرنسيون بامتلاك الشرق منذ ارتداد نابليون عن عكاء . ولقد تخير الانكليز فلسطين احتلالا لهم وانتداباً منهم وهم ساعون وراء غاية بعيدة وهى منح اليهود أرضاً طال شوقهم وسعيهم إلى اغتصابها طوعاً أو كرهاً ، وهكذا احتل الانكليز فلسطين سهلها وجبلها ساحلها وداخلها ، وأقاموا معسكراتهم وثكناتهم فى مواقع حصونها ، واستولوا على مرافق عيشها لإطعام جيوشهم الكبيرة التى أعدوها لتكون دعامة فيالقهم فى الشرق ، فجعلوا الحكم فى أيديهم ونصبوا على كل بلدة بفلسطين حاكما إنكليزياً ، وهؤلاء الحكام كانوا يصدرون عن تعاليم « المندوب السامى » الذى اتخذ القدس مقراً له وكان ممثلا لمليكه .

وأول ما بدؤوه بفلسطين إشاعة لغتهم ، وهذا أول أساليب المستعمرين ينشرون لغاتهم فى الشعوب التى يمتلكون زمامها ، وجعلوا أول وكدهم إظهار اليهود . فأنعشوهم واهتموا بشؤونهم ، وكانوا فى أول الاحتلال قلة لا يزيد عددهم على خمسين ألف نسمة ، وبعد سنوات معدودة — وعلى الرغم من تقييد الهجرة التى اصطنعها المحتل أحبولة يسكت بها العرب ، ثم يطلقها متى شاء ففتحت الأبواب لدخول اليهود أرض فلسطين — أصبحوا أكثر من مائة ألف وفيهم كثير من الفرنجة الذين أتوا إليها من روسيا وبولونيا وألمانيا ممن هجروا أوطانهم وآووا إليها حتى غدوا على طوال العهد كثرة فيها العديد الضخم .

وإننا اليوم من خلف الأحداث الجسام نكتب تاريخ الأرض التى تشرد ذووها وامتلكها اليهود عنوة . نبصر بهذا التاريخ معاصرينا والأجيال القادمة بتلك الكوارث التى هزت مشرقنا وكانت ناجمة عن (الصهيونية الكبرى) .

كان اليهود فى فلسطين طوال القرن التاسع عشر لا يلفتون النظر إليهم ولا يثيرون الشبهات والحذر لقلة عددهم وضآلة شأنهم ، كانت بأيديهم متاجر ومرافق ولهم

جولات فى أسواق الأمم ومداخلات ، وكان أهل فلسطين مشغولين عنهم بمكاسب أيامهم لا يتحولون عنها إلى آفاق أوسع كالتى يتطلع إليها اليهود من بعيد ومن قريب ، وعاش الجميع فى ظلال الحكم التركى لا يفكرون بغير أرزاقهم اليومية حاسبين أن الجيش التركى كان كافيا للدفاع عن بلادهم فى العهد العثمانى الذى عاش فيه السلطان عبد الحميد ثم السلطان محمد رشاد .

وقد عد اليهود بفلسطين فى القرن الماضى من « الأقليات » بما فى هذا الاصطلاح من معنى معاصر . غير أن كبارهم كانوا يحلمون بيوم يزيد فيه تعدادهم وجهدهم حتى يملكوا هذه الأرض المقدسة ، وكانت الآمال اليهودية الأممية تلتقى مع آمالهم باحثة فى أجواء العالم مدومة تنشد معبراً واحداً ومقراً واحداً يضم اليهود فى أرض الميعاد . فقد كثر اضطهادهم فى أوربة ، وفى أكثر المدن التى سكنوها وكانوا هم أنفسهم سبب الاضطهاد ، لقد أحبوا المال وعبدوه وسعوا إلى جمعه والاستيلاء على موارده ومصادره بشتى الوسائل ، وكان المال أحب شىء إلى الإنسان حيث كان ، فنشأ لدى الشعوب كره لليهود ومقت لجشعهم ومطامعهم ، ومنذ طلع القرن التاسع عشر قامت فكرة الصهيونية متبلورة فى أفكار أصحابها الأقرام ، وقد سميت تلك النزعة الصهيونية ، وهى ترمز إلى القدس القديم أو أرض الميعاد نسبة إلى صهيون وهو فى عرفهم وعقيدتهم نداء الماضى البعيد .

لقد أتيح اليهودية العالمية نصر كبير فى شخص يهودى نمساوى كان صحفيا هو (هرتزل) ، وقد نمت فى نفسه دواعى العصبية لجنسه نمواً جارفاً ، فكرس حياته من أجل قومه وسخر كل مواهبه للدعوة الصهيونية كتابة فى الصحف وتأليفاً ومحاضرة فى الكتب والندوات حتى عد مؤسس الصهيونية العالمية . وقد هبت فى أوربة جميعها وأمريكا حركات منذ أواخر القرن التاسع عشر لشد أزر الصهيونية ، وكان كل يهودى واع فى تلك البلاد يعد نفسه عضواً فى منظمة صهيون ، وكان للحوادث السياسية والأدبية تأثير كبير فى إنعاش الفكرة اليهودية ، فان حادثة « دريفوس » الضابط الفرنسى اليهودى الذى اتهم بالخيانة الوطنية أثارت مكامن اليهود فى أنحاء العالم . ونهض للدفاع عن الفكرة اليهودية فى فرنسة « إميل زولا » الذى توفى بأوائل العصر الحاضر ، وكنا نقرأ كثيراً من المجادلات العنصرية تثور بين بعض الكتاب الفرنسيين المعاصرين كالمقالات التى نشرتها جريدة « كرنكوار الفرنسية » التى

كانت تصدر عن باريس قبيل الحرب الأوربية الثانية بين الكاتب اليهودي المعاصر المشهور « جوزيف كيسيل » والصحفي السياسي الكاثوليكي « هنري بيردو » .

وقد بلغ هرتزل من الصولة في نظام الصهيونية وتأسيسها حتى عد من أكبر بناتها من عليها الفرد الأول ، وألف فيها كتاباً سماه (الدولة اليهودية) عام ١٨٩٥ خط فيه الخطط لإقامة ملك لإسرائيل في فلسطين ، وحشد في كتابه حججاً تاريخية واهية ، منها أن استرجاع اليهود لفلسطين عقيدة تعود إلى ثلاثة آلاف سنة ، وأن الكوارث التي نزلت على رؤوس اليهود في عهود الآشوريين والبابليين ثم الرومان لم تثن من عزيمتهم في عودتهم إلى أرض الميعاد ، وأكثر ما في كتابه مزاعم صهيونية تقوم على السياسة والدين .

وجعل يهود العالم يوجهون عزائمهم ومقاصدهم ويصطنعون أشتات الحيل لتحقيق الحلم الصهيوني الكبير ، فكانت مؤتمراتهم التي عقدت بين عامي ١٨٩٧ — ١٩١١ موطدة ومدبرة لتلك الخطط المحكمة ، ففي مؤتمر بازل بسويسرا قررت الصهيونية الأممية الأمور الآتية :

١ — إنشاء مزارع نموذجية لإيواء العمال اليهود وتشغيلهم .

٢ — تأليف الجمعيات اليهودية داخل فلسطين وخارجها .

٣ — نشر اللغة العبرية وإنشاء المدارس والمجامع التي تعلم أبناء اليهود وتزرع في نفوسهم حب لغتهم وتاريخ قومهم .

٤ — بعث القومية اليهودية في قلوب الفتيان والفتيات وإقناع الكهول والشيوخ منهم بالفكرة الصهيونية — إن كان أولئك الشيوخ والكهول منصرفين إلى مرافق الحياة الكاسبة فحسب .

٥ — إحداث صندوق يهودي دولي تجمع فيه أعطيات المحسنين وإعانات الأمم التي تعطف عليهم ليكون عوناً وذخراً للحياة المالية التي ينشدون من ورائها الاستيلاء على أرض فلسطين .

٦ — السعي للحصول على مساعدة من دولة أوربية ولتكن (انكلترا) لإيجاد وطن قومي يهودي تضمنه الدولة الأوربية .

وقد بلغ الدهاء بهرتزل أن يقلب نظره في وجوه الأبواب التي يستطيع أن

يطرقها لتحقيق حلمه الأكبر فى امتلاك فلسطين عن طريق الحصول على إقطاع فيها بهجرة اليهود إليها ، فوجد نفسه وجها لوجه أمام خيال خليفة المسلمين سلطان بنى عثمان فتقدم إلى بابه طارقاً ، ولكن السلطان عبد الحميد وقف موقف الحذر من هذا الطلب المباغت ورمى بنظره البعيد شطر البلاد الفلسطينية متصوراً أية عقبى مجرمة تكون من تحقيق هذا المقصد الخبيث ، فرفض العرض الذى عرضه عليه هرتزل حين حظى بالمثول بين يديه لإقامة وطن يهودى صغير فى فلسطين ، وكان عبد الحميد مدركا لما يكون من موقف الصهيونية الأوربية تلقاء رفضه فأثار من أهلها يهود تركيا والعالم العربى وشايعوه فى الرفض .

وصمد هرتزل للهزيمة ، وعاود الكرة فى التوسل إلى صاحبه فلم يلق فى كل مرة إلا حقارة تزيد عن الأخرى . وتداهى عبد الحميد فأراد تعجيز اليهود — وهم عباد المال — بأن طلب منهم لتحقيق بغيتهم دفع خمسين مليون فرنك من الذهب . وحين لم يجد هرتزل استجابة من بيوت المال اليهودية لتقديم هذا المبلغ الهائل أدرك الخيبة التى وقع فيها ، وبينما كان يحاول تخفيض المبلغ باغته السلطان بالرفض الكلى لإقامة اليهود بفلسطين .

وبعد عبد الحميد تجهم الحكام الترك للصهيونية وباتوا حذرين من نيات اليهود فحاربوا فكرتهم حتى أواخر الحرب العالمية الأولى على الرغم من وجود عناصر تركية متطرفة فى تفكيرها من الاتحاديين كانت تميل إلى تشجيع اليهود فى الحصول على وطن قومى بفلسطين .

عندئذ بحث اليهود عن ضامن جديد لتحقيق قضيتهم فلم يجدوا سوى الانكليز واتفق أن مات زعيم الصهيونية هرتزل سنة ١٩٠٤ فلم يتح لعينيه أن تريا تحقيق الحلم الصهيونى .

وقد كتب للحركة الصهيونية ركود ، لكن فكرتها بقيت تسرى وتتغلغل فى النفوس اليهودية المستيقظة حتى برز إلى الوجود الصهيونى (حاييم ويزمن) . كان أستاذا فى إحدى الجامعات بانكلترا متخصصا بالصناعات الكيميائية التهديمية إذ كان اختصاصه فى عمل القنابل ، فواتاه أن يحمل علم الصهيونية بعد هرتزل وأن ينادى فى العالم إلى جمع اليهود . وكان « ويزمن » منفذاً للخطة التى رسمها هرتزل وأول وسيلة ناجحة فى التنفيذ هى الاستناد إلى رجال المال من اليهود المشهورين فى

العالم فكان (روتشيلد الانكليزى) وهو أحد اللوردات ضالته المنشودة ، واستطاع « روتشيلد » — وهو من ذوى الملايين المعدودين فى العالم يومذاك أن يقنع السلطة البريطانية بمساعفة اليهود وتأييدهم فى تكوين وطن قومى لهم بفلسطين .

ولعب المال لعبته الكبرى فى قضية فلسطين حتى تمكن روتشيلد من الحصول على رسالة وجهها إليه اللورد بلفور وزير الخارجية الانكليزية بتاريخ ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ يعد فيها باسم الحكومة البريطانية بتحقيق الوطن القومى اليهودى فى فلسطين بعد مباحثات طويلة امتدت منذ سنة ١٩١٥ ، وهذا نص الوعد المشؤوم .

« عزيزى اللورد روتشيلد :

لى مزيد السرور أن أزف إليكم باسم حكومة صاحب الجلالة الوعد التالى بتأييدها الحركة اليهودية الصهيونية وأمانيها التى عرضت على مجلس الوزراء ووافق عليها . وإن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين التأييد إلى إنشاء وطن قومى للشعب اليهودى وستستخدم أفضل وسائلها وأقصى جهودها لتسهيل تحقيق هذه المهمة . ومفهوم بوضوح أنه لن تتخذ أية إجراءات من شأنها الإضرار بالحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية المقيمة فى فلسطين أو الحقوق والنظم السياسية التى يتمتع بها اليهود فى أى بلد يعيشون به ، وأكون شاكراً لو تفضلتم باعلان هذا التصريح إلى الاتحاد الصهيونى »

وكان من نتائج هذا الوعد انتعاش اليهود فى أنحاء العالم والتفافهم بعد الحرب الأوربية الأولى حول الانكليز وتخفيفهم عن كاهلها أعباء الديون التى كانت لهم عليها واتجاههم إلى فلسطين .

وما كاد اليهود ينعمون بانجاز وعد بلفور حتى تدفقت وفودهم من بلاد العالم هاربة من الاضطهاد العرقى ملاقية فى فلسطين أرضاً ممهدة .

وقد أنشأ اليهود أول أمرهم الجامعة العبرية فى القدس سنة ١٩١٨ وهى القاعدة الأولى فى الاستعمار الصهيونى الذى تتكتل حوله سائر السياسات وجاء ، يهود العالم بعد الحرب الأولى بأموالهم فلوحوا بها أمام أعين ملتهبة بالجشع ، فأقبل عليهم فريق من العرب بفلسطين يتحرجوا من بيع أرضهم لليهود طامعين بالثروة غير حاسبين

أى حساب للعواقب الوخيمة ولا يحسون وخز الضمير وهم يندفعون متنافسين فى بيع الأرض لليهود .

ومرت أعوام وإذا أفضل البقاع الفلسطينية التى يملكها ذووها من أهل البلاد وما جاورها تغدو ملكا لليهود وفيها البساتين الخصبة والمزارع الواسعة والعمارات الشامخة .

كنا نمر بتلك البلاد المغصوبة فنرى ألواح المتاجر وعناوين الدوائر الحكومية ومنشوراتها وتعاليها تكتب باللغات الثلاث : الانجليزية والعربية والعبرية ، وكان هذا دليلا واضحاً على وضع فلسطين الدولى والداخلى منذ أيام الانتداب ، وكنا نجوس خلال تلك الديار التى اغتصبها اليهود فنرى حقولهم المرعةوبيوتهم المنسقة والدساكر التى سموها مستعمرات كلها حركة دائمة بينما كانت دساكر العرب يسودها الارتباك والتخلف .

لقد جاء اليهود من أنحاء العالم إلى فلسطين تحدوهم الفكرة الصهيونية الاستعمارية المستترة وراء مخادعة السذج بالفكرة الدينية فى التوراة .

جاؤوا فلسطين فامتزجوا باليهود القدامى الذين وطأوا لهم المنازل ووطدوا لهم مرافق العيش ودلوهم على مواطن الضعف عند العرب بما عرفوه منهم فى الاختبار وطول الجوار . وانفتح باب الهجرة على مصراعيه فجمعت فلسطين من كل صوب وحدب أقواماً يهودية مختلفة فى المنبت متحدة فى اللغة والمقصد تقاطروا على فلسطين ليقيموا فيها عهدهم الجديد .

٢ — يقظة العرب بفلسطين

بينما كان المستعمر جاداً فى دعم الحركة اليهودية بدا من العرب تململهم الأول ثم نشأت يقظتهم فى غضبة ثم فى ثورة . وقد غالى الإنكليز فى حمايتهم لليهود وعداوتهم للعرب مغالاة فيها كثير من التحدى والاستفزاز ، لا يبالون بحق مسلوب ولا بمقاومة متحفزة إذ أنهم قد ركزوا قضية اليهود على أقوم ما وجدوا من الأسس ، فعصبة الأمم أجازت عملهم ويهود العالم رضوا عنهم ، وكان من غدرهم بالعرب أن وجدوا لهم وسيلة تضعفهم فكانت تلك الوسيلة قضية اليهود التى كانت بلاء ليشغلهم بأعدى عدو عن نهضتهم المعاصرة .

وكان طبيعياً وبديهياً فى علل الأشياء وأسبابها أن يضيق العرب بالتوسع اليهودى وأن يشعروا أن لقمتهم أصبحت تنتزع من بين أيديهم لتملأ أفواه اليهود ، وأن أرضهم التى تنتزع من تحت أقدامهم تهوى بهم فى جحيم لا تعلم قرارته ، فحدثت الحركات الأولى الناشئة عن هذا القلق الاجتماعى والفزع السياسى من سوء المصير وبدت فى شكل تململ لم يلبث أن تحول إلى كره ثم تبلور فى عزمة ثائرة وسخط مرير ، وكانت تلك العزمة هى اليقظة الأولى للحركة العربية ضد اليهود فى فلسطين . وكم نريد أن نشبه تلك اليقظة باستفاقة مريض بعد تخدر طبى ، وكل مستفيق من مثل ذلك إن وجد الإرادة لم يجد القوة ، لقد تنبه العرب فى فلسطين إلى أن مركبتهم تسير نحو الهاوية وأنهم إن لم يستمسكوا بسبب يوقفها عجلت عليهم الأيام قبل السنين .

وكان العرب فى الشرق الأوسط يومئذ مشغولين بما ابتلوهم وأصابهم من مظالم الاستعمار والاحتلال .

كانت سورية وهى أقرب البلاد إلى فلسطين فى بحران من المجالدة مع الفرنسيين ، وكان العراق على شبيه من ذلك والأردن فى عوامل مماثلة ومصر فى كفاح مستمر مع الإنكليز .

ومرت اليقظة الفلسطينية إلى دور النتائج والإثمار فقامت الثورة الأولى ثم الثانية فالثالثة .

ولم تفتر الشعوب العربية فى مصر والشام والعراق عن معالجة القضية الفلسطينية والصحافة الواعية فى هذه البلاد أسهمت فى الكتابة عن هذه القضية فبسطتها للجمهور وأرته مواقع العثار الذى توشك أن تقع فيه فلسطين ، ولكن انشغال هذه الشعوب — كما قلنا — بمشكلاتها الخاصة وشؤونها السياسية لم يتح لها إجماع الكلمة وتوجيه الجهد مع علم هذه الشعوب بأن الخطر إذا نزل بفلسطين أوشك أن ينزل فيها جميعاً .

واليهود إبان ذلك سائرون نحو هدفهم يرتقبون السانحة المواتية لتثبيت أقدامهم بفلسطين .

وفى هذا الطور بدا لون جديد من ألوان الكفاح بين اليهود والعرب .

لا يكفي الشعور الوطني وحده — مهما كان صافياً وسامياً — أداة النضال ولا بد من أن ترفده منظمات ثقافية وسياسية وثورية لتكون قوام النهضة أو الكفاح من أجلها ضد عدو داخلي أو خارجي . وقد ابتلي العرب في فلسطين بعدو بين ظهرانيهم نظم مناوأته وعدوانه ، واعتمد اليهود في مقاومتهم جهاد العرب على عنصرين هما الجيش والشعب ، ووصف بن جوريون هذين العنصرين في كتابه (إسرائيل في كفاحها) : (إن الجيش وحده لا يضمن تحقيق النصر والحرب في أيامنا ليست حرب جيوش فقط وإنما الحرب العصرية هي حرب الشعوب ، هي حرب شعب بكامل طاقته وحياته العامة[1]) .

وثار العرب بفلسطين على وعد بلفور منذ كان هذا الوعد السياسي الغاشم وكانت بلاد العرب الأخرى تشاركهم في ذكرى الاحتجاج عليه كل عام ، وحين تحقق الوعد دخلت الثورة في التنفيذ ومرت من الإرادة إلى الفعل فقامت الثورة الأولى ثم الثانية فالثالثة ، ثورات دموية كالتي تكون للأمم في خصومتها مع أعدائها الباغين ، وكانت كل ثورة تالية أقوى من السابقة . وحدثت بين سنتي ١٩٣٠ — ١٩٣٦ ثورات متكررة كان أشدها على الإنكليز واليهود ثورة ١٩٣٦ .

ولسنا ننكر تأثر الشعوب الواعية بعضها ببعض ، فلولا ثورة الإنكليز في القرن السابع عشر لما لحقت بها ثورة الفرنسيين ، وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى الثورة الفلسطينية فان سورية التي هبت هبتها الكبرى كالأسد المصور سنة ١٩٢٥ في وجه الفرنسيين وملأت سورية والشرق العربي حماسة واتقاداً كان لها الأثر الكبير في الثورة الفلسطينية ، وكان كثير من الأحرار السوريين والمجاهدين لجأوا إلى فلسطين بعد خمود الثورة السورية وفيها شاركوا في بث روح الثورة على المستعمر فازداد الفلسطينيون جذوة لاهبة وقاموا قومة رجل واحد بثورتهم التي كتبت اليقظة الكبرى لهم في العهد الحديث .

وانضم الانكليز إلى اليهود تحقيقاً لمقاصدهم الغاشمة فكانوا حرباً على العرب شردوا أحرارهم وحبسوا آخرين وقتلوا المئات وفعلوا الأفاعيل والمنكرات مما

---

(١) وقد تبسط تقرير اتحاد الصناعة والتجارة والزراعة في البلاد العربية في ذكر هذا البيان في الكتاب الذي نشره الاتحاد بعنوان « إسرائيل خطر اقتصادي وعسكري وسياسي » وطبع سنة ١٩٥٢ ببيروت إصدار مكتبة الكشاف .

لا تقره المدنية ولا الانسانية ، وكانت تلك الثورة المباركة درسا علم العرب كيف يستعدون ليوم كبير .

وقد نشأ عن الثورتين السورية والفلسطينية انتباها كبيرا فى العالم العربى بلور الشعور القومى وركزه فى نطاق متحفز وسط دائرة من الاستعمار الغربى نسجتها ايد أثيمة أرادت للعرب الدمار .

وأنتجت الثورة الفلسطينية الكبيرة نقمة عامة فى قلب كل عربى بفلسطين وفى العالم العربى على الانكليز واليهود . ورأى الانكليز أن سياستهم التى اتبعوها فى مظاهرة اليهود على الإثم والعدوان لم تجدهم نفعاً وإنمـــا وسعت عليهم الخرق فراحوا يلوذون بأساليب جديدة لحـل القضيـة الفلسطينية علهم يفوزون بإرضاء اليهود والعرب معاً ، فلم يجدوا حلا حاسماً لأن كل طريقة كانوا يختطونها تبوء بالخيبة لأنها من الطرائق الشائكة التى لا توصل إلا إلى ترقيـع الاستعمار وتحول بين العرب وحقهم المهضيم .

٣ — تطور القضية الفلسطينية

دخلت القضية الفلسطينية لخطرها فى السياسة الدولية وبلغت منابر الهيئـات الأممية ، وكان الانكليز أهل مكر فى سياستهم يتربصون السوانح ويدبرون الحوادث فوجدوا مصلحتهم موانية فى الإبقاء على صـداقة العرب بفلسطين حـين مانوا بأسهم وصلابتهم وقولتهم الواحدة الجماعية ، فجاءوا بفكرة لتقسيم أرض فلسطين أثلاثاً : واحداً وهو المنبت الخصب جعلوه لليهود وثانياً داخلياً متاخماً لبلاد شرق الأردن جعلوه للعرب وآخر بينهما أقاموه لدوام انتدابهم وقد ضم القدس .

وحين أعلن الإنكليز هذه الفكرة ودعوا إليها حسما للخلاف وتقريباً لوجهات النظر نهض ساسة العرب بفلسطين وغيرها فحذروا من هذا التقسيم ودعوا إلى رفضه فرفض ، ووجدوا أن فى قبولهم التقسيم اعترافاً بالصهيونية التى أنكروها وعرفوا مآربها وخفاياها ، فضلا عن أن قبولهم التقسيم معنـاه الإذعان للانكليز الذين يريدون أن يحتلوا بقعة من أرضه إلى الأبد . فعاد الاضطراب والقلق إلى نفوس الفلسطينيين خاصة والعرب عامة ، واحتدت النقمة واستفحل الخطب ، وفى الوقت

نفسه كانت الصهيونية تنمو والهجرة تمتد، وتضيق سبل الرزق على العرب وقد ارتفعت نفقات المعيشة فبيعت الحاجات والأشياء بأثمان لم يعرفها الناس فى الحرب.

ثم حدث تطور آخر فى قضية فلسطين إذ دعت انكلترا إلى مؤتمر فى لندن سمته مؤتمر « المائدة المستديرة » وذلك عام ١٩٣٩ حضره مندوبون عن الدول العربية للمشاركة فى حل القضية الفلسطينية[1].

لقد انعقد هذا المؤتمر لأداء تجربة جديدة من تجاريب السياسة الانكليزية. فلم يجد العرب فى الإنكليز إلا أعواناً لليهود فخاب الرجاء بهذا المؤتمر، وكانت الخيبة منتظرة وكيف تطلب إنصافاً ممن هو خصمك وحكمك!؟ وانفض المؤتمر برجوع الوفود العربية إلى بلادها لا تحمل فى حقائبها غير حبر على ورق والقلوب ملأى بالأسى والحيرة.

غير أن هذا المؤتمر وإن يكن خائباً ودليلا على التزام الانكليز جانب اليهود فإنه أظهر نتائج موضعية فى القضية الفلسطينية، فقد اتصل العرب بالانكليز اتصالا مباشراً وتداولوا الرأى معهم فى حل المشكلة الفلسطينية. ويكاد يكون هذا الاجتماع أول التئام لشمل العرب فى وفد واحد من أجل المشكلة الكبرى التى قامت فى عصرنا وأصاب الحزن من أجلها كل قلب عربى مؤمن بالحرية للشعوب وبتقرير المصير كما كان هذا المؤتمر صورة جلية للقومية العربية التى تكاتف أهلوها وكأنهم البناء المرصوص يشد بعضه بعضا فى سبيل فلسطين الدامية المغلوبة لإنقاذها من الكارثة المنتظرة.

ورأى الانكليز أمامهم فى هذا المؤتمر وفداً من العرب كل واحد من أعضائه قد تدرع بثقافة وسياسة لا تنطلى عليهما الأحابيل الاستعمارية، ولم يكد البريطانيون يحتكون بالرأى مع هذا الوفد العربى حتى وجدوا أنفسهم حيال رجال عالمين بخفايا السياسة الأوروبية وأفانين استعمارها، ولم يكن يسند هذا الوفد العربى أساطيل وجيوش ليكون قوياً مؤيداً فيفرض حلولا لقضيته.

وكيف كان الأمر فإن الانكليز رأوا فى الوفد العربى الماثل أمامهم رجالا ذوى حجج وأدلة استطاعوا أن يفهموهم عن قرب مطالب القومية العربية فى حق

---

(١) يعد بعض المؤرخين المحدثين هذا الاجتماع أول مظهر من مظاهر الجامعة العربية قبل حدوثها بالفعل.

فلسطين و باطل اليهود . وكان الانكليز قبلئذ قد دعوا ادعيات اليهود وحسبوها حقائق ولم تكن سوى افتراء وبطلان ، فلما جاءهم العرب فى ديارهم يردون دعوى اليهود أخذوا بأعين الاعتبار والتمحيص ما سمعوا من العرب وإن كانوا فى دخائل أنفسهم وفيما ظهر منهم من المماحكة والتسويف قد غمطوا الحق نصيبه وصبغوه بالباطل والتمويه .

لقد ذهب اليهود فى دعواهم بفلسطين إلى أنها ملك لهم كما تنص التوراة ، وأن الشعوب الرومانية والاسلامية التى جاءت فلسطين كانت أيديها مغتصبة للأرض التى استعمرتها ، فاليهود يريدون أن يعودوا بالتاريخ أدراجه حتى تخلص لهم فلسطين ، وفاتهم أن الأرض يعمرها العباد الصالحون كما يقول القرآن الكريم . وقد أتى على فلسطين حين من الدهر تداولتها فيه أيدى الفاتحين وطبعها كل فاتح بطوابعه فلما جاءها الاسلام كان المسلمون خير فاتحيها ، أخذوها من أيدى البيزنطيين الذين ساموها سوء العذاب فنشروا فيها العدل والرخاء ، وأقبل عليها عمر بن الخطاب ومعه عبد الرحمن بن عوف بعد أن استقر فيها العرب وأراد عمر أن يرى بعينيه الأرض التى بارك الله حولها والمسجد الأقصى وقد خصه القرآن برحلة الإسراء النبوى إليه وكان كل ذلك كافياً على طوال السنين أن يطبع تلك الأرض بالطابع الإسلامى الراسخ بعد أن خفقت أعلام الجيوش الاسلامية عليها أربعة عشر قرناً من عمر الزمان .

وقد تعود الانكليز عادة مطبعية بعد كل مؤتمر فينشرون كتابا عن موضوعه وماجرياته . فهم تارة يسمونه الكتاب الأخضر أو الأسود وقد يشرحون فيه مافاتهم شرحه ، فأصدروا بعد مؤتمر المائدة المستديرة كتاباً من هذا القبيل سموه الكتاب الأبيض . وقد كان فى الكتاب موضع للنظر فى قضية العرب بفلسطين كما سمعها الانكليز منهم وقد وضعوها تلقاء قضية اليهود .

وشاءت الظروف الدولية الخاصة بالانكليز أن تكشف لهم عن حقيقة اليهود المخادعين الغادرين الذين أصبحوا يكرهونهم . ولما تبينت للانكليز هذه الكراهية ضاحية أدركوا أن اليهود صاروا منافقين ، وتداولت الأيام هذه الكراهية فزادت فيها لا سيما حين كان الانكليز يقيدون الهجرة مسايرة للعرب واتباعاً لسياستهم الخاصة الاستعمارية .

وقد تجهم اليهود للكتاب الأبيض وعدوه بالنسبة لهم كتاباً أسود فأثاروا حوله ضجة وحشدوا له الأسباب التي تبطله ، فسخروا صحفهم العالمية والمحلية لتفنيده حتى ظفروا بما أرادوا ، فإن عصبة الأمم أهملته وكان للصهيونية في هذه العصبة بين الحربين أنصار أشداء ، كما أن الانجليز عملوا على إبطال مفعول هذا الكتاب الأبيض تدريجيا .

وأعقب هذه الظروف قيام الحرب الأوروبية الثانية ودخلها الانكليز وقضت عليهم تعاليم الحرب أن يحترسوا كل الاحتراس من أن تخلق لهم قضية فلسطين مشاكل داخلية .

وكانت البلاد الفلسطينية إبان ذلك كارهة لهم ، العرب يكرهونهم لأنهم سبب بلائهم بما نقضوا من المواثيق التي قطعوها على أنفسهم للحسين الهاشمي أثناء الحرب الأوروبية الأولى[1] واليهود بأقوالهم كارهين وهم متربصين إذ لم يجدوهم منجزين كل الانجاز لما قطعوا على أنفسهم من الوعود في إعطائهم أرض فلسطين كما يشاؤون ، وعاشت فلسطين في الحرب العالمية الثانية في قلق دائم كلا الفريقين العرب واليهود آخذ حذره من الآخر لايجد الفرصة مواتية للاحتكاك والتناحر ، وكانت هذه الحرب كافية لتظهر الانكليز على سوء نياتهم التي أضمروها لهم . وأخذ اليهود أواخر هذه الحرب يقومون بأعمال عدوانية ينزلونها بالانكليز أنفسهم مما أدهش الانكليز في أن تقلب لهم اليهود ظهر المجن ، فاضطرت السلطات الانكليزية إلى ضرب حصار ليلي على المدن اليهودية والمستعمرات المنبثة منهم في بقاع فلسطين ، وفي ذلك الوقت تسرب يهوديان إرهابيان إلى مصر فقتلا في ٣ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٤٤ اللوردموين وزير الدولة للشرق الأوسط المقيم بالقاهرة ، واستمرت هذه الحال الإرهابية بفلسطين حتى تضخمت خلال عام ١٩٤٥ .

وكانت السياسة الانكليزية التي توحي بها لندن ملتزمة جانب اليهود على الرغم من أفاعيلهم المجرمة وشكاوى القواد الانكليز وساستهم الموجودين في فلسطين من اليهود ، وقد كان المندوب السامي البريطاني أرسل تقريراً إلى لندن في شهر مايو ١٩٤٧ يقول فيه معرضاً بسياسة لندن :

« إن الطائفة اليهودية ترفض التعاون معنا لقمع الإرهاب ولو سمح للجيش

---

(١) راجع تفصيل ذلك في كلامنا على سورية في عهدها الفيصلي .

باستعمال السلاح لمات الإرهاب اليهودى فى ساعات ولكن لندن لم تفكر بذلك. (١)

وكان رجال الأمن من الانكليز إذا أمسكوا بيهودى من الإرهابيين أو المجرمين السياسيين حبسوه فى حجرة وثيرة ولم يمنعوا عنه شيئا من الطعام والشراب، وإذا صادروا عربياً أذاقوه أمر أنواع السجن وعاملوه مهما كان ذنبه خفيفاً معاملتهم للمجرمين السفاحين.

وحدثت مفاجآت القضية الفلسطينية منذ تقاوى هتلر وجعلت جيوشه فى الحرب الأوروبية الثانية تكتسح البلاد الأوربية الواحدة تلو الثانية، ومنذ احتل فرنسا وأشرف على سقوط الجزر البريطانية وهددها الأشهر الطوال بالغزو تغير الموقف فى فلسطين، بل غيره أمر آخر لا يقل خطراً عن الحرب نفسها ذلك أن هتلر قام بحملة شعواء على العنصر اليهودى فى أوربة متبعاً نظرية عرقية فى تصفية الدم الألمانى وتخليصه من اليهود، فاستأصل شأفتهم فى كل مكان وصل سلطانه إليه فى أواسط أوربة وخاصة فى البلاد التى يجمعها الدم الألمانى الأصل، وسادت النزعة الجرمانية فأخذت الألوف المؤلفة من اليهود تفزع إلى الهجرة أو يرمى بها فى معسكرات الاعتقال وتباد بطرق شتى، وقد بلغ من إنزال العقوبات بهم أن أجبرت النازية كبراء اليهود على كنس الشوارع، وقد اتصل خبر ذلك كله بفلسطين ودب الرعب فى قلوب اليهود بها فلم تغمض أعينهم خوفاً من بغتات الحرب فنامت شوكتهم قليلا وانتعش عرب فلسطين لأمر قادم ينقذهم من المستعمر والغاصب وذلك من الحالات النفسية للشعوب فهى إذا أرهقها باغ وهدد كيانها باتت ترتقب الخلاص على أية يد توصلها إلى حقها المسلوب.

وحل باليهود الفزع الأكبر حين ظهر القائد الألمانى رومل فى شمال أفريقيا فاحتل الديار المغربية والطرابلسية، وقبيل معركة العلمين التى غيرت وجه العالم أجمع، حزم اليهود أمرهم فى الشرق ليفروا إلى البلاد الأميركية أو يلجأوا إلى الجزر البعيدة. وقد شهدت مصر، إذ كانت أقرب البلاد العربية إلى موقعة العلمين ما حل باليهود فى بلادها من فزعة راعدة، وظهر الماريشال مونتجمرى بمظهر بطل خارق المواهب وكتب على يديه كسب معركة العلمين التى كانت سبب اندحار

(١) راجع مجموعة النصوص التى نشرها الأستاذ محمد على الظاهر عن فظائع الانكليز وغدر اليهود فى فلسطين.

الألمان وملاحقتهم بالخسائر حتى أبواب برلين . وكتب الجيشين الانكليزى والأمريكى الظفر الكبير فعاد اليهود إلى الانتعاش والتأميل وعاشوا من جديد بعد أن لاح لهم الهلاك . وقد تكشفت هذه الحرب عن نتائج سود أضرت بمصالح العرب ، فإن اضطهاد اليهود فى أوربا فتح باب الهجرة إلى فلسطين على مصراعيه لهم وكبر عددهم فيها كثرة مفزعة .

وكان كسب أمريكا الحرب حاملا الرضاء والغبطة لقلوب الصيونيين فى فلسطين وفى البلاد الأمريكية ، وجر ذلك نتيجة أفدح وهى ميل الصيونيين إلى الأمريكيين وأخذ هؤلاء بنصرة اليهود وتأييدهم .

أما الانكليز فخرجوا من الحرب منهوكى القوى كأنهم أمة فى الدرجة الرابعة بعد أن كانوا قبل هذه الحرب الأولى فتخلوا عن قضية فلسطين لتفتح أمريكا صدرها وتعانق اليهود أصدقاءها الجدد فى الشرق .

وأظهر اليهود إبان الحرب الأوروبية الثانية دهاء عرفوا بمثله فبدوا للانكليز مستضعفين وطلبوا حمايتهم بتزويدهم بالسلاح ، فزودهم الانكليز بعتاد حربى كثير ليكونوا إلى صفهم حين تصل الحرب إليهم فى الشرق العربى .

وبدأ التحول فى السياسة الانكليزية نحو اليهود ، فإن السلاح الذى زودوهم به سدد إلى ظهورهم بالغدر والمكايد ، ووجد العرب أن تلك المزارع والمستعمرات التى كان اليهود يتعهدونها بالرى والتنسيق قبل الحرب الأخيرة انقلبت بعدها إلى حصون وقلاع ، وتترس اليهود وراءها وأشرفت فيها الأبراج الحديدية المسلحة .

أما عداوة اليهود على الانكليز أنفسهم فقد صدق فيه القول العربى المأثور (اتق شر من أحسنت إليه) ، فكان اليهود يغتالون ضباط الانكليز وجنودهم وينصبون لهم الكمائن الليلية ، وكان من أفدح ما تلق الانكليز من اليهود نسف فندق الملك داود بهم فى القدس وكان مقرا لقيادة الانكليز فقتل فى نسفه منهم من لا يعوض عليهم بالأفضل .

لحق لدى الانكليز بالدليل والعيان أنهم أصبحوا مع اليهود يومئذ على طرف العدوان وليس ذلك غريباً من اليهود فمن أخلاقهم التقليدية أنهم يكونون مع الأقوى فإذا ضعف نفضوا أيديهم منه ، ولو أن العرب فى أيامنا هذه قد أتيح لهم

أن يكونوا يداً واحدة قوية لها حكمها فى السياسة الدولية لتغير موقف اليهود .

وتلد الحروب — كما قال الشاعر العربى القديم — أهوالا لم تكن بالحسبان فاذا حزب جديد من العصابات اليهودية ينشأ فى فلسطين للهدم والاغتيال والتقتيل ولها نزعات يسارية أو إجرامية فظهر للوجود عصابات (الهاجانا) المدافعة و (شيترن) التى كان أعضاؤها من الشباب اليهودى المتحفز المغامر و (آرجون زفاى ليومى) الوطنية الحرة . وصبت هذه العصابات نقمها وحممها على العرب والانكليز معاً .

وبات العرب يعجبون لتصاريف الزمن يرون أن ما كان بين اليهود والانكليز مماثل لما كان بين سنمار وصاحب القصر الممرد . فقد جازى اليهود الانكليز جزاء سنمار .

وكانت (الوكالة اليهودية) منذ أنشئت تنظم لإسرائيل أساليب الهجرة وهى متمتعة بالرعاية البريطانية ، وملخص دستورها يجىء فى هذه العبارة : (إسداء النصح والتعاون مع السلطات البريطانية فى ميادين الإدارة والاقتصاد والاجتماع وسائر الأمور التى لها علاقة بإنشاء الوطن القومى لليهود)

وقد قامت هذه الوكالة بتمثيل مسرحى فى حياتها الباطنة والظاهرة ، فتارة كانت تظهر للعرب أسباب التقريب بينهم وبين اليهود وآونة تدس سمومها فى كل حل مطروح على بساط البحث وتشكو من أعمال العصابات ، وهى ذاتها التى كانت تزودهم بالتشجيع وتبذل ما تستطيع من أساليب الترغيب ليهود العالم لكى يجيئوا إلى فلسطين حتى زاد عددهم فى سنة ١٩٤٥ زيادة كبيرة .

ولم يكن من الطبيعى ولا من المتفق مع الوضع الدولى أن تبقى فلسطين على ما هى عليه بعد الحرب الأوروبية الثانية ، ففتحت الأبواب للهجرة إليها والعرب مكتوفى الأيدى وفى نفوسهم غليان شديد ، وكان لابد إذن من وقوع حدث إما الحرب بين العرب واليهود أو ما يقاربها وأدرك الانكليز مغبة الأمور ، فدعوا — تداركا للاصطدام — إلى تقسيم البلاد الفلسطينية إلى دولتين : عربية ويهودية وقد قررت الجمعية العمومية بانكلترا هذا التقسيم فى شهر نوفمبر (تشرين الثانى) سنة ١٩٤٧ .

لم يكن هذا الحل بجانب العرب . وكان الانكليز قد اعتزموا إنهاء عهد الانتداب على فلسطين بعد أن رأوا العرب فى الشرق الأدنى قد هبوا من كل جانب مطالبين بالحرية والاستقلال ، فهذه سورية تستقل بحكمها ويخرج الفرنسيون منها وكذلك الحال فى لبنان ومصر متحفزة لأحداث وطنية كبرى ، وهى أقرب البلاد من الجنوب إلى فلسطين .

وكان الإنكليز سبباً فى إفلات القضية الفلسطينية من أيديهم بما مكنوا اليهود من أسباب القوة ، وخرجوا من فلسطين ماكرين ليفسحوا المجال لتصادم العرب واليهود فكانت الحرب الفلسطينية العربية ، وكانت المحنة الكبرى للجيوش التى شاركت فى الجهاد .

٤ — الحرب العربية الفلسطينية

ويل للتاريخ إذا حاد عن الحق ولزم المصانعة للظروف السياسية والدولية لا يكتب التاريخ للمعاصرين . فالمعاصرون يشاهدون الحوادث وهم مشتركون مع المؤرخين على قدر يسير أو كثير فى معرفتها وملابستها وإنما يكتب التاريخ للأجيال القادمة حين يكون المؤرخون قد أسندوا رؤوسهم إلى وسائد الأبدية تاركين للشعوب المتكررة الحكم على أقلامهم وضمائرهم .

وما من شىء أشد مسئولية على المؤرخ فى الصراحة والتأويل من تاريخ الحرب الفلسطينية المعاصرة التى أجمع فيها ملوك العرب ورؤساء جمهورياتهم على محاربة اليهود الذين اغتصبوا فلسطين وشردوا أهلها .

لقد خرج العرب عن سكونهم بعد الحرب العالمية الثانية وهم عزل من السلاح وهل كانت تنفعهم الحماسات الروحية وحدها بينما كان اليهود شاكى السلاح لديهم العدد الحربية والعديد من الجنود .

وقد انسحب الانكليز من فلسطين وأخلوا لليهود مدينة (حيفا) آخر الأمر لتكون بابا مفتوحا لليهود على البحر يرد منه عليهم الإمداد الغربى ، واحتشدت الجيوش العربية يومئذ منذ ١٥ مارس ١٩٤٨ للقيام بالحرب المقدسة لإنقاذ فلسطين ورفت على هذه الجيوش المستبسلة روح الفاتح العظيم صلاح الدين الأيوبى منقذ

فلسطين فى القرون الوسطى من أيدى الصليبيين ، وتقاطر إلى المعارك المطوعة العرب من كل صوب وحدب يحدوهم الشعور المتوقد بالإخلاص والفداء ، وهبت المقاتلة والمطوعة من كل بلد عربى تفتدى بأرواحها الوطن العربى المغتصب حتى أحدقت الجيوش باليهود .

وقد صحب هذه الهجمة إعلان اليهود استقلالهم بعد خروج الانكليز من فلسطين فأعلن مجلس حكومتهم المؤقتة فى ١٤ مايو سنة ١٩٤٨ : « أن دولة اسرائيل ستفتح أبوابها لهجرة اليهود من جميع الأقطار التى تبعثروا فيها، وأنها ستعمل على النهوض بالبلاد لمصلحة السكان ، وستكون نظمها على أساس الحريات والعدالة والسلام وهى تعاليم الرسل من اليهود ، وستحقق المساواة الاجتماعية والسياسية لمواطنيها بلا فروق مصدرها العنصر أو الدين أو الجنس » .

وطاب الموت فى سبيل الله والوطن لأبناء العروبة ، وكادوا يأخذون اليهود بضربة من عزيز مقتدر ، لولا أن الحركات الغربية والتيارات الداخلية والخارجية أفسدت تلك الحرب وفلت من عزيمتها وصدتها عن وجهتها المثلى وخشيت السياسة الأوروبية على نفسها أن يكون نصر العرب فى فلسطين بدأ زوالها من الشرق ، فكان أن أوقفت تلك الحرب بهدنة بين العرب واليهود أعلنت بعد مؤتمر عقد فى رودس سنة ١٩٤٩ ، ثم انقلبت تلك الوقفة المباغتة إلى إنسحاب وقفت عنده خطوط الهدنة ، بينما كانت الألوف من سكان فلسطين قد غادرت ديارها لاجئة إلى البلاد العربية المجاورة إبان تلك الحرب وبعدها ، غادروها مقهورين مشردين، مصابين بالأرواح والمال .

ولم تكن المدن العربية التى ضمت أفواج اللاجئين من عرب فلسطين إلا مثل أخوات مواسية فى النكبة الكبرى التى لم تكن ضربة قد وقعت على الديار المقدسة فحسب ، وإنما هى صدمة هزت كيان العالم العربى أجمع وراح مئات ألوف من اللاجئين موزعين فى بعض الأصقاع من الديار العربية تحت الخيام وفى الضواحى فلم تضمهم المدن وكتبت عليهم مظلة ومسكنة يعانون منهما الشقاء .

واليوم ونحن نؤرخ هذه الحرب نستمطر رحمات الله على أرواح أولئك الشهداء الذين فاضت أرواحهم الطاهرة إلى بارئها وهم فى ساحة الشرف تاركين وراءهم ثأرا لا يمحى ولا بد أن تعود معه فلسطين إلى العرب .

٥ — إسرائيل

لم يركن اليهود للصمت والسكينة قانعين بما ظفروا به عدوانا واغتصاباً وإنما أرادوا أن يجروا مع العرب تسوية كأنهم أهل البلاد أو أصحاب حق فيما أصابوا.

وقد كبرت كلمة تخرج من أفواههم فإن العرب لا يعترفون بقيام دولة يهودية بين ظهرانيهم مهما كلفهم الأمر.

وما أفادت الأساليب التى لجأ إليها اليهود وأعوانهم من الغربيين إلى إقناع العرب بأن اسرائيل غدت حقيقة واقعة ولا بد من الاعتراف بها.

كذلك يأتيك غاصب فيحتل حجرة ببيتك ثم يقول لك اعترف بى كأى من صحبك وأهلك.

لقد قامت دولة إسرائيل الغاصبة على عوامل لم يكن للعرب قبل بها ، فالمال الصهيونى الدولى هو الذى كون تلك الدولة وأخرجها من العدم ، وكانت مآرب الغربيين وفى طليعتهم الانكليز أن تكون إسرائيل نقطة تنغض العرب فى الشرق وارتكاز للسياسة الاستعمارية ، وكل ذلك ليحولوا دون نهضة الشعوب العربية.

وساعد الصهيونية ظروف دولية مشت معها خطوة فخطوة إلى تحقيق مآربها وكان العامل الأساسى هو المال « مستعبد الشعوب »

ما أشبه فجائع الدهر فى التاريخ العربى قديمه وحديثه ، لقد نزلت بتاريخنا نكبتان كبريان كانتا بسبب الغربيين فى قديمنا، أولاهما جلاء العرب عن الأندلس بعد أن فقدوا ملكهم فى أسبانيا لأسباب يلخصها المؤرخون بالتفكك والتناحر والمآرب الشخصية فغلبهم العدو واستأصلهم فراحوا شتاتا متناثرين فى شمال أفريقيا وأضاعوا ملكاً كان عزة العرب فى الفتوح المشهورة.

والثانية تكاتف الغربيين على العرب فى الحروب الصليبية واحتلالهم الجانب الغربى من المشرق العربى ليبلغوا آسيا ويمدوا إليها استعمارهم ، ولولا نور الدين وصلاح الدين وأمثالها من أبطال الأيوبيين ومن والاهم من اولئك الصناديد الذين صدوا الصليبيين لتغير وجه الشرق منذ ذلك اليوم ولكتب علينا العفاء.

وهذه ثالث نكبة من هذا القبيل تقع بالعرب وهى نكبة فلسطين وقيام إسرائيل فى هذه المنطقة .

وقد بادرت انكلترا ثم أمريكا فاعترفتا بقيام هذه الدولة المزعومة المفروضة ظلماً وغصباً ، ثم جعلت بعض الدول الممالئة لانكلترا وأمريكا تعترف باسرائيل وهى متكمية وراء حدودها ، منذرة بالحرب فى كل حين عادية على الحدود التى تفصلها عن البلاد العربية متذرعة كل يوم بواسطة للتوسع والاعتداء . ولم تكن حياتها الداخلية مستتبة فإن أحزاباً متناحرة تتقاسم آراءها وميولا خارجية تتقاذفها، وهى مثل شحاذ عجوز يطرق كل باب للاستجداء .

وتسود إسرائيل اليوم موجة من الاندفاع التعصبي تدعو إلى تجنيد الشعب كله وإعداده اعداداً عسكرياً منظما ، وفيها منشآت للصناعات العسكرية ولكنها ابتليت بتدهور اقتصادى مبيد .

وهى بين هذا الوضع وذاك لا تفتر فى كل يوم عن التعدى بالإغارة على الحدود التى خطها التهادن معهم ، لقد عددت حكومة شرق الأردن من غدرهم وعدوانهم ألف حادث لم تكن تتكشف كل حادثة منها إلا عن قتلى وجرحى ، وكذلك كان شأنهم مع سورية حين تجاوزوا الحدود وحاولوا تغيير مجرى الأردن ، وكذلك الحال فيما يفصلهم عن مصر من منطقة النقب ، وهم كلما اجترموا إثما ادعوا انهم المعتدى عليهم وسبقوا إلى الشكوى. ولمن تكون هذه الشكوى؟ إنها للجنة الهدنة التى تعاود عليها رؤساء لا سبيل لديهم إلى تحقيق أو اهتداء إلا برغبات سياسية لا زاجر فيها ولا تأديب .

ومن المحزن للعرب أن يجدوا اليهود اليوم يملكون من فلسطين أكثر من ثلثيها وهم لا يحفظون عهداً فى سلوكهم السياسى وراء الحدود التى احتلوها إذ مازالوا يغتصبون ما يستطيعون اقتطاعه من الأرض بين الحين والحين . وإذا أحصينا البلاد التى أصبحت فى حوزتهم وجدناهم يتصرفون بها تصرف المالك بملكه وهى خمس عشرة مدينة من أنضر المدن الفلسطينية وأعرقها تضم : صفد والناصرة وسمخ وطبريا وعكا وحيفا وبيسان وشفا عمر وترشيحة ويافا واللد والرملة وبئر سبع والقدس الجديدة . كما تضم نحواً من ستمائة قرية عربية تابعة لهذه البلاد . كما وضعوا أيديهم الغاصبة على ما تركه العرب بفلسطين ـ بعد أن شردوا ـ من متاجر وأموال ومساكن

وبساتين وتسمى فى فلسطين (بيارات) فقد بلغ إحصاء هـــذه المغانم حداً مفزعاً فهى :(١)

« سبعون ألف منزل للسكن . خمسون ألف متجر . مائة وخمسون ألف منزل فى القرى . أربعة ملايين دونم من الأراضى الزراعية ، مائة وخمسون ألف دونم من أراضى البيارات . خمسمائة ألف دونم من اراض فيها كروم الزيتون والتين والمشمش واللوز . خمسة ملايين دونم من أراضى الأحراج والمراعى » .

كما استحوذوا ظلماً على كل مال منقول فى تلك الدور والمساكن والدساكر قد يقدر ثمنه بألفى مليون جنيه .

ولم يكفهم ذلك الانتهاب وإنما جعلت الدول المستعمرة تمدهم بعونها وخاصة أمريكا ، فإنها منحتهم حتى سنة ١٩٥٢ أربعمائة مليون دولار . كما حازوا من التبرعات اليهودية بأمريكا نحواً من ٥٠٠ مليون دولار ، واستطاعوا أن يحوزوا من ألمانيا تعويضات قرابة هذا المبلغ ، فأنشأوا مستعمرات جديدة بلغت ثلاثمائة مستعمرة ، وبلغت مصانعهم فى عام ١٩٥٤ ألف مصنع .

ولم يفتروا عن الغدر والعداوة — كما قلنا — لأن من طبيعتهم العنصرية الغدر ومن تركيب جبلتهم التعدى والاقتراء .

وقد أتيح لإسرائيل أن تكون لها سياسة خارجية — أيضاً — فأصبح لها سفارات ومفوضيات فى الديار الأجنبية . كما صار لهذه الدول مندوبون وسفراء لديها . وقد استخدمت اشتات الطرق فى الدعاية بافتتاح مكاتب لها لبث الدعاية من أجلها فى عواصم البلاد الأوروبية والأمريكية الكبرى .

٦ — اللاجئون

أيها المشردون من عرب فلسطين فى مشارق العالم العربى ومغاربه! يد الله تعينكم وروح القدس ترف عليكم حيثما كنتم متضورين جوعاً فى خيامكم أو ساكنين إلى القدر فى مدنكم .

إن فلسطين تناديكم جميعاً وتنادينا معكم لأنها لكم ولنا !

---

(١) هذا الإحصاء من مقال المؤرخ الفلسطينى الأستاذ عزة دروزة .

لا ينبغى أن يحسب الفلسطينيون أنفسهم غرباء حيث كانوا فإن العروبة واحدة فى كل صقع عربى ، وقديماً شهدت شعوب العالم مثل هذه الغلبات ، فمن استولى عليه اليأس منها ضاع وذهبت ريحه ، ومن صمد للنكبات استعاد مجده أو عاد إلى مرابعه وأرضه .

اللاجئون الفلسطينيون لن ينسوا فلسطين فهم منها ووجهتهم إليها فى كل حين، ولو امتزجوا اليوم بإخوانهم أبناء البلاد العربية التى نزلوا فيها ، فإن ذلك الامتزاج من شأنهم ، لكن لن يصرفهم عن مثلهم الأعلى فى العودة إلى الأرض المقدسة ، إن الجيل الصاعد منهم ملىء بالحماسة والثأر . والكهول منهم والشيوخ يملأ قلوبهم الحنين إلى الوطن المغتصب .

وقد نشأت لهم مشكلة من أخطر المشاكل التى يعانيها العالم العربى منذ خرج الفلسطينيون من بلادهم عرفت فى التداول السياسى بمشكلة اللاجئين ، لأنها باتت معقدة إلى أقصى حدود التعقيد . لقد توزعتهم بلاد العرب المجاوره حيث استطاع كل فريق منهم أن يلجأ إلى البلد الأقرب فنهم عديد فى قطاع غزة وبمصر ، وآخرون فى سورية ولبنان وشرقى الأردن وفى العراق والمملكة السعوديه .

ويعترض مشكلة اللاجئين تعنت اليهود فهم يزدادون كل يوم وسيلة للحيلولة بين اللاجئين والعودة إلى ديارهم المغتصبة والتعويض عليهم فيما فقدوه .

ولو أجلنا الطرف فى عالم هؤلاء اللاجئين لارتد إلينا خاسئاً وهو حسير . إنهم يعيشون اليوم تحت الخيام فيرفعون أعينهم الحزينة نحو السماء فى الشتاء يخشون الأعاصير أن تهب فتقتلع خيامهم ويخافون المطر أن يغرقهم سيلها ، كان الأمراض تفتك بهم ومن سكن منهم المدن أكثرهم فقير محروم .

ولم تكن مشكلة اللاجئين الفلسطينين مشكلة سياسية فحسب ، وإنما استحالت إلى قضية إنسانية بحتة تتعلق بشعب فقد وطنه وشرد فآوى إلى البلاد العربية المجاورة يلتمس ما يمسك حياته من الموت ، بينما احتل وطنه الغالى شراذم اليهود القادمون من آفاق البلاد التى طردتهم أو كرهتهم .

ولقد كان قرار تقسيم فلسطين الذى أقرته هيئة الأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ مبدأ هذه النكبة التى أجلت عرب فلسطين عن ديارهم بعداً عن الوقوع فى أسر اليهود الذين أذاقوا من آثر البقاء من العرب فى دياره سوء العذاب ، ولم يكن

من آثروا البقاء في الوطن الغالي كثيرين . وعلى الرغم من ذلك فإن إسرائيل تطرد كل حين نفراً لتتخلص منهم[1] .

ولم تألُ الدول العربية جهوداً في مساعدة اللاجئين فاختصتهم بالإيواء وضروب المساعفات وأنشأت لهم وسائل المساعدة لتعليم أبنائهم . وتبنت جامعة الدول العربية مشروعاً لعونهم ، ويعيش نصفهم في المدن والنصف الآخر في معسكرات ومخيمات في العراء .

ومن النتائج التي نشأت عن نكبة اللاجئين وجود جماعات أمريكية حضرت إلى بلاد العرب لإغاثة اللاجئين الفلسطينين في هيئة سميت بوكالة الغوث .

وقد اهتمت جامعة الدول العربية اهتماماً محموداً بقضية اللاجئين وخاصة في تعليم أبنائهم فأنشئت فيها دائرة خاصة بهم ، ولجنة لدراسة السبل الكافلة بتأمين العلم لناشئة اللاجئين ، كما أسهمت الدول العربية في هذا التعليم فأنشأت المدارس والمعاهد لأبناء فلسطين وإغاثتهم في نكبتهم غوث الشقيق للشقيق فنظمت دراساتهم ولاحقتها باحصاء متزايد في كل عام . وكان مجلس جامعة الدول العربية في كل دورة من دوراته حريصاً على إيجاد حل نافع لتعليم أبناء فلسطين .

٧ — الصهيونية والصليبية

بين الحركة الصهيونية في الشرق والحركة الصليبية تشابه وثيق . فلقد اتحدت عزيمة الأمم الغربية المتعصبة في القرون الوسطى على محو العروبة والإسلام من المشرق . فقام ملوكهم الطغاة وشعوبهم المندفعة وراء النزعات الجامحة بحملتهم الصليبية الكبرى

لقد أهابت البابوية باهل الغرب منذ القرن الحادي عشر حتى الثالث عشر للبلاد في أن ينتزعوا بيت المقدس من أيدي المسلمين وهب لاستجابة هذه الدعوة

---

(١) في أواخر شهر مايو سنة ١٩٥٠ طردت إسرائيل حوالي مائة وعشرين عربياً اتجهوا نحو بلاد الأردن فراحوا يجوبون الصحراء حتى هلك أكثرهم جوعاً وعطشاً ولم تبلغ بقيتهم الأردن إلا بعد ستة أيام وسط بيداء لاهبة وهم عطاش جياع ؛ ثم قذفت إسرائيل في شهر يوليو سنة ١٩٥٠ جماعة ثانية من العرب كان عددها ألفاً وخمسمائة عربي ، ألقت بهم في صحراء سيناء فهلك منهم نفر كثير وتوالت مثل هذه المنكرات وما زالت حتى اليوم .

أمم من الأجناد والمطوعة هبة رجل واحد يحدوهم شعور ديني وكان مرافقوهم إليه مبطنين لغرض أبعد ، غرض سياسى استعمارى لاستملاك المشرق .

ولم يكن المسلمون فى وقت من الأوقات خلال وجودهم فى فلسطين منذ الفتح الإسلامى حتى العصور المترادفة يمنعون الحجيج المسيحى من زيارة بيت المقدس إذ أن تعاليم الدين الإسلامى الحنيف قد منحت أهل الذمة والكتاب حرية مثلى فلم تحملهم حملا على الدخول فى دين المسلمين ، وتعد الديانة الإسلامية بحق المثال العالى فى دعوتها إلى الحرية الدينية . وقد كان مقام المسيح فى القدس محلا للحرمة والحفاوة فى كل عهد من عهود الخلفاء والأمراء وكل من تبع هؤلاء .

وقد بدأت أول حملة صليبية سنة ١٠٩٥ الموافقة لسنة ٤٩٥ هجرية ، دعا إليها البابا (أوربان الثانى) أهل فرانسة إلى القيام بحرب من أجل امتلاك الديار المقدسة .

وقد استطاعت تلك الألوف الغازية المسيحية من عبور البحار والوصول إلى شمال سورية ثم إلى فلسطين حتى استولت على بيت المقدس سنة ١٠٩٩ للميلاد . ثم امتد سلطانها إلى امتلاك السواحل الغربية لبلاد العرب والتوغل فى طول البلاد وعرضها سنة ١٢٠٤ للميلاد الموافقة لسنة ٥٠٤ للهجرة .

وكان الغرض الاستعمارى للصليبيين بعد حصولهم على بيت المقدس التى استولوا عليها بالحديد والنار بعد معركة هائلة هو أن يتموا الاستيلاء على فلسطين وسورية وقد تم لهم ذلك بعد مجازر عديدة وتعرضوا لمجاعات وحصار . وكان عنادهم السياسى هو المارب الوحيد الذى تبعوا دعوته إلى ماأرادوا من الفتح والاستعمار ، وأقاموا فى فلسطين حكومة بيت المقدس ، وكان أحد قواديهم حاكماً على القدس وهو الصليبى « غودفروا » .

ولم يتم المسلمون على الضيم فى هذه البغتات العادية التى ملك بها الصليبيون بلادهم المقدسة فكانوا فى حرب مستديمة معهم حتى استرجعوا فلسطين سنة ١١٨٧ م . لكن دعوة جديدة ثارت نارها فى الديار الغربية للتغرير بالمنهزمين ، وفدت حملتهم بجيوش جرارة جديدة كان يقودها بعض ملوكهم ومنهم ملك فرنسا فيليب أغسطس وريتشارد قلب الأسد ملك انكلترا .

وحاول الصليبيون بعد أن امتدت مطامعهم الاستعمارية فى بلاد الشرق أن يغزوا مصر فاتفقوا مع أهل فينسيا فى أن يؤجروهم السفن التى تقوم بايصالهم

إلى شطوط الاسكندرية ولم يتم لهم ما ارادوا فاستمالوا اليونان إلى مثل ذلك ورفض هؤلاء .

وكيف تم لهم الأمر فإنهم استطاعوا أن يجعلوا من الحوض المتوسط بحيرة مسيحية لتجارتهم ونفوذهم الاستعماري خلال إقامتهم في الشرق ، وأتوا ابان ذلك من حروب الأفاعيل الطاغية ماسود صفحة التاريخ بذكرهم المقرون بأفظع المخازي البشرية التي صبغت أرض بلادنا بالدم ولفتها بالنار والدمار . وكان من أعمالهم الجسام التي يندى لها جبين الدهر كلما ذكرت أن قتلوا قتلة واحدة نحوا من سبعين ألفا في الحرم المقدس لاذوا به عائذين . وقد فتكوا بالشيوخ والأطفال والنساء فتكاً ذريعاً . وقد تجاوزوا حدود الطغيان إلى إحراق دور العلم واستولوا نهبا على ألوف المخطوطات التي نجدها في عصرنا تطل في مكتبات الغرب من رفوفها شاهدة على الإثم الذي ارتكبه ناهبوها في العصور المتوسطة وملكوها فصارت اليوم لديهم من أغلى الآثار الباقية التي تضم علوم المسلمين المنقطع نظيرها .

وقد أطلق العرب في العصر المتوسط كلمة (الإفرنجة) على الصليبيين ، وأحاط مؤرخوهم بأعمالهم فوصفوا حروبهم الاعتدائية الأثيمة وحالة بلاد الإسلام يومذاك وما لقيت من البلاء ، وقد صمدت في وجه الغاصبين حتى ظلوا في السواحل ولم يستطيعوا التوغل في داخل البلاد العربية ، وكانت غايتهم الوصول إلى دمشق بعد مدينة القدس فلم يبلغوا مأربهم . وقد كان حلمهم المعسول أن يقيموا في الشرق ملكاً لهم جديداً فلما وجدوا انفسهم قد فازوا بأنطاكية وطرابلس ومدينة القدس أطلقوا على هذا الفتح اسم (الدولة اللاتينية) .

وقد هاجر إلى الشرق آلاف المهاجرين من كل البلاد الأوروبية ممن ضاقت بهم سبل العيش ليعيشوا في فلسطين وسواحل سورية حاسبين أن دولة الصليبيين ستدوم وقد أطلق عليهم اسم البرغاسيين وهم التجار . كما جاء الشرق طوائف من التجار المستثمرين الايطاليين لينشئوا شركات استثمارية ببضائع الشرق .

وكان مما يؤسف له أن حالة البلاد العربية يومذاك مشتتة الشمل فلا ناصر ولا معين ، الأهلون شغلهم اليسر أو العسر عن أمر الوطن والحكام تنابذوا وتطاحنوا وعدا أمير منهم على أمير . وتلك حال كل بلدة إبان انحلالها حتى أتاح الله سبحانه لبلاد العرب منقذها الأعظم صلاح الدين الأيوبي بطل الحروب الإسلامية

التى كشفت الصينية عن المشرق ، فقد استطاع السلطان صلاح الدين بعد أن صار إليه الأمر بوفاة السلطان نور الدين بن زنكى سنه ٥٦٩ للهجرة وكان على مصر نائباً له فقام بجمع كلمة المسلمين ووثب بهم وثبة قضت على الصليبيين فى مصر، وقد كانوا قدبلغوا سواحلها، ثم سيرجيوشه نحوفلسطين وسورية وراءهم وكانت موقعة حطين المشهورة فى جهات طبرية بدء لزوال الصليبيين من الشرق ، وعقد الله لصلاح الدين لواء النصرفيها سنة٥٨٣ للهجرة ، ثم فتح صلاح الدين القدس بعد حصارقصير بالمصالحة، وكان مثالا لرعاة العهد والميثاق، وجرى وراء الصليبيين فى شمال سورية، وبعد ست سنين من تحرير فلسطين توفى صلاح الدين ودفن فى دمشق حيث زار مرقده منذ مات ألوف لاتحصى ذكر كل واحد من أفرادها عظمة هذا الفاتح الذى خلص البلاد العربية من اغتصاب الفرنجة .

وحين زار غليوم الثانى امبراطور الألمان سورية أوائل هذا القرن قصد إلى قبر الفاتح صلاح الدين مطأطئ الرأس اكباراً للقائد الإسلامى الأعظم الذى علم الفرنجة معنى الوفاء والرحمة بعد اليأس والشدة .

ذلك مافعله صلاح الدين . أما مافعله اليهود يومذاك فهو أنهم ألفوا الصليبيين وجعلوا يبذلون لهم العون ويتاجرون من أجلهم بالسلاح يحصلون لهم عليه تلقاء المال الذين كانوا يطمعون فيه .

ومات صلاح الدين وفلول الصليبيين باقية فى فلسطين وسورية تعاود الغدر كلما سنحت لها السوانح حتى ظهر السلطان بيبرس أول عهد المماليك بمصر ، فاستطاع سنة ٦٦٤ أن يسوق على الصليبيين جيشاً أجلاهم عن فلسطين ، ثم لحق بهم حتى أنطاكية ومات مخلفاً بعده عزيمة لا تفل فى سوق أخلافه لإتمام رسالته الوطنية الخالدة فى تخليص البلاد من الغزاة المغتصبين، وتم ما كان يريد فإن الأمراء المسلمين بعده استأصلوا شأفة الصليبيين .

ورقد كذلك السلطان بيبرس بدمشق حيث تقوم اليوم المكتبة الظاهرية عند ضريحه ، فكان ذلك تشريفاً لسورية أن يرقد فى ثراها الطيب ثلاثة من ملوك المسلمين الذين حموا ذمارها فى العصور الوسطى وهم نورالدين وصلاح الدين وبيبرس. وهكذا بقى الصليبيون مائتى عام فى بلاد المشرق ثم زالوا، ولو أتيح لبلاد المسلمين

إبان وجودهم نظام وجيش وإخلاص لما استطاع أولئك المستعمرون أن يطأوا الديار المقدسة .

* * *

تلك سيرة الصليبيين فى لمحات تصويرية عرضناها لنربط فى تاريخ شرقنا العربى حياة بائسة مرت عليه بحياة أشد بؤساً يعانيها اليوم من وجود دولة اسرائيل التى أقيمت فى صميم قلبه لتحول بين ذلك القلب ونبضاته فى عصر تألبت دول الغرب وأمريكا على العرب كتألبها فى الحروب الصليبية . وتعد الحركة الصهيونية مشابهة للحركة الصليبية من حيث الاغتصاب والعدوان ، وكلا الحركتين اعتصمت بالحيلة الدينية فى مظهرها وأبطنت الاستعمار والغرض السياسى الهدام ، وتكشفت الحركة الصهيونية منذ بدأت فى العالم عن أهداف خبيثة بعيدة المدى ، دعت اليهود إلى امتلاك الأرض المقدسة باسم قدمهم فيها ونصوص التوراة التى وطدت لهم أرض الميعاد . ولم يكن الغرض فى مظهره إلا دينيا لكنه أبطن العدوان على العرب وامتلاك أرضهم بأساليب الشراء فالغصب فالعدوان بالسلاح .

وقد تكشفت الدواهى البشرية الأوربية فى عصرنا عن الصهيونية الغاشمة التى لم تكن إلا استمرارا للروح الصليبية المتأصلة فى نفوس الغرب مضمرة كل نقمة واستعمار .

إن الغوائل والمفاسد تبدو بأشكال منكرة مختلفة إذا غاب منها شكل بدا شكل وتبقى روحها قوية لا تموت . ولقد غابت الصليبية عن وجه الشرق فى العصر الأوسط لتعود فى عصرنا أنكر شكلا وأسوأ سبيلا . إننا لنرى وراء القنـــاع الصهيونى وجه تلك الصليبية الطاغية .

لقد قامت الحركة بغتة إثر نداء دنىء من البابا ثم استغلت للاستعمار فى الشرق أما الصهيونية فبدأت بفكرة استعمارية استظلت باسم الدين واختدعت يهود العالم بالتوراة واعادتهم إلى أرض الميعاد ، وكان للأدب إسهام بعيد فى تشويق يهود العالم إلى إقامة دولة لهم فى فلسطين فآثار ديزرائيلى وجورج إليوت وجوزيف كيسيل طافحة بالدعوة إلى اليهودية الأممية تواقة والهة إلى أورشليم .

واشتغل إلى جانب هؤلاء رجال السياسة اليهودية فى ممالك أوربة وجمهورياتها

وفى أمريكا يدعون إلى إقامة وطن قوى للصهيونيين تكون فلسطين مقره ، وبقيت هذه المحاولات مواجة عائمة حتى جاءت الحرب الأوربية الأولى ففتحت باب الأمل لليهود على الرغم من التضييق الذى لقيه يهود فلسطين من القائد التركى جمال باشا إبان هذه الحرب حتى فر منهم الكثير إلى أرض مصر .

ثم جاءت نوبة دهاقين السياسة الأوربية وهم الانكليز الذين حققوا الأحلام الصهيونية بعد أن استفادوا من مال اليهود .

ومشابهة أخيرة بين الصهيونية والصليبية تبدو فى أهليهما ، فالأولى تشكلت من ممالك مختلفة وشعوب متفاوتة وكذلك الثانية. وإن النتيجة التى خضعت لها الصليبية ستخضع لها الصهيونية ، فلقد تشتت شمل الصليبيين إذ لم يخضعوا لقيادة واحدة ، وأبطرهم الفتح والاستبداد فاشتغلوا بالمطامع فأمكن الله المسلمين من أعناقهم حتى أجلوهم عن بلادهم . وإذا نظرنا اليوم إلى حالة اليهود بفلسطين وجدناهم شيعاً وشعوباً متنابذين متخالفين فيهود الغرب كارهون ليهود الشرق ، ويهود الغرب أنفسهم ليسوا على قلب واحد، ففيهم الروسى الشيوعى والبولونى الكاره للشيوعية ، ولغاتهم مختلفة وليس فيهم من يتكلم العبرية إلا الشباب الذين تعلموها بفلسطين ، وليس يؤلف بينهم إلا الدين فقط ، وهو الذى ألف بين الصليبيين، وقد فسدت نيات الدين وانقلبت إلى مقاصد استعمارية لم يعد غرضه نافعاً وانفض العقلاء عن دعاته ، وهذا ما تعانيه اليهودية المعاصرة فقد ابتليت بانقسام فى السياسة ولم يعد الوازع الدينى يجمعها على كلمة واحدة . وقد ثبت أن فريقاً من اليهود أصبحوا يؤثرون الرجعة إلى بلادهم مما كابدوه من الضيق والتعسف ، ولولا أموال الغربيين التى تسند اليهود اليوم من أن يتداعوا للهدم لوجدناهم على أسوء حال وأقبح مصير .

تاريخ سورية

١ — اقتسام بلاد العرب

تكشفت الحرب العالمية الأولى عن مؤامرات دبرها الاستعمار الغربي أثناء الحرب للسيطرة على الشرق العربي بعد التخلص من حكم الترك فيه ، وكان الغربيون مشبهين بهذا التآمر المحكم المدبر من ينتظر الموت لمريض حتى يقتسم تركته .

كان ساسة الغرب يقومون بذلك وهم يمدون الأيدى لمصالحة العرب واستمالتهم إليهم راغبين فى مودتهم ومعونتهم ، وكانت انكلترة أحذق أولئك فى التوصل إلى ما أرادت من مسالمة العرب واسترضائهم عالمة أن الشعور القومى العربى المقرون بالنزعة الدينية إذا هب فى وجهها يوما ما سيكون عاملا قوياً فى حدوث كثير من المتاعب فى الشرق وبخاصة إذا ظفر الحلفاء وحكموا البلاد العربيـة كما شاءت مآربهم .

فأبدت انكلترة من الحكمة والروية فى تدارك ما يحدث من المخاطر والشغب لو أن العرب ناصبوها العداء ووقفوا يصدون الحلفاء عن بلادهم . ولم يجد الانكليز شخصية إسلامية عربية غير ملك الحجاز الحسين بن على شريف مكة وولديه الأميرين فيصل وعبد الله ، وقد استطاعت انكلترة أن تضمن بواسطة الشريف وولديه سياستها العتيدة لبلاد العرب حين أيدت العرب بمطالب الاستقلال والحرية ، وظهر ذلك التأييد فى الرسائل التى يتبادلها الحسين وهنرى مكماهون ممثل انكلترة فى مصر سنة ١٩١٥ .

وقد كان الشريف حسين برسائله هذه داعياً إلى وحدة العرب واستقلالهم معلناً حقوقهم فى السيادة والمساواة . وكان الانكليز يظهرون رضاهم عن هذا الشعور المتبادل مؤيدين مطالب العرب واعدين بأن يكفلوها بعد الظفر فى الحرب شريطة أن يكون العرب معهم مستجيبين للتعاون الذى يريدونه. وكان شريف مكة الهاشمى ذا مقصد نبيل حر هو أسمى ما يتمناه العرب فى إنشاء دولة عربية كبرى متحدة واشتد طموح الشريف مستجيباً لشعور الأحرار من العرب الذين كانوا يتنادون

فى الخفاء التمرد والجهاد ، فخرج على حكم العثمانيين فى شهر يونية (حزيران) ١٩١٦ وجعل يناوئهم ويتحداهم وكان أول من أعلن الثورة عليهم .

وفى ذلك الحين كان الإنكليز يتداولون وجوه الرأى مع الفرنسيين والروس لعقد معاهدة بينهم يتقاسمون فيها البلاد العربية التى ستجلو عنها تركيا إذا خسرت الحرب ، فعقدوا معاهدة باسم (سايكس بيكو)(١) ، وفيها اختطوا الخطط فى مناطق النفوذ والاحتلال واقتسموا البلاد العربية مخادعين للشريف وولديه ملوحين لهم ولأشياعهم بالوعود والأمانى .

ولما كسب الحلفاء الحرب ظهرت حقائق قلوبهم وخفاياهم ، فإذا هم طغاة مستعمرون لا يعرفون عهداً سوى عهد القوة والتفوق فخالفوا ما عاهدوا عليه العرب ولعبوا فى الخفاء ألاعيبهم السياسية . وكان للبلاد العربية من جراء هذا التملص والانحراف حروب وثورات .

وسورية على الخصوص التى كانت منذ القديم موطن العروبة أصيبت بمطامع الفاتحين والغاصبين لموقعها الحربى والطبيعى فى الشرق الأوسط ، فهى باب الصحراء وعتبة البحر . وقد بقيت قوية على الرغم من الأحداث التى أصابتها فاستعدت لمواجهة أيامها الآتية مؤمنة بأنها أقوى من الكوارث والأحداث .

٢ — سورية بعد الحرب العالمية الأولى

يبدأ تاريخ سورية الحديثة بعد الحرب العالمية الأولى التى هبت سنة ١٩١٤ وانتهت سنة ١٩١٨ ، وقد كتب عليها — إذ كانت تحت الحكم التركى — أن تكون من المغانم التى تقاسمها الحلفاء حين كتبوا الحيف والضيم على المغلوب فكانت سورية من نصيب الفرنسيين .

لقد ألقت ألمانيا بسلاحها فى ١١ نوفمبر (تشرين الثانى) سنة ١٩١٨ فانهزمت معها حليفتها تركيا وخرجت هذه من سورية مشتتة أمام الفرق العربية بقيادة الأمير فيصل بن الحسين الذى احتل « معان » ثم زحف إلى دمشق فدخلها ظافراً

---

(١) عقدت فى ١٦ مايو سنة ١٩١٦ وهى معاهدة سرية بين الشريف حسين وانكلترة كان فيها أحد الطرفين فرانسة فى ممثلها « بيكو » وكان مندوب انكلترة « سايكس » .

عزيزاً حاملا فى قلبه الأمل الكبير لإقامة ملك عربى واسع يشع من دمشق على العالم العربى .

وكانت دمشق تخفق فى ذلك اليوم خفقة الفؤاد والطرب إذ استطاعت بعد مرور القرون الطوال — وهى رازحة تحت الحكم التركى الغاشم — أن تظفر عيناها برؤية أول ملك عربى يحكمها فى العصر الحديث حكم العزة والاستقلال .

ولم تكن النفوس لتخفى فرحتها وانتعاشتها بعد طويل حرمانها وخمولها من جراء ما لقيت ، وكانت جيوش الحلفاء تلاحق الأتراك فى إحالتهم تلك التى انسحبو فيها من دمشق بعد أن فكروا فى دكها — كما فعل الفرنسيون بعد ربع قرن حين خرجوا منها مدحورين — إذ ليس بالأمر اليسير انفكاك الغاصب عن الأرض التى اغتصبها عنوة وكرها ، فكان لابد لمثل ذلك من كيد مدبر وفتنة غاشمة ، على أن هذه الخطة التى أعدها الأتراك قد فسدت قبل رحيلهم .

وبدأت العيون تنظر إلى الجيوش العربية وفيها جند وقواد من المستبسلين المدربين انفكوا من الجيش التركى والتحقوا بكتائب الجيش الفيصلى بجاهدين العروبة والاستقلال فأقبلوا على عاصمة الأمويين تخفق راياته وتحمحم خيوله ؛ ولم يكن ذلك اليوم المشهود الذى دخل فيه الجيش العربى دمشق للعزة والفرحة فحسب وإنما كان مبعثاً للحزن الدفين على الشهداء.[1] الأحرار من العرب الذين ضاق بهم جمال باشا قائد تركيا فى الشرق الأدنى إبان الحرب العالمية الأولى فأمر بإعدامهم فى ٦ مارس ١٩١٦ ، ولعل أرواح أولئك الشهداء الأبرار كانت تدوم فوق الرؤوس ذلك اليوم العظيم وهى مستبشرة سعيدة بالفجر العربى الحديث .

دخل الشريف فيصل بن الحسين سورية فى مستهل اكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٩١٨ وأخذ يبعث الطمأنينة فى النفوس ، فعهد إلى سلطة عسكرية تشرف على الحكم ريثما تؤلف حكومة مدنية ، وقام بجولة فى أنحاء سورية للاستطلاع فى ٢٢ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩١٨ . وقد اضطر إلى السفر متجها صوب الغرب ليحضر مؤتمر الصلح نيابة عن والده الحسين ويقابل المسؤولين من ساسة الانكليز والفرنسيين فلقى الحفاوة والتكريم وحضر حفل الافتتاح لمؤتمر الصلح فى ١٨ يناير

---

(١) من هؤلاء الأفذاذ : العسلى والمؤيد والزهراوى وسلوم ، والشهابى والمحمصيانيان الشقيقان محمد وأحمد ، والعريسى والبساط وأمين حافظ وعمر حمد .

(كانون الثانى) ١٩١٩ . وفى ٦ فبراير (شباط) ١٩١٩ خطب الأمير فيصل فى هذا المؤتمر وطالب بحقوق العرب فى الحرية والاستقلال وأنهم يريدون دولة عربية متحدة. ولم يدخر الأمير الهاشمى وسعاً فى الاتصال بالمسئولين، وقد استعان بصديقه لورانس الانكليزى على الاتصال بمن يحسن فيهم الظن ويرجو منهم الخير، لكنه خاب أمله حين تكشف المؤتمر عن محاولات ودسائس وضعت لتعوق قيام أية دولة عربية مستقلة فى الشرق . وقد خادع المؤتمرون الأمير فيصل فوعدوه من جديد بأن يكون تقرير المصير عائداً إلى السكان أنفسهم باستفتاء عام ، واستجابت عصبة الأمم لذلك فأرسلت لجنة عرفت باسم «كينغ كراين»[1] إلى سورية ولبنان وفلسطين مستفهمة متصلة برجال البلاد . وبعد أن قامت هذه اللجنة بالمهمة أدركت أن هذه البلاد تلح فى طلب الاستقلال التام وتكره الصهيونية وترفضها ، كما أن قسما من أهل البلاد رضوا بالمساعدة الأمريكية أو الانكليزية . وقليل من لبنان طلبوا أن تكون من فرنسا ، وهذه اللجنة الدولية تسلمت من السوريين بيان المؤتمر السورى الذى وضع ميثاق الاستقلال .

وقد ظهر للأمير فيصل يومذاك أن الرئيس الأمريكى ولسن المشهور بوصاياه الكافلة للحرية سيكون أكبر مؤيد لأمانى العرب فى الحرية والاستقلال . لكن فرانسا وانكلترة كانتا تصطنعان الخداع والتغرير وتعدان وتمنيان مطالا وتمويهاً ومكراً .

وفى أغسطس ١٩١٩ دعا رجل السياسة الانكليزية «لويد جورج» الأمير فيصل للحضور إلى لندن لمعرفة ما يمكن أن يقبل به العرب ، فخف الأمير العربى إلى لندن (سبتمبر ١٩١٩) وكان معه وفد من مستشاريه ومعاونيه ، ولما بلغوها فى التاسع عشر من هذا الشهر (سبتمبر) وجدوا الاتفاق قد تم بين «لويد جورج وكليمنصو» على اقتسام مناطق النفوذ ضاربين صفحا عن عهودهم للعرب ، ووافق كليمنصو على اقتراح لويد جورج بإحلال الجيوش الفرنسية محل الجيوش البريطانية فى كيليكية والساحل السورى على أن تبقى فلسطين فى عهدة الجيش البريطانى وحصر سيادة العرب بالمنطقة الداخلية من سوريا . واشترط كليمنصو ألا تؤثر موافقته

---

(١) من ذوى المال والنفوذ بأمريكا ومن المطلعين على السياسة فى الشرق .

هذه فى التسوية النهائية المتعلقة بالانتدابات والحدود تأمينا لاستيلاء فرنسا على كامل سوريا .

وكان الجواب على هذه المؤامرة أن هب السوريون النضال والحفاظ على استقلالهم فعقدوا مؤتمراً سورياً يوم ٨ مارس ١٩٢٠ أعلنوا فيه الأمير فيصل ملكا على سورية وأيدوه بوزارة أحاط بها الشعب .

وقد أصدر هذا المؤتمر السورى قرارا تاريخياً تعد وثيقته من أشرف الوثائق فى تاريخ النهضة العربية الحديثة نذكر نصه فيا يلى :

« إن الأمة العربية ذات المجد القديم والمدنية الزاهرة لم تقم جمعياتها وأحزابها السياسية فى زمن الترك بمواصلة الجهاد السياسى ، ولم ترق دماء شهدائها الأحرار وتثر على حكومة الأتراك إلا طلباً للاستقلال التام والحياة الحرة بصفتها أمة ذات وجود مستقل وقومية خاصة ، لها الحق بأن تحكم نفسها بنفسها أسوة بالشعوب الأخرى التى لا تزيد عنها مدنية ورقياً . وقد اشتركت فى الحرب العامة مع الحلفاء استناداً على ما جهروا به من الوعود الخاصة والعامة فى مجالسهم الرسمية وعلى لسان ساستهم ورؤساء حكوماتهم وماقطعوه خاصة من العهود مع جلالة الملك حسين بشأن استقلال البلاد العربية وما جهر به (ويلسون) من المبادىء السامية القائلة بحرية الشعوب الكبيرة والصغيرة واستقلالها على مبدأ المساواة فى الحقوق وإنكار سياسة الفتح والاستعمار وإبقاء المعاهدات السرية المجحفة بحقوق الأمم وإعطاء الشعوب المحررة حق تعيين مصيرها ، التى وافق عليها الحلفاء رسمياً كما جاء فى تصريحات المسيو بريان رئيس نظار فرنسا بتاريخ ٣ نوفمبر سنة ١٩١٥ أمام مجلس النواب واللورد جراى وزير خارجية بريطانيا العظمى فى ٢٣ اكتوبر سنة ١٩١٦ أمام لجنة الشئون الخارجية وتصريح الحلفاء على مذكرة الرئيس ولسون بتاريخ ١٠ كانون الثانى سنة ١٩١٧ وتصريح المسيو ريبو رئيس نظار فرنسا بتاريخ ٢٢ مايس سنة ١٩١٧ أمام مجلس النواب وبيان مجلس النواب الافرنسى ليلة ٤ — ٥ حزيران سنة ١٩١٧ وبيان مجلس الشيوخ

بتاريخ ٦ منه أيضاً وماجاء فى الخطاب الذى ألقاه المستر لويد جورج فى جلاسجو بتاريخ ٢٩ حزيران سنة ١٩١٧ .

وقد كان ما قام به الملك حسين من الأعمال العظيمة فى جانب الحلفاء هو الباعث الأكبر لتحرير الأمة العربية وإنقاذها من ربقة الحكم التركى خلد فى التاريخ العربى أجمل الآثار وأفضلها .

وقد أبلى أنجاله الأمراء مع الأمة العربية فى جانب الحلفاء البلاء الحسن مدة ثلاث سنوات حاربوا خلالها الحرب النظامية التى شهد لهم بها أقطاب السياسة وقواد الجند من الحلفاء أنفسهم وسائر العالم المدنى . وضحت الأمة العربية بالعدد الكبير من أبنائها الذين التحقوا بالحركة العربية من أنحاء سورية والحجاز والعراق ، فضلا عما قام به السوريون خاصة فى بلادهم من الأعمال التى سهلت انتصار الحلفاء والعرب على ما أصابهم من الاضطهاد والقتل والتعذيب ، تلك الأعمال التى كان لها الأثر الكبير فى انكسار الترك وجلائهم عن سورية وانتصار قضية الحلفاء انتصاراً باهراً حقق آمال العرب بوجه عام والسوريين بوجه خاص فرفعوا الأعلام العربية وأسسوا الحكومات الوطنية فى أنحاء البلاد قبل أن يدخل الحلفاء هذه الديار .

ولما قضت التدابير العسكرية بجعل البلاد السورية ثلاث مناطق أعلن الحلفاء رسميا أن لا مطمع لهم فى البلاد وأنهم لم يقصدوا من مواصلتهم تلك الحروب فى الشرق سوى تحرير الشعوب من سلطة الترك تحريراً نهائيا ، وأكدوا أن تقسيم المناطق لم يكن إلا تدبيراً عسكرياً مؤقتاً لا تأثير له فى مصير البلاد واستقلالها ووحدتها . ثم إنهم قرروا ذلك رسمياً فى الفقرة الرابعة من المادة الثانية والعشرين من معاهدة الصلح مع ألمانيا . فاعترفوا فيها باستقلالنا تأييداً لما وعدوا به من إعطاء الشعوب حق تقرير مصيرها . ثم أرسلوا اللجنة الأمريكية للوقوف على رغائب الشعب فتجلت لهم هذه الرغائب فى طلب الاستقلال التام والوحدة السورية التامة .

وقد مضى عام ونصف عام والبلاد لا تزال رازحة تحت الاحتلال والتقسيم العسكرى الذى ألحق بها أضراراً عظيمة وأوقف سير أعمالها ومصالحها الاقتصادية والإدارية وأوقع الريبة فى نفوس أبنائها من أمر مصيرها ، فاندفع الشعب فى كثير من أنحاء البلاد وقام بثورات أهلية متحدياً الحكم العسكرى ومطالبا باستقلال بلاده ووحدتها .

فنحن أعضاء هذا المؤتمر رأينا بصفتنا الممثلين للأمة السورية فى جميع أنحاء القطر السورى تمثيلا صحيحاً نتكلم بلسانها ونجهر بارادتها وجوب الخروج من هذا الموقف استناداً على حقنا الطبيعى والشرعى فى الحياة الحرة وعلى دماء شهدائنا المراقة وجهادنا المديد فى هذا السبيل المقدس وعلى الوعود والعهود والمبادىء السامية السالفة الذكر وعلى ما شهدناه ونشاهده كل يوم من عزم الأمة الثابتة على المطالبة بحقها ووحدتها والوصول إلى ذلك بكل الوسائل ، فأعلنا باجماع الرأى استقلال بلادنا السورية بحدودها الطبيعية ومن ضمنها فلسطين استقلالا تاماً لا شائبة فيه على الأساس المدنى النيابى وحفظ حقوق الأقلية ورفض مزاعم الصهيونيين فى جعل فلسطين وطنا قومياً لليهود أو محل هجرة لهم .

وقد اخترنا سمو الأمير فيصل ابن جلالة الملك حسين الذى واصل جهاده فى سبيل تحرير البلاد وجعل الأمة ترى فيها رجلها العظيم ملكاً دستورياً على سوريا بلقب (صاحب الجلالة الملك فيصل الأول) وأعلنا انتهاء الحكومات الاحتلالية العسكرية الحاضرة فى المناطق الثلاث ، على أن يقوم مقامها حكومة ملكية نيابية مسؤولة تجاه هذا المجلس فى كل مايتعلق بأساس استقلال البلاد التام إلى أن تتمكن الحكومة من جمع مجلسها النيابى ، على أن تدار مقاطعات هذه البلاد على طريقة اللامركزية الإدارية ، وعلى أن تراعى أمانى اللبنانيين الوطنية فى إدارة مقاطعتهم لبنان ضمن حدوده المعروفة قبل الحرب بشرط أن يكون بمعزل عن كل تأثير أجنبى .

ولما كانت الثورة العربية قد قامت لتحرير الشعب العربى من حكم الترك كانت الأسباب المستند إليها إعلان استقلال القطر السورى هى ذات الأسباب التى يستند إليها فى استقلال القطر العراقى . وبما أن بين القطرين صلات وروابط لغوية وتاريخية واقتصادية وطبيعية وجنسية تجعل كلا من القطرين لا يستغنى عن الآخر فنحن نطلب استقلال القطر العراقى استقلالا تاماً على أن يكون بين القطرين الشقيقين اتحاد سياسى واقتصادى .

هذا وإننا باسم الحكومة السورية التى أنابتنا عنها نحتفظ بصداقة الحلفاء الكرام محترمين مصالحهم ومصالح جميع الدول كل الاحترام وإن لنا الثقة التامة بأن

يتلقى الحلفاء الكرام وسائر الدول المدنية عملنا هذا المستند إلى الحق الشرعي والطبيعي فى الحياة بما تتحققه فيهم من نبالة القصد وشرف الغاية فيعترفوا بهذا الاستقلال ويجلو الحلفاء جنودهم عن المنطقتين الغربية والجنوبية ليقوم الجند الوطني والإدارة الوطنية بحفظ النظام والإدارة فيهما مع المحافظة على الصداقة المتبادلة حتى تتمكن الأمة السورية العربية من الوصول إلى غاية الرقى وتكون عضواً عاملا فى العالم المدنى .

وعلى الحكومة التى تتألف استناداً على هذا الأساس تنفيذ هذا القرار » انتهى البيان .

وقد شكلت على أثر إذاعة هذا القرار التاريخى الخطير حكومة أسندت رئاستها إلى السيد هاشم الأتاسى .

وهكذا استطاع الأمير الهاشمى الذى دخل سورية على أمل ومحبة وفداء أن يؤلف حكومة دستورية قوية من رجال ذوى عقيدة ومعرفة وإيمان . وكانت مهمة الحكومة توجيه البلاد السورية نحو الحكم الديموقراطى الصحيح . وقد أسس أولو الأمر مجلساً تشريعياً وإدارياً للشورى والنظام .

وإن من أبرز ما اتصف به قرار الأمة السورية فى مؤتمرها هذا المشهور ، أنه جمع فأوعى كل مراحل الحركة القومية لسورية منذ أواسط الحرب العالمية الأولى حتى دخول الحلفاء أرض سورية بعد انتهاء هذه الحرب .

وكانت فيه ظاهرة قومية عريقة تدل على الوعى السورى المبكر ، وتلك الظاهرة أن القرار نص على رفض الوطن القومى اليهودى وطالب باستقلال فلسطين كما سفه الحركة الصهيونية ونبه إلى خطرها الداهم وما يكون من النتائج الذميمة المبيدة للعرب من جراء هجرة اليهود إلى فلسطين .

لقد جلس الملك فيصل على عرش سورية مدة قصيرة فكأن سورية إذ ذاك جددت عهدها القديم منذ أيام الأمويين ، ولكن الفرحة لم تطل فقد نقض الحلفاء العهد واقتحم الفرنسيون سورية غصباً باسم الانتداب .

٣ — ميسلون

ما اكتفى الفرنسيون باحتلال لبنان وحده وإنما كان رأيهم ومرادهم أن يمتد نفوذهم إلى سورية ويتسللوا إلى حكمها فأخذوا يتذرعون لغايتهم بشتى الأسباب ويصطنعون كثيراً من الأساليب لتحقيق أغراضهم. وقد اتخذوا من موقف المجلس اللبناني الإدارى سبيلا لمناوأة السوريين[1].

وكان بعض الأعضاء فى هذا المجلس قد أبدوا ميلا إلى سورية ودفاعاً عنها إلا طائفة من المارونيين فإنهم تأبوا على هذا الدفاع والميل وأعلنوا تعلقهم بفرنسة والفرنسيين وإيثارهم حكم الاحتلال على الاستقلال.

فأصدر الجنرال «غورو» إنذاراً إلى حكومة سورية مدته أربعة أيام بقبول الانتداب الفرنسى من غير قيد أو شرط وتسريح الجيش العربى ومطالب أخرى دون اعتراض.

ولم يكد الانذار يصل إلى الحكومة السورية العربية حتى بادر الفرنسيون إلى احتلال موقعين مهمين على الحدود بين سوريا ولبنان.

ومالت الحكومة إلى قبول الإنذار خشية الصدمات والدواهى وتمنع بعض الأعضاء وخالف بعض آخر إذ لم يكن لديهم جيش منظم ولا معدات حربية أو ذخيرة كافية، لكن الشعب السورى رفض الإنذار بحماسته ونخوته رفضاً باتاً واهتاج يطلب الجهاد والدفاع عن حريته وحقوقه. وهنا استجاب البطل الفدائى يوسف العظمة — قائد الجيش السورى الأول ووزير الحربية للسرحين والأهلين فراحوا يتصدون للجيش الفرنسى عند اقتحامه الوطن، وقد غير الموقف هذا البطل الخالد بحماسته وشهامته.

وكان الملك فيصل يقدر الظرف الحرج بتقليب وجهات النظر لكنه مضى مع الأمة كافلا سمعة العرب الذى ماوقفوا — على قلتهم — دون الدفاع عن ذمارهم فى طويل العصور وفى مختلف العهود. فأعلن الجهاد ودعا الشيخ كامل القصاب[2]

---

(١) كان فى رجال المؤتمر السورى طائفة من اللبنانيين أيضاً فضلوا الوحدة السورية واشتركوا فى أمانى الحرية والاستقلال.

(٢) توفى سنة ١٩٥٣ وكان من أخلص السوريين لقضية الوطن.

الوطنى الصالح ليخطب بالناس ويبين لهم فضل الجهاد فهاجوا وماجوا واندفعوا مع القائد العظمة نحو ميسلون ليصدوا العدو المغير ويحولوا دون دخوله بلادهم .

ومضى يوسف العظمة نحو روابى ميسلون (١) على رأس المستبسلين وطائفة كبيرة من أهل دمشق وقراها هاجتهم الحمية والنخوة . وكان عدد السوريين نحو ثلاثة آلاف مقاتل، ولم يكونوا متمرسين بالجهاد والكفاح أمام الجيش الفرنسى الجرار.

فاحتدمت المعركة فى ٢٤ يوليو (تموز) ١٩٢٠ بين الفريقين ، ولم تدم أكثر من ساعات وغلبت فيها القنابل والطيارات والدبابات الفرنسية الزاحفة .

لكن يوسف العظمة أبى إلا أن يستجيب لشعور قومه ويثبت فى الميدان . وكأن الشاعر أبا تمام راح قبل ألف عام يصفه بهذا البيت :

فأثبت فى مستنقع المـــوت رجله ... وقال لها من تحت أخمصك الحشر

وكان الجيش الفرنسى ماضيا فى هجومه الجاحم ولم يبق بينه وبين البطل يوسف العظمة سوى خطوات حتى أصابته رصاصة من مدفع رشاش فوقع شهيداً وصبغ دمه الطاهر أرض وطنه مع من قتل خيرة الفدائيين فى تلك المعركة ذلك اليوم .

ودخل الفرنسيون دمشق غصباً وعنوة واحتلوا سورية ناقمين غاشمين . واليوم يرقد هذا البطل الخالد فى المكان الذى وقع فيه شهيداً ، يرى مرقده كل قادم إلى دمشق وراحل عنها ، ، وتجثم على مقربة منه قبور مئات الشهداء السوريين ، وإلى جانبها مقبرة الفرنسيين الذين قتلوا فى المعركة وكانو مئات أيضا(٢).

فمنذ ذلك اليوم تحوم أرواح شهدائنا فوق الوطن السورى تنادى بالحفاظ على استقلاله وتبعث فى نفوس ساكنيه ذكرى بطل كان رمزاً للتضحية والكرامة .

ولقد مر الشاعر العظيم احمد شوقى بذلك الدرب الحربى فوقف يقرأ الفاتحة على ضريح العظمة وراح يصف الموقف الرهيب بقصيدته التى قال فيها .

سأذكر ما حييت جـــدار قـــبر ... بظاهر جـــلق ركب الرمالا

مقـــيم ما أقامت « ميسلون » ... يذكر مصرع الأسد الشبـــالا

---

(١) ميسلون منطقة صحراوية حربية فى مقدمتها تلال ملتفة تبعد عن دمشق نحواً من ٤٠ كيلو متراً .

(٢) أقيم للبطل يوسف العظمة تمثال بالقرب من دار النيابة بدمشق يمثله وهو فى قلب المعركة وقد شهر سيفه .

لقـــد أوحى إلى بمـا شجـــانى ... كما توحى القبـــور إلى الثكالا
تغيب عظمــــة العظمـات فيــــه ... وأول سيـــد لقى النبـــالا
مشـــى ومشت فيـــالق من فرنسا ... تجر مطارف الظفر اختيـــالا
ملأن الجـــو أسلحة خفافـــاً ... ووجه الأرض أسلحـــة ثقالا
أقام نهـــاره يلـــقى ويلـــقى ... فلمـا زال قـرص الشمس زالا

٤ — النضال الوطنى فى سورية

ليس ثمة شىء فى حياة الأمم أقسى عليها من اختطاف حريتها والنقص من كرامتها وما عرفت أمة راقية فى تاريخ العالم الشرقى الحديث اختطف المغتصب استقلالها مثلما جرى لسورية الفتية الأبية التى لم تكد ترى عهدها العربى الحر حتى دهمها الفرنسيون هادمين استقلالها مدعين أن صك الانتداب الذى أقرته عصبة الأمم هو الذى سخر لهم احتلال سورية وفرض انتدابهم عليها .

ومنذ دخلوا سورية وضعوا نصب أعينهم إخراج الملك فيصل منها عالمين أن بقاءه فيها يحمل الأمة تلتف حول ذكراها الغالية فى الحرية والاستقلال .

وقد تحقق لهم ما أرادوا وأزعجوا فيصلا عن الوطن الذى شهد العاهل العربى الأول فى عهد الحرية بعد حكم العثمانيين . وقد خرج من سورية بعد أن وجه احتجاجاً إلى الحكومة الفرنسية وأبلغ صوره إلى الدول .

ولم يكد الملك فيصل يفقد ملكه ويرتحل إلى أوروبة لمواصلة جهاده ضد فرنسة حتى أصدر الفرنسيون أحكامهم العسكرية بفرض الغرامات وجمع السلاح والحكم بالإعدام والاعتقال على طائفة مختارة من وجهاء سورية وأبطالها فى الوطنية والعلم والإخلاص ، كما قضوا بالسجن على قواد الجيش السورى وكبار ضباطه .

ولم يكن انتداب الفرنسيين فى سورية الا احتيالا على الحق والواقع ، فإن معنى الانتداب فى العرف الدولى حسب صك عصبة الأمم هو استعانة الأمة الواعية التى لم تبلغ بعد الدرجة العليا فى الرقى بدولة راقية قوية تأخذ بيدها إلى استقلالها الكامل ، ولكن الفرنسيين تجاهلوا معنى هذا العرف الدولى وعكسوا الآية ، فإذا الانتداب لديهم لايختلف عن الاستعمار بل قد يكون أشد منه لأن مايتم فيه على وجه الحيلة

لا يتم فى الاستعمار وأساليبه ، وكانت الخطوات الأولى من حكم الفرنسيين لسورية أن جزؤوها إلى خمس دول كل واحدة منفصلة عن الثانية . ولقد لجأ الفرنسيون فى سياستهم الغاشمة إلى مبدأ (فرق تسد) فجعلوا سورية دويلات ومقاطعات . فأقاموا حيناً فى جبل الدروز دولة مستقلة وآونة فصلوا بلاد العلويين عن سورية وجعلوا عاصمتها مدينة اللاذقية . كما فصلوا سنجق الاسكندرونة عن أمة سورية وهو يضم أنطاكية ومدينة الاسكندرونة وأريافاً وقرى تطفح بالخصب والثروة كما جعلوا مدينة حلب ذات كيان انفصالى . وقد تأبى أهل هذه البلاد على التفرقة المصطنعة وطالبوا بالوحدة السورية .

وكان من البديهى أن لا يسود الهدوء سورية فى ظل هذه السياسة المنحرفة فنشأت أزمات داخلية بسبب تفريق البلاد وتقسيمها وصد أهلها عن مطالبهم وحقوقهم وتغريم الوطنيين الذين رفعوا أصواتهم وتأبوا على الوسائل التى اصطنعها المحتل وهو يشيع الرهبة فى الشعب ويسوس الحكم سياسة قائمة على الغصب والعنف والمغالطة .

ولم يعبأ حكام فرنسة بتأبى السوريين واستنكارهم لهـــذه السياسة الغاشمة وكان أكثر من يمثلهم موظفين لم يعرفوا بالدراسة والكفاية ولاجاءوا البلاد التى اغتصبوا حكمها مختصين بمعرفة أو حكمة أو إدارة ، بل لم تتحرج حكومة الانتداب من فرض موظفين ليسوا من أبنائها ، بل من رعاياها الذين نشأتهم على الرضا بالاستعمار ، فكان يأتى سورية ولبنان موظفون لكثير من مصالح الحكومة والشورى والاستعلامات ممن ضاق بهم الفرنسيون فى المغرب أو فى بلادهم ، وفيهم المحظوظون الذين أرسلوا إلى الشرق للمغانم وتسلموا أعمالا لم يخلقوا لها ولم يحلموا بمثلها فى قراهم أو مدنهم .

ولما ارتبطت العملة السورية بالعملة الفرنسية التى نكبت السوريين بتدهورها المتوالى وقع اضطراب اقتصادى جعل بعض السوريين ينزحون عن بلادهم إلى القاهرة وبيروت وعمان حيث التمسوا أسباب الرزق والكفاح ، وبعض آخر استقروا بالقاهرة للعمل على استعادة الحرية والاستقلال لسورية منضمين إلى الهيئات التى تخدم القضايا العربية وتجاهد لنصرة المقيمين بأرض الوطن وتحريرهم من عنت المحتلين .

وكان كلما اشتد ضغط الحكم الفرنسى بسورية ازداد السوريون نقمة عليه واحتجاجاً ، ولم يهدئهم تهديد ولا وعيد بل زاد من تأبيهم واستمساكهم بالنضال ماكانوا يرون من عنف « الانتداب » المزعوم ، ولم يجد أهل هذا الانتداب بدأ من الكيد للمفكرين ورجال الصحافة ، واستعانوا بالأحكام العرفية على إشاعة الإرهاب حتى تكف الأقلام عن حريتها وتخفت الأصوات فلا تطالب بحق ولا تسأل عن التخلص من ظلم .

وأبت الثورة — على هذا الوضع الذى فرضه حكم الانتداب تارة بالمصانعة وتارة بالإرهاب — إلا أن تشب وتشتعل فى بقعة سورية قريبة من ساحل اللاذقية تعرف ببلاد العلويين . وكان قائد هذه الثورة الأولى الشيخ صالح العلى فقد وقف عام ١٩١٩ فى وجه الفرنسيين مناوئاً متحدياً مستمداً من الحكومة العربية عوناً بأسباب النضال ، وبقيت ثورته عامين صامدة فى وجه المحتل الغاصب حتى هبت فى بقعة سورية ثانية ثورة أشد عنفاً ومقتاً للانتداب وكان قائدها « ابراهيم هنانو » الذى ناصبه الفرنسيون العداء ، وكانت ثورته على حكمهم مبعث النقمة والحيرة فإن وطنية هذا الزعيم جمعت حوله أبناء الوطن من المجاهدين والمخلصين لمناوأة الاحتلال والمحتلين .

٥ — الثورة الكبرى

١٩٢٥ - ١٩٢٧

لقد بلغ الشعب السورى حداً من الوعى الفكرى والاجتماعى مرموقاً فى الشرق العربى ، وعرف نعمة الحرية والاستقلال فى العهد الفيصلى فتمرد رجاله ونساؤه كباره وصغاره على الضيم الذى فرضه الفرنسيون بعد أن شردوا فريقاً من أعيان المجاهدين والوطنيين ، فبقيت نار الوطنية تتأجج فى النفوس وتنتظر مخرجاً لتكون بركاناً يسقط على رؤوس المغتصبين المعاندين .

وقد واتت الأيام أولئك الأحرار فقامت ضد الفرنسيين ثورة فى جبل الدروز لطغيان الحاكم العسكرى الفرنسى « الكابتن كاربيه » لأنه ساس الناس بالهوان والتغريم وأذاقهم المر فى معيشتهم واضطهد كبارهم وعز على زعيمهم

سلطان الأطرش أن يستهين هذا الحاكم الناقم بكرامتهم فهب ثائراً فى وجه الفرنسيين مستعيناً بزعماء دمشق الأباة على النضال والكفاح ، ومن أبرز الزعماء الذين أيدوه وساعدوه الدكتور عبد الرحمن شهبندر صديقه فى الجهـــاد ورفيقه فى الرأى والتدبير .

وقاد البطل سلطان الأطرش حملته ضد الطغاة النافين فكان أول ظفر لثورته فى يولية ١٩٢٥ ، فقد هزم الفرنسيين وارتدوا عنه خائبين بعد أن هلك من جندهم زهاء ثلاثمائة قتيل ، والوقعة الثانية بين حملة سلطان والجيش الفرنسى كانت فى أغسطس ١٩٢٥ بعد شهر من الأولى وكان ظفر سلطان فيها أعلى وأقوى . وأهم تصادم وقع بين الفريقين فى قرية تسمى المسيفرة أبلى فيها الثوار بلاء اكبر ، وسرت روح الثورة فى المدن والقرى السورية بالساحل والداخل .

ولما رأى زعماء النضال الوطنى ثورة الدروز تنادوا إلى الجهاد والمناوأة ولقيت دعوتهم استجابة قريبة سريعة من أنحاء البلاد .

أما الفرنسيون فقد حاروا فى هذه الثورة الشاملة التى امتدت من جبل بنى معروف إلى أكثر المدن السورية وأريافها ، وكانت ضربة الدروز فى طغيان المفترين قاصمة وبيلة فارتدوا من الجبل بالخزى والارتباك حين هبت فى غوطة دمشق ثورة حامية ، وقد اشترك فيها رجال مناجيد أضرموا على الفرنسيين نار الحرب فى طول البلاد وعرضها وراحوا يعتصمون بالغيطان والجبال والوعور وكلما مرت بهم حملة فرنسية انهالوا عليها بالنـار والدمار من كل جانب حتى أبادوها ، وعجز الفرنسيون عن إخماد تلك الثورة التى زادتها الأيام اشتعالا .

وإذ كان لابد لكل ثورة من مقصد يضمن خلود ذكراها على مر العصور فإن هذه الثورة الكبرى التى أقلقت الحكومة الفرنسية واستقرت فى الغوطة وجبل الدروز وظهرت روافدها فى حماه وأكثر البلاد السورية كانت ترمى إلى إقصاء الفرنسيين عن سورية وكان الجهاد من أجل الحرية معدوداً لدى كل أمة شريفة واجباً مقدساً .

وقد شهدت هذه الثورة من ضروب البطولة والفداء مايتعايا القلم دون تصويره فلقد كانت مدافع الفرنسيين تقصف بأقصى شدتها فتطير قنابلها من قلعة دمشق ليلة ١٨ اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٢٥ التى تتوسط أحياءها القـــديمة وتهبط

فى شوارعها القريبة والبعيدة محدثة الحرائق والتهديم ، وقد أحصيت ضحاياها فبلغت من الدور سبعمائة سوى من قتل وشرد من السكان .

صنع الفرنسيون ذلك انتقاماً من الثوار الذين لم يستطيعوا عليهم أمراً فراحوا ينتقمون من البلد وأهله بالتدمير والإحراق والاعتقال . وقد انقسمت الثورة فى تدابيرها الحربية إلى أفواج وفرق وتولى كل فريق قائد باسل ، وكانوا فئات قليلة (وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) . وهب للاشتراك فى هذه الثورة كرام القوم وأبناء الشعب فأبدوا من ضروب البطولات أعاجيب . وقد اقترنت معارك الغوطة المتكررة بأسماء أبطال خالدين كان من أشجعهم (حسن الخراط) وهو رجل خرج من صفوف الشعب السورى مجاهداً فى سبيل الله والوطن فأبلى البلاء الخارق وصنع روائع الحماسة فى هجماته على مراكز الفرنسيين حتى وقع شهيداً ، وراح مستبسلا فى هذا الجهاد كثير من الرجال والنساء .

وسجلت الثورة السورية ما أدهش المؤرخين . وإن معركة المزوعة التى حدثت فى شهر أغسطس (آب) ١٩٢٥ كانت إحدى المعارك التى لا تنسى فى تاريخ الجيش الفرنسى فى الشرق ، إذ كان قائد هذه الموقعة الجنرال (ميشو) وعدد حملته اكثر من خمسة آلاف مقاتل بكامل عدتهم فأطبق عليهم الثوار إطباقة واحدة من كل جانب ، وفتكوا بهم الفتك الذريع فلم يسلم منهم إلا مئات ولت فزعة أو مصابة بجراح .

وكان هؤلاء الثوار مؤلفين من أفواج على كل فوج مجاهد كبير يغتون مناطق الفرنسيين ليلا ويلوذون نهاراً بمعاقلهم ، وقد اشترك فى هذا الجهاد كثير من المحامين والأطباء والأساتيذ والضباط الذين كانوا فى الجيش العثمانى فالعربى ، وتسابق شجعان الأحياء بدمشق وغيرها إلى تأليف أفواجهم المحاربة فانضم كل فريق إلى من يعرفه ، وكان يرفد هؤلاء الكثير من أهالى القرى يشاركون الثوار فى جهادهم ليلا وفى غلس الصبح يعودون إلى قراهم ليباشروا أعمالهم اليومية . وقد وقع فى معارك هذه الثورة مئات من الأبطال قتلى ، وكان الفرنسيون ينتقمون من السكان السوريين بصنوف العذاب وأشدها الإعدام .

وقد بدت بوادر الضعف فى هذه الثورة أواخر أيامها إذ قل ناصرها وفقدت ذخيرتها وألف الفرنسيون جيشا خليطا من الأرمن والشركس المطوعة لمحاربة

الثورة فانقلب جهاد أبطالها وفلولها إلى ما يشبه المقاومة السرية التى عرفت إبان الاحتلال الألمانى للبلاد الغربية فى الحرب الأوربية الثانية ، وقد كان الفرنسيون فى أعقاب هذه الثورة فى حالة من الضراوة التى يعرفها تاريخ استعمارهم للشعوب ناسين حقوق الإنسان وما خطته ثورتهم الكبرى فى أوربا قبيل العصر الحديث .

لقد ملأ كتابهم الأحرار آثارهم بمطالب المساواة والعدالة الاجتماعية وبذكر الحرية وتقديسها ولكن مستعمريهم كانوا يجيبون على تلك الآثار الإنسانية الموهومة بظلم الشعوب التى استعمروها أو احتلوا ديارها .

ولما يئس الفرنسيون من أعمال الثوار وكبسهم لهم كل ليلة خربوا بعض أحياء دمشق بالقنابل — كما ذكرنا — وشردوا الشيوخ والنساء والأطفال ، فعلوا ذلك على غير هدى ، وخشى المجاهدون على دارة أمية من الدمار فانسحبوا من دمشق بعد أن توغلوا فيها وكسروا الحاميات الفرنسية عند منافذها ، وكان ذلك إيذاناً بانتهاء هـذه الثورة التى لجأت البقية الباقية من أبطالها إلى مصر والأردن وفلسطين .

وطفق الفرنسيون بعدئذ ينزلون غضبهم فى كل بلد أو قرية اشترك سكانها بالثورة فضربوا عليهم الغرامات والديات وجمعوا كل سلاح كان بأيديهم .

وهذه الثورة وإن أوشكت يومئذ على الخمود فإنها ملأت الدنيا بذكرها حتى بلغ خبرها أقاصى أوربا وأمريكا وشغلت الصحف وانقسم فيها الساسة فى فرنسة وغيرها بين مشفق ناقد أو مستعمر مخادع .

وحنت — بعد الثورة — دمشق والمدن السورية على نفسها مثل من فقد الكثير من ماله لكن روحه بقيت غنية موفورة الكرامة ، بل مثل جريح خرج من المعركة يضمد جراحه ويتعزى بالعزة وشرف الجهاد . كانت القصور والدور فى أجمل أحياء دمشق قد تهدمت بفعل قنابل الفرنسيين وحرائقهم فكنت ترى الأهلين مطرقين حزنا على ما أصاب عروس البلاد العربية من تهديم وحريق ، فضلا عن تشتت الأبطال وضياع الأموال . وكانت تلك الثورة نقطة التحول فى المصير السورى فخلقت جيلا جديداً ممتلىء الروح بالحماسة متأبياً على الذل والاستعمار مشى مع السابقين من المجاهدين ومضى إلى تأييدهم فى النضال . وكان البيت السورى مبعث هذه الحمية فى الفتيان والفتيات .

٦ ــ الجهاد السياسى

مهما طال كبت الحرية واصطناع الأسباب للغالطة فيها وانقضاضها فإنها لاتموت . وهى لابد أن تبعث أو تثار فتظهر قوية عزيزة وإن حيل بينهـــا وبين الحياة .

كذلك اتفق للحرية السورية ، فان الثورة الدامية التى خمدت فى غوطة دمشق وأنحاء الجبال وضواحى المدن قد تركت جذوتها فى قلب كل سورى ، وعاش المجاهدون بعد الثورة فى صورة سياسيين أتقنوا فن السياسة وعرفوا مداورات المحتل ، وكانت السلطات الفرنسية بعد الثـــورة الكبرى لمست نقمة السوريين وأدركت خطأها فى السياسة التى اتبعتها ، وقد تناولت الصحف فى الشرق والغرب وصف الطمائع والفضائح التى وصمت فرنسة وصمات بلغت حدها من البشاعة والفظاعة ، فقد شهد شهود من أهل الدولة الغاصبة بما اقترف عمالهم وحكامهم بسورية من ظلم وعدوان . وألفت كتب بهذا الموضوع ونشرت صفحات طويلة صورت العنف والطغيان اللذين رآهما الأجنبى فى استبداد الفرنسيين بأهل البلاد وإيقافهم كل دفاع عن النفس والكرامة . ولم يتحرج الدبلوماسيون الأجانب الذين كانوا فى دمشق من مشاركة أهلها فى الاحتجاج على مظالم الفرنسيين فى أثناء الثورة وبعدها .

وفى الوقت الذى كانت تزداد فيه حدة الانتقام من المحتلين ويشتد عدوانهم ، كان السوريون يعاهدون أنفسهم على الثبات فى الذود عن حريتهم على الرغم من كل تهديد يمسهم ، ولم تشغلهم الأحداث الطارئة ولا البغتات المدمرة عن رعاية إخوانهم المقيمين بينهم من غير دينهم فبسطوا لهم العناية والحماية مما يذكره المنصفون والتاريخ بالخير والتقدير .

أما الحاكم الكبير الذى وقعت فى عهده الفجائع الفادحة والمظالم الطاغية فهو القائد العسكرى « سراى » الذى عرف بادى الرأى بالطيبة وحرية القول والتخفيف من تبرم السوريين بالانتداب والمنتدبين ، ولولا حاشيته وأعوانه الذين

ورطوه بسياسة العنف والإرهاب لما وقعت الثورة الكبرى التى هبت فى وجهه ووجوه الموظفين الطغاة الذين تفننوا فى بغيهم وعدوانهم حتى أرسلت دولتهم فى باريس تستعجلهم بالانسحاب والإياب . مسئولين ملومين وبخاصة كبيرهم الجنرال « سراى » .

واستبدلت فرنسة العسكرى العنيف بمفوض لها من كبار المدنيين الممثلين هو السيد « هنرى دوجوفنيل » كان خطيباً أديباً عرف فى قومه ووطنه باللباقة والدماثة والحكمة .

وقبل أن يصل إلى دمشق اطلع على سياسة الانتداب فى سورية ، وفهم مطالب المجاهدين فى الحرية والاستقلال فآلى على نفسه أن يسوس البلاد سياسة قائمة على تبادل الاحترام وحل المشكلات المحلية لتنظيم الحكم واكتساب الثقة والمحبة ، ولم يجد بداً من الاتصال بوجوه القوم لمعرفة رأيهم والاستعانة بخبرتهم فى تطبيق سياسته العتيدة ، كما أن هذا المفوض مر بالقاهرة قبل وصوله إلى بيروت ، وفيها لقيه فريق من المجاهدين والمهتمين بالقضية السورية فاستفهم واستطلع ، وشاور وداور ، ثم مضى إلى منصبه الجديد مفوضاً سامياً لبلاده فى سورية ولبنان ، حاملا تبعة ثقيلة من حكومته التى مهما اختلف ممثلو الأحزاب فيها فى سياسة الاستعمار فإنها كانت لا تريد بوجه من الوجوه الهوادة والتراخى فى تطبيق هذه السيادة ، وإن جهر بعض أعضائها فى العطف على مطالب السوريين فى إلغاء الانتداب والجلاء عن بلادهم .

وأقبل السيد « دوجوفنيل » على سورية مستمعاً للمطالب ووقف فى حديقة المنشية بمدخل مدينة دمشق خطيباً قائلا :

(الحرب لمن يريد الحرب والسلم لمن يريد السلم ... »

واصطنع فى حديثه مع السوريين أسلوب المداورة والمغالطة وكان يزداد تمويهاً ومكراً كلما ازداد الوطنيون صراحة فى طلباتهم وإلحاحاً فى تحقيقها ، وكانت هذه الطلبات تتلخص فى عقد اتفاق بين سورية وفرنسة يحدد العلاقة بينهما ويطبق الرغبات السورية فى الحرية والكرامة ، وأن تدبر البلاد هيئات وطنية تركن لها الأمة . ويصدر عفو عام عن المحكومين .

وبذل مسيو « دوجوفنيل » جهداً طويلا للتفاهم على غير جدوى فقد أنشأ

وزارة سورية جديدة كان فيها من رجال السياسة السادة : فارس الخوري ، لطفي الحفار ، حسني البرازي ورئيسها الداماد أحمد نامي من أصل تركي ، وجعل لهذه الحكومة منهاجاً مرسوما فيه معاهدة بين الفريقين سورية وفرنسية بدل الانتداب على أن تبقى ثلاثين سنة تنتهي لاستقلال سورية ، وتنشيء جمعية خاصة بوضع الدستور.

وفي خلال مقام هذه الفوضى بسورية ولبنان كان اكثر ميلا للحزم والعزم في خطته وسياسته ، وكان موظفو الانتداب ما يزالون على طريقهم في التنكر للوطنيين وصدهم عن أي احتجاج أو تظاهر، وما كانت معاملة العسكريين إلا واحدة قبل الثورة الكبرى وبعدها ، وقوضت السياسة الجديدة بالعمل على تشتيت القوة الوطنية وتشجيع الدس والكيد بين أهل البلاد .

وارتد السيد « دوجوفنيل » إلى فرنسة في شهر مايو ١٩٢٦ لكي يتصل بحكومته ويعرض عليها نتيجة مفاوضاته وما يراه محققاً للمهمة والغاية .

ولم يعد هذا المفوض الفرنسي إلى إكمال محادثاته وتطبيق المنهج الذي وضعه للحكم في سورية ، فإن حكومة الانتداب أرسلت سواه وهو السيد « بونسو » الذي استغنى عن وزارة الداماد وألف وزارة جديدة برئاسة الشيخ تاج الدين الحسني ، وفي شهر ابريل سنة ١٩٢٨ جرى الانتخاب لتأسيس جمعية تضع الدستور ، وكان النجاح في الانتخاب من نصيب الوطنيين المعروفين بالنضال والوقوف بالمرصاد ولكل تجربة جديدة ، وضاق الفرنسيون بهذا النجاح فإن الوطنيين هم الذين كانوا في عداد الأعضاء وفازا السيد هاشم الأتاسي بالرئاسة ، أما رئاسة اللجنة التي وضعت الدستور فكانت من نصيب الحقوقي الكبير « فوزي الغزي »[1] وكان من أبرز الأعضاء . وقد جعل شكل الحكم في سورية جمهورياً وكانت مواده تحتوي كل ما يحقق المطالب الوطنية .

ولم تعجب المفوض السامي بعض مواد الدستور فيما يتعلق بالوحدة السورية وما يمس تطبيق الانتداب الفرنسي ويحقق سيادة الشعب ، فطلب حذف المواد التي تسيء بزعمه إلى التبعات الدولية التي تعهدت فرنسة القيام بها تجاه عصبة الأمم .

وكانت نصوص هذا الدستور سبب مجادلات كبرى إذ لم يقبل بها الفرنسيون وأرادوا أن ينتزعوا من الدستور المواد التي تشير صراحة إلى حرية سورية

---

(١) كان من أقطاب الوطنية في سورية وقد قتل مسموماً شهيداً في شهر تموز ١٩٢٨

واستقلالها حتى آل الأمر إلى تعطيلهم هذه الجمعية ، كما لجؤوا إلى الأخذ بالتمويه والمغالطة فأصدروا قوانين تحمى تفرقة البلاد ، وفى الوقت نفسه أعانوا على إظهار الأقليات الطائفية بمظهر المضطهد المغلوب ليثيروا النعرات المذهبية بين السكان .

وكانت البلاد السورية متجاوبة فى شعورها الوطنى لمقاومة المحتل والصمود لأساليبه الهدامة ، ففى مدينة حلب احتشدت جمهرة من المجاهدين وساسة البلاد وكانت على الدوام يقظة مبادرة يحدوها الإخلاص والتضحية ، وفى حماه برزت الوجوه الوطنية وفى حمص واللاذقية وجبل الدروز وحوران ودير الزور هب رجال مناجيد عاهدوا الله على إنقاذ الوطن من محنته . ودمشق التى ثبتت فى وجه الطغيان فى كل عهودها كانت محفلا وطنياً متوقداً .

ولم تنقطع المداولات السياسية بين الجانب السورى والجانب الفرنسى وإن أبت الجمعية التاسيسية الإذعان لمطالب المفوض الفرنسى الجديد .

ونشر المفوض قراراً بشأن هذا الدستور بين فيه أنه لايجوز أن يعارض حكم من أحكام الدستور السورى أى تعهدات قطعتها فرنسة على نفسها سواء فيما يختص بسورية تجاه جمعية الأمم أو بما له علاقة بالشؤون الخارجية إلا ضمن المسائل التى تحدد فى موافقة من الطرفين . وكانت وطنية الجمعية التأسيسية مبعث إيمان عميق بحقوق السوريين ، ولم يستطع الفرنسيون أن ينالوا من عزمهم وإخلاصهم فأمر مفوضهم بتأجيل الجمعية ، وكان التأجيل للمستعمرين فى حل القضايا من دأبهم .

وتوالى عقد المؤتمرات الوطنية فى سورية ولبنان ومصر لتأكيد المطالب السورية ورفض المادة الجديدة فى الدستور وهى التى فرضها المفوض الفرنسى .

وكانت البلاد السورية كلما تأزم الأمر لجأت إلى الأحزاب فإذا دور متاجرها ودكاكين أسواقها مقفلة أياماً متطاولة والمظاهرات ملء الدروب ، وقد سرى الشعور الوطنى فى كل بيت سورى حتى أن أطفال هذه الأمة الواعية كانوا يصغون بالسمع إلى أحاديث أهليهم فيحلمون أنهم إذا كبروا وهبوا حياتهم لتحرير الوطن. وشاركت المرأة السورية المجاهــدين . فكأى من نساءكن يقتلعن الحجارة من الأرصفة فيتناولها المتظاهرين ، وقد كان مع الثوار نساء مؤتزرات ومتلفعات يقمن بتضميد الجراح والسقاية ونقل الزاد .

وراحت منهن شهيدات وفدائيات تواقعن على الموت وراء أولادهن وجيال

ازواجهن سواء فى أثناء الثورة أو بعدها . فكم من مظاهرة نسوية مشت فيها الطالبات والسيدات هاتفات ضد الاستعمار غير متهيبات ولا متحرجات . وكانت صفوف العسكر الفرنسى تصدهن بالرصاص فما تناهن التحدى والعناد عن المضى فى الاحتجاج والإلحاح فى مطالب البلاد وإطلاق المعتقلين .

أما الجمعيات النسائية الواعية فكانت فضلا عن المشاركة فى هذا الشعور الوطنى المتوقد منصرفة إلى تتبع الخطوات السياسية فى قضية الوطن تشارك الرجال فى تقديم الشكوى وعقد المؤتمرات .

وبقيت البلاد السورية قلقة مضطربة طوال المدة التى تنادى فيها الوطنيون ليحزموا أمرهم ويجددوا مواثيقهم فى سبيل المطالب المشروعة التى احتواها دستورهم وبيانهم ، وعاد المفوض السامى الجديد السيد « بونسو » إلى حكومته فى باريس يعرض عليها شئون سورية ومطالب أهلها فى تحقيق الوحدة والسيادة القومية واستبدال الانتداب بمعاهدة تحالف واتفاق .

ودرست الحكومة الفرنسية هذا الموضوع الخطير ثم حملت مفوضها مذكرات بسطت فيها سياستها الانتدابية مبينة فيها بالتفصيل الموافقة على السير التدريجى نحو الاستقلال ، على أن تراعى مصالح الانتداب والعناية بتحقيق التحالف وشروطه وخصائصه .

ولم يستجب الشعب السورى لبيان المفوض فى سياسته الجديدة حتى أظهر المهاودة وأطال المحادثات حول الوضع الذى ارتآه للعمل على إنشاء حكومة دستورية يرضى عنها السوريون .

وفى ١٥ فبراير ١٩٢٨ دعا مندوب فرنسة السيد بونسو إلى الانتخاب المنشود معززاً دعوته بالعفو عن فريق كبير من الوطنيين والمجاهدين وإلغاء الحكم العرفى والمراقبة للصحف والحياة السياسية .

أما زعماء الوطنية داخل البلاد وخارجها فلم يجدوا فى تصريح السياسة الفرنسية إزاء مطالبهم ما يحقق الغاية(١) فطال جدلهم ونقاشهم واختلفت آراؤهم فى موضوع الإنتخاب .

---

(١) لم تكن خدمة القضية الوطنية مقصورة على المقيمين بسورية من أعيان المجاهدين فإن للنازحين إلى مصر والغرب فضلا ويداً فى النضال الوطنى وفى طليعتهم الأمير « شكيب أرسلان » الذى وهب حياته وبيانه لنصرة العروبة والحرية وتحقيق الاستقلال .

ورجحت أخيراً الرغبة فى ممارسة هذا الحق الصراح وأن على المتمرسين بالسياسة السورية أن يفيدوا من هذه السانحة لعلهم يوفقون إلى انتخاب رجال صدقوا ما عاهدوا الوطن عليه وفهموا حقيقة التشريع الدستورى يعبروا عن مطالب البلاد ويمثلوا شعبهم بإخلاص ومعرفة وإيمان .

وكان الفوز العظيم لجماعة الوطنيين الذين برزوا للنضال والكفاح ، فكانت الجمعية التأسيسية تضم أكثر هؤلاء المتمرسين بالسياسة السورية . ولم تطمئن حكومة الانتداب لهذه الرجاحة التى فاز بها الوطنيون ، ولما آل إليهم الأمر فى وضع الدستور أحس الفرنسيون أن فى هذا المشروع ما يمس سياســـة الانتداب فاشترطوا حذف الأحكام التى تخالف اختصاصهم قبل عرضها على المجلس العتيد ، أبت الجمعية التأسيسية الإذعان لهذا الأمر فلم تجد حكومة الانتداب إلا التأجيل والتعطيل لهذا المجلس الذى علق عليه الشعب السورى أكبر الآمال .

واتمر الوطنيون بعزم وإصرار ونشروا بياناً كشفوا فيه الستار عما يبيت للأمة من تغرير واستغلال . وفى مؤتمر دمشق ٢٣ يونية أقبل الوطنيون من حدود لبنان وأطراف سورية مطالبين بالوحدة التى تشمل جبل الدروز وبلاد العلويين والمنطقة التى انتزعت من سورية والحقت بلبنان فى عهد الأتراك .

ولم يعبأ المفوض السامى بغضبة الوطنيين لفرضه عليهم حذف الأحكام الستة التى رآها فى دستورهم الذى وضعوه مخالفة لروح الانتداب وخصائصه وتعهداته فتركهم يتشاورون ويأتمرون ويرفضون أى تعديل يطرأ على الدستور من دون إرادتهم .

وبعد عامين من تأجيل المجلس وتعطيله لم يجد الوطنيون بداً من الالحاح فى نشر الدستور وتطبيق أحكامه ، فأذاع المفوض السامى قراراً يتضمن الحقوق الأساسية للبلاد المشمولة بانتداب فرنسة . وكان ثمة بين يدى المفوض كثير من القوانين والنظم الدولية منها ما يرتبط بلبنان ومنها ما يختص بسورية ولواء الأسكندرونة الذى كان له كيان خاص لقربه من الحدود التركية . كما أن المفوض كان يدرس نظامين خاصين بحكومتى العلويين وجبل الدروز فارتأى بعد المراجعة والمقارنة إدخال تغيير على جزء من صيغة الأحكام فى الدستور السورى . وثار الوطنيون والجمهور وبقى الاضطراب فى البلاد سائداً من جراء هذا التبديل حتى

جاء نوفبر سنة ١٩٣١ وكان الشعب السورى ما يزال متململا مناضلا فدعاه المفوض الفرنسى إلى انتخاب جديد لمجلس نيابى يغير الوضع الموقوت . واستجاب الوطنيون مكرهين إلى هذا الانتخاب الذى أجرى فى أطوار يشوبها الشك والقلق ، وقد شهدت سورية فى خلال ذلك فتناً دامية ومحناً قاسية إذ تعرضت وطنية السوريين للكيد والاضطهاد، وتسللت الدسيسة إلى التحيز والتنافس بين الأعيان والوجهاء من مؤيدين ومعارضين وكانت عيون الفرنسيين مسيطرة على التوجيه لما فيه مصلحة الانتداب ، وقد تحقق لحكومته ما شاءت فلم يفز بالإنتخاب للمجلس النيابى من زعماء الوطنية إلا القليل ، لكن هذا القليل كان جزءاً من كثير لا يهمهم مصلحة البلاد ولا يعبئون بغيررضى الانتداب والمنتدبين ، ولولاه لما أتيح لهم أن يكونوا نواباً . وقد عرفوا بالانقياد للمحتلين . وما خفيت أمورهم وسرهم على السوريين الأباه الواعين .

واستطاعت الفئة القليلة من الوطنيين فى مجلس النواب أن تبرز وتغلب ، فإن التمرس بالمعرفة والسياسة جعل رجالها أشداء على الانتداب ومؤيديه متعاونين على الجهاد لخير الوطن ، وبعد أن تم انتخاب رئيس الجمهورية وفقاً لرضى الفريقين تألفت حكومة جديدة دخلها بعض الوطنيين تمهيداً لمفاوضات جديدة فى وضع تحالف يقوم على أساس الوحدة والسيادة ، وكانت حكومة الانتداب أوعزت إلى مفوضها فى سورية ولبنان البدء فى مفاوضة حرة بعد تأليف المجلس الجديد .

غير أن الوطنيين وقد لاحت لهم بوادر العنت والمطل والمداورة فى تصرف الفرنسيين وأعوانهم أخذوا يرتابون فى هذه السياسة المخادعة ، واتجه الرأى إلى المعارضة فى هذه المفاوضة التى لم تصل إلى ما يرضى السوريين فى مطالبهم المشروعة .

وتجدد تظاهر الاحتجاج وألقيت الخطب فى المساجد والمعاهد تبصيراً بالغرض من هذا المطال والتحدى ، ووقعت حوادث الاصطدام والإضراب قاسية دامية وأغلقت المتاجر والأسواق ووضع الزعماء فى السجون ، ودام الاضطراب والاضراب ضد حكومة الانتداب زهاء شهرين ، فقد أعلنت أكثر المدن السورية سخطها مستنكرة هذا التعنت والتمويه فى سياستها وحكمها .

٧ — الاتفاق الجديد

بين سورية وفرنسه

كان عام ١٩٣٦ حافلا بأحداث جسام فى مختلف البلاد السورية ، فمن توالى الاحتجاج والإضراب إلى وقوع الجرحى وتعطيل الأسواق وحبس القائمين بالحركة الوطنية حتى استقر النضال السياسى فى سورية على مطالب الشعب فى الحرية والاستقلال .

وكلما مرت بالمناضلين ذكرى قومية أو سانحة مواتية للتعبير عن شعورهم ومطالبهم هبوا هبة واحدة ضد الانتداب وحكامه وأعوانه ، غير متحرجين ولا عابثين بأى عدوان من الغاشمين .

ولما أقبلت ذكرى وفاة الزعيم الثائر ابراهيم هنانو جدد السوريون عهده وجهاده ، وبعثوا الهمة والإيمان فى النفوس التى تسلل إليها اليأس والفتور فعادت مستيقظة متفانية ، ولم يقتصر السخط على ولاة الانتداب وذويه بل تعداهم إلى أنصاره ومؤيديه ممن غلبت أثرتهم وساءت نياتهم وشاركوا فى الحكم الانتدابى طمعاً بالجاه والنفوذ ، فخشى الفرنسيون بعد هذه الغضبة الصاخبة أن تعود الثورة أشد مما كانت بينهم وبين السوريين فاصطنعوا الهوادة والاستجابة لمطالبهم واقترحوا على أعيان الوطنية أن يقوموا بتهدئة الأمور ريثما يمهدوا إلى عقد معاهدة تؤكد التحالف والتعاون ، وقد عهد إلى السياسى الوقور السيد عطا الأيوبى بأن يؤلف وزارة تمهيد واطمئنان ليسكن السخط والقلق وتثوب النفوس إلى طبيعتها فتركن إلى طائفة ممن يثق الشعب بوطنيتهم ورجاحتهم .

وكان للفريقين ما أرادوا بعد تسريح المحبوسين والمعتقلين وإعادة الأمن والطمأنينة إلى من أصيبوا ونكبوا بحوادث الاحتجاج والتظاهر . ولم تكن المفاوضة هذه المرة مع المفوض الفرنسى وفى بلاد الوطنيين، بل جرى الاتفاق على أن تكون فى بلد الحكومة المنتدبه . وقد وقع الاختيار وأجمع الرأى على أن يكون الوفد المفاوض مؤلفا من صفوة المتمرسين بالسياسة والمعرفة — وهم السادة : هاشم الاتاسى وفارس الخورى وسعدالله الجابرى وجميل مردم بك والأمير مصطفى الشهابى

وإدمون حمصى ونعيم الانطاكى وأحمد اللحام الخبير العسكرى .

وكانت سفرة الوفد إلى باريس فى أعقاب مارس ١٩٣٦ ، وقد بقى بضعة أشهر يفاوض ويعارض ويبدى ويعيد فى موضوع المعاهدة حتى استطاع أن يعقد اتفاقاً جديداً قائماً على قواعد الحرية والسيادة على أنه يكون نهاية للانتداب وبداية لعهد الاستقلال(١)

ولقد إحتوى الاتفاق المعقود بين الفريقين توثيق الصداقة والمشورة اللتين تحددان العلاقة بين الدولتين بعد انتهاء الانتداب . كما تضمن الأحكام والشرائط التى تطبق حياة الاتفاق والتحالف سواء فى الشئون المدنية أو العسكرية وقبول سورية فى عصبة الأمم بعد ثلاث سنوات من عقد الاتفاق .

ولم يخل هذا الاتفاق من تحفظ مريب فى السياسة الخارجية وفى شئون المال والوحدة المنشودة والامتيازات الأجنبية .

وكيف كان أمر هذا التحالف فإنه ضمن للسوريين حقوقاً طالما حرص الفرنسيون على بقائها فى حوزتهم، وكان من فضله أن ردت إليهم بلاد جعلها الانتداب مستقلة منفصلة وهى ألصق بهم ولا يمكن قطعها عنهم كبلاد العلويين وجبل الدروز ، وإن اشترط الاتفاق وضع نظام خاص بهاتين المنطقتين .

---

(١) لابد من تلخيص المفصل فى نصوص هذه المعاهدة التى احتوت شروط التطبيق والتنفيذ وفى أول المواد سيادة الصداقة والصلح بين الفريقين ثم المشورة التامة الصريحة وبخاصة فيما يتعلق بالسياسة الخاجية والمصالح المشتركه .

سورية هى التى تحافظ على الامن والدفاع عن بلادها مستعينة بالمساعدة العسكرية الفرنسية مدة المعاهدة وهى خمس وعشرون سنة والتبديل أو التعديل فيها يكون باتفاق الطرفين .

ومع هذه النصوص المفصلة اتفاق عسكرى فيما يتعلق بالجندية السورية والبعثات العسكرية والمطارين المنشأين فى عهد الانتداب وإبقاء الوحدات الفرنسيه فى بلاد العلويين وجبل الدروز لمدة خمس سنوات .

ويتبع الاتفــاق العسكرى مذكرات تشمل على مفصل فى بروتوكولات خمسة تعاهد فيها الطرفان على تطبيق الامتيازات وتحديد نظام قضائى لحماية المصالح الأجنبية والمحافظة على المعادلة المالية فى النقد السورى والفرنسى .

ومن أهم ماجاء فى المذكرات أن لاتطالب فرنسة الحكومة السورية بتكاليف الانتداب • وكانت تدعى الحق بأخذها كما جاء فى قرار عصبة الأمم .

ومع مافى هذه المعاهده من انتقاص للحقوق السورية ومطالب الشعب فى الاستقلال فلم يكن بالإمكان أحسن مما كان ، ولا ننسى بعد عشرين عاماً ما كان لهذه المعاهدة من طنين ورنين.

وشعر السوريون منذ ذلك التحالف الجديد أنهم فرضوا بعض إرادتهم وإن لم تكن كلها على المستعمر الغاشم. وتذوقوا حلاوة الحكم الذاتى فى جمهورية مستقلة أخذت تعمل على الاستقرار واستعادة المبعدين الأحرار وفيهم بطل الثورة السورية سلطان الأطرش والزعيم المناضل الدكتور عبدالرحمن شهبندر الذى لجأ إلى مصر بعد الثورة منضماً إلى إخوانه المجاهدين الذين حرمت عليهم بلادهم أو حكم عليهم بالنفى والإعدام لوقوفهم ضد الانتداب والاستعمار .

واستقبلت سورية أبناءها المشردين والمبعدين أكرم استقبال فعادوا إليها شيقين تائقين إلى حرية أفضل واستقلال لا يشوبه تحفظ ولا انتقاص .

ومما يجدر ذكره أن وزارة الدفاع الوطنى بسورية قد أسست فى عهد هذه الجمهورية التى كان رئيسها السيد هاشم الاتاسى ، وأعضاؤها من البارزين فى السياسة والجهاد .

ولم يكن بالإمكان أحسن مما كان بالاتفاق المعقود، فقد تلقاه السوريون بالرضى والغبطة مستبشرين بهذا العهد المرتجى الذى انتظروه بعد كفاح مرير طويل ، لكن الفرنسيين ضاقوا بتبدل الأوضاع وسعى الوطنيين إلى التعاون على تثبيت الاستقلال . وقد نغصهم الانطلاق نحو الوحدة والاستقرار فى ظلال الحكم الجديد بل شق عليهم أن ينال الأحرار من عنتهم واستبدادهم . فأطلقوا الأيدى والأعين تعمل على الدس والوقيعة والفتنة لينفذوا من خلال الخصومة والخلاف إلى مآرب الاستعمار وأهدافه .

وبديهى أن التحالف الجديد لم يحظ برضى جميع المواطنين ، فقد كان فيهم المتطرفون والمنحرفون وفيهم المتمردون حتى على أبناء قومهم وذويهم فأعلنوا تقدمهم واستنكارهم لأحكام المعاهدة وسخطهم على مافيها من قيود وعيوب ، وراحوا يوغرون الصدور حقداً وحسداً ويبدون التعنت والتشفى ممن تقدمهم فى الجهاد أو برز فى الميدان .

وانبرت للحكومة بوادر الفتنة والتحدى من ذوى الطائفية مرة وتارة من ذوى العصبية والإقليمية .

وخرج على النظام والقانون فريق من محترفى الشغب والاستغلال فى أطراف البلاد وداخلها ليشغلوا الحكومة الوطنية ويصرفوها عن مهمتها فى البناء والإصلاح

واستكمال السيادة والوحدة، وكانت أشد المشاغل خطراً ولغطاً مسألة الإسكندرونة التي برزت إلى الصحف والمجالس فأثارت النقمة والقلق وهاجت خواطر السوريين لهذا العدوان الجديد .

وكان على مجلس النواب أن يتصدى لقضية الاسكندرونة [١] التي تناولتها مباحثات طويلة قديمة بين فرنسة وتركية وجدت فيها المحاولات والمفاوضات حتى تحيزت الحكومة الفرنسية إلى مطالب الترك في فصل الاسكندرونة عن سورية وقد أنذرت حكومة الترك باحتلال الاسكندرونة إن لم تجب إلى رغبتها المبنية على مطامع قديمة وادعاء باطل في هذه القضية من حيث الروابط العنصرية واللسانية بين السكان ومجاوريهم .

وضربت فرنسة بالإهمال كل مسعى للسوريين ضد هذه المحاولة الباطلة مستجيبة للترك في هوادة ومداورة، وكان الجو السياسي يهدد بحرب قريبة فازدادت خشية الفرنسيين والانكليز من أي اصطدام مع الحكومة التركية حتى يسروا لها ما أرادت، وعقد الاتفاق على تسلمها الاسكندرونة في ٢٣ يولية ١٩٣٩ وضاع مجهود السوريين في هذا السبيل، ولم تعبأ فرنسة بأي احتجاج على عملها واستهانتها بحقوق البلاد والسكان، وما عليها من التبعات في هذا الشأن .

ومن هذا التاريخ أصبحت قضية الاسكندرونه حديث الوعي القومي في سورية لأن هذه المنطقة العريقة في تاريخها وأمجادها كانت مشدودة إلى قلوب السوريين متصلة بحياتهم منذ أيام العثمانيين، بل إن التاريخ السياسي العربي في الشرق الأوسط يحدثنا عن بلاد تلك المنطقة في الحروب من أقدم المعارك بين البيزنطيين والعرب إذ كانت أنطاكية باب المشرق ومن ملكها أسلست له مهاد الأرض من حلب حتى مصر، فضلا عن ميناء الاسكندرونة الحربي وخليجها الذي يعد أعظم خليج واق في الحروب .

واليوم بعد الانتفاضة الحديثة في سورية أدرك الوعي المتوثب أن فقدان

---

(١) يطلق اسم الاسكندرونة وهي بلد ميناثي حربي على ساحل البحر الأبيض المتوسط على منطقة كبيرة تضم مدينة انطاكية وقرى وبليدات من أجود البقاع انباتاً وخيراً وبعد فصلها من سورية أطلق الاتراك عليها اسم (هاتاي) وأجلوا العرب عنها ممن لم يرضوا بأن يصيروا أتراكاً ويخضعوا للحكم الجديد .

الاسكندرونة يساوى فقدان أعز عضو فى الكيان السورى ولذلك تأبى السوريون على هذا الغدر وهبوا يطالبون بإعادة ذلك البلد الغالى ، فإذا مرت ذكراه ثاروا ثورة رجل واحد مطالبين بإرجاعه إلى سورية عاقدين الأمل على يوم لا بد أن يحين فتعود به الإسكندرونة إلى أمها سورية .

(٨) سورية فى الحرب العالمية الثانية

من شأن الأمم المغلوبة على أمرها أن تتمنى لمن غلبها الدمار ولا يحقق الزمن أملها فى ذلك إلا إذا واتتها السوانح ، وهكذا كان دخول فرنسة فى الحرب العالمية الثانية مثاراً للتأميل والارتقاب فى الخلاص منها والبعد عنها بأى ثمن .

لم يتبع الفرنسيون سياسة الحكمة والروية إبان هذه الحرب وهم فى سورية فقد قاموا منذ إعلانها بسياسة انعكاسية جددوا بها عهد الاضطهاد ، فحالوا دون تحقيق المشاريع التى أقروها لضمان الحكم الذاتى فى البلاد ، وداخلتهم حالات نفسية من الارتياب والنزق أطاشت سهامهم فى الكيد والافتراء . فكانوا يجدون بسورية خصماً لهم عنيداً متربصاً .

وقد واتى الدهر السوريين بما أملوا على يديه فإذا جيوش الألمان تدك حصون ماجينو دكة واحدة ، وتصفق سلاسل دباباتهم الجبارة شارع الشانزيليزه ، بباريس وهتلر على رأسها بعنفه ومغامرته .

لم يغير شىء من ذلك شعور الاستعمار فى نفوس الفرنسيين ، فظلوا فى سورية على طريقتهم السابقة . ولكنهم اصطنعوا العظمة المفقودة وخامرتهم الندامة فى عقد هذه المعاهدة التى ذاعت أخبارها . وأخذت الصحف الفرنسية تنحى باللائمة على هذا التحالف الذى لا يليق بسياسة الاستعمار ولا يتفق مع التعهد الذى أخذت به فرنسة بالاتفاق مع الحلفاء . وكانت تصل إلى هذه الصحف أحاديث المغالطين والمتشائمين من السوريين وفيهم موتورون ومسخرون للفوضى والإخلال بالأمن والنظام فى أطراف سورية حيث يسكن أبناء الجزيرة وفى بلاد العلويين حيث تعيش طوائف إسلامية متعددة المذاهب ، ووصلت أنباء التعصب والشغب إلى حكام فرنسة وعمال الانتداب كما أرادوها بغلوها وانحرافها ، فاصطنعوها حجة لهم على

استمساكهم بالبقاء لتنفيذ الانتداب وممارستهم التصرف بالأمور كما كانوا يتصرفون بها من قبل ولأن الأوضاع الدولية تقتضي بزعمهم الحكم المباشر .

كما أن المبعدين المجاهدين منذ عادوا إلى بلادهم السورية التف حولهم أنصار وأتباع ودب التنافس والتحيز بين الصفوف . وبدأ التعيير والاتهام يتفلت في حديث المجالس والصحف مما أحدث البلبلة ولفت نظر الحكومة الوطنية إلى الوقوف بالمرصاد لكل فتنة مدبرة أو مصلحة خاصة تستهين بكرامة الوطن وتمس وحدة الشعب .

ولعبت أيدي الأجنبي بالدس والمكيدة لتشغل القوم عن مصلحة الشعب وأحداث الحرب بالمآرب الذاتية والخصومة القديمة ، وعادت المحن إلى قادة الوطنية وساسة الأمور ، بل ازدادت المشاغل والمتاعب بانهماك فرنسة في الحرب وتهافتها جزعاً وخزياً تجاه الألمان الذين اقتحموا حصونها ودوخوا جيشها ، فكانت كلما ضعفت في بلادها ازدادت عتواً في سورية فتصرفت في المشكلات الإقليمية والمحلية تصرفاً سيئاً متاوثاً غير عابئة بشروط التحالف وأحكام المعاهدة حتى تنمرت السلطة الفرنسية وأظهرت مطامعها في تعديل تريد إقحامه على نصوص المعاهدة .

وقد دهت سورية في تلك البلبلة داهيـــة نكراء باغتيال الزعيم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ، اغتالته عصبة هدامة مضللة وهو يؤدي أكبر واجب إنساني في عيادته الطبية بدمشق ، وكان يكب على معاينة مجرم من تلك العصابة ادعى المرض فعاجله مجرم آخر بالرصاص من خلفه فهوى صريعاً ، ولم يكن الذين أقدموا على قتل الشهبندر(١) ذوي مقصد مباشر ، وأخذت الظنون تحوم حول من كان معادياً للزعيم أو كارهاً عودته للنضال ، وأجرى الفرنسيون المحاكمة حاصرين التهمة فيمن باشروا الاغتيال واختفى المحرضون ، أما السبب المزعوم الذي ذكر في المحاكمة فهو أن الفقيد كان يريد الخروج على عادات قومه بحجاب المرأة ونبذ أوامر الدين ، فظل دم الشهيد مهدوراً وهو الذي أعطى القضية السورية عقله وقلبه حتى أعطاها دمه وروحه(٢) .

---

(١) كان اغتياله في ٦ يولية (تموز) ١٩٤٠ .

(٢) لقد وجهت التهمة في هـــذه الجريمة إلى بعض رجال الكتلة الوطنية في دمشق ومنهم السادة جميل مردم بك ولطفي الحفار وسعد الله الجابري . غير أن المحكمة بعد اعتراف الجاني الأثيم برأت المتهمين .

لم يكتب للشهيد الذى عاش بعد الثورة مغترباً دؤوباً على الجهاد أن يبقى حياً ليرى سورية حرة مستقلة ، لكن البلاد التى غضبت لهذا الاغتيال السياسى لم تفقد بعد الزعيم شهبندر الأمل فى إخوانه المخلصين ليقودوها إلى الخلاص وتحقيق الآمال . وقد برز من بين الوطنيين القدامى مجاهد كبير آسفه اختلاف الأحزاب واستغلال الأجنبى هذا الاختلاف لمصلحته وحده ، فهب فى وجوه الأعداء والخصوم معنفاً لواماً داعياً إلى الوئام والتصافى ونبذ الحقد والتحاسد لكى تواجه البلاد سياسة الفرنسيين الذين خالفوا العهد والميثاق وتنكروا للسوريين تنكراً شائناً وبيلا تجلى فيما صنع استبدادهم وجبروتهم وهم يعانون فى بلادهم الهزيمة والهوان .

ولقيت دعوة الزعيم « شكرى القوتلى » استجابة ثقة وتأييد من الشعب السورى الذى كان يسعى إلى الانطلاق من الأوضاع المنحرفة التى فرضتها السلطة الفرنسية فى ظروف الحرب تحقيقاً لمطامعها السياسية .

وأعلن الزعيم شكرى القوتلى نداء قال فيه إن البلاد السورية لا ترضى عن هذا الاضطهاد والإهمال ولا بد من العمل على إنقاذها وإن تكن الحرب قائمة ، فالمطالب القومية لا تتحقق فى نظام استعمارى عانى منه الشعب ظلماً وحرماناً ولم يتغير مهما اختلف الشكل والسبب ، ولا عذر فى قيام الحرب فقد يطول أجلها وسورية طال انتظارها وصبرها على ادعاء المحتل قيامه بالمهمة التى انتدبته من أجلها عصبة الأمم وما كان حكمه إلا استعمارياً يعادى هدف المهمة الأولى .

وكان لحكومة فرنسة الحرة يد فى تغيير الأوضاع وبشائر الاستقلال ، فقد أذاع الجنرال كاترو بالنيابة عن الجنرال ديجول فى ٨ يونية ١٩٤١ بلاغا أعلن فيه انتهاء الانتداب والاعتراف باستقلال سورية ، وقامت انكلترا تؤيد هذا الاعتراف وتذيعه على لسان رئيس وزارتها المستر « تشرشل » وسفيرها فى مصر آنذاك السير « مايلز لامبسون » .

ونزلت فرنسة على الرغم منها عند أمانى السوريين فى الحرية والاستقلال وأخذت منها حكومة الشيخ الحسنى(١) أكثر السلطات التى كانت بيد عمالها ورجالها

---

(١) عرف الشيخ الحسنى بصداقته للفرنسيين وكانوا يركنون له ويعهدون إليه بالحكم أكثر من مرة ، وكان بانياً شعبياً ، وفى عهده المتكرر أقيم عمران حكوى ملحوظ فى البلاد .

وتعهدت الحكومة الانكليزية بضمان السيادة والاستقلال لسورية ولبنان .

وكان للسيد حسن الحكيم رئيس الوزارة فى هـذا العهد أثر فى استعادة السويداء واللاذقية إلى أمهما سورية ، فقد بذل مجهوداً كبيراً لتحديد النفوذ الفرنسى وانتزاع أكثر أسبابه ومظاهره ، فاصطدم بمصاعب معقدة وفضل أن يبقى بعيـداً عن الحوادث الجديدة .

ولئن صرحت فرنسا الحرة برغبتها فى تغيير السياسة المتبعة التى ضاق بها السوريون ونشرت البيان الذى يعلن رغبتها فى هذا التغيير مستجيبة لنصيحة الانكليز وأحرار العالم فى الشرق والغرب ، فإنها بقيت تسوس مصالحها وفق أغراضها وأساليبها ولا تكترث لاحتجاج السوريين حتى اشتد هذا الاحتجاج، وأخذ وزير بريطانيا فى سورية ولبنان يقترح على ممثل فرنسة الديجولية أن يستجيب لمطالب الشعب فيمهد لانتخاب حر يعيد إلى الناس الطمأنينة والأمل ، وطال الجدل والإلحاح فى هذا الموضوع حتى شاعت حوادث العنف التى عبرت عن قلق السوريين وتعنت الفرنسيين . ولم تمر هذه الحوادث بمصر مروراً عابراً فقد اتصل السيد «مصطفى النحاس» رئيس وزرائها يومئذ بالقائد الفرنسى «كاترو» ونصحه بالإذعان لمطالب السوريين واللبنانيين وأن يسارع إلى العمل على ما فيه تهدئة الخواطر وتحقيق الحرية والكرامة للوطنيين ، لكن الفـرنسيين لم يتبدلوا فى مآربهم الاستعمارية وإن تبدلوا خطة وهدفاً فى إبان الحرب العالمية . فكان كبيرهم «ديجول» يغضب كلما ذكر بشأن الأوضاع فى سورية ولبنان. ولم يتحرج من لوم الانكليز حين استعجله وزير لهم فى الشرق بأن الإسراع فى إجراء الانتخاب من شأنه أن يساعد على طمأنينة الرأى العام ، فأجابه القائد الفرنسى : « عليكم أنفسكم ، إنصرفوا إلى ما يجرى فى الصحراء الغربية على مقربة من الاسكندرية ، فهذا أولى من الإلحاح بشأن سورية ولبنان . . . »

وكانت مخاوف الانكليز من هجمات الألمان موضوع الحديث فى مصر والبلاد العربية ، وبقيت فرنسة الحرة تماطل بحق السوريين متذرعة لدى الدول الشرقية والغربية بظروف الحرب وما تقتضى من الحذر العسكرى والحماية الماسة .

وما سكت السوريون يوماً عن المطالبة بالاستقلال على الرغم من كل مطل وتمويه حتى لانت عقدة الغاصبين ، فقررت فرنسة الحرة بتاريخ ٢٤ يناير ١٩٤٣

أن يقوم مندوباها فى سورية ولبنان بالمفاوضة لتجديد العلاقة وفاقاً لمعاهدة ١٩٣٦ وهى المعاهدة التى تنكروا لها ولم ينفذوا من شروطها إلا ما فيه ضمان لمصالحهم ومآربهم .

وتأبى السوريون على كل محاولة مريبة ، فقد صمموا على المقاومة والنضال حتى تحقق مطالبهم المشروعة دون انتقاص أو انحراف .

وبعد ثلاثة أشهر لجأ الفرنسيون إلى السياسى الوقور السيد « عطا الأيوبى » فعهدوا إليه برئاسة الدولة والتمهيد لتأسيس حكومة استقلالية تحقق مطالب الوطنيين وتطبق النظام الديموقراطى الذى يقود الشعب إلى أهدافه التقدمية المنشودة .

وكان ١٧ آب ١٩٤٣ حدثاً كبيراً فى تاريخ سورية الجديدة ، فقد دعى مجلس النواب لانتخاب الرئيس الأول للبلاد فاتجه الاختيار للسيد « شكرى القوتلى » ونودى به رئيساً للجمهورية المستقلة فى عهدها الجديد . وأخذ يرعاها بالمحبة والاعتزاز ، ولن ينسى السوريون بلاءه فى المحنة الكبرى أيام الجلاء .

٩ — يوم الجلاء

لقد نوه الانكليز بلسان سياسيهم الكبير المستر « تشرشل » بانهم أيدوا سورية فى مطالبها بالاستقلال وذلك عقب وصول الفرنسيين الأحرار إليها . فوجم هؤلاء وجوم أسلافهم المستعمرين وإن كانوا قد أبدوا اهتماماً بمطالب الوطنيين ، ثم أقبل على سورية اعتراف الدول الكبرى باستقلالها حتى دخلت فى هيئة الأمم .

على أن الفرنسيين لم يكترثوا للواقع وما غيروا فى سياستهم الجديدة شيئاً بل عادوا إلى طريقة الضغط والإرهاب والمطال مستمسكين بسورية كبلاد لا ينبغى أن تفلت من أيديهم متجاهلين قضية استقلالها وقد أعادوا فيها سيرتهم الأولى ، وتداولت الأيام هذا الصلف والطغيان حتى أحسوا أن الدهر آذن بالخلاص للسوريين ، وقد عاش الفرنسيون فى سورية ربع قرن كانوا فيها غاصبين مغتصبين

بالخيرات فامتلأت قلوبهم آسى على الماضى وما أتاح لهم من بغى وعدوان ومكاسب، وكانت بوادر الحاضر ، تجعل السوريين يرتقبون حادثاً مفاجئاً عنيفاً كان الفرنسيون يعدون له العدة فى ثكناتهم بدمشق حتى جاء شهر مايو سنة ١٩٤٥ فانفجر فى أواخره ما كان كامناً فى صدور الفرنسيين من التشفى والانتقام وقد صبوا مدافعهم ورصاصهم فى أمسية مباغتة على الدور الآمنة بدمشق فأحرقوا بعض أحيائها . وأصابت رشاشاتهم المستشفى الوطنى فخرج منه المرضى جرحى يلوذون بالمخابئ والبيوت القريبة ، وذبح الجنود الفرنسيون حامية المجلس النيابى السورى التى أبدت من ضروب البطولة والمقاومة ما جعل السوريين يذكرون رجال هذه الحامية الأبية بالفخر والمثالية ، فقدصمدوا لضربات قوم عثوا وطغوا فى تشفيهم حتى قطعت من المستبسلين الأيدى والأرجل وألقوا ببعض الحامية من على سطح المجلس النيابى إلى الأرض وطرحوا بعضا فى القبور أحياء .

لقد فدح الخطب فيما صنع الفرنسيون بدمشق ، وكانت غايتهم محوها وحرقها . فهبت الدول الأجنبية محتجة مستفظعة عمل الفرنسيين المدحورين وفى مقدمتها بريطانيا التى كان لها أثر بعيد فى إيقاف الفرنسيين دون إتمام قضائهم على دمشق ،وأجبر البريطانيون الفرنسيين على الخروج من سورية فخرجوا منها مقهورين، وكان جلاؤهم عنها تحقيقاً لأغلى أمانيها التى افتدتها بالأرواح والجهاد المرير .

ونعم السوريون بنعمة الاستقلال والحرية فى ظلال الأمن الدولى . فكان يوم الجلاء ١٧ نيسان ١٩٤٦ عيداً مشهوراً بسورية بل ذكرى خالدة فى تاريخها الحديث ، ولقد كان السوريون بعد الجلاء مثل جنود خرجوا من المعركة مثخنين بالجراح فضمدوا جراحاتهم وتذوقوا حلاوة العزة والخلاص . إنهم لم يعدوا فرحتهم منحة أخذوها وإنما هى حق أخذوه وناضلوا من أجله طويلا ودفعوا ثمناً له دماء ذكية غالية صبغت تراب الوطن فى مواقع كثيرة . وكان من حقهم وهم شعب صغير طال كفاحه ونضاله أن يعيشوا فى ديارهم أحراراً لولا أن عدا عليهم الفرنسيون فاغتصبوا بلادهم باسم الانتداب الذى فرضتـــه الحرب الأولى وحلفاؤها .

لقد عاشوا مقاومين قلقين بين حربين فلم يعرفوا هدوءاً وراحة . وكان التنغيص مسخراً لهم بغير ذنب جنوه حتى آذن جهادهم بتحرير بلادهم واسترداد حقوقهم .

وكان جلاء فرنسة عن سورية مستذمة مرغمة يعد سابقة فى تحرير جزء من الشرق العربى فتح به باب الأمل لبقية الشعوب التى كانت تنتظر مثل هذا الخلاص .

ولا بدع إن عد السوريون يوم ١٧ أبريل حداً فاصلا لما عانوه خلال ربع قرن من مرارة الاحتلال ومقاومة الغاصبين فكان أجل ذكرى فى تاريخهم الحديث .

إن كل سورى مقيم فى وطنه أو نازح مغترب لاتمر به ذكرى ١٧ أبريل دون أن يسترد فى خاطره فظاعة المحتل الذى تجنى على بلاده ولا يلبث أن يحس العزة بالسيادة القومية والاستقلال الخالص الذى كان عاقبة الجهاد والمقاومة لشعب أبى قوى فى روحه وكفاحه ، ولا غرو إذا رأيت فرحته بيوم الجلاء تفيض على وجوه العسكريين والجمهور هناءة وفخراً وتعتز به الحكومة فتقيم فى السابع عشر من أبريل كل عام عيداً وطنياً تحتفل به ، ويكون هذا الاحتفال غبطة وذكرى للشعوب التى ما زالت تسعى إلى التحرر والاستقلال .

١٠ — سورية بعد الاستقلال

لقد ترك استقلال سورية وجلاء الغاصب عن بلادها دوياً فى الشرق والغرب فاشرأبت إليها الأنظار وتطلعت الأقطار ترمقها بالغبطة والإعجاب ، وأصبح إسم سورية على كل لسان يتحدث ببطولتها القريب والغريب ، فهى التى وهبت للوطن أرواح بنيها وذويها فى معارك الحرية ، وأخذت بعزيز الدماء والفداء استقلالا تاماً لا تشوبه شائبة ، وقدر الناس قدر هذه الحرية التى ظفرت بها سورية غلاباً ونضالا فكان ثمنها لدى أهلها غاليا .

وأثبت السوريون فى مستهل عهدهم بالاستقلال جدارة ومكانة ملحوظة فى البناء والتجديد والإصلاح ، فمنذ تسلم الحكم قادتهم وكبراؤهم [١] تلفتوا صوب الأوضاع الجديدة ومظاهر الإنشاء والنظام فى نطاق الديموقراطية التى تعودوها ، على أن هذا الاستقلال الذى كانت له أيام وذكريات لم يدعهم دون تنغيص وشعور عما يخامر القوم فى الشمال والجنوب من بلادهم ، فإسكندرونة المسلوخة من الجسم السورى ترضية للأتراك لم تكن تمر بالسوريين ذكراها المريرة حتى ينبعث فيهم

(١) كان السيد شكرى القوتلى أول رئيس للجمهورية فى هذا العهد الحر .

الأسف وتهتاج النقمة على من أحل تركية هذا الإقليم المتمم لسوريه جغرافياً واقتصادياً .

وقد لجأ إليها أكثر سكان الإقليم لأن عروبتهم لم يكن فى طاقتها هذا الإندماج غصباً وكرها وخلافا للطبيعة والمزاج .

ومن جنوب سورية كانت تصاعد صرخات الفلسطينيين من كيد المستعمرين وتغاضيهم عن الصهيونية الباغية التى تسللت إلى أرضهم ليجعلوها مصدر قلق وكد لكل من يجاورها ويعرف مآربها .

هذه المنغصات كانت تخامر الشعب السورى فى عهده الجديد وتجعل حكومته تعد قضية فلسطين قضيتها وخلاصها من خطر الصهيونية ضماناً لسياستها ، ومضت هذه الحكومة الاستقلالية فى تحقيق السيادة السورية والعمل على إقامة وحدة عربية تربط بين مصر وبلاد الشام والعراق والمملكة السعودية واليمن ، وتقرب إليها البلاد العربية التى تجاهد للتخلص من الاستعمار والمستعمرين .

وكانت حكومة سورية المستقلة أول دولة استجابت لهذه الفكرة التى تجاوبت وتقاربت فى كثير من الأقطار العربية ، وكانت الحكومة المصرية هى التى تدعو لعقد الاجتماع فى عاصمتها تمهيداً لإنشاء هيئة دولية من تلك الأقطار تسمى الجامعة العربية ، ولكى تكون مهمتها التعاون والتحالف على ما فيه الخير للحياة الاقتصادية والثقافية وتوثيق الروابط وإزالة الخصومة بين الدول العربية فتصبح جميعها بعد حين صفاً واحداً يواجه الاستعمار ودسائسه ويصد العدوان والخلاف .

وأنشئت جامعة الدول العربية التى أصبحت مرجعا لكل حكومة فيما يمسها وما تبتغيه لخير شعبها ، وكانت سورية مؤيدة لهذه الجامعة فى خطواتها ومناهجها عاقدة عليها كثيراً من الآمال ، وقد أتيح لسورية أن تتمتع باستقلالها وفاق النظام الجمهورى الذى ارتضاه الشعب مؤيداً لمحققيه وأكثرهم من الطليعة الأولى فى الوطنية والكفاح وقد تمرسوا السياسة وطاب لهم الحكم ، وكانت « كتلتهم » تجمع صحبهم وأنصارهم فى حزب واحد . ولم يجد بعض الناقمين بداً من إنشاء حزب الشعب الذى ضم رجالا أخذوا على بعض الطليعة الأولى مآخذ فى الحكم والتحيز .

وكان من أقدم رجال الكتلة الوطنية السادة شكرى القوتلى وهاشم الأتاسى وسعد الله الجابرى وجميل مردم ، ومن أقوى القائمين بحزب الشعب السادة ناظم

القدسي ورشـــدي الكخيا ومعروف الدواليبي .

وتعددت الأحزاب في خلال أعوام قليلة ، فبرزت مسميات جديدة فيها الاشتراكي والتعاوني والبعثي والقومي والإسلامي والشيوعي ،وكادت تصبح السياسة حرفة لكل من كانت له أحلام وآمال ، ولو كان لهذه الأحزاب مناهج محتومة ولم تكن وسيلة إلى المناصب والمآرب لحمد الناس لها هذه الاتجاهات في السياسة التي تعلم الديمقراطية الصحيحة وتتبع الأفضل والأحسن في الحكم وتحقيق العدل والرقي المنشود .

لكن هذه الأحزاب المتنافسة في الظهور والتصدر أزجت إلى الشعب والوطن خلافاً في الرأي ومتاعب لم تكن بالحسبان ، وكانت حرية الفكر تحمي المعارضين وتدفع عنهم الحرج .

ولما انتهت رئاسة السيد « شكري القوتلي » للجمهورية عام سنة ١٩٤٧ جدد انتخابه فانبرت المعارضة تطعن وتقدح في هذا التجديد الذي فتح باب الأقاويل في الحياة السياسية والحزبية .

اما البناء والتجديد اللذان تعهدتهما الحكومة فقد ظهر أثرهما في الحياة العامة واجتازت سورية في مدة قصيرة شوطاً طويلا في تحقيق المشاريع الاقتصادية والعمرانية .

وسورية القومية ما كان يخفى عليها التحول في الحزبية ولا التنقل في أجواء السياسة تبعاً للمصالح الخاصه والمنافع المرجوة أو انتظاراً ليوم ذهبي موعود ، فكثير من المتطلبين عزفوا عن الوظيفة واصطنعوا السياسة مهنة تقلهم في الجد المزعوم والمنصب الضخم ، وكانت الأحزاب المتعددة تجمع الشباب والطلاب على أهداف أخاذة وبيان خلاب وإن كان رائدها الوطن والاستقلال فنشأت عنه حزازات وخصومات ، لكن ذلك كله لم يصرف القوم عن الحرص على حريتهم واستقلالهم الجديد الذي كان معرضاً لكيد من الداخل والخارج وفي الظاهر والباطن . ولو كان حماة هذا الاستقلال أدق وعيا في الحكم وأكثر إيمانا بالمثقفين والعاملين دون تحيز أو استغلال لسلمت أيامهم من عنت المناوئين ولوم الناقدين . فقد كان يحظى بعض الأميين بما لا يحلم به كثير من المتعلمين المخلصين لما للمحظوظين

من زلفى وشفاعة أو سطوة عامية أو وجاهة فى الحى أو القرية ، وشاع الترف فى حياة بعض المحترفين للسياسة وتجارها كما ظهر الغنى المفاجىء والجاه المرتجل ، حتى دوت الصرخة الكبرى من فلسطين ، بل من الجيران الذين هبوا لإنقاذ الوطن المغصوب .

وكانت سورية أسرع تجاوبا فى الدعوة من أجل الأرض المقدسة فاستعد جيشها الفتى وشبابها الوثاب للقيام بما تفـــرضه المروءة العربيـة ويتطلبها الواجب والحق .

وكانت سنة ١٩٤٧ حافلة بالحشود المجاهدة من جند متطوعة زحفت إلى فلسطين من كل صوب عربى حتى طوقت الجهات التى احتلتها الصهيونية بتأييد المستعمرين ولؤم المنافقين .

وأبدى السوريون كدأبهم فى هذا الجهاد الجديد بسالة مرموقة وبطولة مشهودة ، وكم من موظف مدنى وعسكرى آثر الجهاد والنضال من أجل فلسطين . فترك وظيفته وبيته ولحق بإخوانه المرابطين والزاحفين للمعارك الحمراء ، وقد استشهد منهم أبطال مناجيد وفتيان فدائيون ، وسجل التاريخ العربى الحديث للجيش السورى ظفراً كبيراً فى معارك مشهورة .وما راع البلاد العربية التى كانت تعقد الآمال على حكوماتها وكبرائها إلا هدنة وبغتة كانتا سببا فى تغيير الوجهة التى أرادتها الجيوش والشعوب ،وتكشفت ألوان السياسة التى طغت على الإخلاص والحماسة ، وإذ بإسرائيل الغاصبة تتنفس فى الهدنة تنفس الطمأنينة .

أما الحكومات العربية فارتدت غاضبة صاخبة وكل منها تدعى الحق فيما صنعت وترمى غيرها بالخذلان والتقصير .

وكان الجيش السورى الأبى يعض نواجذ الحقد على العدو السالب ويريد العودة إلى إنقاذ فلسطين مهما كلفه الفداء والكفاح . على أن هزيمة فلسطين كانت نقطة تحول وانطلاق للشعوب العربية التى تأبت على سياسة حكوماتها وأحست النقمة على أسباب الهزيمة والخصومة ،وقد عبرت الصحافة عن غضب الجيوش والشعوب على الرؤساء والزعمـــاء ، وفى سورية كان الأسف مستحكماً عاماً ، فالحكومة مهاجمة والجيش متحفز متململ ، وكأن الناس كانت ترتقب فجاءة تغير مجرى الحوادث .

وجاء صباح هادىء مشرق بعد ليل اضطربت جوانبه ولم يسمع له السوريون حركة إذ تم تحت ظلامه انقلاب مدبر ، قام به الجيش السورى لتغيير الأوضاع التى أحس القوم حاجة إلى إصلاحها ، فوجم السوريون وجوماً ملحوظاً وباتوا يرتقبون ما تأتى به الأيام ...

١١ — عهد الانقلاب

يقول الناس إن تغيير الحاكم فيه فرج للأمة أحياناً ، وإن كان هذا الحاكم عادلا فاضلا ، لأن رضى الناس غاية لا تدرك . لاسيما إذا انحرف الحاكم أو تلهى عن وظيفته بالمجد والجاه .

فلما وقع الانقلاب الأول بسورية استبشر الناس خيراً فى هذا التغيير إذ انتظروا المسارعة إلى الإصلاح والبناء ، لكن ظنونهم خابت بعد حين فقد طغى القائد وبغى الحاكم واشتط المحظوظ والمقرب ، وانطوى المخلص الحر على نفسه فهب فريق من الجيش يريدون تغييراً آخر تم بقتل قائد الانقلاب الأول وهو السيد حسنى الزعيم ورئيس حكومته السيد محسن البرازى .

وأصبح السيد سامى الحناوى قائد الانقلاب الثانى زعيما للحكم الجديد ، وعادت السياسة من جديد تلعب لعباتها الخطرة(١) فى القائمين بهذا الانقلاب مما أحدث بلبلة فى النفوس حتى آل الأمر إلى إقصاء الحناوى عن الحكم وظهور « الشيشكلى » قائداً لانقلاب ثالث . وفى عهد هذا الحاكم العسكرى سلمت الجمهورية السورية من المكايد لضعضعة الاستقلال لكن الحرية كانت مكبوتة مغلولة ، واستغل أعوان الانقلاب نفوذ الحاكم ففرضوا على وظائف لم يخلقوا لها وأسىء إلى الصحافة بدمجها ومزجها ، فكان لكل صحافيين جريدة واحدة .

أما الجيش الباسل فقد ازداد قوة ووعياً وأتيح له الحصول على معدات حربية كثيرة وعم التنظيم فيه فكان أمل الشعب السورى فى غاياته المثلى .

وقد سار « الشيشكلى » على غرار حسنى الزعيم فى انتخابه رئيساً للجمهورية وفى إدارة حكومته ، والتف حوله فريق من المموهين والمتملقين الذين كان أمثالهم

---

(١) فى هذا العهد القصير برزت قصة الاتحاد السورى العراقى أو الهلال الخصيب .

فى كل عهد سبب النقمة والانحراف والطغيان ، على أن جنده الأحرار كانوا بالمرصاد يحسون إحساس الشعب ويرقبون بأعينهم سوانح الفرج ، فإن سورية ما ألفت فى حياتها خنوعاً ولا ركوناً لاستبداد .

١٢ — حكم الشعب

بقى الشعب السورى مكفوف الحرية يتزحزح فى قيوده تزحزح الأسد فما نام يوماً على ضيم ولا استكان لغاصب . فقد تغلغلت فى صفوف الطلاب والشباب بالجامعة والمعاهد العلمية روح التململ والنقد . وسرت النقمة إلى الجمهور فبات يتحين السوانح لفك القيود واسترداد الحكم الديموقراطى الصحيح ، وشق على الجيش أن يبقى الشعب صابراً على الحكم الفردى فاستجاب لرغبته وحمل صاحب هذا الحكم على مغادرة البلاد ، وذلك فى الخامس والعشرين من فبراير ١٩٥٤ . فعادت الأوضاع الشرعية إلى ما كانت عليه سنة ١٩٥١ ، وبهذا أعيد الحكم للدولة المدنية ورئيسها السيد هاشم الأتاسى .

واجتمع مجلس النواب فى هذا اليوم التاريخى من حياة سورية ليثبت للسوريين أن أحداث الانقلاب المتكرر ما استطاعت أن تفل من عزم الشعب ، ولا أن تحول بينه وبين أمجاده وسعيه إلى حياة أفضل ، فتجاريب الحكم وتداول الأحزاب وتغييرها زادت فى إيمان الشعب السورى بحقه وأثبتت له أن الحياة الدستورية هى الجديرة به وهو الجدير بها ، فإن حكم الشعب هو غاية السوريين جميعاً ، فإذا انحرفت مطامع فرد ووتاه الطغيان لا يلبث أن يتهدم أمامهم ، فإن اغتصاب الحق والحرية لا يقوم إلا على الباطل وما عاش فى سورية يوماً إلا على الألسنة الغاصبة والخداع المكشوف .

كانت ثورة الجيش السورى لاسترداد الحرية أمنية الشعب بعد أن طال شوقه إليها وتلهفه عليها ، فلما حققت له هذه الثورة أمنية من أغلى أمانيه هتفت القلوب للجيش الباسل الذى أيد عودة الدستور وأعلن الرغبة فى الابتعاد عن السياسة والحزبية ، فانصرف الجند إلى المهمة التى نذروا لها حياتهم وجهادهم وهى الذود عن حدود الوطن ، وآلى ولاة أمرهم على أنفسهم أن يعيدوا للجيش مناقبه ومزاياه فإن المحنة التى ألمت بهم وكان لها ضحايا وشهداء ردتهم إلى المصلحة العليا وجعلت

شعور الشعب يتجاوب مع شعور الجيش ، فتجمعت القوة الرشيدة التى تفتدى سورية وتعمل على توطيد الاستقلال وتنسيق الجهاز الحكومى ، وكان أكبر مهمة للحكومة الموقوتة العمل على استئناف الحياة الدستورية والدعوة العاجلة لانتخاب نيابى تضمن فيه حرية الانتخاب . فالحكم النيابى الصحيح هو الأساس لتحقيق العزة والاستقرار ، ولم تغفل هذه الحكومة قضية فلسطين التى هى هم كل عربى حر ، فالعمل المتواصل من أجلها وفى سبيلها لابد منه مهما كانت الظروف والأسباب .

ومضت هذه الحكومة فى استعادة الحياة الدستورية والاستعداد لانتخاب حر وقد رجعت الأحزاب إلى عهدها السابق تلملم جمعها وتتحفز للوضع العتيد الذى يضمن لها المناصب ودب النشاط والتنافس فى صفوفها ، ولم تدم هذه الحكومة الموقتة أكثر من مائة يوم . فقد آن الأوان للقيام بالانتخاب المنشود وعهد الرئيس الأعلى إلى زعيم وطنى معروف بالنزاهة والعلم والإخلاص بتأليف حكومة مستقلة لا تتحيز ولا تعبأ بغير المصلحة العليا والإشراف على انتخاب حر مطلق فكان الأستاذ « سعيد الغزى » هو هذا الزعيم الذى أجمع الشعب السورى على محبته والاعتراف بوطنيته ، فقام وإخوانه أعضاء الوزارة بمهمة التمهيد لانتخاب نيابى حر ، وللمرة الأولى فى حياة سورية السياسية برز نواب لها لم يسبق لأكثرهم الترشيح للنيابة ، وفيهم حزبيون ومستقلون وقدماء فى السياسة والوطنية وأناس لم يتمرسوا بهما من قبل ، وفيهم شيوخ وشباب بحيث أسفر الانتخاب المطلق الحر عن تنافر فى الألوان وتفاوت فى المذاهب السياسية والثقافية ، فلم يتح لها أن تأتلف فيه كتل ذات نزعة واحدة أو متشابهة . وكان من نتائج هذه الحرية التى مارسها السوريون فى انتخابهم ظهور نائب شيوعى فى مجلس النواب ، لم تتجهم له الوجوه إذ كانت تحميه الحرية المطلقة ، فارتفع صوته فى المجلس كما ارتفعت أصوات كثيرين ممن يعربون عن آرائهم ، ولا ضير على سورية فى هذا التنافر الحزبى الذى ضاق به الناس فانه دل على الحياة القومية فى البلاد وأن الشعب السورى ضنين بسيادته واستقلاله ، وما تسمع من بعيد صيحات الأحرار الذين يجاهدون المستعمرين فى كل بلد عربى أو إسلامى حتى تتجاوب فيه أصداء النقمة والدعوة للانقاذ والفداء .

وهكذا تظل سورية الأبية يقظة حازمة على الرغم من الأحداث والمحن فى الداخل والخارج فهى صوت العروبة ومنبع الوطنية فى شرق العرب ، ولابد

أن يتاح لها الاستقرار متى تصافت القلوب وخف التزاحم على كراسى الحكم واجتمعت الكلمة على سياسة واحدة تضمن لها حرية أخذتها بالدماء واستقلالا انتزعته بجهاد الشعب وكفاحه ، ولقد أعاد الشعب السورى صاحب الفخامة شكرى القوتلى رئيساً للجمهورية بتاريخ ١٦ أيلول (سبتمبر ١٩٥٥) .

١٣ — كلمة عامة

فى الحياة الثقافية والاقتصادية بسورية

عرف الشعب السورى بالدأب والكفاح يرفدهما الوعى والجلد والطموح ، وقد سجل تاريخ النهضة العربية المعاصرة أن سورية كانت مبعث الوطنية والفكر العربى فى الشرق الأدنى . وحين جاءها الفرنسيون هالهم أن يروا أهلها على جانب كبير من الحضارة والوعى والتجلد ، لقد صمدت سورية للحكم العثمانى وما قبله عصوراً دون أن يتبذل جوهرها الأصيل ، وبقيت كذلك فى عهود الفرنسيين وثابة إلى العلى متأبية على الضيم ، فهى تدأب كالنحل ولم تعرف الخول والخنوع ولقد عرف الشعب السورى أثر العلم فى الحياة العامة والخاصة وأدرك بوعيه طموح شبابه للتزود من ألوان الثقافة ، فكانت المدارس فى سورية حكومية وأهلية تقوم بنصيبها فى نشر العلم والوعى ،ومن أتيح له الاغتراب للاختصاص بالطب أو الحقوق أو العلوم السياسية كان لا يحجم عن السفر إلى الغرب أو إلى استانبول عاصمة الدولة العثمانية فى ذلك العهد .

وإلى فريق من الشباب السوريين الذين درسوا أو أكملوا دراستهم فى خارج بلادهم يعود الفضل فى الدعوة الأولى للتحرر من الطغيان العثمانى والسعى إلى حياة أفضل واستقلال طالما خامرا أمانيهم ، ومن هؤلاء السابقين الأوائل من اضطهدهم الحكم العثمانى وراحوا شهداء الغاية التى عملوا من أجلها ، ومنهم من غدوا بعد حين أشهر الدعاة إلى الوطنية بسورية سواء فى مستهل العهد الفيصلى أو الانتداب الفرنسى .

إن تطور العلم فى سورية بعد الحرب العالمية الأولى حدث انقلابا فى حياة السوريين ، فالغنى والفقير يطلب العلم أينما كان،ولم تستطع حكومات الانتداب أن

تحول دون هذا النمو الملحوظ عاماً بعد عام فى زيادة التعليم وإقبال السوريين عليه ، لا يعوقهم مال أو انتداب ولا يعوزهم دأب أو طموح ، وكانت البعثات العلمية إلى فرنسة من شبابهم وأبنائهم تعود إلى المشاركة والقيام بالتدريس أو الإشراف عليه فى أنحاء البلاد ، ويندر أن لا تجد مدرسة فى قرية حتى بلغت نسبة التعليم حداً عالياً هو أقل من مثله فى لبنان وأكثر منه فى مصر والبلاد العربية . والأمية فى سورية لا تلتصق بغفلة أو حطة فإن التقليد الاجتماعى يفتح العين والذهن حتى تجد الأمى أسرع إلى تعليم ولده ليعوضه مافاته منه ، وتدريس الأميين فى سورية كان فيه جدوى وللقائمين به فضل السعى والجهد .

وأشهر الدور العلمية فى سورية المجمع العلمى العربى الذى أسسه عام ١٩١٩ الأستاذ محمد كردعلى وبقى يرعى المجمع بعنايته ويتعهد مجلته بقلمه وتوجيهه حتى توفى سنة ١٩٥٣ .

وكان للمجمع نشاط محمود فى إقامة المحاضرات وتشجيع المثقفين والعلماء ثم اكتفى فى العهد الأخير بنشر المخطوطات ، وللمجمع أعضاء عاملون ومراسلون من العالم العربى ومن المستشرقين .

وفى سورية جامعة مرموقة بدأت رسالتها فى العهد الفيصلى لكليتى الحقوق والطب . وبعد جلاء الفرنسيين أسست فيها كليات الآداب والعلوم والهندسة ، ثم أنشئت بها بعد بضع سنوات كلية التربية والتعليم وكلية للشريعة ، ولم تزل بحاجة إلى كليتى التجارة والزراعة . وقد أخرجت هذه الجامعة ألوفاً من الشبان فيهم نخبة الممتازين فى فروع المعرفة والثقافة الفكرية .

ومما هو جدير بالذكر أن الدراسة فى كلية الطب تجرى بالعربية منذ إنشائها ، وقد ألفت لهذه الدراسة والتتبع فى موضوعها كتب قيمة شهد بفضلها ورجاحتها العارفون والمختصون .

وإلى جانب الجامعة دار للآثار فيها الكثير من العاديات لا سيما التدمرية ولها مجلة حولية نفيسة . وقد استطاع المشرفون على الدار أن ينقلوا أروع أثر عرف حتى الآن من قصور الأمويين . ذلك قصر هشام بن عبد الملك الذى نقلت أجزاؤه وزخارفه من مكانه فى بادية الشام وأقيم فى جانب من دار الآثار .

وفى دمشق وحلب واللاذقية دور كتب وطنية كبرى ، فيها ألوف المجلدات القديمة والحديثة والمخطوطات النادرة[1] .

وفى سورية ندوات للتصوير والنحت وحلقات للأدب والفن تم إنشاؤها بجهود من فضليات النساء المعلمات والمثقفات .

ويرفد ذلك كله مدارس حكومية وأهلية ودور للمعلمين والمعلمات ومعاهد للصناعة والتجارة والزراعة فضلا عن المعاهد الثانوية والابتدائية للذكور وللإناث وهى كثيرة موفورة فى أنحاء البلاد .

وتوالى سورية إرسال بعثاتها إلى مصر وأوربة وأمريكا ليتخصص فتيانها وفتياتها فى أشتات العلوم والفنون ويزداد مراساً واطلاعا .

وفى سورية كلية عسكرية بحمص تخرج كل عام للجيش السورى خيار الضباط المدربين ، وللعسكريين صحف خاصة بثقافتهم وتوجيههم ، وقد ارتقت المرأة السورية فطالبت بحقها فى الانتخاب وأجيز لها هذا الحق فمارسته وما تزال ملحة فى أن تنتخب وتنتخب أسوة بالرجال ، وقد حقق لها دستور الشيشكلى هذا المطلب فمارسته بوعى ودقة وإن لم تنجح أية طالبة للنيابة فى الانتخاب .

وفى سورية شعراء وأدباء بين شيوخ وكهول وورد بعضهم الثقافة الغربية والعربية ، وكان للآداب اللاتينية تأثير فى ناشئة البلاد قبل الاستقلال إذ كان وجود الفرنسيين بسورية عاملا على نشرها وشيوعها . وينزع الشعراء السوريون الشيوخ إلى الجزالة والانسحاب على آثار الأوائل من حماة الفصحى ، وليس للغة العامية أى مشجع فى سورية . أما الشباب فيتجاذبهم التقليد والمحاكاة .

وحين تم الجلاء وتغيرت مناهج التدريس أدخلت اللغة الانكليزية على التعليم ، فصار أكثر الطلاب والطالبات يميلون إلى دراسة اللغة الانكليزية ، وقد تنازعتهم اللغتان وكانوا بلغتهم الأولى أقوى مما عليه أمثالهم فى عهد الاستقلال .

أما الصحافة بسورية فقد أدت رسالتها فى الكفاح والنضال ، وكانت تعبر عن مطالب الشعب وتوجيه الوطنيين ، ومن أصحابها من شاركوا فى الجهاد وفى التمثيل

---

(١) أنشأ مكتبتى حلب واللاذقية الأمير مصطفى الشهابى حين كان محافظاً بحلب ثم اللاذقية وبقى يتعهدهما بالعناية من بعيد .

النيابي ، واحتمل الصحافيون كثيراً من العناء والبلاء في مختلف العهود ، ولم تسلم رسالتهم ممن اقتحم نفسه فيها للارتزاق والاستغلال لا استجابة للكفاية الصحفية والتجربة الطويلة والثقافة العامة التي تقتضيها حياة الصحافي ورسالته الثقيلة العبء ولا تزال هذه الصحافة بحاجة إلى الإصلاح والتجديد .

والحياة الاقتصادية في سورية مرموقة ملحوظة تقدمت أشواطاً ونمت أسبابها ووسائلها وتعددت مظاهرها وآثارها ، فمنذ جلا المحتلون عن سورية أخذ رجال المال والاقتصاد يمكنون لأنفسهم وبلادهم من المشروعات الكبرى . وكان فريق من التجار قد أنشأوا من قبل في المدن الكبيرة مناسج ومصانع تسد ما يحتاج إليه الشعب من البضائع الأجنبية ، وقد ازدادت المعامل على اختلاف أصنافها كما تتطلب الحياة الحرة ، وزودت في العهد الجديد بكل ما يقوى منتوجها ويوفر الحياة الكريمة لعمالها .

ومما هو جدير بالذكر أن سورية قد امتازت منذ القديم بصناعات يدوية دقيقة فيها زخرف أنيق وبراعة في الحفر والتطريز مما لم تجارها فيه سائر البلاد العربية .

وقد بعثت الحكومات المتوالية بعد الاستقلال روح النشاط والتجديد في المرافق العامة ، فعززت ميناء اللاذقية وأعدت له العدة لتستعيض به عن ميناء بيروت الذي كان المنفذ البحري لسورية .

وإذ كانت التجارة السورية ذات صلة قديمة بالتجارة اللبنانية فقد وقعت بعض الصعوبة في تنسيق الحياة الاقتصادية بين البلدين الشقيقين ، ولا تزال المساعي جادة لتأمين التنسيق والمصلحة العليا .

ولئن أخذت سورية اليوم بنهضة صناعية حديثة فإن عنايتها بالحياة الزراعية لم تتخلف عن البلاد المجاورة ، بل قد تقدمتها أحياناً بصنوف اختصت بها ، ومن بشائر النجاح الزراعي في سورية أن جربت في شمالها زراعة القطن ، فكانت ذات محصول خير ، وهي بسبيل تحسين هذه الزراعة وتدارك ما يفوتها فيها .

وما زالت في سورية أرض واسعة من غير حرث ولا يد عاملة ، وخير بقاعها الخصبة منطقة إسكندرونة وأنطاكية المغتصبة وما جاورها .

والإقطاعية الزراعية في سورية بطريق الاختفاء لشيوع الآراء الديمقراطية

بين الفلاحين ، وقد عنيت الحكومات السورية قبل الجلاء وبعده بتوزيع الملكيات الصغيرة على المستحقين ، والفلاح السورى غير محروم ولا ذليل ، والعناية من أجله مبذولة وموفورة وقل أن تخلو قرية من مدرسة أو عيادة صحية .

وفى جنوب سورية منطقة زراعية كبرى عرفت بالخصب والنماء والجودة فى زراعة القمح منذ عهد الرومان حتى كانت تسمى « أهراء روما » .

والسورى كان وما زال كأخيه اللبنانى لا يتحرج من الاغتراب فى طلب الرزق ، فإذا ضاقت عليه بلاده سعى إلى غيرها مهما كانت بعيدة ، ففى لبنان ومصر وأفريقيا وأمريكا مهاجرون من سورية نزحوا قديما واستوطنوا البلاد التى نزلوها وأسسوا فيها المعامل والمصانع وأصبحوا من كبار الأغنياء .

وسورية اليوم فى بعث جديد يعم مرافق حياتها كلها من ثقافية واجتماعية واقتصادية ، وهى تبنى و تصلح لغدها ومستقبلها ، يشارك فى هذا البناء والإصلاح شيوخها ، وشبابها ورجالها ونساؤها ، مدركين أن الحفاظ على استقلالهم منوط بحرصهم على السيادة والكرامة ، ولا يتم ذلك ولا يؤمن إلا بقوة الجيش والشعب وتماسك المخلصين لبقاء سورية المجاهدة ، والأمل كبير فى الشباب الجديد الذى يتحرر من الطائفية والإقليمية ويسعى إلى زوال الإقطاعية على أن يتزود بالمعرفة والمراس ، ويجعل مصلحة الوطن هى العليا وفى سبيلها يحيا ويحول دون الاستغلال والانحراف .

المملكة الأردنية

وصفها :

إن البلاد التى تقع جنوبى الشام بالمصطلح القديم وعلى شرق الأردن تسمى اليوم المملكة الهاشمية الأردنية . وقد اختلف الباحثون فى تسميته نهر الأردن[١]. ومنهم من يعده حوض «البحر الميت» ، هذا البحر الذى ينتهى إليه النهر ، والمصب الذى تتجمع فيه الأنهار وروافدها فى تلك الجهات التى ينصرف ماؤها إلى مجراه . . .

والبحر الميت ماهو إلا بحيرة واسعة منخفضة ، تكاد تكون هوة . وتسميتها بحراً كما يقول المصريون عن نهر النيل بحر النيل لا تساعه ، وقد وصفوه بالميت لأن السمك لا يعيش فيه لملوحة مائه ، والأملاح فيه تستخرجها شركات تجارية لتصنع منها الأسمدة الصناعية ، على أن هذا البحر الميت يفقد كثيراً من مائه بالتبخر مما يؤدى إلى اضطراب مستواه[٢]. وتحيط بهذا البحر جبال ذات أهمية تاريخية وجيولوجية ، والتكوين الطبيعى لهذه البقعة من الأرض والطقس الخاص فيها حفزا علماء الجيولوجيا إلى العناية بدراسة هذه البحيرة والبحث عن مصدر الملوحة فيها وما فى تربتها من المعادن والمناجم . . .

فالبلاد التى تقع فى شرقى الأردن بضفتيه قد أضيفت إليها بعد نكبة فلسطين المناطق الحرة من المدن والقرى على تخوم الضفة الغربية ، وليست هذه البلاد على استواء واحد فى مواقعها ، فهى بحكم مركزها الجغرافى والطبيعى ذات جبال ووهاد وسفوح وهضاب .

وسكانها على اختلاف معيشتهم يقيمون فى الشمال الغربى من السفوح الشرقية للجبال أو الهضاب الداخلية ، حيث تتجمع المياه وتتوفر المناطق الخصبة .

أما أهم المدن فيها وأشهرها هى عمان ، فعمان عاصمة الأردن ، ثم أربد التجارية والزراعية ، وجرش ذات الآثار الرومانية والحدائق المثمرة والمياه الموفورة ؛

---

(١) يسمى نهر الشريعة أيضاً .
(٢) (وادى الأردن) لعبد الرحمن الكردى ص ١٦ .

وعلى مقربة منها « عجلون » التى لا تزال فيها أطلال القلعة التى بناها صلاح الدين الأيوبى .

ومن البلاد التاريخية فيها « الكرك » القائمة على هضبة منعزلة ومن حولها القمم الشاهقة ، وفى هذا الموقع الحصين المشرف على البحر الميت ظهرت الكرك وفيها من الآثار قلعة مشهورة أنشئت فى زمن الصليبيين ، وعلى مقربة من هذه البلدة قرية « مؤتة » التى وقعت فيها أول معركة بين المسلمين والروم .

ومن المراكز الخطيرة فى الأردن مدينة معان الواقعة آخر السكة الحديدية الحجاز ، وقد عرفت منذ القديم بموقعها الحربى والاقتصادى ، وهى ذات سور من الآجر على نسق البلاد المحصنة . وفى الشمال الغربى منها تجثم أطلال « البتراء » المعروفة بوادى موسى عاصمة الأنباط .

وتليها العقبة بموقعها الطبيعى على الساحل الأردنى الذى يبلغ طوله ثمانية كيلو متر من شاطىء البحر الأحمر وفيه يقوم ميناء العقبة التجارى ، واشتهر سكانه بصيد السمك والأسفنج .

هذه هى البلاد الأردنية بمواقعها الطبيعية التى تتصل بالجزء الجنوبى والشرقى من سورية وفلسطين ، ويحيط بها العراق من الشرق الشمالى ومن الجنوب المملكة العربية السعودية . والطقس فيها حسب المناطق فى ارتفاعها وانخفاضها وخصبها وجفافها .

سكان الأردن

يتألف سكان الأردن من القبائل البدوية أو العشائر الاقطاعية التى استوطنت بقاعاً من هذه الأرض واستقرت فيها ، أو كانت تؤثر الرحال والخيام فتنتقل فى الجهات التى تروقها ، وتنزل حيث يطيب لها المقام فى المواسم والفصول ، فنى الصيف يؤوون إلى قرب الهضاب الداخلية فى الأردن ، وفى الشتاء يرتدون إلى البادية حيث يعودون إلى منابتهم وطبيعتهم الأصلية .

هؤلاء البدو المستقرون والمتجولون يؤلفون الكثير من السكان ، يضاف

إليهم الحضر من الشركس الذين أقاموا فى جرش والزرقاء وغيرها وتمازجوا بالمواطنين العرب .

أما أصلهم الشركسى فمن جبال القفقاس ، ويذكر التاريخ أنهم انحدروا من هذه الجبال فى القرن الحادى عشر ، إذ أغار عليهم أمير روسى بتأييد من امبراطور البيزنطيين وقتل زعيمهم ، فظلوا فى نضال مرير مع الروس طوال القرن الثانى عشر حتى انهزموا ، ولما فتح العثمانيون القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م لم يخضع الشركس لسلطانهم فعادوا الى جيرانهم الروس فما لقوهم حتى عاد الخصام من جديد بين حكومة القرم والروس ، وبقى الفريقان بين مهادنة وخصومة تبعاً للاشتباك بين الترك والروس . وفى عام ١٨٦٢ م أخرجوا من ديارهم فى القفقاس لأسباب حربية وإدارية بأمر الحكومة الروسية ، فلجأوا إلى تركيا أولا ثم هاجروا إلى سورية وشرق الأردن عام ١٨٧٧ حيث منحتهم الدولة العثمانية أرضاً يعيشون فيها .

وبعد سنوات لحقت بهم قبائل من المضطهدين فى بلادهم فاستوطنوا الأردن ، وأنشأوا فيها أريافاً ومرافق للمعيشة ، حتى إذا أسس الجيش الأردنى بعد الحرب الأولى دخله فتيان منهم عرفوا بالشجاعة ، كما انضم أمثالهم إلى الجيش السورى فى عهد الانتداب ، وكانوا مخلصين لحكمه وقيادته العسكرية .

وفى الأردن كثير من المهاجرين العرب جاؤوها من دمشق وفلسطين منذ أسست حكومتها العربية . وقد أقاموا فيها وشاركوا فى الحياة الاقتصادية والثقافية فأصبحت لهم موطناً ثانياً .

أما البدو من سكان الأردن الثابتين فى مقامهم فأكثرهم من العشائر . وقد اتخذوا الزراعة وسيلة للمعاش ، وتحول جماعات منهم إلى فلاحين يقيمون فى المرابع والأرياف ، غير أن طوابع البادية وتقاليدها ماتزال متغلغلة فى حياتهم، لم يستطع تمازجهم بالحضر أن ينتزع منهم طبائعهم الأصلية وخصائصهم التى درجوا عليها ، ولم يتنكروا للحضارة ولا نشزوا على أحكامها وقوانينها ، وهم حلقة اتصال بين البدو المتنقلين والحضر المقيمين ، وعددهم يجاوز الثلث من السكان .

أما الأعراب من البدو الذين يؤثرون الارتحال والانتقال حسب المواسم والفصول فلا منازل لهم مرسومة ولا مضارب محددة . وقد تركوا المناطق التى كانوا فيها منذ قرن حيث اختلفوا مع قبائل أخرى كانت تعيش فى شمال حمص

فرحلوا عنها إلى الجولان ثم انحدروا إلى شرق الأردن ويسمون ببنى خالد ، ويذكر بعض الباحثين والمؤرخين أنهم من ذرية خالد بن الوليد الفاتح الإسلامى العظيم ، أما شهاب الدين القلقشندى مؤلف « بلوغ الأرب » فيعدهم بطناً من هوازن .

وهؤلاء البدو يملكون كثيراً من الإبل والماشية والبيوت ، ومهما تنقلوا وارتحلوا فلا يجاوزون الخط الحديدى الحجازى إلا قليلا ، وينقسمون إلى ثلاثة بطون تتألف منها عشائر عديدة وبيوت متفرعة . ومن القبائل البدوية المشهورة بنو صخر وبنو عطية والحويطات ، وأ كثرهم ينتسبون إلى عروبة أصيلة ، وبعضهم يرد نسبه إلى بعض الصحابة وسدنة الكعبة قبل الإسلام .

وممن لجأ إلى الأردن فى أعقاب القرن التاسع عشر فريق من التركمان[1] المنتسبين إلى القبائل المتنقلة حول إزمير وأسكى شهر أيام العثمانيين ، فلما دبت الخصومة فى طوائف منهم نزحوا إلى شمالى سورية ثم ارتحلوا إلى البلقاء من أعمال الأردن وعاشوا فى قرية أم الرمان مع الفلاحين ، ولما طال مقامهم أسسوا مستعمرتين صغيرتين فى « اللجون » و « عين الحمر » .

فسكان الأردن الذين انتشروا فى حدود البادية وتوزعوا على الضفتين الشرقية والغربية من هذا النهر الذى قامت حوله هذه المملكة العربية الحديثة يبلغ عددهم زهاء مليون وخمسين ألف ، نصفهم من البدو والنصف الآخر من الحضر واللاجئين الذين شردتهم النكبة ، فآووا إلى الأرض المجاورة التى تذكرهم كل يوم بالوطن المغصوب !

---

(١) تاريخ شرق الأردن لطوقان ص ٣٧٣

العادات العشائرية والبدوية

لقبائل البدو المستوطنين أرض الأردن عادات وتقاليد لا يحيدون عنها فى حياتهم وسيرتهم ، ولا يزال قسم من هؤلاء السكان متمرسين بحياة بدوية على الرغم من بوادر الحضارة التى وصلت إلى منازل بعضهم ومرافق عيشهم ، وذلك لأصالة البداوة فى نفوسهم وطباعهم ، فهم مرتبطون بالعادات القديمة من إكرام الضيف ونجدة المستغيث والأخذ بالثأر ...

يجود البدوى بكل ما يملك ويسعى لغسل العار بكل ما يقوى من عزيمة وعدة ولاينسى الانتقام(١) . يحدثنا الرواة(٢) حوادث عجيبة عن تلك المروءات الباقية من سلالات العرب البداة فى شرق الأردن ، من تلك الأحاديث أن إعرابياً كادت توافيه المنية فدعا ابنه إليه وضمه إلى صدره ، ونظر إليه نظرة الحزن والحنان وقال له : « يابنى . أموت وفى قلبى حسرة وكآبة على مامضى ، لأنى لم أقدر أن آخذ ثأرى بيدى من قاتل جدك وأبى ، ثم سلمه البندقية والسيف والمسدس وعانقه للوداع وهو يقول : تذكر ما أوصيتك به ، ومات على تلك الحالة . »

وقد جرت هذه القبائل فى معتقداتها الثأرية على ما كان عند العرب فى الجاهلية ولقد تحدر هؤلاء خلال الزمن من أولئك — فإذا لم يؤخذ بثأر القتيل اعتقدوا أن دمه يصرخ فى الليالى الدامسة ، ويطلب من أقاربه وأولاده أو من عشيرته أن تنتقم له من عدوه وقاتله . ولهم أحاديث غريبة فى سماع ذلك الصراخ بالليل ،وهذا الصراخ نفسه هو الذى كانت العرب تسميه بالصدى أو الهامة وفيه يقول « توبة العقيلى » صاحب ليلى الأخيلية .

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت ... علىّ ودونى تربة وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا ... إليها صدى من جانب القبر صائح

ومن عادة كرامهم أن الضيف إذا نزل بهم أقام أياما مكرما لا يسألونه جهة القصد ، وإذا ألم بهم(٣) لاجىء أجاروه من غير أن يعلموا وجه ذنبة أو براءته

(١) وهذا من شيمة أهل الصعيد فى مصر .
(٢) (خمسة أعوام فى شرق اردن) للأرشمندريت بولس سلمان ص ١١٠ .
(٣) المصدر السابق ص ١١٣ .

ويقولون فى هذا : « البيت يحمى الطريد والشريد » وقد حظيت الأشجار لديهم بتكريم وتقدير لاعتقادهم بأنها مبيت الأرواح الخفية(١) وهى نوعان منها ما ينمو على ضفاف الأنهار والجداول ، والثانى ما ينشأ على منحدر الجبال أو فى السفوح والهضاب .

وسبب تكريم الشجر عند البدو أنهم يقطعون الصحراء بين وقد الحر والشمس فإذا لاحت لهم شجرة سارعوا إليها ليتفيأوا ظلها ، وهذا أثر من آثار الجاهلية ، إذ كان بعض الأعراب يعبدون الشجر(٢) والأقدمون يزعمون أن الأرواح تستقر بها فيعلقون فى غصونها لحماً ويقدمون من أجلها الذبائح ، وما كان قريباً من هيا كل العبادة ينطق بالأسرار الغامضة والرموز الخفية (٣) .

ومازال بعض البدو يحلفون بالشجر فيقولون «وحياة العود والرب المعبود»

وهؤلاء العرب يهتاجون إذا وقعت عليهم سبه ، ويثورون بشاتمهم ليقتلوه فقد تطاول شاعر بنى حسن رهجا (ذيبة)(٤) ابنة الشيخ «عودة أبى تايه» أمير عرب الحويطات ، ولما ورد الشاعر على مضارب الأمير قال له عودة :

« قبحاً لهذه اللحية ياقذاف المحصنات » وأهدر دمه . ففر الشاعر لا يلوى على شىء . . .

ومن العادات المتبعة عند عرب الشرارات والصخور فى الأردن أن الشاتم يدفع للشتوم فرساً أو سيفاً أو بعيراً أو ثلاثين قطعة فضية ، والشاتم عند (عرب العدوان) يضرب بالسياط حتى يسيل الدم على وجهه .

وكان لهذه العشائر العديدة (حقوق بدوية) مصطلح عليها تشبه إلى حد قريب القواعد العامة فى الحقوق الجزائية والمدنية المعروفة فى حضارة الحقوق المعاصرة

---

(١) خمسة أعوام فى شرقى الأردن) ص ١٨٥ .

(٢) فى طريق الميتولوجيا العربية) لمحمود سليم الحوت طبع بيروت سنة ١٩٥٥ ص١٠٩ بحث (عبادة الشجر عند العرب فى الجاهلية — كما أن هذا لدى هؤلاء والأقدمين لا يعد بدعاً إذ أننا نرى أمماً راقية فى عصرنا تقيم كل سنة عيداً تسميه عيد الشجرة) وفى سورية ولبنان هذا العيد أيضاً يشيدون فيه بذكر الأشجار ويوصون بزرعها والعناية المثلى بها .

(٣) المصدر الأول نفسه .

(٤) لعلها ذئبة على عادة العرب فى تسمية أولادهم بالذئاب والوحوش .

وكان هؤلاء الأعراب يخضعون لمغارم وديات يلزمهم بها قضاتهم وأشياخهم وهم بداة مثلهم ، والقاضى البدوى يمتاز من قومه بالذكاء وسداد الحكم وسلامة النقد وسرعة البديهة ، ومعرفة التقاليد البدوية والقانون الموروث ، ففى الخصومة الكبرى يلتمسون قضاء الحاكم البدوى ، وفى الشؤون الصغيرة يرجعون إلى رؤسائهم وشيوخهم بالاحتكام وتحقيق الإنصاف ونبذ الخلاف . ولهؤلاء العرب فى شرقى الأردن حياة أبية رائعة تسودها حرية معقولة وحفاظ ونخوة ، وكانت أول عهد القوم بعد الحرب العالمية الأولى وقبلها تشتجر الخصومات بين تلك القبائل الأردنية ويغزو بعضها بعضا لأسباب قد تكون تافهة لكنها قائمة من جراء الثأر أو العرض أو الدفاع عن الكرامة والحوزة ، وقد فترت تلك الخصومات العامة بقيام الحكم الدستورى فى الأردن حتى خضع أولئك الاعراب للنظم الحكومية لكن هذا لم يقلل من نخوتهم ، ولم ينتزع منهم تقاليدهم فى الخصومة والمهادنة .

وقد أتيح لبعض الزعماء منهم أن يمثلوا قبائلهم فى مجلس النواب فاحتكوا بالحكام ، وتمازجوا بالمجتمع فكان هذا فاتحة تطور لحياتهم ، كما أرسلوا أبناءهم إلى المدارس والجامعات ليتلقوا ثقافة تعينهم على التكيف مع الحاضر .

وبعض هؤلاء الممثلين للعشائر كانوا موضع ثقة وتقدير من أمير البلاد ثم ملكها فمنحتهم مامنح أمثالهم من ألقاب الباشوية حتى عرفوا بها .

مراحل السياسة والسيادة

فى الأردن

قلنا إن الأردن قديمة تاريخية وحديثة متجددة ، وشهرتها بدأت من عهد الصليبيين إذ كانت مجالا لهجومهم فى القرن الثانى عشر للميلاد حتى استولت طلائع زحفهم على البلاد التى ما وراء البحر الميت . فكانت تلك الموقعة أول دخول الصليبيين إلى البلاد الأردنية . والقلاع التى لا تزال بقاياها فى القرى والمدن تدل على تحصن أهلها وما عانوا فى القديم من غزو وعدوان وحصار ، فقد تقلب عليها كثير من الحكام والشعوب حتى أخذها العثمانيون واهتموا بالطريق الرومانية المعبدة التى توصل الحجاج إلى الحجاز ، وفى عهد السلطان سليمان القانونى بنيت الحصون على طول هذه الطريق لحمايتها ، فازدادت طمأنينة الحجيج لا سيما بعد تأسيس حكومة فى الكرك تولاها موظفون من الترك بسطوا نفوذ دولتهم على القبائل والعشائر مما أثار بينهم الخلاف والتنافس ، ولما شاعت الفوضى أغار الأقوياء على الأرض الزراعية فاغتصبوها وتزعموا الفلاحين فيها وسموا أنفسهم بالأمراء .

من ذلك الحين صارت تحكم حكما إقطاعياً وعشائريا . ولم يستطع الحكم العثمانى الذى جعلها متصرفية تابعة لولاية سورية أن يستأصل العصبية القبلية ، بل حماها ووجدها وسيلة للاستغلال والتغلغل فى بسط النفوذ والخلاف .

ولما أرهقت الحكومة أهل الأردن بالضرائب وسنت قانون الخدمة الإجبارية فى الجيش العثمانى تنادت أكثر القبائل للمناوأة والتحدى ، ووقعت حوادث جسام جعلت الثورة على الحكم العثمانى تتسلل إلى البدو والحضر من سكان الأردن حتى كانت الحرب العالمية الأولى واستعان الحلفاء بالعرب ضد الترك على أن يؤيدوهم فى أخذ الاستقلال .

ورأى الحلفاء أن يستولوا على شرقى الأردن لقطع الطريق على جيش تركيا إذ كان يريد الهجوم على مصر فدخل الكولونيل لورنس العقبة عام ١٩١٧ وفى العام الثانى

نقل الأمير فيصل — وكان يقود جيشا يمثل الثورة العربية — إلى العقبة ، وتمكن مع أعوانه باحتلال قسم كبير من الأردن ، وذلك بعد معارك عديدة منها تخريب الخط الحجازى ، وزحف الانكليز الفتك بالجيش التركى حتى احتلوا الأردن فى ٩ ديسمبر ١٩١٩ .

ولما نصب الأمير فيصل على سورية ملكا كانت هذه المنطقة تؤلف جزءاً من سورية . ولكنها لم تلق العناية الكافية من الحكومة السورية لأنها كانت مشغولة بالإصلاح والتجديد وتنظيم الحكم والإدارة ، فعادت الفوضى إلى الأردن وعادت الفتن بين القبائل ، ولم يطل أمد الحكم العربى فى الأردن طويلا فقد انتهى العهد الفيصلى على يد فرنسا فى يوليه ١٩٢٠ ، ورأى الإنكليز أن يبسطوا نفوذهم فى هذه المنطقة كما بسطوه فى فلسطين ، وفى الوقت نفسه كانت الثورة فى العراق محتدمة متحفزة فلم يجد المستعمر بدأ من نصب الأمير فيصل ملكا على العراق توفيراً فى نفقات الإدارة البريطانية فيه وإرضاء للهاشميين .

وسياسة الاستعمار التى اتبعتها انكلترا فى الشرق جعلتها تعرف خطر البلاد الأردنية لموقعها الجغرافى والاستراتيجى ، فهى ذات اتصال بالحجاز ونجد والعراق كما أنها فى امتدادها إلى العقبة ذات أثر بعيد فى مينائها وخليجها فى البحر الأحمر وبهذه الأرض لابد أن يمر النفط ، فأرض الأردن إذن متصلة أشد الاتصال بمطالب الاستعمار وحياته الاقتصادية والعسكرية ، وكان الحلفاء حين اقتسموا المغانم فى البلاد العربية التى جلا عنها الأتراك وتوزعوا النفوذ والسيطرة باسم الانتداب استطاع كل منهم أن يظفر بما يحقق سياسته ، وقد تخلى لهم الفرنسيون عن منطقة الأردن ليدخلوها فى منطقة استعمارهم بعد أن أوهموا أحرار الأردنيين وطلاب الاستقلال من المجاهدين بأنهم سيقيمون لهم إمارة هاشمية مستقلة يحكمها الشريف عبدالله بن الحسين .

وقد وصل هذا الأمير المجاهد إلى (معان) يوم ٢١ نوفمبر ١٩٢٠ ، آتياً من مكة ، وكان معه فريق من الحجازيين بين جنود ومطوعة ، فأقام بمعان يستجيش العدة ليقصد (عمان) وثارت من جراء مقدمه أخبار فى سورية وفلسطين بأنه (يجهز حملة حجازية كبيرة يقودها بنفسه إلى سورية[1] لتوحيد الحركات القائمة

---

(١) ثار السوريون لغدر الحلفاء واستيلاء الفرنسيين على بلادهم باسم الانتداب .

فى حوران وجبل الدروز وجعلها حركة منظمة قانونية ، وإلباسها ثوبها السياسى الحقيق ، لأن أكثر الدروز والحـــوارنة متفقون على مقاومة الغاصبين الفرنسيين[1] .

وقد بلغت هــذه الأخبار الإفرنسيين فهاجوا لها وماجوا حتى حسبوا أن الجماعات التى تحتشد فى شرق الأردن لاستقبال الأمير عبدالله عند وصوله من معان هى قوات معدة لمهاجمة سورية ، فأخـذ الفرنسيون يتصلون بالبريطانيين ليحولوا دونها .

وقد أذاع الأمير عبد الله منشوراً وهو فى (معان) خاطب فيه السوريين جاء فى أوله :

(سلام لا أجد فى نفسى ادنى ريب ، أو أقل شبهة فى أن أبناء الوطن السورى سيتلقون بياناتنا التالية بقلوب ملؤها التصديق والإخلاص . فليعلم أبنـاء سورية أن ماأصابهم من الضياع المحزن من اعتداء رجال الاستعمار الإفرنسى على وطنهم ومبادرتهم بسرعة فظيعة غريبة لهدم عرشهم[2] فى أول سعيهم بتشكيل حكومتهم التى وضعت أساسها على سياسة الولاء والصداقة لـكل الأمم على الإطلاق ، قد أثر على حواس كل عربى على وجـه الأرض ، وفى الوقت نفسه نعلم علماً يقيناً أن أبناء سورية الكرام هم من جمـــلة المفاخر العربية ، وركن من أركان الجامعة القحطانية والعدنانية ، لا يرضون بالذل ولا ينقادون إلى من جاء لإهانتهم فى عقر دارهم) ، إلى ، ان يقول المنشور :

« كيف ترضون بأن تـكون العاصمة الأموية مستعمرة فرنسية ؟ إن رضيتم بذلك فالجزيرة لا ترضى ، وستأتيكم غضبى ، وإن غايتنا الوحيدة هى ، كما يعلم الله نصرتـكم وإجلاء المعتدين عنـكم ، وهأنذا أقول ، ولا حرج ، بأنى قد قبلت تحديد بيعة مليكـكم فيصل الأول عن الأكثرية الغالبة التى جـددت تلك البيعة على يدى ، وإنى سأعود ، إن أبقانى الله حياً إلى وطنى يوم نزوح عدوكم عن بلادكم

---

(١) علمان فى عمان لخير الدين الزركلى ص ١٠

(٢) يقصد الأمير عرش أخيه الملك فيصل الذى كان بدمشق لمدة وجيزة قبيل الاحتلال الفرنسى لسوريا على نحو ما وضحناه عند كلامنا على تاريخ سورية القومى .

وعلى هذا اليمين بالشرف ، وأمركم حينئذ إليكم وبلادكم بين يديكم ، متعكم الله فيها بالعز والسؤدد والرفاهية والمجد[١] .

وبعد أيام وصلت إلى الأمير عبد الله من أخيه فيصل وهو فى لندن برقية يبشره فيها بوعد[٢] الملك جورج الخامس فى أن تجدد حكومته البحث فى قضايا العرب على أن يكفوا عن إهاجة حلفائهم الفرنسيين ، وأن يعتدل الأمير فى جهاده .

كما تلقى الأمير من والده الحسين برقية يخبره فيها بأن حكومة فلسطين تشكو امتناع الأردنيين عن دفع الضرائب لها ويأمره بأن لا يربك الحكومات المحلية بالأردن فيما لها أو عليها[٣]

وكان الأمير عبد الله قد عزم على زيارة الأردن زيارة احتلالية غير عابىء بنصح المثبطين للهمة ولا المحذرين المتلونين ، فدخل « عمان » يوم الأربعاء ٢ آذار ١٩٢١ ، وفيها أقبلت عليه وفود من شيوخ القبائل والعشائر فى البادية والشمال وكافة الصخور .

وفى اليوم التالى من وصوله إلى « عمان » استقبله الخطباء بالحفاوة والطمأنينة وألقى الأمير عبدالله بن الحسين فى الأردنيين الكلمة الآتية :

(سروركم بنا وترحيبكم واجتماعكم إلينا أمر لايستغرب ، أنتم لنا ونحن لكم وإننى لم أغفل كلمة مما جاء به خطباؤكم ، أما وطنيتكم فأمر لا يخفى على الكون كله ، ونضالكم المنشودة هى عبارة عن حقكم الذى تطلبونه ، وأستطيع أن أقول بأن الله لا يتركم هكذا ، وأنه إذا جاء الوقت لاستعمال ما تستعمله الأمم من القوة ، عند ذلك يرون أنكم ضعفاء ، ولكن إياكم أن تموتوا بلا شرف .

إننى لا أريد منكم إلا السمع والطاعة ، وما جاء بى إلى هنا إلا حميتى وما تحمله والدى من العبء الثقيل ، ولو كان لى سبعون نفسا لبذلتها فى سبيل الأمة ولما عددت نفسى أنى فعلت شيئا

---

(١) عاهلان فى عمان ص ١٧

(٢) (مذكرات الملك عبد الله) منشورات مجلة الرائد بعمان سنة ١٩٤٧ ص ٢٣١

(٣) المصدر نفسه .

كونوا على ثقة بأننا نبذل النفوس والأموال فى سبيل الوطن »(١)

وكان بين مستقبليه فريق من المجاهدين الذين شردهم العدوان بعد معركة (ميسلون) فلجأوا إلى مصر وفلسطين والأردن حيث جددوا العهد والميثاق بمعاودة الجهاد الوطنى ، لقد أقبلوا على الأمير مهنئين مستبشرين ، أما الأردنيون فبايعوه بالإمارة والنضال ضـــد المستعمرين ، وممن أقبلوا عليه يومئذ المستر « كركبرايد » ممثل بريطانيا فى السلط .

وفى تكريم الأمير أشاد الخطباء بفضله ، فنهض وألقى كلمة احتوت خطته السياسية وقد عاهدهم فيها على الجهاد لتحقيق الاستقلال .

على أن الجدير بالذكر هو أن أصابع الاستعمار الانكليزى كانت قد سبقت الأمير عبدالله إلى الأردن ، فإن المندوب البريطانى لفلسطين « هربرت صموئيل » كان قد وزع موظفين من حكومته على الحكومة المحلية فى شرق الأردن بحجة المساعدة فى إدارة الأعمال .

وقد جاء فى كلمة المندوب الانكليزى لرؤساء القبائل وشيوخ الشعب حين زار السلط ما يأتى :

(زارنى فى القدس كثير من الوجهاء وسائر عشائر شرقى الأردن منذ احتل الفرنسيون دمشق طالبين تحديد الإدارة البريطانية إلى بلادهم هذه ، على أنكم تعلمون أنه قد تم الاتفاق منذ زمن طويل بين الحكومتين على أن تكون هذه البلاد ضمن منطقة النفوذ الانكليزى لا الفرنسى ، وقد كررت حكومة فرنسا تأكيدها بأنها لا تريد أن تتدخل بأى شكل فى شؤون هذه المقاطعة ، فمن الضرورى إذن فصلها عن دمشق .

تسألونى عن نوع المساعدة التى تريد انكلتره أن تقدمها لكم ، فأجيبكم بأنها لا تريد أن تضمكم إلى الادارة الموجودة الآن بفلسطين بل تنشىء لكم إدارة منفردة تساعدكم على أن تحكموا أنفسكم بأنفسكم (٢))

---

(١) (مذكرات الملك عبد الله) ص ٢٣٤ ــ ٢٣٥

(٢) (عامان فى عمان) للزركلى ص ٣٨ ــ ٣٩

وفى كلمة المندوب البريطانى لرؤساء العشائر بيان بألوان هذه المساعدة التى تمين على تنظيم الدفاع العسكرى وصون الأمن وتحقيق العدالة .

وإن الحكومة الانكليزية ترسل موظفين من عندها يعرفون العربية وحالة العرب للقيام بالمهمة الموكولة إليهم .

ومن هذا البيان يستدل على أن بعض الرؤساء والزعماء فى شرقى الأردن كانوا على صلة بموظفى المندوب البريطانى ، ولا بد أن هؤلاء لمسوا فى الأردنيين وزعماء العشائر تنافسا فى الظهور والنفوذ ، وخلافا فى الرأى والاتجاه مما يسر لهم الوقوف على ما يحقق سياستهم ويخدم مصالح الاستعمار .

على أن كلمة المندوب البريطانى وقد أصغى لها شيوخ القبائل وأهل السلط كان صداها حيرة وبغتة ، فان ماجاء فيها من وعد ومكر واستغلال لم يبعث فى السامعين أملا جديداً ولم يكن فيها إلا التعليل بحل المشكلات المحلية ، وأين الاستقلال الموعود ؟

أدرك القوم أن مصير بلادهم للإنكليز الذين أخذوا يحكمون من وراء ستار فقد كان لهم ممثلون يمسكون بزمام الحكم ويراقبون موظفى الحكومة من بقايا العهد التركى والعربى ، وهؤلاء الذين عرفوا ما يشبه النظام والقانون فاتبعوه وساروا عليه . ولم يكن للأردن فى ذلك الحين قانون واحد أو إدارة واحدة بل كان يجرى نظام الحكم على وجوه متعددة ، فعندهم للبدو قضاء خاص وللحضر قانون مدنى وشرعى وعسكرى مزعوم . فاتخذ المستعمر من هذه الفوضى أسبابا للتدخل فى كل صغيرة وكبيرة بحجة التدريب على حكم الأردنيين أنفسهم بأنفسهم حسب الادعاء والتعهد .

وفى ٢٧ مارس ١٩٢١ من الشهر نفسه الذى دخل فيه الأمير عبد الله «عمان» لاحتلال الأردن ، مضى الأمير إلى القدس لمقابلة وزير المستعمرات البريطانية مستر «ونستون تشرشل» ، وكأن بعض ممثلى الحلفاء والانتداب المفروض كانوا على موعد ، فقد اجتمع بالقدس ثلاثة من أقطاب السياسة الاستعمارية وهم تشرشل الوزير وهربرت صموئيل المندوب فى فلسطين وروبير دوكه وكيل المندوب الفرنسى فى سورية .

وبعد اجتماع الأمير عبدالله بهؤلاء الأقطاب الثلاثة ، ثم بوزير المستعمرات اعترفت بريطانيا بابن الحسين الهاشمي أميراً على الأردن ، وقد شاع بين القوم أن الاتفاق قد تم على ما يأتي .

— إنشاء حكومة وطنية في شرق الأردن رئيسها الأمير عبد الله .

— أن تستقل هذه الحكومة استقلالا إدارياً كاملا .

— أن تساعدها الحكومة البريطانية بالتكاليف المادية لتوطيد الامن والنظام .

— أن ترجع حكومة عمان إلى المندوب البريطاني بفلسطين بالمشورة والرأى

— أن يتعهد رئيسها بالمحافظة على حدود فلسطين وسورية من عدوان البدو أو الحضر .

— أن يتعهد بالمحافظة على مركزين للطيران الإنكليزى أحدهما في عمان والآخر في الكرك ،

— أن تبذل انكلترا وساطتها في تحسين العلاقات بين الامير والسلطة الفرنسية في سورية .

وثمة موضوعات في شؤون الجمارك والقضاء والمعارف والجيش كاف البحث فيها المندوب البريطاني في القدس ليقوم بتوضيحها وتنظيمها بالاتفاق مع حكومة الاردن . وبعد عودة الامير إلى عمان مسؤولا ومرجواً انتهت الحكومات المحلية وأنشئت حكومة مركزية ، وأصبحت غاية الامير توحيد الاردن والعمل على التصافي بين القبائل ومواصلة النضال السياسي لتحقيق الاستقلال والتخلص من الانتداب .

واستعان الامير على الحكم بطائفة من العرب المتمرسين بالقضاء والإدارة والسياسة ، ولم تكن أيامه صفواً وراحة بال ، بل لقي كثيراً من شغب المناوئين ودس المستعمرين والطامعين ، فضلا عما كان يعاني من قلة المال والموارد لتيسير الاعمال .

وكانت السياسة البريطانية تدارى الامير حيناً وحيناً تروغ منه ، وقد أوتى الامير عبدالله لباقة في الحديث وتضلعا من أدب العرب والترك ، وشب على يد

أبيه الحسين بن على باعث الثورة العربية . فكان لايفتر عن السعى والاتصال بالحلفاء وتذكيرهم بآمال العروبة وحقوقها عليهم ، ولطالما طالب الانكليز بأن يعينوه على توطيد الحكم فى الأردن، فكان دائم الاتصال بهم لعقد معاهدة معهم ، وبقيت حكوماته التى تبدلت أسماؤها وشخصياتها تطالب بهذه المعاهدة ليكون الأردن صاحب بلاده ، وليشعر الشعب الأردنى بأنه مثل غيره من الشعوب المجاورة التى تناضل لتحرر والتمسك بأهداف القضية العربية ، لكن الفتن الداخلية والخارجية جعلت حكومة الانتداب تعد وتماطل بحق الأردن وتدعى أن الرقابة المالية والعسكرية لابد منها حتى يصبح الحكام المواطنون مدربين ويدرك القوم ماهم عليه من شغب وخلاف .

وفى ١٨/١٢/١٩٢٢ أرسل الجانب البريطانى مذكرة إلى حكومة الأمير يبين فيها أن الوقت لم يحن بعد لوضع اتفاق دائم يضمن استقلال الأردن ، وقد اضطرت الحكومة البريطانية فى ٢٥ مايو سنة ١٩٢٣ — بالحاح من الامير — وتطميناً للافكار العامة لكى تصدر تصريحاً سياسياً تعد به المواطنين باستقلالهم وبإدارة حرة ، لكن البريطانيين أخذوا فى الخفاء يعدون العدة لانتقاص أوضاع شرق الاردن الاستقلالية فى الإدارة الداخلية ، فبدأ ضغطهم على حكومة البلاد بضم قوة الدرك الوطنى إليهم بحجة الاقتصاد فى النفقات ، وقد أحدث ذلك هياجاً عاماً فى البلاد اضطر القابضين على زمام السلطة لتسكينه بوسائل شتى منها اعتبار الضابط البريطانى موظفاً عربياً ، وإعلان ذلك للملأ .

وقد كانت تلك الهزة الوطنية كافية فى دفع الأمير للاسراع بتنفيذ رغبات الشعب وأخذ رأيه فى التشريع والإدارة بواسطة نوابه وزعمائه ، فوافق على تأليف لجنة منتخبة من ممثلى الشعب اجتمعت برئاسة ناظر العدلية ١٩٢٣[1] ، ووضعت قانون الانتخاب للمجلس النيابى على أساس التمثيل القانونى الصحيح ، وأقرت الحكومة هذا القانون الصحيح ، وصدر الأمر بنشره وتنفيذه .

وقد وقفت بسبيل هذه الأمانى الوطنية الجديدة أساليب الاستعمار البريطانى

(١) الكتاب الأسود فى القضية الأردنية العربية . إصدار الامارة الأردنية فى ١١ مارس ١٩٢٩ طبع القدس سنه ١٩٢٩ .

لحارب البريطانيون التمثيل الشعبي وحاولوا تحديده بموجب قانون انتخاب جديد باطل أصلا وفرعاً[1] ملغياً قانون الانتخاب الصحيح السابق ، وقد قابل الشعب هذه المعاكسة بوثبة من الوعي والحزم ، وتنادى أحرار الشعب إلى اجتماع كتبوا فيه احتجاجاً صارخاً جاء فيه .

(باسم الحضارة والإنسانية نلفت نظر عصبة الأمم إلى جميع الحقائق المؤلمة التي يوقعها ممثلو بريطانيا العظمى ، وترجو إيفاد لجنة حيادية نزيهة للنظر فى تحقيق المطالب الوطنية فى الأردن) .

وتتابعت بعد ذلك على شرقى الأردن مراحل مناوأة وثورة ، وكان قد حان الوقت فى عام ١٩٢٨ إلى عقد معاهدة بين الحكومة الأردنية والحكومة البريطانية وقد جاء فى تعليل الأسباب التي أوجبت عقد هذه المعاهدة كتاب وجهه المندوب السامى البريطانى إلى الأمير عبد الله يقول فيه .

(أمرت أن أحيطكم علماً باعتراف جلالة ملك بريطانيا العظمى بوجود حكومة مستقلة فى شرقى الأردن تتولى التشريع والإدارة بلا قيد غير التحفظات المنصوص عنها فى المعاهدة ، وأن تؤدى إلى أميرها ما يؤدى للأمراء المالكين ورؤساء الدول من تحيات مألوفة) .

وجاء فى الكتاب أن الأمير أقام حكومة فى القسم المعروف بشرقى الأردن واقعة فى انتداب الحكومة البريطانية ، وإذا كان صاحب الجلالة البريطانية مستعداً أن يعترف بقيام حكومة مستقلة فى شرقى الأردن فى حكم صاحب السمو أميرها على أن تكون دستورية فقد عمد الطرفان إلى عقد هذه المعاهدة بمدينة القدس فى ٢٠ شباط سنة ١٩٢٨ .

وكان مندوب الجانب البريطانى فى المعاهدة الفيلد ماريشال اللورد بلومر ، وعن الجانب الأردنى حسن خالد باشا أبو الهدى ، وقد وضعا هذه المعـــاهدة فى احدى وعشرين مادة ، وقد جاءت فيها قيود كثيرة تعطى الأردن حرية باليمين لتسلبها بالشمال ، وقد احتفظت هذه المعاهدة للانكليز ببقاء الشؤون الخارجية

---

(١) المصدر السابق ص ١٠ .

بأيديهم ، كما احتفظت لهم بحق الرقابة الاقتصادية والشؤون القضائية وبقوات عسكرية موفورة للدفاع عن حدود الأردن .

ولقد حاولت الحكومات المتعاقبة على هذه البلاد إخضاع السكان من بدو وحضر للقانون والنظام، وبتاريخ ٢٦ مارس ١٩٢٨ نشر نص المعاهدة المعقودة بين الأردن والانكليز .

وتولت الحكومات بمناهجها التى تضمنت خططها فى القيام بأعباء الحكم وتحقيق المطالب الدستورية للبلاد . وفى مستهل عام ١٩٢٩ رأى الأمير عبد الله(١) وحكومته المطالبة بتعديل المعاهدة الأردنية الانكليزية ، فقد ضاق الشعب الأردنى بقيود هذه المعاهدة التى أفسحت للمستعمر ما يريد ، فكان لمندوبيه من السلطة والنفوذ أكثر مما لحكومة البلاد، بل كان لبريطانيا من الحقوق الغاصبة والسطوة القاهرة ما أهاب بالأردنيين وأميرهم لمواصلة الكفاح والإلحاح بطلب التعديل فى المعاهدة حتى استجابت انجلترا فى ٢ يونية ١٩٣٤ إلى مطالب الأردنيين . ؟!

غير أن الأغلال البريطانية وإن تغيرت مظاهرها وأشكالها وتحولت أسبابها ودواعيها، فقد بقيت تراوغ وداور وتشد الأعناق حيناً ، وحيناً تتربص وتمكر ، وأحرار الأردنيين من الشباب والمجاهدين يصرخون ثائرين متبرمين ويتهمون أمير البلاد بملاينة أصدقائه المسيطرين . فإن المعاهدة وإن نصت على نقل الأردن من الحكم الانتدابى إلى الحكم المستقل ذى السيادة المشابهة فى الدولية لمصر والعراق لكن الملحق(٢) بهذه المعاهدة اشتمل على نصوص لضمان السياسة الاستعمارية ببقاء الجيش تحت سيطرتها وتقديم المساعدة المالية التى تحتاج إليها الحكومة الأردنية مما خول الانكليز حقوق المراقبة والتدخل فى شؤون الدولة سراً وعلانية .

وقد قامت عدة مؤتمرات حضرها أعيان البلاد وممثلو الهيئات الوطنية مستنكرين التعاقد المريب بين حكومات الأردن والحكومة البريطانية ، ومجمعين على أن الدستور المنبعث من أحكام المعاهدة فيه عدوان على السيادة الوطنية . وفيه

---

(١) (مذكرات الأمير عبد الله) ص ٢٨١ .

(٢) اتفق عليه الطرفان وأصبح مبرماً فى ١٧ يونية ١٩٤٦ ، ويحتوى على عشر مواد .

كل ما يحقق مطـــامع المستعمرين ، فـكان للاردنيين ميثاق وطنى(١) قرروه ونشروه داعين إلى التمسك به والإلحاح بتنفيذه .

وكل صيحة كانت تنبعث من أحرار الأردنيين أو حركة منهم تدل على التململ من أوضاع الأردن السياسية والعسكرية ،كانت تصل إلى مندوبى الانـكليز ووزارة المستعمرات فى حكومتهم فتوعز إلى حكومات الأردن المحلية بإصدار القوانين والأحكام التى تخنق كل صيحة وتطبق العقوبة بالنفى والاعتقال والتغريم على دعاة التحرر والقائمين بالحركة الوطنية .

وما كان الحكم الجائر والاضطهاد القائم يومئذ إلا ليزيد الثورة فى نفوس المفكرين والأحرار اشتعالا ، ولقد أوقفت كل صحيفة تبصر الجمهور بظلمه وإذلاله وحالت الحكومة دون إدخال الصحف العربية إلى البلاد الأردنية .

لقد توسعت الحركة الوطنية بإزدياد الوعى القومى فى الأردن ، فإن الشباب المثقف الذى تلقى دراسته فى العواصم العربية أو الغربية كان المشعل الوهاج لبعث التمرد والمقاومة للسياسة الاستعمارية، فـكان جهاد المثقفين من أهم العوامل فى تبصير الشعب بحقوقه المغتصبة ، ومطالبة الحكومة بإسناد المناصب الحساسة والوظائف الخطيرة لذوى المؤهلات الفنية والـكفايات من الأردنيين وكان جلها يستند إلى سوريين وفلسطينيين ، وقد استجابت الحكومة الأردنية لهذا المطلب فعهدت إلى البارزين من ذوى الرأى والـكفاح بالوظائف التى يريدونها لعلها تـكسب رضاهم وتفيد من ثقافتهم .

وهكذا بدأت صيحات المقاومة والتحدى من الشباب الجديد ، وكان الخطر الصهيونى الجاثم على مقربة من بلاده يزيده تحفزاً واهتماما بالمحافظة على كيان الأردن والتخفف من السيطرة البريطانية التى زادتها الحرب العالمية الثانية احتيالا ورواغا فى سياستها الاستعمارية .

وقد زادت حاجتها إلى النفوذ العسكرى فى هذه المنطقة من الشرق ، لا سيما فى خلال الحرب فـكانت تعقد المعاهدة تلو المعاهدة تبعاً لمصالحها وظروفها ، حتى

(١) (الـكتاب الأسود) ص ٩٣ — ٩٥ ومحاضرات للدكتور عبدالـكريم الغرايبة.

اشتد العدوان المسلح من اليهود على العرب ، فعقد اتفاق جديد فى مارس ١٩٤٨ ولم يكن مضى على الأول عامان ، وفيه تداركت الحكومة الانكليزية كل مافاتها فى المعاهدات السابقة من قيود وأغلال .

وما يزال الأردن إلى اليوم مرتبطا باتفاق سنة ١٩٤٨ ،ومن عجب أن ينتهى الانتداب البريطانى فى فلسطين ، ليعود مرة ثانية وبصورة أشد وأدهى فى الأردن والقسم الغربى ، الذى ألحق بالمملكة الأردنية ، واعترفت بريطانيا به فى الوقت الذى اغتصب اليهود فلسطين العربية الثائرة بتدبير موعود من الانكليز .

وبقيت الحالة السياسية الراهنة فى الأردن سواء فى عهد الإمارة والانتداب السافر أم فى عهد المملكة واستقلالها المنقوص خاضعاً للسياسة البريطانية ،وكان ملك البلاد فى خـــلال ذلك متهماً بتنفيذها ومسايرتها تأميناً لمصلحة الأمن والاقتصاد .

أما الأمير عبدالله فقد رأى فى معاهدة[1] ١٩٤٦ مايحقق السيادة أو يدنيه منها ، فلما اجتمع مجلس التشريع الأردنى اتخذ قراراً بإعلان الملكية لأمير البلاد ،وكان ذلك فى ٢٥ ابريل ١٩٤٦ وفى القرار مايأتى .

١ — إعلان الأردن حكومة مستقلة استقلالا تاما ، ذات حكم ملكى وراثى نيابى .

٢ — البيعة بالملك الأردنى لأمير البلاد ومؤسس كيانها ، ليكون ملكا دستوريا يلقب بصاحب الجلالة ملك المملكة الأردنية الهاشمية .

٣ — إقرار تعديل القانون الأساسى تبعاً لهذا القرار .

لكن هذا التغيير والتعديل لم يؤثر فى السياسة المتبعة فى الأردن ، وكان الملك عبد الله صريحاً فى رأيه وحكمه ، فما كان يخفى على شعبه وبلاده حاجتهما إلى التعاون

---

(١) لا يتسع المجال لنشر النصوص التى تألفت منها المعاهدة وتضمنت محتواها ، فليرجع إليها المتتبع لشكل اتفاق أو معاهدة بين الأردن وبريطانيا ، وهى منشورة ، مفصلة أو ملخصة فى أكثر المؤلفات العربية فى قضية فلسطين والبلاد الأردنية .

الفنى والمــادى من الحكومة التى ارتبط مصير الأردن بسياستها ، كما أنه اتهم بمسايرتها فى موضوع التقسيم لفلسطين ، ومن قبل أشاعت الصحف والأحزاب بأن موقف الملك تجاه مشكلتى فلسطين وسورية مبهم غير محدد ، إذ كان يصرح فى كل مناسبة وسانحة بأنه يعيش للأمة العربية كلها ، ويعلن أسفه لما أصاب الوحدة العربية التى أعلنت الثورة من أجلها بسبب الانتداب والاستعمار ، فيحن تارة إلى العراق وتارة إلى توحيد الأقاليم السورية بحدودها الطبيعية ، وفى الوقت نفسه لا يجد حرجا من ضم القسم العربى من فلسطين إلى الأردن ، فقد رأى فيه شبه حل لهذه المشكلة .

أما زعماء فلسطين وغيرهم ممن رفضوا التقسيم أو كانوا ممن لا تعجبهم سياسة الامير الهاشمى فقد تأبوا عليه وتقموا ، وكان هو يتتبع حوادث القضية ومراحلها ، ويدعو إلى الجهاد من أجلها ، وقد ألح على الجامعة العربية فى أن يكون القائد الأعلى للجيوش الزاحفة ، وأبدى الملك وجيشه حماسة فى الزحف حتى ظهرت بوادر الظفر فى جميع الجبهات العربية ، لكن مجلس الامن حين أدرك اقتراب الظفر للعرب رأى عقد هدنة بينهم وبين اليهود ، وقد غضب الملك عبدالله وأنكر هذا التدبير فى وقف القتال ولو لأيام ، وقد نشرت له جريدة الاهرام تصريحاً جاء فيه « إن الهدنة التى طلبها مجلس الأمن لا تستند إلى قواعد الحق والعدل والإنصاف ، وإن الشعوب العربية لا يمكن أن تقبل وقف القتال لأنه عمل غير مشرف لها ، وإن العزم الصادق الذى تمتلىء به قلوبها هو الذى سيقود حركتنا النبيلة إلى أسمى الأهداف والغايات ، وإننا قد عقدنا الخناصر على أن نخوض المعركة حتى نهايتها لنعيد الأمن والسلام إلى فلسطين ونحمى أبناءها من عصابات الصهيونيين[1] .

ولقد استطاعت بريطانيا أن تعمل بسياستها الاستعمارية على أن تستوقف الجهاد العربى وتعقد هدنة مؤقتة بين المعتدين الغاصبين وبين المدافعين عن أرضهم وعروبتهم ، كان العدو فى خلالها قد عاد إلى الحرب وهو أقوى عدة وعدداً ، وكان التهاتر والاتهام بين أولى الأمر من ساسة العرب وكبرائهم المسؤولين قد اشتد

---

(١) حول الحركة العربية — لعزة دروزة ج ٥ ص ٣٧ .

وانكشف بين الناس ، فإن استئناف الجهاد صاحبه من بعض الجيوش العربية تردد وفتور وخذلان مما جعل اليهود ينقضون بغدرهم على فلسطين مرتكبين جرائم وحشية فى النساء والأطفال مشردين أهل البلاد .

أما جامعة الدول العربية ، وأعيان الحكم والسياسة منها فقد تراشقوا بالتهمة والخلاف ، وتقاذفوا التبعات فيما صنعوا حتى استغل الغاصبون وأنصارهم من المستعمرين هذا التوتر بين الحكومات العربية وجيوش الفداء والرباء ، فانتهى الأمر إلى النكبة القاصمة والفاجعة التى دهت العالم العربى وهزت شعوبه على هول الكارثة والهزيمة ، وكان ذلك فى مستهل عام ١٩٤٩ .

ورأت الجامعة العربية أن تنشىء حكومة تتولى إدارة المناطق الفلسطينية التى احتلتها الجيوش العربية ، غير أن الملك عبد الله رفض هذا الأمر ، ولم يعبأ بموافقة دول الجامعة على هذا التدبير ، ولا بمساعى الفلسطينيين البارزين ، بل استطاع أن يأخذ البيعة بالملك على فلسطين كلها ، ممن لجأوا إلى بلاده وأعلنوا وحدة[1] الأرض الأردنية والفلسطينية ، وحجة ملك الأردن فى ذلك أن فى التوحيد فائدة التعاون والتكتل لليوم المنتظر العصيب ، وأن تدويل القدس يجعلها مجردة من السلاح ، وقيام حكومة فلسطينية مستقلة فى المناطق الجبلية الفقيرة[2] لا يجدى من وجهات عديدة ، وارتأى الانكليز حل الخلاف والمشكلة بما ارتأى ملك الأردن وحكومته ، وذلك بضم الأقسام العربية الباقية من فلسطين إلى شرقى الأردن .

أما تدويل القدس فقد أقرته الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة مؤيدة لرأى اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية ، ومع هذا فإن الملك عبد الله أنكر الأمر وأصر على رغبته فى حماية القدس والأماكن المقدسة فكان يصلى كل جمعة فى حرم المسجد الأقصى .

وحقق الملك عبدالله فكرة الاندماج والانضمام على الرغم من معارضة الدول العربية ، وقامت حكومته بتنفيذ مايقتضى فى هذا السبيل من إلغاء الجمارك وجواز المرور بين مناطق الضفتين الشرقية والغربية من الاردن ، ثم حل مجلس النواب

---

(١) فى المؤتمر الثانى الذى عقد فى (اريحا) اول دسمبر ١٩٤٨

(٢) (حول الحركة العربية الحديثة) لدروزه ج٥ ص١٤١

وأجرى انتخاب جديد لتمثيل القسم المنضم فى المجلس العتيد وذلك فى ١١ ابريل سنة ١٩٥٠

وفى ٢٧ منه أعلنت الحكومة البريطانية اعترافها باتحاد المملكة الأردنية الهاشمية مع الجزء المحتل، وأنها تعد أحكام المعاهدة المعقودة بينها وبين الاردن عام ١٩٤٨ سارية على البلاد التى يضمها الاتحاد ريثما تباشر هيئة الامم سلطة فعلية فيه .

لقد أسفت طائفة كبرى من الفلسطينيين واخوانهم المجاهدين لوقوع هذا الاندماج الذى رأوه سبيلا إلى ضياع اسم فلسطين ، فأنكروه وغضبوا من أجله وعقدت جامعة الدول العربية عدة مجالس سياسية لرفضه ، فكان توتر وتهاتر بين الاردن وبعض الدول والشعوب التى لم توافق على أن يكون مصير المناطق العربية المحتلة إلى بلاد يسودها النفوذ الاجنبى ، وتطمع فيها الصهيونية الباغية .

ولم يكد يمر عام على هذا الاندماج والجفاء حتى قتل الملك عبد الله فى العشرين من يولية ١٩٥١ بينما كان يدخل المسجد الاقصى فى القدس كعادته كل أسبوع لصلاة الجمعة .

وقد علقت التهمة بتدبير مصرع الملك إلى فئة من الفلسطينيين الحاقدين عليه وأكبرهم الدكتور موسى عبد الله الحسينى ، أما القاتل فقد قتل نفسه فوراً . وبعد المحاكمة أجرى حكم الاعدام بأربعة من المتهمين ، وخلص منه اثنان لغيابهما .

أما الملك الشهيد فقد مضى إلى ربه عـــلام الغيوب ، فتداول الناس ذكره بما عرفوا عنه ، وكان صريحا فى سياسته وقوله لا يداجى أو يتلون ؛ ولا يرى حرجا فى الاستعانة بمن حالفوه من المستعمرين طالما هو وقومه بأشد الحاجة إلى معونتهم الفنية والمالية . وقد أشيع بأنه يجنح إلى السلم والمهادنة ، ويأبى معاودة الكر والجهاد لتخليص فلسطين من غاصبيها ، فكان اغتياله على الصورة المذكورة مبعث تقول وجدل وارتياب .

على أن المتتبع لمذكرات الملك عبد الله يرى حقيقته من خلالها ، ويدرك ما كانت عليه طويته وسجاياه .

وقد سمى بعد اغتياله ولده الامير نايف وصيا على العرش ، ثم نصب ولى العهد الامير طلال ملكا، ولكن الداء قد عاوده فأقيم مجلس للوصاية والرعاية يتولى شؤون السلطة والحكم ، ولما طال مرض الملك نصب ولده حسين بن طلال ملكا على الاردن قبل أن يبلغ العشرين من عمره ، وبقى أصحاب التحالف المكشوف والسيطرة الخفية يغلون من سيادة الاردن لا سيما فى إبان النكبة الفلسطينية وبعدها فإن هذا القسم الصغير من بلاد العرب فقير فى موارده ، حديث فى أخذه بأسباب الحضارة والثقافة ، وإن اغتصاب الصهيونية البلاد الملتصقة به من فلسطين جعله أشد حاجة إلى من يسنده بالعدة العسكرية والمال ، فكانت المعاهدة البريطانية أقوى شباك لهذه المنطقة العربية ذات الصفة الحربية الخطيرة لاتصالها بسورية والعراق وموقعها بين مصر والمملكة السعودية ، وقد ازدادت حاجة الانكليز إليها بعد جلائهم عن قناة السويس ليجعلوها عوضا وبديلا فينشئوا فيها قواعد عسكرية وتبقى الاردن فى حمايتهم وسياستهم لايخلصها منهم إلا تجاوب الشعوب فى البلاد العربية لتحريرها من المساعدة المالية والفنية التى تتلقاها ممن يحولون دون السعى للإنطلاق منهم والفكاك من أحابيلهم ، وكلما تلفت الاردن صوب بلد عربى للإستمداد وإنقاذ حياته الاقتصادية من الضغط والتدهور ، تصدى حكامه وقادة سياسته لحبوط السعى وتبرير المحافظة على الحالة الراهنة فى الأردن ، ولا بد من يوم قريب تخلص فيه هذه البلاد من تكاليف التحالف الاجنبى ، ومداورة القائمين على سياسته ، وحينئذ تحقق فيه السيادة الوطنية ويتحرر الاردن من كل ما يعوق نهضته وتأمين معيشته .

الحياة الاقتصادية فى الأردن

إن حياة الأمم الاقتصادية سلسلة متصلة الحلقات من الكفاح الصناعى والزراعى والتجارى ، والأردن التى كافحت وتكافح اليوم من أجل حياتها الاقتصادية المرجوة تحتل فى الشرق الأوسط مكاناً جغرافياً خطيراً بموقعه الطبيعى والاستراتيجى ، الجامع بين البادية والحضر . وهى من أكبر المراكز لطرق النقل والاتصال مع الأقطار العربية من سائر الجهات ، ومتى تم تحسين ميناء العقبة فإن حركة الأخذ والإعطاء تزدهر أكثر مما هى عليه اليوم ، ومعظم سكان الأردن يعولون فى حياتهم الاقتصادية على الزراعة ، كما أن القسم الأوفر من الدخل القومى يؤمن من هذا المورد ، غير أن الطرائق المتبعة فى الزراعة لا تزال أكثرها بدائياً تقليدياً ، ولم تقتحم بعض الآلات الحديثة أرض الأردن إلا منذ عهد قريب ، كما أن الوعى الزراعى لم يتوسع وينتظم المشرفين على الزرع والحصاد وغيرهم من الفلاحين والمهتمين بالأرض ، فكان لجهلهم النواحى الفنية أثر فى تخلف الأعمال الزراعيـــة وتنمية المحصول فى كل عام .

وهذا المحصول رهن بمواسم المطر وسخائها ، ومتفاوت فى الأرض التى يتأتى لها الإنبات والإثمار بحسب موقعها وقربها من الأنهار والآبار ، فتسعون بالمئة منها يعد بوراً وصحراء ، وما يصلح للزراعة لا يزيد عن ثمانية ملايين دونم وتحول أسباب الرى دون اتساعها ، فإن السكان والفلاحين يبـــذلون طاقتهم فى زيادتها لاسيما بعد انضمام اللاجئين من الفلسطينيين إلى الاردن » .

وإن الزراعة لتتوافر فى السفوح الشرقية الخصبة وفى الهضاب ومنطقة الغور وعجلون ، والمنتوج من حبوب وبقول وثمر وتين وزيتون يكفى لسكان الاردن ، لكن ازدياد العدد بعد الكارثة جعل الحكومة الاردنية والمؤسسات الدولية كهيئة الامم المتحدة تسارع إلى مضاعفة العناية بشؤون الزراعة تداركا للحاجة اليومية ، فزادت فى مساحة الأرض التى تصلح لها وتنمية موارد الماء والسقاية ، وهى بسبيل منهاج زراعى ومصرف حكومى ليدخل التطور على الحياة الاقتصادية التى هى علة العلل فى حياة الاردن السياسية .

وليس في الاردن ملكية زراعية واسعة ، لكن لبعض القبائل الاصيلة والبيوت الوجيهة أرضاً تعد كبيرة إذا قيست بما لغيرهم ، على أنها لاتؤلف مشكلات اجتماعية أو تقتضي دراسة خاصة . ويبذل السكان جهوداً مضنية في توسيع الملكية الزراعية ، وكثيراً ماتضيع هذه الجهود لصعوبات فنية ومالية وطبيعية .

أما التجارة في الاردن فتأتي بالدرجة الثانية لان السبق في الاردن والرجحان للزراعة وتربية الماشية ، وقد ظهر بنسبة طردية ارتباط التجارة بالزراعة فإذا كان المحصول موفورا انتعشت في الاردن الحياة الاقتصادية .

وتتبع التجارة في انتعاشها حركة المواسم والفصول قبيل الاعياد وفي خلال موسم الحصاد وقيام الدولة بالانفاق على المشاريع العامة .

على أن التجارة المحلية في الاردن تصطدم بحاجة البلاد إلى الاستيراد الاجنبي فإن منتوجها من المواد المحلية للغذاء والصناعة الاقليمية لاتكفي حاجتها ، فتضطر إلى استيراد ماتقتضيه الضرورة ، وفي هذه الحالة لايتعادل الصادر والوارد ، لان الثاني يبلغ تسعة أضعاف الاول ، فيقع الميزان الحسابي في اضطراب يسوى بالمساعدات المالية الاجنبية التي يتطلبها الاردن خشية التدهور في حياته الاقتصادية .

وكانت أكثر علاقات الاردن مع فلسطين قبل النكبة ، ولا تزال العلاقة التجارية قائمة بين شرقي الاردن ومصر والبلاد العربية حسب الظروف والإمكان .

وللصناعة الاردنية على قلتها شهرة قديمة تتصل بشهرة فلسطين فيها ، ومنها مايستمد قيمته من الذكريات التاريخية والدينية في البلدين .

منها الصناعة الفنية التي تتألف من التطريز اليدوي النسوي الذي يحمل طابعاً خاصاً والادوات التي تصنع من خشب الزيتون وحجر البحر الميت ويتجلى فيها ذوق فني رفيع ، وبراعة ملحوظة متوارثة مشهورة يتقنها موهوبون فيها ومتكسبون .

وإذا لم يتيسر لهذه الصناعة الفنية انتشار واسع يتبع التبادل التجاري ، فإن موسم السياحة إلى الاردن والمعالم المقدسة يشجع على رواجها والتفنن فيها .

وقد دخلت الآلة حياة الصناعة في الأردن ، فازدهر بسببها منتوج السجاير والاسمنت وصقل الرخام والمرمر ، ولو تعددت الشركات المالية التي تؤمن الصناعة

الآلية فى الأردن لا تبعث فى بلدانه وقراه نشاط اقتصادى يرفع مستوى السكان ويضمن معيشتهم واستقلالهم .

ولئن غلب الجفاف على بعض المناطق الأردنية فإن فى ثراها وتحت أرضها ثروة معدنية من « الفوسفات » « والبوطاس » ، لكن استغلال هذه الثروة يتطلب شركات مالية وتجارب فنيه وخبراء مدربين ، وكان صدور الفوسفات عن الاردن مقصوراً على أسواق فلسطين ولبنان وسورية، ومنذ عشر سنوات أخذت هذه المادة المعدنية تغزو أسواق الغرب ، وقد تصل قريباً إلى أسواق الشرق الاقصى .

وللأردن موسم سياحى مرموق لتعدد المعالم الاثرية فيه والبلاد التاريخية واتصاله بالامكنة المقدسة كالمسجد الاقصى بالقدس وكنيسة القيامة فى بيت لحم .

ومن البلاد التاريخية نابلس وأريحا والخليل والبتراء أو وادى موسى الذى حفره الانباط فى القرن الخامس قبل الميــــلاد ، وجرش بآثارها الرومانية والبيزنطية وعمان .

ولولا الاضطراب السياسى الذى وقع فى هذه البلاد منذ نشأة الإمارة وقيام المملكة ثم حلول النكبة الفلسطينية لاستطاعت البلاد الاردنية بمجهود رجالها وسكانها من أهلها والمستوطنين الذين نزحو إليها من سورية وفلسطين أن تبنى لحياتها الاقتصادية أكثر مما بنت وأن تغرى الاموال العربية بتدعيم هذه الناحية الخطيرة ، فقد تعذر عليها لدوام القلق وشيوع الفقر والخلاف أن تتحرر من معوقات الاستقلال السياسى ، ولا يقوم هذا الاستقلال إلا فى البلاد التى غدقت فيها موارد الطبيعة واستعان بها الإنسان على تحسين معيشته وبناء حياته على قواعد العلم والثقافة وفقاً للتطور المادى والفكرى ، لكن الاردن اليوم بوثبة التحرر فيه يتلمس الاسباب التى تعينه على استغلال الطاقة الوطنية والمالية فى الكفاح والبناء ليزحزح الشوك من طريق حياته الاقتصادية ويسير فى موكب البلاد التى سبقته إلى السيادة والاستقلال .

الوعى الوطنى

راجت السياسة فى شرقى الأردن منذ أنشئت الإمارة ، واستطاعت الخطط الاستعمارية أن تتفهم شؤون الحياة والمجتمع فى هذا الجزء العربى الذى يحتل موقعاً وسطا فى شرقنا الأوسط .

وكانت حياة الأردن منذ جلا الحكم العثمانى عنها سلسلة من المشكلات المعقدة يتطلب حلها والخلاص منها وعياً قومياً وتفاهما تاما مع غيره من البلاد العربية فضلا عن تقارب الرأى والكلمة بين البدو والحضر المقيمين فى المدن والصحراء فلما بدأ الاحتكاك السياسى بين السكان والمستعمر تفتح الوعى القوى عن شعور وطنى بأحرار الفكر والمجاهدين الذين تمازجوا بجيرانهم وإخوانهم وعقدوا الآمال الكبرى على الحلفاء لتأييدهم بأخذ السيادة والاستقلال . لكن خيبة الأمل والثبات على الجهاد ، وإزدياد الوعى فى الجيل الجديد أشاع اليقظة فى الأردنيين وجعلهم ينقمون على المستعمر الغاصب لحقـــوقهم ، العابث بأمانيهم فى الحرية والحياة .

وما كان عقد الاتفاق بين أمير البلاد والحكومة البريطانية إلا ليزيد النفوس ثورة وحقداً ، فكان رجال الفكر والكفاح يعقدون المجالس والمؤتمرات لدراسة الوضع الراهن فى بلاد الأردن، ويعهد فيها إلى نخبة من الا عيان والزعماء بالمطالبة بحقوق الشعب ، فكانت هذه النخبة عرضة للاضطهاد والاعتقال كلما ارتفعت الاصوات منكرة خطة الحكومة ومسايرتها لروح الانتداب ، لكن هذا الضغط الذى كان يبدو من أول الامر متجليا فى منع التجمع والتـــآمر وتعطيل الصحف المحلية ومنع المنشورات الواردة من البلاد العربية قد زاد فى بعث الروح الوطنى فى الكبار والصغار وبخاصة حين شرد بعض القائمين بالتذمر والثورة على سياسة الاستعمار التى تدخلت فى شؤون الاردن وكان لها الرأى والتوجيه فى حياته الاقتصادية والدستورية ، وكل تغيير أو تحويل فى الاتفاق المعقود أو المعاهدة بين حكومة الانتداب وحكومة البلاد كان يلقى نقمة من الشعب واستنكاراً من قادة الوعى والوطنية .

ولما عاد فريق من شباب الاردن إلى بلادهم بعد دراسة عالية فى المعاهد والجامعات بمصر والبلاد الغربية ضاقوا بما وجدوا فتنادوا إلى إنشاء هيئة تمثل الشباب المثقف وتعمل على مقاومة السياسة الاستعمارية ، إلى جانب القائمين بالنضال وتوجيه الوعى والثورة على الطغاة والمستغلين .

كانت المهمة الوطنية للشباب الجديد أشق وأوسع — فقد رأوا سياسة الانتداب تمد أصابعها إلى مواضع العصبية والجهل فى البلاد ، فتفرق بين المتناكرين ، وتزيد الخلف بين المتنابذين والمتنافسين ، رأوا أن لامناص لهم من الصحافة ليؤدوا فيها إلى المواطنين رسالة الوعى والتحرر والتبصير بأمورهم وحياتهم المهددة ، غير أن الرقابة الحكومية حالت دون مطالبهم . وقد ترضت الاحامس من المثقفين الوطنيين فمهدت اليهم بمناصب رفيعة وتوعدت المتمردين الثائرين بالسجن والاعتقال ، ففروا إلى فلسطين وسورية حيث أقاموا على الوفاء للوطن ، فاذاعوا المنشور تلو المنشور فى موضوع بلادهم مسفهين السياسة التى تسودها والمعاهدة التى تغل حريتها وتعوق نهضتها ، وقد لاحقتهم حكومة الاردن بالوعيد وبخاصة حين أدركت تعاونهم مع طلاب بلادهم على مقاومة الحكم الغاشم ومناوأة السياسة الاستعمارية ، وكان فى المكافحين المترضين شيوخ من الحضر وزعماء من العشائر وشباب منهما فتح الاعين على المستعمرين وممالأة أعوانهم من عشاق المناصب والوجاهات . وكان لتمازج الأردنيين بإخوانهم السوريين والفلسطينيين أثر كبير فى إتساع وعيهم ونشاطهم فأسسوا الأحزاب من الشباب وعقدوا المؤامرات للعمل على تحرير الوطن والاتصال بقادة الفكر وساسة البلاد العربية ليتبينوا الحقيقة ويعرفوا السبيل إلى الخلاص

لقد تألفت الجماعات الوطنية فى الأردن منذ تفهمت سياسة الاستعمار للمقاومة والجهاد على غرار الجماعات والهيئات فى فلسطين ، فلم تكن أحزابا سياسية ذات رسالات محددة بل أسست أو دعت الضرورة لتأسيسها لتكون منها الدعوة إلى خدمة الوطن بمقاومة الانتداب المفروض والتحالف المريب ، ومعظم الأحزاب السياسية فى الأردن اليوم هو فروع الأصول فى سورية ومصر ، ولولا أن فيها من يتخذ الحزبية وصولا إلى مآربه الخاصة وحصر المنافع فى ممثلى حزبه لكان يرجى من هذه الاحزاب خير كثير .

ولم تكن المرأة الأردنية على اختلاف المراحل التي اجتازها الأردن بمعزل عن الحياة الوطنية ، فقد شاركت طائفة كبيرة من النساء الواعيات بحركة المقاومة والنضال ، كن راقبن سير السياسة الاستعمارية بأعين الحفاظ والتأبي ويلقين فى ثورة الرجال روح الحمية والنخوة . وفى حرب فلسطين بدأ نشاط الجمعيـــات النسوية فى الأردن بمظاهر الإسعاف والتخفيف عن المصابين بالأموال والأرواح ، والمرأة الأردنية الواعية ، زوجاً وأماً ومعلمة أذكت شعور الوطنية فى الناشئة ، ونبهت إلى خطر الصهيونية الجاثم على مقربة من الأردن ، وهذا الخطر المرصود يقض مضجعها ويجعل شعورها الوطنى مستجيباً لحركات المناوأة والجهاد ، فهى اليوم على معرفة بالاضطراب السياسى الذى يتجاوب بلادها من جراء التحالف القديم ، والأغلال الحديثة التى يحاول الأجنبى أن يربطها بها ، ولكن العروبة الأصيلة فى الاردن ، والوعى الوطنى الذى يزداد يوما فيوما بازدياد الثقافة والتعلم فيه كفيلا بحل مشكلاته السياسيه وتحريره من كل تعاهد يضر بمصلحته ومساعيه للخلاص من رباق الاستعمار والاستغلال .

ذكر مؤلف « عامان فى عمان » وقد عرف شرقى الاردن منذ دبت فى ربوعها حياة الحضر ولاح لاهلها بصيص من نور المعرفة والحرية بعد جلاء الترك عنها أن هذه المقاطعة من بلاد العرب كانت فى ذلك الحين بإدارتها وأشكال الحكم فيها ومقومات الحياة اليومية أدلة ناطقة على الجهل والاضطراب والفوضى .

لقد تفقد هذا المؤلف مظاهر الثقافة فى الاردن إذ كان مفتشاً للمعارف عام ١٩٢١ وكان فى أهلها من يهتم بأمرها ، فلم يجد مدارس بالمعنى المعهود ، وإنما وجد كتاتيب فى المدن والقرى ورأى أكثر طلابها من الشركش ورأى المعلم يلقى عليهم الدرس بلغتهم ، وفى بعض الكتاتيب بقايا التركية من العهد العثمانى ، فيستدل من هذا على تخلف الأردن عن بقية البلاد العربية فى ذلك الحين بوسائل الثقافة حتى تم تأسيس عـــدد من المدارس بعد عقد الاتفاق بين إمارة الاردن والحكومة البريطانية على أنها لم تزد عن الثلاثين ، منها اثنتان للدراسة الثانوية عدا الكتاتيب والمجالس الخاصة التى كانت تقوم بمهمة التعليم والإرشاد والتبصير .

ومنذ أنشئت الإمارة الهاشمية وحكومتها الإدارية كان هم الاردن أن يتخلص من مساوىء الجهل فى الشعب . فعنيت بنشر التعليم فى البدو والحضر ، وكان لتطور

الوعى القومى أثر ملحوظ فى الإقبال على المدارس ، ولو ساعدت المشكلة المالية فى الاردن لكان عدد المدارس فى كل عام لا يقل عن مثله فى البلاد المجاورة وقد شاركت المدارس الخاصة فى تعميم التعليم والتخفف من الأمية حتى بلغت نسبتها ٧٠٪ ، ويسهر على رسالة المعارف الاردنية مجلس أعلى للتعليم ، وكان من جملة مقرراته عام ١٩٥٤ إنشاء جامعة فى الاردن وتأميم الكتب المدرسية .

أما المعاهد الثانوية والفنية فتتألف من دار المعلمين بعمان لتخريج المدرسين ومثلها دار المعلمات الريفية ، وفى عمان مدرسة للصناعات والفنون .

ولئن تعذر على الاردن إنشاء جامعة فيه لأسباب مالية وفنية ، فإن لهذه البلاد عناية بالتعليم التجارى والزراعى والتربية البدنية كما أن فيها من يتعهد النشاط الاجتماعى والكشفى بصورة مرضية . وسياسة التعليم فى الاردن تلتفت إلى النظم المرعية فى البلاد العربية بتطبيق المناهج ووسائل التدريب. وهيئة الامم المتحدة ومنظمة الاونيسكو تساعدان فى نشر التعليم ، وبخاصة بعد انضمام اللاجئين الفلسطينيين إلى السكان .

وقد شاركت وزارة المعارف الاردنية فى المؤتمرات التعليمية الحكومية بمصر وسورية . وفى مؤتمر تدريب المعلمين بالجامعة الامريكية فى بيروت عام ١٩٥٤

واستعانت الاردن فى مستهل الوعى الثقافى بطائفة من السوريين والفلسطينيين كان منهم رجال فكر وأدب ، كما استعاضت حكومة الاردن عن التعليم الجامعى بإرسال البعثات من الطلاب والطالبات إلى انكلترا والبلاد العربية .

وقد كان لهؤلاء الشباب الذين تلقوا دراستهم العالية خارج بلادهم مشاركة قوية فى التطور الثقافى والاجتماعى بالاردن. وطموح الاردنيين يتمثل فى هذه النخبه التى عبرت عن حقيقة وتلمست التيارات التى كانت تتجاذبه ، ولئن كانوا قلة فى العدد فانهم يحملون أعباء الوعى والجهاد للتطور والتجديد ، ورسالتهم الثقافية تجعلهم كثرة وقوة .

وإن نظرة متمهلة فى المقارنة بين ما كان عليه الاردن من جهل وتخلف واضطراب فى حياته الثقافية ، وبين ما وصل إليه من تطور وتقدم فى هذا المجال يبعث الآمال فى الصدور ويبشر بأن هذه البقعة الحية من أرض العروبة ، ستأخذ

مكانتها الثقافية إذا استمرت فى مسايرة الحاجة والزمن ، ولن يقف أمامهما تعويق ولا تضليل لأن الشعب الأردنى يرصد بكثير من اللهفة الأسباب التى تحرره من الجهل والأمية والاستغلال .

وقد بلغ عدد المدارس الحكومية ابتدائية وثانوية خمسمائة والمدارس الخاصة والأهلية زهاء أربعمائة فى مدى ربع قرن ، ولولا المعضلة المالية لتضاعف العدد فقد زاد عدد المواطنين وازداد الوعى والإقبال على العلم والثقافة ، وإلى جانب هذه المدارس التى تكافح الجهل ، وتفتح الأعين والأذهان ، وتقرب بين المواطنين من بدو وحضر وبين اللاجئين الفلسطينيين ، تقوم الصحافة الأردنية — على قلتها وضعفها — بدورها وجهدها فى خدمة الثقافة ، كما تناضل فى توجيه الوعى الوطنى ونقد الحكام ، ومقاومة الضغط والاستغلال .

والمتتبع للصحافة الأدبية فى الأردن يلمس مدى الخدمة والرسالة التى تؤديها هذه الصحافة للحياة الثقافية والفكرية ، والأقلام التى تحققها وتعبر عن اتجاهها عرفت مواضع الخلل وأسباب الداء والانحراف ، فلا يكاد صريرها يتجاوب فى المجتمع حتى تبادر إليها الرقابة أو تفاجأ بالوقوف والاحتجاب لأن المال الذى يعينها على الظهور لا يكفيها شهوراً طويلة . فهذه الصحافة الأردنية الحرة ذات أثر بعيد فى نشر الثقافة الفكرية والاجتماعية .

وفى شرق الأردن عملت الإذاعة على توسيع الحركة الثقافية إذ قامت — والأردن فى بداية تطور فى حياته — بمعالجة مشكلاته وحاجته إلى المعرفة والتحرر ، إلى عنايتها بالسياسة البريطانية والمحلية .

وإذ شئنا أن نعرف صور الحياة فى الأردن فعلينا أن نستقصى ألوان الأدب الذى كان سجلا حياً حافلا بحوادث الوطنية والثورة ، فإن الأردن الذى عاش قلقاً سادراً حينا ، وحينا ثائراً رازحا تحت يد الاستعمار والحرمان ، كان يتخبط فى خطاه ، ويبحث عن ذاته فى سياسة الانتداب وفى مداورات الحكام .

وبين الضغط والتململ كان فريق من أبنائه الأحرار يضيقون بسياسة الغاصبين ، ويهيبون بأهل البلاد أن يستيقظوا وينقذوا أنفسهم وعروبتهم من رواسب التركية الغاشمة ، وبقايا الاقطاعية والعصبية ، وبوادر الاستعمار الذى دهاهم بالمهانة والاستغلال تحت ستار التحالف والتدريب .

وما كان هؤلاء الأحرار الذين ثاروا على حوادث السياسة ومحترفيها إلا فئة من ذوى الأقلام والمواهب ، شغلوا بلادهم وحكامها بصيحات التمرد والألم فهزت كل متور يتلمس الحقيقة وينشد العزة لقومه ودياره .

وانطوت قلوب الموهوبين والمفكرين على حقد مرير ، فكان تعبيرهم بالشعر أو النثر عن نفوس ثائرة ملتهبة صوراً من صور الحياة السياسية والوطنية فى الأردن ولئن لم تخرج الجامعات أكثر هؤلاء النوابغ فقد أوتوا من خصائص الفكر والإلهام وتجارب المعرفة والحياة ماجعلهم رواد حرية وإنسانية متسامية ، لم يخضعوا للأحداث وإنما انفعلوا بما اعترض الناس فى حياتهم وآمالهم من مشكلات السياسة والاستعمار .

وكان أكثر ما أرسلوه من نفحات الروح والقريحة شعراً يفيض باللوعة والسخط والحرمان ، وقد استغرقت السياسة مطالع شبابهم ونضالهم ، فنهم من اجتذبته الوظيفة فاطمأن إلى المعاشرة حيناً ثم عاد إلى المقاومة والتحدى ، ومنهم من بقى صوت المعارضة فعمد إلى النقد والتعريض بسياسة الاستعمار والحكام ، فجاء شعر هؤلاء صوراً لحياة الشعب بخيرها وشرها وبؤسها ومظالمها .

ثار هؤلاء الشعراء على أوضاع بلادهم وخداع المسئولين للجمهور واتخاذهم منه أدوات للتنكيل به وتضليله ، ولم تكن صور النقمة والثورة فى أكثر الأحيان مكشوفة سافرة بل جاء فيها التلميح أكثر من التصريح ، فإن العقوبات الصارمة التى كان يلقاها أحرار الأردن جعلتهم عرضة للتيارات الحكومية ، وقد عانى بعضهم مرارة الحبس والاعتقال والتشريد .

ولم تكن الحضـــارة الثقافية والفكرية التى تلقاها أكثر هؤلاء جامعية أو مدرسية عاليه ، بل كانت القوى المحركة لذكاء هؤلاء ونبوغهم بيئتهم الشعبية التى انطبعوا فيها وانفعلوا بحاجاتها فأبصروا الطريق بانشعل الذى حلتهم إياه مواهبهم وخصائصهم ، وكان كفاحهم لا من أجل حياتهم الخاصة بل لغاية أسمى وأغلى هى الحرية . . .

وفى طليعة هؤلاء الشعراء الذين عاشوا زمانهم واكتووا بناره وتأثروا كل التأثر بحياة المجتمع الأردنى وعاداته وتقاليده الشاعر مصطفى وهبه التل ، كان شعره على سجية الإلهام فيه صور من البؤس والقلق والبوهيمية والبحبحة . لا تكلف

فيه ولا تطع ، وقد طبعه الشاعر بطابعه ومياسم بلاده ، وألقى عليه مسحة شعبية وبدوية إذ كان ملتصقاً ببعض السواد ، وهو المتعلم الموهوب الذى مارس التدريس والقضاء ، وكانت بوهيميته فى الحياة ومشاعره تجاه المجتمع تجعله يؤثر نفراً من الغجر « النور » بادلهم الصداقة(١) واتخذ منهم أخلاء ، وكانوا فى نظره أفضل من هؤلاء السادة الذين استغلوا جهل الشعب واحترفوا السياسة ليسودوا ويمرحوا .

ولئن لم يتطلع هذا الشاعر وأمثاله إلى آفاق بعيدة فإن غرامهم ، بالأردن والتصاقهم بحياته وثورته جعل لهم شهرة واسعة فى البلاد التى نشروا فى صحفها قصائدهم ، وعلى ترادف الأيام ظهر فوج من الشعراء والأدباء تلقوا تعليما نظامياً أو مدرسياً وتمازجوا بغيرهم من أهل الشعوب العربية ، فلمع فى شعرهم وميض من التجديد أخذ يتكرر ويتسع ، وأخذت ثقافتهم تنمو مع نمو مزاياهم وتجاربهم ، فإذا شعرهم مستوحى من طبيعة بلادهم ومن مشاركة وجدانية تصارع أمواج الباطل وتقاوم الأوهام والآفات لبناء حياة عزيزة وزحزحة الرجعية والعبودية من طريقها .

ولست بسبيل تعداد الأسماء التى لمعت بشعر أصحابها وما ينتظر منهم ويرتجى ومنهم كهول وشبان يبشر اتجاههم وإنتاجهم بخير كثير ، فهم لم يتلونوا وفق الظروف على الرغم من فقر بعضهم ، ولم يستقروا بعد على نزعة محددة لتعدد المذاهب التى يتنورونها ويحاولون التمرس بها ، فالشخصية الفنية فى شعرهم والتعبير اللفظى يتجاوبان تارة مع الأصالة ، وتارة مع المحاكاة ، تغنيه نفوس قلقة تمس الواقع المرير وتعاف الدون والهوان .

أما الأدباء فى الأردن فهم على الرغم من ضيق المجال ورقة الحال آخذون اليوم بالالتزام فى أدبهم ، لأن التصاقهم بالمجتمع ، وقد انحدروا من صميمه وأحسوا إحساسه ، جعلهم يناضلون فى معركة الحياة والتحرر ، على أن لهذا الأدب الأردنى الحديث ملامحه الخاصة . فقد تأثر بطبيعة المكان واتجاه التفكير وتاريخ الثورة ، وهو مثل غيره فى محنة وضيق لأن نطـــاق النشر والظهور ضعيف محصور ، وتجارب الإنتاج أثبتت لأدباء الشباب محاولات فى القصة والنقد ، وقد ساعدتهم معرفة الإنكليز على دراسة الأدب الغربى ، واحتكاكهم بإخوانهم الفلسطينيين شحذ وعيهم وجدد

(١) ص ٢٩ و ٣٧ من ديوان التل او (عشيات وادى اليابس)

ثقافتهم وحول شعورهم نحو النكبة ثم نحو الهزات الأخيرة ، وشيوخ الأدباء في الأردن يشبهون في المعرفة إلى حد ما أندادهم في البلاد العربية فقد هاموا في القديم واطلعوا على مظانه وآثاره .

وهؤلاء الشعراء والأدباء في بلاد الأردن هم ومن سبقهم أو عاصرهم كانوا مبعث الحياة الفكرية الحاضرة ، لقد أدوا رسالة الوعي والتطور بحسب الطاقة والإمكان ، فكان لهم فضل إيقاظ الشعب وتوجيه الجيل المثقف نحو حياة فكرية تكفل له المستقبل وترشده إلى بناء مجتمع أفضل .

ومن ميزات الأدب الأردني اشتماله على لون بدوي عريق يمثل حياة طائفة من الناس آثروا البداوة وعاشوا فيها وانطبعوا بمعانيها ، فكانت لهم لهجة خاصة وتعبير يختلف عن التعبير الحديث .

وفي الموضوع الآتي تبيان لهذا النوع من الأدب .

الأدب البدوى فى الأردن

تبين لبعض نقاد الأدب والغربيين منهم خاصة أن الشعر سبق النثر إلى الوجود وأنه كان الصورة المعبرة للأدب الأول الذى جاء به القدماء والبداة ، ولا يزال هؤلاء فى أدبهم الفطرى الموهوب مع أنهم يعيشون فى عصور الحضارة ، وقد يكونون مجاورين لحياتها وأسبابها .

فالأدب البدوى يقوم — إذن — على الشعر ، ولا ينقاس بعض أصحابه على بعض فى الشرق والغرب ، لأن بعض القبـــائل البوهيمية فى الغرب يشيع فى أدبها الموسيقى والغناء أكثر مما يشيع الشعر ، بينما نرى للقبائل العربية الرحالة العريقة فى بادية الشام أو الأردن والعراق شعراً موزوناً مقفى ، وتاريخ الأدب لشعرها تعمل فيه عوامل التطور ببطء ، والآداب البدوية فى شرقى الأردن أظهرها الشعر . وإن الذى يعيش بين بدو الأردن ، ويحضر مجالسهم وأحاديثهم يخيل إليه أنه قد عاد إلى عهد الفحول من شعراء الجاهلية ، وحين يرى أسواقهم كسوق أمير (الرولة) نورى بن شعلان وسوق الفايز شيخ الصخور أو سوق كاسب الحاوى من عرب الشرارات ، ينطلق به الخيال إلى الشعراء الذين عاشوا قبل الإسلام وبعده ينطقون به عفو الخاطر ، وترسله قرائحهم دون تكلف[1] . وحين كانت تضرب قبة من أدم يجلس فيها النابغة الذبيانى للنقد والمفاضلة ، ويتنافس لديه الشعراء فى قصائدهم . وإننا بدراستنا لهذا الشعر لا نجد أنفسنا غرباء عنه ، فشعر الجاهلية فى صوره الحسية وصدقه والتصاق معانيه وتخيلاته بالحياة البدوية وظواهرها الطبيعية لا نزال نتدارسه ونتذوقه .

وعند دراسة التاريخ الأدبى لشعر (نمر العدوان وأبى الكباير وعلى القزيعى)

---

(١) قد يستدل اللغوى والباحث . على تطور اللغة وما طرأ عليها من جديد فى تغير اللفظ والمعنى كما يستدل المتتبع ، على حياة القبائل وما يدور فى نفوس أفرادها وما يتناقلون من شعر فطرى قيل فى مختلف الأحوال وتوارثه الجديد عن القديم .

يتصور الباحث انه يمر بسيرة الأعشى أو امرىء القيس أو عمرو بن كلثوم . لأن هؤلاء الشعراء وأضرابهم عاشوا فى ظروف بدوية مشابهة لظروف أولئك الغابرين قبل الإسلام ، وجرت لهم حوادث فى السلم والحرب قريبة المطابقة لما جرى لأولئك مع اختلاف الزمان والمكان . إذ أن الطوابع البدوية عند العرق العربى يشابه بعضها بعضا ، وفى دراسة الحياة التى يعيشها الشعراء البداة فى شرق الأردن يعجب المرء لحظوظ هؤلاء ومقدراتهم كيف أنها قد ربطت بأحوال مشابهة لمن تقدمهم بأكثر من ألف وخمسمائة عام ، وقد غلب على بعض هؤلاء المحدثين الحرمان ، فلقد كان شاعر شرارى (نسبة إلى الشرارات) يدعى « عليان » مثالا فى الأردن لفقر الشعراء ، كان عليه ثوب خلق وعباءته لاصقة بكتفه بخيوطها المتناثرة لكثرة تقطعها ، وهو حافى القدمين دقيق الساقين ، قوته لحوم الغزلان التى يصطادها(١) .

وكما حفل أدب الجاهلية برواة الشعر إلى جانب الشعراء ، كذلك نجد فى القبائل الأردنية رواة وحفاظا لضروب من الشعر البدوى فى مطولاته ، وقد ارتبطت حياة الشعراء البداة فى شرق الأردن بحفول أغنيائهم ومآدب كبرائهم ، واقترن وجودهم الضئيل بالسماط الفخم الذى يمده هؤلاء السراة . فذكرنا بهم سيرة الشعراء المتكسبين فى كل عصر كيف قل زادهم وكانوا مقيدين بتلك المآدب والموائد ، وقد حدثنا المستشرق الألمانى « نيكل » أحاديث عن الشعراء الجوالين فى فرنسة وأسبانيا فى القرون الوسطى ، وكيف كانوا ينشدون أشعارهم وهم يعزفون على القيثار وقوتا إلى جانب الموائد بينما كان يتلهى عليها بالمطاعم والمشارب أمراء إقطاعيون يسودهم المرح والعنجهية .

وشعراء الأردن البدويون مرتبطون بقبائلهم ، فلكل قبيلة شاعرها ، وتبدو ظاهرة طريفة عند هؤلاء الشعراء فى الأردن ، وهى أن الشاعر منهم يملك صوتا واضحا قويا يسمعه القريب والبعيد ، وفى إنشاده يغنى شعره أو يلقيه بصوت رخيم منغما بما يشبه تراتيل المنشدين فى الأذكار أو الكنائس ، إذ يمدون الحروف اللينة

---

(١) (خمسة أعوام فى شرق الأردن) للاب بولس سلمان ص ٢٠

بأنغام متناسقة ، وهذا يردنا إلى ماقيل عن الأعشى (١) من أنه كان يغنى شعره ولهذا سموه (صناجة العرب) ، ويبدو هذا عند بعض شعرائنا المعاصرين ، فقد كان الشاعر العراقى جميل صدقى الزهاوى إذا ألقى شعره بدا لسامعه أنه ينشده إنشاداً ،إذ يمد الصوت فى بعض الحروف بتناغيم متساوقة ، ذات لحن حنون ولم يباعد هؤلاء الشعراء العرب فى القديم والحديث عما يرويه رواة الأدب الإغريقى من أن الشاعر الضرير (هوميروس) كان يجول بين البلاد يغنى الإلياذة ويستجدى بها ، وإننا لنجد فى استعمال كلمة (أنشد الشعر) الأصيلة فى عروبتها كأنها مقرونة بالإنشاد الحقيق وهو الغناء.

ويستعين بعض شعراء البدو فى الأردن بالضرب على الرباب أثناء إنشادهم لشعرهم ، وحين ماتت (وضحاء) زوجة الشاعر البدوى (نمر العدوان) أخذ يهيم على وجهه بين القبائل ، يعزف على الرباب ألحانا شجية باكية ويرثيها ، وكانت الرباب تئن بين يديه أنات الأسى فتزيد فى تأثير شعره فى السامعين ، وقد تألف عند هؤلاء الشعراء أنواع من اللحون الشعرية التى توافق فنون قولهم ، فلديهم اللحن الرثائى ، واللحن (الحربجى) أى الحماسى . والشمرى أو الشروقى وهو غناء أهل الشرق فى سلمهم وحربهم ، واللحن (الهجينى) وهو غناء الشاعر الراعى حينما يحدو غنمه الرائحة تحت المساء أو الواردة إلى الماء ، واللحن الهلالى وهو السائد فى أشعار بنى هلال .

وأمراء البدو فى الأردن يعلقون فى مضربهم الكبير رباباً يعدونها لمقدم شاعرهم ، كما يعد بعض أهل زماننا من ذوى التطريب عوداً أو كماناً أو رقاً فى غرفة الضيوف ، وأكثر هؤلاء الشعراء الأردنيين مرتبطون بقبائلهم وأمرائهم يصوغون قصائدهم وفاقاً لميل هؤلاء وأذواقهم وشعورهم فى الأفراح والأحزان ، ويكاد يكون شعرهم سجلا لتاريخ تلك القبائل وحياتها ، ولم يكن الشعر مقصوراً على الرجال فى بدو الأردن ، وإنما كان ثمة شاعرات شيخات وصبايا ، لكن شعرهن مقصور على حياتهن وما يلامس قلوبهن من غبطة أو فجيعة ، كأن تبكى

---

(١) (الفن ومذاهبه فى الشعر العربى) للدكتور شوقى ضيف طبع مصر سنة ١٩٤٥ ص٢٨ و (تاريخ الأدب العربى) لينكولسون بالانكليزية ص ١٣٣

أم على ابنها بأبيات ملتاعة ، وقد فجعت أم أردنية بوحيـــدها فجعلت تناجى الأحجار وتخاطب النجوم ، وتقف على القبور تنشدها من شعرها الحزين . تستحلفها فيه أن تحفظ ابنها من عوادى الزمان ، وطوارق الحدثان .

أما طبيعة هذا الشعر البدوى فهو موزون مقفى ، يجرى على قاعدة خاصة عند هؤلاء الشعراء ، أكثر ألفاظه مسكن الأواخر مثل قول الشاعر القزيعى يشد على ناقته لتسير نحو الممدوح .

هيلا ياراكبين فوق فبح مثل سيعان الجراد مسرعفات[1]

وقد يقارب وزنه بعض أوزن العرب فى شعرهم ، ولكن أكثر وزنه مبتكر يجرى على قافية واحدة ، وقد يكون بين قوافيه واحدة مخالفة بين بيتين أو ثلاثة ويتميز بمطالعه عن الشعر الجاهلى الذى كانت مطالعه بكاء على الأطلال[2] والدمن الموافى يبدئه بتسبيح الخالق وتمجيده أو بوصف الخيل الأصائل ، ويختتمون قصائدهم بذكر الأولياء والصالحين .

وبعض قصائدهم المطولة تشبه الملحمات المأثورة عن الأمم العربية الغابرة أو القبائل الأندلسية ، وتحمل أسماء الأيام كما كان الأمر عند العرب . فنها قصائد اسماؤها يوم وضحاء ويوم عباد ، ويوم الشاشات ، ويوم ابن شعلان . ومن مشاهير شعرائهم شاعر الحيارات سالم المرعى ، ونمر العدوان ، وقد اختص هذا الشاعر برثاء زوجته ، وهو يشبه فى سيرته الشعراء الذين فقدوا ازوجاتهم وجعلوا يقولون الشعر فى رثاء الأليفة ، ومنهم الشاعر القزيعى من بنى حميـــدة ، وأبو الكباير شاعر الحويطات ومادح عودة أبى تايه أميرها ، وقد سجل صفحات الحرب بين عرب الحويطات وعرب الصخور سنة ١٩٠٩ .

---

(١) هيلا : معناها أهلا وسهلا . فبح : الناقة السريعة . سيعان الجراد : جماعة الجراد ، مسرعفات : طائرات .

(٢) شذ أبو نواس عن مطالع الشعر العربى القديم فى وصف الاطلال ، فكان من تجديده فى الشعر أن جعل مطالعه فى ذكر الخمرة وآلات الشراب .

وللبداة الأردنيين ضرب آخر من الأدب يجرى فى لغة المحادثات والسمر وهو روايات قصصية يرويها حفظتها ، وقد يكون بعضها تمثيلياً وفيها شعر ، فيقوم بها ممثلون من البدو تحت قباب الخيام ، حيث تكون لشيوخ القبائل مضارب واسعة ذات أعمدة عديدة ، وقد انبسط تحتها الفرش من الصوف المزخرف ووبر الجمال. ويأتى هذه المضارب شعراء من مختلف القبائل ينشدون شعرهم أو يقوم بعضهم بالتمثيل ، ومن أشهر رواياتهم رواية (الولاشى مهمل) وهو من أمراء نجد أصبح فقيراً بعد عز وجاه ثم عاد إلى غناه الأول ، ومنها رواية (الضيغم) ورواية (محسن الهزالى) و (بركات بن مطلق) وقصة الأميرة (توهاء) .

وكلها روايات منتزعة من الواقع فيها صور شعرية وخيالات وحكم ، وضعها أشهر شعراء الأردن وأعرفهم بأحوال القبائل ، وقد غرسوا بكثير من الحوادث وجرت على ألسنتهم الحكمة والموعظة .

لبنـــــان

١ — لبنان الطبيعى

قال شوقى :

لبنـــان والخلد اختراع الله لم ... يوسم بأزين منهما ملـــكوته

وكل من رأى لبنان وأحس جماله قرن طبيعته بالخلود كما قال الشاعر ،

إنه جبل فى جبال ، كأن قممه علقت فى السحاب وأرسلت السفوح رواسيها على الأوديةوما واجه منها البحر انحدر حتى الشاطىء .

ولبنان بمناطقه الجبلية ذو سلسلتين تمتدان من الشمال إلى الجنوب . أعلى قمة فيه ترتفع ٣٠٧٥ متراً . وقد ازدانت هذه الجبال بأحراج الصنوبر ، وأخصبت الكروم وتعددت أنواع الشجر والثمر ، وخططت بعضها بمدارج ومنحدرات ، وبرزت فى هاتيك الهضاب والعطفات الشاهقة مدن وقرى عامرة بشعب ذكى دائب ، وكم طموح من أهلها ضاق بها فانطلق منها وقلبه أشد ما يكون حنيناً إليها .

وفى لبنان سهول بين الجبال فسيحة خصبة ، وأكبرها سهل البقاع[1] الذى يبدو من أعالى « المرتفعات » كسجادة فارسية زاهية الألوان دقيقة الزخرف والحواشى ، والزراعة فيه خصبة ملحوظة ، وهو يعطى لبنان حاجته إلى القمح وبقية الحبوب لو انصرفت إليه العناية الكاملة .

رق هواء هذا الصقع من دنيا العرب ، وصفا ماؤه ، وطابت الحياة فيه حتى كان جبلا ملهماً مشابهاً لأخيه القديم « جبل الأولمب » الذى كان يستلهم منه شعراء الإغريق خواطرهم ، فأنبت هذا الجبل شعراء وأدباء كانت آثارهم من نسيج طبيعته ، ونقاء مائه ، وحين جاءه شاعر النيل حافظ إبراهيم راح يقول :

طيب الهواء وطيب الماء قد صقلا ... لوح الخيال فاغراكم وأغرانى

وفى شهر نيسان « أبريل » تجود طبيعة لبنان السمحة بأجمل مفاتنها ، فإذا الأرض

---

(١) يسمى أهراء لبنان

فى عيد ، وهل عيدها إلا زينة نباتها وزهر سفوحها وحداتقها ، وتهدل الخضرة والثمار من أشجارها وغصونها .

وقد يعجب الإنسان الفانى كيف يبدع الخالق هذه الربوع الخالدة ، فيتمنى أن لو طال عمره واستمتع بهذه الطبيعة التى تغرى بالبقاء .

لقد كان الأستاذ العجوز مستر « شيبس » ينظر إلى السنين التى خلفها وراءه فرحاً ، حين علا قة من قمم الجبال مع زوجته النصف الجميلة . فسألها بم تشعرين ونحن نطاول الجوزاء . فقالت له :

إننا نشبه آلهة اليونان . . .

كذلك يشعر من علا جبل لبنان ، أنه أشبه بالأساطير ، ويكاد يحسب أن الخلود أصبح بين يديه . أما حجم لبنان ومقدار مساحته وحدوده ، فلا يقاسان بالطول والعرض ، وانما يقاسان بما اشتملا عليه من خصب وروعة وجمال ، وبمن انبت هذا الجبل فى القديم والحديث من عباقرة الفكر والمعرفة والتاريخ ؛ فطبيعة لبنان اودعت مزاج أهله إلهاما وطموحا ، ولم تقنع ذوى الهمة بالكفاف والعيش النكد ، فانطلقوا من الجبل وهم أشد ما يكونون اعتزازاً وحنينا إليه ، وحملوا معهم طوابع لبنان فى الحرية والثقافة والتطور .

وما زال هذا الجبل الملهم بما احتوى من روائع الآثار والبقاع ، وصفاء الماء والهواء ، وبما أوتى أهله من لباقة ومعرفة وفن مراداً للزائرين والسائحين لا سيما فى الصيف ، فلبنان مصيف عالمى يرتاده طلاب العافية والهناءة والهدوء ، كما يأتيه محبو اللهو والسلوى .

إن الحجم الجغرافى والسياسى لهذا الجبل مبعث حركة لا تفتر ووعى يزيد مع الأيام ، وساحله الجبل من حدود الناقورة الفاصلة بينه وبين فلسطين قد لا يزيد على عشرة آلاف من الأميال ، وأهله فى العدد لم يبلغوا بعد المليونين ونصف المليون وبيروت عاصمة لبنان ملتقى شعوب ، ومزدحم حياة تجارية وصناعية ، ترفدها الضواحى والأرياف بزراعة أتقنها الفلاح اللبنانى وتفنن فيها ، فإذا فهمته وعرفت الريف بالغرب لم تجد بينها إلا قليلا من التفاوت .

٢ ـــ لبنان القديم

اسم لبنان فى اللغة اليونانية القديمة والرومانية « ليبانوس » ومعناه ، الجبل الأبيض ، إذ أنه على الدوام تعلو أثباج الثلج فيه قممه العالية ، حتى أن المتنبى حين مدح أبا على الأوراجى الكاتب ، وقد اضطر أن يجتاز جبال لبنان وصولا إليه قال :

وعقاب « لبنان » وكيف بقطعها وهو الشتاء وصيفهن شتــاء

لبس الثلوج بها على مسالــكى فكأنهــا ببياضها سوداء

وفد أهل لبنان بالسكان منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ، إذ جاءه الساميون المهاجرون من البادية ثم الآراميون ، وعقب على آثارهم الحيثيون فالكنعانيون .

أما تسمية سكانه القدامى بالفينيقيين فقد اهتدى « ما سبيرو » إلى تعليلها[١] وهى أن فى الآثار المصرية القديمة كتابات تذكر نقوشها طرفا من أخبار بلاد العرب الشرقية والمنازل التى نزلها الكنعانيون باسم « فونيقى » ومعناه الموصلون . وهى تسمية لسكان لبنان الأقدمين الذين كانوا يعبرون البحار ليوصلوا تجارتهم إلى البلاد البعيدة .

ومنذ أحرز الفينيقيون نصيبهم من النشاط والتقدم ، أخذوا يعمرون البلاد وينشئون الأقاليم ، فكانت أول مدنهم صيداء ثم صور ثم اختطوا بقية خططهم على شواطىء لبنان .

وإن ما وجد من الآثار فى مدينة جبيل ، وهى من أقدم العواصم الفينيقية يدل على مطلع الحضارة الإنسانية بآثارها العريقة ، وأهل جبيل هم الذين بنوا مدينة بيروت ، كما أنشأ الفينيقيون « طرطوس » وطرابلس وعكا وغيرها ، ومن هاتيك الشطوط القديمة ظهرت الملاحة فى الحوض الأبيض المتوسط ، فكان الفينيقيون أول من مخر البحر واجتازه إلى الأصقاع البعيدة .

---

(١) تاريخ لبنان العام للدكتور يوسف مزهر ج ١ ص ١٦ طبعة بيروت .

وحين ظهرت مصر القديمة بحضارتها التى بهرت العالم توصل ملوكها إلى لبنان فبسطوا عليه نفوذهم بإخاء وصداقة ، وكان الشعب الفينيقى أقرب الجيران إليهم ، وفى الكتابات الجدارية فى « تل العمارنة » رسائل من ملوك المدن الفينيقية كلها تحيات وود موجهة لملوك مصر . وفى الحفريات التى قام بها المسيو شيفر بشمالى سوريا فى منطقة تقع جنوبى اللاذقية اكتشف مدينة « أوغاريت » ، وإذا هى مدينة تحتها ست مدن بائدة ، بعضها فوق بعض . وإذا هو يجد فى كنوزها الأثرية حجراً فينيقيا عليه أول ألف باء فى الوجود ، وكان لهذا الكشف فى عصر نادوى كبير ، وقد كانت أوغاريت من أشهر المدن العتيقة المتحضرة .

وكر الدهر بالقرون على لبنان ، وهو صامد للاحداث حتى جاءه اليونان فالرومان وعهد الإسلام فى ظلال الأمويين فالعباسيين ، وحين طحمت أمواج الصليبيين شواطىء بلادنا كان نصيب لبنان منها كبيراً حتى انحسر ذلك الموج وتتالت السنون ، فإذا لبنان فى حكومة « فخر الدين المعنى » يتنسم حرية الحكم ريثما جاءت جيوش الترك إلى الشرق ، فكان لبنان فى جملة ما استولى السلجوقيون عليه ، ثم كان حكم الشهابيين للبنان قبيل سنة ١٨٦٠ حداً فاصلا بين لبنان القديم والنهضة اللبنانية الحديثة .

٣ — لبنان بعد الحرب العالمية الاولى

بينا فى كلامنا على تاريخ سورية الحديثة منذ الحرب العالمية الأولى ماجرته الأحداث السياسية على الشرق العربى نتيجة هذه الحروب .

لقد نشبت الحرب الكبرى فى شهر أغسطس (آب) سنة ١٩١٤ فكانت تركيا سباقة إلى دخولها بجانب الألمان والنمساويين ، وقد خشيت من انتفاض بعض المقاطعات فى الشرق العربى الذى كان فى حوزتها ، وأن تكون تلك المقاطعات سبيلا إلى متاعب داخلية ، فأرسلت « جمال باشا الكبير » على رأس الجيش الرابع إلى سورية ولبنان وفلسطين .

وكان أول ماصنع هذا القائد التركى إلغاء منصب الحاكم الوطنى بلبنان ، وقد تسلم هذا إدارة الأحكام . وكان من أوائل أعماله الاستعمارية الثقيلة أن أمر بإرسال كتيبة ضباط العرب ، وكان عـــدد أفرادها ثمانين ضابطا ، إلى خطوط النار فى الدردنيل والقفقاس حتى فنيت ولم ينج منها إلا نفر قليل ، وكان سبب إيقاعه هذه النكبة بالضباط العرب أنه سمعهم فى حفل أقيم له ينشدون الأناشيد العربية الحماسية

وقد كان الترك كارهين للعرب منذ ثورتهم الأولى سنة ١٩٠٨ على السلطان عبد الحميد الثـــانى . إذ اعتنقوا فكرة القومية العنصرية ، وكان هدفهم إنشاء امبراطورية تركية تذوب فيها كل الشعوب التى تحت حكمها وفيهم العرب ، ومن هنا بدأ التنبه العربى ، وكان من العرب فئة تلقت دراستها فى استانبول وأوربة واطلعت بوعيها على الحقوق الإنسانية والحضارة المعاصرة . فتأسس بفضل هذه الفئة الواعية « حزب اللامركزية العثمانى » وقد ضم أعيان المفكرين من العرب فى سورية ولبنان ، ثم تألفت جمعية بيروت الإصلاحية على هذا الغرار .

وبدا من العرب نشاط كبير قبيل إعلان هذه الحرب ، إذ عقدوا مؤتمراً فى باريس بتاريخ ١٨ حزيران ١٩١٣ برئاسة الشهيد عبد الحميد الزهراوى ، أعلنوا فيه المطالبة لسورية ولبنان بأن يشملهما الانتعاش المالى والحكم الذاتى .

لكن فجاءة اعلان الحرب أدخلت الوجوم على هؤلاء الأحرار والمفكرين لكنها لم تشغلهم عن السعي سراً إلى أهدافهم . ومنذ جاء جمال باشا إلى لبنان وسورية أخذ يداعب خياله حلم شفاف ، ولعله أراد أن ينسحب على غرار « محمد علي باشا الكبير » فانتوى إعلان نفسه ملكا على الشرق العثماني الأوسط خالعاً طاعة العثمانيين في الاستانة .

وقد خيل إليه أن أحلامه لن تتحقق إلا إذا زحزح من طريقه رجالات العرب الذين كانوا طليعة أهل الفكر والأدب ، وكبار العلماء والوطنيين . فرماهم بالعمل على التخلص من الحكم التركي ، وبعيد إلقاء القبض عليهم حاكمهم محاكمة عاجلة عرفية ، ثم نصب مشانقهم في سورية ولبنان ، فكان من الشهداء الذين أعدموا في بيروت يوم ١١ أغسطس (آب) ١٩١٥ قرابة اثني عشر شهيداً (١) ، كما حكم بالإعدام على نفر كانوا غائبين بمصر وأمريكا يزيد عددهم على الثلاثين رجلا .

وقد وقر في أذهان الترك من ذلك اليوم ضرورة القضاء على الفكرة العربية في بلاد العرب .

ثم جاء دور دمشق فعلق فيها جمال باشا على المشانق أعيان القوم ، وزهرات الجيل ، وقد زاد عدد من أعدم من السوريين على خمسة وعشرين شهيداً ، كما حكم بالسجن والنفي على آخرين .

وكانت هذه الحوادث السود سبباً في إعلان النقمة الكبرى عليه في داخل البلاد وخارجها ، لا سيما مصر وأوربة وأمريكا ، فقد انطلق فيها بعض الأحرار الذين وصلوا إليها أو كانوا من قبل فيها يعلنون التنكير على فظائع السفاح التركي داعين لإنقاذ البلاد العربية من طغيانه وتعسفه(٢) .

وبعد تلك الضربة التي أنزلها جمال باشا بلبنان أخذ يمنع عنه الأرزاق والاتصال التجاري ، فحرمه القمح وهو أساس العيش حتى نشبت فيه مجاعة فاجعة

---

(١) فيهم الأحرار طبارة وباتر باولي والعريسي والمحمصانيان الأخوان وعقل وعمر حمد

(٢) وجد الإنكليز في هذا التاريخ الفرصة سانحة للاتصال بالحسين وأولاده كما مر في كلامنا على التاريخ السوري فتألف جيش بقيادة الماهل العربي لمحاربة الترك ، وكان من أمره بعد الحرب أن دخل سوريه و لبنان مع الظافرين .

وأصبح الرغيف أندر من الجوهر ، فهاجر فقراء لبنان من رجال ونساء ، ومات كثير من الأطفال والشيوخ ، أما المهاجرون فهاموا على وجوههم ضاربين فى البلاد المجاورة ، وهلك أكثرهم جوعاً . وكان هـذا الحصار الاقتصادى الذى ضربه الأتراك على لبنان سبيلا إلى الفناء ، وكان اللبنانيون يهلكون من هوله حتى مات وشرد نصف سكان لبنان .

وقد تحمل اللبنانيون كل ذلك العسف والإرهاق ، ولم يستطيعوا أن يعلنوها ثورة فى وجه الترك لقلة ما كان فى أيديهم من العتاد والمال ، ولم يخل لبنان من النفوس الشماء وأهل الإباء فى كل عصر ، ولكن لم يكن من جدوى لتلك الثورة التى قد تبيد من بقى فى لبنان أيام الطاغية التركى .

وانتهت الحرب فتنفس لبنان الصعداء مؤملا الانتعاش . وتفتحت آمال رجاله وأبنائه لمعاهدة الصلح سنة ١٩١٨ ، وظنوا أن بشائر هذا العام ستنسيهم ما كان من أمرهم مع الترك منذ عام ١٨٦٠(١) فينالون استقلالا وينعمون بالحكم الذاتى ، وفاتهم أن السياسة الأوربية الغاشمة كانت استعمارية بحتة ، وأنها لوحت للحسين بوعودها المموهة ، وعما قريب سيعلنون حقيقة تلك السياسة الاستعمارية .

ولما انسحب الأتراك من سورية ولبنان دخل الأمير فيصل إلى دمشق فاتحاً فأنشأ الدولة الدستورية . وأنشأ فى بيروت حكومة عربية موقتة ، أقام عليها حاكما مسلماً يعينه مسلمون ومسيحيون ، ثم أرسلت حكومة دمشق إلى لبنان القائد شكرى باشا الأيوبى حاكما عاما على لبنان ليكون مقره بيروت ، وذلك فى ٦ أكتوبر سنة ١٩١٨ ، فنصب حبيب باشا السعد حاكما على لبنان ، وأقسم هذا يمين الطاعة للملك حسين ولحكومة فيصل العربية ، ورفع العلم الحجازى فوق دار الحكومة اللبنانية .

وغير أن معظم اللبنانيين وخصوصاً النصارى من الموارنة والطوائف الكاثوليكية وفئات قليلة غيرهم من بقية المذاهب لم يكونوا راضين عن هـذا الحكم ، بل قاوموه بجميع مالديهم من الوسائل(٢) .

---

(١) اشتدت الخصومة بين الدروز والمسيحيين حتى دبت الفتنة المشهورة عام ١٨٦٠

(٢) أورد هذه الجمله الدكتور يوسف مزهر فى الجزء الثانى من تاريخه ص ٨٦٨

على أن اللبنانيين السمحاء لم يطل حلمهم الجميل فى انضمامهم إلى الاستقلال السورى فإن الفرنسيين طالبوا بتنفيذ معاهدة (سايكس بيكو) بأن يعهد إليهم إدارة الساحل اللبنانى والمناطق الداخلية ، فأجيبوا إلى مطلبهم وجاءت جيوشهم فاحتلت لبنان وجعلته تابعاً لجيش الشرق .

وفى ٨ أكتوبر سنة ١٩١٨ أنزل الفرنسيون العلم العربى فى لبنان ، وعاد الحاكم السورى إلى سورية ، بينما كانت الجيوش الفرنسية تمتد فى توغلها إلى الداخل واضعة ضابطاً فرنسياً حاكماً مؤقتاً على لبنان .

وكانت فرنسة أول الأمر فى مؤتمر الصلح المنعقد بباريس فى فبراير ١٩١٩ راغبة فى ضم لبنان إلى سورية ، شريطة أن يعترف الأمير فيصل بمصالحها فى سورية ولبنان .

ولما بلغت هذه الأخبار اللبنانيين المحافظين هبوا لمناهضتها مذكرين الحلفاء بأن اللبنانيين فى داخل البلاد وفى الديار الأمريكية أسهموا فى الحرب إلى جانبهم إذ كانت قطع من الجيوش جميع أفرادها من اللبنانيين حاربت فى بعض الميادين ، فقال هؤلاء المحافظون إن حق لبنان أن يطالب باستقلاله ، وأصدر مجلس الإدارة اللبنانى قراراً طالب فيه بالمناداة باستقلال لبنان السياسى والإدارى بحدوده التاريخيـة والجغرافيـة .

وحين حضرت اللجنة الأمريكية التى أقر مؤتمر الصلح بباريس بأن تشخص إلى سورية ولبنان وفلسطين لتساعد فى تقرير المصير لهـذه البلاد وفاقا لمبادىء الرئيس (ويلسون) ، فإن هذه اللجنة حضرت إلى لبنان وقصدت قصر البطريرك فكان مما قال لها :

« نطالب باستقلال لبنان التام المطلق ، وإن كان لابد من مساعدة فلتكن من جانب فرنسة » ولم يقتصر البطريرك على ذلك بل شخص إلى باريس للمثول أمام مؤتمر الصلح والدفاع عن قضية لبنان واستقلاله .

وكما جرى للأمير فيصل بمؤتمر الصلح حدث للبطريرك فعاد كلاهما من غير أن يحصل على ما أراد ، وقد كان تعيين الجنرال « غورو » قائداً عاما للجيوش الفرنسية فى الشرق ومندوباً سامياً لفرنسة فى سورية ولبنان بدء عراك جديد فى المشرق بعد أن وقفت معركة الحرب الأولى .

ومثلما قامت حركات المقاومة فى وجه الفرنسيين فى سورية ، فكذلك حدث بلبنان — بادىء الأمر — فإن الأمير محمود الفاعور ناضل الفرنسيين بما لديه من جموع الأعراب ، وشملت هذه الثورة جهات راشيا ومرجعيون إلى جبل عامل[1] ثم أخمدها الفرنسيون وشيكا .

وحين أعلنت حكومة دمشق تتويج الملك فيصل ، وكان من جملة ما أقره مجلس الأمة السورية فى مؤتمره الكبير ضم لبنان إلى سورية ، هاج اللبنانيون المحافظون ، واحتجوا لدى الفرنسيين على هذا التصرف ، فكان أن قرر المجلس الإدارى اللبنانى قراراً يستنكر فيه إلحاق لبنان بسورية ويعلن أن لبنان حر مستقل بحدوده ، وأرسل البطريرك المارونى احتجاجاً إلى الجنرال غورو بهذا المعنى .

وكان لإعلان الأمير فيصل ملكاً فى دمشق أثر بالغ فى الأوساط السياسية الأوربية ، فانعقد مجلس الحلفاء فى « سان ريمو » بإيطاليا ، وأقر الانتداب على المشرق العربى وتوزيع بلاده بين فرنسة وانكلترا فى ٢٦ أبريل (نيسان) ١٩٢٠ .

فأحدث ذلك ثورات فى لبنان تألفت منها عصابات فى بعض الجهات الجبلية بلبنان وفى سهل البقاع لمناوأة الفرنسيين وأشياعهم .

وكان بعض ذوى الرأى من مجلس الادارة اللبنانى ينزعون إلى سورية ولا يرون للبنان حياة إلا مع شقيقته سورية . فعملوا على إصدار قرار يقضى بضم لبنان لسورية ، فاغضب الفرنسيين هذا القرار ، وأنزلوا بموقعيه عقوبات ، فلاذ بعضهم بسورية والبعض الآخر تحمل السجن والنفى .

وبعد وقعة ميسلون وانهزام السوريين أمام جيوش المستعمر الغاصب جعل الفرنسيون يتوددون إلى اللبنانيين ليستريحوا إليهم . ويجعلوا من بلادهم منفذاً إلى سورية ، فواعدوهم بمنحهم الاستقلال الذى يبتغون .

---

(١) لأهل هذه المنطقة من لبنان تاريخ مجيد ومشاركة قوية فى النضال الوطنى والبعث العلمى وفيهم ذوو عبقرية ورسالة .

لبنان فى عهد الانتداب الفرنسى

خطب الجنرال «غورو» فى أول يوم من شهر سبتمبر (أيلول) ١٩٢٠ فى حشد حاشد ببيروت خطبة صور فيها مجد لبنان منذ أيام فينيقيا حتى الحرب الكبرى، ووصف جباله وسهوله، وهواءه الطلق وماءه العذب، ثم تكلم على السياسة التى تطاولت عهودها فيه من القديم حتى العهد الحديث. وأعلن إنشاء دولة لبنان الكبير.

ثم بسط فى كل ولاية عيونه وأرصاده بالمستشارين المتعددين الذين كان إليهم تصريف الأمور، فلم يستمرىء اللبنانيون هذا الوضع، وظلوا يرصدون الظروف لاستقلالهم الحقيقى.

ولم يجد الفرنسيون لضيق رقعة لبنان سبيلا إلى تفكيك عراه بجعله حكومات كما فعلوا بسورية إذ مزقوها، فعمدوا إلى تمزيق لبنان عن طريق الأشخاص والجماعات، فأوجدوا الفروق بين الطوائف وجعلوا كل طائفة مبغضة للثانية، فوقع كثير من الخلاف والتباين يشبه الخلاف القبلى الذى كان سائداً فى التاريخ القديم.

وتعاقب المفوضون الساميون على لبنان وسورية فجاء بعد «غورو»، «ويغان»، ثم «سراى فدوجوفيل»، وكانوا جميعا مستعمرين حضروا إلى الشرق ليمكنوا لفرنسة حكمه فوق جثث أهليه.

وقد أبلى الدروز فى لبنان بلاء حسناً. فقاوموا استعمار الفرنسيين منذ بداية عهدهم، وكان لإخوانهم دروز الشام أثر فى هذه الثورات وبعثها، ثم لم تلبث هذه الحركات أن تحولت بفعل المستعمر إلى حزازات لتوسيع الخروق، وقد كان للثورة السورية سنة ١٩٢٥ تأثير بعيد فى بعث الروح الوطنية بلبنان لمقاومة الفرنسيين. فكان للمجاهدين من الشيعة فى جنوب لبنان أيام نضال مشهودة فيه، دعمها بعض المتحررين والمفكرين، وقد بذلوا كثيراً من المال والضحايا فى مجاهدة المستعمرين.

وأراد الفرنسيون أن ينتهوا من مقدمة كتابهم الاستعمارى بلبنان إلى كتابة أول فصوله، فأنشأوا الجمهورية اللبنانية، وسنوا قانونا لها وضعه (بول بونكور) أحد ساستهم سنة ١٩٢٥، ثم تم انتخاب السيد (شارل دباس) أول رئيس لجمهورية لبنان فى مايو ١٩٢٦، وجعلت مدة رئاسته ثلاث سنوات قابلة للتجديد.

وكان لبنان إبان ذلك موزع النزعات والأهداف ، فأغلب المسيحيين فيه يركنون لفرنسة ويؤمنون بحمايتها ، والمسلمون وأكثر الطوائف الباقية نزاعون لسورية ووجهتها ، وقد ألفوا المؤتمرات فى صيدا وطرابلس وجبل عامل مطالبين بالانضمام إلى سورية وهى فى إبان ثورتها الكبرى وحدة الشعور بالتخلص من عنت الاحتلال .

وجاء المسيو بونسو مندوباً ساميا لفرنسة فى سورية ولبنان ، فلم يغير من منهج السياسة الاستعمارية لحكومته ، وإنما لجأ خلال سبع سنين من حكمه إلى المفاوضات البطيئة والتسويفات المتوالية وكانت تلك السياسة الخادعة فى سورية ولبنان ، بغيتها إخماد ثورة النفوس وتخدير أعصاب الأمة وقتل الروح الوطنية بما كان يشيعه من أساليب المطل والمراوغة .

وهبت فى لبنان الروح الوطنية من الذين يؤثرون الانضمام إلى سورية هبة جديدة ، فحضر الزعيم الطرابلسى عبدالحميد كرامة مع وفد إلى دمشق مطالبا بالوحدة وبالانضمام إلى سورية .

وفى ٢٤ يناير سنة ١٩٣٦ توفى البطريرك الكبير إلياس الحويك الذى كان مبعث النشاط السياسى بلبنان فى الاعتماد على فرنسة ، والدعوة إلى استقلال لبنان وتوحده فى كيانه واتجاهه .

وكان هذا الرجل الكبير موضع الثقة والوقار المجمع عليه ، إذ كان على الرغم من مارونيته رجلا مخلصاً لأمته ، يرى مصلحتها فيما رآه ، وقد رثاه لبنان بطوائفه جميعاً وأسف على موته المسلمون أسف المسيحيين .

وحين استنفد السيد شارل دباس مدة رئاسته سنة ١٩٣٢ طالب الموارنة بأن تكون رئاسة الجمهورية مقصورة عليهم ، وأيدهم بذلك الفرنسيون ، والتأم المجلس النيابى لانتخاب رئيس للجمهورية ، وهنا برز اسم الشيخ بشارة الخورى إذ رشحه أكثر أعضاء المجلس للرئاسة العتيدة ، فما راق هذا الأمر المفوض السامى الفرنسى المسيو بونسو ، ولذلك اصطنع ضربة سياسية فحل مجلس النواب وعطل الدستور ، واحتفظ بالرئيس السيد الدباس ريثما يرى مخرجا من الأمر

العصيب ، وفى أيامه سادت الفوضى وكثرت الرشوة بين الفرنسيين[1] واشتد التنابذ والخلاف .

وكان المستعمرون الفرنسيون فى باريس كلما بارت سياسة مندوب لهم سحبوه وأرسلوا غيره بديلا منه . فجاءت نوبة المفوض السامى المسيو (دومارتيل) الذى وصل إلى بيروت فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٣٣ ، وكان أول عمل قام به هو إقالة الرئيس شارل الدباس ، وانتخاب الرئيس الجديد (حبيب باشا السعد) بواسطة مجلس نواب مرتجل ، وقد تمت فى عهد هذا الرئيس إصلاحات مرموقة فكان رجلا مخلصاً لأمته ، واسع الإدراك ، متفانياً فى محبة لبنان ، ولما انتهت مدة رئاسته فى يناير سنة ١٩٣٦ عمل الفرنسيون على انتخاب السيد (إميل إدة) رئيسا للجمهورية اللبنانية .

---

(١) تاريخ لبنان العام للدكتور مزهر . الجزء الثانى ، ص ٩٧٨ .

لبنان فى الحرب العالمية الثانية

ناضل لبنان وكافح فى سبيل استقلاله على الرغم من الأمور الكثيرة التى كانت حيناً تريده تابعا لفرنسة ، وحيناً عائداً لسورية ، وكانت السياسة الدولية تعبث باستقرار لبنان ، وقد حرص الفرنسيون أنفسهم على أن يظل لبنان متأرجحاً فى حالته تلك ، يكتفى بحكم ذاتى محدود ، وهو قانع برئاسة رئيس مسيحى للجمهورية ومسلم سنى لرئاسة الوزراء ومسلم شيعى لمجلس النواب ، وفى كل دائرة من دوائر الدولة مستشار فرنسى يشرف على كل شىء ، إذ كانت فرنسة تحكم ببقائها فى الشرق العربى ، فجعلت لبنان نقطة الانطلاق لهذا البقاء ، والمركز الموطد لحلاتها المدبرة فلما قامت الحرب الأوربية الثانية وتضعضعت فرنسة فى الغرب ، نشأ عن ذلك فتور فى مكانتها وأثرها فى البلاد العربية . وكانت فرنسة قد أرسلت قبيل الحرب مفوضاً سامياً جديداً لسورية ولبنان هو المسيو (غبريل بيو) ، وكان ضعيفا فى سياسته متردداً فى تدبيره ، فلم يستطع أن يكبح جماح مرؤوسيه الذين كانوا قد جعلوا وظائفهم بلبنان سبيلا إلى ابتزاز أموال الشعب وتصريف الأمور بطرق ملتوية .

ولما نشبت الحرب أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ أحدثت وجوما بلبنان ، وبادر الفرنسيون إلى اتباع سياسة انعكاسية رجعية عادوا بها فى البلاد إلى الوراء ، فألغوا مجلس النواب ، وقضوا على الوزارة ، ولم يبقوا من صورة الحكم الوطنى سوى رئاسة الجمهورية .

ولما سقطت فرنسة تحت عنف الدبابات الألمانية الثقيلة ، أدهش العالم ما حل بفرنسة المتغطرسة ، وسرت فى الأوساط اللبنانية التى كانت تحب فرنسة وتعتز بها موجة حزن على إذلال تلك الأمة العريقة التى كانت سبباً لنصرة الحرية فى العصر الحديث ، وحملت مشعل النور إلى الأمم بثقافتها الخالدة ، وحضارتها الفنية الرفيعة .

وكان وقوع هذا الانكسار على فرنسة وهى فى لبنان سبب نقمة وحذر واستفزاز ، فأعلن فريق من الرؤساء الفرنسيين العصيان على حكومة « فيشى » التى قامت بفرنسة وعليها بطل (فردان الماريشال بيتان) . وكان على رأس هؤلاء المتمردين أول الأمر المفوض السامى المسيو (بيو) نفسه ، وقائد جيوش الشرق

الجنرال (ميتلهوزر) . ثم لم يلبثا أن غير كل منهما موقفه ومشيا مع سياسة فرنسة وأوربة .

وكان الجنرال (كاترو) قد حضر إلى الشرق ، ونزل مصر ، منددآ بحكومة فيشى داعياً إلى خلع عصا الطاعة على حكومة فرنسة بأوربة ، والانضمام إلى حركة التحرير التى يقودها خارج فرنسة الجنرال (دوغول) ، لكن حكومة (فيشى) استدركت الأمر وأرسلت الجنرال (دانتز) لحماية سياستها فى المشرق ، فوصل إلى بيروت وأول عمل قام به إقالة رئيس الجمهورية اللبنانية السيد (إميل إدة) وتعيين الأستاذ (الفريد نقاش) بديلا عنه .

وقد أرسل إلى السجن بعض الوطنيين ، وكم الأفواه وفرض الإقامة الجبرية على بعض ذوى الرأى السياسى فى البلاد .

ولم يفتر الجنرال (كاترو) عن العمل لتأييد الديغوليين ، فأعلن هذا النداء فى ٨ يونيه سنة ١٩٤١ : (أيها اللبنانيون ، والسوريون .

فى الساعة التى تدخل فيها قوات فرنسة الحرة ، وقوات حليفتها بريطانيا العظمى إلى أراضيكم ، أعلن أننى اتخذت لنفسى جميع السلطات والمسؤوليات والصلاحيات التى تعود لمندوب فرنسة فى الشرق ، وذلك باسم فرنسة الحرة التى تندمج مع فرنسة الشرعية التقليدية وباسم الجنرال (دوغول) .

وإنى بصفتى هذه ألغى الانتداب وأنادى بكم أحرارا مستقلين ، وأنتم منذ الآن شعوب حرة وأصحاب سيادة ، ويمكنكم أن تؤلفوا دولتين منفصلتين ، أو تتحدوا فى دولة واحدة ، وفى الحالتين ستضمن استقلالكم وسيادتكم معاهدة تحدد فيها علاقتنا المتبادلة ، وبانتظار عقدها سيبقى وضعنا المتبادل كحليفين متحدين ، فسعى وراء نفس الأهداف ، وشطر المثل العليا) .

وقد أحدث هذا النداء غبطة فى بعض النفوس التـــواقة إلى الاستقلال والخلاص بأى ثمن . لكن الفرنسيين فى لبنان أخذوا فى العناد والمقاومة . وقد اتخذ التمرد والتحدى شكل حرب ضد الإنكليز والفرنسيين الأحرار الديغوليين ، ودومت الطائرات الإنكليزية فوق بيروت توزع المنشورات التى تدعو للاستسلام ووقف الفرنسيون الفيشيون الذين كانوا يحكمون لبنان لمقاومة جحافل الإنكليز والفرنسيين الديغوليين ، وبعد عراك فى بعض المناطق ومناوشة فى المناطق

الأخرى دك الإنكليز والفرنسيون الأحرار خطوط الدفاع الفرنسية الفيشية واستولوا على لبنان . وقد روع الأهلون إبان ذلك وفروا إلى الجبال ، وعادت إلى نفوسهم صور الحرب الأولى .

وكانت بيروت غير منيعة الدفاع نخشى أهلوها عليها من التهديم ، وطلبوا أن يعدها المختصمون مدينة مفتوحة . وقد حقد الفرنسيون على اللبنانيين ظناً منهم بأن على اللبانيين أن يفنوا أنفسهم فى سبيلهم ويهبوا أرواحهم لبقائهم ، ولما فاجأتهم هذه المصائب طفقوا قبيل اندحارهم يعيثون فساداً فى المدن اللبنانية والقرى ، ويقتلون الأهلين . ويعتدون على الآمنين تشفياً وانتقاماً .

وهنا برز الرئيس الفريد نقاش ذو الرأى الحصيف والشجاعة المرموقة ، فتدخل لمنع الحوادث المؤذية ، وبعد مفاوضات بين الجانبين الإنكليزى والديغولى ، والفرنسيين الفيشيين والحكومة اللبنانية ، أوقف الاعتداء ، ودخل الحلفاء بيروت ، ودخلها الجنرال (دوغول) ليبدأ سياسة فرنسة الحرة فيها ، فخطب باللبنانيين واعداً بحريات واسعة ، وناقداً سياسة مواطنيه السابقين ، وكان صوته المتهدج فى قصر الصنوبر ، وهو مقام رئيس الجمهورية اللبنانية ببيروت كصوت امبراطور رومانى من أولئك الذين كانوا يقفون خطباء بالشعوب المستعمرة ويعدونها بالوعود البراقة . فلم تمر عليه أيام قلائل حتى أخذ يتقرب منه جماعة كانوا على الدوام من أسباب المشكلات السياسية بلبنان ، وكانوا يفضلون الانتداب على الحرية والاستقلال ، ليظلوا شاعرين بالحنان الفرنسى ودفء الحماية الاستعمارية .

وفى هذه الفينة برز الرئيس الشيخ بشارة الخورى ورياض الصلح[1] باحتجاجهما الصارخ على وعود (كاترو) وتقربه من الفئة المستقلة الموالية ، ووصفا الاستقلال اللبنانى الذى أعلنه الجنرال (دوغول) استقلالا زائفاً وغير دستورى . وأخذا يدعوان لى جراء انتخابات حرة .

فأخذ الجنرال كاترو يرمى الشيخ بشارة الخورى بالرجعية ، ويعزو قيامه بهذه الحملة المخالفة إلى خيبته فى الوصول إلى رئاسة الجمهورية ، لأن حزبه كان مناوئاً لحزب السيد إميل إدة .

---

(١) قتل غيلة وانتقاماً فى عمان عام ١٩٥٢ إذ كان مدعواً من الملك الهاشمى عبد الله بن الحسين لمشاورته فى الأحداث الطارئة الكبرى .

ومرت بلبنان حوادث جسام ، كثر فيها النقاش وتقلب السياسة فى العهد الفرنسى الجديد ، حتى كان اليوم السادس من سبتمبر سنة ١٩٤٣ ، فأعلن فيها انتخاب المجلس النيابى الجديد ، واستمتعت — للمرة الأولى — مقاطعات لبنان بحرية انتخابية كاملة منذ دخول الفرنسيين إلى البلاد ، واختلف الإنكليز والفرنسيين على المرشح لرئاسة الجمهورية ، فكان الإنكليز يؤثرون الشيخ بشارة الخورى والفرنسيون يتمسكون بالسيد إميل إدة ، وانتهى العراك بفوز الشيخ بشاره الخورى رئيساً للجمهورية اللبنانية ، وقد ألف حكومة برئاسة السيد رياض الصلح .

وقد ألقى رئيس الحكومة بياناً أحصى الفرنسيون الرجعيون الذين كانوا يرون أحلامهم تزول من الشرق ما جاء فى هذا البيان من كلمة الاستقلال فوجدوا فيه ثلاثة وثلاثين كلمة . فهالهم الأمر وعظم لديهم أن يجدوا لبنان الذى كان كهف سياستهم فى الشرق يتمتع اليوم باستقلاله المنشودة . ولا تسل عما بدر من الفرنسيين حين طالبهم اللبنانيون بتسلم المصالح فيهم ، فأخذوا يعتلون بالتعلات الواهية ويطالبون بعقد معاهدة لأجل ذلك ، فرفضت حكومة لبنان الجديدة مطالبهم ، وأصرت على أن تكون مستقلة استقلالا صحيحاً .

وما راع المحتل الفرنسى يومئذ المسيو (هللو) إلا تسلمه كتاباً من الحكومتين السورية واللبنانية بتحويل دار المندوبية فى البلدين إلى دار تمثيل دبلوماسى فقط .

فتلقاء ذلك سافر ممثل فرنسة المسيو هللو إلى الجزائر لمشاورة رؤسائه فيها وعاد فى نوفبر ١٩٤٣ إلى بيروت ، وقد أقدم الفرنسيون على عمل لم يسبق له مثيل فى سياسة الأمم ، ففى الساعة الثالثة بعد منتصف ليلة ١١ نوفبر ١٩٤٣ ، اقتحم قصر رئيس الجمهورية ضابط فرنسى ومعه بعض الجنود السنغاليين وبعض رجال الأمن اللبنانى مسلحين بالبنادق والمسدسات ، فنزعوا سلاح حرس الرئيس ، وحطموا الباب الخارجى ، ودخلوا حرم الرئيس الآمن ، فانتزعوه من فراشه ودفعوه إلى الخارج ثم وضعوه بسيارة وذهبوا به إلى قلعة (راشيا) ، وفعلوا مثل ذلك بالسيد رياض الصلح رئيس الوزراء على مشهد من زوجته .

وصنعوا مثل ذلك ببعض الوطنيين ، ومنهم السيد عبد الحميد كرامة ، فاقتادوه نصف عريان مكشوف الرأس حافى القدمين ، ونقلوا جميع المعتقلين إلى قلعة راشيا .

وما كاد الصباح يسفر بنشر هذا الخبر المفزع حتى هاج لبنان وماج وتوافدت الجماهير على بيوت المعتقلين ، وقامت المظاهرات على أشدها ، وأحرق المتظاهرون السيارات الفرنسية ، فبادر الفرنسيون لاحتلال الشوارع ، وخرجوا بسياراتهم وعليها السنغاليون لا يرون جمعاً إلا صوبوا إليه الرصاص ، وأوقف الفرنسيون الدستور ، وحلوا مجلس النواب وعادوا بلبنان القهقرى ، وقرروا إعادة السيد إميل إدة رئيساً للدولة إذ كان متحيزاً لهم مصانعاً لسياستهم .

وكانت هذه المباغتة كافية لإيقاظ الشباب اللبنانى ، فهب هبة واحدة وقد ائتلف حزباه فى الكتائب والنجادة ، وهاجم الفرنسيون رئيس الكتائب واعتقلوه ، فتنادى الشعب اللبنانى إلى إقامة مؤتمر وطنى لانقاذ البلاد من تدهورها المفاجىء وشاركت النساء[1] فى هذه الحركة الوطنية الكبرى ، وهبت الصحافة اللبنانية تساند الثورة وتدعو إلى نصرتها .

وحين انتشر فى العالم نبأ اعتقال رئيس الجمهورية ورئيس وزرائه ، بادر الانكليز إلى الاحتجاج بلسان مندوبهم ببيروت ، وتبعه إنذار من حكومة لندن إلى لجنة الجزائر الفرنسية[2] ، وهاج العرب فى كل مكان ، وكان لسورية ومصر موقف محمود فى مساندة لبنان وتأييد أحراره ، فقد رفعتا الصوت احتجاجاً على ما وقع فى لبنان من تعسف واعتداء .

واندلعت بلبنان ثورة على الفرنسيين كانت موضع العجب والدهشة ، وقد اتخذت هيئة الثورة مقراً لها قرية (بشامون) التى أصبح اسمها مقروناً بها ، وبعد عراك بين الأهلين والفرنسيين ، وتدخل الانكليز والدول العربية المجاورة واهتمام الجنرال كاترو بالموضوع ، حلت الأزمة ، وقدم الفرنسيون كتاباً إلى رئيس الجمهورية يعترفون فيه باسم اللجنة الوطنية الفرنسية فى الجزائر بالوضع اللبنانى كما أقرته الحكومة اللبنانية ، وأيده البرلمان .

وبادر الفرنسيون إلى تسليم الصلاحيات التى كانوا مستمسكين بها إلى أصحابها

---

(١) المرأة اللبنانية أثر كبير فى بناء النهضة وخدمة المجتمع ، وجمعياتها العديدة فى لبنان دائبة فى العناية بكل ما يصيب البلاد . وقد ظفرت فى عهد الاستقلال بحق الترشيح والانتخاب ، وصار من اللبنانيات أعضاء فى المجلس البلدى فسبقت اللبنانية أخواتها فى بقية البلاد العربية إلى أخذ حقوقها السياسية .

(٢) حين احتلت ألمانيا النازية فرنسة فى الحرب العظمى الثانية ، كان مركز الحكم الفرنسى الحر فى الجزائر .

اللبنانيين الشرعيين . ثم جلوا عن لبنان ، كما جلوا عن سورية ، وأوجههم ملتفتة إلى لبنان الذى كان حلمهم الأوحد فى الشرق ، يذكرونه بالحسرة وهم منقلبون إلى بلادهم ومستعمراتهم ، فإن جلاءهم كان لابد منه ، فقد عقدوا الاتفاق عليه فى لندن وباريس ، وتقذ بعد مفاوضات ، على أن تكون آخر مدة لجلاءهم عن سورية ولبنان أول أبريل ١٩٤٧ .

وطلع صباح الأربعاء من يناير ١٩٤٧ على لبنان بعيد قومى رائع ملأ النفوس فرحة بعيد الجلاء ، فأقيمت المهرجانات فى كل مكان لهذه الذكرى الخالدة ، وأحس لبنان أن الدهر عاد به إلى أيام استقلاله وعزه فى عهد الأمير فخر الدين المعنى فى القرون الوسطى ، وظهرت بيروت فى أبهى حللها ، وتنادى أهلها ووجوه الجبل إلى حفل كبير أقيمت له أقواس النصر ، وجاءت وفود البلاد العربية مهنئة بهذا العيد الوطنى العظيم .

أكذلك يكون حظ العرب فى هذا العصر ، يسامون ظلماً ومطلا ، وتفرض عليهم أحكام الاستعمار من دول الفرنجة الطغاة . وما خلق الإنسان على الأرض إلا ليعيش حراً عزيزاً فى بلده ، كريماً مخلصاً بين قومه . إن الجيوش الفرنسية التى سخرها الاستعمار الغاشم لحمايته عبرت المحيطات ، واجتازت القفار وطوت الجو ، لتصل إلى بلادنا عنوة وغصباً . ومازال حتى اليوم تلك الأمة الاستعمارية وأمثالها تتردى فى مجاهل سياستها . إذ لا تريد أن تدرك أن الاستعمار لا يلقى اليوم إلا التمرد والتحدى والمقاومة من أى بلد كان .

ولئن كان ذلك الجلاء خاتمة لتاريخ لبنان فى عهد الفرنسيين ، كما كان خاتمة لتاريخ سورية بذلك العهد الأسود ، فإن مطالع السنين المقبلة ينبغى أن ترف على الأمم العربية المتحررة بدوام استقلالها ، وتوطيد مكانتها ، والعمل على حفظ حقوقها بين الشعوب والدول .

وإن فى اندفاع فئة قليلة من لبنان وراء الأجنبى المستعمر ، يسدل اليوم التاريخ عليه ستاراً ، ليفسح المجال أمام الشباب اللبنانى المتحرر لحماية أمجاده الغابرة فى جبله الأشم ، وتفانيه فى حب الوطن الذى يزول كل شىء ، ويبقى هو ، أبدياً موروثا .

لبنان

بين الطائفية والإقطاعية

يقول التاريخ فى أكثر الأحيان كلمة الصدق ، فإذا جمجم فيها أو وارب لم يكن تاريخاً ، وإنما كان مغالطة وتمويها ، وكم قضى المؤرخون على حقائق خنقوها فى المهد ، بل ربما كتبوا ما يخالف الواقع ، فزوروا الحقيقة وموهوا وجه الأمانة الإنسانية ، وحسبنا فى هذا الكتاب الذى أعددناه لشباب العرب الصاعد أن نتحرى فيه وجوه الحق فى القول ، والإخلاص فى التأليف .

فإذا أرخنا نهضة لبنان المعاصرة ، وجدنا أن الطائفية فيه كانت علة العلل فيما يشوب هذه النهضة القوية ، ولقد برزت آثار الطائفية وأسبابها فى لبنان أكثر مما ظهرت فى سورية والعراق أو أى بلد آخر .

بدت العصبية الطائفية بلبنان فى جمهرة الموارنة الذين استوطنوا الجبل منذ القرن الثامن للميلاد ، وكان منهم أمراء ملكوا منازل فى جبال لبنان ووهاده ، وعلى مرور الأيام استعدى بعضهم على بعض بمقاتلين كان عددهم ألوفا ، وقد روى تاريخهم القديم فارس الشدياق فى كتابه (أخبار الأعيان) فعدد من أمرائهم نفراً بدأوا من الأمير إبراهيم حتى الأمير يعقوب ، ثم خلفهم من الموارنة طائفة سمى رؤساؤها بالمقدمين بدلا من الأمراء ، وذلك فى القرن الرابع عشر(١) .

وقد حظى الموارنة من الصليبيين حين جاؤوا لبنان بكل رعاية وتكريم ، وحافظ الصليبيون على استقلالهم الداخلى ، وما كانوا يجبون من المال ، وقد ذكر « إميل رى » فى كتابه (تاريخ النحل الفرنجية بسورية) ما ترجمته : « إن هؤلاء الموارنة هم الذين قد خصهم المشترع من دون سائر الوطنيين بعناية خصوصية وكانوا ماثلين على الدوام فى ذهنه ، وقد نالوا حظاً ممتازاً لم ينله سواهم من هاتيك الأمم » .

---

(١) ج ٢ ص ١٢٧٨ (تاريخ لبنان العام للدكتور يوسف جوهر) . وكتاب (تاريخ النحل الأفرنجية السورية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، بالفرنسية ، لإميل رى .

ولما مرت حملة الصليبيين بشواطىء لبنان فى طريقها إلى بيت المقدس ، سارعت طائفة الموارنة إلى تقديم التحية والتهنئة إلى أصحاب الحملة ودلوهم على الطريق كما أمدوهم بالزاد والمؤونة ، وانضم فريق من موارنة الجبل وجبيل وسير إلى مقدمة الحملة ليكونوا كشافة وأدلاء (١).

وقد تعددت المصادر التى تشير إلى نشأة هذه المارونية ، فبعض المؤرخين نسبوها إلى قرية مارون ، (٢) وبعضهم خالف هذه النسبة فزعموا أن الموارنة هم أتباع البطريرك مارون الذى كان موالياً لرومة داعيا إلى تعاليمها فى لبنان ، فلما اضطهده بطريرك أنطاكية اليعقوبى ، وقامت من جرائه فتنة دينية ، لجأ إلى لبنان وأقام فيها ينشر تعاليمه ومذهبه وقد عينه أمير بيزنطة مطراناً ، فجعل مركزه مدينة جبيل ثم انتقل بعد حين إلى غيرها ، حتى كثر أتباعه وأسسوا المذهب المارونى على طقس دينى معروف فى الكنيسة .

ولا يتسع المجال للخوض فى تاريخ هذه الطائفة المسيحية التى سبقت إلى العصبية المذهبية منذ ظهرت ، بل كانت بدء الصراع والتنابذ بين الطوائف العديدة الأخرى ، وتاريخ لبنان القديم حافل بذكر الفتن التى نجمت عن تعصب الموارنة ضد الكاثوليك وغيرهم . فكانت الفتنة الدينية تقوم بين أبناء الملة الواحدة . لتعدد مذاهبهم الكنيسية ، ولا جرم أن الحملة الصليبية قد أسفرت عن ألوان من التحيز والعداء والاضطهاد بين مختلف الطوائف ، وقد سكن كل فريق فى ناحية بلبنان يتربص الدوائر بالآخر ، وقد روى الكاتب الفرنسى (بوغنون) فى مذكراته عن النظام الإقطاعى الذى أسسه الفرنجة فى سورية (٣) حوادث من هذا القبيل .

ولقد نما التعصب الدينى على ترادف الأيام ، فصارت التهمة فى العقيدة والتهاتر من أجلها بين الطوائف المختلفة من دأب المواطنين ، وهذا ما كانت تبتغيه دول

---

(١) (تاريخ الطائفة المارونية) للدويهى ص ١٠٢ — (لبنان الطائفى) لأنيس صايغ طبعة دار الصراع الفكرى ببيروت سنة ١٩٥٥ ص ٧٤ .

(٢) عنى المؤرخ الدويهى فذكر فى كتابه المشار إليه بالهامش (١) ان قرية مارون كانت قرب أنطاكية وأن فى لبنان عدة قرى عرفت باسم مارون — وتقول إن بعض الآباء اليسوعيين سموا أيضاً بهذا الاسم .

(٣) يطلق أكثر المؤلفين السابقين اسم سورية على سورية ولبنان معاً ، وربما أطلقوا على لبنان اسم سورية فقط كما كان المفهوم فى عهد العثمانيين كذلك .

الاستعمار من قديم الزمان ، وقد اعتصم الموارنة فى الشمال يريدون السيطرة على بقية الطوائف التى ناهضت عنفهم ، ووقفت تتحداهم ، وترد نفوذهم ، وكان لابد لكل طائفة من أن يلجأ كبراؤها إلى الاستعانة بحماية أجنبية فرنسية أو انكليزية أو روسية .

ولم يكف لبنان ماحل بأهله من التعصب الطائفى المحلى ، فقد أقبلت عليه طوائف شتى من مختلف الملل بعد الفتح الإسلامى ، ثم اختلطت الفتنة الدينية بالمحن السياسية والإقطاعية ، على أن كلا من هذه الطوائف الأصلية أو الدخيلة كانت تخشى أقواها نفوذاً ، وأبعدها ثراً ، فازداد التعصب الدينى على تعاقب الإمارات والحكومات .

ولم يكن الحكم العثمانى الذى سيطر على لبنان ، كما سيطر على بقية البلاد العربية إلا باعثاً مجدداً لألوان من العصبية المذهبية بين مختلف الطوائف الإسلامية والمسيحية ، حتى صار هذا الجبل مجمع الملل والنحل بما وفد عليه من مذاهب محمدية جديدة ورسالات تبشيرية استغلالية ، فنى مستهل القرن الحادى عشر ظهرت بلبنان الطائفة الدرزية الموالية للخليفة الفاطمى الحـــاكم بأمر الله ، وقد اختلفت آراء المؤرخين فى نشأة هذه الطائفة ، فبعضهم يردها إلى القرمطية والبعض الآخر إلى الفارسية[1] .

أما الشيعة فقد سكنوا لبنان منذ القرن السابع الميلادى ، فآل عاملة ووائل أقاموا فى الجنوب وحافظوا على كيانهم وتقاليدهم ، وبعض نزلوا بعلبك[2] وجبيل وأطرافاً من صيداء وبيروت ، وما كانوا على الدوام فى وئام مع السنيـــين ، فالنعرات المذهبية كانت تشتد بينهم ، والحكومات المتعاقبة كانت تتحيز لفئة ضد فئة ، والرسالات التبشيرية كانت تصطاد فى المـــاء العكر ، جاهدة فى دسها وخلق الفتن والخلاف الطائفى للاستغلال السياسى والقومى ، وحتى انتهى الحكم العثمانى تنفس لبنان الصعداء حين أقبلت فرنسة واتصل بها من يفضلون الحماية الأجنبية ليكون لهم الحكم والسيطرة دون بقية الطوائف .

ووفت فرنسة بوعدها لمن ركنوا لها وأحبوها تعصباً وتحيزاً لمصالحهم

---

(١) تاريخ سورية للدكتور فليب حتى .

(٢) مع التاريخ للأستاذ على الزين .

الخاصة . وقد عرفت فرنسة أوضاع لبنان على حقيقتها ، فتسللت إلى الداء الذى يشغل القوم عن مطالبهم فى الحرية والوئام والاستقلال ، وكان دأب المحتلين أن يوسعوا نطاق الطائفية ، وأن يتخذوا من العصبية المذهبية والإقليمية أسباباً للتنازع والتنابذ ، وقد تم لهم ما أرادوا ، لكن الوعى القومى فى لبنان وانتشار التعلم بين أهله فى المدن والقرى ، أيقظا الجيل الجديد ، ووضعا أمام الأعين الساهرة والقلوب المؤتلفة خطر المضى فى الطائفية البغيضة ، فتنادى الأحرار والمخلصون إلى الائتلاف والمحبة بين الطوائف ومعالجة هذا الداء الموروث باستئصاله وانتزاع مافى النفوس من ميل إلى هذا التقليد الذميم ، والأمل معقود بشباب لبنان الذى أدرك خطر الطائفية ولمس المساوىء التى تشوب نهضة بلاده من جراء هذا الداء الوبيل .

إن لبنان الأشم الذى شوه المستغلون حقيقته وعبقريته بما غرسوا من بذور الطائفية برىء من هذا الصنيع ، فالمسيحية بمحبتها وفدائها ، والإسلام العادل بروح التساوى والأخوة والتقوى هما الكفيلان بمن يمثلهما للقضاء على الخلاف الطائفى بالمفهوم القومى الصحيح ، والمدلول العلمى الذى يدعو إلى فلسفة تبصر الشعب اللبنانى بحقيقته ، وإن الطائفية تنكرها النقدمية التى عرفها لبنان ، وتأباها مزاياه فى الحرية والحضارة .

ويوم تلغى الطائفية من حياة لبنان ، ويأخذ الجيل الصاعد بروح جديدة بعيدة عن التعصب الطائفى والحزازات ، فإن لبنان يحقق أمل العروبة بما يحمل من رسالة الفكر والمعرفة التى تنشد التحرر والتسامى .

وإذا كان لبنان قد أرادته العصبيات القديمة والاضطهادات السياسية على أن يكون مجمعا للطائفية المبغضة ، فقد ابتلى بتقاليد الإقطاعية التى جاءت بها مصالح الخلفاء من بنى العباس فى العراق والفاطميين والمماليك بمصر ، إذ كانت بعض الجماعات الموالية لهم أو المناوئة المضطهدة تحتل منطقة محددة فى لبنان ، ولا تلبث أن تقوى وتزداد عدداً وجاهاً فتوسع نطاقها على حساب غيرها ، ويمنحها الوالى أو القائد ما تشاء من الأرض التى تريدها ، لقاء ضرائب مفروضة يتسلمها من الفلاحين الذين يسخرهم صاحب الإقطاع لخدمتها .

ولم تكن الإقطاعية مقصورة على المسلمين الذين تلقوا هذا النظام من الولاة

والحكام ، فإن قواد الحملة الصليبية أقروه حين احتلوا الأرض المقدسة ودخلوا سورية ، حتى غدا منهجاً سياسياً لرجال الحكم جيلا بعد جيل.

لقد توزع الإقطاعية كثير من أعيان الطائفية فى لبنان ، وصارت أملاكهم المغتصبة والأرض التى يسكنوها تسمى مقاطعات ، لكن التنازع على النفوذ والزعامة بقى محتدما بين الأعيان والكبراء ، فكانت تقع الفتن بين قوم وقوم أو مقاطعة ومقاطعة ، وما استطاع الحكم العثمانى على تعسفه وطغيانه أن يحول دون الخلاف الموروث ، بل إن السلطان سليما العثمانى بعد إحتلال الشام فاوض أمراء لبنان فيما كانوا فيه من تنابذ وتناحر حتى أظهروا لدولته الولاء ، فثبتهم فى مناصبهم ومنح كبار الإقطاعيين مناطق جديدة ، موافقاً على النظام الذى اتبعوه فى مذاهبهم الإقطاعية ، مما أدى إلى تحول السكان من منطقة إلى أخرى ، وقد دبت الفتنة الدينية بين الطوائف ، إذ تخوف كل فريق من الآخر ، وغدر بعضهم ببعض آخر فكان الخلاف دائما طائفياً وإقليمياً ، لم يمر عام دون وقوع معارك بين السكان وبقى استبداد الأمراء واضطهاد الفقراء والفلاحين عاملا قوياً على تدخل الدول الأجنبية من قناصل المستعمرين ودعاة المبشرين ، وقد اصطنعوا المال والدس فى تغذية الفتن الدينية والمطامع الإقطاعية .

وفى القرن الماضى لم يجد الأمير بشير الشهابى بدأ من اتخاذ الطائفية الإقطاعية وسيلة للمحافظة على حكمه ونفوذه ، ولم يتحرج من الاستعانة بالحكومات الأجنبية لتثبيت قدميه فى إمارة لبنان .

ومما يدل على بعد دهائه ومكره أنه وهو المسيحى[1] كان يخفى عقيدته الدينية مسايرة لكل طائفة والتماساً لولائها ، وكيتاً لوعيها ، وقد روى التاريخ أن هذا الأمير الخطير أمر بمحاكمة ثلاثة اختلفوا فى صحة عقيدته وكانوا درزياً ومسيحيا ومسلماً ، فاعتز كل منهم بأن الأمير من أهل طائفته !

كذلك قدر للبنان أن يعيش بين الطائفية والإقطاعية حتى انتشر التعليم فى مختلف الطبقات ، وتفتح الوعى القومى على مساوىء هذه التقاليد الموروثة ، وقد عدها المخلصون من أكبر العيوب التى تشوه حقيقته ورسالته ، فالقومية السليمة

---

(١) الدكتور حتى فى كتابه تاريخ سورية ص ٦٩٤ .

والديمقراطية السائدة فى لبنان تنكر التحيز الطائفى ، وتأبى الاستقلال الإقطاعى .

ولا بد من يوم قريب ، يزول فيه التعصب الممقوت ، وتحل القومية العربية الخالصة محلها من النفوس والقلوب ، والإحساس بخطر هذه التقاليد والنظم فى النهضة العتيدة يبشر بالرجوع إلى مافيه المصلحة العامة والعمل على حل هذه للمعضلة المزمنة ، فالشعب اللبنانى المتنور مدعو للائتلاف والتصافى والتحرر من كل مايعوق وثبته الراهنة ورسالته الروحية المعهودة .

هجرة اللبنانيين

من طبع اللبناني أنه نزاع للرحلة والأسفار . رائد للرزق تحت كل شمس ، وحب الآفاق الجديدة والبعيدة كان من مغامراته الأولى ، منـــذ أيام الفينيقيين الذين سبقوا العالم إلى اكتشاف الدنيا ، كانوا أوائل العابرين للبحار ، بعد أن صنعوا الفلك الكبير ، وخفقت أعـلامهم فى الهواء الطلق الموّار على ذلك الخضم الأزرق .

فلا عجب اذا نزع اللبنانيون منذ القرن التاسع عشر إلى الهجرة ، ساعين وراء عيشهم يحدوهم حب الحياة والجد ، والأمل فى المـكاسب يلوح لهم خلف البحر فى الديار الأمريكية الشمالية والجنوبية .

لقد بدأت هجرتهم أفواجاً بعد أفواج . وكانت قبيل الحرب العالمية الأولى قد بلغت فى عديدهم الألوف .

وكان الحـكم العثمانى فى لبنان بضغطه وتعنته حافزاً للهجرة ، ولم تـكن يومئذ أمريكا لتضيق على وارديها، بل كانت أبوابها مفتحة لـكل قادم يبتغى فيها الرزق والسعى إلى الحرية .

كانوا فى حاجة إلى المال ، ولولا الاضطرار والطموح لما هاجروا — لـكنهم وقد وجدوا أنفسهم فى بلد غريب الوجه واللسان أكبوا على العمل ، وكافحوا طويلا حتى طاب لهم المقام ، ودرت عليهم الخير الـكثير . وكانت الهجرة قد نمت رغباتها وتعددت فى لبنان ، بعد أن بلغت أخبـار من سبقوا إلى التوفيق فلحق بهم كثير من الرجال والنساء ، ولم يأت منتصف هذا العصر العشرينى حتى كان عدد اللبنانيين فى دار الهجرة قد بلغ الألوف المؤلفة ، موزعين على المدن فى الشمال والجنوب ، مكبين جميعاً على ضروب التجارة والصناعة حتى صار أكثرهم من ذوى الأموال ، والمؤسسات الاقتصادية ، وقد اندمجوا فى الجنسية الأمريكية وحافظ بعضهم على التبعية الأولى .

كانوا مثل طيور السنونو ، هبت جموعها فى أوائل الشتاء ، فراحت نحو الشطوط الدافئة المتنائية . بل زادوا على تلك الطيور تعلقاً بالموطن الجديد

فلم يعودوا إلى القديم ، ذهبوا إلى بلاد لا يعرفون أحوالها وأخبارها معرفة أهلها فتراموا عليها في كل بقعة مشمـرة ، تاركين في لبنان أهليهم وذويهم الذين عاشوا على انتظار عودتهم ، ولم تـكن هجرتهم ممزوجة بالـكره للوطن الذى درجوا فى ربوعه وتنسموا هواءه ، بل ظلوا بأرض لبنان وجبله متعلقين ، وإليه يحنون ، حملوا معهم اللغة العربية التى لا تفنى ، ونصبوا هنالك فى القارتين الأمريكيتين علم هذه اللغة ، فـكانوا فى حفاظهم على العروبة مشبهين لعرب الاندلس الذين لم يقطعوا صلتهم بشرق العرب ، كما يحن الغريب إلى موطنه الأول فينشد أناشيد أهله ، كذلك جعل اللبنانيون فى أمريكا يرددون على الذكرى أغانى الرعاة اللبنانيين ، منشرحين عند المساء وهم ينفخون بالمزامير على سفوح لبنان الدكناء المزدانة بأشجار الصنوبر وقد غناهم شعراؤهم وأدباؤهم النازحون معهم شعراً عربياً جديداً صوروا فيه آمالهم وآلامهم ، وربطوهم بأوثق رباط بالموطن الأول ، فمن يراهم اليوم فى الديار الامريكية وقد رسخوا فى كل بلدة مشهورة بالعمل والمـكاسب يجدهم على الرغم من تمازجهم بالامريكان غرباء فى طباعهم وتقاليدهم ، لهم البيوت الشامخة والاسواق الخاصة ، وقد كثرت هنالك ذراريهم ، أو تزوج بعضهم من بعض ، أو من الامريكيات ، وصار لهم ما للمواطن من حقوق وواجبات ، وظهر فيهم نفر من الادباء الموهوبين ، والشعراء المطبوعين ، لم تلههم التجارة عن قرائحهم وأقلامهم ، فبدا نشاطهم الفـكرى والفنى فى إصدار مجلات أدبية وجرائد سياسية فـكانت مجلة الشرق التى أنشئت لنشر الثقافة العربية فى البرازيل كبرى المجلات السورية واللبنانية فى أمريكا ، تنشر الابحاث الاجتماعية والصور الفنية ، وتعد من رسل الفن والمعرفة فى الشرق والغرب ، ومجلة العصبة الاندلسية أقامت فى المهجر أدباً عربياً حياً ، وكانت صورة للعبقرية اللبنانية والسورية فى ديار الغرب ، والرابطة القلمية جعلت من قلب نيويورك منهلا للأدب العربى وآثاره الباقية ، وغير هذه المؤسسات آثار كثيرة باقية كإنشاء المـكتبات العربية والمنتديات الفـكرية وجمعيات الخير والإحسان ، وقد سموا ذلك بأسماء تحبب إليهم ذكرى الوطن كالنادى الحمصى ، أو الحلبى ، أو البيروتى ، والجمعية اللبنانية أو السورية .

وكان من أثر تلك الهجرة إلى الديار الامريكية تنسم اللبنانيين فيها روح الحرية فى الفـكر والرأى ، فأخذ شعراؤهم وكتابهم وأصحاب الصحف منهم يشيدون بمعانى الحرية ويذكرون ما رسف فيه المواطنون من الاغلال فى ظل العثمانيين

والفرنسيين ، وكان لنبوغ جبران خليل جبران ، وأمين الريحانى وميخائيل نعيمة وإيليا أبو ماضى وأبناء المعلوف ورشيد أيوب وندرة حداد وصوايا وعريضة وصيدح ، انبعاث جديد فى ديار الغرب أكسب العروبة فى الشرق لوناً جديداً من ألوان الأدب العربى وربط المهاجرين بأمهم الشرقية العربية ، كما ربط فى القديم أهل الأندلس بلغتنا العربية وجعل حاضرهم الجديد ذا صلة وثيقة بماضيهم الكبير .

ومنذ نعم اللبنانيون والسوريون فى الشرق باستقلال تام ، أخذ الحنين يدعو قلوب المهاجرين إلى زيارة الوطن فى زورة كبرى دعا إليها السوريون واللبنانيون وأسهمت فيها الحكومتان ، فجاءت وفود أولئك المغتربين إلى الموطن الأول ، ورآهم أهلوهم ، وتعرفت بهم الاجيال المتتابعة ، فأقيمت لهم الحفول ، وكانت زورتهم هذه طفرة لشعور الفرح الذى ملأ القلوب ، وكان هؤلاء النازحون إذا أصاب بلادهم فى الشرق نكبة أو كارثة تنادوا للغوث والمعونة ، ولم يقطعوا ما بينهم وبينه بترادف السنين ، إلا أن الأجيال التى نشأت فى أمريكا وغيرها من بلاد الهجرة لم يعرف أغلبها العربية ، وقد شوهد من هذه الأجيال جماعات جاءوا مع أهليهم إلى بلادهم وقراهم ، لا يعرفون العربية ، مما دعا أولى الفكر والحكم فى سورية ومصر ولبنان لكى يجدوا وسيلة لرد أولئك الحفدة والأبناء إلى لغة الآباء والجدود وإلى دنيا العروبة التى ترجو أن لا يقطع هؤلاء صلتهم ببلادهم ، وليس مثل اللغة رابطة تربط الاقوام والبلاد قريبة أم بعيدة . وقديما حافظ اللبنانيون على لغتهم فما على النازحين منهم إلا أن يعملوا على تعليم أبنائهم وبناتهم لغتهم الأولى التى تصون أصولهم ، وتردهم إلى مواطن الاجداد مهما تناءت الديار وحالت الاسباب .

ولم تكن هجرة اللبنانيين من الساحل والجبل ، أو من المدينة والقرية مقصورة على الامريكيين ، فقد مضى كثير منهم إلى أفريقيا سعيا وراء الرزق ، وهنالك تحققت آمال الكادحين والطامحين ، فأسسوا المتاجر وشاركوا فى الحياة الاقتصادية ولم ينسوا بلادهم وأهلهم فى الوطن الأول ، فكانوا على صلة روحية مستجيبين لكل هزة فيه ، يمـــدونه بكل ما يتطلب الواجب القومى من عون مادى ومعنوى .

وكما انطلق السورى إلى مصر لاجئا سياسياً أو ساعيا إلى المعيشة فى أفقها الرحيب ، فإن اللبنانى قد مضى إلى البلاد المصرية والسودانية يلتمس الرزق والحرية . وقد أسس فيها المتاجر والمصانع ، وشارك فى الحياة الفكرية وبعث الوعى والثقافة ، وكثير من اللبنانيين المتعلمين دخلوا موظفين فى الحكومة أيام النفوذ الأجنبى ، وذوو المال أسهموا فى الحياة الاقتصادية بمصر كالسوريين ولا بدع فمصر منذ القرن الماضى فتحت أبوابها لكثير من الأجانب والشرقيين الذين هاجروا من بلادهم لأسباب سياسية أو علمية أو شخصية ، وقد فضلوا البقاء بمصر ، إذ وجدوا فى حماها مايبتغون وما يرتجون ، على أن جولة فى أسواق مصر والسودان ، وفى ندوات الفن والثقافة ، وجماعات التجارة والصناعة تريك أثر الهجرة التى نقلت اللبنانى من موطنه الاول إلى موطنه الثانى الذى تمصر فيه وأصبح فى عداد أهليه .

وكانت الرحلة والبحث عن الرزق أينما كان من طباع اللبنانيين ، فلا غرو إذا تنقلوا فى الآفاق وطاب لهم المقام حيث يتيسر الارتزاق وتتفتح المواهب ويكون التقدير والتجاوب .

لبنان الثقافى

للبنان منذ كان رسالة ثقافية حملها أهله رجالا ونساءاً وقد عرفوا بها ، وكانت رسالته على الدوام أكبر من بقعته ، لأن هذا الشعب الذى عاش فيها أو انبثق منها تمازجت حياته بالثقافة الفكرية والاجتماعية ، فكان بطبعه وميله ممثلا لها ودالا عليها ، فهو من الطبيعة ومن التاريخ متصل الفكر والروح ، بل هو صلة وصل بين الشرق والغرب ، ومنذ القديم وساحل لبنان على الأبيض المتوسط يتلقى الكثير من ثقافة الشعوب والأمم وبخاصة الفرنسية[١] ، فيأخذ منها مايستسيغ مزاجه ويلائم طبيعته ، ولم تنحصر يوماً رسالته ضمن كيانه السياسى وحجمه المحدد ، فقد حملها إلى المشرق والمغرب فريق من أبنائه ، عاشوا فيها وعلموها للناس

ومنذ انتصف القرن التاسع عشر ظهرت الثقافة بمدلول هذا العصر ومفهومه فى أرجاء لبنان إذ شاعت الطباعة ، وأنشئت الصحف والمجلات ، لتثقيف العقول والأرواح ، وأسست المدارس فى المدن والقرى لتعليم الناشئة وتهذيبها ، وكان للجمعيات الخيرية والأدبية فضل كبير فى إنشاء المؤسسات الثقافية التى هيأت الأجيال للوعى والمعرفة والتحرر ، فانطبع اللبنانيون على حب العلم والأدب لما فى نفوسهم من ميل إليهما .

وكان لانتشار الطباعة والصحافة أثر بعيد فى شيوع الثقافة الفكرية بلبنان فأول[٢] مطبعة عربية أسست باسم « حديقة الأخبار » . فلبنان إذن كان أسبق البلاد العربية إلى العناية بالثقافة وتحقيقها للشعب بمختلف الوسائل التى اتخذها أبناء البلاد أنفسهم ، وهم فى رعاية الحكم العثمانى ، ثم فى أيام الانتداب الفرنسى. وكل نهضة ثقافية فى بلاد غير لبنان قامت بها الحكومات إلا لبنان[٣] ، حتى إذا ضاقت

---

(١) تأثر اللبنانيون بالثقافة الفرنسية ونبغ منهم من أجاد الشعر والنثر بلغتها .

(٢) أسس الرهبان الموارنة عام ١٦١٠ فى دير قزحيا مطبعة ذات حروف سريانية .

(٣) إن المؤسسات الثقافية الخاصة فى لبنان قد سبقت إلى الوجود وأربت على ما أنشأت الحكومات المتعاقبة .

هذه البلاد بمن أنبتت من العلماء والادباء انطلقوا إلى آفاق جديدة كمصر وأمريكا فنشروا فى كل أرض نزلوها ثقافتهم وآدابهم ، وأنشأوا صحفاً ومعاهد ، كشفت عن مواهبهم ونبوغهم .

كان للإرساليات الأجنبية المختلفة الاهداف مشاركة كبرى فى نشر التعليم والثقافة الغربية . وإن يكن أكثرها جاء لخدمة التبشير والاستعمار ، لقد انتشرت مدارس الإرساليات فى المدن والقرى منذ القرن الماضى . وفى العام ١٨٦٦ أسست الكلية الانجيلية السورية التى ستصبح الجامعة الامريكية . وبعد تسع سنوات أنشأت الإرسالية اليسوعية جامعة القديس يوسف ، ودب التنافس بين الجامعتين فى تأدية الرسالة العلمية والادبية وتأليف الكتب المدرسية والمنشورات الثقافية والجمعيات الفكرية .

وعلى مرور الايام والأعوام أصبح فى بيروت وحدها عاصمة لبنان أكثر من مئة مدرسة خاصة تتعهدها الجماعات أو الأفراد بالإدارة والتوجيه ، وكان الفقير كالغنى سواء فى الإقبال على العلم والثقافة حتى قلت الامية ، وهى فى لبنان أقل منها فى أى بلد عربى آخر ، ولا تكاد تزيد على العشرة فى المائة . والمأمول بعد شيوع الثقافة فى مختلف الطبقات وتحرير الأفكار والعقول أن يؤدى زوال الأمية إلى تفاهم روحى وقومى منشود ، فتخف حدة الطائفية ويزداد شعور لبنان بما تقتضى رسالته الثقافية للعالم العربى من تعاون وائتلاف .

وقيام الشعب اللبنانى بحمل الرسالة الثقافية ليس بالأمر الهين ، فقد تولت الجماعات نشر التعليم أكثر مما تولت الحكومات فى عهد الانتداب أو الاستقلال .

وجدير بالذكر فضل جمعية إسلامية كان لها السبق فى إنشاء مدارس عديدة للبنين والبنات فى بيروت وبعض القرى ، وهذه الجمعية هى المقاصد الخيرية التى أسست عام ١٨٨٠ فأحسنت كل الاحسان فيما قدمت للثقافة العربية من مؤسسات سليمة المناهج ، عصرية الروح ، إسلامية الوجهة .

وفى صيداء وطرابلس جمعيات إسلامية خيرية تتعهد الثقافة بتوجيه ملحوظ وتلقى كثيراً من العناية والمعونة الأدبية من جامعات مصر .

ويضيق المجال عن تعداد المؤسسات الثقافية التى تخدم العروبة واللغة وتؤدى إلى لبنان والعالم العربى خدمة مرموقة وصيتاً حميداً .

وكما اخترع أوائل اللبنانيين الأبجدية ونشروها فى الشرق البعيد لتكون أداة الثقافة العقلية والتعارف الفكرى ، فإن لبنان بنوابغه الأفذاذ يريد أن يبقى على الدوام حاملا مشعل الثقافة ، فمن مدرسة الحقوق فى بيروت التى ازدهرت فى الأجيال الأولى بعد المسيح على عهد البيزنطيين إلى الفتح العربى وظهور الإسلام وذكر لبنان قد بقى مقروناً بأسماء العلماء والأئمة من الفقهاء والمفكرين يعملون على نشر الثقافة الدينية والمدنية فى أزهى العصور .

ولقد تنوعت هذه الثقافة بتنوع السكان والوافدين ، ولكل منهم أدب وشريعة ومعرفة تألقت فى لبنان وتمازجت بما فيه ثم انبثقت منه وشاعت فى البلاد .

ولم ينفرد الرجال بلبنان فى الثقافة على اختلاف ألوانها ، فإن المرأة اللبنانية ذات أثر كبير فى نشر الثقافة النسوية والفنية ، وفضل المرأة فى التعليم والتثقيف مذكور ومرموق منذ كان التعليم فى الكتاتيب وتحت السنديانة وفى أديار الراهبات إلى أن أصبح فى المدارس والجامعات .

سيبقى لبنان حاملا رسالته الثقافية مادام أهله يعيشون هذه الثقافة ويجعلونها من أسباب الرقى والحضارة فى البيت والمجتمع .

لبنان الصحافى

عرف لبنان الصحافة منذ عرف الطباعة العربية ، وهو أول بلد عربى فى الشرق أسس المطبعة لنشر الكتب الدينية أولا ثم الصحف العلمية والتاريخية ، ولقد كانت فى بادىء الأمر حجرية ذات أدوات خشبية ، ثم استبدلت بالمعدنية ، وللاجانب من الأمريكان مشاركة وسبق إلى إنشاء المطابع فى لبنان حتى أسس أحد أبنائه خليل الخورى عام ١٨٥٨ مطبعة فى بيروت لطبع جريدته « حديقة الأخبار » .

ومن ذلك التاريخ عرف لبنان الصحافة لا بمعناها الحديث ، بل لخدمة الثقافة الفكرية والوعى الذى تفتح فى الأخبار على حب المعرفة واقتباس الجديد .

كانت الصحافة فى أول أمرها تعنى بنشر الأوراق الحكومية ، ثم تمثلت فى الصحف والمجلات التى أنشئت لنشر الخطب والمقالات والأشعار التى كانت تلقى فى المدارس والمجتمعات ، وكان للرعيل الأول من نوابغ لبنان فى القرن التاسع عشر كالبستانى وسركيس واليازجى والقبانى ، أثر كبير فى الوعى الصحافى وإعداد الجيل لهذه الرسالة التى اتجه إليها كثير من حملة الأقلام فى لبنان . ولم يكن فيهم من لا يتقن العربية ، فكانت صحفهم صوراً للعصر الذى عاشوا فيه ، متفانين فى حب اللغة والتبحر فى أدبها وعلومها ، ولما دب الوعى القومى والسياسى ، وأخذت الصحافة فى تنبيه الافكار ضاق الحكم التركى بأحرار لبنان ومفكريه ، فاضطروا إلى الهجرة من ربوعه إلى مصر وغيرها من البلاد الغربية والأمريكية .

وتقبل العالم الجديد ألوف النازحين من اللبنانيين ، حملوا إليه عدتهم من الذكاء والنشاط والجد ، وكان لهم من لغتهم وعاداتهم ومن حنينهم إلى الوطن ما يخفف عنهم ألم الاغتراب ، وهناك بعد أن استقر مقامهم وتوافر رزقهم أسسوا الصحف والمجلات العربية لتعبر عن إحساسهم نحو بلادهم وتصور مجهودهم للمعيشة والحياة العامة ، فكانت صلة الوصل بينهم وبين أوطانهم الأولى التى أرادوا لهم التحرر من السيطرة العثمانية ، ومن عجب أن تتفتح مواهبهم وهم فى ديار الغربة والكفاح فنشرت أقلامهم روائع من الشعر والنثر أعادت إلى الخواطر ماجادت به قرائح العرب فى الأندلس حين فتحها المسلمون .

واستطاعت الصحافة اللبنانية التى أنشأها المهاجرون إلى الأمريكتين الشمالية والجنوبية أن تثبت فضل العربية ومحافظة أبنائها على لغتهم أينما كانوا ، فما طغت عليها لغة المهجر ، ولا حال الكفاح اليومى دون التغنى بها والتعبير عن آلامهم وآمالهم فى الحياة .

لقد كان الباعث على هجرة العدد الضخم من اللبنانيين إلى العالم الجديد شيوع الاستبداد والطغيان فى أعقاب الحكم التركى . وقد فتحت الثقافة الأعين والبصائر على نير الظلم والحرمان ، فانطلقوا إلى العالم الجديد يحملون العزيمة والأمل والطموح وهنالك تلقاهم تمثال الحرية الجاثم على باب هذا العالم ، فأخذتهم هزة وغبطة . ولما رأى التمثال (أمين الريحانى) النابغة اللبنانى حاور المعنى الذى يمثله فقال(١):

« متى تحولين وجهك نحو الشرق ، أيتها الحرية ، أيتأتى أن يرى المستقبل تمثالا للحرية بجانب الأهرام ؟

أيمكن أن نرى لك مثيلا فى بحر الروم ؟ أيتها الحرية متى تدورين مع البدر حول الأرض لتنيرى ظلمات الشعوب المقيدة والأمم المستعبدة » .

هذا الحوار وأمثاله من المهاجرين إلى أمريكا كان يدل على ظمأ اللبنانيين إلى الحرية بعد أن عانوا كثيراً من مظالم الحكام ، وضيق العيش ، وضياع الرجاء . فلما حلوا بأرض المهجر لم تغلب عليهم الأثرة وقد نعموا بطيب المقام ووفرة الرزق ، بل سارع حملة الأقلام منهم إلى إنشاء الصحف والمجلات لتبقى على الدوام أقوى الروابط الفكرية والروحية بينهم وبين البلاد التى غادروها مضطرين .

وكأن حرفة الصحافة فى لحم اللبنانى ودمه ، فهو يتقنها ويعرف مداخلها ومخارجها أينما كان ، ومن أوائل المنشئين لهذه الحرفة فى أمريكا الدكتور ابراهيم ونجيب عربيلى ، فإن جريدتهما(٢) « كوكب أمريكا » ظهرت عام ١٨٩٢ ، وبعدها بأعوام قليلة برزت بقية الصحف وأشهرها « الهدى » و « السائح » و « الفنون » و « مرآة الغرب » و « السمير » .

وجدير بالذكر أن هذه الصحافة التى اتخذها أصحابها فى المهجر للتعبير عن شعورهم ومواهبهم كانت تقوم على الأدب ، كما صنعت الصحافة فى لبنان أول أمرها

---

(١) الريحانيات ج ١ ص ٥٩ .

(٢) تاريخ الصحافة العربية لطرازى ج ٤ ص ٤٠٦ .

فقد اتجهت لخدمة الثقافة أكثر مما اتجهت بادى الرأى لخدمة السياسة ، وهذا سر نجاحها فى الوطن والمهجر .

ومن الصحافيين المهاجرين شعراء وأدباء أدوا إلى العروبة واللغة أضعاف ما أدى المقيمون من جهد وآثار ، وكانت دعوتهم من وراء البحار إلى الائتلاف ونبذ الحزازات فى الوطن صارخة متجاوبة . وقد أدركوا أكثر من غيرهم أثر التعصب الطائفى فى أوطانهم الأولى ، فأعلنوا مقتهم لهذا التعصب الذى وزع الكلمة والوحدة وأوقع لبنان فى تهمة الحيرة والتعنت والتماس الحماية عن يستغل فيه هذا التردد والحسبان .

وكما هاجر أحرار الفكر من لبنان إلى الامريكتين هروباً من الاستبداد والطغيان ، فقد لجأ كثير منهم إلى وادى النيل فى أعقاب القرن التاسع عشر فى مستهل العصر الحاضر ، ولما هبت على مصر ريح الثقافة والحرية ، ولم تبق فى معزل عن أسباب المعرفة والحضارة الحديثة ، طلع هـذا القرن ببوادر اليقظة القومية والفكرية ، وكان للبعثات العلمية إلى الغرب فضل فى شيوع الطباعة وتأليف الكتب المدرسية ، وقد تولت الدولة أمر البعث والنهضة فأنشئت الصحف والمجلات لتكون أنواراً للمستهدين ، ومدارس سيارة للقراء تفتح الأعين وتشيع اليقظة فى البلاد ، فوجد حملة الأقلام والمواهب فى وادى النيل مجالا وسيعاً للتعبير والارتزاق ، وشاركوا فى حركة البعث والتحرير ، وقد لمعت أسماؤهم بالصحافة التى أسسوها أو التى شاركوا فيها . ولم يلبثوا أن أنشأوا دوراً للطباعة والصحف فى القاهرة والاسكندرية والسودان ، ومؤرخ الصحافة المصرية لا يستطيع أن يغفل عن ذكر الصحافيين اللبنانيين وما أسدى أفاضلهم لهذه الحرفة التى يجرى حبها فى دمهم من خير وإتقان .

ولا يتسع المجال لذكر هؤلاء الذين يعد بعضهم معلمين ومؤسسين لصحف كبرى خدمت الثقافة فى مصر والحركة الفكرية ، سواء المحتجبة أو التى طالت أعمارها ، وبعدت آثارها وقامت برسالة الصحافة خير قيام .

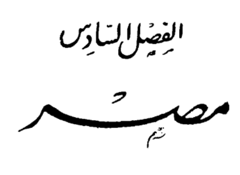
ولبنان الصحافى أعجوبة بانطباع أهله على حب الصحافة ، ولا تجد بلداً عربياً مثل لبنان فى إقباله على قراءة الصحف مما دعا إلى انتشارها وازدياد عددها ، ففى بيروت وحدها أكثر من أربعين جريدة ومجلة . يعالج أكثرها قضايا الوطن

والعالم العربي ، والصحافة اللبنانية لا تقتصر رسالتها على من حولها ، فهي يقظة دائبة وجل أصحابها ممن تلقوا ثقافة شاملة ، واتصلوا بحياتها عن طبع وموهبة ووراثة ، لكن بعض الأقلام تتجاذبها التيارات الأجنبية والعربية .

وفي المرأة اللبنانية ميل إلى الصحافة قديم أسوة بالرجل ، فأول صحيفة نسائية في العالم العربي أنشأتها (هند نوفل) عام ١٨٩٢ بالاسكندرية واسمها « الفتاة » ، وتلتها كثير من الصحافيات في إنشاء الصحف والمجلات وإدارتها سواء في الوطن اللبناني أو بمصر وأمريكا والبرازيل ، حتى في عاصمة الفرنسيين استطاعت صحافية لبنانية أن تنشىء مجلتها « الحياة الجديدة » قبل أن تنقلها إلى بيروت .

ومؤرخ هذه الصحافة يذكر بالفخر إقدام أديبات من لبنان تمرسن بهذه الحرفة مشاركة للرجل في أداء رسالتها ، ورغبة في تعزيز النهضة النسوية التي سبقت غيرها في لبنان ، حتى جاء وقت كان عدد مجلاتهن عشرة في بيروت وزحلة والشويفات . ولو أعدت النظر فيها لوجدتها قد سبقت الزمن في التطور والتجديد والاتقان ، ومن عجب أن تقوم بها أفراد أنفقن عليها من مالهن الخاص حتى توقفت عن الصدور .

الفصل السادس



للدكتور أحمد عزت عبد الكريم

موضوعات الفصل

عجز النظام العثمانى المملوكى — تشتت السلطان — هدم النظام القديم — رسالة مصر فى القرن التاسع عشر وما بعده — معرقلات النهضة — بناء الدولة الحديثة — بناء الأمة المصرية — تطور الاقتصاد المصرى — النهضة العلمية — النهضة السياسية — تسوية ١٨٤٠ / ١٨٤١ وأثرها فى مستقبل مصر السياسى — جهود مصر لتجنب غوائل النفوذ الأوروبى — ثورة ١٩٥٢ .

في أواخر القرن الثامن عشر أثبت النظام العثماني المملوكي عجزه عن تحقيق الخير والحكم الصالح للمصريين ، كما أثبت عجزه عن الدفاع عن بلادهم عندما دهمها الغزو الفرنسي في سنة ١٧٩٨ . وقد أظهرت حوادث حملة بونابرت ، كما أثبتت الأحداث التي مرت بها مصر وعاناها المصريون بين سنتي ١٨٠١ و ١٨٠٥ ، أنه لن يكون لمصر أمل في الخلاص من هذا الفساد ، أو حظ من رقي ، إلا بتحطيم هذا النظام الذي رزحت مصر تحت وطأته منذ فتحها الأتراك العثمانيون في أوائل القرن السادس عشر ، ووضحت مفاسده منذ منتصف القرن الثامن عشر . وهكذا أصبح انهيار النظام العثماني المملوكي مقدمة لا مندوحة عنها لنهضة مصر في القرن التاسع عشر وما بعده .

والحق أن النظام العثماني المملوكي كان قد أضعف نفسه وأنهك قواه نتيجة لما صحبه من سرف وعبث وتضييع للقوى وإهمال لموارد الثروة في البلاد ، واعتبار أهلها أدوات لابتزاز وإثراء الحاكمين ، وعجز عن مجاراة الغرب وأهل الغرب في نهضتهم العسكرية والفكرية والاقتصادية ، فقد قامت فلسفة العثمانيين في حكم الولايات التابعة لهم حتى القرن التاسع عشر ـ ومنها مصر ـ على أن تتخفف الدولة بقدر ما تستطيع من اعباء الحكم المباشر ، فتترك الرعية يدبرون شئونهم بأنفسهم طالما ظلوا على ولائهم لها . فإذا احتاجوا ـ مثلا ـ إلى شيء من تعليم التمسوه عند بعض من يحسنونه أو قد لا يحسنونه ، وإذا استبد بهم داء التمسوا له الطب عند بعض العارفين أو الجاهلين ، وأمور الزراعة يدبرها أهل الفلاحة مع ملتزميهم ، وأمور الصناعة تجري على ما يرسم أهل الحرف في طوائفهم ، والتعليم في الأزهر والمساجد يسير على مألوف ما اعتاده العلماء والمجاورون من الطلاب . يجري هذا كله دون أن تتدخل الدولة لترسم سياسة معينة لشئون الزراعة أو الصناعة أو التعليم أو التطبيب إلى غير ذلك مما تنهض به الدولة الحديثة . والدولة قانعة ببقاء كلمة السلطان تجري في مصر واسمه يذكر على منابرها مقرونا بالدعاء له بالعز والتأييد ، وباسمه تنفذ الأحكام في مصر وتجري الحدود ، ونائبه قائم في قلعة الجبل يستبد بالناس أو يستبد به القادرون من أصحاب القوة والنفوذ ، وإلى خزانتـــه في القسطنطينية تحمل

فوائض الأموال فى كل عام . أما فيما عدا ذلك من شئون الحكم فالأمر متروك لأصحاب السلطان من الأجناد والأمراء يدبرونه بالاتفاق فيما بينهم حينا ، أو بالتنازع ووثوب بعضهم على بعض أحياناً ، على نحو ما عرفته مصر العثمانية منذ منتصف القرن الثامن عشر خاصة ، على أن أصحاب السلطان من الأجناد أو الأمراء قد تركوا لكل طائفة من الناس أن تقوم على تنظيم شئونها وتدبير أمورها وفقاً لتقاليدها ونظمها .

قد يكون لهذا الأسلوب فى الحكم مزاياه ، والحق أنه وفر للمصريين — منتظمين فى طوائف وهيئات — قدراً كبيراً من الحرية وحفظ لهم المقومات الأساسية التى قامت عليها قوميتهم من لغة وثقافة عربية . وهكذا عاش المصريون تحت الحكم العثمانى ثلاثة قرون ، بقى فى خلالها بناء القومية المصرية العربية سليما ، حتى كان القرن التاسع عشر فظهرت ملامح هذه القومية واضحة كل الوضوح وكانت من أقوى دعائم النهضة المصرية الحديثة .

ولكن هذا الأسلوب فى الحكم — فى الوقت نفسه — قد أدى إلى إهمال مرافق البلاد إهمالا شائنا ، وذلك لعدم وجود سياسة عامة ترسمها الدولة وتقوم إداراتها على موالاة تنفيذها . إذ أن هذا الأسلوب فى الحكم قد انعكس على وظيفة الحكومة وشكلها ، فانحصرت وظيفة الحكومة فى أضيق نطاق : الدفاع عن البلاد إذا هددت بغزو ، وإقامة الحدود بين الناس وجباية الأموال ، كما انحصر تشكيلها فى أضيق نطاق ، فلا دواوين — إلا ديوان الباشا — ولا إدارات — إلا إدارة الروزنامة — ولا مصالح فى العاصمة والأقاليم على نحو ما تصطنعه الدولة الحديثة لتدبير شئون الحكم .

واستتبع هذا الأسلوب فى الحكم أن السلطة العامة — سلطة الدولة — قد تفتتت ، وانفسح المجال للعنف والتعصب والاستبداد ، فتحولت سلطات الدولة إلى عصبيات — بل عصابات — مسلحة ، تسعى كل منها إلى أن تقوى على حساب غيرها للاستئثار بأقصى ما تستطيع الاستئثار به من سلطان وجاه ومال ، من عصبيات مملوكية إلى زعامات بدوية ، إلى عصابات لبعض الملتزمين فى الأقاليم ، بل إن أى فرد عادى كانت تواتيه الثروة أو الحظ فيستجمع لنفسه بعض القوة

أو العصبة كان لا يتوانى عن استخدام قوته أو عصبته للاستبداد بمن (دونه) من الناس ، والأمثلة لذلك فى تاريخ الجبرتى تجل عن الحصر .

كان لا بد إذن من أن ينظم المجتمع المصرى نفسه لمواجهة هذه الحالة ، وذلك بأن ينتظم الناس فى طوائف وهيئات ، ليكونوا بذلك أقدر على تدبير أمورهم والدفاع عن مصالحهم ، فأهل الفلاحة يهيمن عليهم نظام الالتزام ، والمشتغلون بالصناعات فى المدن منتظمون فى طوائف الحرف ، وأهل العلم من العلماء والجاورين يكونون طائفة لها اعتبارها وكيانها ، والمتصوفة وأرباب الأشاير لهم طرقهم ، والأجناد منتظمون فى أوجاقاتهم أو تابعون لأمرائهم وسادتهم ، والأعراب والبدو منتمون إلى عشائر معروفة ، والحكومة لا تتصل بأحد من هؤلاء إلا عن طريق طائفته ، فهى لا تعرف الفرد إلا مندرجا فى طائفة ، والفرد لا يستطيع أن يمارس نشاطه كله ويضطرب فى الحياة آمنا إلا إذا كان منتمياً لطائفة يخضع لنظمها ويحتمى بظلها . وهكذا توزعت الأمة — ولفظ الأمة تعبير حديث من مصطلحات عصر النهضة (القرن التاسع عشر) — توزعت الأمة بين طوائف مختلفة ، لكل طائفة كيانها وتقاليدها وزعامتها ، وهى تأخذ المنتمين إليها بفنون من التنظيم والتأديب والتهذيب ، كان لا بد منها فى عصر انكمشت فيه وظيفة الدولة وتفتت سلطانها وعزت حماية الفرد .

ولم يكن من اليسير أن يتحول فرد من طائفته إلى طائفة أخرى ، فقد جرت العادة أن ينشأ ابن الفلاح فلاحا وابن الصانع صانعاً ، وابن العالم عالما ، وليس ثمة ما يدعو ابن الريف — وحاجته من الرزق على ما يقدر مكفولة — إلى أن يهجر قريته إلى المدينة ، فليس فى المدينة إذ ذاك مايغريه بذلك ، والفلاح المصرى أو ابن المدينة لا يستطيع أن يستحيل جنديا أو مملوكا أو أعرابياً .

هذا إلى صعوبة المواصلات بين أجزاء الوطن الواحد ، مما جعل السفر قطعة من العذاب كما كانوا يقولون ، فانكمشت الصلات بين الناس ، وانحصر التبادل التجارى الداخلى فى حدود ضيقة فانقسم القطر إلى وحدات اقتصادية شتى ، تكاد كل واحدة منها تكتفى نفسها بنفسها ، حتى لا تضطر إلى الاعتماد على ما يرد إليها من خارجها .

ولم يقتصر الأمر على ضيق الاتصال (المادى) بين الناس ، ولكنه تعداه إلى ضيق الاتصال الروحي والفكري ، وذلك لفقدان الأسباب والأدوات التي من شأنها تقريب الناس بعضهم إلى بعض وتكوين الرأى العام وصهر أبناء الطوائف المختلفة في بوتقة واحدة . هي القومية المشتركة ، كالمدارس العامة ذات المناهج الواحدة والجيش الوطني الذي يلتحق به المجندون من أبناء البلاد على اختلاف منازلهم وطوائفهم ، فضلا عن الصحيفة المتداولة والكتاب المنشور ، ثم الاذاعة والسينما . وغيرها من الأدوات التي يسرت أسباب الاتصال الروحي بين المصريين ، وكلها في مصر من (مبتكرات) القرن التاسع عشر وما بعده .

وقد عاشت مصر طوال هذه القرون الثلاثة (بين القرن السادس عشر والتاسع عشر) دون أن تتعرض لأحداث خطيرة عامة كغزو خارجي ، أو نكبة عامة ، من شأنها أن تثير بين الناس الاهتمام العام وتحفزهم إلى التفكير المشترك والعمل المشترك لمواجهة الحدث الخطير . وهذا كله من أقوى العوامل في بناء الرأي العام والقومية الواحدة . وليس شيء من هذا في هذه القرون الثلاثة التي لم يشهد فيها المصريون إلا أحداثا (محلية) ، لم يكن شأنها — مهما بلغ بعضها من العنف — أن تثير الاهتمام العام بين المصريين قاطبة ، وبقيت كل طائفة أو أهل الاقليم الواحد ، أو المدينة الواحدة أو حتى الحي الواحد من المدينة ، بقيت كل (وحدة) تواجه ماينزل بها أو تتعرض له بوسائلها الخاصة ، لا يتجاوز محيط اهتمامها الدائرة الضيقة التي تعيش فيها .

ولا شك في أن ضعف الصلات بين مصر والعالم الخارجي نتيجة لطبيعة العلاقات بين العالم العثماني وأوربا وظروف أخرى سبق الحديث عنها في فصل سابق(١) قد منع عن مصر وغيرها من الأقطار العربية التيارات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية التي كانت تشع من الغرب ، وبذلك ظل المجتمع المصري على ركوده وجموده ، وضاع على مصر — في هذه القرون الثلاثة — ثمرة الافادة من موقعها الجغرافي . حتى إذا بدأ شيء من الصلة بين مصر والعالم الخارجي ينعقد في النصف الثاني من القرن الثامن عشر — نتيجة لمشروعات إحياء الطريق المصري للتجارة والنقل بين الشرق والغرب — نهض

---

(١) انظر الفصل الخاص بالعلاقات بين الشرق العربي وأوربا بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر .

السلاطين العثمانيون يقاومونها ،خشية أن تقع مصر — وقدفتحت أبوابها للغرب— فى أيدى الطامعين . ولكن سياسة العزلة والانقطاع التى عمل السلاطين على فرضها على مصر لم تفد فى تجنيب مصر ويلات الغزو الفرنسى فى سنة ١٧٩٨ ، بل إنها بما أشاعت فى مصر من جهل بحقيقة الأوضاع والقوى العالمية — يسرت لهذا الغزو طريق النصر .

وقد انعكس هـذا كله على أوضاع مصر الاقتصادية قبل القرن التاسع عشر: فالاقتصاد المصرى يكاد يكون اقتصاداً محلياً ، لا تربطه صلة قوية بالاقتصاد العالمى لا يتأثر به ولا يؤثر فيه ، ذلك لأنه يعتمد قبل كل شىء على الزراعة، وعلى أنواع معينة من الزروع ، هى اللازمة للاستكفاء المحلى وأكثرها للغذاء ، ولا يبقى منها فائض كبير يصلح للتصدير ، بل إن مصر نفسها كادت تنقسم إلى وحدات اقتصادية يكاد يعتمد كل منها فى حياتها على نفسها ، لحركة التبادل بين هـذه الوحدات تتم فى أضيق الحدود ، والفكرة الأساسية أن أهل القرية الواحدة أو الاقليم الواحد عليهم أن يعتمدوا فى تدبير معاشهم على ما ينتجونه هم . فكان لا بد إذن - والأرض هى المصدر الأول ، ويكاد يكون الأوحد — للرزق فى مصر أن تخضع انظام معين ، فامتنع فيها التداول الحر ، حتى لا ينتهى الأمر بأن تحتكرها طائفة من الناس دون سائر النـاس ، وتتخذ منها أداة للحجر على الأرزاق، بل إن الأرض أصبحت مثقلة بالأعباء المختلفة . وتجارة مصر الخارجية منكمشة والصناعات منزلية ، وهـــذا كله أدى إلى قلة النقد المتداول ، وإلى ضعف التمويل ، وانعدام الاستثمار وقلة الحافز إلى التغيير ، وضعف الهمة ، حتى أصبح الويل كل الويل لمن تلحقه مظنة الغنى من الناس ، وليس من وراء هـــذا كله أى سياسة اقتصادية ترسمها الحكومة وتقوم على تنفيذها ،بل الأمر متروك للنـاس يدبرونه على نحو ما اعتادوا أن يدبروه ، ولا نتيجة لهذا إلا الركود والجمود . وتبديد الموارد وضعف الحماية .

على أن من الخطأ أن يستنتج أحد من هذا الوصف للمجتمع المصرى قبل القرن التاسع عشر أنه كان مجتمعاً منحلا ، على العكس من ذلك كان انتماء الناس فى القرى أو المدن إلى طوائف وهيئات قوية الكيان والتقاليد من أهم العوامل لإشاعة حياة اجتماعية بينها زاخرة بألوان من النشاط، فتوثقت الصلات الاجتماعية بين النـاس

حتى كانوا أشبه مايكونون بخلايا من الأسر يتضامن أفرادها فى السراء والضراء ويعطف بعضهم على بعض ، وينهضون جميعاً لمواجهة أى حدث يحل بهم ، على نحو ما شهدنا فى ريفنا المصرى إلى عهد ليس ببعيد مما كان يعطى للحياة المصرية طعما خاصا لا يعرفه أهل الجيل الحاضر .

* * *

هذه أوضاع مصر فى ظل النظام العثمانى المملوكى : تشتت السلطة العامة ، استبداد العصبيات والزعامات ، ركود المجتمع ، جمود الاقتصاد ، فتور الصلات بالعالم الخارجى . وكان انهيار النظام العثمانى المملوكى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر إيذانا بدخول مصر فى مرحلة جديدة من تاريخها اتسمت ببناء الدولة المصرية وإعادة بناء المجتمع المصرى والاقتصاد المصرى على أسس جديدة وعودة الصلات بالعالم الخارجى ، وهذا كله يشكل مقومات النهضة المصرية الحديثة .

* * *

وقد بدأ انهيار النظام العثمانى المملوكى فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر ، سنوات الحرب النابليونية ، والحق أن حملة بونابرت على مصر (١٧٩٨ — ١٨٠١) قد مهدت للقضاء على هذا النظام بأضعاف عنصريه الأساسيين : السيطرة العثمانية والاستبداد المملوكى ، وقد مضى على المصريين حين من الدهر لا يرقى إليهم شك فى قوة السلطنة العثمانية والأمراء وقدرتهم على حماية بلادهم ، فإذا بهم يرون مدافع الفرنسيين — أبناء الثورة الفرنسية — وقد عصفت بهم عصفا ، فمزقت أعلامهم ودكت معاقلهم وشتتت فرسانهم ، وهكذا تسرب الشك إلى نفوس المصريين فى قوة النظام الذى خضعوا له قرونا وقدرة القوامين عليه على حمايتهم ، وبدءوا يفقدون إيمانهم به . ولقد كانت غزوة بونابرت لمصر فى أواخر القرن الثامن عشر أول غزوة « أجنبية » تعرضت لها مصر منذ أيام الحروب الصليبية ، فكانت بمثابة انفجار كبير ، دوى فى أسماع المصريين جميعا ، وفى ظل المقاومة الوطنية تقاربت طوائف المجتمع المصرى من أهل الفلاحة وطوائف الحرف وأهل العلم والأجناد والبدو . وفى هذا التقارب بزغ فجر جديد من الوعى القومى ، كان هو أيضا أحد المعاول التى تعاونت على هدم النظام القديم .

وفى السنوات القليلة التى تلت جلاء الفرنسيين عن مصر أظهرت العوامل الجديدة تأثيرها : حاول كل من الفريقين ، العثمانيين والأمراء ، أن يسترد السلطان الذى فقده ، ولكنه لم يستطع ، إذ أنه ليس شك فى أن كلا منهما عاد أضعف مما كان عليه ماديا ومعنويا ، وعجزت العناصر التى كان كل منهما يتألف منها عن أن تتكاتف للدفاع عن كيانها ، فكان انهيارها جميعا .

ولكن الحق أن الضربة الأخيرة التى قضت على هذا النظام بعناصره وروحه ومقوماته لم تأت من (خارج) هذا النظام ، وإنما أتت من (داخله) ، أتت من أحد أدوات هذا النظام ، فإن المصريين فى ثورتهم على الباشا العثمانى خورشيد فى مايو ١٨٠٥ لم يختاروا أحد علمائهم أو زعمائهم ليكون واليا عليهم ، حتى ولو كان السيد عمر مكرم نفسه زعيم المتصدرين لحركات المقاومة الشعبية فى ذلك الوقت ، ولكنهم اختاروا لهذه المهمة أحد الجند العثمانيين — وهو محمد على — قائد الفرقة الألبانية فى الجيش العثمانى الذى أرسلته الدولة العثمانية لإخراج الفرنسيين من مصر ، وقد اختاروه لأنهم قدروا فيه صفات كانوا يتطلعون إليها فى الحاكم الجديد : حب العدل ورأفة بالرعية وإنصاف للمظلوم ، وهى أهداف مباشرة ما نظن أن تفكير رعايا السلطان المسلمين فى ذلك الوقت كان يذهب إلى أبعد منها وكان السيد عمر مكرم نفسه أشد المتصدرين حماسة لتولية محمد على ، ودبر معه الأمر حتى تم ، وهو ما كان يدرى أن حركة ١٨٠٥ لها ما بعدها ، وأنها ستكون أعمق وأجل خطرا من مجرد استبدال باشا عثمانى بآخر على نحو ما شهدته « مصر العثمانية » فى تاريخها الطويل ، فما لبث الباشا الجديد أن أظهر أنه — وهو أحد أدوات النظام الذى تولى الحكم فى ظله — سيوجه لهذا النظام فى السنوات العشر الأولى من حكمه الضربة القاضية ، وعلى يديه يتم انهيار النظام العثمانى المملوكى ويبدأ بناء مصر الحديثة .

* * *

ولم يكن هدم النظام القديم عملا يسيرا : فالعناصر التى يتألف منها — على ما أصابها من ضعف وتخاذل وفقدان للثقة والايمان بها — كانت لا تزال لها قوتها ومكانتها ، والوعى القوى الذى أبرزته الأحداث التى مرت بالبلاد منذ سنة ١٧٩٨ لم يكن من القوة والنضوج بحيث يكفى للقضاء على النظام القديم ووضع

برنامج المستقبل ، والأداة التى تصدت للقضاء على هذا النظام ورسم المستقبل إنما انبعثت من بين صفوف ذلك النظام نفسه ، فهى إلى حد كبير مقيدة بأوضاعه ، متأثرة بعقليته مرتبطة بظروفه .

وزاد العمل صعوبة أن عملية الهدم ألبت على الحاكم الجديد خصوما كثيرين من أصحاب المصالح « المكتسبة » ، من الأجناد والأمراء ، والملتزمين، والملتزمات والعلماء ، وزعماء العشائر البدوية ، وغيرهم كثيرون ، حتى خفيت على أكثر المعاصرين من المصريين فلسفة الحكم الجديد وحقيقة أهدافه ، وبدا لهم أن أملهم فى العدل والإنصاف قد تبدد ، وأن الحاكم الجديد ليس أفضل مما سبقوه ، بل زاد عليهم أنه « يتطلع إلى ما فى أيدى الناس » ، وإن كانت له « همة الملوك » ! وهكذا ظهر أن هدم النظام القائم ليس هدما لبناء من طوب وحجر ، وإنما هو هدم لعقلية ونفسية شعب عاش فى أوضاع وقوالب معينة ثلاثة قرون ، ثم أوقظ فى عنف وغلظة ليشهد تحطيم هذه الأوضاع والقوالب ، وقد كانت عزيزة عليه ، رغم أنه لم يكن بها سعيدا . انقضت أيام المواكب والأعياد، أيام الرخاء ورخص الأسعار ، أيام الحرية والترك والفراغ ، وحلت أيام النظام والشدة والحكومة الصارمة ، أيام الحجر والغلاء والعمل ، أيام سوق الناس للجيش أو للمدارس أو للمصانع أو لحفر الترع وتشييد القناطر والجسور ، انقضت أيام احتقار الأجنبى واستغلاله وحلت أيام العمل تحت إمرة الأجنبى فى الجيش أو الأسطول أو المصنع أو المدرسة. وكان لابد أن يمضى وقت طويل حتى يستطيع المصريون أن يفكروا بعقلية العصر الجديد — عصر البناء والعمل — عقلية القرن التاسع عشر .

وقد عانى محمد على كثيراً وهو يتلمس الأدوات الصالحة لمعاونته فى عملية البناء ،كان يتلمسها فى رجال من العهد القديم — وهو منهم ! — وكان يتلمسها فى أخلاط من الغرباء الذين يتوسم فيهم المعرفة أو الخبرة من أوربيين وأرمن وغيرهم، ولكنه كان من الحكمة بحيث أدرك أن البناء لن يقوى عليه إلا أهله ،فراح يعمل على إيجاد الأدوات الصالحة للعمل من بين المصريين أنفسهم فأنشأ لذلك المدارس، كما أنشأ الجيش الوطنى ، ومهد بذلك لأبناء البلاد سبيل العمل فى دواوين الحكومة ومنشآتها ، وحملهم شرف الدفاع عن بلادهم ، وعلى هاتين القاعدتين الكبيرتين : المدارس والجيش ، العلم والقوة ،قام بناء النهضة المصرية فى القرن التاسع عشر .

ولقد جاءت هذه النهضة فى « موعدها » فمنذ حملة بونابرت فى سنة ١٧٩٨ ومصر تعيش فى خوف من الغزو الأجنبى ، إذ أصبحت — رغم أنفها — أحد مسارح الحرب النابليونية ، الحرب الباردة أو الحرب الساخنة، لم يخرج الفرنسيون من مصر إلا بعد أن جرد عليهم الانجليز حملة عسكرية فى سنة ١٨٠١ ، وبقى الاحتلال الانجليزى عامين آخرين (١٨٠١ — ١٨٠٣) ولم يخرج الانجليز من مصر إلا بضغط فرنسى سياسى ، وبعد أعوام أربعة عاد الانجليز مرة أخرى فجردوا على مصر حملة لاحتلالها (١٨٠٧) . وهكذا شهدت مصر فى خلال فترة لا تزيد على عشر سنوات ثلاث غزوات أجنبية ، ووضح أن مصر — رغم أنفها — قد أصبحت عنصرا فى السياسة الدولية ، ولكنه عنصر « سلبى » ، إذ أن ضعف مصر ، وضعف الدولة صاحبة السيادة على مصر قد أصبح أشد ما يغرى الدول الأوربية المتنافسة على امتلاك هذا الموقع الهام فى المواصلات العالمية ، فكان لابد لمصر أن تواجه هذه الحالة الجديدة الخطرة ، فتستبدل بالضعف قوة ، وذلك بأن تعمل على تنمية مواردها وإحياء الموات من أرضها ، وتنظيم قوتها العسكرية حتى لا تصبح مجرد « ولاية » يهددها من وقت لآخر شبح الغزو الأجنبى وتعبىء قواها الروحية فتأخذ بأسباب العلم الحديث والثقافة الحديثة وتعمل على إحياء ثقافتها العربية الإسلامية ، وبذلك تصبح مصر مرة أخرى عنصرا « إيجابياً » فى السياسة الدولية ، وعاملا فعالا فى الحضارة الانسانية، وتعرف مصر مرة أخرى قدرها فى هذه المنطقة من العالم ، فتعود إلى رسالتها التى طالما نهضت بها فى عصور القوة فتمد أيديها إلى جاراتها العربيات لإحياء هذه المنطقة من الشرق العربى وتغذيتها بمقومات النهضة الشاملة التى انبعثت من مصر ، وبذلك تقف مصر حاجزاً ضد الأطماع الغربية التى اتجهت إلى منطقة الشرق العربى وعملت على السيطرة عليه ، مستغلة ضعف السلطنة العثمانية وتراخى قبضتها على ولاياتها .

وكان على المصريين فى الوقت نفسه — وقد استقامت لهم الرسالة مرة أخرى — أن يقدروا ما يمليه عليه موقعهم من إفريقية ، فتعود الصلات قوية بين مصر والسودان ، وتعود مصر إلى تنظيم شئون الجنوب ، ومن ثم تصل إلى قلب افريقية ، إلى منطقة البحيرات الاستوائية ، وإلى شرق افريقية ، حيث تنتعش مرة أخرى مقومات العروبة والإسلام ، فى كل مكان من افريقية وصله المصريون

رافعين راية العروبة والإسلام، لتكون وقاء يقى الشعوب الإفريقية من براثن الاستعمار الأوربى الذى آذن يومه فى أفريقية .

وعلى هذا النحو تحددت رسالة مصر فى القرن التاسع عشر ، وتحدد برنامج العمل وما أضخمه من برنامج ، ونهض به ذلك الجيل من المصريين فى القرن الماضى وسط ظروف شاقة ، ويتألف البرنامج من العناصر الآتية :

(١) نهضة داخلية شاملة تتناول جميع مرافق البلاد الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والثقافية .

(٢) تكوين قوة عسكرية فى البر والبحر للدفاع عن البلاد وتنفيذ سياستها الخارجية .

(٣) اتخاذ سياسة خارجية نشطة تهدف إلى الانسلاخ من السيطرة العثمانية وإحياء الشرق العربى وتنظيم الصلات بين مصر والسودان والتوسع فى أفريقية كخطوة لابد منها لمقاومة الاستعمار الأوربى الذى بدأ زحفه إلى هذه المناطق .

تلك هى العناصر التى تألفت منها نهضة مصر ، فى القرن التاسع عشر ومابعده ، بل إننا نستطيع القول أنها لا تزال تشكل برنامج العمل الذى يستهدفه المصريون حتى اليوم .

وقد نهض المصريون فى القرن الماضى لتحقيق ذلك البرنامج ، وكانت نقطة انطلاقهم حينما تقوض النظام العثمانى المملوكى وانهارت العصبيات ، والزعامات المختلفة التى تقاسمت السلطان فيما بينها وعلى أنقاضها قامت « الدولة » الحديثة التى جمعت السلطة العامة بين يديها ، وتحول « الرعايا » إلى « مواطنين » فى الدولة الجديدة .

ومضى المصريون — فى عهد محمد على — فى تحقيق برنامج النهضة ، فأصابوا فى ذلك حظا كبيراً من النجاح ، ولكنهم مالبثوا أن لقوا من المقاومة ماعوق سيرهم وشل حركتهم وضيع عليهم — فى النهاية — أكثر ما حققوه فى حركتهم . ذلك لأن أمور مصر فى القرن التاسع عشر — عصر النهضة — لم تكن خالصة لأبنائها ،فان قيود السيادة العثمانية بقيت قائمة تثقل على مصر وتقيد حريتها فى العمل حتى ورثها الاحتلال البريطانى فى سنة ١٨٨٢ .

ولم يكن غريبا أن يتمسك السلطان العثمانى بسيادته على مصر ويعمل على توكيد هذه السيادة طوال القرن الماضى ، فان انسلاخ الولايات الأوربية من الدولة العثمانية جعلها أكثر تشبثا بما بقى لها من الولايات الاسلامية ، ومصر فى مقدمتها ، والسلطان يدرك أن ضياع مصر من يده يتبعه حتما ضياع سائر الولايات العربية ، فان مصر الناهضة القوية لا تستطيع أن تغض الطرف عن مصير جاراتها العربيات ، فى وقت ضعفت فيه الدولة واتجهت الاطماع الأوربية الى هذه المنطقة من الشرق الاوسط .

رفض السلطان محمود الثانى أن يعتبر نهضة مصر مصدر قوة للدولة بل على العكس ، كان الهدف المباشر للاصلاح فى نظر السلطان محمود الثانى وخلفائه أن تتمكن الحكومة المركزية من أن تهدم كل ما يقوى الحياة فى الأقاليم وأن تمد سلطان الحكومة المركزية إلى أقاليم لم تخضع يوما من الأيام لحكم السلطنة المباشر ، من ذلك ماحاولته السلطنة فى أنحاء الجزيرة العربيـــة غير الحجاز وفى الولايات المغربية لم ير السلطان فى نهضة مصر وتوسعها إلا مصدر إضعاف للدولة ، وراح السلطان يكيد لمصر بشتى الوسائل ، حتى لم يتورع عن التحالف عليها مع الدول الأوروبية الكبرى وعلى رأسها انجلترا وروسيا ، حتى استطاع فى تسوية ١٨٤٠ وقف التوسع المصرى ، بل عرقلة النهضة المصرية فى سيرها . ومضى السلاطين فى كيدهم لمصر بعد ١٨٤٠ يعملون على حرمانها من بعض المزايا التى كسبتها فى تسوية ١٨٤٠ ، وعلى ردها إلى مركز باشوية عادية يحكمونها حكما مبـــاشراً على نحو ما كانوا يحكمون ولايات الشام أو العراق .

ولكن النفوذ الأجنبى لم يشأ أن يترك السلطان وحده صاحب الكلمة فى مصر ، فمنذ اتجهت حملة بونابرت إلى مصر فى صيف ١٧٩٨ والاهتمام الأوربى بمصر ومستقبل الحكم فى مصر لم يفتر . حقا إن مصر ـ فى نهضتها الحديثة ـ قد اقتبست من أساليب الغرب واستعانت بالفنيين من أهل الغرب من رجال الحرب والطب والتعليم والهندسة والاقتصاد ، ووثقت صلاتها الاقتصادية بدول الغرب فصدرت إليها واستوردت منها ، ولكن الغرب لم يكن مستعداً لتقديم هذا العون خالصا لوجه الله ، ولكنه كان يقدمه ممزوجا بالنفوذ والسيطرة والأطماع التوسعية . حتى أصبح لزاما على مصر أن تكون حريصة أشد الحرص ـ وهى بسبيل تدعيم نهضتها ـ أن لا تفتح معها باب التدخل الأجنبى ، ولكن مصر فى النهاية لم تقدر على مدافعة تلك الأطماع ، فانفتح باب التدخل الأجنبى على

مصراعيه ، وكان ـ هو الآخر ـ من أهم العوامل التى عرقلت نهضة مصر فى القرن التاسع عشر وقيدت حريتها فى العمل وشتتت جهودها ، حتى أوقعتها فى النهاية فريسة للاحتلال البريطانى فى ١٨٨٢ . وكانت انجلترا ـ منذ البداية ـ فى مقدمة الدول الأوروبية سعيا لعرقلة النهضة المصرية والتوسع المصرى فى القرن التاسع عشر ، فقد قدرت أن قوة مصر واتساعها فى الشرق العربى وفى أفريقية ، فى هذه المنطقة من العالم التى أخذ الاستعمار الأوروبى يعدها لمصيرها المشئوم ، قدرت انجلترا أن هذه القوة وهذا التوسع ليس فى مصلحتها . وهكذا تم ذلك التحالف بين السياسة العثمانية والسياسة الإنجليزية لوقف القوة المصرية وتعويق النهضة المصرية حتى تم لها ذلك بالاشتراك مع بعض الدول الكبرى فى التسوية التى فرضت على مصر فرضا فى سنة ١٨٤٠ - ١٨٤١ . وفى التصدى لها فى البحر الأحمر وفيما حول منابع النيل الاستوائية حتى حين .

وهكذا أفسحت السياسة العثمانية للدول الأجنبية باب التدخل فى شئون مصر ، وظلت السنوات التالية لسنة ١٨٤٠ تشهد فنونا من التدخل الأجنبى السياسى والعسكرى والاقتصادى ، وهو يرمى فى النهاية إلى تقييد قوة مصر العسكرية وتشكيل نشاطها الاقتصادى على وجه معين والسيطرة على ماليتها وانتهاب مرافقها وترويج المنشآت الأجنبية فيها من شركات وامتيازات ومحاكم مختلطة ورقابة مالية ... الخ ، حتى غدا القرن التاسع عشر فى مصر ليس عصر النهضة فقط وإنما عصر الضغط الأجنبى أيضا ، وهكذا خطت السياسة العثمانية بتحالفها مع انجلترا والدول الأخرى فى ١٨٤٠ مستقبل مصر السياسى ، بل إنها فى الواقع حفرت لمصر بيديها الهوة التى ترددت فيها بعد اثنين وأربعين عاما .

وأمر ثالث كان يقيد انطلاق النهضة المصرية فى القرن الماضى ويعمل على حبسها فى قوالب موضوعة : هو سياسة الحكم فى مصر إزاء القوى الثلاث الكبرى المتصارعة فى الميدان وهى : الوعى القومى المتطلع إلى الأخذ بأسباب النهضة الشاملة والمنعة والقوة وتحويل أداة الحكم إلى خدمة المحكومين ، والسيادة العثمانية المتطلعة إلى العودة بمصر إلى مركز الباشويات العادية أو على الأقل استبقاء الأوضاع الراهنة خشية أن تخرج مصر من يديها سواء إلى الاستقلال أو إلى الاحتلال الأجنبى ، والضغط الأجنبى وهو يزداد سرعة من وقت لآخر ويتطلع إلى تقوية قبضته على البلاد والسيطرة على مرافقها تمهيداً للاحتلال .

كان الهم الأول لحاكم مصر فى القرن التاسع عشر من محمد على إلى أبنائه وأحفاده أن يحتفظ بملكه ويدعم سلطانه وسط هذه القوى المتصارعة التى يخشاها جميعا . فهو يخشى الوعى القومى أن يثور على ملكه وسلطانه ، والمصريون عنده ـ فى الحقول أو المصانع أو الجيش أو الأسطول أو المدارس ـ ليسوا إلا (أدوات) العمل ، (والمادة) التى يصنع منها مجده . حتى إذا حاول المصريون أن يتطلعوا إلى أبعد من هذا ، أى إلى أن يأخذوا الأمر بين أيديهم عن طريق المجالس النيابية ومسئولية الحكومة ليحولوا أداة الحكم إلى خدمة المحكومين ، شق الأمر على حاكم مصر ودبر كيده وسعى سعيه ليرد المصريين إلى الدور التقليدى الذى رسمته لهم سياسة الحكم . وكذلك يخشى حاكم مصر السلطان العثمانى على مكانته ، وهو يعلم خاصة أن وراء هذا السلطان قوة روحية كبرى ، هى قوة الخلافة الإسلامية ، تؤمن بها الجماهير وتبذل لها ولاءها ، وترى فيها العاصم والملاذ من كيد الغاصبين ، فهو يظهر للسلطان ولاءه ويقدم له خدمات شتى ، ولكنه اشد حرصا على استقلاله منه على مراضاة السلطان ، مراضاة قد تصل به إلى الخنوع والخضوع له ، لهذا انصرف ولاة مصر فى القرن التاسع عشر إلى رد كيد السلطان ووقف تدخله فى شئون الحكم الداخلى ، حتى امتلأ تاريخ مصر بين ١٨٤٠ و ١٨٨١ بفنون من التنازع بين ولاة مصر وسلاطين الدولة ووزرائهم .

ووالى مصر يحس بالضغط الأوربى يتزايد من وقت لآخر ، ويتشعب ويتغلغل فى كافة مرافق البلاد ، ومن أهم أهدافه تقييد سلطة الوالى لا لمصلحة المصريين ، ولا لمصلحة الدولة صاحبة السيادة على مصر ، وإنما لمصلحة الأوربيين دائنين وأصحاب مصالح وشركات استثمار . ووالى مصر لايستطيع لهذا الضغط الأجنبى دفعا ، فهو يخشى فى صراعه معه أن يعتمد على المصريين أو أن يعتمد على الدولة العثمانية ، خشية أن يضطره هذا الاعتماد إلى النزول عن قدر من سلطانه للمصريين أو للباب العالى . وازداد مركز والى مصر ضعفا إزاء التدخل الأوربى حتى اضطر الخديو اسماعيل إلى قبول ألوان مختلفة من السيطرة الأوربية ، قبل المراقبة الأوربية الثنائية ولجان التحقيق الأوربية وصندوق الدين والمحاكم المختلطة ، بل قبل الوزارة (الأوربية) والمستشارين الأوربيين وكبار الموظفين الأوربيين فى مصر والسودان ، وهكذا اضطر الخديو إلى (رهن) أو (بيع) مصالح مصر ، مصلحة بعد أخرى ، حتى خسر المعركة فى النهاية ، حين أصرت الدول

الأوربية الكبرى على عزله ، فعزل (١٨٧٩) . ولم يخسر والى مصر وحده المعركة ، وإنما خسرتها معه مصر كلها ، فحين ثارت مصر على استخذاء الخديو توفيق والتماسه المساعدة من الاستعمار الأوربى ، بطشت القوة الإنجليزية بالثورة المصرية واحتلت مصر (١٨٨٢) .

وهكذا نرى أن القرن التاسع عشر لم يكن لمصر عصر النهضة فقط ، ولكنه كان فى الوقت نفسه عصر الضغط الأوربى فالاحتلال البريطانى ، وما تلاه من نكسة ووقف للنهضة وتضييع لآثارها . وكان لابد أن ينصرف المصريون – حتى أيامنا هذه – إلى مكافحة الاحتلال ، حتى أصبح تاريخ مصر وقد تبلور حول سعى المصريين للتخلص من الاحتلال ، وأصبحت (القضية الوطنية) هى الشغل الشاغل للمصريين جميعا تكاد تصرفهم عن كل شىء سواها ، ولم يكن من صالح الاحتلال أن تشيع فى البلاد نهضة شاملة لأن من شأنها أن تقوى يد المصريين فى مكافحته ، فعلى أيدى الاحتلال البريطانى انكمش التعليم وأصبح يكاد يكون مقصورا على إعداد الموظفين والفنيين ، وقووم مشروع الجامعة ، وتوسعت الحكومة فى فرض المصروفات المدرسية لصرف أكثر المصريين عن تعليم أبنائهم فى مدارس الدولة ، وفى ظل الاحتلال البريطانى اقتصرت العناية على الزراعة وخاصة زراعة القطن لتزويد مصانع (لانكشير) وأهملت الصناعة ، خوف منافسة الصناعات الانجليزية . وأوقفت الحياة النيابية الصحيحة وانكمشت قوة الجيش المصرى ، وأهملت مصالح مصر فى السودان وأفريقية ، فألزمت مصر بالانسحاب من السودان وتركه للثورة والاضطراب يسريان فى ربوعه . وكان المصريون يرون هذا كله فلا يستطيعون له دفعا إلا الاحتجاج فى الصحف والمجالس . حتى إذا بدأت قيود السيطرة الإنجليزية على أداة الحكم فى مصر تخف بعد إعلان استقلال مصر فى تصريح فبراير ١٩٢٢ وصدور الدستور وقيام الحكم الوطنى الدستورى (١٩٢٣) أحس المصريين قدرا من الحرية فى تدبير أمورهم فعاد طريق النهضة فاستقام إلى حد كبير ، لولا ما ظل يشغل المصريين فى كفاحهم للدستور والاستقلال ، عادت نهضة مصر إلى الازدهار ، ولكن فى ظروف جديدة وأساليب جديدة ، غير ظروف القرن التاسع عشر وأساليبه ، وفى مقدمة الظروف والأساليب الجديدة أن المصريين قد حرصوا على أن يتعدوا الدور التقليدى الذى حرصت أداة الحكم فى القرن التاسع عشر على قصرهم عليه ، أى أن يكونوا مجرد (أدوات) العمل

ومادته ، وإنما سعوا إلى السيطرة على أداة الحكم نفسها عن طريق الحكم الدستورى السليم وتوجيهه إلى تحقيق الخير للأمة جميعا .

***

هذه نظرة عامة للنهضة المصرية الحديثة فى القرن التاسع عشر : أصولها ومقوماتها والعوامل التى عوقت سيرها وحالت دون بلوغها غايتها . نتبعها بشىء من التفصيل لبعض نواحى هذه النهضة .

كان هدم النظام العثمانى المملوكى — كما قلنا — الشرط الأول والمقدمة التى لابد منها لبدء النهضة المصرية الحديثة ، وتم هذا الهدم على يد محمد على .

وقد تحقق لمحمد على منذ اللحظة الأولى لولايته أن الأمر لن يستقيم له إلا إذا خلصت مصر لسلطانه ، فلا تتحكم فيه عصبيات مسلحة من قواد الألبانيين أو أمراء المماليك أو شيوخ العشائر ، أو زعامات شعبية من المشايخ والمتصوفة ، ولا يستبد من دونه فى الأقاليم جماعات من الملتزمين ، أو فى المدن جماعات من شيوخ الحرف أو زعماء الأحياء . وشرع محمد على فى السنوات العشر الأولى من حكمه يحطم هذه العصبيات والزعامات ، ليبنى على أنقاضها السلطة العامة ، سلطة الدولة ، تدعمها قوة الجيش الوطنى والحكومة المركزية . وكان القضاء على أكثر أمراء المماليك فى مذبحة القلعة فى سنة ١٨١١ وتشريد الآخرين إيذاناً بانهيار النظام القديم من أساسه وكانت العصبيات المملوكية قاعدته ودعامته ، فسهل بعد ذلك إلغاء نظام الالتزام ، فخلص حكم الأقاليم لمحمد على ، فشرع يعمل لضبط الأراضى والمال وتنظيم الزراعة المصرية — وهى عماد الاقتصاد المصرى — على أسس جديدة ، كما تهيأ له السبيل لإخضاع العصبيات البدوية والزعامات العشائرية .

وفى هذه السنوات العشر الأولى من حكمه لم يكن محمد على يملك من أداة الحرب والحكم إلا ما وجده قائماً عند توليته ، فأداة الحكم هى الديوان ويرأسه الباشا ويدعو إليه زعماء الأجناد وكبار المشايخ . وأداة الحرب هى طوائف الجند العثمانى من أخلاط الترك والأرناءوط والأكراد والشوام والمغاربة والدلاة ، وبهذه الأخلاط تولى محمد على ولاية مصر ، وبهم انتصر على الإنجليز ، وحارب أمراء المماليك ، وبهم فتح الحجاز والسودان ، حتى كون الجيش الجديد فذابوا فى صفوفه وتسنى له بذلك التخلص من سيطرتهم عليه .

ولكن الأوضاع الجديدة التى خلفها إنهيار العصبيات والزعامات المختلفة فى القاهرة والاقاليم وانشاء الجيش الوطنى الجديد ، وكذلك اهتمام الحاكم بتدبير مرافق البلاد على أسس جديدة من زراعة وصناعة وتجارة وتعليم وصحة وعلاقات خارجية... الخ ، وهى أمور لم يكن يرقى إليها ذهن الحاكم وإرادته ، اقتضى هذا كله فلسفة جديدة فى التنظيم الحكومى والادارى: فوظيفة الحكومة لم تعد مقصورة على تدبير الأموال ، بجمع الضرائب وتوزيع المرتبات والأرزاق على أربابها وإعداد قافلة الحج وإرسال الخزنة إلى استانبول ، لم تعد وظيفة الحكومة مقصورة على هذه المسائل التى كادت وحدها تشغل بال الحاكم وتأخذ عليه تفكيره ، وانما تعدتها إلى تدبير مرافق البلاد المختلفة ،وتقوم الفلسفة الجديدة فى التنظيم الحكومى على مبدأ التخصص ، وذلك بأن يختص كل ديوان أو إدارة بمرفق من مرافق البلاد . وهكذا تفرع (الديوان) إلى عدد من الدواوين والمجالس أنشئت فى سنوات مختلفة بحسب الحاجة إليها ،كديوان الجهادية وديوان البحر ، وديوان الحقانية ، وديوان المعاونة ، وديوان الزراعة ، وديوان المدارس ، وديوان الأبنية وديوان الفاوريقات ، وديوان التجارة ، وديوان الأمور الأفرنجية .

ومما يلفت النظر أن هذه الدواوين أنشئت لا بالفكرة التنفيذية فقط وإنما بالفكرة (الشورية) أيضا ، فالديوان ليس أداة تنفيذية فقط وإنما هيئة شورية أيضاً ، بل إن الفكرة الشورية سبقت الفكرة التنفيذية ، إذ أنشئت بعض المجالس قبل دواوينها ، ومن ذلك أن مجلس أو شورى المدارس سبق إنشاء ديوان المدارس (الذى دعى بعد ذلك نظارة ثم وزارة المعارف ثم وزارة التربية والتعليم أخيراً) . هذا لأنه لم يقصد بإنشاء هذه المجالس مجرد تمحيص المسائل بالمناقشة والبحث والتقرير ، وإنما قصد بها أن تكون بمثابة (مدارس) لإعداد رجال الحكم والفنيين وتعويدهم البحث والنقاش وتحميلهم المسئولية . وقد بقيت بعض المجالس ملحقة بالدواوين المتصلة بها ، كما ألغيت مجالس أخرى واكتفى بدواوينها. وكذلك نظم الحكم فى الاقاليم على نحو يربطها بالحكومة المركزية فى العاصمة . وخطا محمد على خطوة أخرى فى تطبيق مبدأ الشورى: فأنشأ شورى المعاونة أو مجلس الملكية أو المجلس العالى ليناقش المسائل الكبرى للحكومة ويقرر فيها رأيه . وكان يتألف

من كبار الموظفين ويرأسه الكتخدا ، كما أنشأ مجلساً عمومياً من مشايخ الأقاليم للنظر في مسائل الزراعة خاصة ، وكان يجتمع من وقت لآخر في القلعة وتنشر محاضر جلساته في الوقائع المصرية . وفوق هذا البناء الحكومي والإداري يقوم « الباشا » وعن طريق « معيته » تصل إليه التقارير والمحاضر فيصدر الأوامر والقرارات . وكان محمد علي حريصاً على أن يدير هذا الجهاز الكبير بطريقة أبوية ، فيها النصح والترغيب وفيها الوعيد والترهيب ، حتى ليصل إلى حد التهديد بالضرب بالكرباج أو السجن في الليمان .

وهكذا عظم شأن (الحكومة) في مصر على نحو لم تعرفه مصر من قبل ، وأصبح سلطانها — معتمداً على نظام إداري دقيق وقوة عسكرية ثابتة — يعلو على كل سلطان ، ويدها مبسوطة على جميع الهيئات والطوائف ، وثبت في يقين الناس أن الحكومة قوية جداً ، قادرة جداً ، فأصبحوا يتجهون إليها في كل أمر ، ويطلبون أن تفعل لهم كل شيء ، ويلتمسون عندها التوجيه والقيادة ، كان المصري قبل إنشاء الحكومة الجديدة ربما عاش ومات دون أن تضطره ظروف حياته إلى الرجوع إلى الحكومة أو مواجهة الحاكم : فالفلاح في القرية يعرف الملتزم ويتصل به ويلجأ إليه أكثر مما يعرف الكاشف . والصانع في المدينة يتصل بشيخ طائفته ويلتمس لدى طائفته الحماية ، والمجاور في الأزهر لا يعرف إلا شيوخه الذين يقرأ عليهم ويلتمس عندهم (الإجازة) ، والأجناد يتبعون سادتهم من الأمراء ، والبدو لا يدينون بالولاء إلا لزعماء عشائرهم وهكذا . أما الآن — وقد أنشئت الحكومة الجديدة بوظائفها الجديدة وأدواتها وهيئاتها الجديدة — فقد أصبحت الحكومة تواجه الفرد في كل خطوة يخطوها منذ مولده حتى وفاته ، فالحكومة لا تطلب منه المال فقط وإنما تسوقه للجيش أو للأسطول أو للمدرسة أو للمصنع ، وتنظم عمله في الحقل تنظيماً دقيقاً لا تكاد تدع له حرية في العمل أو في التصرف بثمرة عمله . وهكذا ذابت — في ظل النظام الجديد — الهيئات والطوائف المختلفة التي كانت تنتظم المصريين في الريف والحضر ، وفقدت اختصاصاتها وامتيازاتها ، فتحولت إلى الدواوين والإدارات الجديدة ، التي نهضت لسد هذا الفراغ الذي خلفه انهيار (الطائفية) لتحل محلها فكرة (القومية) الواحدة ، ووقف المصريون جميعاً أمام الحكم الجديد (آحاداً) يلتمسون منه التوجيه ، بل وينتظرون لقمة العيش في المصنع أو الحقل أو فرقة الجيش أو المدرسة أو الديوان .

حقاً إن التنظيم الحكومى الجديد الذى عرفته مصر فى القرن التاسع عشر قد وفر للنهضة المصرية فى الزراعة والصناعة والتجارة والتعليم والصحة والجيش وغيرها من مقومات النهضة أسباب القوة والنماء فى حدود الظروف والإمكانيات التى تسنت لمصر فى القرن الماضى حتى تسلمها الجيل الحاضر من المصريين فى وقت كانت الحكومة وحدها هى التى تملك — بهيئاتها الفنية — وسائل العمل ، ولكن فى مقابل هـــذا (الكسب) الذى كسبته النهضة المصرية فى القرن التاسع عشر فقد المصريون ـ فى ظل التنظيم الحكومى الجديد وفلسفته ـ شيئاً ثميناً، هوهذا (التكتل) فى طوائف وهيئات لها كيانها ، هوهذا القدر من الحرية والحكم الذاتى الذى كانوا يتمتعون به فى تدبير أمورهم وتنسيق علاقتهم بالحاكم . وبفضل هذا التكتل وهذه الحرية تسنى للمصريين أن يصمدوا لألوان العسف والإرهاق التى نزلت بهم فى العهد العثمانى المملوكى . ولو قد قامت الفلسفة الجديدة فى الحكم ـ فلسفة القرن التاسع عشر والنصف الأول منه خاصة وهو عصر محمد على وفيه وضع الأساس لبناء الدولة الحديثة ، لو قد قامت هذه الفلسفة الجديدة على رعاية ذلك التكتل الطائفى وذلك القدر من الحرية والحكم الذاتى الذى كانت تتمتع به الطوائف ، ولو قد أفسح التنظيم الحكومى الجديد فى صفوفه لهذه الطوائف والهيئات الشعبية ، لكان من ذلك أساس طيب تبنى عليه الدولة نظام الحكم الذاتى والحياة النيابية الشورية ، لايكون مستمدا من الغرب ونظمه وإنما يجىء نابعا من كيان الشعب وتطوره التاريخى ، على نحو ماعرفته النظم النيابية الأوربية فى نموها . ولهذا جاءت محاولة تنظيم العلاقة بين الأمة والحكومة فى مصر متأخرة ، فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، عندما أصاب التعليم الحديث حظا من الانتشار ، وصدر عدد من الصحف والمجلات ، وكثر الحديث فى شئون السياسة الداخلية والسياسة الدولية ، واشتد الاتصال التجارى والثقافى بأوربا ، وكثرت فى مصر المصالح والمؤسسات الأوربية المختلفة — فساعد هذا كله على يقظة الرأى العـام فى مصر ، ثم جاء التدخل الأجنبى فى شئون مصر فكان بمثابة اللهب الذى أشعل الرأى العام ، فأدرك أن لا منجاة للبلاد إلا بتقييد سلطة الحاكم المطلقة عن طريق دستور ينظم السلطات العامة ويجعل الحكومة مسئولة فعلا أمام مجلس نواب منتخب عن الأمة .

وكان الخديو إسماعيل قد بدأ تجربة المجالس النيابية فى مصر ١٨٦٦ فأنشأ

مجلس شورى النواب ، ولكنه كان محدود العدد والتكوين ، محدود السلطان ، إذ كانت قراراته لا تعدو أن تكون رغبات ترفع إلى الخديوى وله فيها القول الفصل ، والحكومة لا ترفع إليه إلا ما ترى أنه من اختصاصه ، وحق الانتخاب مقصور على عمد البلاد ومشايخها فى الأقاليم وجماعة الأعيان فى المدن ، والمجلس لا يجتمع إلا شهرين فى كل سنة واجتماعه وفضه وحــله منوط بالخديوى ، واجتماعاته سرية .

وقد ظهر أثر يقظة الرأى العام فى مصر فى ظهور حركة المعارضة فى المجلس لحكومة الخديوى ابتداء من سنة ١٨٧٦ ، كما كان لاشتداد التدخل الأجنبى أثر واضح فى حرص الأعضاء على مناقشة ميزانية الدولة والنظر فى كافة الإجراءات التى تتخذ لمعالجة الأزمة المالية ، وقد صدر أعضاء المجلس ردهم على خطاب الخديوى (خطاب العرش) فى سنة ١٨٧٩ بقولهم « نحن نواب الأمة المصرية ووكلاؤها المدافعون عن حقوقها الطالبون لمصلحتها » وجاء فيه أيضاً « فبعث فينا ذلك الخطاب روح العصر الجديد وأحيا آمال هذه الأمة التى لا تزال راجية أن تنال شرفها التليد الذى شهدت به التواريخ وأنبأت به الآثار ..» وختموا خطابهم بالهتاف بحياة الحرية . وأراد اسماعيل ان يتخذ من هذه الروح الجديدة سندا له فى كفاحه ضد التدخل الأجنبى ، فشجع على اجتماع «جمعية وطنية » من أعضاء مجلس النواب والعلماء ورؤساء الطوائف الدينية والأعيان وكبار التجار ، ووافق على ما سموه « اللائحة الوطنية » (ابريل سنة ١٨٧٩) ويعارضون بها مشروع وزير المالية الانجليزى لتسوية الأزمة المالية ، وتقوم اللائحة على مبدأ قدرة البــلاد وكفايتها لسداد ديونها ، كما طالبوا فيها بتعديل نظام مجلس شورى النواب وتخويله كامل حقوق المجالس النيابية وأهمها تقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمامه .

وقدرت الدول الأوروبية الكبرى أن اسماعيل لم يعد الحاكم الذى تستطيع الاعتماد عليه فسعت حتى عزلته . ولكن الحركة الوطنية مضت فى سيرها ، وكانت المطالبة بالدستور أهم أهداف الثورة العرابية ، وقد صدر الدستور فعلا (١٨٨٢) ولكن الاحتلال البريطانى قضى على هذا كله ، فأوقف نمو الحياة الدستورية فى مصر ، وظلت العــلاقة بين الأمة والحكومة قائمة على الحذر ، فالمصريون يرون فى الحكومة هيئة «خارجة» عنهم ، إنما أنشئت لتنظيم استغلالهم ، قد يحترمونها إلى حــد الخشية والرهبة ، ولكنهم لا يحبونها ، ويسعون

إلى التخلص من قيودها والتزاماتهم قبلها ، وقد يتحينون كل فرصة لاستغلالها والكيد لها . خاصة وقد ألف المصريون منذ ١٨٨٢ أن تكون الوزارات المصرية خاضعة للنفوذ البريطاني . حتى كان دستور ١٩٢٣ وتأليف «حكومة الشعب» في سنة ١٩٢٤ ووصف سعد زغلول الموقف في كلمته المشهورة :

«وقد لبثت الأمة زمنا طويلا وهي تنظر إلى الحكومة نظر الطير للصائد لا الجيش للقائد ، وترى فيها خصما قديرا يدبر الكيد لها لا وكيلا أمينا يسعى لخيرها ، وتولد عن هذا الشعور سوء تفاهم أثر تأثيراً سيئاً في إدارة البلاد وعاق كثيراً من تقدمها ، فكان على الوزارة الجديدة أن تعمل على استبدال سوء الظن بحسن الثقة في الحكومة وعلى إقناع الكافة بأنها ليست إلا قسما من الأمة تخصص لقيادتها والدفاع عنها وتدبير شئونها بحسب ما يقتضيه صالحها العام» .

* * *

وتحطيم الدعائم التي كان يقوم عليها المجتمع المصري قبل القرن التاسع عشر قد مهد لبناء مجتمع جديد هو «الأمة» المصرية الحديثة ، فقد زالت الحواجز والقيود بين الطوائف المختلفة وأفسحت المنشآت الحكومية الجديدة كالمدارس والجيش والدواوين ، المجال لصهر أبناء الطوائف المختلفة والأقاليم المختلفة ، كما مكنت المصريين من الخروج من إسار الحياة الرتيبة التي عاشوها إلى فنون جديدة من النشاط وميادين جديدة لم يعرفوها من قبل ، فكان منهم الضباط في البر والبحر والمهندسون والمعلمون والموظفون والضاربون في كل عمل وفن . وتكونت بذلك طبقة جديدة في المجتمع المصري ، هي طبقة «الأفندية» من موظفي الحكومة ، الذين أسبغت عليهم الحكومة من مكانتها وهيبتها حتى أصبحت (الوظيفة) شرفا يتطلع إليه الشباب . وكان من نتائج التنظيم الاقتصادي الجديد أن انحلت الوحدة الاقتصادية المحلية في ظل اقتصاد وطني عام ، فازدادت الصلة بين المدينة والقرية كما نمت المدن بما اجتذبته الحياة الجديدة فيها من أهل الريف ، واتسع التبادل التجاري بين أجزاء الوطن الواحد ، واشتد الاحساس بحاجة الناس بعضهم إلى بعض ، واعتماد بعضهم على بعض ، وزادت أسباب الاتصال الروحي والمادي وتيسرت المواصلات ، فتقارب الناس بعضهم إلى بعض وعرف بعضهم بعضا ، وتقاربت قوالب التفكير العام . ثم كان للأحداث السريعة — السريعة بالنسبة لمألوف الحياة

المصرية قبل القرن التاسع عشر — أثرها فى إثارة الوعى العام وتوجيه الأفكار وجهة قومية عامة ، لا وجهة طائفية أو إقليمية . ويكفى أنه فى خلال فترة لا تزيد على عشر سنوات شهد المصريون غزوا فرنسيا لبلادهم وحملتين إنجليزيتين وحملة عثمانية ، كما شهدوا فنونا من معارك الحرب الحديثة وألوانا من التنظيم الاقتصادى والإدارى والثقافى لم يكن لهم به عهد من قبل . ثم توالت أحداث القرن التاسع عشر وما بعده متعاونة على ربط مصر بالعالم الخارجى ، تتأثر بأزماته ومطامعه ، فزادت مصر انسلاخا عن الدولة العثمانية ، وتكونت لها شخصيتها كأمة مصرية عربية ، وذلك بانتعاش الثقافة العربية فى المدارس والمعاهد والصحف والدواوين وتقوية الإدارة المصرية الوطنية والتوسع فى اقتباس الأساليب والأنظمة الغربية ، وما صحب هذا من انتفاء روح التعصب الطائفى والإقليمى والدينى ، باندماج الطوائف والأقليـــات المختلفة فى بناء مصر القومى ، وصهرها فى بوتقة القومية الواحدة .

هذه هى الدعامة التى قامت عليها نهضة مصر فى القرن التاسع عشر : بناء الدولة المصرية بعنصريها الأساسيين : الأمة والحكومة . وقد عرفت أوربا هذا التطور عرفته فى القرن السادس عشر ، عندما تأسست الدول القومية (Nation-States) فى غربى أوربا أولا ، فرنسا وانجلترا وأسبانيا ، حين جمعت الدولة فى يدها السلطة العامة سالبة إياها — شيئاً فشيئا — من النبلاء والكنيسة والمدن وطوائف الحرف ، واعتمدت على جيش قوى ثابت وأداة حكومية قوية وسياسة اقتصادية ترمى إلى جمع موارد البلاد تحت هيمنة الدولة واستخدامها لما فيه إعلاء شأن الدولة ولو تم ذلك على حساب الدول الأخرى . وهكذا بدأت اوربا عصر القوة العسكرية والاقتصادية ، التى وصلت غايتها فى القرن التاسع عشر ، وهو عصر سيطرة أوربا وسيادتها العالمية . وبينما كانت أوربا — فى هذه القرون الثلاثة — تزود بأسباب النهضة السياسية والاقتصادية والثقافية استعدادا لعصر التوسع الأوربى الكبير والسيادة الأوربية فى القرن التاسع عشر ، كانت بلاد الشرق الأدنى — ومنها مصر — تحت الحكم العثمانى تعيش فى عزلة وجمود وتضييع القوى والموارد وتشتت السلطة العامة ، فتخلفت بذلك عن ركب الحضارة العالمية قروناً ثلاثة ، حتى جاء القرن التاسع عشر فكان عصر يقظتها ، وكان بناء « الدولة القومية » المقوم الأساسى لهذه النهضة . وإذا كان المصريون قد فقدوا فى ظل

(النظام) الجديد جوانب كثيرة من حياتهم الاجتماعية كانت عزيزة عليهم ، فقد كسبوا أشياء أخرى كثيرة : كسبوا النظام بدل الفوضى ، والتعمير بدل الخراب ، والتعليم بدل الجهل ، وسيادة القانون بدل الغصب ، كسبوا الاتصال بالعالم والأخذ والعطاء بدل العزلة والانقطاع ، كسبوا الحقائق بدل الأوهام !

واتجهت مصر إلى أوربا لتتزود منها بأسرار القوة والنهوض ، ولكن أوربا في توسعها وأطماعها الاستعمارية أبت أن تقدم إلى مصر أسرار النهضة خالصة ، بل أصحبتها بفنون من التدخل والضغط منتهزة فرصة الضعف الاقتصادي والسياسي الذي نزل بمصر بعد سنة ١٨٤٠ نتيجة للتسوية الجائرة التي أملتها الدول الكبرى على مصر . وكان على مصر أن تسعى لتتزود بعوامل النهضة دون أن تفقد شخصيتها أو تضيع استقلالها . ولقد كافح المصريون طويلا ليوائموا بين حركة الاقتباس عن نظم الغرب السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية وبين حركة الضغط الأوربي ، ولكن المصريين أخفقوا في النهاية ، ذلك لأن أوربا لم تكن مستعدة للصداقة الخالصة ، وكانت تدعي أن رسالتها الحضارية تدعوها إلى التوسع السياسي والعسكري والاقتصادي ، فكانت حركة اقتسام افريقية في القرن التاسع عشر ووقعت مصر من نصيب بريطانيا (١٨٨٢) .

* * *

وكان للتطورات الاقتصادية التي شهدتها مصر في القرن التاسع عشر أقوى الأثر في إعادة بناء المجتمع المصري في ذلك القرن وما بعده .

وقد رأيت كيف كان الاقتصاد المصري — قبل القرن التاسع عشر — صورة عكست أحوال المجتمع المصري بصفة عامة : ركود وعزلة وجمود ، وفقدان لأي سياسة للتوجيه والترشيد ، ضعف الهمة ، وانعدام الحافز للتغيير ، حتى إذا بدأ بناء الدولة الحديثة في النصف الأول من القرن التاسع عشر — على عهد محمد علي — كانت البرامج الاقتصادية أهم الدعامات التي قام عليها هذا البناء ..

بدأت الحكومة بضبط مرافق البلاد الاقتصادية تحت إشرافها ، ولما كانت الأرض أهم موارد البلاد كان لا بد من اصطناع سياسة جديدة للاشراف على الزراعة والقائمين عليها . ألغى نظام الالتزام وأصبح الفلاحون جميعا « فلاحين الباشا » ، أي أصبح الباشا — وهو إذ ذاك يمثل الدولة — بمثابة ملتزم كبير ، هو وحده

الذى يتصل بالفلاحين ويجبى منهم المال المقرر على الأرض ، ويفرض عليهم الخطط الخاصة التى وضعها لاستغلال الأرض .

وكان إلغاء الالتزام تطوراً اجتماعياً واقتصادياً خطيراً ، إذ مكن لسلطان الدولة من التغلغل فى كافة أنحاء البلاد ، ومن السيطرة على أهم موارد الثروة فى البلاد ، ومن ثم بدأت عملية التنقيب والضبط ، وكشفت الحكومة فى (المساحة) التى أمرت بإجرائها عن (تلاعب) خطير : إذ ظهر أن مساحات واسعة من الأراضى كانت قد استبعدت من (الزمام) ، واستغلها واضعوا اليد عليها دون أن يدفعوا للحكومة شيئاً ، فأعيدت هذه الأراضى إلى المساحة العامة ودخلت فى نطاق الاستغلال العام .

ونتيجة لإلغاء الالتزام وتنظيم جباية المال على أسلوب حديث على أيدى جباة موظفين وتنظيم إدارة الأقاليم ، نتيجة لهذا كله وحدت الضرائب والرسوم والجبايات المختلفة التى كانت تؤخذ من الفلاح كالميرى والفائض والكشوفية والمضاف والبرانى وحق الطريق . . الخ ، فى ضريبة عامة واحدة عرفت باسم (المال) ، وربما كانت أعلى من الضرائب السابقة ، ولكنها أبسط وأسهل فى جبايتها وأقرب إلى العدالة .

وكذلك ضبطت الحكومة الصناعات القائمة ، وخاصة الغزل والنسيج ، كما شرعت فى احتكار التجارة الخارجية . حتى إذا مضت تلك المرحلة الأولى مرحلة الضبط والكشف ، بدأت المرحلة التالية فى السياسة الاقتصادية ، وهى مرحلة الانقلاب الاقتصادى ، وتميز بالعمل على زيادة الإنتاج ، أو التنمية الاقتصادية ، وقد كانت معركة مصر الحقيقية فى القرن التاسع عشر .

فالزراعة لا ينبغى أن تكون مقصورة على إنتاج المواد الغذائية اللازمة لسكان مصر ، وإنما ينبغى أن تتعدى هذه المهمة المحدودة إلى آفاق أوسع : فتنتج المواد اللازمة للنهضة الصناعية الحديثة التى أخذت بها مصر فى ذلك الوقت ، كما تنتج فائضا من المواد تصدر إلى الخارج ، فتجلب النقد الأجنبى إلى داخل البلاد مما يعين على زيادة مقدرتها الشرائية وعلى تمويل المشروعات الكبيرة التى بدأ تنفيذها . وبذلك تخرج الأرض المصرية من النطاق المحدود الذى فرض عليها حتى القرن التاسع عشر ، وهى إعاشة الناس وأداء مرتبات الجند ، إلى نطاق أوسع ، فتصبح الدعامة القوية للتجارة الخارجية ، والصناعات الكبيرة فى مصر .

وقد اقتضى تنفيذ تلك السياسة الزراعية الجديدة أمرين : الأول تدبير الماء اللازم لتوسيع الرقعة المزرعة أو المستصلحة للزراعة ، والثانى تنويع الزراعة المصرية بإدخال زروع جديدة أو تحسين زروع قائمة .

وقد فازت مصر فى معركتها الزراعية الكبرى فى القرن التاسع عشر ، فاستنقذت مساحات واسعة من الأراضى الزراعية من براثن الصحراء ، وتحولت مساحات أخرى واسعة إلى الرى الدائم بعد أن كانت تروى رياً حوضياً واتسعت زراعة الأنواع الجيدة من القطن وقصب السكر والنيلة والفاكهة وغيرها .

فتحولت مصر بذلك من النظام الزراعى الذى يقوم على الانتاج لاستهلاك القرية والمناطق المتاخمة لها إلى النظام الزراعى الذى يقوم على التخصص والإنتاج لسوق أوسع نطاقا ، هى السوق المصرية عامة والسوق الخارجية أيضاً .

ولقد كان من الصعب تنفيذ هذه السياسة دون أن تشرف الحكومة إشرافا تاما على الأرض والزراعة وتصريف المنتجات الزراعية ، فإن فقر الفلاح وجهله وتعصبه للقديم وروحه المحافظة — كل أولئك كان عقبات فى طريق النهضة الزراعية الجديدة ، وللتغلب عليها كان لا محيص من أن تأخذ الحكومة الأمر كله بين يديها فتوزع الأرض على الفلاحين طبقاً لقدرة كل عائلة وعدد أفرادها ، وتحدد لهم مساحة كل محصول ، وتشرف إشرافا تاما على عملهم فى مختلف مراحل الفلاحة ثم تحاسب الفلاح على ما أنتجه ، وبذلك تضع يدها على أكثر محصولات البلاد وخاصة المحصولات ذات الصلة بالأسواق الخارجية وحركة التصنيع المحلى . ومن هنا جاء ذلك العبء الضخم الذى ألقى على عاتق المشتغلين بالفلاحة فى عهد محمد على ، فقد فقدوا حريتهم فى العمل ، واستبد بهم عمال الحكومة ، وحرموا التمتع بثمار كدحهم . والحق أن حكومة محمد على قد عملت على تأمين الفلاح فى أرضه ، فزادت فى اللوائح التى وضعتها (وخاصة بعد ١٨٤٠) من حقوق حيازة الفلاح لأرضه ، كحق البيع والرهن والتأجير ، ولكنها لم تكن ملكية تامة ، والحق أن الدولة فى معركتها الكبرى فى سبيل تنمية الإنتاج الزراعى لم تحفل كثيراً بالناحية « الإنسانية » للمشتغلين بالفلاحة ، فإذا كانت الدولة قد أفادت من تطبيق سياستها الزراعية الجديدة ، فاستطاعت المضى فى تمويل المشروعات والمؤسسات الكبرى ومرافق النهضة المختلفة فى البلاد ، إلا أن تنفيذ

هذه السياسة لم تؤد إلى رفع مستوى معيشة الكثرة من الناس ، بل لا نغلو إذا قلنا إنها زادت سوءاً ، فقد غلت أسعار المواد الغذائية الأساسية ، ولم يقابل ذلك ارتفاع قدرتهم الشرائية ، هذا إلى الأعباء الأخرى التى ألقيت على عاتق المشتغلين بالفلاحة وهم أكثر المصريين ، من حفر وتعميق وتطهير . دع عنك التجنيد للجيش ، حيث كان الفلاح يقضى فيه زهرة حياته ، فلا يعود إلى أهله — إن عاد — إلا كهلا .

فاذا قدرنا المشكلة الكبرى التى كانت تعانيها مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، مشكلة النقص فى الأيدى العاملة ، نتيجة لقلة سكان مصر وتوالى الأوبئة وقصور العناية الصحية ، فى الوقت الذى احتاجت فيه مشروعات التعمير والتوسع الاقتصادى فى الزراعة والصناعة والتوسع الحربى إلى الأعداد الوفيرة من المصريين ، إذا قدرنا ذلك قدرنا العبء الضخم الذى نهض به المصريون فى ذلك العهد . وخاصة أهل الفلاحة منهم وهم الكثرة الساحقة .

وقد شملت الثورة الاقتصادية المرافق الأخرى عدا الزراعة ، فالأرض — وإن بقيت المصدر الأساسى للثروة القومية — لم تعد وحدها تحمل العبء كله إذ اهتمت الدولة بالمصادر الأخرى ، قدر محمد على أن الصناعة الحديثة الكبيرة عصب الدول القوية ومصدر قوتها السياسية والعسكرية ، ولما كان بسبيل إنشاء قوة عسكرية ضخمة فى البر وفى البحر كان لابد من الأخذ بسياسة التصنيع ، لإمداد الجيش والأسطول بحاجتهما من السلاح والعتاد والملابس ، والسفن ومواد البناء وغيرها ، وقدر كذلك قصور الصناعة المحلية عن الوفاء بحاجاته الجديدة ولم تكن العقبات المختلفة لتصرفه عن مشروعاته الصناعية الكبرى ، فقد كان يقدر أن مصر تملك كثيراً من المواد الأولية التى تنتجها أرضها ، والتى تحتاج إليها الصناعات الأجنبية ، كان يحز فى نفسه أن « يشترى الأوربيون قطننا ويدفعون عليه جمركا ونولونا ، ثم يشغلونه ويأتون بالمصنوع منه بنفقات أخرى من النول والجمرك ويبيعونه بأثمان أرخص من مصنوعاتنا » .

وكان يقدر رخص الأيدى العاملة فى مصر ، وقدرة الحكومة على تمويل المشروعات الصناعية الكبيرة من أرباحها فى عمليات التجارة ، أما ماعدا ذلك من عقبات كصعوبة التعدين والخبرة الفنية فقد بذل أقصى ما فى وسعه للتغلب عليها وضحى فى سبيل ذلك كثيراً .

وأثمرت سياسة التصنيع ثمرتها : فأنشئت فى القاهرة والاسكندرية وكثير من مدن الأقاليم مصانع كبيرة لغزل القطن ونسجة والحرير والكتان والجوخ ومصانع لانتاج الأسلحة المختلفة من بنادق ومدافع ورصاص ، ومصانع الطرابيش ودور الصناعة البحرية ، ولم ترض انجلترة عن سياسة التصنيع هذه ، وكم حاول مبعوثوها أن يقنعوا محمد على بان يتخلى عن سياسته الصناعية فيقصر اهتمامه على الأرض والزراعة تاركا أمور الصناعة لمن حذق أسرارها ، وهم كفيلون بأن يبيعوا له ما يتنجه بأرخص مما تنتجه مصانعه . وكان محمد على يدرك أن مؤسساته الصناعية تكلفه كثيراً لأسباب وعوامل مختلفة ، منها ما يتعلق بقلة الاستعداد فى أول الأمر لادارة الصناعة على وجهها الحديث ، ومنها مايتعلق باستحالة اتخاذ وسائل الحماية التى عرفتها الأمم المستقلة فى دور التصنيع ، فقد كان مقيداً بالرسوم الجمركية التى حددتها المعاهدات التجارية بين الباب العالى والدول الأجنبية ، لهذا لم يستطع أن يفرض رسوما عالية أو مانعة على الوارد من المصنوعات الأجنبية لحماية الانتاج المحلى ، ولكنه رغم هذا مضى فى كفاحه لتشجيع الانتاج المحلى ، وذلك بتقييد الواردات الأجنبية ، والاستعاضة عنها بالتوسع فى الانتاج ، ولو كانت هذه المنتجات المحلية أغلى ثمناً وأقل جودة ، مع العناية بتوزيع المصنوعات المحلية فى السوق الداخلى على نطاق واسع وبطرق مختلفة منها الإلزام فى بعض الأحيان ، وكذلك توزيعها فى أسواق الامبراطورية المصرية ، الأمر الذى يؤدى إلى ثروة الشعب ويغنيهم عن مصنوعات البلاد الأجنبية ، حتى لا تتسرب أموالهم إلى الخارج » .

ومضت انجلترا فى كيدها لمصر « الصناعية » ومن ذلك تلك المعاهدة الاقتصادية التى عقدتها مع تركيا (١٨٣٨) لفتح أبواب الولايات العثمانية — ومنها مصر — للتجارة الأجنبية ، دون قيد أو شرط . ثم كانت حملتها السياسية الكبرى وتحالفها مع تركيا والدول الكبرى ضد مصر ، ثم تدخلها العسكرى ضد مصر والتسوية التى فرضتها على مصر (١٨٤٠ — ١٨٤١) ، وكان تحديد قوة مصر العسكرية فى البر والبحر أهم أهدافها ، ولما كانت الصناعة الحديثة قد ارتبط قيامها فى مصر بالجيش والاسطول فقد اقفلت كثير من المصانع وانهارت بذلك التجربة الصناعية الأولى ، وكان العامل الأساسى لهذا الانهيار أنها قامت فى وقت كانت الرأسمالية الصناعية فى انجلترا خاصة تعمل على غزو العالم بمنتجاتها .

وقد أثرت سياسة التصنيع الجديدة تأثيرا سيئا على الصناعات الصغيرة القديمة ، فقد بدأ محمد على باحتكار هذه الصناعات ، وذلك بأن أمر بضبط وقيد المشتغلين بها ، ورتب لهم المواد الخام اللازمة لعملهم ، ثم وضع يده على إنتاجهم بعد إتمامه ، فأصبحوا مجرد أجراء بعد أن كانوا أصحاب عمل ، بل إنه عمل مثل ذلك بالنسبة للفلاحين والفلاحات فى القرى الذين كانوا يعملون فى الغزل . وبعد إنشاء المصانع الجديدة تحول إليها عدد كبير من الصناع من أصحاب الحرف الصغيرة . ومما أعان محمد على على تنفيذ سياسة الضبط بالنسبة للصناعات الصغيرة انحلال طوائف الحرف التى كانت قوامة على الصناعة فى المدن .

وقد حاولت الصناعات المحلية الصغيرة أن تستعيد نشاطها بعد انهيار النظام الصناعى الكبير ، ولكنها كانت قد فقدت كثيرا من مقوماتها ، فقدت الخبرة الفنية التى كانت تعتزبها ، وفقدت نظام الطوائف الذى كانت تحتمى فى ظله ، وأهم من ذلك أنها لم تعد ـ وحدها ـ قادرة على تلبية الحاجات الجديدة والأذواق الجديدة للمجتمع المصرى فى تطوره فى القرن التاسع عشر ، ولم تعد قادرة على الصمود لمنافسة المصنوعات الأجنبية بإنتاجها الجمعى وأثمانها الرخيصة .

وقد احتلت التجارة أكبر نصيب من اهتمام محمد على ، وكان لابد لمشروعات التنمية الاقتصادية فى الزراعة والصناعة أن تكملها سياسة تجارية نشطة ، ترمى إلى « تتجير » الزراعة من ناحية وحماية الصناعة المصرية من ناحية أخرى . فالزراعة لم تعد مقصورة على إنتاج المواد اللازمـــة للاستكفاء الذاتى ، وإنما تعدت ذلك إلى إنتاج المواد الأولية التى تتطلبها الأسواق الأجنبية ، وخاصة القطن والنيلة والسكر والأرز وغيرها ، وبذلك عاد الاقتصاد المصرى فارتبط بالاقتصاد العالمى وأصبح ـ منذ ذلك الوقت ـ يتأثر باتجاهاته وأزماته . ولما كانت المشروعات الواسعة للتبادل التجارى تحتاج إلى نظام دقيق للتمويل والخبرة الفنية بالأسواق وحركة التبادل العالمى ، كما تحتاج إلى نقد أجنبى لايتوافر فى داخل البلاد نتيجة لعدم وجود هيئات أهلية كالبنوك والشركات والقائمين بأعمال السمسرة والقومسيونجية ... الخ رأى محمد على أن تنهض الحكومة نفسها بعمليات التبادل التجارى مع البلاد الأجنبية ، سواء فى مصر نفسها أو فى الأسواق الأجنبية ، وقد ساعده على تحقيق ذلك نجاح سياسته فى ضبط الأراضى والهيمنة على الزراعة

والصناعة ، فأصبح لدى الحكومة ـ فى شونها ومخازنها ـ كميات كبيرة من المنتجات الزراعية والصناعية ، قامت على تصريفها فى داخل البلاد وفى خارجها . وهكذا أخذت الحكومة لأول مرة على عاتقها شئون التجارة الداخلية والخارجية ، وقد حققت لها هذه السياسة أرباحا جزيلة أصبحت تكون نصيبا كبيرا من الميزانية السنوية للدولة ، وأصبح بذلك لدى الحكومة فائض من النقد المحلى والأجنبى تستخدمه لتمويل مشروعات التعمير والتوسع العسكرى والانفاق على مختلف مرافق البلاد من صحة وتعليم وجيش ... الخ كما استخدمت الحكومة سياستها التجارية الجديدة لحماية المصنوعات المحلية ، فكان يعفى ما يصدر منها إلى الخارج من الرسوم الجمركية تشجيعا للتوسع فى التصدير ، كما أنه جعل أكثر التصدير والاستيراد يجرى عن طريق الحكومة (ومن ذلك أنه فى سنة ١٨٤٠ كان ٤٠ ٪ من مجموع الواردات إلى مصر لحساب الحكومة) ، وبذلك تعمل الحكومة على تشجيع التصدير وتقييد الاستيراد فيتحقق لها ما كانت تصبو اليه وتعمل له : وهو حصول الدولة على فائض فى الميزان التجارى لصالحها .

على أن السياسة التجارية الجديدة القائمة على الاحتكار التى أخذت بها مصر فى عهد محمد على لم تكن ترمى فقط إلى تحقيق الربح المادى . على ما لذلك من أهمية قصوى لدولة ناشئة آخذة بأسباب النهوض فى مختلف الميادين ، ولكن الناحية (القومية) كانت لاشك ملحوظة أيضا فى هذه السياسة التجارية الجديدة ، فان فقدان الهيئات الوطنية ذات الخبرة الفنية بمسائل التجارة والأسواق ، كان كفيلا بأن يفتح الباب على مصراعيه للأجانب لينهضوا بهذه الأعمال ، ومن ثم يتاح لهم أن يسيطروا على الاقتصاد المصرى . فكان على الحكومة أن تتدخل لحماية المنتجين المصريين من زراع وصناع ، وهم عماد الثروة القومية . وذلك بأن تقوم هى نفسها بدور التاجر ، بعد أن قامت بدور الزارع والصانع ، وهكذا سيطرت الحكومة المصرية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر سيطرة تامة على الاقتصاد المصرى واستخدمت هذه السيطرة لجنى الربح المادى من ناحية وتجنيب البلاد سيطرة العنصر الأجنبى من ناحية أخرى ، وهو ماحدث فى النصف الثانى من القرن الماضى ، حتى الحرب الكبرى الأولى ، عندما أخذ العنصر المصرى يدخل ميادين الاقتصاد الأهلى . فان سياسة محمد على التجارية كانت من أهم العوامل التى ألبت عليه الدول الأوربية الكبرى وخاصة انجلترا ، فعلى الرغم

من أنها كانت فى ذلك الوقت تأخذ بسياسة الحماية التجارية ، إلا أنها أبت على مصر أن تتخذ هذه السياسة لحماية اقتصادها الأهلى وألحت على محمد على ليفتح أبواب مصر للتجارة الأجنبية دون أى قيد ، فلما أبى محمد على عليها ذلك راحت تؤلب عليه الباب العالى ، وعقدت معه (١٨٣٨) معاهدة بلطة ليمان . ثم سعت سعيها السياسى والعسكرى حتى فرضت على مصر تسوية ١٨٤١ ، وأصبحت مصر ملتزمة بتنفيذ المعاهدات التى تعقدها الدولة العثمانية مع الدول الأخرى ، هذا إلى انكماش الجيش و الأسطول ، مما أدى إلى تعديل السياسة الاقتصادية القائمة على الاحتكار ، فبدأت الحكومة تفك من قيود الاحتكار قيدا بعد آخر ، فأطلقت للفلاحين حرية التصرف فى محصولاتهم وخاصة المحصولات الغذائية ، وزادت فى حقوق الفلاحين فى أرضهم (لوائح ١٨٤٦) ، وتراخت قبضتها عليهم فى مسائل الزراعة وتحديد الزروع ، وفى ميدان الصناعة أغلقت كثير من المصانع الحكومية أبوابها ، وعادت الصناعات البسيطة القديمة فأصابت حظا من الانتعاش ، وانعكست هذه الخطط على التجارة الخارجية ، فاطلقت من قيودها ، وأصبح التصدير والاستيراد لايخضعان إلا لقانون العرض والطلب ، واستغل التجار الأجانب هذه الفرصة الجديدة فأنشأوا لهم وكالات بمصر ، وأخذا يجمعون الحاصلات المصرية وخاصة القطن ويصدرونه إلى الخارج ، كما عملوا على غمر السوق المصرية بالمصنوعات الأجنبية ، مستفيدين من الرسوم الجمركية الضئيلة التى كانت مفروضة على الواردات ، وهكذا بدأ الأجانب يتوغلون فى داخل البلاد ، وأصبحوا يؤسسون لهم فيها مصالح ثابتة ، وتدفقت رءوس الأموال الأجنبية على مصر على شكل محلات ووكالات تجارية ، وإقراض للفلاحين بالربا الفاحش ، وشراء للأراضى والعقارات ، وشركات لاستصلاح الأراضى الزراعية ، وبنوك ومصارف مالية وإنشاء الموانى والمناثر والسكك الحديدية والجسور وتعبيد الطرق ، وإقراض الحكومات .

ومما يلفت النظر أن الأجانب لم يستثمروا رءوس أموالهم فى مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وما بعده فى المشروعات الصناعية ، بل وجهوها إلى المشروعات العمرانية الأخرى : كالشركات الزراعية والعقارية والبناء وتنفيذ أعمال الحكومة وعمليات التسليف ، ذلك لأن هذه المشروعات تحقق لرءوس الأموال الأجنبية أرباحا تفوق الأرباح المتوقعة من المشروعات الصناعية ، هذا إلى أن

ترويج الصناعة المصرية ليس من مصلحة الأجانب ودولهم فى شىء ، لأن هذا الترويج يصبح حائلا دون غمر السوق المصرية بالمصنوعات الأجنبية . وبازدياد حدة المنافسة الأجنبية قضى على الكثير من الصناعات المصرية الصغيرة وحل الكساد بالأحياء التى كانت الصناعة مزدهرة بها وخاصة فى القاهرة ، بينما حالت صعوبات التمويل دون نمو صناعات جديدة . ثم جاءت سياسة الاحتلال البريطانى فلم تشجع على نمو الصناعة المصرية بل قصرت عنايتها على الأرض والزراعة ، وخاصة زراعة القطن لسد حاجة لانكشير منه والحصول من النقد الأجنبى على مايكفل سداد أقساط الديون وفوائدها . هذا إلى أن انخفاض مستوى المعيشة عند السواد الأعظم من الشعب قد أضعف القوة الشرائية وحال دون ايجاد فائض من المدخرات الأهلية يكفى لتمويل مشروعات اقتصادية واسعة لاينتظر منها أن تأتى بربح عاجل ، ولم تكن مصرحرة فى تدبير سياستها الجمركية بفعل الامتيازات الأجنبية . وكان سعر الضريبة الجمركية على الواردات من الآلات والمواد الأولية يعادل سعر الضريبة على السلع التامة الصنع أو يزيد ، بل إن بعض السلع المنتجة محليا كان يتحمل ضريبة إنتاج تعادل الضريبة الجمركية على الواردات المماثلة » .

وهكذا عرف المصريون فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ذلك النوع الجديد من الأجانب ، وشتان مابينهم وبين أجانب القرن الثامن عشر ، الذين كانوا لايكادون يتعدون مساكنهم فى الأحياء الخاصة بهم فى القاهرة والإسكندرية والموانى الأخرى ، ويقومون بتجارة (الجملة) أو الوكالة عن بيوتهم التجارية فى بلادهم وكانوا يعيشون على (هامش) المجتمع المصرى ، بل كانوا أحيانا موضع استغلال الطبقات الحاكمة ، و لاصلة لهم إلا ببعض الطوائف المسيحية واليهودية . أما أجانب القرن التاسع عشر وما بعده فقد تنقلوا فى المدن الكبيرة والصغيرة بل وصلوا إلى القرى ، واتصلوا بمختلف الطبقات ، وأصبحت لهم بمصر مصالح ثابتة ، فأنشأوا لهم المستشفيات والمدارس وأصدروا الصحف ، وأصبحوا عنصرا هاما فى الحياة المصرية ، مستفيدين من حالة الأمن التى انتشرت فى البلاد وسهولة المواصلات والتوسع فى زراعة القطن وفتح قناة السويس وتقدم النقل البحرى كما نهضت دولهم لحماية مصالحهم ، عن طريق التوسع فى تيسير وتطبيق الامتيازات الأجنبية ، وعندما أريد الحد من شرورها أنشئت لهم محاكم خاصة هى المحاكم المختلطة ، وهكذا أصبحت الجاليات الأجنبية بمثابة دولة فى داخل الدولة المصرية .

حتى إذا تخبطت الحكومة فى سياستها المالية بالتوسع فى عقد القروض من البيوت المالية الأجنبية فرضت الدول الأجنبية الرقابة المالية على مصر ، وهكذا سيطر الأجانب على الاقتصاد المصرى والمالية المصرية والحكومة المصرية . ومهد ذلك للتدخل السياسى فالتدخل العسكرى فالاحتلال .

وهكذا « تحرك » الاقتصاد المصرى فى القرن التاسع عشر ، فأصبح اقتصادا قائما على النقد . بعد أن كان أكثره قائما على المقايضة ، ونزلت الأرض إلى ميدان التبادل الحر ، نتيجة لعوامل كثيرة : فقد زاد إطمئنان الفلاح إلى أرضه وحرصه عليها بزيادة حقوقه فيها بالتدريج ، حتى اعترفت الدولة ـ فى عهد اسماعيل ـ اعترافا تاما بالملكية الفردية للأرض ، وبمنحه حرية التصرف فى محصوله . بفك قيود الاحتكار فى أواخر حكم محمد على ، حتى إذا ارتفع ثمن القطن فى أوائل حكم اسماعيل على أثر قلة الصادر من القطن الأمريكى إلى أوربا بسبب الحرب الأهلية فى أمريكا ازداد الاقبال على الأرض وعلى حيازة الأرض ، هذا إلى انتشار الأمن ، وسيادة القانون .

ولم يجد كبار الزراع مجالا لاستثمار فائض مدخراتهم سوى الأرض الزراعية ، فالمجالات الأخرى فى الصناعة والتجارة كانت لا تزال بعيدة عن تفكير المصريين واهتمامهم ، ونشطت شركات استصلاح الأراضى ، وانتشرت وسائل الرى الحديثة فأقبل كبار الزراع على حيازة الأراضى ، ومن هنا بدأ المجتمع الريفى المصرى يتشكل على نحو جديد ، لا يزال أثره قائما حتى الوقت الحاضر ، إذ تكونت الملكيات الزراعية الكبيرة ، بينما فقد كثير من الفلاحين الأرض التى كانوا يحوزونها ، وأصبحوا إما مستأجرين لأراضى ، أو مجرد عمال زراعيين يعملون بالأجرة اليومية ، وهم لذلك معرضون لآفات البطالة . وهذه طبقة من أهل الفلاحة كان المجتمع الريفى لايكاد يعرفها حتى القرن التاسع عشر ، إذ كانت الأرض الزراعية على قلتها قبل القرن التاسع عشر تكاد تكون موزعة توزيعا عادلا بين الفلاحين ، بل لقد بلغ من التهافت على حيازة الأرض الزراعية أن كثيرين من أهل المدن سواء كانوا من أصول ريفية أم كانوا من أبناء المدينة ، كالموظفين وأهل الطبقة المتوسطة قد أقبلوا على امتلاك الأراضى لمجرد الاستثمار ، دون أن يعرف كثيرون منهم شيئا من أصول الفلاحة .

وهكذا بدأ المجتمع الريفى يعرف هذا التفاوت الكبير فى الثروة الذى أصبح من خصائص ذلك المجتمع فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وما بعده .

ونشأت بذلك مشكلة خطيرة أثرت فى حياة البلاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، حتى جاءت ثورة يولية ١٩٥٢ فأصدرت قانون الإصلاح الزراعى الذى حدد الحد الأعلى للملكية الزراعية بمائتى فدان ، وعمل بذلك على زيادة الملكيات الزراعية الصغيرة .

* * *

ولم تكن قوة المال وحدها دعامة النهضة المصرية فى القرن التاسع عشر ، وإنما قامت إلى جانبها دعامة أخرى لا تقل عنها قوة وخطرا ، هى قوة العلم .

ولم يكن العلم غريبا عن مصر ، فقد كان طلبه فريضة على أهلها ، وكان أهل العلم فى الحضر والريف موضع احترام الناس وتبجيلهم ، تشد إليهم الرحال وتطلب منهم (الإجازة) . . بل كان العلم عند الكثيرين يطلب لذاته ، وكان أكثر (المعلمين) يبذلونه حسبة لله وزكاة ، فى وقت لم يكن التعليم وظيفة من وظائف الدولة يدبر له المال وتوضع النظم وتنشأ المعاهد ، وإنما ترك للأفراد والطوائف . وكان الأزهر وحده المصدر الرئيسى للتعليم والثقافة فى مصر ومنه يستمد المصريون مقومات التفكير . وكان له من قدمه فى التاريخ وتغلغله فى المجتمع المصرى ما مكنه من الحياة وسط ما انتاب البلاد من عواصف الفتن ، هذا إلى اطمئنان المصريين إلى التعليم الذى يلقى فى رحابه وحول أعمدته وعدم ظهور الحاجة إلى التعديل فيه تعديلا أساسيا يمهد لحاجات جديدة ، فقد كانت شئون الحكم وما يتبعها من ألوان الوظائف مقصورة على غير أبناء البلاد ، كل أولئك قد أعانه على البقاء ومكن له فى حياة الأمة المصرية . لهذا عكف الأزهر على تقاليده التى اكتسبها منذ أجيال يستمد منها قوة تعينه على البقاء ورأى فى احتفاظه بتلك التقاليد مصدر قوة له وحياة وبذلك وقف الأزهر حارسا للتقاليد القائمة على الثقافة الدينية وأنتج لذلك عقلية خاصة كان لها أكبر الأثر فى صبغ التفكير والثقافة فى مصر صبغة خاصة .

حتى إذا بدأ محمد على يضع دعائم جديدة لنهضة اقتصادية وحربية جديدة احتاج إلى من يعينه للقيام على ما تتطلبه هذه النهضة .

وقد قضى محمد على طوال حكمه يتلمس العمال والأعوان ، تلمسهم فى رجال العهد القديم من ترك وألبان ومماليك ، وتلمسهم فى من وفد إلى مصر من ارمن ومن أهل الشام والمغرب ومن إليهم ، وتلمسهم فى من دعاه إلى مصر من الأوربيين ، من إيطاليين وفرنسيين وانجليز وغيرهم . ولكن محمد على كان يدرك أن هؤلاء الأخلاط فيهم الناصح الكفء الأمين ، وفيهم الأفاق والجاهل ، فاتجه محمد على وجهة أخرى : وهى إرسال عدد من الشبان ممن حصلوا على قدر من التعليم إلى أوربا للدراسة فى معاهدها حتى إذا عادوا إلى مصر نقلوا إليها « اسرار » النهضة الأوربية . ولكن هذا كله لا يكفى لإعداد الفنيين الذين تحتاج إليهم نواحى النهضة المختلفة وخاصة الجيش والأسطول ، فكان لابد من إعدادهم فى مصر نفسها .

وكانت هذه فى الحق خطوة جريئة ، لا تقل خطراً عن تكوين الجيش من المصريين .

ولكن الأزهر لم يكن يعلم الطب أو الهندسة أو فنون الحرب والصناعة وما إليها من العلوم « الحديثة » . أدرك محمد على أن من العبث أن يلتمس هؤلاء « الفنيين » فى أروقة الأزهر وحول أعمدته ، فقد كانت الهوة سحيقة بين ما يلقى فى الأزهر وما إليه وما تتطلبه حاجات الدولة الجديدة . لم يكن أمام محمد على إذن إلا أحد أمرين : الأول أن يحول الأزهر والكتاتيب أو بعبارة أخرى التعليم القديم وهو تعليم « دينى » قبل كل شىء إلى النحو الذى يحقق أغراضه فى إعداد أهل البلاد لولاية شئونهم فى الإدارة والجيش والمصانع والمدارس والمستشفيات . والأمر الثانى أن يترك الأزهر والكتاتيب وينشىء بجانبها مدارس للتعليم « الحديث » على النسق الغربى يعلم فيها أبناء البلاد ليكونوا عماله فى حركة الإصلاح وفى القيام على ما شيد من مؤسسات ونظم اقتصادية وحربية .

ظهر لمحمد على أن التعليم فى الأزهر لا يمكن أن يحقق أغراضه فى إعداد الفنيين ، وتحويل الأزهر بتقاليده مجهود شاق لا تؤمن مغبته : فالتدريس فيه مقصور على علوم اللغة والدين وأساتذته يكادون يجهلون كل ما عداهما ، ولا شك

أنهم لن يرتاحوا إذا رأوا غيرهم يناظرهم بعلوم جديدة فى معهدهم القديم الذى يعدون أنفسهم (حراسا) على تقاليده .

وقد يكون الدرس الذى تلقاه محمد على حين حاول تنظيم فرقه القديمة ، (الألبانية) طبقا للنظم الحربية الأوروبية الحديثه فثاروا عليه واضطروه إلى انتهاج خطة أخرى تقوم على أساس جديد ، وهو ترك الفرق القديمة كفرق غير نظامية وإنشاء جيش وطنى نظامى جديد . لعل هذا الدرس كان ماثلا أمام عينيه عندما بدأ يضع نظامه التعليمى الحديث ، تخشى إثارة حفيظة العلماء وما يتبع ذلك من تهيج الشعور الدينى لدى العامة . لهذا ترك محمد على التعليم القديم لأصحابه وأنشأ بجانبه نظاما آخر للتعليم على أسس جديدة على أن يسد هذا النظام حاجته بنفسه ففى هذا النظام معاهد للدراسة الابتدائية ثم معاهد للدراسة التجهيزية فالعالية أو الخصوصية وكل مرحلة تعد التلاميذ لما بعدها .

وهكذا قام نظاما التعليم الدينى والمدنى فى مصر ، وعاشا جنبا إلى جنب حتى الوقت الحاضر ، ولا زالا يتقاسمان الإشراف على شئون التربية والتعليم فى مصر . وأظهر بذلك محمد على أنه فى مسائل التربية والثقافة — وهى بطبيعتها مسائل ذات صلة بالروح ، لاينبغى تناولها إلا بقدر كبير من السماحة ، كان محمد على فى هذه المسائل أبعد ما يكون عن روح « الاحتكار » و « الحجر » التى طبقهـا فى المسائل الاقتصادية . فقد ظل التعليم الدينى بمعاهده ودراساته ورجاله حرا بعيداً عن رقابة الدولة وسلطانها . واكتفت حكومة محمد على بأن جمعت بين يديها نظام التعليم الحديث ، وهو التعليم المدنى الذى يعد للوظائف ، وهو التعليم الذى أنشأت معاهده وقامت على شئونها جميعاً . ولـكن محمد على كان حريصاً على أن تكون لغة التعليم فى هذه المدارس — على اختلاف مراحلها — اللغة العربية ، لم تصرفه عن ذلك مشقة التعليم باللغة العربية فى بعض المدارس الخصوصية ، أو العالية كالطب والهندسة ، فى وقت كانت تنعقد فيه للمرة الأولى بعد أجيال الصلة بين هذ العلوم واللغة العربية .

فكان على المدارس أن تتلمس وســائل مختلفة ، فقد ألحق بالأساتذة الأجانب معلمون ومترجمون يتلقون دروس هؤلاء الأساتذة بلغاتهم الإيطالية أو الفرنسية ، ثم ينقلونها إلى اللغة العربية ، ثم يدفعونها إلى مصححين من

علماء الأزهر ، حتى اذا أخذت شكلها النهائى فى اللغة العربية ألقيت إلى الطلاب ثم جمعت كراسات وكتبا . وبذلك احتفظت المدارس الحديثة بصبغتها كمدارس عربية ، وأثرى التعليم « العربى » وانتعشت الثقافة العربية . فمهد هذا لوصل حاضر الثقافة العربية بماضيها ، كما مكن لاحتفاظ الامة المصرية بشخصيتها كأمة عربية إسلامية .

وقد نهضت « المطبعة » لتكمل عمل « المدرسة » ، فقامت على طبع العشرات من الكتب فى فنون وعلوم مختلفة ، أكثرها باللغة العربية ، ومنها ما كان بالتركية أو الفارسية ، وكانت الحكومة تبيعها بأثمان منخفضة حتى تؤمن لها الانتشار بين القارئين فى مصر وسائر البلاد العربية . كما قامت المطبعة بنشر أمهات التراث العربى ، مما أدى إلى إحياء تلك الدراسات وانبثاق ناحية مهمة للنهضة العربية .

لهذا لم يكن الفصل حاداً بين معاهد التعليم الدينى القديم ومعاهد التعليم المدنى الحديث ، وقد عاون الازهر الحكومة كل العون فى دعم معاهدها الحديثة : فأمدها بمدرسى اللغة العربية ، وبنظار مكاتب المبتديان ، والمصححين فى المدارس الخصوصية ، وأمدها بكتب الدراسة فى اللغة العربية والدين ، بل إن بعض المدارس كالطب والمهندسخانة ، استمدت طلابها فى السنوات الأولى من انشائها من بين مجاورى الأزهر .

وكذلك أرسلت الحكومة عدداً من الطلاب الأزهريين لإكمال دراستهم فى فرنسا ، ومن بين هؤلاء العالم المصرى الكبير (رفاعه رافع الطهطاوى) الذى جمع بين الثقافتين الاسلامية والأوربية ، وعمل على أن يطبع تلامذته فى مدرسة الألسن بهذا الطابع . وكون منهم قلم الترجمة بأقسامه الثلاثة : قسم العلوم الطبية وقسم العلوم الرياضية والطبيعية ، وقسم الاجتماعيات ، وقد توفروا على ترجمة عدد كبير من الكتب من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية ، وقامت مطبعة بولاق على طبعها ونشرها .

وهكذا عادت الصلة فانعقدت بين اللغة العربية والعلوم التطبيقية ، وأثبتت اللغة العربية قدرتها على التعبير عن مطالب العلم الحديث . كما انعقدت الصلة بين الثقافتين العربية والأوربية ، وأصبحت الثقافة الغربية قوية الأثر فى تفكير المصريين وحياتهم الاجتماعية . وهو أثر سيضطرد نمواً على طول القرن التاسع عشر ومابعده .

وقد أصابت النهضة التعليمية ازدهاراً ملحوظاً بين سنتى ١٨٣٦ و ١٨٤٠ إذ وضعت لوائح التعليم ونظمت المناهج فى مراحله المختلفة واستكمل « النظام » التعليمى كيانه ، فكان هناك نحو ٥٠ مدرسة ابتدائية «مبتديان» ومدرستان تجهيزيتان إحداهما بالقاهرة والأخرى بالاسكندرية وعدة مدارس خصوصية كالطب البشرى والطب البيطرى والصيدلة والزراعة والمحاسبة والمهندسخانة والألسن والعمليات (أو الفنون والصنائع) والمكتب العالى بالخانقاه .

وتظمت المدارس الحربية كمدرسة المشاة ومدرسة الفرسان ومدرسة المدفعية والمدرسة البحرية بالاسكندرية .

هذا عدا مدارس خصوصية وحربية أخرى أنشئت لفترات محدودة ، كالدرسخانة الملكية والادارة الملكية والمساحة والكيمياء والمعادن وأركان الحرب والموسيقى .

حتى اذا كانت تسوية ١٨٤١ لجأت الحكومة إلى سياسة الاقتصاد فى تدبير مرافق البلاد وفى مقدمتها الجيش ، فاضطرت إلى إلغاء بعض المدارس ، وضم بعضها إلى البعض الآخر : ففى التعليم الابتدائى اقتصر على مدرسة بالقاهرة وأربعة مكاتب بالأقاليم ، وجعلت المدرسة التجهيزية قسما من أقسام مدرسة الألسن ، وأنقص عدد الطلاب فى المدارس الأخرى .

على أن البناء التعليمى ظل — مع هذا — سليما ، بل إن تحديد عدد الطلاب مكن الدولة من العمل على رفع مستوى التدريس وهيئة التدريس وحياة الطلاب فى المدارس ، وتحسين الأبنية التى تشغلها المدارس .

وقد ظل الاهتمام بالتعليم يحتل جانباً كبيراً من اهتمام الدولة على الرغم مما أخذت به من القصد والاعتدال فى الانفاق على أثر فك الاحتكارات التى كانت تدر على الحكومة أرباحا كثيرة ، ومن ذلك أنها أنشأت فى سنة ١٨٤٣ مدرسة تجريبية ألحقتها بمدرسة المبتديان بالقاهرة لتجريب طرق جديدة فى التدريس تمهيداً للتوسع فى نشر التعليم الابتدائى بأسهل طريقة وبأقل تكاليف ممكنة ، وفعلا أنشئت بعض مكاتب « الملة » (أى الشعب) .

ولكن هذه النهضة ما لبثت أن وقفت بانتهاء عصر محمد على وما يلحق به من حكم إبراهيم القصير ، فاتسم عصر عباس وسعيد بالانكماش فى النظام التعليمى

الحديث ، إلا أن التراث الذى خلفه عصر محمد على كان من القوة بحيث كون المادة التى ظل خلفاؤه من بعده يعملون عليها ، ومنها شكلوا ما وضعوا من نظم أو أنشأوا من منشآت ، وتظهر هذه الحقيقة أقوى ما تكون فى عصر عباس وسعيد ، فلا ترى إلا نشاطا محدوداً فى دائرة محدودة ، هى دائرة المدارس القليلة التى ظلت باقية فى ذلك العهد ، والأمر لا يعدو فتح مدرسة مفروزة أو إغلاق مدرسة الهندسة أو إعادة مدرسة أخرى للهندسة وهكذا ، فهو نشاط على ضيق الأفق محدود المعالم ، يلوح فيه ما يتميز به ذلك العهد من ضيق الأفق وقلة الانتاج .

كان عباس يمثل الأرستقراطية التركية بعقليتها (الاستعلائية) على أهل البلاد فكان قليل الاحتفال بالعقلية المصرية ، قليل الثقة بها ، راغبا عن بذل المال فى سبيلها ففى عهده ألغيت المكاتب الابتدائية ، وجمعت المدارس المدنية فى مؤسسة واحدة هى المهندسخانة ، كما جمعت المدارس الحربية فى مؤسسة واحدة هى المفروزة ، ووضعت للمدارس ميزانية ضئيلة .

أما سعيد فلم يكن من الكفاية واتساع الأفق وثبات التوجيه وشمول الدرس والقدرة على تألف الأعوان بحيث يستطيع أن يبنى خطة جديدة فضلا عن رسمها ، فجاءت مشروعاته سقيمة الوضع تعصف بها الأهواء من كل جانب ، وكان أشد اهتماما بمظاهر الأشياء منه بجوهرها ، ومن ذلك أنه فتن ببريق الحضارة الأوربية أما جوهرها فقد غفل عنه: العلم وانتظام الحكم وانبعاث القوى الكامنة ، وفى الوقت الذى ترى سعيد يغدق على المدارس والمؤسسات الأجنبية نراه يضن على المدارس المصرية بالنفقة التى تمكنها من البقاء ، وكما كان ينشىء المدارس متعجلا كان يهدمها متعجلا ، أنشأ المدرسة الحربية بالقلعة والمهندسخانة بالقلعة السعيدية (بالقناطر الخيرية) ثم ألغاهما ، وأصبح عدد تلاميذ مدرسة الطب فى عهده لا يزيد على ٢٥ تلميذاً .

حتى إذا تولى اسماعيل الحكم (١٨٦٣) دبت فى النظام التعليمى حياة جديدة ، كانت دعامة قوية للنهضة الشاملة التى شهدتها البلاد فى عهده . لولا أن جاءت الأزمة المالية — نتيجة لسفهه وتبذيره واختلال الادارة المالية وجشع الدائنين الأجانب ومن ورائهم الدول الاستعمارية الكبرى — فضيعت على مصر ثمرات النهضة القومية ، وأدت إلى تلك النكسة الكبرى : نكسة الاحتلال .

أعاد اسماعيل إنشاء ديوان المدارس وافتتحت المدارس الابتدائية والتجهيزية بالقاهرة والاسكندرية ، ونظمت المدارس الحربية وأنشئت مدارس لأركان الحرب والمهندسخانة ، والادارة لتخريج رجال القانون ، ودار العلوم لتخريج المعلمين ؛ واضطرد إرسال البعوث العلمية إلى أوربا ، وانتعشت حركة التأليف والترجمة . وصدرت الصحف الأهلية ، بعد أن كانت الصحـــافة مقصورة على جريدة (الوقائع المصرية) .

كما أن من أهم التطورات التي حدثت في ذلك العهد تحويل الأساس الذى كانت تقوم عليه الحياة المدرسية ، فإن الناس قد تفتحت للتعليم نفوسهم وصبت إليه أفئدتهم ، فكثر إقبالهم على مدارس الحكومة ، فتحولت من (ثكنات) يجمع فيها الصبية وتقوم الدولة عن أهليهم بكافة ما يتطلبه مقامهم بها من تعليم وكساء وغذاء و (مصروف) إلى معاهد للعلم يتردد عليها الصبية نهارا وينقلبون إلى أهليهم مساء ، بل ويؤدى القادرون منهم إلى الحكومة بعض ما تتكلفه لأبنائهم من نفقات التعليم والأدوات والكتب المدرسية . ولم يعد التعليم بذلك نشاطا حكوميا فقط ، وإنما أصبحت الأمة تشارك فيه باهتمامها وبعض معونتها .

وقد تأثر التعليم في الأزهر بالنهضة التعليمية العامة ، فقد بدأ الشعور بالحاجة إلى إصلاح مناهج التعليم بالأزهر وطرائقه ، عبر محمد عبده الطالب بالمسجد الأحمدى بطنطا (١٨٦٥) — وإن كان قوله لا يخلو من مبالغة المجدد — عن ملله من دروس ، مشايخ الاحتمالات ، وقال إنه ، ظل يكنس ذهنه وينظفه منها بضع سنين فلم ينظف تمام النظافة ، كما راح يلتمس العلوم الحديثة عند من يعرفها ، ثم تأثر الشيخ بدعوة السيد جمـــال الدين الأفغانى الاصلاحية وبطريقته الجديدة في قراءة الكتب القديمة أو الحديثة . وبدأ الشيخ محمد عبده وهو طالب بالأزهر ينشر في جريدة الأهرام (١٨٧٦) مقالات عالج فيها مسائل خطيرة كاصلاح اللغة العربية والدعوة إلى تدريس العلوم (العصرية) . ومضى محمد عبده بعد ذلك يدعو إلى إصلاح الأزهر حتى جعل منه رسالة حياته .

ونعى رفاعة بك على الأزهر إهماله تدريس ، العلوم الحكمية والعملية ، مع أنها علوم إسلامية نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية ولم تزل كتبها إلى الآن في خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة » .

وكان أكثر شيوخ الأزهر أنفسهم يؤمنون بضرورة إصلاح الأزهر، فوضع الشيخ مصطفى العروسى لذلك لائحة (١٨٦٦) لتنظيم أحوال الأزهر، علمائه وطلابه والكتب التى تقرأ فيه وامتحان طلابه على نحو يجعل الدراسة أكثر جدية وجدوى. ثم كان استصدار الشيخ محمد المهدى العباسى قانونا بامتحان المتصدرين للتدريس (١٨٧٢) أهم خطوة لإصلاح التدريس فى الأزهر فى ذلك العهد، «صونا للعلم عن الابتذال».

والنظام التعليمى فى عهد إسماعيل لم يعد مقصورا على بضع مدارس ابتدائية وتجهيزية وخصوصية، وإنما أصبحت السياسة التعليمية تهدف إلى غاية أسمى من ذلك، وهى إنشاء نظام قومى للتعليم فى مصر يستمد عناصره من كلا النظامين، الحديث الممثل فى مدارس الدولة، والقديم الممثل فى المكاتب الأهلية، ولهذه الغاية، صدرت لائحة رجب ١٢٨٤ (١٨٦٨)، ومضت الحكومة فى إصلاح وتنظيم المكاتب الأهلية لولا أن اشتداد الأزمة المالية بعد ١٨٧٥ قد غل يد الحكومة عن المضى فى هذا السبيل، وإذا كان عصر إسماعيل قد انتهى ولا تزال هذه الغاية — إنشاء نظام قومى للتعليم فى مصر — بعيدة فإن التجارب التى أجريت والمشروعات والبحوث التى وضعت والإحصاءات التى جمعت والخبرات التى اكتسبت، كل هذه كانت واضحة الأثر فى توضيح معالم الطريق وتمهيده لتلك الغاية السامية.

وقد بذلت أضخم محاولة لتأسيس نظام التعليم القومى فى مصر فى سنة ١٨٨٠ عندما شكل «قومسيون» لإعادة تنظيم التعليم، فوضع تقريرا مستفيضا عن تنظيم التعليم الابتدائى ونشره — وهو تعليم سواد الشعب — على أساس استخدام المكاتب الأهلية بعد تنظيمها وربطها بالنظام العام، كما أورد مقترحات عملية لرفع مستوى التعليم فى المدارس الاخرى.

وبدئ فى تنفيذ مقترحات القومسيون، حتى دهم البلاد الاحتلال البريطانى فأوقف النهضة التعليمية، ووضع للتعليم سياسة جديدة قائمة على التضييق والحصر والقصد فى الإنفاق.

* * *

ولقد كانت النهضة الاقتصادية والنهضة التعليمية والثقافية لمصر فى القرن التاسع عشر دعامة نهضتها السياسية.

بدأ القرن التاسع عشر ومصر جزء من العالم العثمانى الذى كان ينتظم أكثر أجزاء الشرق الأدنى ، وقد فشلت الحملة الفرنسية (١٧٩٨ — ١٨٠١) ، فى سلخ مصر عن الدولة العثمانية ، وما لبث الفرنسيون أن جلوا و تبعهم الانجليز (١٨٠٣) وحاول العثمانيون أن يستردوا مصر خالصة لهم ، معتمدين على القوات التى قادها إلى مصر الصدر الأعظم نفسه ، وهى — من حيث العدد والعدة — قوات لم تشهد مصر لها مثلا من قبل ، وعادوا يدلون على المصريين بأنهم خلصوهم من حكم الكفرة ، فلا أقل من أن يسلموا لهم فى أعراضهم و أرزاقهم بل و أرواحهم! ولكن الظروف التى كانت تجتازها مصر فى ذلك الوقت كانت أقوى من إرادة العثمانيين ، وما لبث أن قام من بين صفوف العسكرية العثمانية جنـــدى مغامر — هو محمد على — ولاه الشعب ثم أقره السلطان العثمانى ، ولكنه ما لبث أن سار فى حكم مصر على نهج خاص أدى به إلى الاصطدام بالسلطنة العثمانية ، ومن ثم إلى إضعاف السيطرة العثمانية على مصر ، وإلى انسلاخها — تدريجيا — عن الدولة العثمانية ، وتكوين شخصية مصر كدولة مصرية عربية ، والتمهيد بذلك للوضع السياسى الحديث لمصر .

تولى محمد على ولاية مصر فى ظروف داخلية ودولية مضطربة ، وقد أثبتت الأحداث التى سبقت ولايته والتى لحقتها أن مصر قد دخلت — طوعا أو كرها — فى نطاق التيارات الدولية ، وأن من العبث ردها إلى نطاق العزلة التى كانت قد فرضت عليها ، كما ظهر أن قوة السلطان وحدها لم تعد كافية للدفاع عن مصر ، فالسلطان لم يستطع استرداد مصر من فرنسا إلا بمعونة دولة أوروبية أخرى ، هى انجلترا ، كما وضح أن ضمان الدول الكبرى لسلامة الامبراطورية العثمانية لم يقف حائلا أمام الأطماع الأوروبية ، وهكذا ثبت فى يقين المصريين أنه لابد لهم من الاعتماد على أنفسهم ، وذلك ببناء قوة عسكرية حديثة ، تدعمها قوة المال والعلم الحديث . وليس من شك فى أن هذا يدعو إلى الأخذ بسياسة مصرية خالصة ، لا تستهدف إلا مصلحة مصر ، وقد تتمشى هذه السياسة المصرية مع السياسة العثمانية إن اتفقت بينهما المصالح ، وكثيرا ما اتفقت ، حين استخدمت السياسة العثمانية القوة المصرية لإخضاع الوهابيين وثوار اليونان ، وقد تنفرد السياسة المصرية بالعمل ، كما حدث عند

فتح الأقاليم السودانية ، وقد تتعارض السياستان المصرية والعثمانية ، فيؤدى ذلك إلى تصادم القوتين المصرية والعثمانية ، كما حدث فى حروب الشام .

يتضح من هذا أن القوة العسكرية الكبيرة التى تكونت فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر — على عهد محمد على — لم تقتصر على أغراض الدفاع ، وإنما تعدتها إلى إحياء العوامل الكامنة فى الملك العثمانى القائمة على حقائق الموقع الجغرافى والموارد المادية والمعنوية لشعوبه ، وإن ظلت أغراض الدفاع عن مصر نفسها هى الأساس ، فالحق أن الفتوح المصرية فى السودان وفى الشام لم يكن الغرض منها سوى تأمين مصر نفسها . على أن حركات التوسع هذه لم تأت اعتباطا ، فلم تكن لمجرد ضم أراضى وأقطار ، فلاشك فى أن الاتجاه إلى ضم الولايات العربية من الأمبراطورية العثمانية ، تحت حكم واحد مركزه القاهرة أمر له دلالته ، لم يتشبث محمد على بحكم المورة كما تشبث بحكم الولايات العربية ، ففى الجزيرة العربية لم يقنع بفتح الحجاز واستخلاص الحرمين الشريفين من أيدى الوهابيين ، وهى المهمة التى ندبه لها السلطان ، وإنما سعى إلى فتح الجزيرة العربية كلها إلا أنطارا فى الجنوب عند مدخل البحر الأحمر وأخرى فى الشرق على الخليج الفارسى ، ولم يمنعه من ضمها إلا تدخل انجلترا . ثم لما واتته الفرصة لضم ولايات الشام تحت حكمه لم يتردد . وبذلك يعود للشرق العربى وحدته السياسية لتقف سدا دون تحقيق الأطماع الأجنبية ، وهكذا اتضحت معالم السياسة الخارجية لمصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، لم يتصور محمد على مستقبل مصر السياسى كوحدة قائمة بنفسها ، ولكنه رسم ذلك المستقبل على أساس تكوين ملك مصرى عربى واسع ينتظم وحدات إقليمية يكمل بعضها بعضا ويشد بعضها إزر بعض فى مجالات التعاون العسكرى والاقتصادى والثقافى . واعتقد — بحق — أن خلق هذه الكتلة المصرية العربية فى ذلك الجزء من الشرق الأوسط — فى قلب العالم العثمانى — أقوى ضمان للمحافظة على سلامة هذه المنطقة من الأطماع الأوروبية التى بدأت تتجه إليها وتسعى إلى غزوها ، وللاحتفاظ ببلادها خالصة لأهلها ، حتى يتصرفوا إلى تعميرها وتنمية مواردها ، والاتصال بالعالم الخارجى على قدم المساواة ، مستغلين ماحبتهم به الطبيعة من مصادر الرزق والموقع الممتاز . وبذلك يعود إلى هذه المنطقة سابق ازدهارها ومكانتها فى ميدان السياسة العالمية والاقتصاد العالمى .

ولكن دون إتمام هذا البناء الكبير تقف عقبات كأداء ، فمصر نفسها وهذه الولايات العربية التي ينتظمها البناء ليست حرة فى أمور نفسها ، فكلها ولايات عثمانية ، وهى ـ بهذه الصفة ـ محرومة من أن ترسم لنفسها أو تمارس سياسة خارجية خاصة أو تصطنع الأداة لرسم هذه السياسة وتنفيذها ، وخاصة إذا كانت هذه السياسة ترمى إلى قلب ميزان القوة فى الشرق الأدنى ، وذلك باقامة ملك عربى كبير فى نطاق الامبراطورية العثمانية إن قبل السلطان ووزراؤه الاعتراف به وأفسحوا له مكانا فى نطاق الامبراطورية ، أو على رغم من السلطان ووزرائه إن أبوا الاعتراف به وأقاموا العراقيل فى سبيله .

ولكن السلطان العثمانى ـ محمود الثانى ومن بعده ولده عبد المجيد ـ رأى فى هذه السياسة المصرية العربية هدما للملة والدولة ، كبر عليه أن يشهد انسلاخ هذه الولايات الإسلامية من سيطرته ، وعز عليه أن تستخدم مصر قوتها العسكرية ـ وهى التى ينبغى أن تظل قوة عثمانية لتحقيق السياسة العثمانية والخطط العثمانية وحدها ـ لاضعاف الدولة بدلا من دعم بنائها . فنصب السلطان نفسه وسخر موارد بلاده ، بل إنه حالف خصومه ـ لتحطيم السياسة المصرية والعودة بمصر وبالولايات العربية الأخرى إلى نطاق حكمه المباشر فى حظيرة الامبراطورية .

وكانت الدول الأوربية الكبرى مستعدة للعمل لتأييد السلطان : فقد رأيت كيف دخلت هذه المنطقة فى دائرة الاهتمام الأوربى منذ أواخر القرن الثامن عشر ، لهذا مالبثت أن شهدت ميلاد هذه القوة الجديدة فى هذه المنطقة بكثير من القلق والحذر ، وعلى الرغم من أن هذه الفترة من التاريخ الأوربى ـ فترة الحروب النابليونية وصلح فينا وعهد المؤتمرات حتى ثورات ١٨٤٨ ـ كانت من أحفل عهود التاريخ الأوربى والأمريكى بالثورة والتغيير ، على الرغم من هذا أبت القوى الأوربية الكبرى أن تمتد الثورة والتغيير إلى تلك المنطقة من العالم ، ولم تشأ أن تنظر إلى حركة مصر (التحررية) فى القرن التاسع عشر ، على أنها حركة (قومية) كحركات اليونان والصرب والبلغار ومن إليهم من شعوب البلقان الخاضعين للحكم العثمانى . بل نظرت إلى حركة مصر التحررية على أنها أداة هدم للامبراطورية العثمانية ، ومن شأنها إيجاد حالة جديدة فى هذه المنطقة ، لم تستعد الدول الكبرى بعد لمواجهتها ، وتخشى إن هى واجهتها قبل أن تستعد لها ـ والاستعداد هنا معناه

الاتفاق على توزيع مناطق النفوذ كما سيحدث بعد — أن يقع النزاع بينها ، فيذهب السلام العالمى الذى حرصت أوربا على إقامته والمحافظة عليه بعد مؤتمر فينا (١٨١٥) .

وتزعمت انجلترا حركة المقاومة الأوربية للسياسة المصرية العربية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ووافقها حرص السياسة العثمانية على الاحتفاظ بالحالة الراهنة فى تلك المنطقة ، فاتفقت السياستان والقوتان العثمانية والانجليزية على هدم خطط مصر ورد القوة المصرية إلى داخل مصر نفسها والاحتفاظ بمصر وسائر الولايات العربية فى نطاق الامبراطورية العثمانية .

فى ظل (الحالة الراهنة) تستطيع بريطانيا الاطمئنان إلى سلامة مواصلاتها إلى الهند ، وهذا الاطمئنان كان أهم ما يعنى بريطانيا من منطقة الشرق الأوسط فى ذلك الوقت ، فى ظل تلك (الحالة الراهنة) تستطيع بريطانيا أن تؤسس لها على أطراف العالم العربى العثمانى قواعد لسفنها ومراكز رقابة على أبواب البحار الشرقية التى عادت الحياة تدب فيها ، ولكن بريطانيا وجدت فى هذه المناطق قوة جديدة ، هى القوة المصرية . والواقع أن بريطانيا لم تستول على عدن (١٨٣٩) ولم تشرع فى بسط نفوذها على الامارات والمشيخات العربية على الخليج الفارسى إلا بعد معارك خاضتها ضد الدبلوماسية المصرية وسباق مع القوة المصرية التى كانت قد وصلت فى تقدمها فى الجزيرة العربية إلى الخليج الفارسى وشرعت فى الاتصال بأمرائه وشيوخه العرب ، كما توغلت فى اليمن من ناحية أخرى وأشرفت أو كادت على مدخل البحر الأحمر وخليج عدن وفى هذا السباق مع الدبلوماسية المصرية والقوة المصرية فازت بريطانيا ، وشرعت فى بناء ما سمى بعد ذلك (بالمحميات) البريطانية فى الأطراف الشرقية والجنوبية من الجزيرة العربية .

وفى ظل (الحالة الراهنة) تستطيع بريطانيا أن تضمن فتح موانى مصر والولايات الأخرى التى ضمتها ومدنها للتجارة الانجليزية دون قيد أو عنت فى وقت بدأت الثورة الصناعية تؤتى ثمارها ، وكان ازدهارها يقتضى أن يتسق التوسع فى التصريف والتصدير مع التوسع فى الإنتاج ، بينما رأت انجلترا فى سياسة محمد على الاقتصادية القائمة على الحجر وتشجيع التوسع فى الإنتاج الصناعى فى مصر قيوداً على حرية تصريف منتوجاتها الصناعية فى الأسواق المصرية وأسواق البلاد التابعة لمصر . فعقدت مع السلطان — صاحب السيادة على تلك الولايات — معاهدة

تجارية (معاهدة بلطة ليمان ١٨٣٨) وتجرى أحكامها بفتح البلاد العثمانية كافة للتجارة الانجليزية فى حرية تامة . ولكن محمد على رأى فى تنفيذ هذه المعاهدة فورا هدما لكيان مصر الاقتصادى والعسكرى ، فتباطأ فى تنفيذها متعللا بأعذار شتى ، فكان ذلك من أهم العوامل التى دفعت السياسة الإنجليزية إلى تأليب مقاومتها للسياسة المصرية ، حتى لتصل إلى فرض الحصار وإثارة بعض العصبيات الاقليمية فى الشام وإنزال الجند على ساحل الشام وتزعم الدول الأوروبية الكبرى فى فرض معاهدة لندن ١٨٤٠ على مصر ، وهى المعاهدة التى كانت أساسا للتسوية النهائية التى اتخذت شكل فرمانات أصدرها السلطان لواليه على مصر (١٨٤١) .

وقد حددت تسوية ١٨٤٠ — ١٨٤١ وضع مصر السياسى قانونا حتى ١٩٢٣ بتنازل تركيا عن سيادتها على مصر فى معاهدة لوزان ، ولكنها حددته فعلا حتى سنة ١٨٨٢ بفرض بريطانيا احتلالها العسكرى على مصر .

حقا إن تسوية ١٨٤١ دفعت بالمستقبل السياسى لمصر خطوة إلى الأمام فى طريق الانسلاخ عن الامبراطورية العثمانية ، إذ جعلت من مصر ولاية (ممتازة) لايجرى عليها الحكم العثمانى المباشر ، فلا يتعاقب على ولايتها ولاة أو باشوات من رجال الادارة أو العسكرية العثمانية ترسلهم استانبول متى شاءت وتعزلهم متى شاءت ، فيظل الباشا فى ولايته معلقا برضا السلطان أو وزرائه أو حاشيته أو نسائه ، إنما أصبح لمصر ـ أو أقر لمصر ـ إدارة (وطنية) من مديرين ونظار من أبناء البلاد أو من (الأخلاط) الذين استقروا فيها واتخذوها لهم وطنا ، يعاونهم موظفون موزعون على المصالح المختلفة فى عاصمة البلاد وفى الأقاليم ، وفوق هذه الادارة الوطنية يقوم الوالى ، وقد قيد حق السلطان فى تعيينه وفى عزله ، فهو يختار من أسرة معينة ، هى أسرة محمد على ، وهو لابد أن يكون أرشد أعضاء الأسرة ، وللوالى حقوق معلومة فى الاستقلال بالادارة الداخلية لولايته دون تدخل من السلطان ووزرائه . وبذلك أقرت التسوية لمصر قدرا كبيرا من الاستقرار ، ومهدت لها الأساس لتبنى عليه ـ إن واتتها الظروف والإمكانيات ـ مصر المستقلة .

ولكن شتان بين هذا الوضع الذى فرضته تسوية ١٨٤١ على مصر والوضع الذى كانت تعمل له وبذلت لتحقيقه مابذلت من غالى التضحيات ، فتسوية ١٨٤١

احتفظت بمصر ولاية عثمانية ، وراحت تؤكد هذا المعنى فى كافة نصوصها ، فوالى مصر ليس إلا أحد وزراء السلطان ، وجيش مصر ليس إلا جزءا من جيش السلطان ، وعلى مصر أن ترسل قدرا معينا من المال فى كل سنة إلى خزينة السلطان ، والمعاهدات والاتفاقات التى تعقدها حكومة السلطان تسرى على مصر باعتبارها ولاية عثمانية .

وأشد من هذا خطورة على مستقبل مصر أن تسوية ١٨٤١ لم تكن فقط إجراءا داخليا بين السلطان وواليه على مصر ، وإنما كانت — فى الواقع — بمثابة تسوية دولية ، إذ أنها قد بنيت على معاهدة لندن بين انجلترا وروسيا وبروسيا والنمسا وتركيا . وما لبثت فرنسا أن لحقت الركب الدولى واعترفت بالتسوية . لهذا فان العلاقات المستقبلة بين مصر والدولة العثمانية لم تعد أمراً يعنى مصر والدولة العثمانية وحدهما ، وانما أصبحت أمراً يعنى الدول الأوروبية الكبرى أيضاً . وهى الدول التى أقامت من نفسها وصية على العلاقات المصرية العثمانية حتى لا تخرج أى منهما عن الطريق الذى رسمته التسوية . إن تسوية ١٨٤٠ لم تمنح مصر الاستقلال ،وهى كذلك لم تعدها ولاية عثمانية عادية . ومن هنا حلت هذه التسوية بذور النزاع والاضطراب فى العلاقات المصرية العثمانية فى المستقبل: فمصر فى عهد الخديويين — على ضعفهم وتخاذلهم بالنسبة لشخصية محمد على الجبارة — لم تن تعمل لبلوغ الاستقلال ، أو على الأقل للاستزادة من حقوق السيادة الداخلية ، ولكن هذا العصر — بالنسبة للدولة العثمانية — كان عصر « التنظيمات » ، عصر محاولة إحياء القوة العثمانية ، محاولة الدولة تقوية قبضتها على ولاياتها ومنها مصر ، فتعمل على العودة بمصر ولاية عادية ، معتمدة على المنافذ التى أوجدتها فرمانات ١٨٤١ . ولكن الدول الأوروبية الكبرى بحكم (الوصاية) التى هيأتها لها تلك التسوية كانت تبادر إلى التدخل كلما حاولت مصر أو تركيا أن تخرج على الطريق الذى رسم لها ، فترد مصر عن سعيها للاستقلال كلما همت بالسعى ، كما ترد تركيا عن سعيها لهدم الوضع الذى ناله مصر كولاية ممتازة . وبذلك اضطرت كل من مصر وتركيا إلى أن تهرع إلى الدول الأوروبية الكبرى تلتمس عندها النصح أو التأييد كلما ألمت بالعلاقات المصرية العثمانية أزمة من تلك الأزمات التى تكررت بين سنتى ١٨٤٠ و ١٨٨٢ .

ولكن الدول الأوروبية الكبرى — والعصر عصر التوسع العسكرى والمالى

والاقتصادى — لم تكن مستعدة أن تبذل النصح أو التأييد بدون مقابل ، لهذا كانت تلك الفترة من التاريخ المصرى (١٨٤٠ — ١٨٨٢) فترة التوسع فى الامتيازات الأجنبية ومنح الشركات الأجنبية امتيازات لمختلف الأعمال العامة فى مصر ، فترة شق قناة السويس والقروض الأجنبية ، وإنشاء المحاكم المختلطة وغيرها من المؤسسات الأجنبية فى مصر . وهكذا خدمت تسوية ١٨٤١ مصالح الدول الكبرى فى مصر والشرق الأدنى قبل أن تخدم مصالح مصر أو تركيا ، فقد أضعفت التسوية مصر ، قصّت قوتها العسكرية ، وقوتها الاقتصادية ، وفرضت عليها سياسة الانكماش ، وأخرجتها من الشرق العربى ، واطمأنت الدول الكبرى على (وصايتها) على العلاقات المصرية والعثمانية ، ومضت قدما فى ترويج مصالحها (الأمبراطورية) فى مصر .

وهكذا اضطرت مصر (الخديوية) (١٨٤٠ — ١٨٨٢) إلى المضى فى الطريق الذى رسمته لها تسوية ١٨٤٠ حتى غايته ، عاجزة عن تحقيق استقلالها إزاء تركيا ، وعاجزة — هى وتركيا — عن مدافعة الأطماع الاوربية فى شتى صورها ، حتى كانت النهاية المحتومة والمشئومة لهذا الطريق : الاحتلال البريطانى لمصر .

والحق إن مصر قد حاولت ما وسعها الجهد وواتتها الظروف والإمكانيات أن تتجنب هذه النهاية المشئومة ، وبذلت لذلك جهودا رائعة ، حتى فى الوقت الذى تولى أمرها ولاة ضعاف ، من ذلك مقاومة الوالى عباس الأول (١٨٤٨ — ١٨٥٤) لسياسة الدولة العثمانية فى تطبيق التنظيمات فى مصر ، وحرصه على الاحتفاظ بالحقوق التى كسبتها مصر فى فرمانات ١٨٤١ . ومن ذلك أيضا حرص خلفه الوالى محمد سعيد (١٨٥٤ — ١٨٦٣) على تلك الحقوق ، وإن كان كل من الواليين قد اضطر فى هذا السبيل إلى السعى لكسب تأييد إحدى الدول الأوربية الكبرى ، فكان عليه أن يبذل لها الثمن . أخذ عباس جانب السياسة البريطانية ، فأعرض عن مشروع قناة السويس ومنح شركة انجليزية امتياز العمل لمد خط حديدى بين الإسكندرية والقاهرة تمهيدا لمده إلى السويس ، ثم جاء سعيد فأخذ جانب السياسة الفرنسية ، ومنح فرديناند دى لسبس امتياز حفر القناة . وشهد تاريخ مصر فى عهدهما معركة دبلوماسية بين السياستين الفرنسية والانجليزية

وعملاء كل من الدولتين فى القاهرة واستانبول ، وخرجت مصر من هذه المعركة التى فرضت عليها فرضا ، لم تكسب شيئا ، بل خسرت أشياء ! وفى سبيل مقاومة السيطرة العثمانية استبدل ولاة مصر بسيادة السلطان سيطرة القناصل .

ثم جاء وقت — هو عصر إسماعيل قبل أن تجرفه موجة الاستدانة وما صحبها من التخبط المالى والسياسى — بدا فيه أن مصر قد عادت سيرتها الأولى من البهاء والعظمة ، حين عادت النهضة العمرانية والثقافية فاستقامت ، واستردت مصر قوتها العسكرية والاقتصادية ، ونبذت سياسة الانكماش ، فاصطنعت — مرة أخرى — لها سياسة خارجية خاصة ، وعادت إلى التوسع ، ولكن فى ميدان جديد . فإن تسوية ١٨٤١ قد أخرجت مصر من الشرق العربى وقطعت بذلك ما بين المصريين وسائر العرب دهرا طويلا ، ووجهت تاريخ مصر — لفترة طويلة حقا — وجهة (مصرية) فقط ، إلى أن عادت أمور مصر وسائر البلاد العربية إلى أبنائها أخيرا بعد طول كفاح ، فعاد الشمل فالتأم ، وعاد طريق النهضة العربية فاستقام .

ولكن تسوية ١٨٤١ أبقت لمصر ميدانا آخر : هو ميدان السودان وقد حرصت عليه مصر كل الحرص ، وما لبثت مصر أن وجدت فى الميدان الأفريقى متنفسا لنشاطها فأوغلت فيه ، وبذلت فيه من ذات نفسها ، حتى سطرت فى تاريخه سطورا لاتمحى ، لاتزال بعض آثارها ماثلة حتى اليوم . فإذا كان النصف الأول من القرن التاسع عشر قد شهد مصر عاملا أساسياً فى سياسة الشرق الأدنى . فان النصف الثانى من ذلك القرن سيشهدها عاملا أساسيا فى السياسة الأفريقية .

والحق إن سياسة التوسع المصرى فى أفريقية فى عهد إسماعيل جاءت فى وقتها : فإن حركات الزحف الأوربى كانت قد بدأت من أطراف القارة وسواحلها إلى المناطق الداخلية . وتكاتف المكتشف الأوربى والجندى الأوربى والقس الأوربى لتنفيذ خطط التوسع العسكرى والاقتصادى باقتسام القارة (السوداء) إلى مناطق احتلال أو نفوذ ، وبدا أن السودان نفسه — إن لم تبادر مصر إلى توطيد سيطرتها عليه وحمايته من أطرافه — سيلقى نفس المصير الذى انحدرت إليه أكثر أجزاء القارة . عملت مصر أولا على إتمام تكوين الوحدة السودانية ، فضمت نهائياً موانى البحر الأحمر وخاصة سواكن ومصوع ، وضمت دارفور ، ومديرية خط الاستواء . وبذلك أنقذت السودان — حتى اليوم — من عوامل التفكك الداخلى ، وحفظت له وحدته الجغرافية ، كما أنقذته من عوامل التربص

الخارجي . وجنبته — حتى بعد أن وقع تحت وطأة الحكم الإنجليزى فى عهد الحكم الثانى — جنبته المصير الذى انحدرت إليه المستعمرات الافريقية من حوله ، وبذلك شيدت مصر الأساس الذى تقوم عليه « دولة » السودان اليوم .

ولم تقصر مصر جهدها على السودان ، فإن الأحداث التى كانت تجرى سريعة من حوله كانت جديرة بأن تحفز مصر إلى العمل ، وبدا الأمر سباقا بين مصر ، تساندها قوة الإسلام والعروبة على سواحل البحر الأحمر وشرق أفريقية وبين زحف الاستعمار الأوربى ، وكانت مصر أينما توجهت تلقاه أمامها يقطع عليها الطريق ويثير أمامها شتى العقبات ، ويتربص بها فى كل مكان — وفى مصر نفسها — الدوائر . وهو يقدر أن الوقت سيجيء بعد قليل — فينهار البناء ، بناء الإمبراطورية المصرية الأفريقية ، وحينئذ يتقدم الاستعمار الأوربى ليضع يده على الإرث المصرى ، بعد أن تكون مصر قد بذلت ما بذلت لتمهد له الأرض وتضع الأساس .

وصح ما توقعه الاستعمار الأوربى وعمل له ، وصح عجز مصر نفسها عن الخروج من حدود الطريق الذى رسمته لها تسويه ١٨٤١ حتى وصلت إلى الهوة التى كان يعدها الاستعمار الأوربى لها فى نهاية الطريق . لقد حاولت مصر — فى عهد إسماعيل — ان تأخذ بأسباب النهضة العصرية فى شتى صورها ، وأن تصطنع لنفسها سياسة خارجية خاصة ، وأن تستعيد خطط المجد العسكرى والتوسع الجغرافى ، حاولت مصر أن تظهر للعالم رائدة للحضارة والنور فى قلب القارة المظلمة ، حاولت مصر هذا كله ، وفى سبيل هذه المحاولة ، وفى لهفتها على تحقيق أملها فى أن تكون دولة عظمى فى ذلك الركن من الشرق الأوسط ، بذلت مصر من مالها ودماء أبنائها ، بل ومن كرامتها ، فتحملت مظالم الحاكم ، واستهتاره وعجز حكومته وتخبطها ، كما تحملت تدخل الأجنبى الدخيل واستعلاءه . ولكن الاستعمار الأوربى فى قسوته لم ير مصر الناهضة القوية إلا عقبة فى طريق زحفه المطرد بل غدت نظرته إليها اليوم أشد وأقسى من نظرته إليها فى سنة ١٨٤٠ ، فهو اليوم عازم على تحطيم البناء كله ووراثة الإرث كله . ولكن مصر فى سنة ١٨٨١ وعوامل الشر كلها فى مصر نفسها وفى السودان وممتلكاتها الأفريقية تتربص لها — لم تلق السلاح ، بل حاولت محاولتها الكبرى ، بل ثورتها الكبرى ، لتتجنب الهوة التى كانت موشكة أن تتردى فيها وقد أصبحت منها قاب قوسين أو أدنى .

قدر المصريون أن مصدر الداء الوبيل الذى أصابهم هو استفحال التدخل الأوربى فى شتى شئونهم الداخلية من سياسية ومالية واقتصادية ، كما قدروا أن حكومتهم بتخبطها وعجزها وتخاذلها قد أصبحت عليهم لا لهم ، وقدروا أيضاً أن تسوية ١٨٤١ قد استنفدت — أو كادت — أغراضها ، وأن السلطان قد أصبح أعجز من أن يقاوم الأطماع الأوربية فى ولاياته ، قدر المصريون هذا كله فى أواخر حكم اسماعيل وأوائل حكم توفيق فعزموا على أن يأخذوا الأمر كله بين أيديهم ، فتكون أمورهم خالصة لهم ، لا لسلطان متخاذل ، أو وال عاجز ، أو مستعمر غاشم .

وكان من ذلك حركة الجيش التى تزعمها الضابط المصرى أحمد عرابى ، وهى الحركة التى ما لبثت أن تحولت إلى ثورة عسكرية وطنية ، لجاءت تعبيراً قويا عن شعور المصريين فى أواخر حكم إسماعيل وأوائل حكم توفيق . وقد اتخذت الثورة أولا شكل المطالبة بالدستور ، ولكن المطالبة بالدستور لم تكن غاية فى ذاتها ، وإنما كانت وسيلة للغاية الكبرى ، وهى وقف التدخل الأجنبى عن طريق هيمنة المصريين على أداة الحكم . لهذا اضطرت الثورة إلى المحاربة فى ميدانين : حاربت الحكم المطلق ، وحاربت التدخل الأجنبى . وليس من شك فى أن أهم سبب لإخفاق الثورة أن الجبهة الداخلية لم تكن متماسكة ، بل كان بعضها يكيد للبعض الآخر ، وفشل أحمد عرابى فى تأمين الجبهة الداخلية ، فلما نزلت النازلة وقف الشعب والجيش فى ناحية ، ووقفت الحكومة وعلى رأسها الخديوى توفيق فى الناحية الأخرى .

أما عبد الحميد الثانى — سلطان تركيا فى ذلك الوقت — فكان لا ينتظر منه وهو الحاكم المستبد الذى عصف بالدستور فى بلاده وحكم البلاد حكما مطلقا حتى خلعته عن عرشه ثورة عسكرية — كان لا ينتظر من عبد الحميد أن يؤيد فى إحدى ولاياته ثورة عسكرية تطالب بالدستور ، ويعلن تأييده لها فى العلن ، على الرغم مما يبدو من أن هذه الثورة كانت الأمل الأخير فى إنقاذ البلاد من براثن الاستعمار الأوربى . حاول السلطان فى أول الأمر — أن يمسك الميزان بين الجانبين ، ثم مالبث هو الآخر أن شجب الثورة ورجالها ، وأطلق خصوم الثورة منشوراته فى جو مصر تندد بأحمد عرابى وتتهمه بالخيانة .

وهكذا تم فى سنة ١٨٨٢ ما بدأه الاستعمار الأوربى لمصر فى سنة ١٨٤٠

ووضح أن تسوية ١٨٤٠ قد مهدت الطريق لكارثة ١٨٨٢ ، وذلك بتحديدها قوة مصر العسكرية والاقتصادية ، فمست بذلك نهضة مصر فى القرن التاسع عشر فى صميمها ، وفرضها الوصاية الأجنبية على العلاقات المصرية العثمانية ، وإفساحها المجال واسعاً للتدخل الأوربى فى شتى صوره . وهكذا تسنى لانجلترا — وهى صاحبة سياسة ١٨٤٠ وزعيمة التألب الأوربى على مصر فى ذلك الوقت — أن تجنى فى ١٨٨٢ ثمار ماغرسته فى ١٨٤٠ .

* * *

لقد حققت نهضة مصر فى القرن التاسع عشر أشياء كثيرة فى حدود قيود القرن التاسع عشر وإمكانياته ، ولكنها عجزت عن تحقيق أشياء كثيرة أخرى وانتهى البذل والتضحية بمأساة كبرى هى الاحتلال البريطانى . حتى إذا عادت أمور المصريين لهم — بعدسنة ١٩٢٢ — ولو فى ظاهر الأمر — عاد المصريون إلى البناء من جديد ، ولكن العقبات كانت كثيرة ، وكان الطريق محفوفاً بالأشواك ومن هنا قامت ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ لتكمل البناء ، فتزيح العقبات التى استعصت وفى مقدمتها الاحتلال والاستغلال — وتشق الطريق لمستقبل أفضل ، فتصل بذلك بين حاضر مصر وماضيها المجيد .

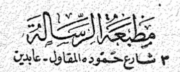
استدراك

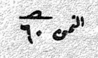
وقعت أثناء الطبع بعض الأخطاء نستدرك أهمها فيما يلى :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣	١٥	استوكهولم	استوكهولم	٢٠١	٢٦	التى	الذين
١٠	٢٢	تمتر	تمتز	٢٠٦	١	والجنوبيين	والجنويين
١٩	١١	التوية	التوبة			والفلورنسين	والفلورنسيين
٢١	٢	إلتقا	التقى	٢١٥	٢٢	ازداءت	ازدادت
٢٢	٢٠	حتى	متى	٢١٩	٢٨	Aleyandria	Alexandria
٢٥	١٧	انعطشت	اغطشت	٢٢٧	١٢	حلات	حلات
٢٦	٢	لحكم	الحكم	٢٣٥	١٢	فى	من
٢٩	٢٢	والمندسية	والمندسة	٢٣٧	١١	ما فلمت	ما فعلت
٣١	٩	الدكتون	الدكتور	٢٤٥	٢٢	الدرقى	الدرزى
٣٥	٢٠	شوطىء	شواطىء	٢٤٨	٨	العربية	العربى
٣٦	١	شوطىء	شواطىء	٢٤٩	٢٥	جمها	جعلها
٣٩	١٦	عشون	المشى	٢٥٣	١٩	ثمرتها	ثمرتها
٤١	١١	الرجال	الرجل	٢٦٩	٢	تهى	تهىء
٤٤	٤	يتقف	يتثقف	٢٧١	٥	البالغ	البالغ عددهم
٥١	٩	الماك	الممالك	٢٧٩	٢٤	دراجة	دارجة
٥٢	١٢	ما لمحفوظ	المحفوظ	٢٨٨	٤	التى	اللذان
٦٢	١٣	قرانين	قوانين	٢٩١	٣	تملن	تعلنه
٦٤	١٣	وأديباتهم	وأدبياتهم	٢٩٩	١١	ترجع	تراجع
٨٣	١٢	الدول	الدولة	٣٠٥	١٩	طفن	طفق
٨٧	٤	قيم	فيهم	٣٠٨	١٩	وغبة	وغبته
٩٥	٢٢	الارادة	الإدارة	٣١٦	٢٣	بين الملك	بيد الملك
١١٢	٨	التى	الذين	٣١٨	١٠	الحالمى	الخالصى
١١٣	١٧	وبعد أن أخنورد	وبعد أخذ ورد	٣١٨	١٩	المتبينة	المتينة
١١٨	١٣	ورثية	وراثية	٣٣٠	٢٦	المثل	للمثل
١٢٢	١	بأفضية	بأفضلية	٣٣٧	٥	يدوامون	يداومون
١٢٤	٢١	شخيصا	شخصيا	٣٤٩	٩	ربع	أربع
١٣٢	٧	وهى	وها	٣٥٧	٧	ومن يكن	ومن لم يكن
١٣٤	١٩	التى	الذين	٣٧٥	١١	الدولى	البدوى
١٣٦	٩	الثلاثة	الثلاث	٣٧٥	١٤	والانتكاسية	والإقطاعية
١٤١	١١	اذا	إذ	٣٨٣	٢٥	يتحرجوا	لم يتحرجوا
١٧٨	١٢	بعرفة	بمعرفة	٣٩٦	١١	تنفض	تنفيض

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤٠٥	٥	جادت	جاءت
٤٠٧	٨	وكما	ولما
٤٢٢	٩	الطائم	القمائم
٤٢٤	٥	هذه الفوضى	هذا الفوض
٤٢٥	٢٥	فيتناولها	فيتناولها إلى
٤٤٠	٦	سبيها	سبيلها
٤٤٦	٢٢	حدث	أحدث
٤٧٩	٢٠	الشركش	الشركس
٤٨٢	٢١	ونبوغم	ونبوغهم
٤٩٦	٤	وكان	وكاد
٥٠٤	٢٣	لى حراء	إلى إجراء
٥٠٥	١١	المشوقة	المنشود
٥٠٧	٤	لجلاءهم	لجلائهم
٥١٤	١١	وتمتقه	وتمتته
٥٣٤	٨	بمن	ممن
٥٣٥	٢٤	عليه	عليهم
٥٤٠	٢٣	المصريين	المصريون

مطبعة الرسالة
شارع حمودة المناول ٣ عابدين


مطبعة الرسالة
٣ شارع حموده المقاول - عابدين


الثمن ٦٠